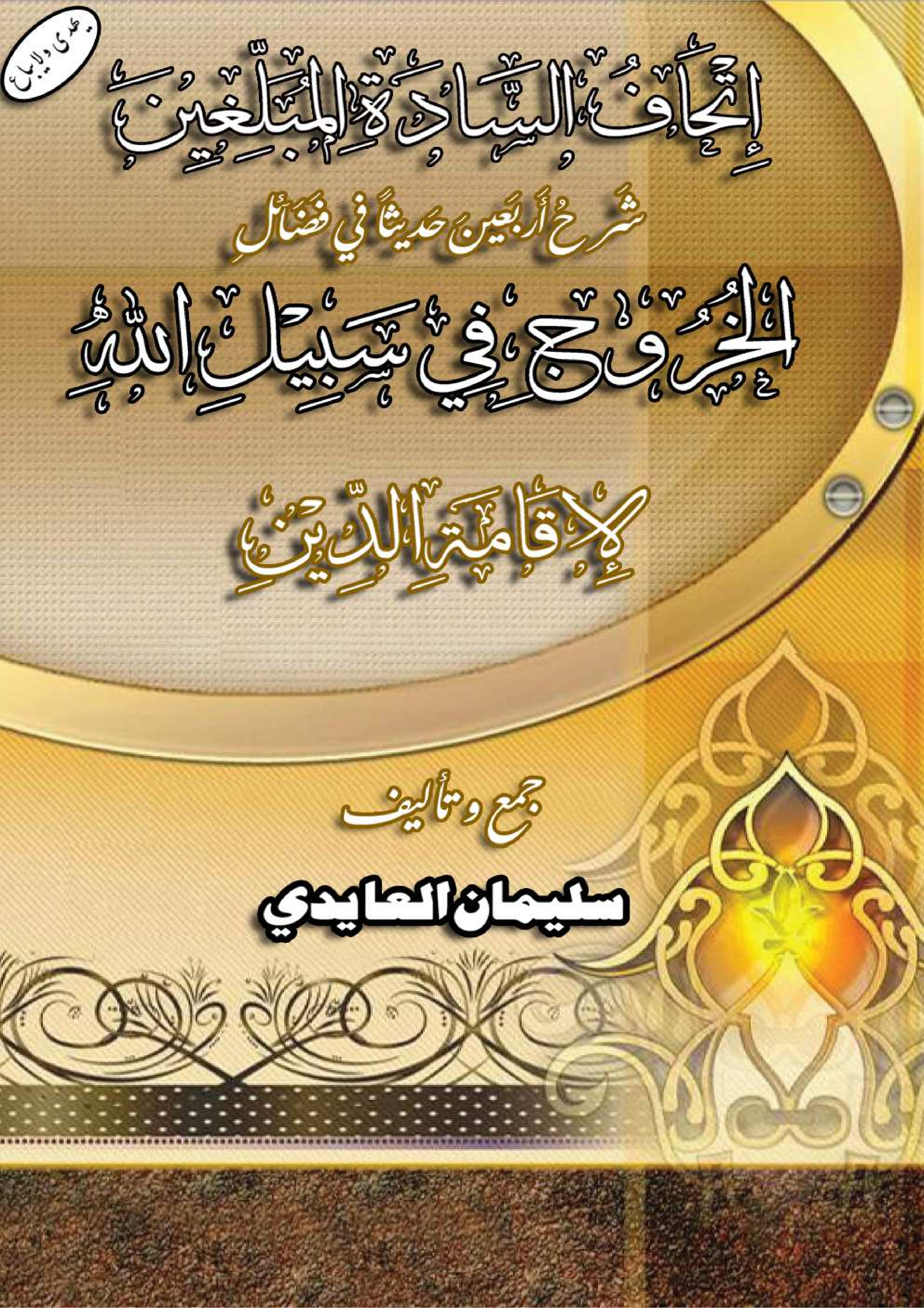

يهدى ولا يباع
إتحاف السادة المبلغين
شرح أربعين حديثاً في فضائل
الخروج في سبيل الله
لإقامة الدين
جمع وتأليف
سليمان العايدي

إتحاف السادة المبلغين

شرح أربعين حديثاً في فضائل

الخروج في سبيل الله

لإقامة الدين

الأردن - عمان - سحاب

ت/ ٠٠٩٦٢٧٨٨٤٤٣٩٢٣

١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م

الطبعة الثانية

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(٢٠١٣/٢/٤٠١)

إِتْحَافُ السَّادَةِ الْمُبَلِّغِينَ

شَرحُ أَربَعِينَ حَدِيثاً فِي فَضَائِلِ الْخُرُوجِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِإِقَامَةِ الدِّينِ

جمع وتأليف

سليمان العايدي



بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي سَهَّلَ لِعِبَادِهِ الْمُتَّقِيْنَ إلى مَرْضَاتِهِ سَبِيْلاً، وَأَوْضَحَ لَهُمْ طُرُقَ الْهِدَايَةِ وَجَعَلَ أَتْبَاعَ الرَّسُولِ عَلَيهَا دَلِيْلاً، وَاتَّخَذَهُمْ عَبِيْداً لَهُ فَأَقَرُّوا لَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُوْنِهِ وَكِيْلاً، وَكَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيْمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بُرُوحٍ مِنْهُ لَمَّا رَضُوا بِاللهِ رَبّاً وَبِالإِسْلامِ دِيْنَاً وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً، وَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَقَامَ فِي أَزْمِنَةِ الْفَتَرَاتِ مَنْ يَكُونُ بِبَيَانِ سُنَنِ الْمُرْسَلِيْنَ كَفِيْلاً، وَاخْتَصَّ هَذِهِ الأُمَّةَ بِأَنَّهُ لا تَزَالُ فِيْهَا طَائِفَةٌ عَلَى الْحَقِّ لا يَضُرُّهُم مَنْ خَذَلَهُمْ وَلا مَنْ خَالَفَهُم حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُهُ وَلَو اجْتَمَعَ الثَّقَلانِ عَلَى حَرْبِهِمْ قَبِيْلاً، يَدْعُونَ مَنْ ضَلَّ إلى الْهُدَى، وَيَصْبِرُونَ مِنْهُم عَلَى الأَذَى، وَيُبَصِّرُونَ بِنُورِ اللهِ أَهْلَ الْعَمَى، وَيُحْيُونَ بِكِتَابِهِ الْمَوْتَى، فَهُمْ أَحْسَنُ النَّاسِ هَدْياً وَأَقْوَمُهُم قِيْلاً، فَكَمْ مِنْ قَتِيْلٍ لإِبْلِيْسَ قَدْ أَحْيَوْهُ، وَمِنْ ضَالٍّ جَاهِلٍ لا يَعْلَمُ طَرِيْقَ رُشْدِهِ هَدَوْهُ، وَمِنْ مُبْتَدِعٍ فِيْ دِيْنِ اللهِ بِشُهُبِ الْحَقِّ قَدْ رَمَوْهُ، جِهَاداً فِيْ اللهِ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ، وَبَيَاناً لِحُجَجِهِ عَلَى الْعَالَمِيْنَ وَبَيِّنَاتِهِ، وَطَلَباً لِلزُّلْفى لَدَيْهِ وَنَيْلِ رِضْوَانِهِ وَجَنَّاتِهِ .

أَحْمَدُهُ وَهُوَ الْمَحْمُودُ عَلَى كُلِّ مَا قَدَّرَهُ وَارْتَضَاهُ؛ وَأَسْتَعِيْنُهُ اسْتِعَانَةَ مَنْ يَعْلَمُ أَنْ لا رَبَّ لَهُ غَيْرُهُ وَلا إِلَهَ سِوَاهُ؛ وَأَسْتَهْدِيْهِ سَبِيْلَ الَّذِينَ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ مِمَّن اخْتَارَهُ لِقَبُولِ الْحَقِّ وَارْتَضَاه؛ وَأَشْكُرُهُ وَالشُّكْرُ كَفِيْلٌ بِالْمَزِيْدِ مِنْ عَطَايَاه؛ وَأَسْتَغْفِرُهُ مِنَ الذُّنُوبِ الَّتِي تَحُولُ بَيْنَ القَلْبِ وَهُدَاه؛ وَأَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَسَيِّئَاتِ عَمَلِي اسْتِعَاذَةَ عَبْدٍ فَارٍّ إلى رَبِّهِ بِذُنُوبِهِ وَخَطَايَاه؛ وَأَعْتَصِمُ بِهِ مِنَ الأَهْوَاءِ الْمُرْدِيَةِ وَالْبِدَعِ الْمُضِلَّةِ، فَمَا خَابَ مَنْ أَصْبَحَ بِهِ مُعْتَصِماً وَنَزِيْلاً بِحِمَاه؛ وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً أَشْهَدُ بِهَا مَعَ الشَّاهِدِين، وَأَتَحَمَّلُهَا عَنِ الْجَاحِدِين، وَأَدَّخِرُهَا عِنْدَ اللهِ لِيَوْمِ الدِّين؛ وَأَشْهَدُ أَنَّ الْحَلالَ مَا حَلَّلَهُ، وَالْحَرَامَ مَا حَرَّمَهُ، وَالدِّينَ مَا شَرَعَهُ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيْهَا، وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ؛ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ الْمُصْطَفَى، وَنَبِيُّهُ الْمُرْتَضَى، وَرَسُولُهُ الْمُجْتَبَى، الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ، الَّذِي لا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوْحَى،

أَرْسَلَهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِيْنَ، وَمَحَجَّةً لِلسَّالِكِيْنَ، وَحُجَّةً عَلَى الْعِبَادِ أَجْمَعِينَ، أَرْسَلَهُ عَلَى حِيْنِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، فَهَدَى بِهِ إلى أَقْوَمِ الطُّرُقِ وَأَوْضَحِ السُّبُلِ، وَافْتَرَضَ عَلَى الْعِبَادِ طَاعَتَهُ وَتَعْظِيْمَهُ وَتَوْقِيْرَهُ وَتَبْجِيْلَهُ، فَشَرَحَ لَهُ صَدْرَهُ، وَرَفَعَ لَهُ ذِكْرَهُ، وَعَلَّمَ بِهِ مِنَ الْجَهَالَةِ، وَبَصَّرَ بِهِ مِنَ الْعَمَى، وَأَرْشَدَ بِهِ مِنَ الْغَيِّ، وَفَتَحَ بِهِ أَعْيُناً عُمْياً، وَآذَاناً صُمّاً، وقُلُوباً غُلْفاً، فَلَمْ يَزَلْ ﷺ قَائِماً بِأَمْرِ الله لا يَرُدُّهُ عَنْهُ رَادٌّ، وَدَاعِياً إلى الله لا يَصُدُّهُ عَنْهُ صَادٌّ، إلى أَنْ أَشْرَقَتْ بِرِسَالَتِهِ الأَرْضُ بَعْدَ ظُلُمَاتِهَا، وَتَأَلَّفَتِ الْقُلُوبُ بَعْدَ شَتَاتِهَا، وَسَارَتْ دَعْوَتُهُ سَيْرَ الشَّمْسِ فِي أَقْطَارِهَا، وَبَلَغَ دِيْنُهُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، فَلَمَّا أَكْمَلَ اللهُ بِهِ الدِّيْنَ، وَأَتَّم بِهِ النِّعْمَةَ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، اسْتَأْثَرَ بِهِ وَنَقَلَهُ إلى الرَّفِيْقِ الأَعْلَى مِنْ كَرَامَتِهِ، وَالْمَحَلِّ الأَرْفَعِ الأَسْنَى مِنْ أَعْلَى جَنَّاتِه، فَفَارَقَ الأُمَّةَ وَقَدْ تَرَكَهَا عَلَى الْمَحَجَّةِ الْبَيْضَاءِ، لا يَزِيْغُ عَنْهَا إلاَّ مَنْ كَانَ مِنَ الْهَالِكِين، فَصَلِّ اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ، وَعَلَى أَصْحَابِهِ الْغُرِّ الْمَيَامِين، صَلاَةً دَائِمَةً بِدَوَامِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، مُقِيمَةً عَلَيْهِمْ أَبَداً إلى يَوْمِ الدِّيْنِ [1]؛ أَمَّا بَعْدُ :

فَإِنَّ عِمَادَ حَيَاةِ الأُمَّةِ الإِسْلامِيَّةِ وَالْقُطْبَ الأَعْظَمَ الَّذِي يَدُورُ حَوْلَ نَشَاطِهَا وَحَيَاتِهَا وَجِدِّهَا وَكِفَاحِهَا هُوَ الدَّعْوَةُ إلى الله وَتَبْلِيْغُ أَحْكَامِهِ وَرِسَالاتِهِ، وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَكَانَ هَذَا الْعَمَلُ بَيْنَ أَعْمَالِ الأُمَّةِ وَأَخْلاقِهَا وَسِمَاتِهَا- وَهِيَ كَثِيْرَةٌ ومُهِمَّةٌ - هُوَ الْمَكَانَ الرَّئِيْسِيَّ وَالأَسَاسِيَّ، فَهِيَ الْغَايَةُ الَّتِي خُلِقَتْ لأَجْلِهَا وَبُعِثَتْ لِمَصْلَحَتِهَا، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران:١١٠]، وَقَدْ فَتَحَتْ هَذِهِ الآيَةُ الْكَرِيْمَةُ نَافِذَةً عَظِيْمَةً مُنِيْرَةً كَانَتْ مَسْدُودَةً فِي مَعْرِفَةِ طَبَائِعِ الأُمَمِ، وَالاِطِّلاعِ عَلَى مَزِيَّةِ هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَيْنِ شُعُوبِ الْعَالَمِ، وَأَثَارَتْ عِلْماً دَفِيْناً، وَكَنْزاً مَطْمُوراً، وَأَحْدَثَتِ انْقِلاباً فِي النَّظْرَةِ إلى هَذِهِ الأُمَّةِ وَمَرْكَزِهَا وَقِيْمَتِهَا، وَهُوَ أَنَّ ظُهُورَ هَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى مِنَصَّةِ الْعَالَمِ وَمَسْرَحِ التَّارِيْخِ وَالأُمَمِ لَمْ يَكُنْ مُجَرَّدَ ظُهُورِ مَجْمُوعَةٍ بَشَرِيَّةٍ أَوْ كُتْلَةٍ إِنْسَانِيَّةٍ، وَلَمْ تَكُنْ مَوْجَةً مِنْ مَوْجَاتِ الْبَشَرِيَّةِ الْكَثِيْرَةِ، إِنَّهُ لَيْسَ خُرُوجاً كَخُرُوجِ سَائِرِ الأُمَمِ، إِنَّمَا هُوَ إِخْرَاجٌ تُسَيْطِرُ

(١) «مقدمة مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/١١-١٢) باختصار وتصرف يسيرين .

عَلَيْهِ الْحِكْمَةُ الإِلَهِيَّةُ، وَثَمَرَةُ إِرَادَةِ اللَّهِ الْقَاهِرِ، إِنَّمَا هُوَ تَغْيِيرٌ لَمْ يُسْتَخْدَمْ إِلاَّ فِي قَضَايَا الأَنْبِيَاءِ الْمُكْرَمِيْنَ وَعِبَادِ اللَّهِ الْمُرْسَلِيْنَ، وَإِنْ كَانَ يُفَسَّرُ بِشَيْءٍ فَإِنَّهُ يُفَسَّرُ بِلَفْظِ الإِرْسَالِ وَالْبِعْثَةِ، وَقَدْ جَاءَ الْحَدِيْثُ الصَّحِيْحُ يُفَسِّرُهُ، فَقَدْ صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ مُخَاطِباً أَصْحَابَهُ: " **إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِيْنَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِيْنَ**" (١)، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَعْرَفَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِخَطَرِ هَذَا التَّعْبِيْرِ وَقِيْمَتِهِ، وَاخْتِصَاصِهِ بِالأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِيْنَ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ فِي شَأْنِ الأَنْبِيَاءِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيْرَةٍ يَصْعُبُ اسْتِقْصَاؤُهَا، وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَكَلَّمُ جُزَافاً وَيُرْسِلُ الْكَلامَ عَلَى عَوَاهِنِهِ، إِنَّمَا كَانَ يَزِنُ الْكَلامَ وَزْناً، وَقَدْ كَانَ كَلامُهُ فَصْلاً، لا فُضُولَ فِيْهِ وَلا تَقْصِيْرَ، وَلا إِطْرَاءَ ولا مُبَالَغَةَ، فَدَلَّ كُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ هِيَ مَقْصُودَةٌ مُهَيَّأَةٌ مَأْمُورَةٌ مُنْبَعِثَةٌ، وَقَدْ طَابَ لِذَلِكَ وَسَاغَ لأَحَدِ رُسُلِ الْمُسْلِمِيْنَ الَّذِي اخْتَارَهُ الصَّحَابِيُّ الْجَلِيْلُ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ لِيَكُونَ تَرْجُمَاناً لِلإِسْلامِ وَالْمُسْلِمِينَ أَنْ يَقُولَ فِي مَجْلِسِ مَلِكِ الْفُرْسِ: " **اللَّهُ ابْتَعَثَنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ النَّاسِ إِلى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَمِنْ ضِيْقِ الدُّنْيَا إِلى سَعَةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمِنْ جَوْرِ الأَدْيَانِ إِلى عَدْلِ الإِسْلامِ.**" (٢)، وَذَلِكَ كُلُّهُ لأَنَّ اللَّهَ ﷻ قَلَّدَ هَذِهِ الأُمَّةَ نِيَابَةَ نَبِيِّهَا الْخَاتَمِ فِي تَبْلِيغِ آخِرِ الأَدْيَانِ وَخَاتِمَةِ الرِّسَالاتِ، وَهَكَذَا رَبَطَ مَصِيْرَ الإِنْسَانِيَّةِ بِهَا، فَبَقَاءُ الإِنْسَانِيَّةِ بِبَقَاءِ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَبَقَاءُ هَذِهِ الأُمَّةِ بِبَقَاءِ هَذِهِ الصِّفَةِ الدَّعَوِيَّةِ وَالْمَرْكَزِ الإِبْلاغِيِّ وَبِمُحَافَظَتِهَا عَلَى فَرِيْضَتِهَا الأَسَاسِيَّةِ وَنَشَاطِهَا فِي مَجَالِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ وَتَبْلِيغِ رِسَالاتِهِ الَّتِي حَمَلَتْهَا عَنْ نَبِيِّهَا ﷺ، فَإِذَا فَقَدَتْ هَذِهِ الصِّفَةَ، وَأَصْبَحَتْ مَغْمُورَةً مَطْمُورَةً، ضَاعَتْ هَذِهِ الأُمَّةُ وَتَحَلَّلَتْ، وَأَشْرَفَتِ الدُّنْيَا كُلُّهَا عَلَى خَطَرٍ، وَتَعَرَّضَتِ الإِنْسَانِيَّةُ لِلتَّلَفِ، وَصَارَتِ الْمَدَنِيَّةُ كُلُّهَا جِسْماً بِلا رُوْحٍ وَلَفْظاً بِلا مَعْنَى .

وَقَدِ اسْتَقَامَتْ هَذِهِ الأُمَّةُ وَسَارَتْ سَيْرَهَا الطَّبِيْعِيَّ، وَاسْتَقَامَتِ الأُمُورُ، وَسَلِمَتِ الْبَشَرِيَّةُ مَا دَامَتْ هَذِهِ الأُمَّةُ مُحَافِظَةً عَلَى غَايَتِهَا وَرِسَالاتِهَا، قَوِيَّةً نَشِيْطَةً فِي أَمْرِ الدَّعْوَةِ إِلى

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة برقم (٢٢٠) و(٦١٢٨) .

(٢) «تاريخ الطبري» (٣/٥١٨) و«البداية والنهاية» لابن كثير (٧/٣٩) .

اللَّهِ، وَالْحِسْبَةِ عَلَى النَّاسِ وَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، تَبْذُلُ فِي سَبِيْلِ ذَلِكَ أَمْوَالَهَا وَتُضَحِّي بِكُلِّ غَالٍ وَنَفِيْسٍ لإِعْلاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ، وَكَانَ إِخْلالُهَا بِهَذَا الْوَاجِبِ وَتَقْوِيْضُهَا لِهَذَا الرُّكْنِ الرَّكِيْنِ ثَوْرَةً عَلَى طَبِيْعَتِهَا، وَانْحِرَافاً عَنْ جَادَّتِهَا، وَجِنَايَةً عَلَى الْبَشَرِيَّةِ جَمْعَاءَ، تَبِعَتْهَا أَمْرَاضٌ وَعِلَلٌ وَاخْتِلالٌ وَاضْطِرَابَاتٌ يُشَاهِدُهَا الإِنْسَانُ، يَذُوقُ سُمُومَهَا فِي كُلِّ مَجَالٍ مِنْ مَجَالاتِ الْحَيَاةِ، وفِي كُلِّ مُجْتَمَعٍ مِنَ الْمُجْتَمَعَاتِ الْبَشَرِيَّةِ، وَلا سَبِيْلَ إِلى إِعَادَةِ الأُمُورِ إِلى نِصَابِهَا وَدُخُولِ الْبُيُوتِ مِنْ أَبْوَابِهَا إِلاَّ بِعَوْدَةِ هَذِهِ الأُمَّةِ إِلى أَدَاءِ وَاجِبِهَا، وَإِلى سِيْرَتِهَا الأُوْلَى مِنْ أَمْرِ الدَّعْوَةِ إِلى اللَّهِ، وَتَبْلِيْغِ رِسَالاتِ اللَّهِ، وَالْقِيَامِ بِالْقِسْطِ وَالشَّهَادَةِ لله، والحِسْبَةِ عَلَى الأَخْلاقِ وَالأَعْمَالِ، وَالتَّعَاوُنِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَالتَّوَاصِي بِالْحَقِّ وَالصَّبْرِ، وَقَدْ قَيَّضَ اللَّهُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ فِي كُلِّ دَوْرٍ مَنْ أَدْوَارِ حَيَاتِهَا وَفِي كُلِّ رُقْعَةٍ مِنْ رِقَاعِ الْعَالَمِ الإِسْلامِيِّ رِجَالاً يَدْعُونَ إِلى إِحْيَاءِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ وَالتَّمَسُّكِ بِهَذِهِ الفَرِيْضَةِ، وَعَوْدَةِ هَذِهِ الأُمَّةِ إِلى نَشَاطِهَا السَّابِقِ وَكِفَاحِهَا الأَوَّلِ، تَذْكُرُ بِفَضْلِهِمْ هَذِهِ الأُمَّةُ دَرْسَهَا الْمَنْسِيَّ، وَتَعُودُ إِلى عَمَلِهَا الْمَهْجُورِ، وَتَدُبُّ فِيْهَا حَيَاةٌ جَدِيْدَةٌ وَنَشَاطٌ جَدِيْدٌ، وَقَدْ جَدَّدَ اللَّهُ بِهِمْ أَمْرَ الدَّعْوَةِ إِلى اللَّهِ، فَحُبِّبَتْ إِلى النُّفُوسِ، وَهَانَتْ عَلَيْهَا الرَّحَلاتُ فِي سَبِيْلِهَا، وَرُكُوبُ الْبِحَارِ وَالتَّحْلِيقُ فِي الأَجْوَاءِ وَتَجَشُّمُ الْمَصَاعِبِ وَكَثْرَتِهَا، وَالإِنْفَاقُ فِي مَصْلَحَتِهَا، وَكَانَ لِلدَّعْوَةِ نَفَاقٌ وَرَوَاجٌ، وذُيُوعٌ وشُيُوعٌ لَمْ يُشَاهَدْ مِنْ عَهدٍ بَعِيْدٍ .

وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ تَقُومُ عَلَى الإِيْمَانِ وَالاِحْتِسَابِ فِي طَمَعٍ فِي الأَجْرِ وَالثَّوَابِ، وَالْحِرْصِ عَلَى اتِّبَاعِ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِيْنَ، وَتَقْلِيْدِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِيْنَ بِإِحْسَانٍ وَيَقِيْنٍ[1] فِي خُرُوجِهِمْ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ لِتَبْلِيْغِ رِسَالاتِ اللَّهِ وَالرَّحْمَةِ عَلَى خَلْقِهِ، فَقَدْ قُمْتُ بِعَونِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ بِجَمْعِ أَرْبَعِيْنَ حَدِيْثاً فِي فَضَائِلِ الْخُرُوجِ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ ﷻ لإِعْلاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ وَإِقَامَةِ دِينِهِ، وَمَا يُقَامُ فِيْهِ مِنْ أَعْمَالٍ، وَمَا يُصِيْبُ الْقَائِمِيْنَ بِهِ مِنْ أَحْوَالٍ، ومَا وُعِدَ عَلَيْهِ مِنْ عَظِيْمِ الأَجْرِ وجَزِيْلِ الثَّوَابِ، وَمَا نُقِلَ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِيْنَ، وَالسَّلَفِ الصَّالِحِيْنَ، وَالْعُلَمَاءِ الرَّبَّانِيِّيْنَ، وَالرِّجَالِ الْمُوَفَّقِيْنَ مِنْ تَنَافُسٍ وَتَسَابُقٍ، وَعُلُوِّ هِمَّةٍ وَقُوَّةِ نَفَسٍ،

---

(١) من مقدمة العلاَّمة أبي الحسن الندوي لكتاب «فضائل الدعوة إلى اللَّهِ » للعلاَّمة محمد زكريا الكاندهلوي .

وَبُعْدِ نَظَرٍ فِي إِقَامَةِ هَذَا الرُّكْنِ وَإِحْيَاءِ هَذِهِ السُّنَّةِ، حَيْثُ رُوِيَ عَنْ عِدَّةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مِنْ عِدَّةِ طُرُقٍ بِرِوَايَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "**مَنْ حَفِظَ عَلَى أُمَّتِي أَرْبَعِيْنَ حَدِيْثاً مِنْ أَمْرِ دِيْنِهَا بَعَثَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي زُمْرَةِ الْفُقَهَاءِ وَالْعُلَمَاءِ.**" [١]، وَقَدِ اتَّفَقَ الْحُفَّاظُ عَلَى ضَعْفِ هَذَا الْحَدِيْثِ وَإِنْ كَثُرَتْ طُرُقُهُ؛ وَقَدْ صَنَّفَ الْعُلَمَاءُ ﭫ فِي هَذَا الْبَابِ كَثِيْراً مِنَ الْمُصَنَّفَاتِ فِي كَثِيْرٍ مِنْ أُصُولِ الدِّيْنِ وَفُرُوعِهِ، وَلَيْسَ اعْتِمَادِيْ عَلَى هَذَا الْحَدِيْثِ، بَلْ عَلَى قَوْلِهِ ﷺ فِي الأَحَادِيْثِ الصَّحِيْحَةِ:" **لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ.**" [٢]، وقَولِهِ ﷺ:" **نَضَّرَ اللهُ امْرَءاً سَمِعَ مَقَالَتِيْ فَوَعَاهَا فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا** " [٣] .

ثُمَّ قُمْتُ بِشَرْحِ هَذِهِ الأَحَادِيثِ مُعْتَمِداً فِي ذَلِكَ عَلَى الشُّرُوحِ الْمُعْتَمَدَةِ لِلْعُلَمَاءِ، وأَتْبَعْتُ كُلَّ حَدِيثٍ بِفَائِدَةٍ لَهَا عَلاقَةٌ بِمَضْمُونِهِ، مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيهِ الْقَائِمُونَ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الْبَصَائِرِ الْمُهِمَّةِ فِي قِيَامِهِمْ بِجُهْدِ سَيِّدِ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ﷺ .

وَاللهُ ﷻ الْمَسْؤُولُ الْمَرْغُوبُ إِلَيْهِ الْمَأْمُولُ أَنْ يَجْعَلَهُ خَالِصاً لِوَجْهِهِ الْكَرِيْمِ، وَأَنْ يُعِيْذَنَا مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، وَأَنْ يُوَفِّقَنَا لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، إِنَّهُ قَرِيْبٌ مُجِيْبٌ؛ وَعَلَى اللهِ اعْتِمَادِيْ، وَإِلَيْهِ تَفْوِيْضِيْ وَاسْتِنَادِيْ، وَلَهُ الْحَمْدُ وَالنِّعْمَةُ، وَبِهِ التَّوْفِيْقُ وَالْعِصْمَةُ.

سليمان زهدي العايدي "أبو يحيى"

٠٠٩٦٢٧٨٨٤٤٣٩٢٣

*****

(١) لم يصح هذا الحديث مع كثرة طرقه وشهرته، قال ابن الجوزي في «العلل المتناهية» بعد أن جمع طرقه: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ (١/١١٩). وانظر «كشف الخفاء» للعجلوني (٢٤٦٥) .

(٢) سيأتي تخريجه .

(٣) سيأتي تخريجه .



باب
فضل الخروج
في سبيل اللّه

الحَدِيْثُ الأَوَّلُ

عَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " **تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لا يُخرِجُهُ إلاَّ جِهَاداً [١] فِي سَبِيلِي وَإِيْمَاناً بِي، وَتَصْدِيقاً بِرَسُولِي، فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ أُرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنهُ نَائِلاً مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ**" [٢].

قوله ﷺ (**تَضَمَّنَ اللَّهُ**) وفي رِوايَةٍ أُخرَى (**تَكَفَّلَ اللَّهُ**)، ومَعْنَاهُمَا أَوْجَبَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ ؛ وهَذَا الضَّمَانُ والْكَفَالَةُ مُوَافِقٌ لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ** ﴾ **[التوبة: ١١١]**، وعَبَّرَ بِلَفْظِ الضَّمَانِ والكَفَالَةِ لِمَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ الْمُخَاطَبِينَ مِنْ طُمَأْنِينَةِ نُفُوسِهِم لِذَلِكَ .

قوله (**لا يُخْرِجُهُ إلاَّ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَإِيْمَاناً بِي، وَتَصْدِيقاً بِرَسُولِي**) مَعْنَاهُ لا يُخْرِجُهُ إلاَّ مَحْضُ الإِيْمَانِ بالله والإِخْلاصِ لَهُ، وإِرَادَةُ إِعْلاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وفِيهِ حَضٌّ عَلَى تَخْلِيصِ النِّيَّةِ مِنَ الشَّوَائِبِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وأَنْ تَكُونَ النِّيَّةُ مِنَ الْخُرُوجِ إِعْلاءَ كَلِمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَإِحْيَاءَ دِينِهِ ونَشْرَ أَحْكَامِهِ .

والجِهَادُ لُغَةً: الْمُبَالَغَةُ وَاسْتِفْرَاغُ مَا فِي الْوُسْعِ وَالطَّاقَةِ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ، وقَدْ تَكَرَّرَ لَفْظُ الْجُهْدِ والْجَهْدِ فِي الْحَدِيثِ كَثِيراً، وهُوَ بالضَّمِّ الوُسْعُ وَالطَّاقَةُ، وبِالْفَتْحِ الْمَشَقَّةُ. فَمِنَ الْمُضْمُومِ حَدِيْثُ " **أَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟ قال: "جُهْدُ الْمُقِلِّ"** أَيْ مَا يَتَحَمَّلُهُ حَالُ الْقَلِيْلِ الْمَالِ، ومِنَ الْمَفْتُوحِ حَدِيثُ الدُّعَاءِ: "**أَعُوذُ بِكَ مِنْ جَهْدِ الْبَلاءِ.**" أَيِ الْحَالَةِ الشَّاقَّةِ [٣] .

---

(١) قال النووي: قوله ﷺ "**لا يُخْرِجهُ إلاَّ جِهَادًا فِي سَبِيلي**" هَكَذَا هُوَ فِي جَمِيع النُّسَخ " **جِهَادًا** " بِالنَّصْبِ ، وَكَذَا قَالَ بَعْده" **وَإِيْمَانًا بِي وَتَصْدِيقًا** " وَهُوَ مَنْصُوبٌ عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ لَهُ وَتَقْدِيره : لا يُخْرِجُهُ الْمُخْرِجُ وَيُحَرِّكُهُ الْمُحَرِّكُ إلاَّ لِلْجِهَادِ وَالإِيْمَان وَالتَّصْدِيق . «شرح مسلم للنووي» (١٣/٢٤) .

(٢) رواه البخاري برقم (٣٦) ومسلم واللفظ له برقم (٤٨٣٦) .

(٣) «النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير (١/٨٤٨) .

وقَالَ الحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ الْعَسْقَلانيُّ رَحِمَهُ اللهُ: "الْجهادُ بكَسْرِ الْجيم أَصْلُهُ لُغَةً الْمَشَقَّةُ ، يُقَالُ : جَهَدْتُ جهادًا بَلَغْتُ الْمَشَقَّةَ . وَشَرْعًا بَذْلُ الْجُهْدِ فِي قِتَال الْكُفَّار ، وَيُطْلَقُ أَيْضًا عَلَى مُجَاهَدَةِ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ وَالْفُسَّاقِ . فَأَمَّا **مُجَاهَدَةُ النَّفْس** فَعَلَى تَعَلُّم أُمُورِ الدِّين، ثُمَّ عَلَى الْعَمَل بهَا، ثُمَّ عَلَى تَعْلِيمهَا، وَأَمَّا **مُجَاهَدَةُ الشَّيْطَان** فَعَلَى دَفْعِ مَا يَأْتِي بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ، وَمَا يُزَيِّنُهُ مِنْ الشَّهَوَاتِ ، وَأَمَّا **مُجَاهَدَةُ الْكُفَّار** فَتَقَعُ بِالْيَدِ وَالْمَالِ وَاللِّسَانِ وَالْقَلْبِ، وَأَمَّا **مُجَاهَدَةُ الْفُسَّاق** فَبِالْيَدِ ثُمَّ اللِّسَانِ ثُمَّ الْقَلْبِ " [(١)] .

قوله (**فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ**) ذَكَرُوا في " **ضَامِنٌ** " هَذَا وَجْهَيْنِ، **أَحَدُهُمَا**: أَنَّهُ بِمَعْنَى مَضْمُونٍ، كَمَاءٍ دَافِقٍ أَيْ مَدْفُوق، **وَالثَّانِي** بِمَعْنَى ذُوْ ضَمَانٍ [(٢)] .

قوله (**أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ**) يَحْتَمِلُ أَنْ يُدْخَلَ الْجَنَّةَ عِنْدَ مَوْتِهِ، كَمَا فِي الحَدِيثِ **"أَرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ فِي الْجَنَّةِ"**، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ دُخُولَ الْجَنَّةِ عِنْدَ دُخُولِ السَّابِقِينَ بِلا حِسَابٍ وَلا عَذَابٍ [(٣)] .

قوله (**نَائِلاً مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ**) أَيْ مَعَ أَجْرٍ خَالِصٍ إِنْ لَمْ يَغْنَمْ شَيْئاً، أَوْ مَعَ غَنِيْمَةٍ خَالِصَةٍ مَعَهَا أَجْرٌ، وَكَأَنَّهُ سَكَتَ عَنِ الأَجْرِ الثَّانِي الَّذِي مَعَ الْغَنِيْمَةِ وَإِنْ كَانَ حَاصِلاً، وذَلِكَ لِنَقْصِهِ بالنِّسْبَةِ إِلَى الَّذِيْ بلا غَنِيْمَةٍ، كَمَا قَالَ ﷺ : " **مَا مِنْ غَازِيَةٍ أَوْ سَرِيَّةٍ تَغْزُو، فَتَغْنَمُ وَتَسْلَمُ إِلاَّ كَانُوا قَدْ تَعَجَّلُوا ثُلُثَيْ أُجُورِهِمْ، وَمَا مِنْ غَازِيَةٍ أَوْ سَرِيَّةٍ تُخْفِقُ وَتُصَابُ إِلاَّ تَمَّ أُجُورُهُمْ** " [(٤)] .

---

(١) «فتح الباري شرح صحيح البخاري» للحافظ ابن حجر العسقلاني (٦/٥) .

(٢) «شرح صحيح مسلم للنووي» (١٣/ ٢٤) .

(٣) المصدر السابق .

(٤) رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو برقم (١٩٠٦) .

مَعْنَى الْحَدِيْثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ

يُبَيِّنُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ تَكَفَّلَ لِمَنْ يَخْرُجُ فِيْ سَبِيْلِهِ لا يُرِيْدُ إلاَّ إعْلاءَ كَلِمَتِهِ وَإِظْهَارَ دِيْنِهِ وَالذَّبَّ عَنْ حِمَى الإِسْلامِ وَالْمُسْلِمِينَ بِنِيَّةٍ خَالِصَةٍ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ عِنْدَ مَوْتِهِ، وَذَلِكَ بِجَعْلِ قَبْرِهِ رَوْضَةً مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، أَوْ بِأَنْ يَجْعَلَ رُوحَهُ فِيْهَا، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ "**أَرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ فِي الْجَنَّةِ** "، وكَذَلِكَ يُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ يومَ الْقِيَامَةِ مَعَ السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ، وَقَبْلَ ذَلِكَ يَرْجِعُ مَأْجُوراً عَلَى خُرُوجِهِ وجِهَادِهِ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِنْ لَمْ يَمُتْ، تَحَصَّلَ عَلَى غَنِيمَةٍ أَوْ لَمْ يَتَحَصَّلْ .

قَالَ الحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : الْمُرَادُ بِكَلِمَةِ اللَّهِ دَعْوَةُ اللَّهِ إِلَى الإِسْلامِ [(١)] .

فَائِـــــــدَة

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ:" لَمَّا كَانَ الْجِهَادُ ذِرْوَةَ سَنَامِ الإِسْلامِ وَقُبَّتَهُ، وَمَنَازِلُ أَهْلِهِ أَعْلَى الْمَنَازِلِ فِي الْجَنَّةِ، كَمَا لَهُمُ الرِّفْعَةُ فِي الدُّنْيَا فَهُمُ الأَعْلَوْنَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الذِّرْوَةِ الْعُلْيَا مِنْهُ، وَاسْتَوْلَى عَلَى أَنْوَاعِهِ كُلِّهَا، فَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ بِالْقَلْبِ وَالْجَنَانِ، وَالدَّعْوَةِ وَالْبَيَانِ، وَالسَّيْفِ وَالسِّنَانِ، وكَانَتْ سَاعَاتُهُ مَوْقُوفَةً عَلَى الْجِهَادِ بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَلِهَذَا كَانَ أَرْفَعَ الْعَالَمِينَ ذِكْرًا، وَأَعْظَمَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ قَدْرًا .

وَأَمَرَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْجِهَادِ مِنْ حِينِ بَعَثَهُ، وَقَالَ: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝٥١ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الْفُرْقَانُ : ٥٢] فَهَذِهِ سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ أَمَرَ فِيهَا بِجِهَادِ الْكُفَّارِ بِالْحُجَّةِ وَالْبَيَانِ وَتَبْلِيغِ الْقُرْآنِ، وكَذَلِكَ جِهَادُ الْمُنَافِقِينَ إِنَّمَا هُوَ بِتَبْلِيغِ الْحُجَّةِ، وَإِلاَّ فَهُمْ تَحْتَ قَهْرِ أَهْلِ الإِسْلامِ، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التَّوْبَةُ: ٧٣] .

(١) «فتح الباري» (٦/٣٦) .

فَجِهَادُ الْمُنَافِقِينَ أَصْعَبُ مِنْ جِهَادِ الْكُفَّارِ، وَهُوَ جِهَادُ خَوَاصِّ الأُمَّةِ وَوَرَثَةِ الرُّسُلِ، وَالْقَائِمُونَ بِهِ أَفْرَادٌ فِي الْعَالَمِ، وَالْمُشَارِكُونَ فِيهِ وَالْمُعَاوِنُونَ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانُوا هُمُ الأَقَلِّينَ عَدَدًا، فَهُمُ الأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللَّهِ قَدْرًا .

وَلَمَّا كَانَ مِنْ أَفْضَلِ الْجِهَادِ قَوْلُ الْحَقِّ مَعَ شِدَّةِ الْمُعَارِضِ مِثْلَ أَنْ تَتَكَلَّمَ بِهِ عِنْدَ مَنْ تَخَافُ سَطْوَتَهُ وَأَذَاهُ، كَانَ لِلرُّسُلِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَسَلامُهُ - مِنْ ذَلِكَ الْحَظُّ الأَوْفَرُ، وَكَانَ لِنَبِيِّنَا ﷺ مِنْ ذَلِكَ أَكْمَلُ الْجِهَادِ وَأَتَمُّهُ " [١] .

وقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ :" لا رَيْبَ أَنَّ الأَمْرَ بِالْجِهَادِ الْمُطْلَقِ - أَيْ مَا يَعُمُّ الْجِهَادَ باليَدِ واللِّسَانِ وغَيْرِهِ - إِنَّمَا كَانَ بَعْدَ الْهِجْرَةِ، فَأَمَّا جِهَادُ الْحُجَّةِ فأُمِرَ به في مَكَّةَ بقوله: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ **[الفرقان: ٥٢]**، فَهَذِهِ سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ، وَالجِهَادُ فِيهَا هُوَ التَّبْلِيْغُ وجهادُ الْحُجَّةِ، وأَمَّا الجِهَادُ الْمَأْمُورُ به في سُورَةِ الْحَجِّ فَيَدْخُلُ فِيهِ الجِهَادُ بِالسَّيْفِ " [٢] .

قُلتُ: قَوْلُهُ" **فَيَدْخُلُ فِيْهِ الجِهَادُ بالسَّيف** "، يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لَفظَ الجِهَادِ إِذَا أُطْلِقَ أُريدَ بِهِ مَا كَانَ عَلَيْهِ فِي مَكَّةَ مِنَ التَّبْلِيْغِ لأَوَامِرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَى الْمُخَالِفِينَ، بالإِضَافَةِ إِلَى مَا أُمِرَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ فِي الْمَدِينَةِ مِنَ اسْتِعْمَالِ السَّيْفِ، لأَنَّ الْمَقْصَدَ مِنْهُمَا وَاحِدٌ، وهُوَ إِقَامَةُ دِيْنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وإِعْلاءُ كَلِمَتِهِ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ **[البقرة: ١٩٣]**، فَهَذَا الحَدِيث وأَمْثَالُهُ مِمَّا يُرَغِّبُ الشَّارِعُ فِيهِ بالجِهَادِ في سَبِيلِ اللَّهِ يَدْخُلُ فِيهِ الجِهَادُ الْمَكِّيُّ، وهُوَ جِهَادُ التَّبْلِيغِ وَالدَّعْوَةِ وإِقَامَةِ الْحُجَّةِ باللِّسَانِ، كَمَا يَدْخُلُ الْجِهَادُ الْمَدَنِيُّ، وهُوَ جِهَادُ التَّبْلِيغِ وَالدَّعْوَةِ بالسَّيْفِ وَالسِّنَانِ .

---

(١) «زاد المعاد في هدي خير العباد» (٣/٣) .

(٢) المصدر السابق (٣/ ٥٢) .

لِذَلِكَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْمُرُ أُمَرَاءَ الْجُيُوشِ أَنْ يَتَأَلَّفُوا النَّاسَ، وأَنْ لا يُغِيرُوا عَلَيهِم حَتَّى يَدْعُوهُم إلى الله ﷻ، ثُمَّ يَقُولُ: " **فَمَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ، إلاَّ أَنْ تَأْتُونِي بِهِمْ مُسْلِمِينَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَأْتُونِي بِنِسَائِهِمْ وَأَوْلادِهِمْ، وَتَقْتُلُوا رِجَالَهُمْ** "(١)، وحِيْنَمَا قَالُوْا لَهُ: ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِيْنَ، قَالَ ﷺ: " **إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّاناً، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً** " (٢)؛ ولَمَّا حَاصَرَ ﷺ أَهْلَ الطَّائِفِ جَاءَهُ أَصْحَابُهُ، فَقَالُوا: يَا رَسُولُ الله ! أَحْرَقَتْنَا نِبَالُ ثَقِيفٍ ! فَادْعُ الله عَلَيْهِمْ . فَقَالَ ﷺ: "**اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا** " (٣) .

وعَلَى هَذَا فَالجِهَادُ بِالسَّيْفِ إِنَّمَا شُرِعَ لِفَتْحِ الطَّرِيْقِ أَمَامَ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ وإِزَالَةِ الْعَوَائِقِ مِنْ طَرِيْقِهَا، ولَيْسَ مَقْصُوداً لِذَاتِهِ، فَالجِهَادُ كَمَا يَكُونُ بِالسَّيْفِ والسِّنَانِ، كَذَلِكَ يَكُونُ بِالْحُجَّةِ وَاللِّسَانِ، وهُوَ التَّبْلِيغُ لأَوَامِرِ الله ﷻ وإِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَى الْمُخَالِفِينَ؛ وعَلَى هَذَا فَمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيْلِ الله، لا يُرِيْدُ إِلاَّ جِهَاداً فِي سَبِيْلِ الله لإِعْلاءِ كَلِمَةِ الله، سَوَاءٌ كَانَ الجِهَادُ بِالْمَالِ أَوِ بِالنَّفْسِ أَوِ بِاللِّسَانِ، فَإِنَّهُ يَتَحَصَّلُ عَلَى هَذِهِ الْفَضِيْلَةِ بِإِذْنِ الله، وذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيْهِ مَنْ يَشَاءُ .

وقَالَ الإِمَامُ ابْنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللهُ:" فَمَعْلُومٌ أَنَّ الْجِهَادَ مِنْهُ مَا يَكُونُ بِالْقِتَالِ بِالْيَدِ، ومِنْهُ مَا يَكُونُ بِالْحُجَّةِ وَالْبَيَانِ وَالدَّعْوَةِ، قَالَ الله ﷻ: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الْفُرْقَانُ : ٥٢]؛ فَأَمَرَهُ الله ﷻ أَنْ يُجَاهِدَ الْكُفَّارَ بِالْقُرْآنِ جِهَاداً كَبِيراً، وهَذِهِ السُّورَةُ مَكِّيَّةٌ، نَزَلَتْ بِمَكَّةَ قَبْلَ أَنْ يُهَاجِرَ النَّبِيُّ ﷺ وقَبْلَ أَنْ يُؤْمَرَ بِالْقِتَالِ، ولَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وإِنَّمَا كَانَ هَذَا الْجِهَادُ بِالْعِلْمِ وَالْقَلْبِ وَالْبَيَانِ وَالدَّعْوَةِ لا بِالْقِتَالِ، .. وأَبُو بَكْرٍ وعُمَرُ رضي الله عنهما مُقَدَّمَانِ فِي أَنْوَاعِ الْجِهَادِ غَيْرِ قِتَالِ الْبَدَنِ .

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» عن عبد الرحمن بن عائذ (٧٠٥٧) و(٧٠٥٨) .

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة رقم (٢٥٩٩) .

(٣) رواه أحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله (١٤٧٠٢) والترمذي في سننه (٣٩٤٢) وقال: حديث حسن صحيح غريب .

قَالَ أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ حَزْمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: .. الْجِهَادُ يَنْقَسِمُ أَقْسَاماً ثَلاثَةً: **أَحَدُهَا** الدُّعَاءُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِاللِّسَانِ؛ **وَالثَّانِي** الْجِهَادُ عِنْدَ الْحَرْبِ بِالرَّأْيِ وَالتَّدْبِيرِ؛ **وَالثَّالِثُ** الْجِهَادُ بِالْيَدِ فِي الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ؛ فَوَجَدْنَا الْجِهَادَ بِاللِّسَانِ لا يَلْحَقُ فِيهِ أَحَدٌ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ أَبَا بَكْرٍ وَلا عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَمَّا أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَإِنَّ أَكَابِرَ الصَّحَابَةِ أَسْلَمُوا عَلَى يَدَيْهِ، فَهَذَا أَفْضَلُ عَمَلٍ، .. وأَمَّا عُمَرُ فَإِنَّهُ مِنْ يومِ أَسْلَمَ عَزَّ الإِسْلامُ، وعُبِدَ اللَّهُ عَلانِيَةً، وهَذَا أَعْظَمُ الْجِهَادِ، وقَدِ انْفَرَدَ هَذَانِ الرَّجُلانِ بِهَذَيْنِ الْجِهَادَيْنِ اللَّذَيْنِ لا نَظِيرَ لَهُمَا ..

وبَقِيَ الْقِسْمُ الثَّانِي، وهُوَ الرَّأْيُ وَالْمَشُورَةُ، فَوَجَدْنَاهُ خَالِصاً لأَبِي بَكْرٍ ثُمَّ لِعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ وبَقِيَ الْقِسْمُ الثَّالِثُ، وهُوَ الطَّعْنُ وَالضَّرْبُ وَالْمُبَارَزَةُ، فَوَجَدْنَاهُ أَقَلَّ مَرَاتِبِ الْجِهَادِ بِبُرْهَانٍ ضَرُورِيٍّ، وهُوَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لا شَكَّ عِنْدَ كُلِّ مُسْلِمٍ فِي أَنَّهُ الْمَخْصُوصُ بِكُلِّ فَضِيلَةٍ، فَوَجَدْنَا جِهَادَهُ ﷺ إِنَّمَا كَانَ فِي أَكْثَرِ أَعْمَالِهِ وأَحْوَالِهِ بِالْقِسْمَيْنِ الأَوَّلَيْنِ مِنَ الدُّعَاءِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالتَّدْبِيرِ وَالإِرَادَةِ، وكَانَ أَقَلَّ عَمَلِهِ الطَّعْنُ وَالضَّرْبُ وَالْمُبَارَزَةُ، لا عَنْ جُبْنٍ، بَلْ كَانَ أَشْجَعَ أَهْلِ الأَرْضِ قَاطِبَةً نَفْساً وَيَدًا، وأَتَمَّهُمْ نَجْدَةً، ولَكِنَّهُ كَانَ يُؤْثِرُ الأَفْضَلَ فَالأَفْضَلَ مِنَ الأَعْمَالِ، فَيُقَدِّمُهُ ويَشْتَغِلُ بِهِ "[(١)] .

وقَالَ الإِمَامُ الرَّازِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تحتَ تَفْسِيرِ قَولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ﴾ [النساء: ٩٥] : قَالَتِ الشِّيْعَةُ: دَلَّتِ الآيَةُ عَلَى أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَفْضَلُ مِنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وذَلِكَ لأَنَّ عَلِيّاً كَانَ أَكْثَرَ جِهَاداً، فَالْقَدْرُ الَّذِي حَصَلَ التَّفَاوُتُ فِيهِ كَانَ أَبُو بَكْرٍ مِنَ الْقَاعِدِينَ فِيهِ وعَلِيٌّ مِنَ الْقَائِمِينَ، وإِذَا كَانَ كَذَلِكَ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ عَلِيٌّ أَفْضَلَ مِنهُ لِقَولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . فَيُقَالُ لَهُمْ: إِنَّ مُبَاشَرَةَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَتْ أَكْثَرَ مِنْ مُبَاشَرَةِ الرَّسُولِ ﷺ لِذَلِكَ، فَيَلْزَمُكُمْ بِحُكْمِ هَذِهِ الآيَةِ أَنْ يَكُونَ عَلِيٌّ أَفْضَلَ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَهَذَا لا يَقُولُهُ عَاقِلٌ؛ فَإِنْ قُلْتُمْ: إِنَّ مُجَاهَدَةَ الرَّسُولِ ﷺ مَعَ الْكُفَّارِ كَانَتْ أَعْظَمَ مِنْ مُجَاهَدَةِ عَلِيٍّ مَعَهُمْ،

(١) منهاج السنة النبوية (٤/٤٣١-٤٣٣) .

لأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ كَانَ يُجاهِدُ الْكُفَّارَ بتَقْرِيْــرِ الــدَّلائِلِ والْبَيِّنَــاتِ وإزَالَــةِ الشُّــبُهَاتِ وَالضَّلالاتِ، وَهَذَا الجِهَادُ أَكْمَلُ مِنْ ذَلِكَ الجِهَادِ؛ فَنَقُولُ: فَاقْبَلُوا مِنَّا مِثْلَهُ في حَــقِّ أَبــي بَكْرٍ، وَذَلِكَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ ﷺ لَمَّا أَسْلَمَ في أَوَّلِ الأَمْرِ سَعَى في إسْلامِ سَائِرِ النَّــاسِ، حَتَّــى أَسْلَمَ عَلَى يَدِهِ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَسَعْدُ بْنُ أَبي وَقَّاصٍ وَعُثْمَانُ بْنُ مَظْعُــونٍ ﷺ، وَكَانَ يُبَالِغُ في تَرْغِيْبِ النَّاسِ في الإِيْمَانِ وَالذَّبِّ عَنْ مُحَمَّــدٍ ﷺ بنَفْســهِ وَمَالِــهِ، وعَلِيٌّ ﷺ في ذَلِكَ الْوَقْتِ كَانَ صَبِيّاً، مَا كَانَ أَحَدٌ يُسْلِمُ بِقَوْلِهِ، ومَا كَانَ قَــادِراً عَلَــى الذَّبِّ عن مُحَمَّدٍ ﷺ .

فَكَانَ جِهَادُ أَبي بَكْرٍ ﷺ أَفْضَلَ مِنْ جِهَادِ عَلِيٍّ ﷺ من وَجْهَيْنِ :

أَحَدُهُمَا: أَنَّ جِهَادَ أَبي بَكْرٍ ﷺ كَانَ في أَوَّلِ الأَمْرِ، حِيْنَ كَانَ الإِسْــلامُ في غَايَــةِ الضَّعْفِ، وأَمَّا جِهَادُ عَلِيٍّ ﷺ فَإِنَّمَا ظَهَرَ في الْمَدِيْنَةِ في الْغَزَوَاتِ، وَكَانَ الإِسْلامُ وَقْــتَ ذَاكَ قَوِيّاً .

وَالثَّاني: أَنَّ جِهَادَ أَبي بَكْرٍ ﷺ كَانَ بالدَّعْوَةِ إِلَى الدِّيْنِ، وَأَكْثَرُ أَفَاضِلِ الْعَشَرَةِ إِنَّمَــا أَسْلَمُوا عَلَى يَدِهِ، وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الْجِهَادِ هُوَ حِرْفَةُ النَّبيِّ ﷺ ، وَأَمَّا جِهَادُ عَلِيٍّ ﷺ فَإِنَّمَا كَانَ بِالْقَتْلِ، ولا شَكَّ أَنَّ الأَوَّلَ أَفْضَلُ مِنْهُ (١) .

*****

(١) «التفسير الكبير» للرازي (١١/١٠) .

الْحَدِيْثُ الثَّانِي

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "تَوَكَّلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِحِفْظِ امْرِئٍ خَرَجَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يُخْرِجُهُ إلاَّ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَتَصْدِيقٌ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ حَتَّى يُوجِبَ لَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يُرْجِعَهُ إِلَى بَيْتِهِ أَوْ مِنْ حَيْثُ خَرَجَ " (١) .

قوله (تَوَكَّلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ) أَيْ تَكَفَّلَ .

قوله (خَرَجَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) الْخُرُوجُ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ هُوَ تَرْكُ الأَهْلِ وَالْوَطَنِ ومَحْبُوبَاتِ النَّفْسِ ومَأْلُوفَاتِهَا لإِعْلاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ، وإِظْهَارِ دِيْنِه، وإِتْمَامِ نُورِه، ونَشْرِ مَحْبُوبَاتِهِ فِي خَلْقِهِ .

قوله (لا يُخْرِجُهُ إلاَّ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ..) أَيْ أَنَّ الدَّافِعَ لِهَذَا الْخُرُوجِ هُوَ التَّصْدِيقُ بِكَلامِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَبِوَعْدِهِ لِعِبَادِهِ الْمُطِيْعِينَ الْقَائِمِيْنَ عَلَى خِدْمَةِ دِيْنِهِ بِالرَّحْمَةِ وَالرِّضْوَانِ وَالنَّعِيْمِ الْمُقِيْمِ، وَبِوَعِيْدِهِ لِلْمُتَخَلِّفِيْنَ الْمُتَخَاذِلِينَ الْمُتَثَاقِلِينَ بِالْعَذَابِ الأَلِيمِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى دَافِعِ إِقَامَةِ دِيْنِ اللَّهِ عَلَى أَرْضِهِ وإِعْلاءِ كَلِمَتِهِ، وهُوَ الْمَقْصُودُ مِنْ بِعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ حَيْثُ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الصف: ٩] .

مَعْنَى الْحَدِيثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْه

يُبَيِّنُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ تَكَفَّلَ لِمَنْ يَخْرُجُ فِي سَبِيْلِهِ بِالْحِفْظِ وَالرِّعَايَةِ وَالْمَدَدِ وَالْعَوْنِ، كَمَا قَالَ ﷺ : "إِنَّ الْمَعُونَةَ تَأْتِي مِنَ اللَّهِ عَلَى قَدْرِ الْمَؤُونَةِ" (٢)، ويَسْتَمِرُّ ذَلِكَ حَتَّى يَرْجِعَ الخَارِجُ إِلَى بَيْتِهِ، أَو مِنْ حَيثُ خَرَجَ، وإِنْ مَاتَ في سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ

(١) رواه أحمد في مسنده برقم (٩١٦٣) بسند صحيح .

(٢) رواه البزار في مسنده عن أبي هريرة (٨٨٧٨) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٩٥٦) وإسناده حسن .

أَوْجَبَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهُ الْجَنَّةَ، وذَلِكَ إِذَا صَحَّ قَصْدُهُ ويَقِيْنُهُ، بِأَنْ يَقْصِدَ بِخُرُوجِهِ إِعْلاءَ كَلِمَةِ اللهِ ونَشْرَ دِيْنِهِ فِي أَرْضِهِ، ويَتَيَقَّنَ عَلَى مَوْعُودِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى هَذَا الْخُرُوجِ؛ "وعَلَى قَدْرِ نِيَّةِ الْعَبْدِ وهِمَّتِهِ ومُرَادِهِ ورَغْبَتِهِ فِي ذَلِكَ يَكُونُ تَوْفِيقُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَالْمَعُونَةُ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَنْزِلُ عَلَى العِبَادِ عَلَى قَدْرِ هِمَمِهِمْ وثَبَاتِهِمْ ورَغْبَتِهِم ورَهْبَتِهِمْ، والخِذْلانُ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ، فَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ وأَعْلَمُ الْعَالِمِينَ، يَضَعُ التَّوْفِيْقَ فِي مَوَاضِعِهِ اللاَّئِقَةِ بِهِ، والخِذْلانَ فِي مَوَاضِعِهِ اللاَّئِقَةِ بِهِ " (١) .

"وقَدْ أَجْمَعَ الْعَارِفُونَ عَلَى أَنَّ كُلَّ خَيْرٍ فَأَصْلُهُ بِتَوْفِيقِ اللهِ لِلْعَبْدِ، وكُلَّ شَرٍّ فَأَصْلُهُ خِذْلانُهُ لِعَبْدِهِ، وأَجْمَعُوا أَنَّ التَّوْفِيْقَ أَنْ لا يَكِلَكَ إِلَى نَفْسِكَ، وأَنَّ الخِذْلانَ هُوَ أَنْ يُخَلِّيَ بَيْنَكَ وبَيْنَ نَفْسِكَ، فَإِذَا كَانَ كُلُّ خَيْرٍ فَأَصْلُهُ التَّوْفِيْقُ، وهُوَ بِيَدِ اللهِ لا بِيَدِ الْعَبْدِ، فَمِفْتَاحُهُ الدُّعَاءُ وَالاِفْتِقَارُ وصِدْقُ اللَّجَإِ والرَّغْبَةِ والرَّهْبَةِ إِلَيهِ، فَمَتَى أَعْطَى العَبْدَ هَذَا الْمِفْتَاحَ فَقَدْ أَرَادَ أَنْ يَفْتَحَ لَهُ، ومَتَى أَضَلَّهُ عَنِ الْمِفْتَاحِ بَقِيَ بَابُ الْخَيْرِ مُرْتَجّاً دُوْنَهُ " (٢) .

وحِفْظُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِعَبْدِهِ يَدْخُلُ فِيْهِ نَوْعَانِ :

أَحَدُهُمَا: حِفْظُهُ لَهُ فِي مَصَالِحِ دُنْيَاهُ، كَحِفْظِهِ فِي بَدَنِهِ وَوَلَدِهِ وأَهْلِهِ ومَالِهِ، وقَدْ يَحْفَظُ اللهُ العَبْدَ بِصَلاحِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ فِي ذُرِّيَّتِهِ، كَمَا قِيلَ فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢]، أَنَّهُمَا حَفِظَهُمَا بِصَلاحِ أَبِيْهِمَا، وقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ رَحِمَهُ اللهُ لابْنِهِ: **"لأَزِيْدَنَّ فِي صَلاتِي مِنْ أَجْلِكَ، رَجَاءَ أَنْ أُحْفَظَ فِيْكَ، ثُمَّ تَلا هَذِهِ الآيَةَ ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾".** وقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيْزِ رَحِمَهُ اللهُ : **"مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يَمُوتُ إِلاَّ حُفِظَ فِي عَقِبِهِ وَعَقِبِ عَقِبِهِ".** وقَالَ ابْنُ الْمُنْكَدِرِ رَحِمَهُ اللهُ : **"إِنَّ اللهَ لَيَحْفَظُ بِالرَّجُلِ الصَّالِحِ وَلَدَهُ ووَلَدَ وَلَدِهِ وَالدُّوَيْرَاتِ الَّتِي حَوْلَهُ، فَمَا يَزَالُونَ فِي حِفْظٍ مِنَ اللهِ وسِتْرٍ "** (٣) .

---

(١) «الفوائد» لابن القيم ص (٤١–٤٢) .

(٢) المصدر السابق ص (١٤١) .

(٣) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب الحنبلي ص (٢٣٠–٢٣٣) .

وقَالَ ابْنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللهُ:" إنَّ الْمُؤَدِّيَ لِلأَمَانَةِ مَعَ مُخَالَفَةِ هَوَاهُ يُثَبِّتُهُ اللهُ، فَيَحْفَظُهُ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ بَعْدَهُ، وَالْمُطِيعَ لِهَوَاهُ يُعَاقِبُهُ اللهُ بنَقِيضِ قَصْدِهِ، فَيُذِلُّ أَهْلَهُ وَيُذْهِبُ مَالَهُ، وَفِي ذَلِكَ الْحِكَايَةُ الْمَشْهُورَةُ؛ أَنَّ بَعْضَ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ سَأَلَ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ أَنْ يُحَدِّثَهُ عَمَّا أَدْرَكَ فَقَالَ: أَدْرَكْت عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ، قِيلَ لَهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! أَقْفَرْت أَفْوَاهَ بَنِيك مِنْ هَذَا الْمَالِ، وَتَرَكْتَهُمْ فُقَرَاءَ لا شَيْءَ لَهُمْ - وَكَانَ فِي مَرَضِ مَوْتِهِ - فَقَالَ: أَدْخِلُوهُمْ عَلَيَّ، فَأَدْخَلُوهُمْ، وَهُمْ بِضْعَةَ عَشَرَ ذَكَرًا لَيْسَ فِيهِمْ بَالِغٌ، فَلَمَّا رَآهُمْ ذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ:" **يَا بَنِيَّ وَاللهِ مَا مَنَعْتُكُمْ حَقّاً هُوَ لَكُمْ، وَلَمْ أَكُنْ بِالَّذِي آخُذُ أَمْوَالَ النَّاسِ فَأَدْفَعُهَا إلَيْكُمْ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ أَحَدُ رَجُلَيْنِ: إمَّا صَالِحٌ فَاللَّهُ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ، وَإِمَّا غَيْرُ صَالِحٍ فَلا أُخَلِّفُ لَهُ مَا يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى مَعْصِيَةِ اللهِ، قُومُوا عَنِّي**". قَالَ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ بَنِيهِ حَمَلَ عَلَى مِائَةِ فَرَسٍ فِي سَبِيلِ اللهِ، يَعْنِي أَعْطَاهَا لَمِنْ يَغْزُو عَلَيْهَا. قُلْت - ابْنُ تَيمِيَةَ - : هَذَا وَقَدْ كَانَ خَلِيفَةَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَقْصَى الْمَشْرِقِ بلادِ التُّرْكِ إلى أَقْصَى الْمَغْرِبِ بلادِ الأَنْدَلُسِ وَغَيْرِهَا، وَمِنْ جَزَائِرِ قُبْرُصَ وَثُغُورِ الشَّامِ وَالْعَوَاصِمِ كَطَرْسُوسَ وَنَحْوِهَا إلَى أَقْصَى الْيَمَنِ .

وَإِنَّمَا أَخَذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ أَوْلادِهِ مِنْ تَرِكَتِهِ شَيْئاً يَسِيراً، يُقَالُ: أَقَلَّ مِنْ عِشْرِينَ دِرْهَمًا، قَالَ: وَحَضَرْتُ بَعْضَ الْخُلَفَاءِ وَقَدِ اقْتَسَمَ تَرِكَتَهُ بَنُوهُ، فَأَخَذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ سِتَّمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَهُمْ يَتَكَفَّفُ النَّاسَ - أَيْ يَسْأَلُهُمْ بكَفِّهِ - وَفِي هَذَا الْبَابِ مِنَ الْحِكَايَاتِ وَالْوَقَائِعِ الْمُشَاهَدَةِ فِي الزَّمَانِ وَالْمَسْمُوعَةِ عَمَّا قَبْلَهُ، مَا فِيهِ عِبْرَةٌ لِكُلِّ ذِي لُبٍّ " [(١)] .

ومَتَى كَانَ العَبْدُ مُشْتَغِلاً بطَاعَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ قَائِماً بخِدْمَةِ دِينِهِ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَحْفَظُهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ؛ فَعَنْ حُمَيدِ بْنِ هِلالٍ، قَالَ: كَانَ رَجُلٌ مِنَ الطُّفَاوَةِ طَرِيقُهُ عَلَيْنَا، فَأَتَى عَلَى الْحَيِّ فَحَدَّثَهُمْ قَالَ: قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ فِي عِيرٍ لَنَا، فَبِعْنَا بِيَاعَتَنَا [(٢)] ثُمَّ قُلْتُ: لأَنْطَلِقَنَّ إلى هَذَا الرَّجُلِ، فَلآتِيَنَّ مَنْ بَعْدِي بِخَبَرِهِ، قَالَ: فَانْتَهَيْتُ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَإِذَا هُوَ يُرِينِي بَيْتاً،

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/٢٤٩) .

(٢) البِيَاعَة بكسر الباء الموحدة: هي السلعة .

قَالَ :"إِنَّ امْرَأَةً كَانَتْ فِيهِ فَخَرَجَتْ فِي سَرِيَّةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَتَرَكَتْ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ عَنْزًا لَهَا وَصِيصِيَتَهَا [(١)] كَانَتْ تَنْسِجُ بِهَا، قَالَ: فَفَقَدَتْ عَنْزًا مِنْ غَنَمِهَا وَصِيصِيَتَهَا، فَقَالَتْ: يَا رَبِّ إِنَّكَ قَدْ ضَمِنْتَ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِكَ أَنْ تَحْفَظَ عَلَيْهِ، وَإِنِّي قَدْ فَقَدْتُ عَنْزًا مِنْ غَنَمِي وَصِيصِيَتِي، وَإِنِّي أَنْشُدُكَ عَنْزِي وَصِيصِيَتِي". قَالَ: فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُ شِدَّةَ مُنَاشَدَتِهَا لِرَبِّهَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" فَأَصْبَحَتْ عَنْزُهَا وَمِثْلُهَا، وَصِيصِيَتُهَا وَمِثْلُهَا، وَهَاتِيكَ فَأْتِهَا فَاسْأَلْهَا إِنْ شِئْتَ". قَالَ: قُلْتُ: بَلْ أُصَدِّقُكَ [(٢)] .

ومِنْ عَجِيْبِ حِفْظِ اللَّهِ ﷻ لِمَنْ حَفِظَهُ أَنْ يَجْعَلَ الْحَيَوَانَاتِ الْمُؤْذِيَةَ بِالطَّبْعِ حَافِظَةً لَهُ مِنَ الأَذَى، كَمَا جَرَى لِسَفِينَةَ مَوْلَى النَّبِيِّ ﷺ حِيْنَ كُسِرَ بِهِ الْمَرْكَبُ، وخَرَجَ إِلَى جَزِيْرَةٍ فَرَأَى الأَسَدَ، فَجَعَلَ يَمْشِي مَعَهُ حَتَّى دَلَّهُ عَلَى الطَّرِيقِ، فَلَمَّا أَوْقَفَهُ عَلَيْهَا جَعَلَ يُهَمْهِمُ كَأَنَّهُ يُوَدِّعُهُ، ثُمَّ رَجَعَ عَنْهُ [(٣)] .

وَالنَّوْعُ الثَّانِي مِنَ الْحِفْظِ وَهُوَ أَشْرَفُ النَّوْعَيْنِ: حِفْظُ اللَّهِ لِلْعَبْدِ فِي دِيْنِهِ وإِيْمَانِهِ، فَيَحْفَظُهُ فِي حَيَاتِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ الْمُضِلَّةِ ومِنَ الشَّهَوَاتِ الْمُحَرَّمَةِ، ويَحْفَظُ عَلَيْهِ دِيْنَهُ عِنْدَ مَوْتِهِ، فَيَتَوَفَّاهُ عَلَى الإِيْمَانِ، فَفِي الصَّحِيحَينِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ أَمَرَهُ أَنْ يَقُولَ عِنْدَ مَنَامِهِ: "إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ" [(٤)]، فيَكُونُ اللَّهُ ﷻ مَعَهُ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ حَيْثُ تَوَجَّهَ، يَحُوْطُهُ ويَنْصُرُهُ ويَحْفَظُهُ ويُسَدِّدُه، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨] .

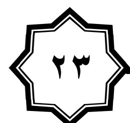
---

(١) صِيْصِيَتها بكسر صادين مهملتين: هِيَ الصِّنَّارَةُ التِي يُغْزَلُ ويُنْسَجُ بها .

(٢) رواه أحمد في مسنده (٢٠٦٦٤) وقال الهيثمي في المجمع: رجاله رجال الصحيح .

(٣) رواه الحاكم في المستدرك عن محمد بن المنكدر (٤٢٣٥) و(٦٥٥٠) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي .

(٤) رواه البخاري عن أبي هريرة (٦٢٣٠) و(٧٣٩٣) ومسلم (٧٠٦٧) .



وقَالَ قَتَادَةُ رَحِمَهُ اللهُ:" **مَنْ يَتَّقِ اللهَ يَكُنْ مَعَهُ، وَمَنْ يَكُنِ اللهُ مَعَهُ فَمَعَهُ الْفِئَةُ الَّتِي لا تُغلَبُ، وَالْحَارِسُ الَّذِي لا يَنَامُ، وَالْهَادِي الَّذِي لا يَضِلُّ.**"(١)، وكَتَبَ بَعْضُ السَّلَفِ إِلَى أَخٍ لَهُ:" **أَمَّا بَعْدُ: فَإِنْ كَانَ اللهُ مَعَكَ فَمَنْ تَخَافُ، وَإِنْ كَانَ اللهُ عَلَيْكَ فَمَنْ تَرْجُو**" .

وهَذِهِ الْمَعِيَّةُ الْخَاصَّةُ هِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي قَولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِمُوسَى وهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ : ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ **[طه: ٤٦]**، وقَول مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ **[الشعراء: ٦٢]**، وفِي قَولِ الرَّسُولِ ﷺ لأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهُمَا فِي الغَارِ: "**مَا ظَنُّكَ باثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا**"، وفِي قَولِهِ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ **[التوبة: ٤٠]** فَهَذِهِ الْمَعِيَّةُ تَقْتَضِي النُّصْرَةَ وَالتَّأْيِيدَ وَالْحِفْظَ والإغَاثَةَ (٢)، نَسْأَلُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَكُونَ مَعَنَا لا عَلَيْنَا، وأَنْ يُعْطِيَنَا ولا يَحْرِمَنَا، وأَنْ يَنْصُرَنَا ولا يَنْصُرَ عَلَيْنَا، وأَنْ يُكْرِمَنَا ولا يُهِينَنَا، بِفَضْلِهِ وكَرَمِهِ إِنَّهُ سَمِيْعُ الدُّعَاءِ .

فَائِـــــــدَة

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ : قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ ﴾ **[يوسف: ١٠٨]**، وسَوَاءٌ كَانَ الْمَعْنَى أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي يَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيْرَةٍ، أَوْ كَانَ الْوَقْفُ عِنْدَ قَولِهِ ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ ﴾ ثُمَّ يَبْتَدِئُ ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ﴾، فَالْقَولانِ مُتَلازِمَانِ، فَإِنَّهُ أَمَرَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يُخبِرَ أَنَّ سَبِيْلَهُ الدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ، فَمَنْ دَعَا إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَهُوَ عَلَى سَبِيْلِ رَسُولِهِ ﷺ وهُوَ عَلَى بَصِيْرَةٍ، وَهُوَ مِنْ أَتْبَاعِهِ، ومَنْ دَعَا إِلى غَيْرِ ذَلِكَ فَلَيْسَ عَلَى سَبِيْلِهِ، ولا هُوَ عَلَى بَصِيْرَةٍ، ولا هُوَ مِنْ أَتْبَاعِهِ، فَالدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هِيَ وَظِيْفَةُ الْمُرْسَلِيْنَ وَأَتْبَاعِهِمْ، وهُمْ خُلَفَاءُ الرُّسُلِ فِي أُمَمِهِمْ، وَالنَّاسُ تَبَعٌ لَهُمْ، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ أَمَرَ رَسُولَهُ أَنْ يُبَلِّغَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ، وضَمِنَ حِفْظَهُ وعِصْمَتَهُ مِنَ النَّاسِ،

---

(١) «حلية الأولياء» (٢/٣٤٠) .

(٢) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب الحنبلي ص (٢٣٠-٢٣٣) .

وهَكَذَا الْمُبَلِّغُونَ عَنْهُ مِنْ أُمَّتِهِ، لَهُمْ مِنْ حِفْظِ اللَّهِ وعِصْمَتِهِ إِيَّاهُمْ بِحَسَبِ قِيَامِهِمْ بِدِيْنِهِ وتَبْلِيْغِهِمْ لَهُ، وقَدْ أَمَرَ النَّبيُّ ﷺ بالتَّبْلِيْغِ عَنْهُ وَلَوْ آيَةً (١)، ودَعَا لِمَنْ بَلَّغَ عَنْهُ ولَوْ حَدِيثاً (٢)، وتَبْلِيغُ سُنَّتِهِ إلى الأُمَّةِ أَفْضَلُ مِنْ تَبْلِيْغِ السِّهَامِ إلى نُحُورِ الْعَدُوِّ، لأَنَّ ذَلِكَ التَّبْلِيغَ - أَيْ تَبْلِيغ السِّهَامِ إلى نُحُورِ الْعَدُوِّ - يَفْعَلُهُ كَثِيْرٌ مِنَ النَّاسِ، وأَمَّا تَبْلِيغُ السُّنَنِ فَلا تَقُومُ بِهِ إلاَّ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ وخُلَفَاؤُهُمْ في أُمَمِهِم، جعَلَنَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْهُمْ بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ (٣) .

وقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخرَ: قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]، قَالَ الْفَرَّاءُ وجَمَاعَةٌ: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى الضَّمِيْرِ في ﴿أَدْعُوٓاْ﴾، يَعْنِي وَمَنِ اتَّبَعَنِي يَدْعُو إِلَى اللَّهِ كَمَا أَدْعُو، وهَذَا قَولُ الكَلْبيِّ، قَالَ: "**حَقٌّ عَلَى كُلِّ مَنِ اتَّبَعَهُ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى مَا دَعَا إِلَيْهِ، ويُذَكِّرَ بالقُرْآنِ وَالْمَوْعِظَةِ.**" ويَقْوَى هَذَا القَولُ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ؛ قَالَ ابْنُ الأَنْبَارِيِّ: يَجُوزُ أَنْ يَتِمَّ الكَلامُ عِنْدَ قَولِهِ ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ ثُمَّ يَبْتَدِئُ بقَولِهِ ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾، فَيَكُونُ الكَلامُ عَلَى قَولِهِ جُمْلَتَيْنِ، أَخْبَرَ فِي أُولاهُمَا أَنَّهُ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ، وفي الثَّانِيَةِ بِأَنَّهُ وَأَتْبَاعَهُ عَلَى بَصِيْرَةٍ، وَالقَوْلانِ مُتَلازِمَانِ، فَلا يَكُونُ الرَّجُلُ مِنْ أَتْبَاعِهِ حَقّاً حَتَّى يَدْعُوَ إِلَى مَا دَعَا إِلَيْهِ، وَقَوْلُ الْفَرَّاءِ أَحْسَنُ وأَقْرَبُ إِلَى الْفَصَاحَةِ والبَلاغَةِ (٤) .

---

(١) رواه البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**". حديث رقم (٣٢٧٤) .

(٢) رواه الترمذي عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: "**نَضَّرَ اللَّهُ امْرَءاً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بفَقِيهٍ**". قال الترمذي: هذا حديث حسن. وروي بعِدَّةِ ألفاظ وسيأتي .

(٣) «جلاء الإفهام في فضل الصلاة على خير الأنام» ص (٢١٦-٢١٥) .

(٤) «مفتاح دار السعادة» (١/١٩٣) .

وقَالَ عَبدُ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيدِ بْنُ أَسْلَمَ رَحِمَهُ اللهُ فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿ ٱدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾:" وحَقٌّ واللهِ عَلَى مَنِ اتَّبعَهُ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى مِثْلِ مَا دَعَا إِلَيْهِ، ويُذَكِّرَ بِالْقُرْآنِ وَالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَيَنْهَى عَنِ الْمَعَاصِي"[1] .

وقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩]:" فحَقٌّ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الرَّسُولَ ﷺ أَنْ يَدْعُوَ كَالَّذِي دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وأَنْ يُنْذِرَ كَالَّذِي أَنْذرَ بِهِ[2] .

وقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣]، قَالَ الْحَسَنُ الْبِصْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: "هَذَا حَبِيبُ اللهِ، هَذا ولِيُّ اللهِ، أَسْلَمَ لله وعَمِلَ بطَاعَتِهِ، ودَعَا الْخَلْقَ إِلَيْهِ"[3]، فَهَذَا النَّوْعُ أَفْضَلُ أَنْوَاعِ الإِنْسَانِ وأَعْلاهُمْ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ يَوْمَ القِيامَةِ، وهُمْ ثِنْيَةُ اللهِ تَعَالَى مِنَ الْخَاسِرِينَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[العصر: ١-٣]، فَأَقْسَمَ تَعَالَى عَلَى خُسْرَانِ نَوْعِ الإِنْسَانِ إلاَّ مَنْ كَمَّلَ نَفْسَهُ بالإِيْمَانِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ، وكَمَّلَ غَيْرَهُ بوَصِيَّتِهِ لَهُ بِهِمَا، قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : "لَوْ فَكَّرَ النَّاسُ كُلُّهُمْ فِي سُوْرَةِ الْعَصْرِ لَكَفَتْهُمْ " .

---

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (١٢٩٠١) .

(٢) «تفسير ابن كثير» (٢/١٣١) ورواه ابن أبي حاتم (٧٢٠٣) وزاد فيه: "فَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُقَاتِلُ أَحَداً مِنَ النَّاسِ حَتَّى يَدْعُوَهُ إِلى الإِسْلامِ، فَإِذَا أَبَوْا نَبَذَ إِلَيهِم عَلَى سَوَاءٍ." .

(٣) أخرج ابن جرير الطبري في تفسيره برقم (٣٠٥٤٢) عن معمر، قال: تلا الحسن- أي البصري – رَحِمَهُ اللهُ هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ قال:" هَذَا حَبِيْبُ اللهِ، هَذَا وَلِيُّ اللهِ، هَذا صَفْوَةُ اللهِ، هَذا خِيرَةُ اللهِ، هَذا أَحَبُّ الْخَلْقِ إِلى اللهِ، أَجَابَ اللهَ فِي دَعْوَتِهِ، ودَعَا النَّاسَ إِلَى مَا أَجَابَ اللهَ فِيْهِ مِنْ دَعْوَتِهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ، فَهَذَا خَلِيْفَةُ اللهِ." وروى أحمد في «الزهد» برقم (١٦٧١) عن الحسن أَنَّهُ قال:" أَحَبُّ العِبَادِ إِلَى اللهِ الَّذِينَ يُحَبِّبُونَ اللهَ إِلَى عِبَادِهِ ويَعْمَلُونَ فِي الأَرْضِ نُصَّحاً." وأخرج الطبري في «تهذيب الآثار» (٢٠٠١) عن بكر بن عبد الله المزني قال:" لَوْ أَتَيْتُ الْمَسْجِدَ وهُوَ مَمْلُوءٌ مُفْعَمٌ بالرِّجَالِ، فَقِيلَ : مَنْ خَيْرُهُم؟ لَقُلْتُ: أَنْصَحُهُمْ لَهُمْ؛ ولَوْ أَتَيْتُ الْمَسْجِدَ وهُوَ مَمْلُوءٌ مُفْعَمٌ بالرِّجَالِ، فَقِيلَ: مَنْ شَرُّهُم؟ لَقُلْتُ: أَغَشُّهُمْ لَهُمْ." .

ولا يَكُونُ مِنْ أَتْبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ عَلَى الْحَقِيْقَةِ إِلاَّ مَنْ دَعَا إِلَى الله عَلَى بَصِيْرَةٍ، قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾، فَقَولُهُ: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تَفْسِيْرٌ لِسَبِيْلِهِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا، فَسَبِيْلُهُ وسَبِيْلُ أَتْبَاعِهِ الدَّعْوَةُ إِلَى الله، فَمَنْ لَمْ يَدْعُ إِلَى الله فَلَيْسَ عَلَى سَبِيْلِهِ .

وقَوْلُهُ ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ قَالَ ابْنُ الأَعْرَابِيِّ: البَصِيْرَةُ الثَّبَاتُ في الدِّيْنِ، وقِيْلَ البَصِيْرَةُ الْعِبْرَةُ، كَمَا يُقَالُ: أَلَيْسَ لَكَ فِي ذَلِكَ بَصِيْرَةٌ أَيْ عِبْرَةٌ، قَالَ الشَّاعِرُ:

فِي الذَّاهِبِيْنَ الأَوَّلِيْنَ ... مِنَ الْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرُ

وَالتَّحْقِيْقُ: الْعِبْرَةُ ثَمَرَةُ البَصِيْرَةِ، فَإِذَا تَبَصَّرَ اعْتَبَرَ، فَمَنْ عَدِمَ العِبْرَةَ فَكَأَنَّهُ لا بَصِيْرَةَ لَهُ، وَأَصْلُ اللَّفْظِ مِنَ الظُّهُورِ وَالبَيَانِ، فَالقُرْآنُ بَصَائِرُ أَيْ أَدِلَّةٌ وَهُدَىً وبَيَانٌ يقُودُ إِلَى الْحَقِّ، وَيَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ، ولِهَذَا يُقَالُ لِلطَّرِيْقِ مِنَ الدَّمِ الَّتِي يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى الرَّمِيَّةِ بَصِيْرَةٌ. فَدَلَّتِ الآيَةُ الكَرِيْمَةُ أَيْضاً عَلَى أَنَّ مَنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى بَصِيْرَةٍ فَلَيْسَ مِنْ أَتْبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ، وَأَنَّ أَتْبَاعَهُ هُمْ أُوْلُو الْبَصَائِرِ، ولِهَذَا قَالَ: ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾، فَإِنْ كَانَ الْمَعْنَى أَدْعُو إِلَى الله أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي، ويَكُونُ ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ مَعْطُوفاً عَلَى الضَّمِيرِ الْمَرْفُوعِ فِي ﴿أَدْعُوٓاْ﴾، وحَسُنَ العَطْفُ لأَجْلِ الفَصْلِ، فَهُوَ دَلِيْلٌ عَلَى أَنَّ أَتْبَاعَ الرَّسُولِ ﷺ هُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى الله وَرَسُولِهِ، وَإِنْ كَانَ مَعْطُوفاً عَلَى الضَّمِيْرِ الْمُجَرَّدِ فِي سَبِيْلِيْ أَيْ هَذِهِ سَبِيْلِي وسَبِيْلُ مَنِ اتَّبَعَنِي فَكَذَلِكَ، وَعَلَى التَّقْدِيْرَيْنِ فَسَبِيْلُهُ وسَبِيْلُ أَتْبَاعِهِ الدَّعْوَةُ إلى الله [(١)] .

*****

(١) «رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه» ص (٢١) .

الْحَدِيْثُ الثَّالِثُ

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ ﷛ عَنْ رَسُول الله ﷺ قَالَ: "ثَلاَثَةٌ كُلُّهُمْ ضَامِنٌ عَلَى الله ﷻ، إنْ عَاشَ رُزِقَ وكُفِيَ، وَإِنْ مَاتَ أَدْخَلَهُ الله الْجَنَّةَ، مَنْ دَخَلَ بَيْتَهُ فَسَلَّمَ فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى الله، وَمَنْ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى الله، وَمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِ الله فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى الله " [1] .

قوله (ضَامِنٌ عَلَى الله) مَعْنَاهُ مَضْمُونٌ، مِنْ فَاعِلٍ بِمَعْنَى مَفْعُول، كَقَولِهِ ﷻ: ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ أَيْ مَرْضِيَّةٍ، وقَولِهِ: ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ أَيْ مَدْفُوقٍ، ومِثْلُهُ في الكَلامِ كَثِيْرٌ [2] .

قوله (مَنْ دَخَلَ بَيْتَهُ فَسَلَّمَ) أَيْ أَنْ يُسَلِّمَ إِذَا دَخَلَ مَنْزِلَهُ، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ﴾ [النور: ٦١]، وكَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأَنَسٍ ﷛ : "إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ فَسَلِّمْ، يَكُنْ بَرَكَةً عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ" [3]. وفي رِوَايَةٍ: "يَكْثُرْ خَيْرُ بَيْتِكَ"، وجاءَ في رِوَايَةِ أَبِيْ دَاوُودَ: "وَرَجُلٌ دَخَلَ بَيْتَهُ بِسَلاَمٍ" وتَحتَمِلُ وَجْهاً آخرَ مَعَ هَذَا، وهُوَ أَنَّ الْمُرَادَ بدُخُول بَيْتِهِ بسَلامٍ أَنْ يَلْزَمَ البَيْتَ طَلَباً لِلسَّلامَةِ مِنَ الْفِتَنِ، يُرَغِّبُ بذَلِكَ فِي الْعُزْلَةِ، ويَأْمُرُهُ بالإِقْلال مِنَ الْخُلْطَةِ [4]. وقَالَ الطِّيْبِيُّ ﵀: وَهَذَا أَوْجَهُ لأَنَّ الْمُجَاهَدَةَ في سَبِيْلِ الله سَفراً وَالرَّوَاحَ إِلَى الْمَسْجِدِ حَضَراً ولُزُومَ البَيْتِ اتِّقَاءَ الفِتَنِ آخِذٌ بَعْضُهَا بِحُجْزَةِ بَعْضٍ، فَعَلَى هَذَا

---

(١) رواه أبو داوود في سننه برقم (٢٤٩٦) وابن حبان في صحيحه واللفظ له برقم (٤٩٩) والحاكم في المستدرك (٢٤٠٠) وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي .

(٢) «معالم السنن» للخطابي (٤٨٧/١) .

(٣) رواه الترمذي في سننه عن أنس بن مالك (٢٦٩٨) وقال: حديث حسن غريب .

(٤) «معالم السنن» (٤٨٧/١) .

الْمَضْمُونُ هُوَ رِعَايَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَجِوَارُهُ مِنَ الْفِتَنِ [١]. وَمَعَ هَذَا فَالوَجْهُ الأَوَّلُ أَقْرَبُ إِلَى الظَّاهِرِ، وهُوَ الْمُتَبَادِرُ إِلَى الذِّهْنِ، واللَّهُ أَعْلَمُ .

قوله (**فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللَّهِ**) أَيْ فِي رِعَايَتِهِ وكَفَالَتِهِ مِنْ مَضَارِّ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ [٢]، وقَالَ الطِّيْبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: عَدَّى "**ضَامِنٌ**" بِعَلى تَضْمِيْناً لِمَعْنَى الوُجُوبِ وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى سَبِيْلِ الْوَعْدِ، أَيْ يَجِبُ عَلَى اللَّهِ وَعْداً أَنْ يَكْلأَهُ مِنْ مَضَارِّ الدُّنْيَا وَالدِّيْنِ [٣] .

مَعْنَى الْحَدِيْثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْه

يُبَيِّنُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَعَدَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلاءِ الثَّلاثَةِ أَنْ يَكْفِيَهُمْ مِنْ مَضَارِّ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَذَلِكَ بِضَمَانِ الرِّزْقِ وَالكِفَايَةِ لَهُمْ، بِحَيْثُ لا يُحْوِجُهُمْ إِلَى التَّوَجُّهِ إلى غَيْرِهِ، ولا إلى السَّعْيِ الْكَثِيْرِ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ وقَضَاءِ الْحَوائِجِ، بَلْ يُقَنِّعُهُمْ بِمَا رَزَقَهُمْ وَيَكْفِيْهِمْ عَمَّنْ سِوَاهُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ**: "**يَا ابْنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلأْ صَدْرَكَ غِنىً وَأَسُدَّ فَقْرَكَ، وَإِلاَّ تَفْعَلْ مَلأْتُ صَدْرَكَ شُغْلاً وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ**" [٤]، وفي رِوَايَةٍ: "**ابْنَ آدَمَ، تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلأْ قَلْبَكَ غِنىً، وَأَمْلأْ يَدَيْكَ رِزْقاً، ابْنَ آدَمَ لا تَبَاعَدْ عَنِّي فَأَمْلأَ قَلْبَكَ فَقْرًا، وَأَمْلأَ يَدَيْكَ شُغْلاً.**" [٥] فَلا يَحْتَاجُ مَعَ هَذِهِ الأَعْمَالِ إِلَى كَثْرَةِ السَّعْيِ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ، بَلْ يُجْمِلُ فِي الطَّلَبِ، ويَقْنَعُ بِالقَلِيْلِ الكَافِي، ولا يَطْمَعُ فِي الكَثِيْرِ الْمُلْهِي، وَيَشْتَغِلُ فِي الْمَقْصَدِ الَّذِي خُلِقَ لأَجْلِهِ وهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى ودَعْوَةُ الْخَلْقِ إِلَيْهِ،

---

(١) «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (٤٠٤/٢) .

(٢) «التيسير بشرح الجامع الصغير» للمناوي (٩٦٦/١) .

(٣) «فيض القدير» (٤٠٩/٣) .

(٤) رواه أحمد في مسنده عن أبي هريرة برقم (٨٦٨١) و ابن ماجه في سننه (٤١٠٧) والترمذي واللفظ له برقم (٢٤٦٦)، وقال: حديث حسن. ورواه الحاكم في المستدرك برقم (٣٦٥٧) وقال: حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي .

(٥) رواه الحاكم في المستدرك عن معقل بن يسار (٧٩٢٦) وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي .

وإنْ مَاتَ فَقَدْ ضَمِنَ اللهُ ﷻ لَهُ دُخُولَ الْجَنَّةِ بِسَلامٍ، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ عَنْ عَبْدِ اللهِ ابْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: **"أَتَعْلَمُ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي؟"** قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَقَالَ: **"الْمُهَاجِرُونَ، يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلى بَابِ الْجَنَّةِ وَيَسْتَفْتِحُونَ، فَيَقُولُ لَهُمُ الْخَزَنَةُ: أَوَقَدْ حُوسِبْتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ: بِأَيِّ شَيْءٍ نُحَاسَبُ، وَإِنَّمَا كَانَتْ أَسْيَافُنَا عَلَى عَوَاتِقِنَا فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّى مِتْنَا عَلَى ذَلِكَ ؟!" قَالَ: "فَيُفْتَحُ لَهُمْ، فَيَقِيلُونَ فِيهَا أَرْبَعِينَ عَاماً قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَهَا النَّاسُ"** [(١)]، أَيْ أَنَّهُمْ كَانُوا مُتَفَرِّغِيْنَ لِنُصْرَةِ دِينِ اللهِ ونَشْرِهِ وَالدِّفَاعِ عَنْهُ، ولَيسَ لَهُمْ عَمَلٌ غَيْرُهُ؛ وعَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **"أَنَا زَعِيمٌ** - وَالزَّعِيمُ الْحَمِيلُ - **لِمَنْ آمَنَ بِي وَأَسْلَمَ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ، وَأَنَا زَعِيمٌ لِمَنْ آمَنَ بِي وَأَسْلَمَ وَهَاجَرَ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى غُرَفِ الْجَنَّةِ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَلَمْ يَدَعْ لِلْخَيْرِ مَطْلَباً وَلا مِنَ الشَّرِّ مَهْرَباً، يَمُوتُ حَيْثُ يَشَاءُ أَنْ يَمُوتَ"** [(٢)] .

وحَيَاةُ الْمُؤْمِنِ تَدُورُ فِي هَذِهِ الأَفْلاكِ الثَّلاثَةِ، فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ خَارِجاً فِي سَبِيْلِ اللهِ لإِعْلاءِ كَلِمَتِهِ ونَشْرِ دِيْنِهِ وإِحْيَاءِ أَوَامِرِهِ، وإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي مَقَامِهِ يُقِيمُ أَعْمَالَ الْهِدَايَةِ فِي مَسْجِدِهِ، مِنْ دَعْوَةٍ وتَعْلِيمٍ وتَعَلُّمٍ وصَلاةٍ وَاعْتِكَافٍ وذِكْرٍ وتِلاوَةٍ لِلقُرْآنِ الكَرِيْمِ وغَيْرِهَا مِنْ أَعْمَالِ الْهِدَايَةِ، كَإِكْرَامِ النَّاسِ وخِدْمَتِهِم لاِسْتِدْرَاجِ قُلُوبِهِمْ لِمَحَبَّةِ اللهِ ﷻ وطَاعَتِهِ، أَوْ يَكُونَ فِي بَيْتِهِ يُعَلِّمُ أَهْلَهُ ويُفَقِّهُهُمْ ويَقْضِي حَوَائِجَهُ وحَوَائِجَهُمْ؛ وهَكَذَا كَانَ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم، إِمَّا خَارِجِينَ فِي سَبِيْلِ اللهِ لِدَعْوَةِ الْخَلْقِ إِلَى الْخَالِقِ، والْمُتَمَثِّلَةُ بِدَعْوَةِ اللِّسَانِ، وَدَعْوَةِ السَّيْفِ وَالسِّنَانِ إِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا، وإِمَّا فِي الْمَسْجِدِ لِلتَّعَلُّمِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ تَعْلِيْمِ مَنْ يَحْتَاجُ إِلَى الْعِلْمِ مِنَ الأَفْرَادِ وَالوُفُودِ الَّتِي تَأْتِي إلى الْمَدِيْنَةِ لِلْمُبَايَعَةِ على الإِسْلامِ وتَعَلُّمِهِ، ويَقُومُونَ مَعَ هَذَا بِإِطْعَامِهِم وإِيْوَائِهِم وخِدْمَتِهِم، كَمَا سَيَأْتِي فِي بَابَ الإِنْفَاقِ فِي

(١) رواه الحاكم في المستدرك برقم (٢٣٨٩) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي .

(٢) رواه النسائي في سننه برقم (٣١٣٣) ورواه الحاكم برقم (٢٣٩١) وقال: حديث صحيح على شرط مسلم، وقال الذهبي: على شرط البخاري ومسلم .

سَبِيْلِ اللَّهِ، أو لِلقِيَامِ بالْعِبَادَاتِ مِنْ صَلاةٍ وذِكْرٍ وتِلاوَةٍ وغَيرِهَا، وإمَّا أَنْ يَكُونُوا فِي تَعْلِيمِ أَهْلِيهِمْ وقَضَاءِ حَوَائِجِ الْمُسْلِمِينَ .

وهَذِهِ الأَعْمَالُ الأَرْبَعَةُ – أَعْنِي الدَّعْوَةَ إلى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأَنْوَاعِهَا، وَالتَّعْلِيمَ وَالتَّعَلُّمَ وَالعِبَادَاتِ وَالخِدْمَةَ مَعَ الإِكْرَامِ وَالإِيْثَارِ – هِيَ أَعْمَالُ الْهِدَايَةِ الَّتِي انْتَشَرَ بهَا نُورُ الْهِدَايَةِ حَتَّى عَمَّ أَرْجَاءَ الْمَعْمُورَةِ، ودَانَتِ الْبِلادُ والْعِبَادُ لِرَبِّ العِبَادِ، وبتَرْكِ الدَّعْوَةِ إلى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والاِشْتِغَالِ بالأَدْنَى مِنَ الأَعْمَالِ عَنِ الأَعْلَى مِنْهَا تَخْرُجُ رُوحُ الدِّينِ مِنْ حَيَاةِ الْمُسْلِمِينَ(1)، وتُضْرَبُ قُلُوبُ بَعْضِهِم ببَعْضٍ(2)، وتُضْرَبُ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ والْمَسْكَنَةُ كَمَا ضُرِبَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَهُم، وهَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيمَنِ اسْتَبْدَلَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بالَّذِي هُوَ خَيْرٌ، أَنَّهُ يُسَلِّطُ عَلَيْهِمُ الأَعْدَاءَ يَسُومُونَهُمْ سُوءَ العَذَابِ، وَيَأْخُذُونَ بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيْهِمْ .

---

(1) أخرج الحاكم في المستدرك عن حذيفة رضي الله عنه قال :" **أَوَّلُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِيْنِكُمُ الْخُشُوعُ، وآخِرُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِيْنِكُمُ الصَّلاةُ، وَلَتُنْقَضَنَّ عُرَى الإِسْلامِ عُرْوَةً عُرْوَةً، وَلَيُصَلِّيَنَّ النِّسَاءُ وهُنَّ حُيَّضٌ، وَلَتَسْلُكُنَّ طَرِيقَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بالْقُذَّةِ، وحَذْوَ النَّعْلِ بالنَّعْلِ، لا تُخْطِئُونَ طَرِيقَهُم ولا يُخْطِأَنَّكُمْ.**" قال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي . وقال رضي الله عنه:" **رُبَّ مُصَلٍّ لا خَيْرَ فِيهِ، ويُوشِكُ أَنْ تَدْخُلَ الْمَسْجِدَ فَلا تَرَى فِيهِمْ خَاشِعاً**" وأخرج الحاكم في المستدرك أيضاً عن عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما قال :" **يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَجْتَمِعُونَ فِي الْمَسَاجِدِ لَيْسَ فِيهِمْ مُؤْمِنٌ.**" قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي . وفي رواية عنه مرفوعاً قَالَ:" **لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَجْتَمِعُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ويُصَلُّونَ ومَا فِيهِمْ مُؤْمِنٌ.**" قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ومَتَى ذَلِكَ؟ قَالَ:" **إذَا أَكَلُوا الرِّبَا وشَرَّفُوا الْبِنَاءَ، ولا يَزَالُ قَولُ لا إلَهَ إلاَّ اللَّهُ يَرُدُّ عَنِ الْعِبَادِ سَخَطَ اللَّهِ حَتَّى إذَا مَا يُبَالُوا مَا أُرْزِيَ مِنْ دِيْنِهِمْ إذَا سَلِمَتْ لَهُمْ دُنْيَاهُمْ، فَإِذَا قَالُوا لا إلَهَ إلاَّ اللَّهُ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: كَذَبْتُمْ، لَسْتُمْ بهَا بصَادِقِينَ.**"، وعن أبي الجلد حيلان بن فروة قال: "**لَيَحُلَّنَّ الْبَلاءُ عَلَى أَهْلِ الصَّلاةِ خُصُوصاً لا يُرَادُ غَيْرُهُمْ، والأُمَمُ حَولَهُمْ آمِنُونَ يَرْتَعُونَ، حَتَّى أَنَّ الرَّجُلَ لَيَرْجِعُ يَهُودِيّاً أَوْ نَصْرَانِيّاً.**" «حلية الأولياء» (٦/٥٦) .

(2) روى الطبراني في الكبير (١٠٢٦٨) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: "**إنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا إذَا عَمِلَ الْعَامِلُ مِنْهُمْ بالْخَطِيئَةِ نَهَاهُ النَّاهِي تَعْذِيرًا، حَتَّى إذَا كَانَ الْغَدُ جَالَسَهُ وَوَاكَلَهُ وَشَارَبَهُ، كَأَنَّهُ لَمْ يَرَهُ عَلَى خَطِيئَةٍ بالأَمْسِ، فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ ذَلِكَ مِنْهُمْ ضَرَبَ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ لَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ، لَتَأْمُرُنَّ بالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ لَيَلْعَنَنَّكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ.**" قال الهيثمي في المجمع: رجاله رجال الصحيح. ورواه أبو داوود في سننه برقم (٤٣٣٨) والترمذي برقم (٣٠٤٧) بنحوه، وقال الترمذي: حديث حسن غريب .

لِذَلِكَ بَيَّنَ سَيِّدُنَا عُمَرُ بْنُ الخَطَّاب ﷺ أَنَّ حُبَّهُ لِلْبَقَاءِ عَلَى وَجْهِ الدُّنْيَا مَرْبُوطٌ بِقِيَامِهِ بِهَذِهِ الأَعْمَال، ولَوْلاهَا لأَحَبَّ أَنْ يَلْحَقَ بالله ﷻ، حَيثُ قَالَ ﷺ : "**لَولا أَنْ أَسِيْرَ فِي سَبيلِ الله، أَوْ أَضعَ جَبِيْنِي لله فِي التُّرَاب، أَوْ أُجَالِسَ قَوماً يَلتَقِطُونَ طَيِّبَ الكَلامِ كَمَا يُلْتَقَطُ طَيِّبُ التَّمْرِ، لأَحْبَبْتُ أَنْ أَلْحَقَ بالله** " [(١)] .

وقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ ﷺ :" **لَولا ثَلاثٌ لأَحْبَبْتُ أَنْ أَكُونَ فِي بَطْنِ الأَرْضِ لا عَلَى ظَهْرِهَا، لَولا إِخْوَانٌ لِيْ يَأْتُونِي يَنْتَقُونَ طَيِّبَ الكَلامِ كَمَا يَنْتَقُونَ طَيِّبَ التَّمْر، أَوْ أُعَفِّرَ وَجْهِي سَاجِداً للهِ ﷻ، أَوْ غَدْوَةٌ أَوْ رَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ الله** "[(٢)] .

وقَالَ الله ﷻ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[آل عمران: ١٦٤]، فَهَذِهِ الوَاجبَاتُ وَهِيَ الدَّعْوَةُ إلى الله ﷻ بوَاسِطَةِ تِلاوَةِ آيَاتِهِ وَالتَّزْكِيَةُ وتَعْلِيمُ الكِتَاب والحِكْمَةِ هِيَ وَاجبَاتُ النُّبُوَّةِ الَّتِي طُولِبَ الرَّسُولُ ﷺ بالقِيَام بِهَا؛ وَالثَّابتُ مِنْ نُصُوص القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ الصَّحِيْحَةِ أَنَّ أُمَّةَ خَاتَمِ النَّبِيِّيْنَ ﷺ مَبْعُوثَةٌ إلى أُمَمِ العَالَمِ كَافَّةً اتِّبَاعاً لِنَبِيِّهَا ﷺ ونِيَابَةً عَنهُ، يَقُولُ الله ﷻ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فَالأُمَّةُ الْمُسْلِمَةُ تَنُوبُ عَنْ نَبِيِّهَا ﷺ فِي الدَّعْوَةِ إلى الْخَيْرِ والأَمْر بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَلِذَلِكَ مَا كُلِّفَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ وَاجبَاتِ النُّبُوَّةِ مِنَ الدَّعوةِ إلى الله ﷻ بتِلاوَةِ الآيَاتِ والتَّزْكِيَةِ وتَعْلِيمِ الْكِتَاب والحِكْمَةِ، فَإِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ الْمُسْلِمَةَ كُلِّفَتْ بهَا أَيْضاً، وَالنَّبِيُّ ﷺ رَبَّى أُمَّتَهُ عَلَى التَّضْحِيَةِ بالْمَال والنَّفْس لِلدَّعْوَةِ إلى الله ﷻ وَالتَّعْلِيم والتَّعَلُّم وَالذِّكْرِ والعِبَادَةِ، وقَدَّمَتْ هَذِهِ الأَعْمَالَ عَلَى الأَشْغَال الدُّنْيَوِيَّةِ، وهَكَذَا تَكَوَّنَتْ أَرْقَى طَبَقَةٍ مِنْ هَذِهِ الأُمَّة مُنْطَبعَةً بمِزَاجِ الأَنْبيَاءِ عليهم السلام، مُتَّصِفَةً بِالْمُجَاهَدَةِ والتَّضْحِيَةِ وَالإِيْثَار امْتِثَالاً لِقَولِهِ ﷻ: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨]،

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه برقم (٣٤٤٦٦) .

(٢) رواه أحمد في «الزهد» (٧٢٦) .

وَالْقَرْنُ الَّذِي قَامَتْ فِيهِ عَامَّةُ الأُمَّةِ مُجْتَمِعَةً بِكَافَّةِ تِلْكَ الأَعْمَال، مِنَ الدَّعْوَةِ إلى الله ﷻ والتَّعْلِيمِ والتَّعَلُّمِ والذِّكْرِ والْعِبَادةِ مَعَ الخِدْمَةِ والإِكْرَامِ وَالأَخْلاقِ الفَاضِلَةِ شَهِدَ لَهُ النَّبيُّ ﷺ بأَنَّهُ خَيْرُ القُرُونِ [(١)] .

فَالْخُرُوجُ في سَبِيلِ الله ﷻ لإعْلاءِ كَلِمَةِ الله وإحْيَاءِ دِيْنِهِ وَدَعْوَةِ الخَلْقِ إِلَيْهِ، وَالقِيَامُ بِعِبَادَةِ الْحَقِّ ﷻ، ومُجَالَسَةُ الصَّالِحِينَ لِلتَّعْلِيمِ والتَّعَلُّمِ فِيْمَا يَنْفَعُ الإِنْسَانَ في مَعَاشِهِ ومَعَادِهِ، والقِيَامُ بِإِكْرَامِ النَّاسِ وَخِدْمَتِهِم وَالتَّخَلُّقِ مَعَهُم بالأَخْلاقِ الْمُفْضِيَةِ إِلَى الْهِدَايَةِ، هَذِهِ الأَعْمَالُ هِيَ رُوحُ الدِّيْنِ الَّذِي هُوَ سَبَبُ كُلِّ خَيْرٍ في الدُّنْيَا والآخِرَةِ .

فَائِـــــــدَة

جَاءَ في رِوَايَةِ الطَّبَرَانِيِّ لِهَذَا الحَدِيثِ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ حَبِيْبٍ الْمُحَارِبِيِّ أَنَّهُ دَخَلَ هُوَ ومَكْحُولٌ وثَابِتُ بْنُ مَعْبَدٍ ونَفَرٌ عَلَى أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ ؓ ، فَكَانَ أَوَّلَ مَا حَدَّثَهُمْ أَنْ قَالَ: **إنَّ مَجْلِسَكُمْ هَذَا مِنْ بَلاغِ الله إيَّاكُمْ وَحُجَّتِهِ عَلَيْكُمْ، إنَّ رَسُولَ الله ﷺ بَلَّغَ مَا أُرْسِلَ بِهِ، وَإِنَّ أَصْحَابَهُ قَدْ بَلَّغُوا مَا سَمِعُوا، فَبَلِّغُوا مَا تَسْمَعُونَ :"ثَلاثَةٌ كُلُّهُمْ ضَامِنٌ عَلَى الله ﷻ....الحديث** .[(٢)] وفي رِوَايَةٍ أُخْرَى عَنْ مَكْحُولٍ، قَالَ: دَخَلْتُ أَنَا وَابْنُ أَبِي زَكَرِيَّا وَسُلَيْمَانُ بْنُ حَبِيبٍ عَلَى أَبِي أُمَامَةَ بِحِمْصَ، فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ، فَقَالَ:" **إنَّ مَجْلِسَكُمْ هَذَا مِنْ إبْلاغِ الله لَكُمْ، واحْتِجَاجِهِ عَلَيْكُمْ، وَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ بَلَّغَ فَبَلِّغُوا** "[(٣)]. وفي رِوَايَةٍ عَنْ سُلَيْمِ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: كُنَّا نَجْلِسُ إِلَى أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ، فَيُحَدِّثُنَا حَدِيثًا

---

(١) من مقدمة كتاب «الشيخ محمد إلياس ودعوته الدينية» للعلامة السيد سليمان الندوي .

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٧٤٩٣) وقال الهيثمي في المجمع: فيه كلثوم بن زياد وبكر بن سهل الدمياطي وكلاهما وُثِّقَ وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح .

(٣) رواه الطبراني في الكبير (٧٦١٤) وقال الهيثمي في المجمع: إسناده حسن .

كَثِيرًا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَإِذَا سَكَتَ قَالَ:" **أَعَقَلْتُمْ؟ بَلِّغُوا كَمَا بُلِّغْتُم** ." [(١)] وفي رِوَايَةٍ عَنهُ فَيَقُولُ: "**بَلِّغُوْا عَنَّا فقَدْ بَلَّغْنَاكُمْ**". يَرَى أَنَّ حَقّاً عَلَيْهِ أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ [(٢)] .

وفي هَذَا أَوْضَحُ دَلِيْلٍ عَلَى حِرْصِ الصَّحَابَةِ ﷺ عَلَى تَبْلِيغِ مَا جَاءَ عَنِ النَّبيِّ ﷺ وحِرْصِهِم عَلَى إِقَامَةِ الأُمَّةِ عَلَى تَبْلِيْغِ مَا يَصِلُ إِلَيْهِمْ مِنْ مِيْرَاثِ النُّبُوَّةِ ولَوْ كَانَ حَدِيثاً وَاحِداً، وهَذَا مِنْ فَهْمِهِمْ لِلْمَسْؤُولِيَّةِ العُظْمَى الَّتِي أَنَاطَهَا اللَّهُ ﷻ بِهَذِهِ الأُمَّةِ، حَيْثُ جَعَلَهُمْ نُوَّاباً عَنْ رَسُولِهِ ﷺ في تَبْلِيغِ الدِّيْنِ، فَقَالَ ﷺ : "**فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ**" [(٣)]، وقَالَ: "**نَضَّرَ اللَّهُ امْرَءًا سَمِعَ مِنَّا حَدِيْثاً فَبَلَّغَهُ.**" [(٤)]. وقَالَ ﷺ: "**بَلِّغُوْا عَنِّيْ وَلَوْ آيَةً**"[(٥)]. وقَالَ الْمُعَافَى النَّهْرَوَانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وقَالَ في الحَدِيثِ: «**ولَو آيةً**» أَيْ وَاحِدَةً، لِيُسَارِعَ كُلُّ سَامِعٍ إِلَى تَبْلِيغِ مَا وَقَعَ لَهُ مِنَ الآيِ ولَوْ قَلَّ، لِيَتَّصِلَ بذَلِك نَقْلُ جَمِيْعِ مَا جَاءَ بِهِ ﷺ [(٦)]. فَكُلُّ مَنْ سَمِعَ شَيْئاً في أَمْرِ الدِّيْنِ فَهُوَ خَلِيْفَتُهُ ﷺ في التَّبْلِيغِ، مَأْمُورٌ مِن جِهَتِهِ بِالبَيَانِ كَالْمَبْعُوثِ [(٧)] .

وقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: قَالَ ﷻ: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[الحجر: ٩٢]، وقَالَ ﷻ: ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ۝ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾[الأعراف: ٦-٧]، وقَالَ ﷻ: ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٨]، قَالَ مُقَاتِلٌ رَحِمَهُ اللَّهُ:" يَقُولُ ﷻ: ﴿ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ ﴾ لِكَيْ يَسأَلَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ - يَعْنِي النَّبِيِّيْنَ - عَنْ تَبْلِيْغِ الرِّسَالَةِ " .

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٧٦٧٣) وقال الهيثمي في المجمع: إسناده حسن .

(٢) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٧٨٦) .

(٣) رواه البخاري عن ابن عباس برقم (١٦٥٢) ورواه عن أبي بكر برقم (١٦٥٤) و(٦٦٦٧) .

(٤) تقدم تخريجه .

(٥) رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو برقم (٣٤٦١) .

(٦) «فتح الباري» (٦/٦٠٩) .

(٧) «أصول السرخسي» (١/٣٢٥) .

وقَالَ مُجاهِدٌ رَحِمَهُ اللَّهُ:" **يَسْأَلُ الْمُبَلِّغِينَ الْمُؤَدِّينَ عَنِ الرُّسُلِ- يَعْنِيْ: هَلْ بَلَّغُوا عَنْهُمْ- كَمَا يَسْأَلُ الرُّسُلَ هَلْ بَلَّغُوا عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** " .

وَالتَّحْقِيْقُ أَنَّ الآيَةَ تَتَنَاوَلُ هَذَا وَهَذَا، فَالصَّادِقُونَ هُمُ الرُّسُلُ وَالْمُبَلِّغُونَ عَنْهُمْ؛ فَيَسْأَلُ الرُّسُلَ عَنِ التَّبْلِيْغِ، وَيَسْأَلُ الْمُبَلِّغِيْنَ عَنْهُم عَنْ تَبْلِيْغِ مَا بَلَّغَهُمُ الرُّسُلُ، ثُمَّ يَسْأَلُ الَّذِينَ بَلَغَتْهُمُ الرِّسَالَةُ مَاذَا أَجَابُوا الْمُرْسَلِيْنَ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ**﴾ [المائدة: ١٠٩] [(١)] .

وكَانَ الإمَامُ مَالِكُ بْنُ أَنسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ:" **بَلَغَنِي أَنَّ الْعُلَمَاءَ يُسْأَلُونَ يوم الْقِيَامَةِ كَمَا يُسْأَلُ الأَنْبِيَاءُ - يَعْني عَنْ تَبْلِيْغِهِ** - ."[(٢)]؛ وقَالَ الإمَامُ الْغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : "**كُلُّ مَنْ تَعَلَّمَ مَسْأَلَةً واحِدَةً فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِهَا** " [(٣)]؛ فَعَلَى هَذَا مَنْ تَعَلَّمَ مَسْأَلَةً وَاحِدَةً فَإِنَّهُ يُسْأَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ تَبْلِيْغِهَا .

فَلِذَلِكَ بَادَرَ أَصْحَابُ النَّبيِّ ﷺ إلى تَبْلِيْغِ مَا سَمِعُوهُ مِنَ النَّبيِّ ﷺ، وأَقَامُوا مَنْ بَعْدَهُمْ عَلَى تَبْلِيْغِ مَا سَمِعُوهُ، وَكَانُوا يَخَافُونَ مِنْ كِتْمَانِ العِلْمِ أَكْثَرَ مِمَّا يَخَافُونَ مِنْ إِمْسَاكِ الْمَالِ مَعَ شِدَّةِ خَوْفِهِمْ مِنْ ذَلِكَ، وذَلِكَ لِعِظَمِ الْمَسْؤُولِيَّةِ فِي ذَلِكَ، وعِلْمِهِمْ بأَنَّهُم خُلَفَاءُ الرَّسُولِ ﷺ ونُوَّابُهُ فِي التَّبْلِيغِ عَنهُ، وهَكَذَا الأُمَّةُ مِنْ بَعْدِهِ .

*****

---

(١) «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» (٩٢/١) .

(٢) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٧٨٤) .

(٣) «إحياء علوم الدين» (٤٨١/٢) .

الْحَدِيْثُ الرَّابِعُ

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ عَامَ تَبُوكَ خَطَبَ النَّاسَ، وَهُوَ مُسْنِدٌ ظَهْرَهُ إِلى نَخْلَةٍ، فَقَالَ: "**أَلا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ النَّاسِ وَشَرِّ النَّاسِ؟ إِنَّ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ رَجُلاً عَمِلَ فِي سَبِيلِ الله عَلَى ظَهْرِ فَرَسِهِ، أَوْ عَلَى ظَهْرِ بَعِيرِهِ، أَوْ عَلَى قَدَمَيْهِ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْمَوْتُ، وَإِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ رَجُلاً فَاجِرًا جَرِيئًا، يَقْرَأُ كِتَابَ الله لا يَرْعَوِي إِلَى شَيْءٍ مِنْهُ** " [(١)] .

قوله (**أَلا أُخْبِرُكُمْ**) هَذَا لِلتَّنْبِيْهِ لَهُمْ عَلَى الإِصْغَاءِ إِلَيهِ، وَالإِقْبَالِ عَلَى مَا يُخْبِرُ بهِ، والتَّفَرُّغِ لِفَهْمِهِ .

قوله (**بِخَيْرِ النَّاسِ**) أَيْ أَفْضَلِهِمْ مَنْزِلَةً وأَكْثَرِهِمْ ثَوَاباً وأَرْفَعِهِم دَرَجَةً فِي الآخِرَةِ .

قوله(**رَجُلاً عَمِلَ فِي سَبِيلِ الله**) إِشَارَةٌ إِلى أَنَّهُ مُوَاظِبٌ عَلَى هَذَا العَمَلِ حَتَّى كَأَنَّهُ صَارَ حِرْفَتَهُ، بِحَيْثُ لا يَخْلُو غَالِباً مِنْ ذَلِكَ، وصَارَ هَذَا العَمَلُ مَقْصُودَهُ، يَقُومُ بِهِ عَلَى جَمِيعِ أَحْوَالِهِ فِي الشَّبَابِ والشَّيْخُوخَةِ، وفِي الصِّحَّةِ والْمَرَضِ، والْغِنَى والْفَقْرِ، والْعُسْرِ واليُسْرِ، والْمَنْشَطِ والْمَكْرَهِ .

قوله (**وَإِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ رَجُلاً فَاجِرًا**)، أَيْ مُنْبَعِثاً فِي الْمَعَاصِي .

قوله (**جَرِيئًا**) أَيْ هَجَّاماً قَوِيَّ الإِقْدَامِ عَلَى الْمَعَاصِي .

قوله (**لا يَرْعَوِي إِلَى شَيْءٍ مِنْهُ**) أَيْ لا يَنْكَفُّ ولا يَنْزَجِرُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ مَوَاعِظِ الْقُرْآنِ وَزَوَاجِرِهِ وَتَوْبِيخِهِ وَوَعِيدِهِ وتَقْرِيعِهِ، فصَارَ قَلْبُهُ مَنْكُوساً لا يَعْرِفُ مَعْرُوفاً ولا يُنْكِرُ مُنْكَراً.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١١٣١٩) والنسائي في سننه (٣١٠٦) والحاكم في المستدرك (٢٣٨٠) وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي. ورواه البيهقي في سننه من طريقه (١٨٢٨٣) ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٩٥٠٩) .

مَعْنَى الْحَدِيْثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ

يُبيِّنُ النَّبيُّ ﷺ أنَّ خيْرَ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ الله ﷻ وأرْفَعَهُم دَرَجَةً يومَ القِيامَةِ هُوَ رَجُلٌ جَعَلَ مَقْصُودَهُ إعْلاءَ كَلِمَةِ الله وإقَامَةَ دِينِهِ وإحْيَاءَ أوَامِرِهِ في الْخلْقِ، واجْتَهَدَ لِذلِكَ في جَميعِ أحْوَالِهِ، سَوَاءٌ كَانَ غَنيّاً أَوْ فَقيراً، صَحِيحاً أَوْ مَريضاً، رَاكِباً أَوْ مَاشِياً؛ وإنَّمَا تَحصَّلَ عَلَى هَذِهِ الخَيْريَّةِ بِسَبَبِ تَعدِّي نَفْعِ العَمَلِ الَّذِي يَقُومُ به إلى غَيرِهِ، وكَثْرَةِ الانْتِفاعِ بِهِ بإدْخَالِ النَّاسِ في دِيْنِ الله ﷻ، وإزَالَةِ العَوائِقِ أَمَامَ دَعْوَةِ الحَقِّ، وهَذِهِ الْعِلَّةُ هِيَ نَفْسُهَا عِلَّةُ تَفْضِيلِ هَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى سَائِرِ الأُمَمِ، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] .

وقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ في هَذِهِ الآيَةِ: "**خَيْرُ النَّاسِ لِلنَّاسِ** – أَيْ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ –، **تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلاسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الإِسْلامِ** ."[(١)]، فَهُمْ يَبْذُلُونَ أَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ فِي الدَّعْوَةِ وَالْجِهَادِ لِنَفْعِ النَّاسِ، فَهُمْ خَيْرُ الأُمَمِ لِلْخَلْقِ، وَالْخَلْقُ عِيَالُ الله، فَأَحَبُّهُمْ إِلَى الله أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ، وَكَمَّلُوا أَمْرَ النَّاسِ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيَهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ مِنْ جِهَةِ الصِّفَةِ وَالْقَدْرِ، حَيْثُ أَمَرُوا بِكُلِّ مَعْرُوفٍ، وَنَهَوْا عَنْ كُلِّ مُنْكَرٍ لِكُلِّ أَحَدٍ، وَأَقَامُوا ذَلِكَ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ الله بِأَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَهَذَا كَمَالُ النَّفْعِ لِلْخَلْقِ [(٢)] .

ثُمَّ بَيَّنَ النَّبيُّ ﷺ أَنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ الله ﷻ هُوَ الرَّجُلُ الْفَاجِرُ الَّذِي لا يَتَأَثَّرُ مِنْ مَوَاعِظِ الْقُرْآنِ، فَلا يَعْمَلُ بِمُحْكَمِهِ، فَيُحِلُّ حَلالَهُ ويُحَرِّمُ حَرَامَهُ، ولا يُؤْمِنُ بِمُتَشَابِهِهِ، ولا يَتَأَثَّرُ مِنْ وَعْدِهِ ووَعِيدِهِ، فقَلْبُهُ كَالأَرْضِ الجَدْبَاءِ، لا تُمسكُ الْمَاءَ لِيَنْتَفِعَ بِهِ النَّاسُ، ولا تُنْبِتُ الشَّجَرَ فَيَنْتَفِعُ بِهَا صَاحِبُهَا، فَهُوَ جَرِيْءٌ عَلَى مَعَاصِي الله ﷻ لا يَرْجُو لله وَقَاراً .

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة برقم (٤٥٥٧) .

(٢) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٨/١٢٣) .

فائـــــــدة

رَوَى البُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ مُخَاطِباً أَصْحَابَهُ: "**فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِيْنَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِيْنَ**" [(١)]، ومَعْلُومٌ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوْحَى، وهُوَ أَفْصَحُ مَنْ تَكَلَّمَ بالعَرَبِيَّةِ، فَاخْتِيَارُهُ ﷺ لِلَفْظِ الْبِعْثَةِ دُونَ غَيْرِهِ مَعَ اسْتِعْمَالِهِ بِكَثْرَةٍ فِي القُرْآنِ الكَرِيْمِ فِي حَقِّ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ يَدُلُّ حَقِيقَةً عَلَى أَنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ مَبْعُوثَةٌ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى النَّاسِ كَافَّةً كَمَا بُعِثَ نَبِيُّهَا ﷺ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، فَهِيَ تَقُومُ بنِيَابَةِ نَبِيِّهَا فِي تَبْلِيْغِ الدِّينِ لِلنَّاسِ جَمِيعاً، لِذَلِكَ قَالَ رِبْعِيُّ بْنُ عَامِرٍ ﷺ لِرُسْتُمَ مَلِكِ الفُرْسِ مُبَيِّناً ومُفْصِحاً عَنْ مَقْصَدِ هَذِهِ الأُمَّةِ: "**اللَّهُ ابْتَعَثَنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سَعَتِهَا وَمِنْ جَوْرِ الأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الإِسْلامِ، فَأَرْسَلَنَا بِدِيْنِهِ إِلَى خَلْقِهِ لِنَدْعُوَهُمْ إِلَيْهِ** ."[(٢)]؛ وقَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيد ﷺ لِبَاهَانَ عَامِلِ مَلِكِ الرُّومِ: "**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ أُمَّتَنَا تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتُقِرُّ بِالذَّنْبِ وَتَسْتَغْفِرُ مِنهُ، وَتَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ وَلا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً** " [(٣)] .

فأَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ أَفْضَلُ مَنْ فَقِهَ عَلَى اللَّهِ وعلى رَسُولِه ﷺ، فَهُم خَيْرُ هَذِهِ الأُمَّةِ، أَبَرُّهَا قُلُوباً، وَأَلْيَنُهَا أَفْئِدَةً، وَأَعْمَقُهَا عِلْماً، وَأَقَلُّهَا تَكَلُّفاً، قَوْمٌ اخْتَارَهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ والأَخْذِ عَنْهُ، وجَعَلَهُم نُجُوماً يُهْتَدَى بِهَا فِي الظُّلُمَاتِ، فَآمَنُوا بِدَعْوَتِهِ، وصَدَّقَتْهَا قُلُوبُهُمْ، ووَضَعُوا أَيدِيَهُمْ فِي يَدِهِ، وهَانَتْ عَلَيهِمْ نُفُوسُهُمْ ونَفَائِسُهُمْ وأَمْوَالُهُم وعَشِيرَتُهُم وتِجَارَاتُهُمْ ومساكِنُهُم وأَوْطَانُهُم فِي جَنْبِ اللَّهِ، وَاسْتَطَابُوا الْمَرَارَاتِ والْمَكَارِهَ فِي سَبِيلِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإِخْرَاجِ العِبَادِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إلى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، ومِنْ جَورِ الأَدْيَانِ إلى عَدْلِ الإِسْلامِ، ومِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إلى سَعَتِهَا، وهَجَرُوا رَاحَاتِهِمْ وبَذَلُوا مُهَجَهُمْ وَحُرَّ أَمْوَالِهِمْ، وَاسْتَتَمُّوا بوَعْدِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ وأَطَاعُوهُ فِي أَمْرِهِ، مَعَ عِظَمِ الْمُؤْنَةِ واسْتِبْدَادِ

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة برقم (٢٢٠) و(٦١٢٨) .

(٢) «البداية والنهاية» (٧/٣٩) و«تاريخ الطبري» (٣/٥١٨) .

(٣) «الإكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء» للكلاعي الأندلسي (٣/٢٤٧) .

الرَّزيَّةِ، وبُعْدِ الشُّقَّةِ وقِلَّةِ ذَاتِ الْيَدِ، ولَكِنَّهُمْ هَانَ عَلَيهِم ذَلِكَ كُلُّهُ فِي جَنْبِ اللَّهِ، رَغْبَةً فِي عَظِيمِ ثَوَابِهِ، وإِيْثاراً لِمَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى، وَانْتَشَرُوا فِي مَشَارِقِ الأَرْضِ ومَغَارِبِهَا، حَتَّى عَمَّ الإِسْلامُ أَرْجَاءَ الْمَعْمُورَةِ، وفُتِحَتِ الْبِلادُ وقُلُوبُ الْعِبَادِ، وقَامَتْ دَوْلَةُ التَّوحِيدِ، وَانْتَشَرَتِ الْهِدَايَةُ فِي العَالَمِ، وَدَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً .

ولَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ جزَاهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ جنْسِ عَمَلِهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يَتَكَرَّمُ عَلَيهِ أَحَدٌ، وهُوَ أَكْرَمُ الأَكْرَمِينَ، فَمَنْ تَرَكَ لِوَجْهِهِ أَمْراً أو فَعَلَهُ لِوَجْهِهِ بَدَّلَ اللَّهُ لَهُ أَضْعَافَ مَا تَرَكَهُ مِنْ ذَلِكَ الأَمْرِ أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً، وجَازَاهُ بِأَضْعَافِ مَا فَعَلَهُ لأَجْلِهِ أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً، فَإِنَّهُ لَمَّا أُمِرَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بذَبْحِ وَلَدِهِ فبَادَرَ لأَمْرِ اللَّهِ، ووافَقَ عَلَيْهِ الْوَلَدُ أَبَاهُ رِضَاءً مِنْهُمَا وتَسْلِيماً، وعَلِمَ اللَّهُ مِنْهُمَا الصِّدْقَ والوَفَاءَ، فَدَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ، وأَعْطَاهُمَا مَا أَعْطَاهُمَا مِنْ فَضْلِهِ، وكَانَ بَعْضُ عَطَايَاهُ أَنْ بَارَكَ فِي ذرِّيَّتِهِمَا حَتَّى مَلَؤُوا الأَرْضَ، فَإِنَّ الْمَقْصُودَ بالوَلَدِ إِنَّمَا هُوَ التَّنَاسُلُ وتَكْثِيرُ الذُّرِّيَّةِ، ولِهَذَا قال إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[الصافات: ١٠٠]، وقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾[إبراهيم: ٤٠]، فَغَايَةُ مَا يُحْذَرُ ويُخْشَى مِنْ ذَبْحِ وَلَدِهِ انْقِطَاعُ نَسْلِهِ، فَلَمَّا بَذَلَ وَلَدَهُ لله وبَذَلَ الوَلَدُ نَفْسَهُ، ضَاعَفَ اللَّهُ لَهُ النَّسْلَ وبَارَكَ فِيْهِ وكَثُرَ حَتَّى مَلَؤُوا الدُّنْيَا، وَجَعَلَ النُّبُوَّةَ فِي ذُرِّيَّتِهِ خَاصَّةً، وأَخْرَجَ مِنهُم مُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ... فَجَعَلَ مِنْ نَسْلِهِ هَاتَيْنِ الأُمَّتَيْنِ العَظِيْمَتَينِ اللَّتَيْنِ لا يُحْصِي عَدَدَهُمْ إِلاَّ اللَّهُ خَالِقُهُم ورَازِقُهُم، وهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ وبَنُو إِسْمَاعِيلَ، هَذَا سِوَى مَا أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِهِ مِنْ رَفْعِ الذِّكْرِ والثَّنَاءِ الجَمِيلِ عَلَى أَلْسِنَةِ جَمِيعِ الأُمَمِ وفِي السَّمَاوَاتِ بَيْنَ الْمَلائِكَةِ، فَهَذَا بَعْضٌ مِنْ ثَمَرَةِ مُعَامَلَتِهِ [(١)]؛ وقَالَ قَتَادَةُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"إِنَّ اللَّهَ حَبَّبَهُ إِلَى كُلِّ الْخَلْقِ، فَكُلُّ أَهْلِ الأَدْيَانِ يُقِرُّونَ بِهِ، أَمَّا الْمُسْلِمُونَ وَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فَظَاهِرٌ، وَأَمَّا كُفَّارُ قُرَيْشٍ وَسَائِرُ الْعَرَبِ فَلا فَخْرَ لَهُمْ إِلاَّ بِهِ"** [(٢)] .

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/٣٤١) .

(٢) «التفسير الكبير» للرازي (١٩/١١٠) .

وهَكَذَا كَانَتِ الْمُعَامَلَةُ مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَعَ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم حِيْنَمَا بَذَلُوا أَمْوَالَهُم وأَنْفُسَهُمْ لأَجْلِهِ، لإِحْيَاءِ دِيْنِهِ ونُصْرَةِ نَبِيِّهِ ﷺ، وتَرَكُوا شُؤُونَ أَنْفُسِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةَ، وتَفَرَّغُوا لِلعَمَلِ فِي سَبِيلِ رَبِّهِمْ عز وجل، فَأَكْرَمَهُم أَيَّمَا إِكْرَامٍ، وأَعَزَّهُمْ أَيَّمَا عِزَّةٍ، فَأَخْرَجَهُمْ من الظُّلُمَاتِ إِلى النُّورِ حَتَّى صَارُوا مَنَارَاتٍ يُسْتَضَاءُ بِهَا، ونُجُوماً يُهْتَدَى بِهَا فِي الظُّلُمَاتِ، وَصَيَّرَهُمْ رُعَاةً لِلأُمَمِ بَعدَ أَنْ كانوا رُعَاةً للغَنَمِ [(١)]، ومَكَّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَاسْتَخْلَفَهُمْ فِيهَا، وبَدَّلَهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوفِهِمْ أَمْناً، ومِنْ بَعْدِ جُوْعِهِمْ رِزْقاً رَغِيداً يَأْتِيهِم مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، ومِنْ بَعْدِ ضَعْفِهِمْ وقِلَّتِهِمْ وذِلَّتِهِمْ قُوَّةً وكَثْرَةً وعِزّاً، وأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْبَرَكَاتِ مِنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ، ورَزَقَهُمْ ونَصَرَهُمْ مِنْ حيثُ لا يَحْتَسِبُونَ، وسَخَّرَ لَهُم جُنُودَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، فأَنْزَلَ الْمَلائِكَةَ تُقَاتِلُ مَعَهُم، وتَحْفَظُهُمْ مِنْ أَعْدَائِهِم وتُشَيِّعُ جَنَائِزَهُم، ونَصَرَهُمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ بالرُّعْبِ، وَانْتَفَضَتْ غُرَفُ أَعْدَائِهِم بتَكْبِيرِهِمْ وتَهْلِيلِهِم، وأَخْضَعَ لَهُمُ السِّبَاعَ، وذَلَّلَ لَهُمُ البِحَارَ والأَنْهَارَ يَمْشُونَ عَلَيْهَا خِدْمَةً وإكراماً لَهُم، لِقِيَامِهِم بخِدْمَةِ دِينِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كَمَا نَصَرَهُم بِإِنْزَالِ الْمَطَرِ وإِرْسَالِ الرِّيحِ عَلَى أَعْدَائِهِم، وهَذِهِ سُنَّةُ اللهِ عز وجل الَّتِي لا تَتَبَدَّلُ ولا تَتَحَوَّلُ، كَمَا قَالَ ﷺ :**"مَا تَرَكَ عَبْدٌ شَيْئاً للهِ لا يَتْرُكُهُ إِلاَّ لَهُ، إِلاَّ عَوَّضَهُ اللهُ مِنهُ مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ مِنهُ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ"** [(٢)]، وَالْعِوَضُ أَنْوَاعٌ مُخْتَلِفَةٌ، وأَجَلُّ ما يُعَوِّضُهُ بِهِ الأُنْسُ باللهِ، ومَحَبَّتُهُ وطُمَأْنِينَةُ الْقَلْبِ بِهِ، وقُوَّتُهُ ونَشَاطُهُ وفَرَحُهُ، ورِضَاهُ عَنْ رَبِّهِ عز وجل [(٣)] .

---

(١) روى مسلم في صحيحه (٧٦٢٥) عن عتبة بن غزوان رضي الله عنه قال: **"وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا لَنَا طَعَامٌ إِلاَّ وَرَقُ الشَّجَرِ حَتَّى قَرِحَتْ أَشْدَاقُنَا، فَالْتَقَطْتُ بُرْدَةً، فَشَقَقْتُهَا بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ، فَاتَّزَرْتُ بِنِصْفِهَا وَاتَّزَرَ سَعْدٌ بِنِصْفِهَا، فَمَا أَصْبَحَ الْيَوْمَ مِنَّا أَحَدٌ إِلاَّ أَصْبَحَ أَمِيرًا عَلَى مِصْرٍ مِنَ الأَمْصَارِ".**

(٢) حديث صحيح، رواه أبو نعيم في «الحلية» عن ابن عمر مرفوعاً وقال: غريب. لكن له شواهد، منها ما رواه التيميُّ في ترغيبه عن أبيِّ بن كعب مرفوعاً بلفظ: **"مَا تَرَكَ عَبْدٌ شَيْئاً لا يَدَعُهُ إِلاَّ للهِ إِلاَّ آتَاهُ اللهُ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ"** ولأحمد عن قتادة وأبي الدهماء أَنَّهُمَا نَزَلا عَلَى رجل من البادية فقال له: هل سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً؟ قال: نعم، سمعته يقول: **"إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئاً للهِ إِلاَّ أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنهُ"** وفي لفظ له أيضاً **"إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئاً اتِّقَاءَ اللهِ إِلاَّ أَعْطَاكَ اللهُ خَيْراً مِنهُ"**، ورجاله رجال الصحيح، وأخرجه ابن عساكر عن ابن عمر مرفوعاً ... «كشف الخفاء» للعجلوني (١٨٣/٢) و«المقاصد الحسنة» للسخاوي (٥٧٦/١) ورواه ابن المبارك في «الزهد» عن أبي بن كعب موقوفاً برقم (٣٦) وأبو داوود في «الزهد» برقم (١٩١) .

(٣) «الفوائد» لابن القيم ص (١٥٧) .

فَهَؤُلاءِ قَوْمٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ، وَوَفَّوْا بِبَيْعَتِهِمْ إِيَّاهُ عَلَى نُصْرَةِ دِينِهِ وإِعْلاءِ كَلِمَتِهِ، فَصَدَقَهُمُ اللَّهُ ووَفَّى لَهُمْ بِمَا وَعَدَهُمْ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا خُلْفَ لِوَعْدِهِ، وَلا رَيْبَ فِي قَوْلِهِ، وكَفَاهُمْ دُنْيَاهُم وأُخْرَاهُم، وَبَشَّرَهُمْ بِالْجَنَّةِ وهُمْ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ، هَذَا وَوَعْدُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يَزَلْ قَائِماً لِلأُمَّةِ إِنْ هِيَ رَجَعَتْ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُهَا، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ ﴾ [الأنفال: ١٩]، وقَالَ: ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾[الإسراء:٨] .

ولَمَّا اتَّصَلَ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم باللهِ عَزَّ وَجَلَّ وأَحَبُّوا مَا يُحِبُّ، وأَبْغَضُوا مَا يُبْغِضُ، وَوَالَوْا مَنْ يُوَالِيْهِ، وَعَادَوْا مَنْ يُعَادِيْهِ، وَرَضُوا لِرِضَاهُ، وغَضِبُوا لِغَضَبِهِ، وأَمَرُوْا بِمَا أَمَرَ بِهِ، ونَهَوْا عَمَّا نَهَى عَنهُ، وَاجْتَهَدُوْا لِنَشْرِ مَحْبُوبَاتِهِ فِي خَلْقِهِ، عَامَلَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِمِثْلِ مُعَامَلَتِهِمْ إِيَّاهُ، فَصَارَ يَرْضَى لِرِضَاهُمْ، ويَغْضَبُ لِغَضَبِهِمْ ويُوَالِي مَنْ وَالاهُمْ، ويُعَادِيْ مَنْ عَادَاهُمْ، وقَذَفَ فِي قُلُوبِ أَعْدَائِهِمُ الْمَهَابَةَ وَالرُّعْبَ مِنْهُم، كَمَا قَالَ رُسْتُمُ:" **أَكَلَ عُمَرُ كَبِدِيْ** " [(١)] .

وكَانَ أَعْدَاؤُهُمْ يُقِرُّونَ أَنَّهُمْ عَلَى كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ وَعَتَادِهِمْ لا طَاقَةَ لَهُمْ بِقِتَالِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم، لأَنَّهُمْ مُتَّصِلُونَ بِمَصْدَرِ الْقُوَّةِ الَّتِي لا تُهْزَمُ، وَالْعِزَّةِ الَّتِي لا تُغْلَبُ، فَهَا هُوَ صَاحِبُ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ يَقُولُ لِعَمْرِو بْنِ العَاصِ رضي الله عنه:" **إِنَّ رَسُولَكُمْ قَدْ صَدَقَ، قَدْ جَاءَتْنَا رُسُلُنَا بِمِثْلِ الَّذِي جَاءَكُمْ بِهِ رَسُولُكُمْ، فَكُنَّا عَلَيْهِ حَتَّى ظَهَرَ فِيْنَا مُلُوكٌ، فَجعَلُوا يَعْمَلُونَ فِيْنَا بِأَهْوَائِهِمْ وَيَتْرُكُونَ أَمْرَ الأَنْبِيَاءِ، فَإِنْ أَنْتُمْ أَخَذْتُمْ بِأَمْرِ نَبِيِّكُمْ لَمْ يُقَاتِلْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبْتُمُوهُ، وَلَمْ يَتَنَاوَلْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ ظَهَرْتُم عَلَيْهِ، فَإِذَا فَعَلْتُمُ الَّذِي فَعَلْنَا، وَتَرَكْتُمْ أَمْرَ الأَنْبِيَاءِ، وَعَمِلْتُمْ مِثْلَ الَّذِي عَمِلُوا بِأَهْوَائِهِمْ، خُلِّيَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، فَلَمْ تَكُونُوا أَكْثَرَ مِنَّا عَدَداً، وَلا أَشَدَّ مِنَّا قُوَّةً** " [(٢)] .

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تاريخه» (٣/٤٥) .

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه برقم (٦٥٦٤) قال الهيثمي: وفيه محمد بن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث، وبقيَّةُ رجاله ثقات. ورواه أبو يعلى في مسنده عن علقمة بن وقاص برقم (٧٣٥٣) قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير عمرو بن علقمة وهو ثقة .

وعَنْ أَبِي إِسْحَاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ، قَالَ: **كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لا يَثْبُتُ لَهُمُ الْعَدُوُّ فُوَاقَ نَاقَةٍ عِنْدَ اللِّقَاءِ، فَقَالَ هِرَقْلُ وهُوَ عَلَى أَنْطَاكِيَةَ لَمَّا قَدِمَتْ مُنهزِمَةُ الرُّومِ: وَيْلَكُمْ! أَخْبِرُونِي عَنْ هَؤُلاءِ الْقَومِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ، أَلَيْسُوا بَشَراً مِثْلَكُمْ ؟! قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَأَنْتُمْ أَكْثَرُ أَمْ هُمْ؟ قَالُوا: بَلْ نَحْنُ أَكْثَرُ مِنهُمْ أَضْعَافاً فِي كُلِّ مَوْطِنٍ، قَالَ: فَمَا بَالُكُمْ تَنْهَزِمُونَ؟ فَقَالَ شَيخٌ مِنْ عُظَمَائِهِم: مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ يَقُومُونَ اللَّيْلَ وَيَصُومُونَ النَّهَارَ، وَيُوفُونَ بِالْعَهْدِ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنهَونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيَتَنَاصَحُونَ بَيْنَهُمْ** [(١)] .

وَوَصَفَ أَحَدُ نَصَارَى الْعَرَبِ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ أَمَامَ الْقُبُقْلارِ بَعْدَ أَنْ أَقَامَ يَوماً ولَيْلَةً فَقَالَ: "**بِاللَّيْلِ رُهْبَانٌ وَبِالنَّهَارِ فُرْسَانٌ، وَلَوْ سَرَقَ ابْنُ مَلِكِهِمْ قَطَعُوا يَدَهُ، وَلَوْ زَنَى رُجِمَ، لإِقَامَةِ الْحَقِّ فِيهِمْ**". فَقَالَ لَهُ الْقُبُقْلارُ:" **لَئِنْ كُنتَ صَدَقْتَنِي لَبَطْنُ الأَرْضِ خَيْرٌ مِنْ لِقَاءِ هَؤُلاءِ عَلَى ظَهْرِهَا، وَلَوَدِدْتُ أَنَّ حَظِّيَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَلا يَنْصُرَنِي عَلَيْهِمْ، وَلا يَنْصُرَهُمْ عَلَيَّ** ."[(٢)]، وقَالَ هِرَقْلُ لِمَنْ وَصَفَ لَهُ الصَّحَابَةَ رضي الله عنهم، وَكَانَ أَسِيراً فِي أَيْدِيْهِمْ:" **لَئِنْ كُنْتَ صَدَقْتَنِي لَيَرِثُنَّ مَا تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ** " [(٣)] .

وكَتَبَ مَلِكُ الصِّينِ إِلَى يَزْدَجَرْدَ مَلِكِ الْفُرسِ لَمَّا كَتَبَ إِلَيْهِ يَسْتَمِدُّهُ وَيَسْتَعِينُهُ عَلَى قِتَالِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم وَوَصَفَهُمْ لَهُ:" **إِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أَبْعَثَ إِلَيْكَ بِجَيْشٍ أَوَّلُهُ بِمَرْوَ**[(٤)] **وَآخِرُهُ بِالصِّينِ الْجَهَالَةُ بِمَا يَحِقُّ عَلَيَّ، وَلَكِنَّ هَؤُلاءِ الْقَوْمَ الَّذِينَ وَصَفَ لِي رَسُولُكَ صِفَتَهُمْ لَوْ يُحَاوِلُونَ الْجِبَالَ لَهَدُّوهَا، وَلَوْ خُلِّيَ لَهُمْ سِرْبُهُمْ**[(٥)] **أَزَالُونِي مَا دَامُوا عَلَى مَا وَصَفَ، فَسَالِمْهُمْ وَارْضَ مِنهُمْ بِالْمُسَاكَنَةِ، وَلا تُهِجْهُمْ مَا لَمْ يُهَيِّجُوكَ** " [(٦)] .

---

(١) أخرجه أحمد بن مروان المالكي في «المجالسة» عن أبي إسحاق (١٢٥٩) وابن عساكر في «تاريخ دمشق» بنحوه (٢/٩٧) .

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «تاريخه» (٢/٦١٠) .

(٣) المصدر السابق (٣/٩٩) .

(٤) هي أشهر مدن خراسان وقصبتها وهي العظمى، بينها وبين نيسابور سبعون فرسخاً، والآن تابعة لروسيا

(٥) يعني: لو وَجَدُوا طَرِيقاً إِلَيَّ .

(٦) أخرجه ابن جرير الطبري في «تاريخه» (٣/٢٤٩) .

وبَعْدَ هَذَا فنُصْرَةُ هَذِهِ الأُمَّةِ وعِزَّتُها لَيْسَتْ مَرْبُوطَةً بِسَبَبٍ مِنَ الأَسْبَابِ إلاَّ بِقِيَامِهَا بِتَبْلِيغِ رِسَالَةِ رَبِّهَا ﷻ إلى الخَلْقِ، مَعَ الصِّفَاتِ الَّتِيْ يُحِبُّهَا الله ﷻ، فإذَا أَرَادَتِ الأُمَّةُ أَنْ تَنَالَ مَا نَالُوهُ، وتَتَحَصَّلَ عَلَى مَا حَصَّلُوهُ، فَعَلَيْهَا أَنْ تَسْلُكَ سَبِيلَهُمْ فِي تَقْدِيْمِ مَحْبُوبَاتِ الله ﷻ وَالْجُهْدِ لإحْيَائِهَا في أَرْضِهِ عَلَى جَمِيعِ مَحْبُوبَاتِهِمْ مِنَ الآبَاءِ والأَبْنَاءِ والإخْوَانِ والأَزْوَاجِ والْعَشِيرَةِ والأَمْوَالِ والْمَسَاكِنِ والْمَتَاجِرِ والوَظَائِفِ والأَوْطَانِ .

فَإنْ شِئْتَ وَصْـلَ الْقَوْمِ فَاسْلُكْ سَبِيْلَهُمْ   فَقَدْ وَضَحَـتْ لِلسَّالِكِـينَ عِيَانـاً

فطاقاتُ الأُمَّةِ وَاسْتِعْدَادَاتُهَا لا تَزَالُ مَوْجُودَةً، ولَكِنَّهَا تُسْتَنْزَفُ تَبَعاً لِلْوِجْهَةِ الَّتِي تَقْصِدُهَا، فَلَمَّا قَصَدَتِ الأُمَّةُ إصْلاحَ دُنْيَاهَا وَاتَّبَعَتْ شَهَوَاتِهَا، وسَلَكَتْ سَبِيلَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِم وَالضَّالِّينَ فِي تَقْدِيْمِ مَحْبُوبَاتِ النَّفْسِ عَلَى مَحْبُوبَاتِ الرَّبِّ ﷻ، وفِي اتِّبَاعِ الْهَوَى وتَرْكِ الْهُدَى، لَمَّا وَقَعَتْ فِي ذَلِكَ انْشَغَلَتْ عَنِ الْمَقْصَدِ الَّذِي خُلِقَتْ لأَجْلِهِ، وضَعُفَ اسْتِعْدَادُهَا لِلقِيَامِ بِالْمَسْؤُولِيَّةِ العُظْمَى الْمُنَاطَةِ بِهَا، وَالَّتِي هِيَ سَبَبُ عِزَّتِهَا وكَرَامَتِهَا وخَيْرِيَّتِهَا، ولِهَذَا أَصَابَهَا الضَّعْفُ الَّذِي أَنْهَكَ قُوَاهَا، وفَقَدَتْ بِذَلِكَ قُوَّتَهَا الْحَقِيقِيَّةَ الَّتِي كَانَتْ تَحْمِي بِهَا الأَمْوَالَ والأَعْرَاضَ والعُقُولَ والقُلُوبَ والأَخْلاقَ والدِّينَ مِنْ فَتْكِ الشَّهَوَاتِ وَهَجَمَاتِ الشَّيَاطِينِ، وبِهَا خَضَعَتْ لَهَا سَائِرُ الأُمَمِ، وصَارَ أَفْرَادُ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ ذَلِكَ – وقَدْ خَفَتَ صَوْتُ الأُمَّةِ وَارْتَفَعَ صَوْتُ الشَّهَوَاتِ والْهَوَى وَالشَّيْطَانِ – كَالْعِقْدِ الَّذِي تَبَعْثَرَتْ حَبَّاتُهُ، أَوْ كَذَرَّاتِ الرِّمَالِ الَّتِي تَتَجَاذَبُهَا الرِّيَاحُ والأَهْوَاءُ الْمُخْتَلِفَةُ، فَضَلَّ النَّاسُ فِي الفَهْمِ والرَّأْيِ والْعَمَلِ، وَلا مُنْكِرَ وَلا مُرْشِدَ، وَانْحَلَّتِ الرَّابِطَةُ، وَتَفَرَّقَتِ الْكَلِمَةُ، وتَنَاكَرَتِ العُقُولُ والقُلُوبُ، وضَاعَتِ الْفَضِيلَةُ، وَحَلَّتِ الرَّذِيلَةُ، وَاسْتُبْدِلَ الْجَهْلُ بِالْعِلْمِ، وأَوْشَكَ أَنْ يَكُونَ الدِّينُ الْمَعْمُولُ بِهِ عِنْدَ الْجَمَاهِيرِ مَجْمُوعَةَ خُرَافَاتٍ وأَوْهَامٍ وضَلالاتٍ وبِدَعٍ ومُنْكَرَاتٍ وتَقَالِيدَ وعَادَاتٍ .

ولا عِلاجَ لضَعْفِ اسْتِعْدَادِ الأُمَّةِ إلاَّ فِي أَمْرٍ وَاحِدٍ، وهُوَ العِلاجُ القَدِيْمُ الَّذِي ثَبَتَ صَلاحُهُ، وتَأَكَّدَ نَجَاحُهُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وفِي كُلِّ مَكَانٍ، وسَارَ عَلَيهِ الأَنْبِيَاءُ عليهم السلام فِي تَبْلِيغِ

رِسَالاتِ رَبِّهِمْ ﷻ، وكَذَلِكَ الصَّالِحُونَ مِنْ بَعْدِهِمْ، ذَلِكَ العِلاجُ هُوَ إِقَامَةُ فَرِيْضَةِ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ .

إِنَّ النَّاسَ قَدْ أَفْلَحُوا وسَعِدُوا مَا عَمِلُوا بِهَذِهِ الفَرِيْضَةِ، وخَابُوا وشَقُوا مَا أَهْمَلُوهَا، فَكَمَا أَنَّ دَاءَنَا فِي تَرْكِهَا، كَذَلِكَ عِلاجُنَا فِي إِقَامَتِهَا، وقَدْ جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى العَمَلَ بِهَذِهِ الفَرِيْضَةِ أَمْراً ضَرُورِيّاً لِصِحَّةِ الإِيْمَانِ، وبَيَّنَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَيثُ قَالَ: **"مَنْ رَأَى مِنكُمْ مُنكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيْمَانِ."**(١)، وقَالَ ﷺ: **"مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ، يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لاَ يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيْمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ"** (٢) .

وَهِيَ أَعْظَمُ مَا فَرَضَ العَلِيْمُ الْحَكِيمُ عَلَى أَتْبَاعِ أَنْبِيَائِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَكَانَتْ ولا تَزَالُ إِقَامَتُهَا عِنْوَاناً عَلَى هِدَايَةِ النَّاسِ وسَعَادَتِهِمْ، وإِهْمَالُهَا دَلِيْلاً عَلَى ضَلالَتِهِمْ وخُسْرَانِهِمْ وَاسْتِحْقَاقِهِمُ اللَّعْنَةَ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾[المائدة: ٧٨-٧٩]، وقَالَ ﷺ: **"لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنهَوُنَّ عَنِ الْمُنكَرِ، أَوْ لَيُسَلِّطَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ شِرَارَكُمْ، ثُمَّ يَدْعُو خِيَارُكُمْ فَلا يُسْتَجَابُ لَهُمْ "** (٣)(٤) .

---

(١) رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري (١٨٦) .

(٢) رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود (١٨٨) .

(٣) رواه أحمد في مسنده عن حذيفة (٢٣٣١٢) والترمذي (٢١٦٩) ورواه الطبراني في الكبير عن أبي هريرة واللفظ له (٣٩٧)، وقال الترمذي: حديث حسن .

(٤) «مجلة المنار» (١٩/٢٤٤) بتصرف يسير .

الْحَدِيْثُ الْخَامِسُ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "مَنْ خَرَجَ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ وَتَنْجِيْزاً لِمَوْعُوْدِ اللهِ فَهُوَ مِثْلُ الصَّائِمِ الْقَائِمِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ، أَوْ مِنْ حَيْثُ خَرَجَ "[(١)].

قوله (خَرَجَ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ) أيْ لإعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ وإحْيَاءِ دِينِه .

قوله (ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ) أيْ طَلَباً لِمَرْضَاتِ اللهِ سبحانه وتعالى ودُخُولِ جَنَّتِهِ والنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الكَرِيمِ فيها. وفِيْهِ حَضٌّ لِلخَارِجِ فِي سَبِيلِ اللهِ عَلَى إِخْلاصِ العَمَلِ للهِ عز وجل، وَاسْتِخْلاصِهِ مِنْ جَمِيعِ الأَغْرَاضِ وحُظُوظِ النَّفْسِ، مِنْ طَلَبِ الدُّنْيَا وَالشُّهْرَةِ والْمَكَانَةِ فِي قُلُوبِ النَّاسِ، وهَذِهِ الْحُجُبُ الثَّلاثَةُ – أَعْنِي النَّفْسَ وَالدُّنْيَا وَالْخَلْقَ – هِيَ الَّتِي تَحُولُ بَيْنَ العَبْدِ ورَبِّهِ، وتَمْنَعُ مِنْ قَبُولِ الأَعْمَالِ، وَالتَّخَلُّصُ مِنْ هَذِهِ الْحُجُبِ الظُّلُمَاتِيَّةِ أَمْرٌ دَقِيقٌ وعَسِرٌ يَشُقُّ إِخْلاصُ العَمَلِ مِنْهَا، لأَنَّهُ يُعَارِضُ مُقْتَضَى الشَّهْوَةِ الَّتِي جُبِلَتِ النَّفْسُ عَلَيْهَا إلاَّ لِمَنِ اخْتَصَّهُ اللهُ سبحانه وتعالى بِلُطْفِهِ، وعَنَاهُ بِرعَايَتِهِ، ووَفَّقَهُ لِتَزْكِيَةِ نَفْسِهِ مِنْ دَرَنِ وشَوائِبِ التَّعَلُّقِ بِغَيرِهِ، فَطَهَّرَ قلبَهُ مِنَ الأَغْيَارِ والأَنْدَادِ، ولَمْ يَطْلُبْ بِعَمَلِهِ رِضَا غَيْرِ اللهِ عز وجل، وصَارَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَرْضَاةِ اللهِ عز وجل ولِمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ .

قوله (وَتَنْجِيْزاً لِمَوْعُوْدِ اللهِ) أيْ لِتَحْقِيقِ مَوْعُودِ اللهِ سبحانه وتعالى لِلمُؤْمِنِينَ بالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ وَالسَّنَاءِ والرِّفْعَةِ وَالاسْتِخْلافِ فِي الأَرْضِ، كَمَا قَالَ سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ [الحج: ٤٠]، وقَال سبحانه وتعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗا ﴾ [النور: ٥٥]، ثُمَّ مَوْعُودِهِ لَهُمْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ، وهَذَا يَسْتَلْزِمُ التَّصْدِيقَ بِمَوْعُودِ اللهِ سبحانه وتعالى، فَإِنَّهُ بِحَسَبِ إِيْمَانِهِ وتَصْدِيقِهِ بِمَوْعُودِ اللهِ سبحانه وتعالى يَسهُلُ عَلَيْهِ تَقْدِيمُ التَّضْحِيَاتِ وبَذْلُ النَّفَقَاتِ فِي سَبِيلِ اللهِ سبحانه وتعالى .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه بسند صحيح (١٩٥٠٥) .

قوله (**فَهُوَ مِثْلُ الصَّائِمِ الْقَائِمِ**) فِيهِ أَنَّ الْخُرُوجَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَجَلَّ لإعْلاءِ كَلِمَتِهِ وإِحْيَاءِ دِينِهِ هُوَ أَفْضَلُ الأَعْمَال، لأَنَّهُ شَبَّهَ حَالَ الْخَارِجِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِهَذِهِ النِّيَّةِ ولِهَذَا الْمَقْصَدِ بِحَالِ مَنْ لا يَفْتُرُ عَنْ صَلاةٍ وصِيَامٍ وتِلاوَةٍ وذِكْرٍ، فَكَانَ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ بِمُفْرَدِهِ كَهَذِهِ الأَعْمَالِ بِمَجْمُوعِهَا، ولا غَرَابَةَ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّ الْخُرُوجَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَجَلَّ وَسِيْلَةٌ لإِحْيَاءِ الدِّيْنِ ودَلالَةِ الْخَلْقِ عَلَى الْخَالِقِ، وإِخْرَاجِهِم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، ولأَجْلِ هَذَا الْمَقْصَدِ بُعِثَ الأَنْبِيَاءُ وَالْمُرْسَلُونَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وسَلامُهُ عَلَيْهِم، **وَالْوَسَائِلُ لَهَا أَحْكَامُ الْمَقَاصِدِ**، فلَمَّا كَانَ الْخُرُوجُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَسِيْلَةً لِتَحْقِيقِ أَعْظَمِ مَقْصَدٍ وهُوَ هِدَايَةُ الْخَلْقِ ودَلالَتُهُم عَلَى اللَّهِ عَجَلَّ كَانَ أَعْظَمَ الأَعْمَالِ وأَفْضَلَهَا؛ قَالَ سُلْطَانُ الْعُلَمَاءِ الْعِزُّ بْنُ عَبْدِالسَّلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ:" **لِلْوَسَائِلِ أَحْكَامُ الْمَقَاصِدِ، فَالْوَسِيْلَةُ إلى أَفْضَلِ الْمَقَاصِدِ هِيَ أَفْضَلُ الْوَسَائِلِ، وَالْوَسِيْلَةُ إِلَى أَرْذَلِ الْمَقَاصِدِ هِيَ أَرْذَلُ الْوَسَائِلِ**."[(١)]؛ كَمَا أَنَّ نَفْعَ الْخَارِجِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَتَعَدَّى إلى غَيْرِهِ، وأَمَّا نَفْعُ الصَّائِمِ القَائِمِ فَلازِمٌ لِنَفْسِهِ، ومَعْلُومٌ أَنَّ **الْمُتَعَدِّيَ أَفْضَلُ مِنَ اللاَّزِمِ** .

مَعْنَى الْحَدِيْثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ

يُبَيِّنُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ الْخَارِجَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَجَلَّ طَلَباً لِمَرْضَاتِ اللَّهِ وسَعْياً لإعْلاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ عَجَلَّ وتَحْقِيقِ مَوْعُودِهِ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالنُّصْرَةِ وَالتَّمْكِينِ وَالسَّنَاءِ وَالرِّفْعَةِ ودُخُولِ الْجَنَّةِ بَعْدَ الْمَوْتِ، يُكْتَبُ لَهُ فِي كُلِّ حَالٍ مِنْ أَحْوَالِهِ مِثْلُ أَجْرِ الصَّائِمِ القَائِمِ القَانِتِ بِآيَاتِ اللَّهِ، لا يَفْتُرُ عَنْ صِيَامٍ ولا صَلاةٍ ولا ذِكْرٍ، وذَلِكَ لأَنَّ خُرُوجَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ سَبَبٌ فِي إِحْيَاءِ هَذِهِ الأَعْمَالِ .

---

(١) «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» للعز بن عبدالسلام (٤٦/١) .

وهَذَا الثَّوَابُ يَتَحصَّلُ عَلَيْهِ الْخَارِجُ في سَبيل الله في كُلِّ حَالٍ حَتَّى حَال أَكْلِهِ ونَوْمِهِ، وقَدْ جَاءَ بهَذَا الْمَعْنَى بَعْضُ الآثَارِ عَنِ النَّبيِّ ﷺ، مِنْهَا مَا رُويَ عَنْ مَكْحُول رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ فقَالَ: يَا رَسُولَ الله إنَّ النَّاسَ قَدْ غَزَوْا وَحَبَسَني شَيْءٌ، فَدُلَّني عَلَى عَمَلٍ يُلْحِقُني بِهِمْ، قَالَ: **"هَلْ تَسْتَطِيعُ قِيَامَ اللَّيْلِ ؟** "قَالَ: أَتَكَلَّفُ ذَلِكَ، قَالَ: **"هَلْ تَسْتَطِيعُ صِيَامَ النَّهَارِ"**، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: **"فَإِنَّ إحْيَاءَكَ لَيْلَكَ وَصِيَامَكَ نَهَارَكَ كَنَوْمَةِ أَحَدِهِمْ "** [(١)] .

وعَنْ رَجُلٍ مِنْ أَهلِ دِمَشْقَ زَعَمَ أَنَّهُ أَدْرَكَ النَّبيَّ ﷺ قَالَ: أَقْبَلَ عَبدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوفٍ إلى رَسُول الله ﷺ فَقَالَ: إنِّي أُريدُ أَنْ أُبْتَعَثَ في هَذَا البَعْثِ الَّذِي أَمَرَ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ:**"نَعَمْ"**، قَالَ: فَإنِّي أُريدُ أَنْ أَخْرُجَ فَأَشْتَرِيَ جَهَازاً أَوْ ظَهْراً مِنَ الأَحْيَاءِ الَّتِي وَرَاءَ الْمَدِينَةِ، قَالَ: فَخَرَجَ، فَمَا انْصَرَفَ حَتَّى بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ ذَلِكَ البَعْثَ، وَأَقْبَلَ عَبدُ الرَّحْمَن بْنُ عَوفٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله فَاتَنِي ذَلِكَ البَعْثُ، وإنَّمَا كُنْتُ في جَهَازِهِ، فَأَخْبِرْني بعَمَلٍ أَعْمَلُهُ بعْدَهُم أَبْلُغُ بهِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **"هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ! لا تَسْتَطِيْعُ ذَلِكَ"** قَالَ: أَوْ صِيَامٍ أَوْ صَلاةٍ أَوْ صَدَقَةٍ؟ قَالَ: **"أَتَسْتَطِيْعُ أَنْ تَقُوْمَ فَلا تَنَامَ، وَتَصُوْمَ فَلا تُفْطِرَ حَتَّى يَنْصَرِفُوْا ؟"**فقَالَ: لا، فقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ **"لَوْ فَعَلْتَ ذَلِكَ مَا بَلَغْتَ دَرَجَاتِهِمْ "** [(٢)] .

وكَتَبَ إبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ إلى عَبَّادِ بْنِ كَثِيرٍ بِمَكَّةَ: **"اجْعَلْ طَوَافَكَ وَحَجَّكَ وَسَعْيَكَ كَنَوْمَةِ غَازٍ في سَبِيلِ الله "** [(٣)] .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه عن مكحول مرسلاً (١٩٣٣٧) وقال محقق المصنف: له شاهدٌ ثابتٌ من حديث خالد بن الوليد السكسكي، عن رجل من أهل دمشق زعم أنه أدرك النبيَّ ﷺ، ثم ذكر الحديث الذي بعده .

(٢) رواه ابن عاصم في «الآحاد المثاني» برقم (٢٧٧٦) وفي كتاب «الجهاد» برقم (٦٩) .

(٣) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٩/٨) .

وعَنِ الْحَسَنِ بْنِ أَبِي الْحَسَنِ أَنَّ رَجُلاً كَانَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَخْبِرْنِي بعَمَلٍ أُدْرِكُ بِهِ عَمَلَ الْمُجَاهِدِينَ في سَبيلِ اللَّهِ ، فقَالَ: **"كَمْ مَالُكَ ؟"** قَالَ: سِتَّةُ آلافِ دِيْنَارٍ، فقَالَ: **"لَوْ أَنْفَقْتَهَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ لَمْ تَبْلُغْ غُبَارَ مُجَاهِدٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ"**. وأَتَاهُ رَجُلٌ فقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَخْبِرْنِي بعَمَلٍ أُدْرِكُ بِهِ عَمَلَ الْمُجَاهِدِ في سَبِيلِ اللَّهِ، فقَالَ: **"لَوْ قُمْتَ اللَّيْلَ وَصُمْتَ النَّهَارَ لَمْ تَبْلُغْ نَوْمَ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ "** [(١)] .

وقَالَ أَبُو هُرَيرَةَ ؓ: **"أَيَسْتَطِيعُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقُومَ فَلا يَفْتُرَ، وَيَصُومَ فَلا يُفْطِرَ مَا كَانَ حَيّاً ؟"** فَقِيلَ لَهُ: يَا أَبَا هُرَيرَةَ وَمَنْ يُطِيقُ هَذَا ؟ فَقَالَ: **"وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ نَوْمَ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنهُ "** [(٢)] .

وعَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **"مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِهِ - كَمَثَلِ الْقَائِمِ الصَّائِمِ الْخَاشِعِ الرَّاكِعِ السَّاجِدِ "** [(٣)] .

ويَسْتَمِرُّ هَذَا الثَّوَابُ مِنْ لَحْظَةِ خُرُوجِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلى أَنْ يَرْجِعَ إِلى بَيْتِهِ، أَوِ الْمَكَانِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ .

---

(١) رواه سعيد بن منصور في سننه برقم (٢٣٠٥) .

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الجهاد» برقم (٧٠) .

(٣) رواه البخاري برقم (٢٧٨٧) ومسلم برقم (٤٩٧٧) والنسائي برقم (٣١٢٧) واللفظ له .

فَائِـــــــــدَة

الَّذِي يُعِينُ الْخَارِجَ فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ لإعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ وتَبْلِيغِ دِيْنِهِ عَلَى الاسْتِقَامَةِ في طَرِيقِهِ هُوَ قِيَامُهُ بِهَذَا الْجُهْدِ امْتِثَالاً لأَمْرِ اللهِ وَابْتِغَاءَ وَجْهِهِ الكَرِيْمِ ﷻ، وطَلَباً لِمَرْضَاتِهِ وإِيْثَاراً لَهَا عَلَى مَرْضَاةِ غَيْرِهِ دُونَ الْتِفَاتٍ لِمَدْحِ الْمَادِحِينَ ولا قَدْحِ القَادِحِينَ .

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ :" إِيْثَارُ رِضَى اللهِ ﷻ عَلَى غَيْرِهِ هُوَ أَنْ يُرِيْدَ ويَفْعَلَ مَا فِيهِ مَرْضَاتُهُ ولَوْ أَغْضَبَ الْخَلْقَ، وهِيَ دَرَجَةُ الأَنْبِيَاءِ، وأَعْلاهَا لِلرُّسُلِ عَلَيهِم صَلَوَاتُ اللهِ وسَلامُهُ، وأَعْلاهَا لأُوْلِي الْعَزْمِ مِنْهُم، وأَعْلاهَا لِنَبِيِّنَا ﷺ ، فَإِنَّهُ قَاوَمَ العَالَمَ كُلَّهُ وتَجَرَّدَ لِلدَّعْوَةِ إلى اللهِ، وَاحْتَمَلَ عَدَاوَةَ البَعِيدِ والقَرِيْبِ في اللهِ، وآثَرَ رِضَى اللهِ عَلَى رِضَى الْخَلْقِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، ولَمْ يَأْخُذْهُ في إِيْثَارِ رِضَاهُ لَوْمَةُ لائِمٍ، بَلْ كَانَ هَمُّهُ وعَزْمُهُ وسَعْيُهُ كُلُّهُ مَقْصُوراً على إِيْثَارِ مَرْضَاتِ اللهِ وتَبْلِيغِ رِسَالاتِهِ وإِعْلاءِ كَلِمَاتِهِ وجِهَادِ أَعْدَائِهِ، حَتَّى ظَهَرَ دِينُ اللهِ عَلَى كُلِّ دِيْنٍ، وقَامَتْ حُجَّتُهُ عَلَى الْعَالَمِينَ، وتَمَّتْ نِعْمَتُهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، فَبَلَّغَ الرِّسالةِ وأَدَّى الأَمَانَةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ وجَاهَدَ في اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ، وعَبَدَ اللهَ حَتَّى أَتَاهُ اليَقِينُ مِنْ رَبِّهِ، فَلَمْ يَنَلْ أَحَدٌ مِنْ دَرَجَةِ هَذَا الإِيْثَارِ مَا نَالَ صَلَوَاتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَيْهِ ، فَإِنَّ الْمِحْنَةَ تَعْظُمُ فِيهِ – أَيْ في هَذَا السَّبِيلِ – أَوَّلاً لِيَتَأَخَّرَ مَنْ ليسَ مِنْ أَهْلِهِ، فَإِذَا احْتَمَلَهَا وتَقَدَّمَ انْقَلَبَتْ تِلْك الْمِحَنُ مِنَحاً، وصَارَتْ تِلْكَ الْمُؤَنُ عَوْناً، وهَذَا مَعْرُوفٌ بالتَّجْرُبَةِ الخَاصَّةِ والعَامَّةِ، فَإِنَّهُ مَا آثَرَ عَبْدٌ مَرْضَاتَ اللهِ ﷻ عَلَى مَرْضَاتِ الْخَلْقِ وتَحَمَّلَ ثِقَلَ ذَلِكَ ومُؤْنَتَهُ وصَبَرَ عَلَى مِحْنَتِهِ إِلاَّ أَنْشَأَ اللهُ ﷻ مِنْ تِلْكَ الْمِحْنَةِ والْمُؤْنَةِ نِعْمَةً وَمَسَرَّةً ومَعُونَةً بِقَدْرِ مَا تَحَمَّلَ مِنْ مَرْضَاتِهِ، فَانْقَلَبَتْ مَخَاوِفُهُ أَمَاناً، ومَظَانُّ عَطَبِهِ نَجَاةً، وتَعَبُهُ رَاحَةً، ومُؤْنَتُهُ مَعُونَةً، وبَلِيَّتُهُ نِعْمَةً، ومِحْنَتُهُ مِنْحَةً، وسَخَطُهُ رِضاً، فيَا خَيْبَةَ الْمُتَخَلِّفِينَ! وَيَا ذِلَّةَ الْمُتَهَيِّبِيْنَ! وهَذَا وَقَدْ جَرَتْ سُنَّةُ اللهِ الَّتِي لا تَبْدِيلَ لَهَا أَنَّ مَنْ آثَرَ مَرْضَاتَ الْخَلْقِ عَلَى مَرْضَاتِهِ أَنْ

يُسْخِطَ عَلَيْهِ مَنْ آثَرَ رِضَاهُ [(١)]، ويَخْذُلَهُ مِنْ جهَتِهِ، ويَجْعَلَ مِحْنَتَهُ عَلَى يَدَيْهِ، فَيَعُودَ حَامِدُهُ ذَامّاً [(٢)]، ومَنْ آثَرَ مَرْضَاتَهُ سَاخِطاً، فَلا عَلَى مَقْصُودِهِ مِنْهُم حَصَلَ، ولا إلى ثَوَابِ مَرْضَاة رَبِّهِ وَصَلَ، وهَذَا أَعْجَزُ الْخَلْقِ وأَحْمَقُهُمْ، هَذَا مَعَ أَنَّ رِضَى الْخَلْقِ لا مَقْدُورٌ ولا مَأْمُورٌ ولا مَأْثُورٌ، فَهُوَ مُسْتَحِيلٌ، بَلْ لا بُدَّ مِنْ سُخْطِهِمْ عَلَيْكَ، فَلَئِنْ يَسْخَطُوا عَلَيكَ وتَفُوزَ برِضَى اللَّهِ عَنْكَ أَحَبُّ إِلَيْكَ وأَنْفَعُ لَكَ مِنْ أَنْ يَسْخَطُوا عَلَيكَ واللَّهُ عَنْكَ غَيرُ رَاضٍ، فَإِذَا كَانَ سُخْطُهُمْ لا بُدَّ مِنْهُ عَلَى التَّقْدِيرَيْنِ، فَآثِرْ سُخْطَهُمُ الَّذِي يُنَالُ بِهِ رِضَى اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ رَضُوْا عَنْكَ بَعْدَ هَذَا وَإِلاَّ فأَهْوَنُ شَيْءٍ رِضَى مَنْ لا يَنْفَعُكَ رِضَاهُ، ولا يَضُرُّكَ سَخَطُهُ في دِيْنِكَ ولا إِيْمَانِكَ ولا في آخِرَتِكَ، فَإِنْ ضَرَّكَ في أَمْرٍ يَسِيرٍ في الدُّنْيَا فَمَضَرَّةُ سَخَطِ اللَّهِ أَعْظَمُ وَأَعْظَمُ، وخَاصَّةُ العَقْلِ احْتِمَالُ أَدْنَى الْمَفْسَدَتَيْنِ لِدَفْعِ أَعْلاهُمَا، وتَفْوِيْتُ أَدْنَى الْمَصْلَحَتَينِ لِتَحْصِيلِ أَعْلاهُمَا؛ فَوَازِنْ بعَقْلِكَ ثُمَّ انْظُرْ أَيُّ الأَمْرَيْنِ خَيرٌ فَآثِرْهُ، وأَيُّهُمَا شَرٌّ فَابْعِدْ عَنْهُ، فَهَذَا بُرْهَانٌ قَطْعِيٌّ ضَرُورِيٌّ في إِيْثَارِ رِضَى اللَّهِ عَلَى رِضَى الْخَلْقِ، هَذَا مَعَ أَنَّهُ إِذَا آثَرَ رِضَى اللَّهِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ غَضَبِ الْخَلْقِ، وإِذَا آثَرَ رِضَاهُم لَمْ يَكْفُوهُ مُؤْنَةَ غَضَبِ اللَّهِ عَلَيْهِ، وقَالَ بَعضُ السَّلَفِ: **"لَمُصَانَعَةُ وَجْهٍ وَاحِدٍ أَيْسَرُ عَلَيْكَ مِنْ مُصَانَعَةِ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ، إِنَّكَ إِذَا صَانَعْتَ ذَلِكَ الْوَجْهَ الْوَاحِدَ كَفَاكَ الْوُجُوهَ كُلَّهَا "** .

---

(١) روى الترمذي في سننه بسند صحيح برقم (٢٤١٤) أَنَّ مُعَاوِيَةَ رضي الله عنه كَتَبَ إِلَى عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنِ اكْتُبِي إِلَيَّ كِتَابًا تُوصِينِي فِيهِ، وَلا تُكْثِرِي عَلَيَّ، فَكَتَبَتْ عَائِشَةُ إِلى مُعَاوِيَةَ سَلامٌ عَلَيْكَ، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُول اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **"مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بسَخطِ اللَّهِ وَكَلَهُ اللَّهُ إلى النَّاسِ."** وَالسَّلامُ عَلَيْكَ . ورواه ابن حبان في صحيحه ولفظه قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **"مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بسَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ وَأَرْضَى النَّاسَ عَنهُ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بسَخَطِ اللَّهِ، سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ"**، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **"مَنْ أَسْخَطَ اللَّهَ فِي رِضَا النَّاسِ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وأَسْخَطَ عَلَيْهِ مَنْ أَرْضَاهُ في سَخَطِهِ، وَمَنْ أَرْضَى اللَّهَ فِي سَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ وَأَرْضَى عَنهُ مَنْ أَسْخَطَهُ فِي رِضَاهُ، حَتَّى يُزَيِّنَهُ وَيُزَيِّنَ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ فِي عَيْنِهِ"**. رواه الطبراني في الكبير (١١٦٩٦)، وقال المنذري في الترغيب: رواه الطبراني بإسناد جيد قوي .

(٢) عن عائشة رضي الله عنها قالت: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **"مَنْ طَلَبَ مَحَامِدَ النَّاسِ بِمَعَاصِي اللَّهِ، عَادَ حَامِدُهُ لَهُ ذَامًّا"**. رواه البيهقي في «الزهد الكبير» (٨٨٨) .

وقَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : "**رِضَى النَّاسِ غَايَةٌ لا تُدْرَكُ، فَعَلَيْكَ بِمَا فِيْهِ صَلاحُ نَفْسكَ فَالْزَمْهُ.**"؛ ومَعْلُومٌ أَنَّهُ لا صَلاحَ لِلنَّفْسِ إِلاَّ بِإِيْثَارِ رِضَى رَبِّهَا ومَوْلاهَا عَلَى غَيْرِهِ، ولَقَدْ أَحْسَنَ القَائِلُ [(١)] :

يَا لَيْتَكَ تَحْلُو وَالْحَيَاةُ مَرِيْرَةٌ	**يَا لَيْتَكَ تَرْضَى وَالأَنَامُ غِضَابُ**
وَلَيْتَ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَامِرٌ	**وَبَيْنِي وَبَيْنَ الْعَالَمِيْنَ خَرَابُ**
إِذَا صَحَّ مِنْكَ الْوُدُّ فَالْكُلُّ هَيِّنٌ	**وَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ التُّرَابِ تُرَابُ**

ومِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْمُؤْثِرَ لِرِضَى اللهِ مُتَصَدٍّ لِمُعَادَاةِ الْخَلْقِ وأَذَاهُم وسَعْيِهِمْ فِي إِتْلافِهِ ولا بُدَّ، هَذِهِ سُنَّةُ اللهِ فِي خَلْقِهِ، وإِلاَّ فَمَا ذَنْبُ الأَنْبِيَاءِ والرُّسُلِ والَّذِينَ يَأْمُرُونَ بالقِسْطِ مِنَ النَّاسِ والقَائِمِينَ بِدِينِ اللهِ الذَّابِّينَ عَنْ كِتَابِهِ وسُنَّةِ رَسُولِهِ عِنْدَهُم [(٢)] .

فَمَنْ آثَرَ رِضَى اللهِ فَلا بُدَّ أَنْ يُعَادِيَهُ رُذَالَةُ الْعَالَمِ وسَقَطُهُمْ وغُرْثَاهُمْ وجُهَّالُهُمْ وأَهْلُ الْبِدَعِ والْفُجُورِ مِنْهُم وأَهْلُ الدِّيَانَاتِ البَاطِلَةِ، وكُلُّ مَنْ يُخَالِفُ هَدْيُهُ هَدْيَهُ، فَمَا يُقْدِمُ عَلَى مُعَادَاةِ هَؤُلاءِ إِلاَّ طَالِبُ الرُّجُوعِ إِلَى اللهِ ، عَامِلٌ على سَمَاعِ خِطَاب: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ **[الفجر: ٢٧-٢٨]**، ومَنْ إِسْلامُهُ صَلْبٌ كَامِلٌ لا تُزَعْزِعُهُ الرِّجَالُ، ولا تُقَلْقِلُهُ الْجِبَالُ، ومَنْ عَقْدُ عَزِيْمَةِ صَبْرِهِ مُحْكَمٌ لا تَحُلُّهُ الْمِحَنُ والشَّدَائِدُ والْمَخَاوِفُ .

قُلْتُ: ومِلاكُ ذَلِكَ أَمْرَانِ: **الزُّهدُ فِي الْحَيَاةِ والثَّنَاء**، فَمَا ضَعُفَ مَنْ ضَعُفَ وتَأَخَّرَ مَنْ تَأَخَّرَ إِلاَّ بحُبِّهِ لِلْحَيَاةِ والْبَقَاءِ وثَنَاءِ النَّاسِ عَلَيْهِ، ونَفْرَتِهِ مِنْ ذَمِّهِم لَهُ، فَإِذَا زَهِدَ فِي هَذَيْنِ الشَّيْئَيْنِ تَأَخَّرَتْ عَنهُ الْعَوَارِضُ كُلُّهَا، وانْغَمَسَ حِيْنَئِذٍ فِي العَسَاكِرِ، ومِلاكُ هَذَينِ الشَّيْئَيْنِ

---

(١) قال ابن القيم في «مدارج السالكين»: ولقد أحسن أبو فراس في هذا المعنى إلاَّ أنه أساء كُلَّ الإساءة في قوله إذ يقوله لمخلوق لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً .

(٢) كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ **[الذاريات: ٥٢]**. وقال ورقة بن نوفل للنبي ﷺ :"**لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عُودِيَ.**" رواه البخاري عن عائشة برقم (٣) ومسلم (١٦٠) .

بشَيْئَيْن: **صِحَّةُ الْيَقِين وقُوَّةُ الْمَحَبَّةِ**، ومِلاكُ هَذَين بشَيْئَيْن أَيْضاً: **بصِدْق اللَّجَا وَالطَّلَب، وَالتَّصَدِّي لِلأَسْبَاب الْمُوْصِلَةِ إِلَيْهِمَا**، فَإِلى هَهُنَا تَنْتَهِي مَعْرِفَةُ الْخَلْق وقُدْرَتُهُم، وَالتَّوْفِيْقُ بَعْدُ بيَدِ مَنْ أَزِمَّةُ الأُمُور كُلُّهَا بيَدِهِ ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّـٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ **[الإنسان: ٣٠ –٣١]** [(١)].

فَإِذَا جِئْتَ إِلى النَّبيِّ ﷺ وتَأَمَّلْتَ سِيْرَتَهُ مَعَ قَوْمِهِ وصَبَرَهُ في الله، واحْتِمَالَهُ مَا لَمْ يَحْتَمِلْهُ نَبيٌّ قَبْلَهُ، وتَلَوُّنَ الأَحْوَال عَلَيهِ مِنْ سِلْمٍ وخَوفٍ وغِنىً وفَقْرٍ، وإقَامَةٍ في وَطَنِهِ وظَعْنٍ عَنهُ، وتَرْكِهِ لله وقَتْلِ أَحْبَابهِ وأَوْلِيَائِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وأَذَى الكُفَّارِ لَهُ بسَائِرِ أَنْوَاعِ الأَذَى مِنَ القَوْلِ والفِعْلِ والسِّحْرِ والكَذِب وَالافْتِرَاء عَلَيْهِ وَالبُهْتَانِ، وهُوَ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ صَابرٌ عَلَى أَمْرِ الله يَدْعُو إلى الله، فَلَمْ يُؤْذَ نَبيٌّ مَا أُوْذِيَ، ولَمْ يَحْتَمِلْ في الله مَا احْتَمَلَهُ، ولَمْ يُعْطَ نَبيٌّ مَا أُعْطِيَهُ، فَرَفَعَ الله ذِكْرَهُ، وقَرَنَ اسْمَهُ باسْمِهِ، وجَعَلَهُ سَيِّدَ النَّاس كُلِّهِمْ، وجَعَلَهُ أَقْرَبَ الْخَلْقِ إِلَيْهِ وَسِيلَةً وأَعْظَمَهُم عِنْدَهُ جَاهاً وأَسْمَعَهُمْ عِنْدَهُ شَفَاعَةً، وكَانَتْ تِلْكَ الْمِحَنُ وَالابْتِلاءُ عَينَ كَرَامَتِهِ، وهِيَ مِمَّا زَادَهُ الله بهَا شَرَفاً وفَضْلاً، وسَاقَهُ بهَا إلى أَعْلَى الْمَقَامَاتِ.

وهَذَا حَالُ وَرَثَتِهِ مِنْ بَعْدِهِ الأَمْثَلِ فَالأَمْثَلِ، كُلٌّ لَهُ نَصِيبٌ مِنَ الْمِحْنَةِ يَسُوقُهُ الله بهِ إلى كَمَالِهِ بحَسَب مُتَابَعَتِهِ لَهُ، ومَنْ لا نَصِيبَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ فحَظُّهُ مِنَ الدُّنيا حَظُّ مَنْ خُلِقَ لَهَا وخُلِقَتْ لَهُ، وجُعِلَ خَلاقُهُ ونَصِيبُهُ فِيهَا، فَهُوَ يَأْكُلُ مِنْهَا رَغَداً، ويَتَمَتَّعُ فِيهَا حَتَّى يَنَالَهُ نَصِيبُهُ مِنَ الْكِتَاب، يُمْتَحَنُ أَوْلِيَاءُ الله وهُوَ في دَعَةٍ وخَفْضِ عَيْشٍ، ويَخَافُونَ وهُوَ آمِنٌ، ويَحْزَنُونَ وهُوَ في أَهْلِهِ مَسْرُورٌ، لَهُ شَأْنٌ ولَهُمْ شَأْنٌ، وهُوَ في وَادٍ وهُمْ في وَادٍ، هَمُّهُ مَا يُقِيمُ بِهِ جَاهَهُ، وهَمُّهُمْ إقَامَةَ دِينِ الله وإعْلاءُ كَلِمَتِهِ وإعْزَازُ أَوْلِيَائِهِ، وأَنْ تَكُونَ الدَّعْوَةُ لَهُ وَحْدَهُ، فَيَكُونَ هُوَ وَحْدَهُ الْمَعْبُودَ لا غَيْرُه، ورَسُولُهُ الْمُطَاعَ لا سِوَاهُ، فَلِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنَ الْحِكَمِ في ابْتِلائِهِ أَنْبِيَائَهُ ورُسُلَهُ وعِبَادَهُ الْمُؤْمِنينَ مِمَّا تَتَقَاصَرُ عُقُولُ الْعَالَمِيْنَ عَنْ مَعْرِفَتِهِ،

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٢٤٥-٢٤٧).

وهَلْ وَصلَ مَنْ وَصلَ إلى الْمَقَامَاتِ الْمَحْمُودَةِ والنِّهَايَاتِ الفَاضِلَةِ إلاَّ عَلَى جِسْرِ الْمِحْنَةِ وَالإبْتِلاءِ .

كَذَا الْمَعَالِيْ إِذَا مَا رُمْتَ تُـدْرِكُهَا فَاعْبُرْ إِلَيْهَا عَلَى جِسْرٍ مِنْ تَعَـبِ (١).

وقَالَ الْجُنَيدُ رَحِمَهُ اللهُ : "**فَتْحُ كُلِّ بَابٍ وَكُلِّ عَلْمٍ نَفِيسٍ بَذلُ الْمَجْهُودِ** " (٢) .

إذِ الْمَصَالِحُ والْخَيْرَاتُ وَاللَّذَّاتُ والكَمَالاتُ كُلُّهَا لا تُنَالُ إلاَّ بحَظٍّ مِنَ الْمَشَقَّةِ، ولا يُعْبَرُ إِلَيْهَا إلاَّ عَلَى جسْرٍ مِنَ التَّعَبِ، وقَدْ أَجْمَعَ عُقَلاءُ كُلِّ أُمَّةٍ عَلَى أَنَّ النَّعيمَ لا يُدْرَكُ بالنَّعِيمِ، وأَنَّ مَنْ آثَرَ الرَّاحَةَ فَاتَتْهُ الرَّاحَةُ، وأَنَّ بحَسَبِ رُكُوبِ الأَهْوَالِ وَاحْتِمَالِ الْمَشَاقِّ تَكُونُ الفَرْحَةُ واللَّذَّةُ، فَلا فَرْحَةَ لِمَنْ لا هَمَّ لَهُ، ولا لَذَّةَ لِمَنْ لا صَبْرَ لَهُ، ولا نَعِيْمَ لِمَنْ لا شَقَاءَ لَهُ، ولا رَاحَةَ لِمَنْ لا تَعَبَ له، بَلْ إِذَا تَعِبَ العَبْدُ قَلِيلاً اسْتَرَاحَ طَوِيلاً، وإِذَا تَحَمَّلَ مَشَقَّةَ الصَّبْرِ سَاعَةً قَادَهُ لِحَيَاةِ الأَبَدِ، وكُلُّ مَا مِنْهُ أَهْلُ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ فَهُوَ صَبْرُ سَاعَةٍ، واللهُ الْمُسْتَعَانُ ولا قُوَّةَ إلاَّ بالله، وكُلَّمَا كَانَتِ النُّفُوسُ أَشْرَفَ وَالْهِمَّةُ أَعْلَى كَانَ تَعَبُ البَدَنِ أَوْفَرَ، وحَظُّهُ مِنَ الرَاحَةِ أَقَلَّ، كَمَا قَالَ الْمُتَنَبِّي :

وَإِذَا كَـانَتِ الـنُّفُوسُ كِـبَاراً تَعِبَتْ فِـيْ مُـرَادِهَـا الأَجْسَـامُ

وقَالَ يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ: "**لا يُنَالُ الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجِسْمِ.**" (٣)، ولا رَيْبَ عِنْدَ كُلِّ عَاقِلٍ أَنَّ كَمَالَ الرَّاحَةِ بحَسَبِ التَّعَبِ، وكَمَالَ النَّعِيمِ بحَسَبِ تَحَمُّلِ الْمَشَاقِّ في طَرِيقِهِ، وإِنَّمَا تَخْلُصُ الرَّاحَةُ في اللَّذَّةِ والنَّعِيمِ في دَارِ السَّلامِ، فَأَمَّا في هذه الدَّارِ فَكَلاَّ ولَمَّا (٤) .

*****

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/٣٤٢) .

(٢) «حلية الأولياء» (١٠/٢٦٣) .

(٣) رواه مسلم برقم (١٤٢١) بلفظ:" **لا يُسْتَطَاعُ الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجِسْمِ** " .

(٤) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٦٨) .

الْحَدِيثُ السَّادِسُ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "**ثَلاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمْ، الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْمُكَاتَبُ الَّذِي يُرِيدُ الأَدَاءَ، وَالنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ الْعَفَافَ**"(١).

قوله (**حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمْ**) أَيْ ثَابِتٌ عِنْدَهُ إِعَانَتُهُم، أَوْ وَاجِبٌ عَلَيْهِ بِمُقْتَضَى وَعْدِهِ مُعَاوَنَتُهُم. قَالَ الطِّيْبِيُّ: إِنَّمَا آثَرَ هَذِهِ الصِّيغَةَ إِيْذَاناً بِأَنَّ هَذِهِ الأُمُورَ مِنَ الأُمُورِ الشَّاقَّةِ الَّتِي تَفدَحُ الإِنْسَانَ - أَيْ تُثْقِلُهُ - وتَقْصِمُ ظَهْرَهُ لَولا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُعِينُهُ عَلَيْهَا لِيَقُومَ بِهَا (٢) .

قوله (**الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**) هُوَ كُلُّ مَنْ يَبْذُلُ جُهْداً فِي سَبِيلِ إِعْلاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ وإِظْهَارِ دِينِهِ وإِتْمَامِ نُورِهِ وإِخْمَادِ البَاطِلِ ودَحْضِ حُجَجِهِ، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ بِالْمَالِ وَالنَّفْسِ بِمُجَاهَدَةِ الْمُشْرِكِينَ بِالسَّيْفِ وَالْقُوَّةِ، أَوْ بِاللِّسَانِ بِبَيَانِ الْحُجَجِ وَالبَرَاهِينِ وإِقَامَةِ الدَّلائِلِ على أُلُوهِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى ورِسَالَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وإِزَالَةِ الشُّبُهَاتِ حَولَ ذَلِكَ، والأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وهُوَ الَّذِي سَمَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ العَزِيزِ جِهَاداً كَبِيراً، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾[الفرقان : ٥٢] يعني القُرْآنَ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما (٣)، وكَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "**جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ**" (٤)؛ وسَوَاءٌ كَانَ الْجِهَادُ لِلكَافِرِينَ أَوِ الْمُنَافِقِينَ أَوِ الفَاسِقِينَ أَوْ غَيرِهِم، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي تَفسِيرِ قَولِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ

---

(١) رواه الترمذي في سننه (١٦٥٥) وقال : حديث حسن. والنسائي في سننه (٣٢١٨) والحاكم في المستدرك (٢٦٧٨) و(٢٨٥٩) وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي .

(٢) «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (٢٤٦/٦) .

(٣) «تفسير ابن كثير» (٣٢٦/٣) .

(٤) رواه أحمد في مسنده عن أنس بن مالك (١٢٢٤٦) و(١٢٥٥٥) و(١٣٦٣٨) وأبو داوود (٢٥٠٦) والنسائي في سننه (٣٠٩٦) وابن حبان في صحيحه والحاكم في المستدرك (٢٤٢٧) وقال : صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي .

﴿ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ قَالَ: فَأَمَرَهُ بِجِهَادِ الْمُنَافِقِينَ بِاللَّسَانِ [(١)]، ورُوِيَ عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ والرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ مِثْلُهُ [(٢)] .

وقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ :" فَجِهَادُ الْمُنَافِقِينَ أَصْعَبُ مِنْ جِهَادِ الْكُفَّارِ، وَهُوَ جِهَادُ خَوَاصِّ الأُمَّةِ وَوَرَثَةِ الرُّسُلِ، وَالْقَائِمُونَ بِهِ أَفْرَادٌ فِي الْعَالَمِ، وَالْمُشَارِكُونَ فِيهِ وَالْمُعَاوِنُونَ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانُوا هُمُ الأَقَلِّينَ عَدَدًا فَهُمُ الأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللَّهِ قَدْرًا " [(٣)] .

وقَالَ الشَّنْقِيطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في جِهَادِ الْمُنَافِقِينَ بالقَولِ والْحُجَّةِ: "ولَكِنَّ جِهَادَهُمْ بالقُرْآنِ لا يَقِلُّ شِدَّةً عَلَيهم مِنَ السَّيْفِ، لأَنَّهُمْ أَصْبَحُوا فِي خَوفٍ وذُعْرٍ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِم، وأَصْبَحَتْ قُلُوبُهُم خَاوِيَةً كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ، وهَذَا أَشَدُّ عَلَيْهِم مِنَ الْمُلاقَاةِ بِالسَّيْفِ " [(٤)] .

قوله (وَالْمُكَاتَبُ الَّذِي يُرِيدُ الأَدَاءَ) أَي الْعَبْدُ الَّذِي كَاتَبَهُ سَيِّدُهُ عَلَى نُجُومٍ أَيْ أَقْسَاطٍ، إِذَا أَدَّاهَا عَتَقَ، فَإِذَا كَانَتْ نِيَّتُهُ أَنْ يُؤَدِّيَ لِلسَّيِّدِ مَا كَاتَبَهُ عَلَيْهِ أَعَانَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى ذَلِكَ .

قوله (وَالنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ الْعَفَافَ) أَيْ مُرِيْدُ النِّكَاحِ بِقَصْدِ عِفَّةِ فَرْجِهِ عَنِ الوُقُوعِ فِي الفَاحِشَةِ .

---

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» برقم (١٠٦١٦) .
(٢) المصدر السابق برقم (١٠٦١٧) .
(٣) «زاد المعاد» (٣/٣) .
(٤) «أضواء البيان للشنقيطي» (٨/٢٤٤) .

مَعْنَى الْحَدِيْثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ

يُبَيِّنُ النَّبيُّ ﷺ أَنَّ اللهَ تَعَالَى وَعَدَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلاءِ الثَّلاثَةِ أَنْ يُعِيْنَهُ فِي الوُصُولِ إلى مَقْصُودِهِ، وأَنْ لا يَكِلَهُ إلى نَفْسِهِ، بَلْ يَتَكَفَّلُ هُوَ تَعَالَى بِتَيْسِيرِ أُمُورِهِ، إمَّا مِنْ حَيْثُ يَحْتَسِبُ، وذَلِكَ بِتَسْبِيْبِ الأَسْبَابِ الَّتِي تُعِيْنُهُ وتَهْيِئَتِهَا لَهُ، وإمَّا مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ .

وَهَذِهِ الْمَعُونَةُ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِهَؤُلاءِ لأَنَّ مَقَاصِدَهُم شَرِيْفَةٌ وأَهْدَافَهُم نَبِيْلَةٌ، فَالْمُجَاهِدُ فِي سَبيل اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يَبْذُلُ وُسْعَهُ وطَاقَتَهُ، ويُضَحِّي بِنَفْسِهِ ومَالِهِ لإعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ ونَشْرِ دِيْنِهِ وأَوَامِرِهِ، وهُوَ الْمَقْصَدُ الَّذِي بُعِثَتْ بِهِ الأَنْبِيَاءُ، وأُنْزِلَتْ لأَجْلِهِ الكُتُبُ، وخُلِقَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ .

وَالْمُكَاتَبُ يَسْعَى لِلتَّحَرُّرِ مِنَ الرِّقِّ لِغَيْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْمُكَاتَبَةِ مَعَ سَيِّدِهِ، وهَذَا يَتَوَافَقُ مَعَ مَقَاصِدِ الشَّرِيْعَةِ الَّتِي جَاءَتْ لِتَحْرِيْرِ النَّاسِ مِنَ العُبُودِيَّةِ لِغَيْرِ اللهِ تَعَالَى، والنَّاكِحُ يُعِفُّ نَفْسَهُ ويَغُضُّ بَصَرَهُ ويَحْفَظُ فَرْجَهُ، ولَعَلَّهُ أَنْ يُرْزَقَ ذُرِّيَّةً تَعْبُدُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وتُوَحِّدُهُ وتَدْعُو إلى عِبَادَتِهِ وتَوْحِيدِهِ، فَلَمَّا سَمَتْ مَقَاصِدُ هَؤُلاءِ اسْتَحَقُّوا أَنْ يُعِينَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ؛ ومَنْ أَعَانَ وَاحِداً مِنْ هَؤُلاءِ فَقَدْ أَدَّى عَنِ اللهِ جَلَّ جَلالُهُ مَا أَوْجَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ عَوْنِهم، فيَتَوَلَّى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِعَانَتَهُ، كَمَا قَالَ ﷺ: "**وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ** " [(١)] .

فَائِـــــــــدَةٌ

رَوَى الشَّيْخَانِ عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِيْنَ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ لِرَسُول اللهِ ﷺ : يَا رَسُولَ اللهِ! هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ فَقَالَ :" **لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيــــلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَــــا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ**

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة برقم (٧٠٢٨) .

بقَرْنِ الثَّعَالِب، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَـــادَانِي فَقَالَ: إنَّ اللهَ ﷻ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، قَالَ: فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ ؟ إنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ". فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً** "[(١)] .

هَذَا الْحَدِيْثُ يُبَيِّنُ أَنَّ مَا يُوَاجِهُهُ الدَّاعِيَةُ مِنَ الصَّدِّ والإعْرَاضِ عَمَّا يَدْعُو إلَيْهِ يكُونُ أَشَدَّ عَلَى النَّفْسِ مِمَّا يُوَاجِهُهُ الْمُقَاتِلُ، فَإنَّ الْمُقَاتِلَ يَسْتَطِيعُ أَنَّ يَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ ويَشْفِيَ صَدْرَهُ ويُذْهِبَ غَيْظَهُ مِنْ عَدُوِّهِ، أَمَّا الدَّاعِي فَلَيْسَ لَهُ إلاَّ الصَّبْرُ عَلَى أَذَى الْمَدْعُوِّ والتَّلَطُّفُ لَهُ بالقَولِ، ويَكْظُمُ غَيْظَ نَفْسِهِ، ويَتَجَرَّعُ مَرَارَتَهُ، ويَعْتَذِرُ لَهُ عِنْدَ اللهِ ﷻ، كَمَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ وحَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ حَيْثُ قَالَ:" **كَأَنِّي أَنْظُرُ إلى النَّبيِّ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ."[(٢)]، فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ الْعَفْوَ عَنْهُم، وَالدُّعَاءَ لَهُم، وَالاعْتِذَارَ عَنْهُم، وَالاسْتِعْطَافَ بِقَولِهِ:" **لِقَومِيْ** "[(٣)]؛ كَمَا أَنَّ جِهَادَ الدَّعْوَةِ سَمَّاهُ اللهُ ﷻ جِهاداً كَبِيراً؛ وقَالَ ﷺ : "**أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ** "[(٤)]، وفي رِوَايَةٍ "**كَلِمَةُ حَقٍّ** " .

قَالَ ابْنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللهُ:" وأَمَّا مُجَاهَدَةُ الْكُفَّارِ بِاللِّسَانِ فَمَا زَالَ مَشْرُوعاً مِنْ أَوَّلِ الأَمْرِ إِلَى آخِرِهِ، فَإنَّهُ إذَا شُرِعَ جِهَادُهُم بِالْيَدِ فَبِاللِّسَانِ أَوْلَى، وقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : "**جَاهِدُوا**

(١) رواه البخاري برقم (٣٢٣١) ومسلم برقم (٤٧٥٤) .

(٢) رواه البخاري عن ابن مسعود برقم (٣٤٧٧) و(٦٩٢٩) ومسلم برقم (٤٧٤٧) .

(٣) «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» لابن القيم (١٥١) .

(٤) رواه أبو داوود برقم (٤٣٤٦) والترمذي برقم (٢١٧٤) وقال: حديث حسن .

الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ " [(١)]. ومِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ القِتَالَ إِنَّمَا شُرِعَ لِلضَّرُورَةِ، وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ آمَنُوا بِالبُرْهَانِ والآيَاتِ لَمَا احْتِيْجَ إلى الْقِتَالِ، فَبَيَانُ آيَاتِ الإِسْلام وبَرَاهِيْنِهِ وَاجِبٌ مُطْلَقاً وُجُوباً أَصْلِيّاً، وأَمَّا الْجِهَادُ فَمَشْرُوعٌ لِلضَّرُورَةِ، ومَعْلُومٌ أَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَعَدَ بِإِظْهَارِهِ عَلَى الدِّيْنِ كُلِّهِ ظُهُورَ عِلْمٍ وَبَيَانٍ، وظُهُورَ سَيْفٍ وسِنَانٍ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف: ٩]. وقَدْ فَسَّرَ العُلَمَاءُ ظُهُورَهُ بِهَذَا وهَذَا، ولَفْظُ الظُّهُورِ يَتَنَاوَلُهُمَا، فَإِنَّ ظُهُورَ الْهُدَى بالعِلْمِ والبَيَانِ وظُهُورَ الدِّيْنِ باليَدِ والعَمَلِ، وَالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالْهُدَى ودِيْنِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّيْنِ كُلِّهِ؛ ومَعْلُومٌ أَنَّ ظُهُورَ الإِسْلام بالعِلْمِ والبَيَانِ قَبْلَ ظُهُورِهِ باليَدِ والقِتَالِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَكَثَ بِمَكَّةَ ثَلاثَ عَشْرَةَ سَنَةً يُظْهِرُ الإِسْلامَ بالعِلْمِ والبَيَانِ والآيَاتِ والبَرَاهِينِ، فَآمَنَتْ بِهِ الْمُهَاجِرُونَ والأَنْصَارُ طَوعاً وَاخْتِيَاراً بِغَيْرِ سَيْفٍ، لِمَا بَانَ لَهُمْ مِنَ الآيَاتِ والبَيِّنَاتِ والبَرَاهِيْنِ والْمُعْجِزَاتِ، ثُمَّ أَظْهَرَهُ بالسَّيْفِ، فَإِذَا وَجَبَ عَلَيْنَا جِهَادُ الكُفَّارِ بالسَّيْفِ ابْتِدَاءً ودَفْعاً، فَلَئِنْ يَجِبَ عَلَيْنَا بَيَانُ الإِسْلامِ وإِعْلامُهُ ابْتِدَاءً ودَفْعاً لِمَنْ يَطْعَنُ فِيهِ بِطَرِيقِ الأَوْلَى وَالأَحْرَى، فَإِنَّ وُجُوبَ هَذَا قَبْلَ وُجُوبِ ذَاكَ، وَمَنْفَعَتَهُ قَبْلَ مَنْفَعَتِه " [(٢)].

وقَالَ الخَطِيْبُ الشِّرْبِيْنِيُّ رَحِمَهُ اللهُ :" وُجُوبُ الْجِهَادِ -أَي القِتَالِ- وُجُوبُ الوَسَائِلِ لا الْمَقَاصِدِ، إِذِ الْمَقْصُودُ بالقِتَالِ إِنَّمَا هُوَ الْهِدَايَةُ ومَا سِوَاهَا مِنَ الشَّهَادَةِ ، وأَمَّا قَتْلُ الكُفَّارِ فَلَيْسَ بِمَقْصُودٍ، حَتَّى لَوْ أَمْكَنَ الْهِدَايَةُ بِإِقَامَةِ الدَّلِيْلِ بِغَيْرِ جِهَادٍ كَانَ أَوْلَى مِنَ الْجِهَادِ"[(٣)].

*****

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (١٤٧/١) .

(٣) «مغني المحتاج» (٢٧٧/٤) .

الْحَدِيْثُ السَّابِعُ

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "**غَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا** " (١) .

قوله (**غَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**) الغَدْوَةُ: بالفَتْحِ الْمَرَّةُ الْوَاحِدَةُ مِنَ الغُدُوِّ، وهُوَ الْخُرُوجُ في أَيِّ وَقتٍ كَانَ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ إلى انْتِصَافِهِ، والرَّوحَةُ: الْمَرَّةُ الوَاحِدَةُ مِنَ الرَّوَاحِ في أَيِّ وَقتٍ كَانَ مِنْ زَوَالِ الشَّمسِ إلى غُرُوبِهَا (٢) .

قوله (**خَيْرٌ مِن الدُّنيَا وَمَا فِيهَا**) أَيْ ثَوَابُ الغَدوَةِ أَوِ الرَّوحَةِ في الآخِرَةِ؛ وفي هَذَا التَّفْضِيلِ وَجهَانِ لِلْعُلَمَاءِ :

أَوَّلُهُمَا: أَنَّ الْمُخَيَّرَ عَلَيهِ هُوَ الدُّنيَا ومَا فِيهَا مِنَ الأَشيَاء، فَيَكُونُ الْمُرَادُ التَّنبِيهَ عَلَى عِظَمِ هَذَا العَمَلِ، وحَقَارَةِ الدُّنيَا وهَوانِهَا عِندَ اللَّهِ ﷻ .

وَالثَّانِي: أَنَّ الثَّوَابَ الَّذِي يَحْصُلُ لِمَنْ غَدَا في سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَاحَ خَيرٌ مِنَ الثَّوَابِ الَّذِي يَحصُلُ لِمَنْ لَو حَصَلَتْ لَهُ الدُّنيَا كُلُّهَا لأَنفَقَهَا في طَاعَةِ اللَّهِ (٣)، فَيَكُونُ الْمُرَادُ التَّنبِيهَ عَلَى فَضْلِ الْغُدُوِّ وَالرَّوَاحِ في سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ عَلَى بَاقِي أَعمَالِ الدِّينِ، لِمَا فِيهَا مِنَ الْخَيرِ الْمُتَعَدِّي نَفْعُهُ للآخَرِينَ في الدُّنيَا وَالآخِرَةِ، أَمَّا في الدُّنيَا فَبِدُخُولِهِمُ الإسْلامَ وحَقْنِ دِمَائِهِم وحِفظِ أَموَالِهِم، وجَرْيِ أَحْكَامِ الإِسْلامِ الْعَادِلَةِ عَلَيهِم، وأَمَّا في الآخِرَةِ فَبِدُخُولِ الْجَنَّةِ

---

(١) رواه البخاري عن أنس برقم (٢٧٩٢) وعن أبي هريرة برقم (٢٧٩٣) وعن سهل بن سعد برقم (٦٤٩٥) ورواه مسلم عن أنس برقم (٤٩٨١) وعن سهل بن سعد برقم (٤٩٨٣) وعن أبي هريرة برقم (٤٩٨٤) وعن أبي أيوب برقم(٤٩٨٥) .

(٢) «فتح الباري» (١٨/٦) .

(٣) قلت: وأَيَّدَهُ الحافظ ابن حجر في الفتح بما رواه ابن المبارك في كتاب «الجهاد» من مرسل الحسن قال: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَيشاً فِيهم عَبدُ اللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ فتَأَخَّرَ لِيَشهَدَ الصَّلاةَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "**وَالَّذِي نَفسِيْ بِيَدِهِ لَو أَنْفَقْتَ مَا في الأَرضِ جَمِيعاً مَا أَدرَكْتَ فَضْلَ غَدْوَتِهِمْ**". «فتح الباري» (١٨/٦-١٩) . ورواه أحمد في مسنده عن ابن عباس برقم (١٩٦٦) والترمذي (٥٢٧) بسند ضعيف .

وَالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ، وهَذَا هُوَ مَقصَدُ بعْثَةِ النَّبيِّ ﷺ ، كَمَا قَالَ سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وقَالَ سبحانه وتعالى: ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١]، كَأَنَّهُ قِيلَ: لا يُوَازِيهَا شَيْءٌ مِنَ الْخَيْرَاتِ، وهَذَا القولُ الثاني يَستَلْزِمُ الأَوَّلَ دُونَ العَكْس .

مَعْنَى الْحَدِيْثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ

بَيَّنَ النَّبيُّ ﷺ أفضَلِيَّةَ الْخُرُوجِ في سَبيلِ الله سبحانه وتعالى عَلَى غَيرِهِ مِنَ الأَعمَالِ الصَّالِحَةِ، حَيثُ بَيَّنَ أَنَّ الغَدْوَةَ أَوِ الرَّوْحَةَ في سَبيلِ الله خَيرٌ لِلمُسْلِمِ وأَعظَمُ أَجْراً مِنْ أَنْ تَكُونَ لَهُ الدُّنيَا مُنذُ خَلَقَهَا الله عز وجل إلى أَنْ يَرِثَهَا ثُمَّ يُنْفِقَهَا في طَاعَةِ الله وَوُجُوهِ الْخَيرِ، وذَلِكَ لأَنَّهُ بِهَذِهِ الغَدوَةِ يَحيَا الدِّينُ وينتَشِرُ، فَتَصلُحُ بِهَا أَحوالُ النَّاسِ الدِّينيَّةُ، فَيَتُوبُونَ إلى الله عز وجل وَيَرجعُونَ إِلَيهِ، وهَذَا هُوَ أَحبُّ الأَعمالِ إِلَى الله عز وجل، كَمَا قَالَ ﷺ: "**للهُ أَفْرَحُ بتَوبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَى بَعِيرِهِ وَقَدْ أَضَلَّهُ فِي أَرْضِ فَلاةٍ**" [(١)]، وتَبَعاً لِذَلِكَ تَصلُحُ أَحْوَالُهُمُ الدُّنْيَوِيَّةُ، كَمَا قَالَ سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف:٩٦] .

وجَاءَ فِي فَضْلِ الْغَدْوَةِ في سَبيلِ الله عز وجل لإعْلاءِ كَلِمَتِهِ عَلَى غَيرِهَا مِنَ الأَعْمَالِ آثَارٌ، مِنهَا عَنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: "**لَسفْرَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ أَفْضَلُ مِنْ خَمْسِينَ حِجَّةً.**"[(٢)]، وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: "**غَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ أَفْضَلُ مِنْ عَشْرِ حِجَجٍ لِمَنْ قَدْ حَجَّ** " [(٣)] .

---

(١) رواه البخاري عن أنس بن مالك برقم (٥٩٥٠) ورواه مسلم عن أبي هريرة برقم (٢٦٧٥) وعن البراء بن عازب برقم (٢٧٤٦) وعن أنس برقم (٢٧٤٧) .

(٢) رواه عبد الرزاق في مصنفه برقم (٩٥٤٦) وابن أبي شيبة في مصنفه برقم (١٩٣٥٩) وهو موقوفٌ لفظاً مرفوعٌ حكماً، وقال محقق المصنف: رجاله ثقات .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه برقم (١٩٣٥٨) .

فَائِـــــــــدَة

الدَّاعِي الأَوَّلُ إلى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بَعْدَ أَنْ أَنعَمَ اللَّهُ عَلَينَا بالإِسْلام هُوَ رَسُولُنَا الكَرِيْمُ ﷺ، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾[الأحزاب: ٤٥-٤٦]، وقَدْ كَرَّرَ الْقُرْآنُ الكَرِيْمُ الخِطَابَ إلى الرَّسُول ﷺ يَأْمُرُهُ بالدَّعْوَةِ إلى اللَّهِ والاِسْتِمْرَار عَلَيهَا وعَدَم التَّحوُّل عَنها، فَمِنْ هَذِهِ الآيَاتِ الكَرِيْمَةِ قَولُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾[الحج: ٦٧]، وقَولُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[القصص: ٨٧]، وقَولُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴾[الرعد: ٣٦]، وقَدْ ظَلَّ ﷺ يَدعُو إلى رَبِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَتَّى أَتَاهُ اليَقِينُ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وصَارَ إلى جِوَارِهِ الكَرِيم رَاضِياً مَرضِيّاً، فَجزَاهُ اللَّهُ عَلَى الْمُسلِمِينَ خَيرَ الْجَزَاء، وهَذِهِ الآيَاتُ يَدخُلُ فيهَا الْمُسلِمُونَ جَمِيعاً، لأَنَّ الأَصْلَ في خِطَاب اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ دُخُولُ أُمَّتِهِ فِيهِ إلاَّ مَا اسْتُثْنِيَ، وليسَ مِنْ هَذَا الْمُستَثْنَى أَمْرُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالدَّعوَةِ إِلَيهِ، وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَكْرَمَ هَذِهِ الأُمَّةَ الإِسْلامِيَّةَ وشَرَّفَهَا أَنْ أَشْرَكَهَا مَعَ رَسُولِهِ الكَرِيْم في وَظِيفَةِ الدَّعوَةِ إِلَيهِ، وهَذَا التَّشرِيفُ لا يُستَفَادُ فَقَطْ مِنَ الْخِطَابَاتِ الإِلَهِيَّةِ لِرَسُولِهِ بالدَّعوَةِ إِلَيهِ، وَإِنَّمَا هُوَ صَرِيحُ الآيَاتِ الكَثِيرَةِ في القُرآنِ، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فَهَذِهِ الآيَةُ الكَرِيْمَةُ أَفَادَتْ خَيرِيَّةَ هَذِهِ الأُمَّةِ وأَفضَلِيَّتَهَا عَلَى بَاقِي الأُمَم، كَمَا أَفَادَتْ أَنَّهَا إِنَّمَا حَازَتْ هَذهِ الْخَيْرِيَّةَ لِقِيَامِها بوَظِيفَةِ الأَمْر بالْمَعْرُوفِ وَالنَّهي عَنِ الْمُنْكَرِ وَالدَّعوَةِ إلى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بخِلافِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبيل اللَّهِ ويَدعُونَ إلى غَيرِهِ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [التوبة: ٦٧]، ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَعدَ ذَلِكَ: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [التوبة: ٧١]، قَالَ القُرطُبِيُّ في تَفسِيرِ هَذِهِ الآيَةِ: "فَجعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الأَمْرَ بالْمَعرُوفِ والنَّهيَ عَنِ الْمُنكَرِ فَرقاً بَينَ الْمُؤْمِنينَ

وَالْمُنَافِقِينَ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ أَخصَّ أَوصَافِ الْمُؤْمِنِينَ الأَمْرُ بِالْمَعرُوفِ والنَّهيُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَرَأْسُهَا الدُّعَاءُ إلى الإِسلامِ"[1]. أَضِفْ إلى ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ ﷻ بِهَذِهِ الآيَةِ وَصَفَ الأُمَّةَ الإِسلامِيَّةَ بِمَا وَصَفَ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ ﷻ عَن رَسُولِهِ ﷺ: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، كَمَا أَنَّ اللَّهَ ﷻ أرسلَ رَسُولَهُ مُحَمَّداً ﷺ إلى النَّاسِ جَميعاً، كَمَا قَالَ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] .

وَرِسَالَتُهُ ﷺ بَاقِيَةٌ إلى يَومِ الدِّينِ، ومَقصَدُهَا هِدَايَةُ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ لِيَفُوزُوا بِالسَّعَادَةِ في الدَّارَينِ؛ ولِهَذَا كَانَتْ رِسَالَتُهُ رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقَدْ بَلَّغَ ﷺ رِسَالَةَ رَبِّهِ وَمَضَى إلى جِوَارِهِ الكَرِيْمِ رَاضِياً مَرضِيّاً، فَكَانَ لا بُدَّ لِلمُسلِمِينَ مِنَ النُّهُوضِ مِنْ بَعدِهِ وتَبلِيغِ دَعوَةِ الإِسلامِ إلى أَهْلِ الأَرضِ لِيَهْدُوهُم وَيُخرِجُوهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١]، فَهُم شُهَدَاءُ اللَّهِ عَلَى خلقِهِ[2]، ونُوَّابُ نَبِيِّهِ ﷺ في تَبلِيغِ رِسَالَتِهِ إِلَيْهِمْ بَعدَهُ، قَالَ ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] .

وقَدْ شَرَعَ اللَّهُ تعالى لِهَذِهِ الأُمَّةِ مَا شَرَعَ لأُولِي الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ مِنْ إِقَامَةِ الدِّينِ الَّذِي ارْتَضَاهُ ﷻ لِلعِبَادِ وَالدَّعوَةِ إِلَيْهِ، حَيثُ قَالَ ﷻ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾[الشورى: ١٣]، وَهَذَا الْمَشْرُوعُ لَيسَ الأَحكَامَ وَالتَّكَالِيفَ، فَإِنَّهَا مُختَلِفَةٌ مُتَفَاوِتَةٌ، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ

---

(١) «تفسير القرطبي» (٤/٤٤) .

(٢) «أصول الدعوة» للدكتور عبد الكريم زيدان بتصرف يسير . ص (٣٠٧ – ٣١٨) .

﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٩]، بَلْ هُوَ شَيْءٌ تَطَابَقَتِ الأَنْبِيَاءُ عَلَى صِحَّتِهِ وَالقِيَامِ بِهِ، وَهُوَ الإِيْمَانُ باللهِ وَحدَهُ وَبكُلِّ مَا أَمَرَ بِهِ، وَالدَّعوَةُ إلى تَعْظِيمِهِ وتَوقِيرِهِ وإخْلاصِ العِبَادَةِ لَهُ، وهَذَا أَمْرٌ اجْتَمَعَتِ الشَّرَائِعُ عَلَيهِ [(١)]. لِذَلِكَ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَبَّى هَذِهِ الأُمَّةَ فِي القُرآنِ الكَريمِ تَربيَةَ الدُّعَاةِ لا تَربيَةَ العُبَّادِ فَحسْبُ، وَذَلِكَ مِنْ خِلالِ تَفْصِيلٍ كَامِلٍ لِقَصَصِ الأَنبيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بذِكْرِ دَعوتِهم لأَقْوامِهم عَلَى اخْتِلافِ مَشَاربِهم ومَآخِذِهم وأَسْبَابِهم، ومَا وَاجَهَهُ الأَنبيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فِي سَبيلِ ذَلِكَ مِنْ مَعَارَضَاتٍ، ثُمَّ بَيَّنَ عَاقِبَةَ الأَنبيَاءِ ومَنْ وَالاهُم وَتَابَعَهُم، وعَاقِبَةَ مَنْ خَالَفَهُم وَكَذَّبَهُم؛ كَمَا ذَكَرَ قَصَصَ الدُّعَاةِ مِنْ غَيرِ الأَنبيَاءِ فَذَكَرَ قِصَّةَ صَاحِبِ يَس وَمُؤْمِنِ آلِ فِرعَونَ مَعَ وُجُودِ كَثِيرٍ مِنَ الْعُبَّادِ الَّذِينَ انْقَطَعُوا لِلعِبَادَةِ فِي زَمَانِهمَا، ولَكِنْ لَمْ يَتِمَّ ذِكْرُهُم فِي القُرآنِ لِعَدَمِ تَأْثِيرِهم عَلَى غَيرِهم وعَدَمِ انْتِفَاعِ الْخَلْقِ بعِبَادَتِهم، وذَلِكَ لِكَونِ هَذَينِ الرَّجُلَينِ دَعَوَا إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَعَ مُخَالَفَةِ قَومَيْهِمَا لَهُمَا، فَأَشْبَهَا الأَنبيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فِي ذَلِكَ، وكَذَلِكَ ذَكَرَ لَنَا دُعَاةً إلى اللهِ مِنْ غَيرِ الإِنْسِ، كَالْجِنِّ الَّذِينَ آمَنُوا باللهِ بَعدَ سَمَاعِهِمُ الْقُرآنَ يُتْلَى، ثُمَّ وَلَّوْا إلى قَومِهم مُنْذِرِينَ، وكَمَا ذَكَرَ الْهُدْهُدَ الَّذِي تَسَبَّبَ بِفِكْرِهِ وجُهْدِهِ وهَمِّهِ وهِمَّتِهِ بدُخُولِ مَمْلَكَةِ سَبَإٍ فِي الإِسْلامِ، وهَكَذَا فَقَدْ فَصَّلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَحْوَالَ الدَّعوَةِ وَالدُّعَاةِ فِي القُرآنِ الْمَكِّيِّ فِي سُوَرٍ كَامِلَةٍ، كَسُورَةِ الأَنعَامِ وَالأَعرَافِ وَيُونُسَ وهُودٍ ويُوسُفَ وإِبرَاهِيمَ والحِجْرِ والإِسرَاءِ وَالكَهْفِ ومَريَمَ وطه والأَنبيَاءِ والْمُؤْمِنُونَ والفُرقَانِ والشُّعَرَاءِ والنَّملِ والقَصَصِ والعَنكَبُوتِ ويس والصَّافَّاتِ وص وغَافِرٍ وفُصِّلَتْ والشُّورَى والزُّخرُفِ والدُّخَانِ والأَحقَافِ وق والذَّارِيَاتِ والقَمَرِ والقَلَمِ ونُوحٍ والجِنِّ والْمُزَّمِّلِ والْمُدَّثِّرِ وغَيرِهَا مِنَ السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ، وتَكَلَّمَ بالتَّفصِيلِ عَنِ الأَخلاقِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَتَحَلَّى بِهَا الْمُسلِمُ فِي دَعْوَتِهِ، والَّتِي تُفْضِي إلى هِدَايَةِ النَّاسِ وتُحَوِّلُهمْ مِنْ أَلَدِّ الأَعدَاءِ إلى أَحَبِّ الأَولِيَاءِ، ومَا هَذَا إلاَّ لأَنَّ وَظِيفَةَ هَذِهِ الأُمَّةِ هِيَ وَظِيفَةُ الأَنبيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ووَظِيفَةُ سَيِّدِ الأَنبيَاءِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

---

(١) «التفسير الكبير» للرازي بتصرف (١٣٨/٢٧).

فَالأَنبياءُ السَّابقُونَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كَانُوا يَطْلُبُونَ مِنْ أَقوَامِهِم أَنْ يَعبُدُوا اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولَمْ يَكُونُوا يَطْلُبُونَ مِنهُمُ النُّصرَةَ لِتَبليغِ الرِّسَالَةِ، غيرَ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ طَلَبَ مِنْ قَومِهِ النُّصرَةَ فَخَذَلُوهُ وآذَوْهُ، وعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ طَلَبَ النُّصرَةَ في الدَّعوَةِ إلى اللَّهِ مِنْ خِيَارِ مَنْ آمَنَ بهِ، وهُمُ الحَوَارِيُّونَ، أَمَّا نَبِيُّنَا ﷺ فَقَد كَانَ يَطلُبُ النُّصرَةَ لِتَبلِيغِ رِسَالَةِ رَبِّهِ مِن كُلِّ أَحَدٍ، فَكُلُّ مُسلِمٍ مِنْ أَتبَاعِ النَّبيِّ ﷺ يَجبُ عَلَيهِ أَنْ يَنصُرَ دِينَهُ ودَعوَتَهُ بمَا أُوتيَ مِنْ طَاقَةٍ، كَمَا يَجبُ عَلَيهِ اتِّبَاعُهُ، ولا يَكُونُ مِن أَتْبَاعِهِ حَقّاً حَتَّى يَقُومَ بهَذِهِ النُّصرَةِ في التَّبلِيغِ عَنهُ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤] .

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: "يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى آمِراً عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ - أَيْ أَنْصَارَ دِينِهِ بالدَّعوَةِ إِلَيهِ - في جَمِيعِ أَحْوَالِهِم بأَقوَالِهِم وأَفعَالِهِم وأَنفُسِهِم وأَمْوَالِهِم، وَأَنْ يَستَجِيبُوا لله ولِرَسُولِهِ كَمَا استَجَابَ الحَوَارِيُّونَ لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ قَالَ: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أَيْ مَنْ مُعِينِي في الدَّعوَةِ إلى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؟ قَالَ الحَوَارِيُّونَ - وهُمْ أَتبَاعُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ - ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾، أَيْ نَحنُ أَنصَارُكَ عَلَى مَا أُرْسِلْتَ بِهِ ومُؤَازِرُوكَ عَلَى ذَلِكَ، ولِهَذَا بَعَثَهُم دُعَاةً إلى النَّاسِ في بِلادِ الشَّامِ في الإِسرَائِيلِيِّينَ واليُونَانِيِّينَ، وهَكَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ في أَيَّامِ الْحَجِّ - أَيْ في مَكَّةَ - حِينَمَا كَانَ يَتَجَوَّلُ عَلَى القَبَائِلِ يَدعُوهُم إلى اللَّهِ: "**مَنْ رَجُلٌ يُؤْوِينِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي، فَإِنَّ قُرَيْشاً قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي**"، حَتَّى قَيَّضَ لَهُ الأَوسَ وَالْخَزْرَجَ مِنْ أَهلِ الْمَدِينَةِ فَبَايَعُوهُ وآزَرُوهُ وشَارَطُوهُ أَنْ يَمْنَعُوهُ مِنَ الأَسوَدِ والأَحْمَرِ وَالأُمَمِ إنْ هُوَ هَاجَرَ إِلَيْهِم بِمَنْ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَوَفَّوا بمَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيهِ، لِهَذَا سَمَّاهُمُ اللَّهُ ورَسُولُهُ الأَنصَارَ، وصَارَ ذَلِكَ عَلَماً عَلَيهِم، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم جَمِيعاً وأَرضَاهُم [(١)] .

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/٣٥٣) .

فَالنُّصرَةُ لِلدِّينِ لا تَستَلْزِمُ القِتَالَ، والعَمَلُ بالدِّينِ وَالدَّعوَةُ إِلَيهِ نَصْرٌ لَهُ، فَمَعْنَى قَولِهِ ﷻ: ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ أيْ كُونُوا أنصارَ دِينِ اللهِ بالدَّعوَةِ إلى اللهِ ﷻ وتبليغِ رِسَالاتِهِ، وهَذَا يَتَطَلَّبُ أَنْ تَتَّخِذَ هَذِهِ الأمَّةُ نُصرَةَ دِينِ اللهِ وإحْيَاءَهُ في النَّاس بالدَّعوَةِ إلَيهِ مَقصَداً لِحَيَاتِهم، يُضَحُّونَ بكُلِّ شَيْءٍ لأَجلِ تَحقِيقِ هَذَا الْمَقصَدِ العَظِيمِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ لأَجلِهِ النَّبِيِّينَ والْمُرسَلِينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَيَتَحَمَّلُونَ في سَبيلِ ذَلِكَ جَمِيعَ الْمَصَاعِبِ والْمَشَاقِّ، وبذَلِكَ تَكُونُ نُصرَةُ اللهِ ﷻ وتَأْيِيْدُهُ مَعَهُم، ويَكُونُ الظُّهُورُ والغَلَبَةُ عَلَى الأَعدَاءِ نَصِيبَهُم، لأَنَّ الجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، أَيْ إِنْ تَنصُرُوا دِينَ اللهِ وسُنَّةَ رَسُولِهِ بالدَّعوَةِ إلَيهِمَا وَالدِّفَاعِ عَنهُمَا يَنْصُرْكُمْ ويُمكِّنْ لَكُم في الأَرضِ وَيستَخْلِفْكُمْ فِيهَا، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤٠-٤١]، فَكَمَا أظهَرَ اللهُ ﷻ الحَوارِيِّينَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَنْ خَالَفَهُم بِالْحُجَّةِ وَالبُرهَانِ، كَذَلِكَ يُظْهِرُكُم عَلَى مَنْ خَالَفَكُم .

وقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ رَحِمَهُ اللهُ: "إنَّ اللهَ تَعالَى أَوْحَى إِلَى نَبيٍّ مِنْ أَنبياء بَني إِسْرَائِيلَ يُقَالُ لَهُ شِعْيَاء: أَنْ قُمْ فِي قَوْمِكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنِّي مُنطِقٌ لِسَانَكَ بوَحْيٍ ... قَالَ: وَأَبْعَثُ أُمِّيّاً مِنَ الأُمِّيِّينَ، أَبْعَثُهُ لَيْسَ بفَظٍّ وَلا غَلِيظٍ وَلا سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ، لَوْ يَمُرُّ إِلى جَنْبِ سِرَاجٍ لَمْ يُطْفِئْهُ مِنْ سَكِينَتِهِ، وَلَوْ يَمْشِي عَلَى الْقَصَبِ لَمْ يُسْمَعْ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْهِ، أَبْعَثُهُ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، لا يَقُولُ الْخنَا، أَفْتَحُ بِهِ أَعْيُناً كُمْهاً وَآذَانًا صُمّاً وَقُلُوباً غُلْفاً، أُسَدِّدُهُ لِكُلِّ أَمْرٍ جَمِيلٍ، وَأَهَبُ لَهُ كُلَّ خُلُقٍ كَرِيمٍ، وَأَجْعَلُ السَّكِينَةَ لِبَاسَهُ، وَالْبِرَّ شِعَارَهُ، وَالتَّقْوَى ضَمِيرَهُ، وَالْحِكْمَةَ مَنطِقَهُ، وَالصِّدْقَ وَالْوَفَاءَ طَبِيعَتَهُ، وَالْعَفْوَ وَالْمَعْرُوفَ خُلُقَهُ، وَالْحَقَّ شَرِيعَتَهُ، وَالْعَدْلَ سِيرَتَهُ، وَالْهُدَى إِمَامَهُ، وَالإِسْلامَ مِلَّتَهُ، وَأَحْمَدَ اسْمَهُ، أَهْدِي بِهِ بَعْدَ الضَّلالَةِ، وَأُعَلِّمُ بِهِ بَعْدَ الْجَهَالَةِ، وَأَرْفَعُ بِهِ بَعْدَ الْخَمَالَةِ، وَأُعَرِّفُ بِهِ بَعْدَ النَّكِرَةِ، وَأُكَثِّرُ بِهِ بَعْدَ الْقِلَّةِ، وَأُغْنِي بِهِ بَعْدَ الْعَيْلَةِ، وَأَجْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْفُرْقَةِ، وَأُؤَلِّفُ بِهِ بَيْنَ أُمَمٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَقُلُوبٍ مُخْتَلِفَةٍ وَأَهْوَاءٍ مُتَشَتِّتَةٍ، وَأَستَنقِذُ بِهِ فِئَاماً مِنَ

النَّاسِ عَظِيمَةً مِنَ الْهَلَكَةِ، وَأَجْعَلُ أُمَّتَهُ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ، مُوَحِّدِينَ مُؤْمِنِينَ مُخْلِصِينَ مُصَدِّقِينَ لِمَا جَاءَتْ بِهِ رُسُلِي، أُلْهِمُهُمُ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ وَالثَّنَاءَ وَالتَّكْبِيرَ وَالتَّوْحِيدَ فِي مَسَاجِدِهِمْ وَمَجَالِسِهِمْ وَمَضَاجِعِهِمْ وَمُنقَلَبِهِمْ وَمَثْوَاهُمْ، يُصَلُّونَ لِي قِيَاماً وَقُعُوداً، وَيُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ صُفُوفاً وَزُحُوفاً، وَيَخْرُجُونَ مِنْ دِيَارِهِمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي أُلُوفاً، يُطَهِّرُونَ الْوُجُوهَ وَالأَطْرَافَ، وَيَشُدُّونَ الثِّيَابَ فِي الأَنصَافِ، قُرْبَانُهُمْ دِمَاؤُهُمْ، وَأَنَاجِيلُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ، رُهْبَانٌ بِاللَّيْلِ لُيُوثٌ بِالنَّهَارِ، وَأَجْعَلُ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ وَذُرِّيَّتِهِ السَّابِقِينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءَ وَالصَّالِحِينَ، أُمَّتُهُ مِنْ بَعْدِهِ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ، وَأُعِزُّ مَنْ نَصَرَهُمْ، وَأُؤَيِّدُ مَنْ دَعَا لَهُمْ، وَأَجْعَلُ دَائِرَةَ السَّوْءِ عَلَى مَنْ خَالَفَهُمْ أَوْ بَغَى عَلَيْهِمْ أَوْ أَرَادَ أَنْ يَنتَزِعَ شَيْئاً مِمَّا فِي أَيْدِيهِمْ، أَجْعَلُهُمْ وَرَثَةً لِنَبِيِّهِمْ، وَالدَّاعِيَةَ إِلَى رَبِّهِمْ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ، أَخْتِمُ بِهِمُ الْخَيْرَ الَّذِي بَدَأْتُهُ بِأَوَّلِهِمْ، ذَلِكَ فَضْلِي أُؤْتِيهِ مَنْ أَشَاءُ، وَأَنَا ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ." هَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ اليَمَانِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ [(١)] .

وعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ وَقَدْ كَانَ أَمَرَ عَلِيّاً وَمُعَاذاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنْ يَسِيرَا إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ ﷺ: "انْطَلِقَا فَبَشِّرَا وَلا تُنَفِّرَا، وَيَسِّرَا وَلا تُعَسِّرَا، إِنَّهُ قَدْ أُنزِلَ عَلَيَّ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾" [(٢)] .

فَتَبَيَّنَ مِنْ هَذَا أَنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ هِيَ خَيرُ الأُمَمِ، وأَنَّ سَبِيلَهَا ومَنْهَجَهَا ووَظِيفَتَهَا ومَقْصَدَ حَيَاتِهَا هُوَ الدَّعْوَةُ إلى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وهِدَايَةُ الْخَلْقِ ودَلالَتُهُم عَلَى الْخَالِقِ، ويَرِثُونَ نَبِيَّهُم ﷺ فِي تَبلِيغِ مَا أُنزِلَ إِلَيهِ مِنْ رَبِّهِ ويَنُوبُونَ مَنَابَهُ فِي ذَلِكَ ويَقُومُونَ مَقَامَهُ، ولِذَلِكَ قَرَنَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَينَ هَذِهِ الأُمَّةِ وبَينَ نَبِيِّهَا ﷺ فِي مَقَامِ الوَصفِ بِالإِيْمَانِ، حَيثُ قَالَ:

---

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (١٥٥٥٤) و«تفسير ابن كثير» (٣/٥٠١) .

(٢) «تفسير ابن أبي حاتم» (١٦٠٦٩) و«تفسير ابن كثير» (٣/٥٠١) .

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، كَمَا قَرَنَ بَينَهُم فِي مَقَامِ الْجُهدِ لإحْيَاءِ الإيْمَانِ ونَشْرِهِ حَيثُ قَالَ: ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [التوبة: ٨٨] .

فَهَذِهِ الأُمَّةُ تَقُومُ بجُهدِ نَبيِّهَا ﷺ بالتَّضْحِيَةِ والْمُجَاهَدَةِ والْمُفَارَقَةِ لِكُلِّ مَحبُوبٍ مِنْ مَالٍ ووَلَدٍ وزَوجَةٍ ووطَنٍ وغيرِهَا، فَمِلَّتُهُم مِلَّةُ أَبِيهِم إبرَاهِيمَ عليه السلام، مِلَّةُ التَّوحِيدِ وَالتَّضحِيَةِ بكُلِّ مَحبُوبٍ لِدَعوَةِ الْخَلْقِ إليهِ، فَلَيسَ هَمُّهُم أَنْ يَعْبُدُوا الله عز وجل فَحَسْبُ، بَلْ هَمُّهُم أَنْ يُعْبَدَ الله عز وجل فِي جَمِيعِ الأَرْضِ، ولا يَجْتَهِدُونَ لِنَجَاةِ أَنفُسِهِم مِنَ النَّارِ فَحَسْبُ، بلْ يَجتَهِدُونَ لِنَجَاتِهِم ونَجَاةِ البَشَرِيَّةِ جَمْعَاءَ، يَجُوعُونَ ويَعطَشُونَ كَيْ يَحْفَظُوْا الْبَشَرِيَّةَ مِنْ جُوعِ وعَطَشِ يومِ القِيَامَةِ، يَتْعَبُونَ لِتَرتَاحَ البَشَرِيَّةُ إلى أَبَدِ الآبَادِ، يَمشُونَ عَلَى الأَرضِ هَوناً يَدعُونَ الخَلقَ إلى الخَالِقِ باللُّطفِ وَالرَّحمَةِ والتَّوَدُّدِ إِلَيهِم والطَّمَعِ فِي هِدَايَتِهِم، ويَبْذُلُونَ فِي سَبيلِ ذَلِكَ أَموَالَهُم ومُهَجَهُم وعَوَاطِفَهُم، ويَدعُونَ لِمَنْ خَالَفَهُم وصَدَّ عَنْ دَعوَتِهِم كَمَا يَدعُونَ لِمَنْ وَافَقَهُم، كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدعُو لأَشَدِّ النَّاسِ عِدَاءً لَهُ بأَنْ يُعِزَّ الله بِهِ الإسلامَ، وهُمْ فِي ذَلِكَ لا يَخَافُونَ فِي الله لَومَةَ لائِمٍ ولا سَطوَةَ عَدُوٍّ غَاشِمٍ، كَمَا قَالَ سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٣٩] .

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رحمه الله: "يَمْدَحُ الله سبحانه وتعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ إِلى خَلقِهِ ويُؤَدُّونَهَا بأَمَانَاتِهَا ﴿ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ ﴾ أَيْ لا يَخَافُونَ أَحَداً سِوَاهُ، فَلا تَمْنَعُهُم سَطوَةُ أَحَدٍ عَنْ إبْلاغِ رِسَالاتِ الله سبحانه وتعالى ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ أَيْ وكَفَى باللهِ نَاصِراً ومُعِيناً؛ وَسَيِّدُ النَّاسِ فِي هَذَا الْمَقَامِ بَلْ وفِي كُلِّ مَقَامٍ مُحَمَّدٌ ﷺ ، فَإِنَّهُ قَامَ بأَدَاءِ الرِّسَالَةِ وإبلاغِهَا إِلى أَهْلِ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِلى جَمِيعِ أَنواعِ بَنِي آدَمَ، وأَظْهَرَ الله كَلِمَتَهُ ودِينَهُ وشَرعَهُ عَلَى جَمِيعِ الأَديَانِ وَالشَّرَائِعِ، فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ النَّبِيُّ قَبلَهُ إِنَّمَا يُبْعَثُ إِلى قَومِهِ خَاصَّةً، فَأَمَّا هُوَ ﷺ بُعِثَ إلى جَمِيعِ الخَلْقِ عَرَبِهِم وعَجَمِهِم ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ

إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾، ثُمَّ وَرِثَ مَقَامَ البَلاغِ عَنْهُ أُمَّتُهُ مِنْ بَعْدِهِ، فَكَانَ أَعلَى مَنْ قَامَ بِهَا بَعدَهُ أَصْحَابُهُ ﭫ، بَلَّغُوا عَنْهُ كَمَا أَمَرَهُم بِهِ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وأَفْعَالِهِ وأَحْوَالِهِ، فِي لَيلِهِ ونَهَارِهِ، وحَضَرِهِ وسَفَرِهِ، وسِرِّهِ وعَلانِيَتِهِ، فَرَضِيَ اللهُ عَنهُم وَأَرضَاهُم، ثُمَّ وَرِثَهُ كُلُّ خَلَفٍ عَنْ سَلَفِهِم إِلى زَمَانِنَا هَذَا، فَبِنُورِهِم يَقْتَدِي الْمُهتَدُونَ، وَعَلَى مَنْهَجِهِم يَسْلُكُ الْمُوَفَّقُونَ، فَنَسأَلُ اللهَ الكَرِيْمَ الْمَنَّانَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ خَلَفِهِم " [(١)] .

*****

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/٤٩٧) .

الْحَدِيْثُ الثَّامِنُ

عَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: **مَرَّ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِشِعْبٍ فِيهِ عُيَيْنَةٌ مِنْ مَاءٍ عَذْبَةٌ، فَأَعْجَبَتْهُ لِطِيبِهَا، فَقَالَ: لَوِ اعْتَزَلْتُ النَّاسَ فَأَقَمْتُ فِي هَذَا الشِّعْبِ، وَلَنْ أَفْعَلَ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: "لا تَفْعَلْ، فَإِنَّ مُقَامَ أَحَدِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ صَلاتِهِ فِي بَيْتِهِ سَبْعِينَ عَامًا، أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ الْجَنَّةَ، اغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُوَاقَ نَاقَةٍ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ "** [(١)] .

قوله (**بِشِعْبٍ**) الشِّعْبُ بِكَسْرِ الشِّينِ هُوَ مَا انْفَرَجَ بَيْنَ الجَبَلَيْنِ وغَيرِهِ .

قوله (**عُيَيْنَةٌ**) تَصغِيرُ عَيْنٍ بِمَعنى النَّبْعِ .

قوله (**مِنْ مَاءٍ**) قَالَ الطِّيْبِيُّ: صِفَةُ عُيَيْنَة، جِيْءَ بِهَا مَادِحَةً، لأَنَّ التَّنْكِيرَ فِيهَا يَدُلُّ عَلَى نَوْعِ مَاءٍ صَافٍ تَرُوْقُ بِهِ الأَعْيُنُ، وتَبْتَهِجُ لَهُ الأَنْفُسُ .

قوله (**عَذْبَةٌ**) بِالرَّفْعِ صِفَةُ عُيَيْنَة، وبالجَرِّ عَلَى الجِوَارِ، أَيْ طَيِّبَةٌ أَوْ طَيِّبٌ مَاؤُهَا .

قوله (**لَوِ اعْتَزَلْتُ النَّاسَ... إلخ**) جَوَابُ لَوْ محذوفٌ، أَيْ لَكَانَ خَيْراً لِيْ [(٢)] .

قوله (**فُوَاقَ نَاقَةٍ**) هُوَ مَا بَينَ الْحَلْبَتَيْنِ، وقِيلَ: هُوَ مَا بَينَ رَفْعِ يَدِكَ عَنْ ضَرْعِهَا وَقْتَ الْحَلْبِ وَوَضْعِهَا، وهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ قَلِيْلِ الْجِهَادِ .

قوله (**أَفْضَلُ مِنْ صَلاتِهِ فِي بَيْتِهِ سَبْعِينَ عَامًا**) لَيسَ الْمَقْصُودُ ذَاتَ الْعَدَدِ، وإِنَّمَا الْمُرَادُ مِنَ الْعَدَدِ هُوَ التَّقْرِيْبُ لِلأَفْهَامِ وَالدَّلالَةُ عَلَى الْكَثْرَةِ الْمُطْلَقَةِ، واللَّهُ أَعْلَمُ .

---

(١) رواه الترمذي في سننه برقم (١٦٥٠) وقال: حديث حسن، ورواه الحاكم في المستدرك برقم (٢٣٨٢) وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي .

(٢) «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (٧/٣٦١) .

مَعْنَى الْحَدِيْثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ

هَذَا الصَّحَابِيُّ الجَلِيلُ لَمَّا رَأَى هَذَا الشِّعْبَ ومَا فِيهِ مِنَ الْمَاءِ مَالَتْ نَفْسُهُ إلى اعْتِزَالِ النَّاسِ والتَّفَرُّغِ لِعِبَادَةِ رَبِّهِ، لِمَا فِيهِ مِنَ التَّفَرُّغِ عَنِ الْمُلْهِيَاتِ والْمُشْغِلاتِ عَنِ الْعِبَادَةِ، ولِمَا فِيهَا مِنْ جَمْعِ القَلْبِ عَلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَالدَّارِ الآخِرَةِ، ولَكِنْ حَتَّى يَسْتَخْلِصَ عِبَادَتَهُ مِنْ حَظِّ النَّفْسِ، ولِئَلاَّ يَكُونَ هُنَاكَ عَمَلٌ فَاضِلٌ لِهَذَا العَمَلِ لَمْ يَفْعَلْ هَذَا، بَلِ اسْتَأْذَنَ النَّبِيَّ ﷺ في ذَلِكَ، كَمَا اسْتَأْذَنَ رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ في السِّيَاحَةِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: **"إنَّ سِيَاحَةَ أُمَّتِي الْجِهَادُ فِي سَبِيْلِ الله "** [(١)]، فَنَهَاهُ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الْعُزْلَةِ، وبَيَّنَ لَهُ مَا هُوَ أَفضَلُ مِنهَا، وهُوَ قِيَامُ الإِنْسانِ فِي سَبِيْلِ الله لإِعْلاءِ كَلِمَتِهِ ونُصْرَةِ دِينِهِ، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ القِيَامُ بالْجِهَادِ بالْمَالِ والنَّفْسِ في قِتَالِ الأَعْدَاءِ، أَوْ كَانَ بالْجِهَادِ بالحُجَّةِ واللِّسَانِ أَيْ بالدَّعوةِ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهُوَ أَعْظَمُ النَّوْعَيْنِ، كَمَا قَالَ ﷺ: **"جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ "** [(٢)]، وقَالَ: **"أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ"** [(٣)]، وقَالَ: **"سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِب وَرَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ"** [(٤)]، وَسَأَلَهُ رَجُلٌ وقَدْ وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغَرْزِ، أَيُّ الجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: **"كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائرٍ."**[(٥)]. وذَلِكَ لأَنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ مَبْعُوثَةٌ لِهِدَايَةِ النَّاسِ كَافَّةً، كَمَا قَالَ نَبِيُّهَا ﷺ: **"إنَّمَا بُعِثْتُمْ مَيَسِّرِيْنَ "** [(٦)]، فَلا يَلِيْقُ بِمَنْ هَذِهِ مَرْتَبَتُهُ أَنْ يَتْرُكَهَا ويَشْتَغِلَ بالأَدْنَى، لأَنَّ مَقَامَ الدَّعْوَةِ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ أَفْضَلُ مَقَامَاتِ الْعَبدِ، وقَدْ جَاءَ الشَّرْعُ بالتَّرْخِيصِ في العِبَادَاتِ مِنْ قَصْرِ الصَّلاةِ وَتَرْكِ الْجُمُعَةِ والْجَمَاعَةِ والفِطْرِ فِي رَمَضَانَ لِلْمُسَافِرِ، والطَّهَارَةِ بالتُّرَابِ، والصَّلاةِ فِي أَيِّ بُقْعَةٍ مِنْ بِقَاعِ الأَرْضِ، ومَا كَانَ ذَلِكَ إلاَّ لأَنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ أُمَّةٌ مُتَحَرِّكَةٌ

---

(١) رواه أبو داوود عن أبي أمامة برقم (٢٤٨٦) ورواه الحاكم في المستدرك عنه برقم (٢٣٩٨) وقال: حديث صحيح ووافقه الذهبي .

(٢) رواه الحاكم في المستدرك عن أنس برقم (٢٤٢٧) وقال: حديث صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي .

(٣) رواه أبو داوود عن أبي سعيد الخدري برقم (٤٣٤٤) والترمذي عنه برقم (٢١٧٤) وقال: حديث حسن غريب .

(٤) رواه الحاكم في المستدرك عن جابر برقم (٤٨٨٤) وقال صحيح الإسناد و لم يخرجاه .

(٥) رواه النسائي عن طارق بن شهاب البجلي برقم (٣٤٨١) وقال المنذري في الترغيب: إسناده صحيح .

(٦) رواه البخاري عن أبي هريرة برقم (٢١٧) .

كَالْمَطَرِ، وعَلَيهَا مَسْؤُولِيَّةُ تَبْلِيغِ الدِّينِ كُلِّهِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، ولا يَتَسَنَّى لَهَا القِيَامُ بذَلِكَ إلاَّ بهَذِهِ الرُّخَصِ، وإلاَّ لَشَقَّ عَلَيهَا حَمْلُ هَذِهِ الرِّسَالَةِ، وأُعِيْقَتْ عَنْ أَدائِهَا، وكَذَلِكَ أُحِلَّتْ لَهَا الْغَنَائِمُ لِئَلاَّ تَشْتَغِلَ بأَعْمَالِ الكَسْبِ عَنِ الْجُهْدِ لِنَشْرِ الدِّينِ، وأَعْطَى الخَارِجَ في سَبيلِ اللَّهِ في كُلِّ حَالٍ مِنْ أَحْوَالِهِ مَا يَفُوْقُ أَجْرَ الصَّائِمِ القَائِمِ القَانتِ بآيَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لا يَفْتُرُ عَنْ صَلاةٍ ولا عَنْ ذِكْرٍ ولا عَنْ تِلاوَةٍ، وبَيَّنَ أَنَّ مُقَامَ الرَّجُلِ سَاعَةً في سَبِيلِ اللَّهِ لإعْلاءِ كَلِمَتِهِ ونَشْرِ دِينِهِ أَفْضَلُ من عِبَادَةِ الْعَابدِ سَبْعِينَ سَنَةً، لأَنَّ عِبَادَتَهُ نَفْعُهَا لازِمٌ لا يَتَعَدَّى إلى غَيْرِهِ، أَمَّا مُقَامُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَنْتَفِعُ البَشَرِيَّةُ كُلُّهَا مِنْهُ .

ثُمَّ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ أَدْنَى مُدَّةٍ زَمَنِيَّةٍ يَقْضِيهَا الْمُسْلِمُ في سَبِيْلِ اللَّهِ لِيُحْيِيَ بهَا الدِّينَ، ويَذُبَّ عَنِ الإِسْلامِ وَالْمُسْلِمِيْنَ ولِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ويَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله، هَذِهِ الْمُدَّةُ تُوجِبُ لَهُ الْخُلُودَ الأَبَدِيَّ في جَنَّاتِ النَّعِيمِ، نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يوفِّقَنَا والأُمَّةَ للجُهْدِ لإِحياءِ الدِّينِ حَتَّى نَحْيَا في سَبِيلِهِ ونَمُوتَ في سَبِيلِهِ .

فَائِـــــــــدَة

قَدْ ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ لِلْجهَادِ أَغْرَاضاً وأَهْدَافاً جُزْئِيَّةً كَثِيرَةً، ولَكِنَّ الْهَدَفَ الأَسَاسِيَّ وَرَاءَ تَشْرِيْعِ الجِهَادِ حَسَبَ مَا تَدُلُّ عَلَيهِ النُّصُوصُ الشَّرْعِيَّةُ هُوَ إِعْزَازُ الإِسْلامِ، وإِعْلاءُ كَلِمَةِ اللَّهِ وكَسْرُ شَوْكَةِ الْكُفْرِ والْكُفَّارِ الَّتِي لَمْ تَزَلْ في التَّاريخِ أَقْوَى سَبَبٍ لِشُيُوعِ الظُّلْمِ والْفِتْنَةِ والْفَسَادِ، وأَكْبَرَ مَانِعٍ عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ والإِصْغَاءِ إِلَى الدَّعْوَةِ الإِسْلامِيَّةِ؛ ولَمْ يُشْرَعِ الجِهَادُ لإِكْرَاهِ النَّاسِ عَلَى قَبُولِ الإِسْلامِ، ولَوْ كَانَ الجِهَادُ هَدَفُهُ الإِكْرَاهُ عَلَى الدِّينِ لَمَا شُرِعَتِ الجِزْيَةُ لإِنْهَاءِ الْحَرْبِ، ولَمْ يَرِدْ في شَيْءٍ مِنْ حُرُوبِ الجِهَادِ عَلَى كَثْرَتِهَا عَبْرَ التَّارِيخِ، أَنَّ

أَحَداً مِنَ الْكُفَّارِ أُكْرِهَ عَلَى قَبُولِ الإِسْلامِ بَعْدَمَا فَتَحَ الْمُسْلِمُونَ بَلَداً مِنَ الْبِلادِ [(١)]، وإِنَّمَا تُرِكَ الْكُفَّارُ ومَا يَدِيْنُونَ بِكُلِّ رَحَابَةِ صَدْرٍ، ثُمَّ جَاءَتِ الدعوةُ الإِسْلامِيَّةُ مَصْحُوبَةً بِالْحُجَّةِ والبُرْهَانِ، وبالسِّيَرِ الْفَاضِلَةِ والأَخْلاقِ الْكَرِيْمَةِ وَالأَعْمَالِ الْجَاذِبَةِ، فَتَسَارَعَ الْكُفَّارُ إلى الإِسْلامِ بَعْدَ اقْتِنَاعِهِمْ بِحَقِيقَتِهِ وَاسْتِيْقَانِهِمْ بِحُسْنِ تَعَالِيْمِهِ، دُوْنَ أَنْ يُكْرِهَهُمْ أَحَدٌ عَلَى ذَلِكَ، وَإِنَّمَا شُرِعَ الجِهَادُ لِتَعْلُوَ كَلِمَةُ الله عَلَى أَرْضِ الله، ويَكُونَ لَهَا العِزُّ والْمَنَعَةُ، ولِيَكْسِرَ شَوْكَةَ الجَبَّارِينَ الَّذِينَ يَسْتَعْبِدُوْنَ عِبَادَ الله بِأَحْكَامِهِمْ وقَوَانِينِهِمُ الْمُنْبَعِثَةِ مِنْ آرَائِهِمْ، ويَأْبَوْنَ أَنْ يُقَامَ حُكْمُ الله فِي أَرْضِهِ، ويُشِيعُونَ بِقُوَّةِ حُكْمِهِمْ كُلَّ ظُلْمٍ ومُنْكَرٍ وفَسَادٍ، وهَذَا هُوَ الْهَدَفُ الَّذِي بَاحَ بِهِ رِبْعِيُّ بْنُ عَامِرٍ ﷺ أَمَامَ رُسْتُمَ حينَ هَجَمَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى إِيْرَانَ وسَأَلَهُ رُسْتُمُ: مَا جَاءَ بِكُمْ ؟ فَقَالَ: "**الله ابْتَعَثَنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ الله، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سَعَتِهَا، وَمِنْ جَوْرِ الأَدْيَانِ إلى عَدْلِ الإِسْلامِ.**"[(٢)]، ولا بُدَّ لِلْوُصُولِ إلى حَقِيْقَةِ الْجِهَادِ وأَحْكَامِهِ الْمَذْكُورَةِ فِي الكِتَابِ والسُّنَّةِ مِنْ مَعْرِفَةِ أَنَّ الْجِهَادَ قَدْ مَرَّتْ عَلَيْهِ مُنْذُ بِدَايَةِ الإِسْلامِ مَرَاحِلُ فِي تَشْرِيْعِهِ، ولَمْ يَصِلْ إلى حُكْمِهِ النِّهَائِيِّ إلاَّ بَعْدَ زَمَانٍ، **وهِيَ أَرْبَعُ مَرَاحِلَ** :

فَالْمَرْحَلَةُ الأُوْلَى: هِيَ الصَّبْرُ عَلَى أَذَى الْمُشْرِكِيْنَ مَعَ الاِسْتِمْرَارِ في دَعْوَتِهِمْ إِلَى دِيْنِ الحَقِّ، ونُهِيَ النَّبِيُّ ﷺ وأَصْحَابُهُ عَنِ القِتَالِ، وهَذِهِ أَوَّلُ مَرْحَلَةٍ لِلدَّعوةِ الإِسْلامِيَّةِ، وقَدْ تَكَرَّرَتْ هَذِهِ الأَحْكَامُ في القُرآنِ الكَرِيْمِ مُدَّةَ إِقَامَتِهِ ﷺ بِمَكَّةَ، قَالَ تعالى: ﴿ **فَٱصْدَعْ بِمَا**

---

(١) أخرج ابن جرير الطَّبَرِيُّ في تاريخه (٤/٢٢٧) عن زياد بن جُزْءٍ الزبيديِّ، قال:" **افْتَتَحْنَا الإِسْكَنْدَرِيَّةَ فِي خِلافَةِ عُمَرَ** ﷺ، فذكر الحديث وفيه، **ثُمَّ وَقَفْنَا بِبَلْهِيبَ، وأَقَمْنَا نَنْظُرُ كِتَابَ عُمَرَ حَتَّى جَاءَنَا، فَقَرَأَهُ عَلَينَا عَمْرٌو** ﷺ وفيه: ... **فَاعْرِضْ عَلَى صَاحِبِ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ أَنْ يُعْطِيَكَ الجِزْيَةَ عَلَى أَنْ تُخَيِّرُوا مَنْ فِي أَيْدِيكُم مِنْ سَبْيِهِم بَيْنَ الإِسْلامِ وبَيْنَ دِينِ قَومِهِ، فَمَنِ اخْتَارَ الإِسْلامَ فَهُوَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، لَهُ مَا لَهُم، وعَلَيهِ مَا عَلَيهِم، ومَنِ اخْتَارَ دِينَ قَوْمِهِ فَضَعْ عَلَيهِ الجِزْيَةَ مَا يُوضَعُ عَلَى أَهْلِ دِينِهِ"** ... قَالَ زيادٌ: "**فَجَمَعْنَا مَا فِي أَيْدِينَا مِنَ السَّبَايَا وَاجْتَمَعَتِ النَّصَارَى، فَجَعَلْنَا نَأْتِي بِالرَّجُلِ مِمَّنْ فِي أَيْدِينَا ثُمَّ نُخَيِّرُهُ بَيْنَ الإِسْلامِ والنَّصْرَانِيَّةِ، فَإِذَا اخْتَارَ الإِسْلامَ كَبَّرْنَا تَكْبِيْرَةً هِيَ أَشَدُّ مِنْ تَكْبِيرِنَا حِينَ يُفْتَحُ الْحِصْنُ، قَالَ: ثُمَّ نَحُوْزُهُ إِلَينَا، وإِذَا اخْتَارَ النَّصْرَانِيَّةَ نَخَرَتِ النَّصَارَى، ثُمَّ حَازُوهُ إِلَيهِم، وَوَضَعْنَا عَلَيهِ الجِزْيَةَ، وجَزِعْنَا مِنْ ذَلِكَ جَزَعاً شَدِيداً حَتَّى كَأَنَّهُ رَجُلٌ خَرَجَ مِنَّا إِلَيهِم** " .

(٢) «البداية والنهاية» لابن كثير (٧/٣٩) و«تاريخ الطبري» (٣/٥١٨) .

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وَقالَ ﷺ لأَصْحَابِهِ في هذه الْمُدَّة: "إِنِّي أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ فَلا تُقَاتِلُوا" (١)، ويَقُولُ الإمَامُ الْقُرْطُبِيُّ في تَفْسِيرِه: وَلَمْ يُؤْذَنْ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي الْقِتَالِ مُدَّةَ إقَامَتِهِ بِمَكَّةَ (٢).

تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤]، وقَالَ:

وَالْمَرْحَلَةُ الثَّانِيَةُ: إبَاحَةُ الْقِتَالِ بِدُوْنِ أَنْ يُفْرَضَ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِيْنَ، وفي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ نَزَلَ قولُهُ ﷻ: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ ﴾ [الحج: ٣٩-٤٠]، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ في تَفْسِيرِ هَذِهِ الآيَةِ: وقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: هذِهِ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي الْجِهَادِ، وَاسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الآيَةِ بَعْضُهُمْ عَلَى أَنَّ السُّوْرَةَ مَدَنِيَّةٌ (٣).

وَالْمَرْحَلَةُ الثَّالِثَةُ: فَرْضُ الْقتَالِ عَلَى الْمُسْلِمِيْنَ لِمَنِ ابْتَدَأَهُمُ الْقِتَالَ فَقَطْ دُوْنَ أَنْ يَبْتَدِؤُا بِهِ ضِدَّ أَعْدَائِهِمْ، وفِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ نَزَلَ قولُهُ ﷻ: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠]،

---

(١) رواه النسائي في سننه برقم (٣٠٨٦) والبيهقي في سننه برقم (١٧٥١٩)والحاكم في المستدرك برقم (٢٣٧٧) و(٣٢٠٠) بلفظ:" أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ وَأَصْحَاباً لَهُ ﷺ أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ كُنَّا فِي عِزٍّ وَنَحْنُ مُشْرِكُونَ، فَلَمَّا آمَنَّا صِرْنَا أَذِلَّةً، فَقَالَ:" إِنِّي أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ فَلاَ تُقَاتِلُوا الْقَوْمَ". فَلَمَّا حَوَّلَهُ إِلى الْمَدِينَةِ أَمَرَهُ بِالقِتَالِ فَكَفُّوا، فَأَنزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ [النساء: ٧٧]. قال الحاكم: صحيح على شرط البخاري، ووافقه الذهبي .

(٢) «تفسير القرطبي» (٣/٣٤) .

(٣) «تفسير ابن كثير» (٣/٣٤)، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وإنما شَرَعَ ﷻ الجِهَادَ في الوَقْتِ الأَلْيَقِ به، لأَنَّهُم لَمَّا كَانُوا بمَكَّةَ كَانَ الْمُشركُونَ أَكْثَرَ عَدَداً، فلو أَمَرَ المسلمين وهم أقلُّ من العشرِ بقتال الباقين لَشَقَّ عليهم، ولهذا لَمَّا بَايَعَ أهلُ يَثربَ ليلة العَقَبَةِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. وكانوا نَيِّفاً وثمانين، قالوا: يا رسول اللَّهِ ألا نَمِيلُ على أهلِ الوادي، يعنون أهلَ مِنًى، ليالِيَ مِنًى فنقتلَهُم ؟ فقال رسول اللَّهِ ﷺ: "إِنِّي لَمْ أُومَرْ بِهَذَا" فلما بَغَى المشركون وأخرجوا النَّبيَّ ﷺ من بين أَظْهُرِهِمْ وهَمُّوا بقتله، وشَرَّدُوا أصحابَهُ شَذَرَ مَذَرَ، فذهب منهم طائفةٌ إلى الحبشةِ، وآخرون إلى المدينة، فلَمَّا اسْتَقَرُّوا بالمدينةِ وَوَافَاهُمْ رسولُ اللَّهِ ﷺ واجتمعوا عليه، وقاموا بنَصْرِهِ، وصارتْ لهم دارُ إسلامٍ ومَعْقِلاً يلجئون إليه، شَرَعَ اللَّهُ جهادَ الأعداءِ، فكانت هذه الآيةُ أَوَّلَ ما نَزَلَ في ذلك .

وقولُهُ ﷻ ﴿ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٩٠] .

وَالْمَرْحَلَةُ الرَّابِعَةُ: قِتَالُ جَمِيعِ الْكُفَّارِ عَلَى اخْتِلافِ أَدْيَانِهِمْ وأَجْنَاسِهِمُ ابْتِدَاءً، وإِنْ لَمْ يَبْتَدِؤُا بِقِتَالِ الْمُسْلِمِيْنَ حَتَّى يُسْلِمُوا أَوْ يَدْفَعُوا الْجِزْيَةَ، كَسْراً لِشَوْكَةِ الكُفْرِ وإِعْزَازاً لِلدِّيْنِ وإِعْلاءً لِكَلِمَةِ اللهِ، وبَدَأَتْ هَذِهِ الْمَرْحَلَةُ بَعْدَ انْقِضَاءِ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ مِنْ حَجِّ العَامِ التَّاسِعِ الَّذِي تَرَأَّسَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ ، وَوَقَعَ إِعْلانُ هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ فِي ذَلِكَ الْحَجِّ بِلِسَانِ عَلِيِّ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ ، وقَدْ ذَكَرَهُ اللهُ ﷻ مُفَصَّلاً فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ، وفِيهَا يَقُولُ ﷻ: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٥٠]، ويَقُولُ ﷻ: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩] .

وَإِنَّ هَذِهِ الْمَرَاحِلَ فِي تَشْرِيْعِ الْجِهَادِ قَدْ ذَكَرَهَا كَثِيْرٌ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ، نَذْكُرُ مِنْ أَقْوَالِهِمْ مَا يَلِيْ :

قَالَ الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:" وأَنْزَلَ اللهُ ﷻ فِيمَا يُثَبِّتُهُ بِهِ إِذَا ضَاقَ مِنْ أَذَاهُمْ: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٧- ٩٩]، فَفَرَضَ عَلَيْهِ إِبْلاغَهُمْ وَعِبادَتَهُ ولَمْ يَفْرِضْ عَلَيْهِ قِتَالَهُمْ، وأَبَانَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ آيَةٍ مِنْ كِتَابِهِ ... ثُمَّ أَذِنَ ﷻ لَهُمْ بِالْجِهَادِ ... ثُمَّ أَذِنَ لَهُمْ بِأَنْ يَبْتَدِؤُا الْمُشْرِكِينَ بِالْقِتَالِ، قَالَ اللهُ ﷻ:﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾[الحج: ٣٩]، وأَبَاحَ لَهُمُ الْقِتَالَ بِمَعْنَى أَبَانَهُ فِيْ كِتَابِهِ، فَقَالَ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠]، ولَمَّا مَضَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ مُدَّةٌ مِنْ هِجْرَتِهِ، أَنْعَمَ اللهُ فِيْهَا عَلَى جَمَاعَاتٍ بِاتِّبَاعِهِ، حَدَثَتْ لَهُمْ بِهَا مَعَ عَوْنِ اللهِ ﷻ قُوَّةٌ بِالعَدَدِ لَمْ

تَكُنْ قَبْلَهَا، فَفَرَضَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجِهَادَ بَعْدَ إِذْ كَانَ إِبَاحَةً لا فَرْضاً، قَالَ سبحانه وتعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] [١].

ويَقُولُ ابْنُ تَيْمِيَةَ رحمه الله: "فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِيْ أَوَّلِ الأَمْرِ مَأْمُوراً أَنْ يُجَاهِدَ الْكُفَّارَ بِلِسَانِهِ لا بِيَدِهِ، فَيَدْعُوهُم ويَعِظُهُمْ ويُجَادِلُهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، .. وَكَانَ مَأْمُوراً بالْكَفِّ عَنْ قِتَالِهِمْ لِعَجْزِهِ وعَجْزِ الْمُسْلِمِيْنَ، ولَمْ يُكْتَبْ عَلَيْهِمْ قِتَالُ مَنْ سَالَمَهُمْ، لأَنَّهُم لَمْ يَكُونُوا يُطِيْقُونَ قِتَالَ جَمِيعِ الْكُفَّارِ، فَلَمَّا فَتَحَ اللهُ مَكَّةَ، وانْقَطَعَ قِتَالُ قُرَيْشٍ مُلُوكِ العَرَبِ، وَوَفَدَتْ إِلَيْهِ الْعَرَبُ بالإِسْلامِ، أَمَرَهُ اللهُ سبحانه وتعالى بِقِتَالِ الْكُفَّارِ كُلِّهِمْ إِلاَّ مَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ مُؤَقَّتٌ، وأَمَرَهُ بِنَبْذِ العُهُودِ الْمُطْلَقَةِ [٢].

وبِمِثْلِ ذَلِكَ قَالَ الإِمَامُ السَّرَخْسِيُّ [٣]، وابْنُ رُشْدٍ [٤]، وابْنُ الْقَيِّمِ [٥]، وغَيرُهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ .

ثُمَّ اخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ الْعُلَمَاءِ فِي تَحْقِيْقِ هَذِهِ الْمَرَاحِلِ، فَادَّعَى بعضُهُم أَنَّ كُلَّ مَرْحَلَةٍ جَدِيدَةٍ نَسَخَتْ حُكْمَ مَا قبلَهَا، فَالْمَرَاحِلُ الثَّلاثَةُ الأُوْلَى مَنْسُوخَةٌ الْيومَ، وإِنَّمَا الْبَاقِيَةُ الْيَوْمَ هِيَ الْمَرْحَلَةُ الأَخِيْرَةُ، وَهِيَ الرَّابِعَةُ فَقَطْ؛ وَخَالَفَهُمْ آخرُونَ فَقَالُوا: إِنَّ الْمَرَاحِلَ الأُوْلَى لَيْسَتْ مَنْسُوخَةً، وإِنَّمَا هِيَ مُرْتَبِطَةٌ بظُرُوفٍ مَخْصُوصَةٍ كُلَّمَا عَادَتْ عَادَتْ أَحْكَامُهَا .

ومِنْ مُقَدِّمَةِ مَنْ قَالَ ذَلِكَ العَلاَّمَةُ بَدْرُ الدِّينِ الزَّرْكَشِيُّ رحمه الله، فَإِنَّهُ قَالَ: "إِنَّهُ لَيْسَ فِي مَرَاحِلِ الْجِهَادِ نَسْخٌ، بَلْ يُعْمَلُ بِكُلِّ مَرْحَلَةٍ عِنْدَ الْحَالَةِ الْمُشَابِهَةِ لِلْحَالَةِ الَّتِيْ شُرِعَتْ فِيْهَا."

ويَقُولُ رحمه الله: " قَسَّمَ بَعْضُهُمُ النَّسْخَ مِنْ وَجْهٍ آخرَ إِلَى ثَلاثَةِ أَضْرُبٍ .. الثَّالِثُ: مَا أُمِرَ بِهِ لِسَبَبٍ ثُمَّ يَزُولُ السَّبَبُ، كَالأَمْرِ حِيْنَ الضَّعْفِ والْقِلَّةِ بِالصَّبْرِ والْمَغْفِرَةِ لِلَّذِينَ لا

---

(١) «أحكام القرآن» للشافعي (٢/٩ إلى ٥٠) وانظر «معرفة السنن والآثار» للبيهقي (٥٥٣٨) .
(٢) «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (١/٧٤) .
(٣) «المبسوط» للسرخسي (١٠/٢) .
(٤) «بداية المجتهد» (١/٣٧١ -٣٧٢) .
(٥) «زاد المعاد» (٣/٥١ -٥٢) .

يَرْجُونَ لِقَاءَ اللهِ ونَحْوِهِ مِنْ عَدَمِ إِيْجَابِ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْجِهَادِ ونَحْوِهَا، ثُمَّ نَسَخَهَا إِيْجَابُ ذَلِكَ، وهَذَا لَيْسَ بِنَسْخٍ فِيْ الْحَقِيْقَةِ، وإِنَّمَا هُوَ نَسْأٌ، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ [البقرة: ١٠٦]، فَالْمُنْسَأُ هُوَ الأَمْرُ بِالْقِتَالِ إِلَى أَنْ يَقْوَى الْمُسْلِمُونَ، وَفِي حَالِ الضَّعْفِ يَكُونُ الْحُكْمُ وُجُوبَ الصَّبْرِ عَلَى الأَذَى، وَبِهَذَا التَّحْقِيْقِ تَبَيَّنَ ضَعْفُ مَا لَهِجَ بِهِ كَثِيْرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ فِيْ الآيَاتِ الآمِرَةِ بِالتَّخْفِيفِ أَنَّهَا مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ السَّيْفِ، ولَيْسَتْ كَذَلِكَ، بَلْ هِيَ مِنَ الْمُنْسَإِ، بِمَعْنَى أَنَّ كُلَّ أَمْرٍ وَرَدَ يَجِبُ امْتِثَالُهُ فِيْ وَقْتٍ مَا لِعِلَّةٍ تُوْجِبُ ذَلِكَ الْحُكْمَ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ بِانْتِقَالِ تِلْكَ العِلَّةِ إِلَى حُكْمٍ آخَرَ، ولَيْسَ بِنَسْخٍ، وإِنَّمَا النَّسْخُ الإِزَالَةُ حَتَّى لا يَجُوزَ امْتِثَالُهُ أَبداً .

وإِلى هَذَا أَشَارَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي الرِّسَالَةِ إِلَى النَّهْيِ عَنِ ادِّخَارِ لُحُومِ الأَضَاحِي مِنْ أَجْلِ الدَّافَّةِ، ثُمَّ وَرَدَ الإِذْنُ فِيْهِ [(١)]، فَلَمْ يَجْعَلْهُ مَنْسُوخاً، بَلْ مِنْ بَابِ زَوَالِ الْحُكْمِ لِزَوَالِ عِلَّتِهِ، حَتَّى لَوْ فَاجَأَ أَهْلَ نَاحِيَةٍ جَمَاعَةٌ مَضْرُورُونَ تَعَلَّقَ بِأَهْلِهَا النَّهْيُ، ومِنْ هَذَا قَوْلُهُ ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ [المائدة: ١٠٥]، كَانَ ذَلِكَ فِي ابْتِدَاءِ الأَمْرِ، فَلَمَّا قَوِيَ الحَالُ وَجَبَ الأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ والنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ والْمُقَاتَلَةُ عَلَيهِ، ثُمَّ لَوْ فُرِضَ وُقُوعُ الضَّعْفِ كَمَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ في قَولِهِ" **بَدَأَ الإِسْلامُ غَرِيْباً، وَسَيَعُودُ غَرِيْباً كَمَا بَدَأَ**."[(٢)] عَادَ الْحُكْمُ؛ وقَالَ ﷺ: "**فَإِذَا رَأَيْتَ هَوَىً مُتَّبَعاً وَشُحّاً مُطَاعاً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِيْ رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ**." [(٣)] .

---

(١) روى مسلم في صحيحه (٥٢١٥) عن عَائِشَةَ قَالَتْ: دَفَّ أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ حِضْرَةَ الأَضْحَى زَمَنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ ﷺ: "**ادَّخِرُوا ثَلاثاً ثُمَّ تَصَدَّقُوا بِمَا بَقِيَ** ". فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ .. فَقَالَ ﷺ: "**إِنَّمَا نَهَيْتُكُمْ مِنْ أَجْلِ الدَّافَّةِ الَّتِي دَفَّتْ، فَكُلُوا وَادَّخِرُوا وَتَصَدَّقُوا** ". والدافَّة : قومٌ من الأعراب يَرِدُون المِصْرَ؛ يُريد أنهم قَومٌ قَدِموا المدينة عند الأضْحَى فنَهاهم ﷺ عن ادِّخار لُحوم الأضاحي لِيُفرِّقوها ويتصدَّقوا بها فيَنْتفِع أولئك القادمون بها. «النهاية» لابن الأثير (٢/٢٩١) .

(٢) سيأتي تخريجه .

(٣) رواه أبو داوود في سننه عن أبي ثعلبة الخشني (٤٣٤١) والترمذي (٣٠٥٨) وقال: حديث حسن غريب. ورواه ابن حبان في صحيحه (٣٨٥) والحاكم في المستدرك (٧٩١٢) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي .

وهُوَ سُبْحَانَهُ حَكِيمٌ، أَنْزَلَ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ حِينَ ضَعْفِهِ مَا يَلِيْقُ بِتِلْكَ الْحَالِ رَأْفَةً بِمَنْ تَبِعَهُ وَرَحْمَةً، إِذْ لَوْ وَجَبَ لأَوْرَثَ حَرَجاً ومَشَقَّةً، فَلَمَّا أَعَزَّ اللهُ الإِسْلامَ وأَظْهَرَهُ ونَصَرَهُ أَنْزَلَ عَلَيهِ مِنَ الْخِطَابِ مَا يُكَافِئُ تِلْكَ الْحَالَةَ مِنْ مُطَالَبَةِ الْكُفَّارِ بِالإِسْلامِ أَوْ بِأَدَاءِ الجِزْيَةِ إِنْ كَانُوا أَهْلَ كِتَاب، أَوِ الإِسْلامِ أَوِ الْقَتْلِ إِنْ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَ كِتَاب، ويَعُودُ هذَانِ الحُكْمَانِ – أَعْنِي الْمُسَالَمَةَ عِنْدَ الضَّعْفِ وَالْمُسَايَفَةَ عِنْدَ الْقُوَّةِ – بِعَوْدِ سَبَبِهِمَا، ولَيْسَ حُكْمُ الْمُسَايَفَةِ نَاسِخاً لِحُكْمِ الْمُسَالَمَةِ، بَلْ كُلٌّ مِنْهُمَا يَجِبُ امْتِثَالُهُ فِيْ وَقْتِهِ (١) .

وَالْحَقِيْقَةُ أَنَّ هَذَا الاِخْتِلافَ لا يَرْجِعُ إِلَى فَرْقٍ عَمَلِيٍّ، وإِنَّمَا هُوَ اخْتِلافُ اصْطِلاحٍ، فَكُلُّهُمْ يَقُولُ: إِنَّ هَذِهِ الأَحْكَامَ مَنُوطَةٌ بِظُرُوفٍ مَخْصُوصَةٍ، فَأَحْكَامُ الصَّبْرِ والْعَفْوِ مُحَكَّمَةٌ فِي حَالَةِ الضَّعْفِ وَالْعَجْزِ، وإِبَاحَةُ الْقِتَالِ فِيْ حَالَةٍ هِيَ فَوْقَ الْحَالَةِ الأُولَى، وَوُجُوْبُ قِتَالِ الدَّفْعِ فِي حَالَةٍ فَوْقَهَا، ووُجُوْبُ الاِبْتِدَاءِ عِنْدَمَا حَصَلَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى قُوَّةٍ يَقْدِرُونَ مَعَهَا عَلَى ذَلِكَ، ولَكِنَّ الطَّائِفَةَ الأُولَى تُسَمِّيهِ قِسْماً مِنَ النَّسْخِ، وَالزَّرْكَشِيُّ يُسَمِّيهِ نَسْأً، أَيْ تَأْخِيراً لِلْحُكْمِ عِنْدَ وُجُودِ عِلَّتِهِ، وَلا يَرْضَى بِتَسْمِيَتِهِ نَسْخاً (٢) .

*****

(١) «البرهان في علوم القرآن» للزركشي (٢/٤٢-٤٣) .

(٢) «تكملة فتح الملهم» للعلامة محمد تقي العثماني (٣/٤ - ١١).

الْحَدِيْثُ التَّاسِعُ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: "مَوْقِفُ سَاعَةٍ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ عِنْدَ الْحَجَرِ الأَسْوَدِ " (١) .

قوله (مَوْقِفُ سَاعَةٍ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ) أَيْ قِيَامُ الْمُسْلِمِ مُدَّةً مِنَ الزَّمَانِ وَلَوْ قَلَّتْ فِي سَبِيْلِ اللهِ لإِعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ وإِحْيَاءِ دِيْنِهِ وَالذَّبِّ عَنْ حِمَاهُ، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ فِي مَيْدَانِ الدَّعْوَةِ أَوِ الْقِتَالِ .

قوله (خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ) لَيْلَةُ الْقَدْرِ هِيَ اللَّيْلَةُ الَّتِي أُنْزِلَ فِيهَا الْقُرْآنُ الكَرِيْمُ مِنَ السَّمَاءِ العُلْيَا إلى السَّمَاءِ الدُّنْيَا جُمْلَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ فُرِّقَ فِي السِّنِينَ (٢)، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ١-٣]، وسُمِّيَتْ لَيْلَةُ الْقَدْرِ بِهَذَا الاِسْمِ لِعِظَمِ قَدْرِهَا لِنُزُولِ القُرْآنِ فِيهَا وتَنَزُّلِ الْمَلائِكَةِ، ولِمَا يَنْزِلُ فِيهَا مِنَ البَرَكَةِ والرَّحمَةِ والْمَغْفِرَةِ، وقِيلَ: إِنَّ الْقَدْرَ هُنَا بِمَعنَى الْقَدَرِ الَّذِي هُوَ مُؤَاخِي الْقَضَاءِ، وتَسْمِيَتُهَا بِذَلِكَ لِمَا تَكْتُبُ فِيهَا الْمَلائِكَةُ مِنَ الأَقْدَارِ، لِقَولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٤] (٣). وجَاءَ فِي فَضْلِهَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: "مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيْمَاناً وَاحْتِسَاباً غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ " (٤)، والعَمَلُ الصَّالِحُ فِي هَذِهِ اللَّيلَةِ مِنْ صَلاةٍ وذِكْرٍ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتِلاوَةٍ لِلْقُرْآنِ ودُعَاءٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ أَلْفِ شَهْرٍ لَيْسَ فِيهَا لَيلَةُ القَدْرِ، وهِيَ ثَلاثٌ وثَمَانُونَ سَنَةً وَأَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ .

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٤٦٠٣) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٢٨٦) وغيرهما بسند صحيح .

(٢) رواه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس موقوفاً (٣٧٨١) وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. وهو مرفوعٌ حكماً .

(٣) رواه عبد الرزاق وغيره من المفسرين بأسانيد صحيحة عن مجاهد وعكرمة وقتادة وغيرهم. وانظر «فتح الباري» (٣٢٤/٤) .

(٤) رواه البخاري عن أبي هريرة (١٩٠١) و(٢٠١٤) ومسلم (١٨٠٢) و(١٩١٠) .

قوله (عِنْدَ الْحَجَرِ الأَسْوَدِ)، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إنَّ الرُّكْنَ وَالْمَقَامَ يَاقُوتَتَانِ مِنْ يَاقُوتِ الْجَنَّةِ، طَمَسَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ نُورَهُمَا، وَلَوْلا أَنَّ اللهَ طَمَسَ نُورَهُمَا لأَضَاءَتَا مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ" (١)، وفي رِوَايَةٍ: "إنَّ الرُّكْنَ وَالْمَقَامَ مِنْ يَاقُوتِ الْجَنَّةِ، وَلَوْلاَ مَا مَسَّهُمَا مِنْ خَطَايَا بَنِي آدَمَ لأَضَاءَا مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَمَا مَسَّهُمَا مِنْ ذِي عَاهَةٍ وَلاَ سَقِيمٍ إلاَّ شُفِيَ" (٢)، وفي رِوَايَةٍ: "مَا عَلَى الأَرْضِ شَيْءٌ مِنَ الْجَنَّةِ غَيْرُهُ" (٣)، وقَالَ ﷺ: "نَزَلَ الْحَجَرُ الأَسْوَدُ مِنَ الْجَنَّةِ وَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ، فَسَوَّدَتْهُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ" (٤)، وقَالَ ﷺ: "يَأْتِي هَذَا الْحَجَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُ عَيْنَانِ يُبْصِرُ بِهِمَا، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ بِهِ، يَشْهَدُ لِمَنِ اسْتَلَمَهُ بِحَقٍّ " (٥) .

مَعْنَى الْحَدِيثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ

يُبَيِّنُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ قِيَامَ الْمُسلِمِ مُدَّةً مِنَ الزَّمَانِ ولَوْ قَصُرَتْ فِي سَبِيلِ اللهِ لإعلاءِ كَلِمَتِهِ ونَشْرِ دِيْنِهِ والدِّفَاعِ عَنهُ خَيْرٌ وأَحَبُّ إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ قِيَامِ الْمُسْلِمِ بإحْيَاءِ لَيلَةِ القَدْرِ عِندَ الْحَجَرِ الأَسْوَدِ، وهَذَا يَجْمَعُ فَضْلَ الْعَمَلِ مَعَ فَضْلِ الزَّمَانِ والْمَكَانِ، فَلَيْلَةُ الْقَدْرِ أَفْضَلُ لَيَالِي السَّنَةِ، والكَعْبَةُ الْمُشَرَّفَةُ أَفْضَلُ بُقْعَةٍ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ، وأَفْضَلُ مَا فِيْهَا الحَجَرُ

(١) رواه أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو (٧٠٠٠) و(٧٠٠٨) والترمذي (٨٧٨) والحاكم في المستدرك (١٦٧٧) وابن خزيمة (٢٧٣١) وابن حبان في صحيحه (٣٧١٠) والبيهقي في سننه (٩٠١٠) وقال البوصيري في «إتحاف الخيرة المهرة» (٢٥٢٣): له شاهد من حديث ابن عباس رواه الطبراني في الكبير والأوسط بإسناد حسن .

(٢) رواه البيهقي في سننه عن عبد الله بن عمرو (٩٠١١) وفي «شعب الإيمان» (٤٠٣١) ورواه مسدد بمعناه، وقال البوصيري في «إتحاف الخيرة»: رجاله ثقات (٢٥٢٣) .

(٣) رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس (١١٣١٤) وفي الأوسط (٥٦٧٣) والبيهقي في سننه (٩٠١٢) وقال المنذري في الترغيب: بإسناد حسن .

(٤) رواه الترمذي عن ابن عباس (٧٨٨) وقال: حديث حسن صحيح، ورواه ابن خزيمة في صحيحه (٢٧٣٣) إلاَّ أَنَّهُ قال: "أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ الثَّلْجِ " .

(٥) رواه أحمد في مسنده عن ابن عباس (٢٧٩٦) والترمذي (٩٦١) وقال: حديث حسن، ورواه ابن حبان (٣٧١٢) وابن خزيمة (٢٧٣٥) في صحيحيهما .

الأَسْوَدُ، وقِيَامُ لَيْلَةِ الْقَدْرِ فِي هَذَا الْمَكَانِ أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ أَلْفِ شَهْرٍ، وَالْحَسَنَةُ في الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ بمِائَةِ أَلْفِ حَسَنَة، فقِيَامُ هَذِهِ اللَّيْلَةِ فِيْ هَذَا الْمَوْضِعِ يَزِيْدُ عَلَى الْعِبَادَةِ في غَيْرِهِ عُمُرَ الدُّنْيَا بأَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، فَلا يَعْلَمُ عَظِيْمَ أَجْرِ مَنْ قَامَ هَذِهِ اللَّيلَةَ فِيْ هَذَا الْمَوضِعِ إلاَّ اللَّهُ عَجَلَّ، ومَعَ هَذَا فَقِيَامُ الْمُسْلِمِ سَاعَةً مِنَ الزَّمَانِ مَوْقِفاً فِيْ سَبِيلِ اللَّهِ يَدْعُوْ إِلَى اللَّهِ عَجَلَّ، ويُحَبِّبُ فِيهِ الْخَالِقَ إلى الخَلْقِ، وتَعْلُوْ بِهِ كَلِمَةُ اللَّهِ ويَحْيَا فِيهِ دِيْنُ اللَّهِ ويَدْفَعُ فِيهِ الشَّرَّ عَنِ الإِسْلامِ وَالْمُسْلِمِيْنَ أَفْضَلُ مِنْ هَذِهِ الْعِبَادَةِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: مَوْقِفُ سَاعَةٍ في سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ الْعُبَّادِ عُمُرَ الدُّنْيَا كُلِّهَا، وذَلِكَ لأَنَّ عِبَادَةَ الإِنْسَانِ مَهْمَا عَظُمَتْ فَإِنَّ نَفْعَهَا لازِمٌ لَهُ لا يَتَعَدَّى إلى غَيْرِه، وأَمَّا قِيَامُهُ بخِدْمَةِ الدِّين فِيْ سَبِيلِ اللَّهِ فَيَنْتَفِعُ بِهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ، ومَا تَعَدَّى نَفْعُهُ لِلآخَرِيْنَ أَفْضَلُ وأَحَبُّ إلى اللَّهِ عَجَلَّ مِنَ اللاَّزِمِ، لِذَلِكَ نَجِدُ الصَّحَابَةَ ﷺ – وَهُمْ أَفْقَهُ هَذِهِ الأُمَّةِ – قَدْ آثَرُوا الخُرُوجَ فِيْ سَبِيلِ اللَّهِ لِتَبْلِيْغِ رِسَالاتِ اللَّهِ إِلَى خَلْقِهِ عَلَى الإِقَامَةِ بمَكَّةَ والْمَدِينَةِ، وهُمَا أَحَبُّ الْبِلادِ إِلَى اللَّهِ عَجَلَّ وإلى رسولِهِ ﷺ، لِمَا ثَبَتَ لَدَيْهِمْ من أَنَّ فَضْلَ الْخُرُوجِ فِيْ سَبِيْلِ اللَّهِ لإِعْلاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ وتَبْلِيْغِ دِيْنِهِ لا يَعْدِلُهُ فَضْلٌ لأَيِّ عَمَلٍ آخَرَ .

فَلَوْ قَابَلْنَا مَوْقِفَ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ وهو يَدْعُو النَّاسَ إلى اللَّهِ عَجَلَّ مَعَ عِبَادَةِ الْعَابِدِ في لَيْلَةِ الْقَدْرِ عِندَ الحَجَرِ الأَسْوَدِ لَوَجَدْنَا أَنَّ الْعَابِدَ لا يَتَجَاوَزُ نَفْعُ عِبادتِهِ نَفْسَهُ، أَمَّا الدَّاعِي إلى اللَّهِ فَقَدْ تَنْتَفِعُ أُمَمٌ بدَعْوَتِهِ، كَمَا انْتَفَعَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَ الأَنْبِيَاءِ بدَعْوَتِهِمْ إِيَّاهُمْ، وَانْتَفَعَ أَفْرَادٌ وقَبَائِلُ مِنَ العَرَبِ بدَعْوَةِ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ، كَمَا أَسْلَمَ أَكْثَرُ العَشَرَةِ الْمُبَشَّرِينَ بالْجَنَّةِ بدعوةِ أَبِيْ بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ وهُمْ: عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، وأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ، وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ، كَمَا أَسْلَمَ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ وَالأَرْقَمُ بْنُ أَبِي الأَرْقَمِ وَأَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الأَسَدِ [١]. وأَسْلَمَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ بدعوةِ

(١) «البداية والنهاية» (٣/٢٩) وانظر «سيرة ابن إسحاق» (٢/١٢١) و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/١٦٥) .

مُصْعَبِ بنِ عُمَيْرٍ ثُمَّ أَسْلَمَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ وَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ ودَعَاهُمْ إلى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَمَا أَمْسَى فِي دَارِ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ رَجُلٌ ولا امْرَأَةٌ إِلاَّ مُسْلِماً أَوْ مُسْلِمَةً [(١)] .

وأَسْلَمَتْ قَبِيلَةُ دَوْسٍ بِدَعْوَةِ الطُّفَيْلِ بْنِ عَمْرٍو الدَّوْسِيِّ رضي الله عنه، مِنْهُم أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه [(٢)]، وأَسْلَمَتْ قَبِيلَتَا غِفَارٍ وأَسَلَم بِدَعْوَةِ أَبِي ذَرٍّ الغِفَارِيِّ رضي الله عنه [(٣)]، وأَسْلَمَتْ قَبِيلَةُ صُدَاء بِدَعْوَةِ زِيَادِ بْنِ الحَارِثِ الصُّدَائِيِّ[(٤)]، وأَسْلَمَتْ قبيلةُ بَنِيْ بَكْرِ بْنِ سَعْدٍ بِدَعْوَةِ ضِمَامِ بْنِ ثَعْلَبَةَ [(٥)] .

فَلا شَكَّ أَنَّ مَوَاقِفَ هَؤُلاءِ الصَّحَابَةِ - وغَيْرُهَا كَثِيرٌ فِي الدَّعْوَةِ إلى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ - خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ العُبَّادِ أَعْمَارَهُمْ كُلَّهَا فِي أَفْضَلِ الأَمَاكِنِ وأَفْضَلِ الأَزْمِنَةِ، لِمَا فِي دَعْوَتِهِمْ مِنَ الأَثَرِ عَلَى هِدَايَةِ النَّاسِ وخُرُوجِهِمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ ودُخُولِهِمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وهَذَا يَتَوَافَقُ مَعَ مَقْصَدِ بِعْثَةِ الأَنْبِيَاءِ عليهم السلام، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥]. وكَذَلِكَ الدَّعْوَةُ إلى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هِيَ سَبِيْلُ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم وعَمَلُهُ وَوَظِيْفَتُهُ، والْعَمَلُ عَلَى سَبِيلِهِ يَقُومُ القَلِيلُ مِنهُ مَا لا يَقُوْمُ العَمَلُ الكَثِيرُ مِنْ أَعْمَالِ غَيْرِهِمْ .

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٤٤٠/٢) وذكره ابن هشام في «السيرة النبوية» (٤٣٥/١) وابن كثير في «البداية والنهاية» (١٥٣/٣) .

(٢) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» عن محمد بن إسحاق (٣٦٢/٥) وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (٢١٤/١) وفي «معرفة الصحابة» (٣٩٥٢) وأصله في الصحيحين عن أبي هريرة رواه البخاري (٤٣٩٢) و(٦٣٩٧) و(٢٩٣٧) ومسلم (٦٦١١) وانظر «الاستيعاب» لابن عبد البر (٢٣٠/١) و«السيرة» لابن هشام (٢٢٨/٢) و«البداية والنهاية» (٢٧٨/٦) و«زاد المعاد» (٥٤٥/٣) .

(٣) رواه مسلم عن أبي ذر برقم (٦٥١٣) .

(٤) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» عن زياد بن الحارث (٣٥٥/٥) وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (٣٤/١) وفي «معرفة الصحابة» (٣٠٤١) وابن كثير في «البداية والنهاية» (٨٣/٥) .

(٥) رواه أحمد في مسنده عن ابن عباس برقم (٢٣٨٠) وقال الهيثمي في المجمع : رواه أحمد والطبراني في الكبير، ورجال أحمد رجال الصحيح. وأصله في الصحيحين عن أنس بن مالك .

فَائِـــــــــــدَة

قَالَ ابْنُ الْقَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّ أَفْضَلَ مَنَازِلِ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةُ الرِّسَالَةِ والنُّبوَّةِ، فَاللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ، وَكَيْفَ لا يَكُونُ أَفْضَلَ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ جَعَلَهُم وَسَائِطَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ فِيْ تَبْلِيْغ رِسَالاتِهِ، وتَعْرِيفِ أَسْمَائِهِ وصِفَاتِهِ وأَفْعَالِهِ وأَحْكَامِهِ ومَرَاضِيْهِ ومَسَاخِطِهِ وثَوَابِهِ وعِقَابِهِ، وخَصَّهُمْ بوَحْيِه، وَاخْتَصَّهُمْ بتَفْضِيلِه، وَارْتَضَاهُمْ لِرِسَالَتِهِ إلى عِبَادِهِ، وجَعَلَهُمْ أَزْكَى الْعَالَمِينَ نُفُوساً وأَشْرَفَهُم أَخْلاقاً، وأَكْمَلَهُم عُلُوماً وأَعْمَالاً، وأَحْسَنَهُم خِلْقَةً، وأَعْظَمَهُم مَحَبَّةً وقَبُولاً فِي قُلُوبِ النَّاسِ، وبَرَّأَهُمْ مِنْ كُلِّ وَصْمٍ وعَيْبٍ وكُلِّ خُلُقٍ دَنِيْءٍ .

وجَعَلَ أَشْرَفَ مَرَاتِبِ النَّاسِ بَعْدَهُم مَرْتَبَةَ خِلافَتِهِمْ ونِيَابَتِهِمْ فِي أُمَمِهِمْ، فَإِنَّهُم يَخْلُفُونَهُمْ عَلَى مَنَاهِجِهِمْ وطَرِيقِهِم مِنْ نَصِيحَتِهِمْ لِلأُمَّةِ، وإِرْشَادِهِمُ الضَّالَّ، وتَعْلِيْمِهِمُ الجَاهِلَ، ونَصْرِهِمُ الْمَظْلُومَ، وأَخْذِهِمْ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، وأَمْرِهِمْ بالْمَعْرُوفِ وفِعْلِهِ، ونَهْيِهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وتَرْكِهِ، وَالدَّعوةِ إلى اللَّهِ بالحِكْمَةِ للمُسْتَجِيبِينَ، والْمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ لِلْمُعْرِضِينَ الغَافِلِينَ، والجِدَالِ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ لِلْمُعَانِدِينَ الْمُعَارِضِينَ، فَهَذِهِ حَالُ أَتْبَاعِ الْمُرْسَلِينَ وَوَرَثَةِ النَّبِيِّينَ، قَالَ تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ﴾ [**يوسف**: ١٠٨]، وسَوَاءٌ كَانَ الْمَعْنَى أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي عَلَى بَصِيرَةٍ، وأَنَا أَدْعُو إلى اللَّهِ، أَو الْمَعْنَى أَدْعُوْ إلى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ، فَالْقَولانِ مُتَلازِمَانِ، فَلا يَكُونُ مِنْ أَتْبَاعِهِ حَقّاً إِلاَّ مَنْ دَعَا إلى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ، كَمَا كَانَ مَتْبُوْعُهُ يَفْعَلُ ﷺ .

فهَؤُلاءِ خُلَفَاءُ الرُّسُلِ حَقّاً، ووَرَثَتُهُمْ دُوْنَ النَّاسِ، وهُمْ أُوْلُوْ الْعِلْمِ الَّذِينَ قَامُوا بمَا جَاءَ بِهِ عِلْماً وعَمَلاً وهِدَايَةً وإِرْشَاداً وصَبْراً وجِهَاداً، وهَؤُلاءِ هُمُ الصِّدِّيقُونَ، وهُمْ أَفْضَلُ أَتْبَاعِ الأَنْبِيَاءِ، ورَأْسُهُمْ وإِمَامُهُمُ الصِّدِّيقُ الأَكْبَرُ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه [١] .

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/١٠٣) .

وهَؤُلاءِ هُمُ الرَّبَّانيُّونَ، وهُمُ الرَّاسِخُونَ في الْعِلْمِ، وهُمُ الْوَسَائِطُ بَينَ الرَّسُولِ ﷺ وأُمَّتِهِ، فَهُمْ خُلَفَاؤُهُ وأَوْلِيَاؤُهُ وحِزْبُهُ وخَاصَّتُهُ وحَمَلَةُ دِينِهِ، وهُمُ الْمَضْمُونُ لَهُمْ أَنَّهُم لا يَزَالُونَ عَلَى الْحَقِّ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ ولا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وهَؤُلاءِ هُمْ خُوَاصُّ خلْقِ اللَّهِ، وأَفْضَلُهُمْ عِندَ اللَّهِ مَنْزِلَةً، وأَعْلاهُمْ قَدْرًا، يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَولُهُ ﷻ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، قَالَ الحَسَنُ – يعني البصْريَّ - رَحِمَهُ اللَّهُ :" هُوَ الْمُؤْمِنُ أَجَابَ اللَّهَ فِيْ دَعْوَتِهِ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى مَا أَجابَ اللَّهَ فِيهِ مِنْ دَعْوَتِهِ، وعَمِلَ صَالِحاً في إجَابَتِهِ، فَهَذَا حَبِيْبُ اللَّهِ، هَذَا وَلِيُّ اللَّهِ " .

فَمَقَامُ الدَّعْوَةِ إلى اللَّهِ أَفْضَلُ مَقَامَاتِ العَبْدِ، قَالَ ﷻ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩].[١] ، قَالَ الحَسَنُ رَحِمَهُ اللَّهُ: "لَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: لا إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ، ويَدْعُوْ النَّاسَ إِلَى رَبِّهِمْ كَادَتِ الْعَرَبُ تَلَبَّدُ عَلَيْهِ جَمِيْعاً." [٢] .

وقَالَ قَتَادَةُ رَحِمَهُ اللَّهُ: "تَلَبَّدَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى هَذَا الأَمْرِ لِيُطْفِئُوْهُ، فَأَبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يَنْصُرَهُ وَيُرْضِيَهُ وَيُظْهِرَهُ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُ." [٣] .

وهَؤُلاءِ هُمُ الْمُبَارَكُونَ أَيْنَمَا كَانُوا، فَإِنَّ بَرَكَةَ الرَّجُلِ تَعْلِيْمُهُ لِلْخَيْرِ حَيْثُ حَلَّ ونُصْحُهُ لِكُلِّ مَنِ اجْتَمَعَ بِهِ، قَالَ اللَّهُ ﷻ إِخْبَاراً عَنِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾[مريم: ٣١]، أَيْ مُعَلِّماً وداعِياً إِلَى اللَّهِ، مُذَكِّرًا بِهِ، مُرَغِّبًا في طَاعَتِهِ، فَهَذَا مِنْ بَرَكَةِ الرَّجُلِ، ومَنْ خَلا مِنْ هَذَا فَقَدْ خَلا مِنَ الْبَرَكَةِ، ومُحِقَتْ بَرَكَةُ لِقَائِهِ وَالاِجْتِمَاعِ بِهِ، بَلْ مُحِقَتْ بَرَكَةُ مَنْ لَقِيَهُ وَاجْتَمَعَ بِهِ [٤] .

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/١٥٣) .
(٢) «تفسير الطبري» (٣٥١٤٢) .
(٣) «تفسير الطبري» (٣٥١٣٩) .
(٤) من «رسالة ابن القيم لأحد الإخوان» ص (٥) .

وقَالَ مَسْرُوقٌ رَحِمَهُ اللَّهُ:" قَرَأْتُ عَلَى عَبدِ اللَّهِ بْنِ مَسعُودٍ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا ﴾[النحل: ١٢٠]، فقال: كَانَ مُعَاذٌ أُمَّةً، قَالَ: هَلْ تَدْرِيْ مَا الأُمَّةُ؟ الأُمَّةُ الَّذِيْ يُعَلِّمُ النَّاسَ الْخَيْرَ، وَالْقَانِتُ الَّذِيْ يُطِيْعُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ " (١) .

والْمَقْصُودُ أَنَّ دَرَجَةَ الصِّدِّيْقِيَّةِ وَالرَّبَّانِيَّةِ وَوِرَاثَةِ النُّبُوَّةِ وخِلافَةِ الرِّسَالَةِ هِيَ أَفْضَلُ دَرَجَاتِ الأُمَّةِ، ولَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ فَضْلِهَا وشَرَفِهَا إلاَّ أَنَّ كُلَّ مَنْ عَلِمَ بتَعْلِيمِهِمْ وإرْشَادِهِمْ وعَلَّمَ غَيْرَهُ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ، كَانَ لَهُمْ مِثْلُ أَجْرِهِ مَا دَامَ ذَلِكَ جَارِياً فِي الأُمَّةِ عَلَى آبَادِ الدُّهُورِ، وقَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه: **"فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ "** (٢)، وصَحَّ عَنهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **"مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ "** (٣)، فَيَا لَهَا مِنْ مَرْتَبَةٍ مَا أَعْلاهَا ! ومَنْقَبَةٍ مَا أَجَلَّهَا وأَسْنَاهَا ! أَنْ يَكُونَ الْمَرْءُ فِي حَيَاتِهِ مَشْغُولاً بِبَعْضِ أَشْغَالِهِ، أَوْ فِي قَبْرِهِ قَدْ صَارَ أَشْلاءً مُمَزَّقَةً وأَوْصَالاً مُتَفَرِّقَةً، وصُحُفُ حَسَنَاتِهِ مُتَزَايِدَةٌ تُمْلَى فِيهَا الْحَسَنَاتُ بِكُلِّ وَقْتٍ، وأَعْمَالُ الخَيْرِ مُهْدَاةٌ إِلَيهِ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ، تِلْكَ واللَّهِ الْمَكَارِمُ والْمَغَانِمُ ! وفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ! وعَلَيْهِ يَحْسُدُ الْحَاسِدُونَ ! وذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيْهِ مَنْ يَشَاءُ، واللَّهُ ذُوْ الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

وَحَقِيقٌ بِمَرْتَبَةٍ هَذَا شَأْنُهَا أَنْ تُنْفَقَ نَفَائِسُ الأَنْفَاسِ عَلَيْهَا، ويَسْتَبِقَ السَّابِقُونَ إِلَيْهَا، وتُوَفَّرَ عَلَيهَا الأَوْقَاتُ، وتَتَوَجَّهَ نَحْوَهَا الطَّلَبَاتُ، فَنَسْأَلُ اللَّهَ الَّذِي بِيَدِهِ مَفَاتِيحُ كُلِّ خَيْرٍ أَنْ يَفْتَحَ عَلَينَا خَزَائِنَ رَحْمَتِهِ، ويَجْعَلَنَا مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الصِّفَةِ بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ .

---

(١) «تفسير الطبري» (٢١٩٧٥) .

(٢) رواه البخاري برقم (٢٧٤٢) ومسلم برقم (٢٤٠٦) .

(٣) رواه مسلم عن جرير بن عبد الله برقم (١٠١٧) .

وأَصْحَابُ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ يُدْعَوْنَ عُظَمَاءَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاءِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ :
" **مَنْ عَلِمَ وَعَمِلَ وَعَلَّمَ فَذَلِكَ يُدْعَى عَظِيْماً فِي مَلَكُوتِ السَّمَاءِ** " [(١)][(٢)] .

*****

(١) حكاه ثور بن يزيد وبشر بن الحارث من كلام المسيح عليه السلام، «حلية الأولياء» (٦/٩٧) و(٨/٣٨٠) .
(٢) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (٢/٧٦٤-٧٧١) .

الْحَدِيْثُ الْعَاشِرُ

عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ:" يَوْمٌ فِي سَبِيلِ الله خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ يَوْمٍ فِيْمَا سِوَاهُ "(١) .

قوله (يَوْمٌ فِيْ سَبِيْلِ الله) أَيْ يَوْمٌ يَقُومُ فِيْهِ الْمُسْلِمُ بِالْجُهْدِ لإِعْلاءِ كَلِمَةِ الله عز وجل وَنُصْرَةِ دِيْنِهِ وَالدِّفَاعِ عَنْهُ .

قوله (خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ يَوْمٍ فِيْمَا سِوَاهُ) هَذَا التَّفْضِيْلُ خَرَجَ عَلَى سَبِيْلِ الْمُبَالَغَةِ فِيْ التَّفْضِيلِ، وَلَيْسَ الْعَدَدُ مَقْصُوداً، فَإِنَّهُ تَقَدَّمَ أَنَّ مَوْقِفَ سَاعَةٍ فِيْ سَبِيْلِ الله خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ عِنْدَ الْحَجَرِ الأَسْوَدِ، وَلَيْلَةُ الْقَدْرِ فِي غَيْرِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ أَلْفِ شَهْرٍ؛ وَتَقَدَّمَ أَنَّ أَفْضَلَ مَقَامَاتِ الْعَبْدِ هُوَ مَقَامُ الدَّعْوَةِ إلى الله عز وجل، لأَنَّهُ مَقَامُ الأَنْبِيَاءِ وَخُلَفَائِهِمْ وَأَفْضَلُ عِبَادَاتِهِمْ، فَلا يُقَامُ بِهِ غَيْرُهُ مِنَ الأَعْمَالِ مَهْمَا كَثُرَتْ، فَالْمُرَادُ مِنَ الْعَدَدِ هُوَ التَّقْرِيْبُ لِلأَفْهَامِ وَالدَّلالَةُ عَلَى الْكَثْرَةِ الْمُطْلَقَةِ، والله أَعْلَمُ .

مَعْنَى الْحَدِيْثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ

يُبَيِّنُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ يَوْماً يَقْضِيْهِ الْمُسْلِمُ فِي سَبِيْلِ الله عز وجل لإِعْلاءِ كَلِمَتِهِ وَنُصْرَةِ دِيْنِهِ وَدَعْوَةِ الْخَلْقِ إِلَيْهِ، وَالَّذِيْ هُوَ أَعْظَمُ سُبُلِ الله عز وجل، وَهُوَ سَبِيْلُ رَسُوْلِهِ ﷺ ، هَذَا الْيَوْمُ أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ يَوْمٍ يَقْضِيْهَا الْمُسْلِمُ فِي عِبَادَةِ الله عز وجل دُوْنَ أَنْ يَنْتَفِعَ أَحَدٌ بِعِبَادَتِهِ، وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ بِهَذَا التَّفْضِيلِ ذَاتَ الْعَدَدِ، بَلِ الْمَقْصُودُ أَنَّهُ لا يُسَاوِيْهِ عَمَلٌ آخَرُ، كَقَوْلِهِ

---

(١) رواه النسائي في سننه برقم (٣١٧٠) و ابن حبان في صحيحه برقم (٤٦٠٩) والحاكم في المستدرك برقم (٢٣٨١) وقال: حديث صحيح على شرط البخاري ووافقه الذهبي .

ﷺ لِعَلِيٍّ رضي الله عنه: "فَوَاللهِ لَئِنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ ." (١)، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الدُّنْيَا كُلِّهَا لَوْ كَانَتْ لإِنْسَانٍ وَأَنْفَقَهَا فِيْ طَاعَةِ اللهِ .

وَهَذَا الْحَدِيْثُ يُقَرِّرُ الْقَاعِدَةَ الْعَامَّةَ أَنَّ الْعَمَلَ الْمُتَعَدِّيَ نَفْعُهُ أَفْضَلُ مِنَ الْعَمَلِ اللاَّزِمِ نَفْعُهُ، وَمَا فُضِّلَتْ هَذِهِ الأُمَّةُ عَلَى غَيْرِهَا مِنَ الأُمَمِ بِكَثْرَةِ صَلاتِهَا وَلا صِيَامِهَا وَلا بِطُولِ أَعْمَارِ أَفْرَادِهَا، وَإِنَّمَا فُضِّلَتْ عَلَيْهِمْ لأَنَّهَا تَنُوْبُ عَنْ نَبِيِّهَا فِيْ تَبْلِيْغِ رِسَالَةِ اللهِ إلى خَلْقِهِ، وَتَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوْفِ وَتَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ، وَهَذَا الْعَمَلُ هُوَ عَمَلُ الْخَاصَّةِ مِنْ خَلْقِ اللهِ، وَهُوَ عَمَلُ الأَنْبِيَاءِ عليهم السلام وَمَن اخْتَصَّهُ اللهُ عز وجل بِمَزِيْدِ عِنَايَتِهِ، كَمَا قَالَ سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾ [التوبة:٧١]، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِيْ تَفْسِيْرِهِ: "فَجَعَلَ اللهُ سبحانه وتعالى الأَمْرَ بِالْمعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكرِ فَرْقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُنَافِقِيْنَ، فَدُلَّ عَلَى أَنَّ أَخصَّ أَوْصَافِ الْمُؤْمِنِيْنَ الأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَخصُّهَا الدُّعَاءُ إِلى الإِسْلامِ " (٢) .

فَائِــــــــــدَة

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ تَيْمِيَةَ رحمه الله: "الأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ الَّذِي أَنْزَلَ اللهُ بِهِ كُتُبَهُ وَأَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ مِنَ الدِّيْنِ، وَقَوْلُهُ سبحانه وتعالى فِي صِفَةِ نَبِيِّنَا ﷺ: ﴿ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] هُوَ بَيَانٌ لِكَمَالِ رِسَالَتِهِ، فَإِنَّهُ ﷺ هُوَ الَّذِي أَمَرَ اللهُ عَلَى لِسَانِهِ بِكُلِّ مَعْرُوفٍ وَنَهَى عَنْ كُلِّ مُنْكَرٍ، وَأَحَلَّ كُلَّ طَيِّبٍ وَحَرَّمَ كُلَّ خَبِيْثٍ، وَلِهَذَا رُوِيَ عَنهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:

---

(١) رواه البخاري عن سهل بن سعد برقم (٢٧٨٣) ورواه مسلم برقم (٢٤٠٦) .

(٢) «تفسير القرطبي» (٤/٤٤) .

"**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ.**" [(١)]؛ وَكَذَلِكَ وَصَفَ اللهُ الأُمَّةَ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَبِيَّهَا ﷺ حَيْثُ قَالَ: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾[آل عمران:١١٠]، وَلِهَذَا قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: " **كُنْتُمْ خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ، تَأْتُونَ بِهِمْ فِي الأَقْيَادِ وَالسَّلاسِلِ حَتَّى تُدْخِلُوهُمُ الْجَنَّةَ.**"، فَبَيَّنَ سبحانه وتعالى أَنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ خَيْرُ الأُمَمِ لِلنَّاسِ، فَهُمْ أَنْفَعُهُمْ لَهُمْ وَأَعْظَمُهُمْ إِحْسَاناً إِلَيْهِمْ، لأَنَّهُمْ كَمَّلُوا أَمْرَ النَّاسِ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيَهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ مِنْ جِهَةِ الصِّفَةِ وَالْقَدْرِ، حَيْثُ أَمَرُوا بِكُلِّ مَعْرُوفٍ وَنَهَوْا عَنْ كُلِّ مُنْكَرٍ لِكُلِّ أَحَدٍ، وَأَقَامُوا ذَلِكَ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَهَذَا كَمَالُ النَّفْعِ لِلْخَلْقِ " [(٢)] .

فَهَذِهِ الأُمَّةُ أُمَّةٌ مُخْتَارَةٌ مُصْطَفَاةٌ مُجْتَبَاةٌ مِنْ قِبَلِ اللهِ عز وجل، كَمَا قَالَ سبحانه وتعالى: ﴿ **هُوَ اجْتَبَاكُمْ** ﴾ [الحج : ٧٨]، وقَالَ: ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا** ﴾ [فاطر:٣٢]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما :" **هُمْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَرَّثَهُمُ اللهُ سبحانه وتعالى كُلَّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ، فَظَالِمُهُمْ يُغْفَرُ لَهُ، وَمُقْتَصِدُهُمْ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيْراً، وَسَابِقُهُمْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ.**" [(٣)] ، وَيُؤَيِّدُهُ مَا رَوَاهُ الحَاكِمُ وَغَيْرُهُ عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" **تُحْشَرُ هَذِهِ الأُمَّةُ عَلَى ثَلاثَةِ أَصْنَافٍ: صِنْفٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَصِنْفٍ يُحَاسَبُونَ حِسَاباً يَسِيْراً ثُمَّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، وَصِنْفٍ يَجِيْئُونَ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَمْثَالُ الْجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ ذُنُوباً، فَيَسْأَلُ اللهُ عَنْهُمْ – وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ – فَيَقُولُ: مَا هَؤُلاءِ؟ فَيَقُولُونَ: هَؤُلاءِ عَبِيْدٌ مِنْ عِبَادِكَ. فَيَقُولُ: حُطُّوهَا عَنْهُمْ وَاجْعَلُوهَا عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَأَدْخِلُوهُمْ بِرَحْمَتِي الْجَنَّةَ** " [(٤)] .

---

(١) رواه أحمد في مسنده عن أبي هريرة (٨٩٥٢) بلفظ:" **إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاقِ.** " وكذا رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٣) ورواه البيهقي في سننه (٢٠٥٧) والحاكم في المستدرك (٤٢٢١) واللفظ لهما، وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي .

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/٧١-٧٢) .

(٣) «تفسير الطبري» (٢٨٩٩٦) .

(٤) رواه الحاكم في المستدرك عن أبي موسى الاشعري (١٩٣) و (٧٦٤٥) و (٨٧٩٤) و قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي .

والله ﷻ جمع بين هذه الأمَّة وبين نبيِّها ﷺ في الوصف بالإيمان، حيث قال: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [البقرة : ٢٨]، وجمع بينهم في الجهاد لإحياء الإيمان والدَّعوة إليه، وفي الجزاء على ذلك والكرامات عليها، فقال: ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [التوبة :٨٨]، كما جمع بينهم في المدح لهم والثناء عليهم في الكتب السَّابقة، حيث قال: ﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ ﴾ [الفتح : ٢٩]، وما من خير أعطيه نبيُّ هذه الأمَّة إلاَّ ولأمَّته نصيبٌ من هذا الخير، فهي شريكةٌ له في التَّكليفات والكرامات .

قال الإمام الشَّاطبيُّ رحمه الله: " كما أنَّ الأحكام والتَّكليفات عامَّةٌ في جميع المكلَّفين على حسب ما كانت بالنِّسبة إلى رسول الله ﷺ إلاَّ ما خصَّ به، كذلك المزايا والمناقب، فما من مزيَّةٍ أعطيها رسول الله ﷺ سوى ما وقع استثناؤه إلاَّ وقد أعطيت أمَّته منها أنموذجاً، فهي عامَّةٌ كعموم التَّكاليف، بل قد زعم ابن العربيِّ أنَّ سنَّة الله جرت بأنَّه إذا أعطى الله نبيَّاً شيئاً أعطى أمَّته منه وأشركهم معه فيه، ثمَّ ذكر من ذلك أمثلةً، وما قاله يظهر في هذه الملَّة بالإستقراء .

أمَّا أوَّلاً: فالوراثة العامَّة في الإستخلاف على الأحكام المستنبطة، وقد كان من الجائز أن تتعبَّد الأمَّة بالوقوف عندما حُدَّ من غير استنباطٍ، وكانت تكفي العمومات والإطلاق حسبما قاله الأصوليُّون، ولكنَّ الله منَّ على العباد بالخصوصيَّة الَّتي خصَّ نبيَّه ﷺ، إذ قال ﷻ: ﴿ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ ﴾ [النساء : ١٠٥]، وقال في الأمَّة: ﴿ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ ﴾ [النساء:٨٣] وهذا واضحٌ فلا نطوِّل به .

وأمَّا ثانياً: فقد ظهر ذلك من مواضع كثيرةٍ، نقتصر منها على ثلاثين وجهاً :

أَحَدُهَا: الصَّلاةُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي النَّبِيِّ ﷺ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ [الأحزاب:٥٦]، وقَالَ فِي الأُمَّةِ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [الأحزاب:٤٣] وقَالَ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ [البقرة:١٥٧] .

والثَّانِي: الإِعْطَاءُ إلى الإِرْضَاء، قَالَ تَعَالَى فِي النَّبِيِّ ﷺ: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحى : ٥]، وقَالَ فِي الأُمَّةِ: ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ﴾ [الحج:٥٩] ،وقَالَ: ﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ [المائدة :١١٩] .

وَالثَّالِثُ: غُفْرَانُ مَا تَقدَّمَ ومَا تَأَخَّرَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح:٢]. وَفِي الأُمَّةِ رُوِيَ أَنَّ الآيَةَ لَمَّا نَزَلَتْ قَالَ الصَّحَابَةُ: هَنِيْئاً مَرِيْئاً، فَمَا لَنَا؟ فَنَزَلَ: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾[1] [الفتح:٥]، فَعَمَّ مَا تَقدَّمَ ومَا تَأَخَّرَ.

وَفِي الآيَةِ الأُوْلَى إِتْمَامُ النِّعْمَةِ فِي قَولِهِ: ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [الفتح :٢]. وَفِي الأُمَّةِ: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة:٦]،وهُوَ الْوَجْهُ الرَّابِعُ .

وَالْخَامِسُ: الْوَحْيُ وَهُوَ النُّبُوَّةُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [النساء:١٦٣]، وَسَائِرُ مَا فِي هَذَا الْمَعْنَى، وَلا يَحْتَاجُ إِلى شَاهِدٍ، وَفِي الأُمَّةِ:" **الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِيْنَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ** "[2] .

وَالسَّادِسُ: نُزُوْلُ الْقُرْآنِ عَلَى وِفْقِ الْمُرَادِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾ [البقرة : ١٤٤]، فَقَدْ كَانَ ﷺ يُحِبُّ أَنْ يُرَدَّ إلى

---

(١) رواه البخاري عن أنس بن مالك (٤١٧٢) .

(٢) رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري (٦٩٨٩) ومسلم عن ابي هريرة (٦٠٤٩) ورواه عن ابن عمر (٦٠٥٣) بلفظ: " **الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِيْنَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ** " .

الْكَعْبَةِ، وَقَالَ ﷻ أَيْضاً: ﴿ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ [الأحزاب: ٥١]، لَمَّا كَانَ قَدْ حُبِّبَ إِلَيْهِ النِّسَاءُ، فَلَمْ يُوْقَفْ عَلَى عَدَدٍ مَعْلُومٍ. وَفِي الأُمَّةِ قَالَ عُمَرُ ﷺ: "وَافَقْتُ رَبِّيْ فِيْ ثَلاثٍ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَوِ اتَّخَذْتَ مَقَامَ إِبْرَاهِيْمَ مُصَلًّى، فَنَزَلَتْ: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ ﴾ [البقرة :١٢٥]، وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ! يَدْخُلُ عَلَيْكَ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، فَلَوْ أَمَرْتَ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِيْنَ بِالْحِجَابِ! فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ الْحِجَابِ، قَالَ: وَبَلَغَنِي مُعَاتَبَةُ النَّبِيِّ ﷺ بَعْضَ نِسَائِهِ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِنَّ، فَقُلْتُ: إِنِ انْتَهَيْتُنَّ أَوْ لَيُبْدِلَنَّ اللَّهُ رَسُولَهُ خَيْراً مِنْكُنَّ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ ﴾ الآية[1] [التحريم:٥]، وَحَدِيْثُ الَّتِي ظَاهَرَ مِنْهَا زَوْجُهَا، فَسَأَلَتِ النَّبِيَّ ﷺ أَنَّ زَوْجِي ظَاهَرَ مِنِّيْ، وَقَدْ طَالَتْ صُحْبَتِيْ مَعَهُ، وَقَدْ وَلَدْتُ لَهُ أَوْلاداً، فَقَالَ ﷺ: "قَدْ حَرُمْتِ عَلَيهْ"، فَرَفَعَتْ رَأْسَهَا إِلى السَّمَاءِ فَقَالَتْ: إِلى اللَّهِ أَشْكُوْ حَاجَتِيْ إِلَيْهِ، ثُمَّ عَادَتْ فَأَجَابَهَا، ثُمَّ ذَهَبَتْ لِتُعِيْدَ الثَّالِثَةَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ الآية [2].[المجادلة: ١]، وَمِنْ هَذَا الْكَثِيرُ لِمَنْ تَتَبَّعَ، وَهَذَا خَاصٌّ بِزَمَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لانْقِطَاعِ الْوَحْيِ بِانْقِطَاعِهِ .

وَالسَّابِعُ: الشَّفَاعَةُ، قَالَ ﷻ: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٩]، وَقَدْ ثَبَتَتْ شَفَاعَةُ هَذِهِ الأُمَّةِ، كَقَولِهِ ﷺ فِي أُوَيْسٍ: "يَشْفَعُ فِيْ مِثْلِ رَبِيْعَةَ وَمُضَرَ"[3] .

---

(١) رواه البخاري عن عمر (٤٠٢) و (٤٤٨٣) ومسلم (٦٣٥٩) .

(٢) «تفسير القرطبي» (١٧/٢٠٤-٢٠٦) و«تفسير ابن كثير» (٤/٣١٠-٣١٢) وأصله في صحيح البخاري في كتاب التوحيد تعليقاً (٤/٢٧٥) .

(٣) رواه أحمد في مسنده عن عبد الله بن أبي الجدعاء (١٥٨٥٧) بلفظ" **لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَةِ رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَكْثَرُ مِنْ بَنِي تَمِيْمٍ** " وأبو يعلى (٦٨٦٦) والترمذي (٢٤٣٨٩) وقال: حديث حسن صحيح غريب. وابن ماجه (٤٣١٦) والطبراني في الكبير (١٨٨) والحاكم في المستدرك (٥٧٢٩) وقال: صحيح الاسناد ووافقه الذهبي. ورواه أحمد في مسنده عن أبي أمامة (٢٢٢١٥) بلفظ" **لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَةِ رَجُلٍ لَيْسَ بِنَبِيٍّ مِثْلُ الْحَيَّيْنِ رَبِيْعَةَ وَمُضَرَ.**" وحَسَّنَهُ الحافظ العراقي في «المغني» (٣/٢١٧) وقال المنذري في الترغيب: بإسناد جيد. وقال الهيثمي في المجمع: رجال أحمد وأحد أسانيد الطبراني رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن ميسرة وهو ثقة .

* وتعيين أويس هو من قول الحسن البصري، و لم يصح رفعه .

و" أَئِمَّتُكُمْ شُفَعَاؤُكُمْ " [(١)] وغَيرِ ذَلِكَ .

وَالثَّامِنُ: شَرْحُ الصَّدْرِ، قَالَ ﷻ: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح :١]، وقَالَ في الأُمَّةِ ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الزمر:٢٢] .

وَالتَّاسِعُ: الاِخْتِصَاصُ بِالْمَحَبَّةِ، لأَنَّ مُحَمَّداً حَبِيْبُ اللهِ، ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الْحَدِيْثِ، وَفِيْهِ " أَلا وَأَنَا حَبِيْبُ اللهِ وَلا فَخْرَ، وَأَنَا حَامِلُ لِوَاءِ الْحَمْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ وَأَنَا أَوَّلُ مُشَفَّعٍ وَلا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يُحَرِّكُ حَلَقَ الْجَنَّةِ فَيُفْتَحُ لِيْ، فَيُدْخِلُنِيهَا وَمَعِي فُقَرَاءُ الْمُؤْمِنيْنَ وَلا فَخْرَ، وَأَنَا أَكْرَمُ الأَوَّلِيْنَ وَالآخِرِيْنَ وَلا فَخْرَ "[(٢)]، وفِي الأُمَّةِ ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة : ٥٤]، وَجَاءَ فِيْ هَذَا الْحَدِيْثِ أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، وَأَنَّ أُمَّتَهُ كَذَلِكَ [(٣)]، وَهُوَ الْعَاشِرُ .

وَأَنَّهُ أَكْرَمُ الأَوَّلِيْنَ وَالآخِرِيْنَ، وَقَدْ جَاءَ فِيْ الأُمَّةِ: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[(٤)] [آل عمران: ١١٠]، وَهُوَ الْحَادِيْ عَشَرَ .

---

(١) أخرجه الدارقطني والبيهقي وضعف إسناده من حديث ابن عمر بلفظ" أَئِمَّتُكُمْ وَفْدُكُمْ إلى اللهِ." قاله الحافظ العراقي في «المغني» (١/١٧٤) .

(٢) رواه الترمذي في سننه عن ابن عباس (٣٦١٦) وقال: حديث غريب. والدارمي في سننه (٤٧) ورواه من حديث عمرو بن قيس (٥٤) وحسنه ابن حجر الهيتمي في «الفتاوى الحديثة» تبعاً للبُلْقِيني (١/٤٥٧) .

(٣) روى ابن ماجه في سننه (٤٢٩٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ: " نَحْنُ آخِرُ الأُمَمِ وَأَوَّلُ مَنْ يُحَاسَبُ، يُقَالُ: أَيْنَ الأُمَّةُ الأُمِّيَّةُ وَنَبِيُّهَا ؟ فَنَحْنُ الآخِرُوْنَ الأَوَّلُونَ ". قال في الزوائد: إسناده صحيح رجاله ثقات. وروى البخاري (٨٧٦) ومسلم (٢٠١٥) إلى (٢٠١٩) عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال:" نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" .

(٤) روى أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري (١١٥٨٧) والترمذي عن معاوية بن حيدة (٣٠٠١) عن رسول الله ﷺ قال:" أَنْتُم تُتِمُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ." قال الترمذي: حديث حسن .

وَالثَّانِيْ عَشَرَ: أَنَّهُ جُعِلَ شَاهِداً عَلَى أُمَّتِهِ، اخْتُصَّ بِذَلِكَ دُوْنَ الأَنْبِيَاءِ عليهم السلام. وَفِي الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

وَالثَّالِثُ عَشَرَ: خَوَارِقُ الْعَادَاتِ مُعْجِزَاتٌ وَكَرَامَاتٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَفِيْ حَقِّ الأُمَّةِ كَرَامَاتٌ .

وَالرَّابِعُ عَشَرَ: الْوَصْفُ بِالْحَمْدِ فِيْ الْكُتُبِ السَّالِفَةِ، وَبِغَيْرِهِ مِنَ الْفَضَائِلِ، فَفِيْ الْقُرْآنِ: ﴿ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف:٦]، وَسُمِّيَتْ أُمَّتُهُ الْحَمَّادِيْنَ [1] .

وَالْخَامِسُ عَشَرَ: الْعِلْمُ مَعَ الأُمِّيَّةِ، قَالَ تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ [الجمعة : ٢]. وَقَالَ: ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ﴾ [الاعراف: ١٥٨] وَفِي الْحَدِيْثِ:" نَحْنُ أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لا نَحْسُبُ وَلا نَكْتُبُ "[2] .

وَالسَّادِسُ عَشَرَ: مُنَاجَاةُ الْمَلائِكَةِ، فَفِي النَّبِيِّ ﷺ ظَاهِرٌ، وَقَدْ رُوِيَ فِي بَعْضِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم أَنَّهُ كَانَ يُكَلِّمُهُ الْمَلَكُ كَعِمْرَانَ بْنِ الْحُصَيْنِ [3]، وَنُقِلَ عَنِ الأَوْلِيَاءِ مِنْ هَذَا.

وَالسَّابِعُ عَشَرَ: الْعَفْوُ قَبْلَ السُّؤَالِ، قَالَ تعالى:﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة:٤٣] وَفِيْ الأُمَّةِ:﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ﴾ [آل عمران:١٥٢].

وَالثَّامِنُ عَشَرَ: رَفْعُ الذِّكْرِ، قَالَ تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح:٤]، وَذُكِرَ أَنَّ مَعْنَاهُ قَرْنُ اسْمِهِ بِاسْمِهِ فِيْ عَقْدِ الإِيْمَانِ وَفِيْ كَلِمَةِ الأَذَانِ، فَصَارَ ذِكْرُهُ ﷺ مَرْفُوعاً مُنَوَّهاً

---

(١) رواه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود مرفوعاً (١٠٠٤٦) ورواه الدارمي عن كعب الأحبار من قوله بسند صحيح (٥) و (٧)و(٨) وأبو نعيم في «الحلية» (٥/٣٨٧-٣٨٥) .

(٢) رواه البخاري عن ابن عمر (١٩١٣) و مسلم (٢٥٦٣) .

(٣) رواه مسلم عن عمران بن حصين (٣٠٣٣) بلفظ " وَقَدْ كَانَ يُسَلَّمُ عَلَيَّ حَتَّى اكْتَوَيْتُ فَتَرَكْتُ، ثُمَّ تَرَكْتُ الْكَيَّ فَعَادَ " .

بِهِ، وَقَدْ جَاءَ ذِكْرُ الأُمَّةِ وَمَدْحُهُمْ وَالثَّنَاءُ عَلَيْهِمْ فِيْ الْقُرْآنِ وَفِيْ الْكُتُبِ السَّالِفَةِ الذِّكْرِ، وَجَاءَ فِيْ بَعْضِ الأَحَادِيْثِ عَنْ مُوْسَى عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: "**اَللَّهُمَّ اجْعَلْنِيْ مِنْ أُمَّةِ أَحْمَدَ** "[(١)]، لَمَّا وَجَدَ فِيْ التَّوْرَاةِ مِنَ الإِشَادَةِ بِذِكْرِهِمْ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ .

وَالتَّاسِعُ عَشَرَ: أَنَّ مُعَادَاتَهُمْ مُعَادَاةٌ لله، وَمُوَالاتَهُمْ مُوَالاةٌ لله، قَالَ تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ** ﴾ **[الأحزاب:٥٧]**، هِيَ عِنْدَ طَائِفَةٍ بِمَعْنَى إِنَّ الَّذِيْنَ يُؤْذُونَ رَسُولَ الله لَعَنَهُمُ الله، وَفِي الْحَدِيْثِ: "**مَنْ آذَانِيْ فَقَدْ آذى الله** " [(٢)] .

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره عن ابن عباس موقوفاً (٩١٤٠)، وأخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره عن قتادة (١٥١٣٢) في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ ﴾ قَالَ:" **لَمَّا أَخَذَ مُوسَى الأَلْوَاحَ قَالَ: رَبِّ، إِنِّيْ أَجِدُ فِي الأَلْوَاحِ أُمَّةً خَيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَاجْعَلْهُمْ أُمَّتِيْ! قَالَ: تِلْكَ أُمَّةُ أَحْمَدَ! قَالَ: رَبِّ إِنِّيْ أَجِدُ فِي الأَلْوَاحِ أُمَّةً هُمُ الآخِرُونَ** – أَيْ آخِرُونَ فِي الْخَلْقِ – **السَّابِقُونَ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، رَبِّ اجْعَلْهُمْ أُمَّتِيْ! قَالَ: تِلْكَ أُمَّةُ أَحْمَدَ! قَالَ: رَبِّ إِنِّيْ أَجِدُ فِي الأَلْوَاحِ أُمَّةً أَنَاجِيْلُهُم فِي صُدُورِهِمْ يَقْرَؤُونَهَا،**– وَكَانَ مَنْ قَبْلَهُمْ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ نَظَرًا، حَتَّى إِذَا رَفَعُوهَا لَمْ يَحْفَظُوا شَيْئًا، وَلَمْ يَعْرِفُوهُ. قَالَ قَتَادَةُ: وإِنَّ الله أَعْطَاكُمْ أَيَّتُهَا الأُمَّةُ مِنَ الْحِفْظِ شَيْئًا لَمْ يعْطِهِ أَحَدًا مِنَ الأُمَمِ – **قَالَ: رَبِّ اجْعَلْهُم أُمَّتِيْ! قَالَ: تِلْكَ أُمَّةُ أَحْمَدَ! قَالَ: رَبِّ إِنِّيْ أَجِدُ فِي الأَلْوَاحِ أُمَّةً يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ الأَوَّلِ وبِالْكِتَابِ الآخِرِ، ويُقَاتِلُونَ فُضُولَ الضَّلالَةِ، حَتَّى يُقَاتِلُوا الأَعْوَرَ الْكَذَّابَ، فَاجْعَلْهُم أُمَّتِيْ! قَالَ: تِلْكَ أُمَّةُ أَحْمَدَ! قَالَ: رَبِّ إِنِّيْ أَجِدُ فِي الأَلْوَاحِ أُمَّةً صَدَقَاتُهُم يَأْكُلُونَهَا فِي بُطُونِهِمْ، ثُمَّ يُؤْجَرُونَ عَلَيهَا**– وكَانَ مَنْ قَبْلَهُم مِنَ الأُمَمِ إِذَا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَقُبِلَتْ مِنْهُ، بَعَثَ الله عَلَيهَا نَارًا فَأَكَلَتْهَا، وإِنْ رُدَّتْ عَلَيهِ تُرِكَتْ تَأْكُلُهَا الطَّيْرُ وَالسِّبَاعُ. قَالَ: وإِنَّ الله أَخَذَ صَدَقَاتِكُم مِنْ غَنِيِّكُمْ لِفَقِيرِكُمْ – **قَالَ: رَبِّ اجْعَلْهُمْ أُمَّتِيْ! قَالَ: تِلْكَ أُمَّةُ أَحْمَدَ! قَالَ: رَبِّ إِنِّيْ أَجِدُ فِي الأَلْوَاحِ أُمَّةً إِذَا هَمَّ أَحَدُهُمْ بِحَسَنَةٍ ثُمَّ لَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرَ أَمْثَالِهَا إِلى سَبْعِمِائَةٍ، رَبِّ اجْعَلْهُمْ أُمَّتِيْ! قَالَ: تِلْكَ أُمَّةُ أَحْمَدَ! قَالَ: رَبِّ إِنِّيْ أَجِدُ فِي الأَلْوَاحِ أُمَّةً إِذَا هَمَّ أَحَدُهُمْ بِسَيِّئَةٍ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيهِ حَتَّى يَعْمَلَهَا، فَإِذَا عَمِلَهَا كُتِبَتْ عَلَيهِ سَيِّئَةً وَاحِدَةً، فَاجْعَلْهُمْ أُمَّتِيْ! قَالَ: تِلْكَ أُمَّةُ أَحْمَدَ! قَالَ: رَبِّ إِنِّيْ أَجِدُ فِي الأَلْوَاحِ أُمَّةً هُمُ الْمُسْتَجِيبُونَ وَالْمُسْتَجَابُ لَهُمْ، فَاجْعَلْهُمْ أُمَّتِيْ! قَالَ: تِلْكَ أُمَّةُ أَحْمَدَ، قَالَ: رَبِّ إِنِّيْ أَجِدُ فِي الأَلْوَاحِ أُمَّةً هُمُ الْمُشَفَّعُونَ وَالْمَشْفُوعُ لَهُمْ، فَاجْعَلْهُمْ أُمَّتِيْ! قَالَ: تِلْكَ أُمَّةُ أَحْمَدَ! قَالَ:** وذُكِرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ الله مُوسَى عليه السلام نَبَذَ الأَلْوَاحَ، وقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِيْ مِنْ أُمَّةِ أَحْمَدَ !.

(٢) رواه أحمد في مسنده عن عبد الله بن مغفل (١٦٨٠٣) والترمذي في سننه (٣٨٦٣) وابن حبان في صحيحه (٧٢٥٦) .

وَفِي الْحَدِيْثِ: "مَنْ آذى لِيْ وَلِيّاً فَقَدْ بَارَزَنِيْ بِالْمُحَارَبَةِ." [(١)]، وقال ﷻ: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ ﴾[النساء: ٨٠]، وَمَفْهُومُهُ مَنْ لَمْ يُطِعِ الرَّسُولَ لَمْ يُطِعِ اللهَ .

وَتَمَامُ الْعِشْرِيْنَ: الاجْتِبَاء، فَقَالَ ﷻ فِي الأَنْبِيَاءِ عليهم السلام : ﴿ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[الأنعام: ٨٧]، وَفِيْ الأُمَّةِ: ﴿ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ ﴾[الحج : ٧٨]. وَفِيْ الْحَدِيْثِ أَنَّهُ ﷺ مُصْطَفىً مِنَ الْخَلْقِ[(٢)]، وَقَالَ فِيْ الأُمَّةِ: ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ ﴾ [فاطر : ٣٢] .

وَالْحَادِيْ وَالْعِشْرُوْنَ: التَّسْلِيْمُ مِنَ اللهِ، فَفِيْ أُحَادِيْث إِقْرَاءِ السَّلامِ مِنَ اللهِ ﷻ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ[(٣)]، وقال ﷻ:﴿ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ﴾ [النمل: ٥٩]، ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ ﴾ [الانعام:٥٤]، وَقَالَ جِبْرِيْلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِيْ خَدِيْجَةَ " اقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلامَ مِنْ رَبِّهَا ومِنِّي " [(٤)] .

وَالثَّانِي وَالْعِشْرُوْنَ: التَّثْبِيْتُ عِنْدَ تَوَقُّعِ التَّفَلُّتِ الْبَشَرِيِّ، قَالَ ﷻ: ﴿ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٧٤]، وَفِي الأُمَّةِ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ ﴾ [إبراهيم:٢٧] .

وَالثَّالِثُ وَالْعِشْرُوْنَ: الْعَطَاءُ مِنْ غَيْرِ مِنَّةٍ، قَالَ ﷻ: ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ﴾ [القلم:٣] وَقَالَ فِيْ الأُمَّةِ: ﴿ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴾ [التين: ٦] .

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة (٦٥٠٢) .

(٢) رواه مسلم عن واثلة بن الأسقع (٦٠٧٧) بلفظ :" إِنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِى هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِى هَاشِمٍ " .

(٣) رواه أبو يعلى في مسنده عن عائشة (٤٩٢٠)بلفظ " يَا عَائِشَةُ لَوْ شِئْتُ لَسَارتْ مَعِيْ جِبَالُ الذَّهَبِ، جَاءَنِي مَلَكٌ إِنَّ حُجْزَتَهُ لَتُسَاوِيْ الْكَعْبَةَ، فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلامَ وَيَقُولُ لَكَ إِنْ شِئْتَ نَبِيّاً عَبْداً وَإِنْ شِئْتَ نَبِيّاً مَلِكاً، فَنَظَرْتُ إِلَى جِبْرِيْلَ، فَقَالَ: فَأَشَارَ عَلَيَّ أَنْ ضَعْ نَفْسَكَ، فَقُلْتُ: نَبِيّاً عَبْداً " وقال الهيثمي: إسناده حسن .

(٤) رواه البخاري عن أبي هريرة (٣١٢٠) ومسلم (٦٤٢٦) .

وَالرَّابِعُ وَالْعِشْرُوْنَ: تَيْسِيْرُ الْقُرْآنِ عَلَيْهِمْ، قَالَ ﷻ: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة:١٧– ١٩] عَلَيْنَا أَنْ نُبَيِّنَهُ عَلَى لِسَانِكَ، وَفِيْ الأُمَّةِ: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[القمر : ١٧] .

وَالْخَامِسُ وَالْعِشْرُوْنَ: جَعْلُ السَّلامِ عَلَيْهِمْ مَشْرُوْعاً فِيْ الصَّلاةِ، إِذْ يُقَالُ فِيْ التَّشَهُّدِ : السَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِيْنَ .

وَالسَّادِسُ وَالْعِشْرُوْنَ: أَنَّهُ سَمَّى نَبِيَّهُ ﷺ بِجُمْلَةٍ مِنْ أَسْمَائِهِ، كَالرَّؤُوْفِ وَالرَّحِيْمِ، وَلِلأُمَّةِ نَحْوُ الْمُؤْمِنِ وَالْخَبِيْرِ وَالْعَلِيْمِ وَالْحَكِيْمِ .

وَالسَّابِعُ وَالْعِشْرُوْنَ: أَمْرُ اللهِ ﷻ بِالطَّاعَةِ لَهُمْ، قَالَ ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ ﴾ [النساء:٥٩] وَهُمُ الأُمَرَاءُ وَالْعُلَمَاءُ، وَفِي الْحَدِيْثِ "مَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِيْ "[١]، وقَالَ ﷻ: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾[النساء:٨٠] .

وَالثَّامِنُ وَالْعِشْرُوْنَ: الْخِطَابُ الْوَارِدُ مَوْرِدَ الشَّفَقَةِ وَالْحَنَانِ، كَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾ [طه:١ – ٢]، وَقَوْلِهِ: ﴿ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ ﴾ [الأعراف:٢] ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَاۖ ﴾ [الطور:٤٨]، وَفِيْ الأُمَّةِ: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ [المائدة:٦]، ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة:١٨٥]، ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء:٢٨]، ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء:٢٩] .

وَالتَّاسِعُ وَالْعِشْرُوْنَ: الْعِصْمَةُ مِنَ الضَّلالِ بَعْدَ الْهُدَى وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهِ الْحِفْظِ الْعَامَّةِ، فَالنَّبِيُّ ﷺ قَدْ عَصَمَهُ اللهُ ﷻ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَجَاءَ فِيْ الأُمَّةِ: "لا تَجْتَمِعُ أُمَّتِيْ

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة (٧١٣٧) و مسلم (٤٨٥٤) .

عَلَى ضَلالَةٍ."[١]، وَجَاءَ: "احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ "[٢]، وفي الْقُرْآنِ: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص:٨٢ – ٨٣]، تَفْسِيْرُهُ فِيْ قَوْلِهِ: "لا تَجْتَمِعُ أُمَّتِيْ عَلَى ضَلالَةٍ". وَفِيْ قَوْلِهِ: "وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي، وَلَكِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا "[٣] .

وَتَمَامُ الثَّلاثِيْنَ: إِمَامَةُ الأَنْبِيَاء، فَفِيْ حَدِيْثِ الإِسْرَاءِ أَنَّهُ ﷺ أَمَّ بالأَنْبِيَاء، قَالَ: "وَقَدْ أَتَتْنِيْ جَمَاعَةٌ مِنَ الأَنْبِيَاء .. فَحَانَتِ الصَّلاةُ فَأَمَمْتُهُمْ."[٤]، وَفِي حَدِيْثِ نُزُوْلِ عِيْسَى عَلَيْهِ السَّلَام إِلى الأَرْضِ فِيْ آخرِ الزَّمَانِ: "إِنَّ إِمَامَ هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْهَا."[٥]، وَإِنَّهُ يُصَلِّيْ مُؤْتَمّاً بِإِمَامِهَا .

وَمَنْ تَتَبَّعَ الشَّرِيْعَةَ وَجَدَ مِنْ هَذَا كَثِيْراً، مَجْمُوعُهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أُمَّتَهُ تَقْتَبِسُ مِنْهُ خَيْرَاتٍ وَبَرَكَاتٍ، وَتَرِثُ أَوْصَافاً وَأَحْوَالاً مَوْهُوبَةً مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَمُكْتَسَبَةً؛ وَالْحَمْدُ للهِ عَلَى ذَلِكَ[٦] .

وَقَالَ قَتَادَةُ رَحِمَهُ اللَّهُ:" أُعْطِيَتْ هَذِهِ الأُمَّةُ ثَلاثاً لَمْ يُعْطَهَا إلاَّ نَبِيٌّ، كَانَ يُقَالُ لِلنَّبِيِّ: اذْهَبْ فَلَيْسَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ! فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ قَالَ :

---

(١) رواه ابن ماجه عن أنس بن مالك (٣٩٥٠) والحاكم في المستدرك عن ابن عباس (٣٩٩) والترمذي عن ابن عمر (٢١٦٧) والطبراني في الكبير عن ابن مسعود (٦٦٥) و(٦٦٦) وقال الهيثمي في المجمع: رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما ثقات رجال الصحيح خلا مرزوق مولى طلحة وهو ثقة. ورواه أحمد في مسنده عن أبي بصيرة الغفاري بنحوه (٢٧٢٢٤) والطبراني في الكبير عنه (٢١٧١) قال السخاوي في «المقاصد الحسنة»: حديث مشهور المتن ذو أسانيد كثيرة وشواهد متعددة في المرفوع .

(٢) رواه أحمد في مسنده عن ابن عباس (٢٦٦٩) والترمذي في سننه (٢٥١٦)، وقال: حديث حسن صحيح. ورواه الحاكم في المستدرك (٦٣٠٣) و(٦٣٠٤) .

(٣) رواه البخاري عن عقبة بن عامر (١٣٤٤) و(٣٥٦٩) و (٤٠٨٥) و (٦٤٦٢) و (٦٥٩٠) ومسلم (٦١١٧).

(٤) رواه مسلم عن أبي هريرة (٤٤٨) .

(٥) رواه البخاري عن أبي هريرة (٣٤٤٩) ومسلم (٤٠٩) و(٤١٠) .

(٦) «الموافقات» للشاطبي (٢/ ٤١٥ – ٤٣٨) .

وَكَانَ يُقَالُ لِلنَّبِيِّ: أَنْتَ شَهِيْدٌ عَلَى قَوْمِكَ ! وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وَكَانَ يُقَالُ لِلنَّبِيِّ: سَلْ تُعْطَهْ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾"[١] .

قُلْتُ: كَذَلِكَ جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَذِهِ الأُمَّةَ نَائِبَةً عَنْ نَبِيِّهَا ﷺ فِي تَبْلِيْغِ رِسَالَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى خَلْقِهِ، وَجَعَلَ سَبِيْلَ هَذِهِ الأُمَّةِ سَبِيْلَ نَبِيِّهَا ﷺ، وَهِيَ الدَّعْوَةُ إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨]، وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ رَحِمَهُ اللهُ: "وَحَقٌّ وَاللهِ عَلَى مَنِ اتَّبَعَهُ أَنْ يَدْعُوَ إلى مِثْلِ مَا دَعَا إِلَيْهِ، وَيُذَكِّرَ بِالْقُرْآنِ وَالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَيَنْهَى عَنِ الْمَعَاصِي."[٢]؛ وَكَمَا أَنَّهُ ﷺ أُرْسِلَ إلى النَّاسِ كَافَّةً كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨] كَذَلِكَ هَذِهِ الأُمَّةُ مُرْسَلَةٌ وَمَبْعُوثَةٌ إلى النَّاسِ كَافَّةً، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠]، وَقَالَ ﷺ: "فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِيْنَ."[٣]، وقال رِبْعِيُّ بْنُ عَامِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "اللهُ ابْتَعَثَنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إلى عِبَادَةِ اللهِ، وَمِنْ ضِيْقِ الدُّنْيَا إلى سَعَتِهَا، وَمِنْ جَوْرِ الأَدْيَانِ إلى عَدْلِ الإِسْلامِ، فَأَرْسَلَنَا بِدِيْنِهِ إلى خَلْقِهِ لِنَدْعُوَهُمْ إِلَيْهِ "[٤] .

فَالدَّعْوَةُ إلى اللهِ وَاجِبَةٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَهُ، وَهُمْ أُمَّتُهُ يَدْعُونَ إلى اللهِ كَمَا دَعَا إلى اللهِ، وَكَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ أَمْرَهُمْ بِمَا أَمَرَ بِهِ، وَنَهْيَهُمْ عَمَّا نَهَى عَنْهُ، وَإِخْبَارَهُمْ بِمَا أَخْبَرَ، إِذِ الدَّعْوَةُ تَتَضَمَّنُ الأَمْرَ، وَذَلِكَ يَتَنَاوَلُ الأَمْرَ بِكُلِّ مَعْرُوفٍ وَالنَّهْيَ عَنْ كُلِّ مُنْكَرٍ .. فَمَجْمُوعُ أُمَّتِهِ تَقُومُ مَقَامَهُ فِي الدَّعْوَةِ إلى اللهِ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الأُمَّةِ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَقُومَ مِنَ الدَّعْوَةِ بِمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِذَا لَمْ يَقُمْ بِهِ غَيْرُهُ "[٥] .

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٥٤١١) .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) تقدم تخريجه .

(٤) تقدم تخريجه .

(٥) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٩٦) .

فَهَذِهِ الأُمَّةُ مَبْعُوثَةٌ بِبِعْثَةِ نَبِيِّهَا، وَنُصْرَةُ الْبَاعِثِ وَقُوَّتُهُ وَمَعُونَتُهُ وَحِفَاظَتُهُ تَكُونُ مَعَ الْمَبْعُوثِ بِقَدْرِ قِيَامِهِ عَلَى تَحْقِيْقِ الْمُرَادِ مِنْ بِعْثَتِهِ، وَهُوَ إِقَامَةُ الدِّيْنِ فِيْ الأَرْضِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج:٤٠-٤١] .

وَيَومَ الْقِيَامَةِ تَأْتِيْ هَذِهِ الأُمَّةُ وَنُوْرُهَا كَنُوْرِ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ [(١)]، كَمَا جَاءَ عَنْهُ ﷺ فِيْ حَدِيْثِ الشَّفَاعَةِ أَنَّهُ قَالَ: "**فَلَمَّا أَرَادَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَصْدَعَ بَيْنَ خَلْقِهِ نَادَى مُنَادٍ: أَيْنَ أَحْمَدُ وَأُمَّتُهُ ؟ فَنَحْنُ الآخِرُونَ الأَوَّلُونَ، نَحْنُ آخِرُ الأُمَمِ وَأَوَّلُ مَنْ يُحَاسَبُ، فَتُفْرِجُ لَنَا الأُمَمُ عَنْ طَرِيْقِنَا، فَنَمْضِي غُرّاً مُحَجَّلِيْنَ مِنْ أَثَرِ الطُّهُورِ، فَتَقُولُ الأُمَمُ: كَادَتْ هَذِهِ الأُمَّةُ أَنْ تَكُونَ أَنْبِيَاءَ كُلُّهَا..**" [(٢)] .

نَسْأَلُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُقِيْمَنَا وَالأُمَّةَ عَلَى مَا خَلَقَنَا لأَجْلِهِ، وَيُفَرِّغَنَا لِخِدْمَةِ دِيْنِهِ، وَلا يَشْغَلَنَا فِيْمَا تَكَفَّلَ لَنَا فِيْهِ، إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ .

*****

---

(١) أخرج البيهقي في «دلائل النبوة» (١/٣٨٠) عن وهب بن منبه في قصة داود النبي وما أُوْحِيَ إليه في الزبور، قال: "**يَا دَاوُدُ ! إِنَّهُ سَيَأْتِيْ مِنْ بَعْدِكَ نَبِيٌّ يُسَمَّى أَحْمَدَ ومُحَمَّداً، صَادِقاً سَيِّداً، لا أَغْضَبُ عَلَيهِ أَبَداً، ولا يُغْضِبُنِيْ أَبَداً، وقَدْ غَفَرْتُ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَعْصِيَنِيْ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ ومَا تَأَخَّرَ، وأُمَّتُهُ مَرْحُومَةٌ، أَعْطَيْتُهُم مِنَ النَّوَافِلِ مِثْلَ مَا أَعْطَيْتُ الأَنْبِيَاءَ، وَافْتَرَضْتُ عَلَيهِمُ الْفَرَائِضَ الَّتِيْ افْتَرَضْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، حَتَّى يَأْتُونِيْ يَومَ الْقِيَامَةِ نُورُهُمْ مِثْلُ نُورِ الأَنْبِيَاءِ**" .

(٢) رواه أحمد في مسنده عن ابن عباس (٢٥٤٦) و(٢٦٩٢) وأبو يعلى في مسنده (٢٣٢٨)، وأبو داوود الطيالسي في مسنده (٢٧١٠) قال الهيثمي في المجمع: رواه أبو يعلى وأحمد، وفيه علي بن زيد، وقد وثق على ضعفه، وبقية رجالهما رجال الصحيح. وقال البوصيري في «إتحاف الخيرة»: رواه ابن ماجه مختصراً بسندٍ رواته ثقات. ورواه محمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» عن أنس بن مالك بسند رجاله ثقات (٢٦٥) .



باب
فضل الإنفاق
في سبيل اللّه

الْحَدِيْثُ الْحَادِي عَشَـر

عَنْ أَبي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه قَالَ: **جَاءَ رَجُلٌ بِنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ، فَقَالَ: هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ** ﷺ : "**لَكَ بِها يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعُمِائَةِ نَاقَةٍ، كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ**" [(١)] .

قَالَ سبحانه وتعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]، هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ سبحانه وتعالى لِتَضْعِيفِ الثَّوَابِ لِمَنْ أَنْفَقَ فِي سَبِيلِهِ وابْتِغَاءَ مَرضَاتِهِ، وأَنَّ الْحَسَنَةَ تُضَاعَفُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وهَذَا الْمَثَلُ أَبْلَغُ فِي النُّفُوسِ مِنْ ذِكْرِ عَدَدِ السِّبْعِمِائَةِ، فَإِنَّ فِيهِ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ الأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ يُنَمِّيهَا اللَّهُ عز وجل لأَصْحَابِهَا كَمَا يُنَمِّي الزَّرْعَ لِمَنْ بَذَرَهُ فِي الأَرْضِ الطَّيِّبَةِ [(٢)] .

قوله (**فِي سَبِيلِ اللَّهِ**) أَيْ لإِعْلاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ، وهَذَا التَّفْسِيرُ لِهَذِهِ الكَلِمَةِ هُوَ الَّذِي بَيَّنَهُ النَّبِيُّ ﷺ حِينَمَا سُئِلَ عَنِ الرَّجلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً وَحَمِيَّةً وَرِيَاءاً، أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؟ فَقَالَ ﷺ: "**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**" [(٣)]، فهذا تَقْيِيدٌ لِلقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَنَّهُ مَا كَانَ لِهَذِهِ الغَايةِ، ولَيْسَ فِيهِ تَقْيِيدٌ لِسَبِيلِ اللَّهِ بالقِتَالِ، بَلْ سُبُلُ اللَّهِ كَثِيرَةٌ، كَمَا قَالَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما : "**إِنَّ سَبِيلَ اللَّهِ كُلُّ عَمَلٍ صَالِحٍ**" [(٤)]. وسُئِلَ مُجَاهِدٌ رحمه الله عَنْ رَجُلٍ قَالَ: كُلُّ شَيْءٍ لِيْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ: فَقَالَ مُجَاهِدٌ:" **لَيْسَ سَبِيلُ اللَّهِ وَاحِداً، كُلُّ خَيْرٍ عَمِلَهُ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** " [(٥)] .

---

(١) رواه مسلم في باب فضل الصدقة برقم (٥٠٠٥) .

(٢) «تفسير ابن كثير» (١/٣٢٦) .

(٣) رواه البخاري عن أبي موسى الأشعري (١٠٢٣) و(١٨١٠) و(٣١٣٦) و(٧٤٥٨) ومسلم (٥٠٢٨) و(٥٠٢٩) و(٥٠٣١) .

(٤) رواه البخاري في «الأدب المفرد» بسند صحيح برقم (٣٦٩) .

(٥) رواه ابن أبي شيبة مصنفه برقم (٣٠٨٣٩) .

وقَالَ الْمُنَاوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: سَبيلُ اللَّهِ هِيَ طَرِيقُ التَّقَرُّب إلى اللَّهِ بكُلِّ عَمَلٍ خَالِصٍ[(١)]. ولَكِنَّ أَفْضَلَ سُبُلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأَعْلاهَا دَرَجَةً وأَقْرَبهَا وَسِيلَةً عِنْدَ اللَّهِ هِيَ سَبيلُ الْجِهَادِ في دَعْوَةِ الْخَلْقِ إلى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بنَوعَيْهِ :

جِهَادِ الدَّعْوَةِ بِالْقُرْآنِ، وهُوَ الَّذِي سَمَّاهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جِهاداً كَبيراً .

وَجِهَادِ الدَّعْوَةِ بالسَّيْفِ وَالسِّنَانِ؛ وإِذَا أُطْلِقَتْ سَبيلُ اللَّهِ أُرِيدَ بهَا هَذِهِ السَّبيلُ بنوعَيْهَا، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ **[يوسف: ١٠٨]**، لِمَا فِيهَا مِنْ إعْلاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ وإِتْمَامِ نُورِهِ وإِخْرَاجِ النَّاسِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وهَذَا هُوَ مَقْصَدُ بعْثَةِ الأَنْبيَاءِ وإِنْزَال الْكُتُب، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ **[إبراهيم: ١]** .

فَعَلَى هَذَا مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبيلِ اللَّهِ ، سَوَاءٌ كَانَ خُرُوجُهُ لِلْقِتَالِ فِي سَبيلِ اللَّهِ، أَوْ لِطَلَب العِلْمِ وتَعْلِيمِهِ، أَوْ لِدَعْوَةِ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومَنْ أَنْفَقَ مَالَهُ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبيلِ اللَّهِ [(٢)] .

---

(١) «فيض القدير» (٤/٤٠٠) .

(٢) قَرَّرَ الْمَجْمَعُ الفِقْهِيُّ برابطة العالم الإسلاميِّ دُخُولَ الدَّعْوَةِ إلى اللَّهِ ومَا يُعِينُ عليها ويَدعَمُ أَعْمَالَهَا، كُلُّ ذَلِكَ يَدْخُلُ في معنى ﴿ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ في الآية الكريمة: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ ﴾ **[التوبة: ٦٠]** وذَلِكَ لِعِدَّةِ وُجُوهٍ:

١ .نَظَراً إلى أَنَّ هَذَا القَولَ قَدْ قَالَ بِهِ طَائِفَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ المسلمين، وأَنَّ لَهُ حَظّاً من النَّظَرِ في بعض الآيات الكريمة مثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ **[البقرة: ٢٦٢]** ومن الأحاديث الشريفة مثل ما جاء في سنن أبي داوود أَنَّ رَجُلاً جَعَلَ نَاقَةً في سَبيلِ اللَّهِ، فَأَرَادَتِ امْرَأَتُهُ الحَجَّ، فَقَالَ لَهَا النَّبيُّ ﷺ: "**ارْكَبيهَا، فَإِنَّ الحَجَّ في سَبيلِ اللَّهِ**". رواه أبو داوود عن أم معقل الأسدية (١٩٩١) وابن خزيمة في صحيحه (٢٣٧٦) وأصله في الصحيحين مختصراً .

٢ . ونَظَراً إِلَى أَنَّ القَصْدَ مِنَ الجِهَادِ بِالسِّلاحِ هُوَ إِعْلاءُ كَلِمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأَنَّ إِعْلاءَ كَلِمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَمَا يَكُونُ بِالْقِتَالِ يَكُونُ أَيْضاً بِالدَّعْوَةِ إلى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ونَشْرِ دِينِهِ بِإِعْدَادِ الدُّعَاةِ، ودَعْمِهِم ومُسَاعَدَتِهِم عَلَى أَدَاءِ مُهِمَّتِهِم=

قوله (**مَخْطُومَةٌ**) هُوَ أَنْ يُؤْخَذَ حَبْلٌ مِنْ لِيْفٍ أَوْ شَعَرٍ أَوْ كَتَّانٍ، فَيُجْعَلَ فِي أَحَدِ طَرَفَيْهِ حَلْقَةٌ، ثُمَّ يُشَدَّ بِهِ الطَّرَفُ الآخَرُ حَتَّى يَصِيرَ كَالْحَلْقَةِ ثُمَّ يُقَلَّدَ الْبَعِيرُ، ثُمَّ يُثْنَى عَلَى خِطْمِهِ - أَيْ أَنْفِهِ -، أَمَّا الَّذِي يُجْعَلُ فِي الأَنْفِ دَقِيقاً فَهُوَ الزِّمَامُ [(١)] .

قوله (**لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعُمِائَةِ نَاقَةٍ، كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ**) أَيْ يَكُونُ لَهُ فِي الجَنَّةِ بِهَا سَبْعُمِائَةِ نَاقَةٍ يَرْكَبُهَا حَيْثُ شَاءَ لِلتَّنَزُّهِ [(٢)] .

مَعْنَى الْحَدِيْثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ

بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ الَّذِي يُنْفِقُ شَيئاً مِنْ مَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ فَإِنَّهُ يُعْطَى مِنْ جِنْسِ ذَلِكَ الشَّيْءِ سَبْعَمِائَةِ ضِعْفٍ، ولَكِنْ لَيْسَ كَهَيْئَتِهِ فِي الدُّنْيَا، بَلْ عَلَى هَيْئَتِهِ فِي الجَنَّةِ، كَمَا

=فَيَكُونُ كِلا الأَمْرَينِ جِهَاداً فِي سبيل اللَّهِ، لِمَا رَوَى أحمد والنسائي وصححه الحاكم عن أنس رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "**جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ.**" (تقدم تخريجه) .

٣. ونَظَراً إِلَى أَنَّ الإِسْلامَ مُحَارَبٌ – بالغَزْوِ الفِكْرِيِّ وَالْعَقَدِيِّ مِنَ الْمَلاحِدَةِ وَاليَهُودِ وَالنَّصَارَى وسَائِرِ أَعْدَاءِ الدِّينِ – وأَنَّ لِهَؤُلاءِ مَنْ يَدْعَمُهُمُ الدَّعْمَ الْمَادِّيَّ وَالْمَعْنَوِيَّ، فَإِنَّهُ يَتَعَيَّنُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُقَاتِلُوهُم بِمِثْلِ السِّلاحِ الَّذِي يَغْزُونَ بِهِ الإِسْلامَ، وبِمَا هُوَ أَنْكَى مِنْهُ .

٤. ونَظَراً إِلَى أَنَّ الحُرُوبَ فِي البِلادِ الإِسْلامِيَّةِ أَصْبَحَ لَهَا وَزَارَاتٌ خَاصَّةٌ بِهَا، ولَهَا بُنُودٌ مَالِيَّةٌ فِي مِيزَانِيَّةِ كُلِّ دَوْلَةٍ، بِخِلافِ الجِهَادِ بالدَّعْوَةِ، فَإِنَّهُ لا يُوجَدُ فِي مِيزَانِيَّاتِ غَالِبِ الدُّوَلِ مُسَاعَدَةٌ ولا عَونٌ، لِذَلِكَ كُلِّهِ فَإِنَّ الْمَجْلِسَ يُقَرِّرُ بِالأَكْثَرِيَّةِ الْمُطْلَقَةِ دُخُولَ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ سبحانه وتعالى ومَا يُعِينُ عَلَيهَا ويَدْعَمُ أَعْمَالَهَا فِي مَعْنَى ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فِي الآية الكريمة. «قرار المجمع الفقهي برابطة العالم الإسلامي في دورته الثامنة المنعقدة في مكة المكرمة فيما بين ٢٧ ربيع الآخرة ١٤٠٥هـ و٨ جمادى الأولى ١٤٠٥هـ» .

تنبيه: لَمْ أَنْقُلْ هَذِهِ الفَتْوَى لِلاِسْتِدْلالِ عَلَى الْحُكْمِ الْمُقَرَّرِ فِيهَا، فَإِنَّهَا مَسأَلَةٌ خِلافِيَّةٌ بَينَ العُلَمَاءِ، وهناك قِسْمٌ آخَرُ مِنْ عُلَمَاءِ المسلمين يَرَونَ قَصْرَ سَهْمِ «**فِي سَبِيلِ اللَّهِ**» عَلَى الغُزَاةِ الْمُتَطَوِّعِينَ، عَلَى تَفْصِيلٍ فِي ذَلِكَ، وإِنَّمَا أَرَدْتُ الاِسْتِشْهَادَ بِأَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى اللَّهِ والجِهَادَ فِي سَبِيلِهِ مَقْصُودُهُمَا وَاحِدٌ، وهُوَ إِعْلاءُ كَلِمَةِ اللَّهِ ونَشْرُ دِينِهِ، وأَنَّ كُلاًّ مِنْهُمَا يُسَمَّى جِهَاداً فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وأَنَّ القَائِمَ بِهِمَا يَتَحَصَّلُ عَلَى مَوعُود اللَّهِ سبحانه وتعالى عَلَى الجِهَاد فِي سَبِيلِهِ .

(١) «النهاية لابن الأثير» (٢/١٢٠) .

(٢) «شرح مسلم للنووي» (١٣/٤٠) .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما :" **لا يُشْبِهُ شَيْءٌ مِمَّا فِي الْجَنَّةِ مَا فِي الدُّنْيَا إلاَّ فِي الأَسْمَاءِ**." وفي رِوَايَةٍ: "**لَيْسَ فِي الدُّنيَا مِمَّا فِي الْجَنَّةِ إلاَّ الأَسْمَاءُ** " (١) .

وقَدْ وَرَدَتْ عِدَّةُ آثَارٍ بِذِكْرِ أَوْصَافِ مَطَايَا أَهْلِ الجنَّةِ ونَجَائِبِهم وخَيْلِهم، مِنْهَا مَا رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ عَنْ عَبدِ الرَّحْمَن بن سَاعِدَةَ رضي الله عنه قَالَ: كُنتُ أُحِبُّ الْخَيْلَ، فَقُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! هَلْ فِي الْجَنَّةِ خَيْلٌ ؟ فَقَالَ: "**إنْ أَدْخَلَكَ اللهُ الْجَنَّةَ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ كَانَ لَكَ فِيْهَا فَرَسٌ مِنْ يَاقُوْتٍ، لَهُ جَنَاحَانِ، تَطِيْرُ بِكَ حَيْثُ شِئْتَ** " (٢) .

وعَنْ أَبِيْ هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: إنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ذَكَرَ الْجَنَّةَ وَالْفِرْدَوْسَ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! إنِّي رَجُلٌ حُبِّبَ إلَيَّ الْخَيْلُ، فَهَلْ فِي الْجَنَّةِ خَيْلٌ؟ فَقَالَ: "**إيْ وَالَّذِيْ نَفْسِيْ بِيَدِهِ، إنَّ فِي الْجَنَّةِ لَخَيْلاً وَإِبلاً هَفَّافَةً، تَزِفُّ بَيْنَ خِلالِ وَرَقِ الْجَنَّةِ، يَتَزَاوَرُوْنَ عَلَيْهَا حَيْثُ شَاؤُوْا** " (٣) . وعَنْ عَبدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ:" **فِي الْجَنَّةِ مِنْ عِتَاقِ الْخَيْلِ وَكِرَامِ النَّجَائِبِ، يَرْكَبُهَا أَهْلُهَا** " (٤) .

ورُوِيَ عَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ رضي الله عنه موقُوفاً قَالَ:" **إنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَزَاوَرُنَ عَلَى الْعِيْسِ الْجُوْنِ، عَلَيْهَا رِحَالُ الْمِيْسِ، وَيُثِيْرُ مَنَاسِمُهَا غُبَارَ الْمِسْكِ، خِطَامُ أَوْ زِمَامُ أَحَدِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيْهَا** " (٥) . وَالْعِيْسُ: إبِلٌ بِيْضٌ في بَيَاضِهَا ظُلْمَةٌ خَفِيَّةٌ، وَالْمَنَاسِمُ: جَمْعُ مِنْسَمٍ، وهُوَ بَاطِنُ خُفِّ الْبَعِيْرِ .

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره برقم (٥٣٤) و(٥٣٥) وقال البوصيري في «إتحاف الخيرة»: رواه مسدد موقوفاً ورواته ثقات .

(٢) رواه الطبراني في الأوسط برقم (٥٠٢٣) و قال الهيثمي في المجمع والمنذري في الترغيب: رواته ثقات .

(٣) رواه أبو نعيم في «صفة الجنة» برقم (٤٠٦) .

(٤) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه موقوفاً برقم (٣٣٩٩٠) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» موقوفاً عن أبي هريرة (٢٤٤) .

وعَنْ لَقِيْطِ بْنِ الْمُثَنَّى البَّاهِلِيِّ قَالَ: قِيلَ: يَا أَبَا أُمَامَةَ: يَتَزَاوَرُ أَهْلُ الْجَنَّةِ؟ قال: **"نَعَمْ وَاللهِ، عَلَى النَّجَائِبِ عَلَيْهَا الْمَيَاثِرُ"** (١). وَالنَّجَائِبُ: هي الرَّكَائِبُ النَّجِيْبَةُ، وَالْمَيَاثِرُ: جَمْعُ مِيْثَرَةٍ، وهي مَا يُوْضَعُ علَى الرَّكَائِبِ مِنْ دِيْبَاجٍ أَوْ حَرِيْرٍ .

فَائِـــــــــدَة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **"قَالَ اللهُ ﷻ: يَا ابْنَ آدَمَ أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ"** (٢). وهَذَا يَتَنَاوَلُ نَفَقَةَ الْمَالِ كَمَا يَتَنَاوَلُ نَفَقَةَ العِلْمِ، إِمَّا بِلَفْظِهِ وإِمَّا بِتَنْبِيْهِهِ وإِشَارَتِهِ وفَحْوَاهُ. وقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِيْ طَالِبٍ ﷺ : **"الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ، الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ، الْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الإِنْفَاقِ** – وفي روايةٍ **عَلَى الْعَمَلِ**– **وَالْمَالُ تَنْقُصُهُ النَّفَقَةُ، الْعِلْمُ حَاكِمٌ وَالْمَالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ، وَمَحَبَّةُ الْعِلْمِ دِيْنٌ يُدَانُ بِهَا، الْعِلُم يُكْسِبُ الْعَالِمَ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ وَجَمِيْلَ الأُحْدُوثَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ، وَضَيْعَةُ الْمَالِ تَزُولُ بزوَالِهِ، مَاتَ خُزَّانُ الأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ، أَعْيَانُهُمْ مَفْقُوْدَةٌ وَأَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُوْدَةٌ ... اللَّهُمَّ بكَ لَنْ تَخْلُوَ الأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ للهِ بحُجَّتِهِ لِكَيْلا تَبْطُلَ حُجَجُ اللهِ وَبَيِّنَاتُهُ، أُوْلَئِكَ الأَقَلُّ عَدَداً الأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللهِ قِيْلاً، وَبِهِمْ يَدْفَعُ اللهُ عَنْ حُجَجِهِ حَتَّى يُؤَدُّوْهَا إِلَى نُظَرَائِهِمْ، وَيَزْرَعُوهَا فِي قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ، هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقِيْقَةِ الأَمْرِ، فَاسْتَلانُوا مَا اسْتَوْعَرَ مِنهُ الْمُتْرَفُوْنَ، وَأَنسُوا بِمَا تَوَحَّشَ مِنهُ الْجَاهِلُونَ، صَحِبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانٍ أَرْوَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بِالْمَلإِ، أُوْلَئِكَ خُلَفَاءُ اللهِ فِيْ أَرْضِهِ، وَدُعَاتُهُ إِلَى دِيْنِهِ، هَاهْ هَاهْ شَوْقَاً إِلى رُؤْيَتِهِم .. "** (٣) .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه برقم (٣٣٩٩٢) .

(٢) رواه البخاري عن أبي هريرة (٤٦٨٤) ومسلم (٢٣٥٥) و(٢٣٥٦) .

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧٩/١) والخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (٧٧) وقال: هذا الحديث من أحسن الأحاديث ومن أشرفها لفظاً، وذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» (٤٧/٩) وقال: رواه جماعةٌ من الحفاظ الثقات، وفيه مواعظُ وكلامٌ حسنٌ، رضي اللهُ عن قائله .

فَقَوْلُهُ رضي الله عنه:" **الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ، الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنتَ تَحْرُسُ الْمَالَ.**" يَعْنِي أَنَّ الْعِلْمَ يَحْفَظُ صَاحِبَهُ ويَحْمِيهِ مِنْ مَوَارِدِ الْهَلَكَةِ ومَوَاقِعِ الْعَطَبِ، فَالْعَالِمُ باللهِ وبأَمْرِهِ وبعَدُوِّهِ ومَكَائِدِهِ ومَدَاخِلِهِ عَلَى العَبدِ يَحْرُسُهُ عِلْمُهُ مِنْ وَسَاوِسِ الشَّيطانِ وخَطَرَاتِهِ وإِلْقَاءِ الشَّكِّ والرَّيْبِ والكُفْرِ فِي قَلْبِهِ، فَهُوَ بعِلْمِهِ يَمْتَنِعُ مِنْ قَبُولِ ذَلِكَ، فَعِلْمُهُ يَحْرُسُهُ مِنَ الشَّيطَان، فَكُلَّمَا جَاءَ لِيَأْخُذَهُ صَاحَ بِهِ حَرَسُ الْعِلْمِ والإِيْمَانِ، فَيَرجعُ خَاسِئاً خَائِباً، وأَعْظَمُ مَا يَحْرُسُهُ مِنَ الْعَدُوِّ الْمُبِينِ الْعِلْمُ والإِيْمَانُ، فَهَذَا السَّبَبُ الَّذِي مِنَ الْعَبْدِ، وَاللهُ مِنْ وَرَاءِ حِفْظِهِ وَحِرَاسَتِهِ وكَلائَتِهِ، فمَتَى وَكَلَهُ إلى نَفْسِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ تَخَطَّفَهُ عَدُوُّهُ. قَالَ بَعضُ العَارِفِينَ: **"أَجْمَعَ الْعَارِفُونَ عَلَى أَنَّ التَّوْفِيْقَ أَلاَّ يَكِلَكَ اللهُ إلى نَفْسِكَ، وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الْخِذْلانَ أَنْ يُخَلِّيَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ نَفْسِكَ "** .

وَفَضْلُ الْعِلْمِ عَلَى الْمَالِ يُعْلَمُ مِنْ وُجُوهٍ :

أَحَدُهَا: أَنَّ العِلْمَ مِيرَاثُ الأَنبيَاءِ، والْمَالَ مِيرَاثُ الْمُلُوكِ والأَغْنِيَاءِ .

وَالثَّانِيْ: أَنَّ العلمَ يَحْرُسُ صَاحِبَهُ، وصَاحِبَ الْمَالِ يَحْرُسُ مَالَهُ .

وَالثَّالِثُ: أَنَّ الْمَالَ تُذْهِبُهُ النَّفَقَات، والعِلْمَ يَزْكُو عَلَى النَّفَقَةِ .

وَالرَّابِعُ: أَنَّ صَاحِبَ الْمَالِ إِذَا مَاتَ فَارَقَهُ مَالُهُ، والعِلْمَ يَدْخُلُ مَعَهُ قَبْرَهُ .

وَالْخَامِسُ: أَنَّ الْعِلْمَ حَاكِمٌ عَلَى الْمَالِ، والْمَالَ لا يَحْكُمُ عَلَى العِلْمِ .

وَالسَّادِسُ: أَنَّ الْمَالَ يَحْصُلُ لِلمُؤْمِنِ والكَافِرِ والْبَرِّ والفَاجِرِ، والعِلْمَ النَّافِعَ لا يَحْصُلُ إِلاَّ لِلمُؤْمِنِ .

وَالسَّابِعُ: أَنَّ الْعَالِمَ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُلُوكُ فَمَنْ دُونَهُمْ، وصَاحِبَ الْمَالِ إِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَيهِ أَصْحَابُ الْعَدَمِ والْفَاقَةِ .

وَالثَّامِنُ: أَنَّ النَّفْسَ تَشْرُفُ وتَزْكُو بجَمْعِ العِلْمِ وتَحْصِيلِهِ، وذَلِكَ مِنْ كَمَالِهَا وشَرَفِهَا، والْمَالَ لا يُزَكِّيْهَا ولا يُكَمِّلُهَا ولا يَزِيْدُهَا صِفَةَ كَمَالٍ، بَلِ النَّفْسُ تَنقُصُ وتَشُحُّ وتَبْخَلُ بجَمْعِهِ والحِرْصِ عَلَيهِ، فَحِرْصُهَا عَلَى العِلْمِ عَيْنُ كَمَالِهَا، وحِرْصُهَا عَلَى المَالِ عَيْنُ نَقْصِهَا.

وَالتَّاسِعُ: أَنَّ الْمَالَ يَدْعُوهَا إلى الطُّغْيَانِ والفَخْرِ والخُيَلاءِ، والعِلْمَ يَدْعُوهَا إِلَى التَّوَاضُعِ والْقِيَامِ بِالْعُبُودِيَّةِ، فَالْمَالُ يَدْعُوهَا إلى صِفَاتِ الْمُلُوكِ، والعِلْمُ يَدْعُوهَا إِلَى صِفَاتِ العَبِيْدِ .

وَالعَاشِرُ: أَنَّ العِلْمَ جَاذِبٌ مُوْصِلٌ لَهَا إِلى سَعَادَتِهَا الَّتِي خُلِقَتْ لَهَا، والْمَالَ حِجَابٌ بَينَهَا وبَينَهَا .

وَالْحَادِيْ عَشَرَ: أَنَّ غِنَى العِلْمِ أَجَلُّ مِنْ غِنَى الْمَالِ، فَإِنَّ غِنَى الْمَالِ بِأَمْرٍ خَارِجِيٍّ عَنْ حَقِيقَةِ الإِنْسَانِ، لَوْ ذَهَبَ فِي لَيلَةٍ أَصْبَحَ فَقِيراً مُعْدَماً، وغِنَى النَّفْسِ لا يُخْشَى عَلَيهِ الفَقْرُ، بَلْ هُوَ زِيَادَةٌ أَبَداً، فَهُوَ الْغِنَى العَالِيْ حَقِيقَةً، كَمَا قِيلَ :

غَنِيْتُ بِلا مَالٍ عَنِ النَّــاسِ كُلِّهِــمِ ... وَإِنَّ الْغِنَى الْعَالِيْ عَنِ الشَّــيْءِ لا بِــهِ

وَالثَّانِي عَشَرَ: أَنَّ الْمَالَ يَسْتَعْبِدُ مُحِبَّهُ وصَاحِبَهُ، فَيَجْعَلُهُ عَبْداً لَهُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "**تَعِسَ عَبْدُ الدِّيْنَارِ وَالدِّرْهَمِ**" [(١)]. والعِلْمَ يَسْتَعْبِدُهُ لِرَبِّهِ وخَالِقِهِ، فَهُوَ لا يَدْعُوهُ إلاَّ إلى عُبُودِيَّةِ اللهِ وَحْدَهُ .

وَالثَّالِثُ عَشَرَ: أَنَّ حُبَّ العِلْمِ وطَلَبَهُ أَصْلُ كُلِّ طَاعَةٍ، وحُبَّ الدُّنيَا والْمَالِ وطَلَبَهُ أَصْلُ كُلِّ سَيِّئَةٍ .

وَالرَّابِعُ عَشَرَ: أَنَّ قِيْمَةَ الغَنِيِّ مَالُهُ، وقِيْمَةَ العَالِمِ عِلْمُهُ، فَهَذَا مُتَقَوَّمٌ بِمَالِهِ، فَإِذَا عُدِمَ مَالُهُ عُدِمَتْ قِيْمَتُهُ وبَقِيَ بِلا قِيْمَةٍ، والعَالِمُ لا تَزُولُ قِيْمَتُهُ، بَلْ هِيَ فِي تَضَاعُفٍ وزِيَادَةٍ دائِماً.

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة (٢٨٨٦) (٢٨٨٧) (٦٤٣٥) .

وَالْخَامِسُ عَشَرَ: أَنَّ جَوهَرَ الْمَالِ مِنْ جِنْسِ جَوهَرِ البَدَنِ، وجَوهَرَ العِلْمِ مِنْ جِنْسِ جَوهَرِ الرُّوحِ، كَمَا قَالَ يُونُسُ بْنُ حَبِيب: "**عِلْمُكَ فِي رُوحِكَ، وَمَالُكَ فِي بَدَنِكَ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الأَمْرَيْنِ كَالْفَرْقِ بَيْنَ الرُّوْحِ وَالْبَدَنِ**" .

وَالسَّادِسُ عَشَرَ: أَنَّ العَالِمَ لَوْ عُرِضَ عَلَيهِ بِحَظِّهِ مِنَ العِلْمِ الدُّنْيَا بِمَا فِيْهَا لَمْ يَرْضَ عِوَضاً مِنْ عِلْمِهِ، والغَنِيَّ الْغَافِلَ إِذَا رَأَى شَرَفَ العَالِمِ وفَضْلَهُ وابْتِهَاجَهُ بالعِلْمِ وكَمَالَهُ بِهِ يَوَدُّ لَوْ أَنَّ لَهُ عِلْمَهُ بِغِنَاهُ أَجْمَعَ .

وَالسَّابِعُ عَشَرَ: أَنَّهُ مَا أَطَاعَ اللهَ أَحَدٌ إِلاَّ بِالْعِلْمِ، وعَامَّةُ مَنْ يَعْصِيهِ إِنَّمَا يَعْصِيْهِ بِالْمَالِ .

وَالثَّامِنُ عَشَرَ: أَنَّ العَالِمَ يَدْعُو النَّاسَ إِلى اللهِ بِعِلْمِهِ وحَالِهِ، وجَامِعَ الْمَالِ يَدْعُوهُمْ إِلى الدُّنْيَا بِمَالِهِ .

وَالتَّاسِعُ عَشَرَ: أَنَّ غِنَى الْمَالِ قَدْ يَكُونُ سَبَبَ هَلاكِ صَاحِبِهِ كَثِيْراً، فَإِنَّهُ مَعْشُوقُ النُّفُوسِ، فَإِذَا رَأَتْ مَنْ يَسْتَأْثِرُ بِمَعْشُوقِهَا عَلَيهَا سَعَتْ فِي هَلاكِهِ كَمَا هُوَ فِي الوَاقِعِ، وأَمَّا غِنَى العِلْمِ فَسَبَبُ حَيَاةِ الرَّجُلِ وحَيَاةِ غَيْرِهِ بِهِ، وَالنَّاسُ إِذَا رَأَوْا مَنْ يَسْتَأْثِرُ عَلَيهِم بِهِ ويَطْلُبُهُ أَحَبُّوْهُ وقَدَّمُوهُ وأَكْرَمُوهُ .

وَالْعِشْرُونَ: أَنَّ اللَّذَّةَ الحَاصِلَةَ مِنْ غِنَى الْمَالِ إِمَّا لَذَّةٌ وَهْمِيَّةٌ وَإِمَّا لَذَّةٌ بَهِيْمِيَّةٌ، فَإِنْ صَاحِبُهُ الْتَذَّ بِنَفْسِ جَمْعِهِ وتَحْصِيْلِهِ فَتِلْكَ لَذَّةٌ وَهْمِيَّةٌ خَيَالِيَّةٌ، وإِذَا الْتَذَّ بِإِنْفَاقِهِ فِي شَهَوَاتِهِ فَهِيَ لَذَّةٌ بَهِيْمِيَّةٌ .

وَالْحَادِيْ وَالْعِشْرُونَ: أَنَّ عُقَلاءَ الأُمَمِ مُطْبِقُوْنَ عَلَى ذَمِّ الشَّرَهِ فِي جَمْعِ الْمَالِ والْحَرِيصِ عَلَيهِ وتَنَقُّصِهِ والإِزْرَاءِ بِهِ، ومُطْبِقُونَ عَلَى تَعظِيمِ الشَّرَهِ فِي جَمْعِ العِلمِ وتَحْصِيلِهِ ومَدْحِهِ ومَحَبَّتِهِ ورُؤْيَتِهِ بِعَيْنِ الكَمَالِ .

وَالثّانِيْ وَالْعِشْرُونَ: أَنَّهُمْ مُطْبِقُونَ عَلَى تَعظِيمِ الزَّاهِدِ فِي الْمَالِ الْمُعْرِضِ عَنْ جَمْعِهِ الَّذِي لا يَلْتَفِتُ إِلَيهِ، ولا يَجْعَلُ قَلبَهُ عَبْداً لَهُ، ومُطْبِقُونَ عَلَى ذَمِّ الزَّاهِدِ فِي العِلْمِ الَّذِي لا يَلتَفِتُ إِلَيهِ ولا يَحْرِصُ عَلَيهِ .

وَالثَّالِثُ وَالْعِشْرُونَ: أَنَّ الْمَالَ يُمْدَحُ صَاحِبُهُ بِتَخَلِّيْهِ عَنهُ وإِخْرَاجِهِ، والعِلْمَ إِنَّمَا يُمْدَحُ بِتَحَلِّيْهِ بِهِ وَاتِّصَافِهِ بِهِ .

وَالرَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ: أَنَّ غِنَى الْمَالِ مَقْرُونٌ بالْخَوفِ والْحُزْنِ، فَهُوَ حَزِينٌ قَبلَ حُصُولِهِ خَائِفٌ بَعدَ حُصُولِهِ، وكُلَّمَا كَانَ أَكْثَرَ كَانَ الْخَوْفُ أَقْوَى، وغِنَى العِلْمِ مَقْرُونٌ بالأَمْنِ والفَرَحِ والسُّرُورِ .

وَالْخَامِسُ وَالْعِشْرُونَ: أَنَّ الغَنيَّ بِمَالِهِ لا بُدَّ أَنْ يُفارِقَهُ غِنَاهُ ويَتَعَذَّبَ ويَتَأَلَّمَ بِمُفَارَقَتِهِ، والْغَنِيَّ بالعِلمِ لا يَزُولُ ولا يَتَعَذَّبُ صَاحِبُهُ ولا يَتَأَلَّمُ، فَلَذَّةُ الغَنِيِّ بالْمَالِ لَذَّةٌ زَائِلَةٌ مُنْقَطِعَةٌ يَعْقُبُهَا الأَلَمُ، ولَذَّةُ الْغَنِيِّ بالعِلْمِ لَذَّةٌ بَاقِيَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ لا يَلْحَقُهَا أَلَمٌ .

وَالسَّادِسُ وَالْعِشْرُونَ: أَنَّ اسْتِلْذَاذَ النَّفْسِ وكَمَالَهَا بالغِنَى اسْتِكْمَالٌ بِعَارِيَّةٍ مُؤَدَّاةٌ، فَتَجَمُّلُهَا بالْمَالِ تَجَمُّلٌ بِثَوبِ مُسْتَعَارٍ لا بُدَّ أَنْ يَرجِعَ إِلى مَالِكِهِ يَوماً مَا، وأَمَّا تَجَمُّلُهَا بالعِلْمِ وكَمَالُهَا بِهِ فتَجَمُّلٌ بِصِفَةٍ ثَابِتَةٍ لَهَا رَاسِخَةٍ فِيهَا لا تُفَارِقُهَا .

وَالسَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ: أَنَّ الغِنَى بالْمَالِ هُوَ عَيْنُ فَقْرِ النَّفسِ، والغِنَى بالعِلْمِ هُوَ الغِنَى الْحَقِيقِيُّ، فَغِنَاهَا بِعِلْمِهَا هُوَ الغِنَى، وغِنَاهَا بِمَالِهَا هُوَ الْفَقْرُ .

وَالثَّامِنُ وَالْعِشْرُونَ: أَنَّ مَنْ قُدِّمَ وأُكْرِمَ لِمَالِهِ إِذَا زَالَ مَالُهُ زَالَ تَقْدِيْمُهُ وإِكْرَامُهُ، ومَنْ قُدِّمَ وأُكْرِمَ لِعِلْمِهِ لا يَزْدَادُ إِلاَّ تَقْدِيماً وإِكْرَاماً .

وَالتَّاسِعُ وَالْعِشْرُونَ: أَنَّ جَمْعَ الْمَالِ مَقْرُونٌ بِثَلاثَةِ أَنوَاعٍ مِنَ الآفَاتِ والْمِحَنِ، نَوعٌ قَبْلَهُ ونَوْعٌ عِندَ حُصُولِهِ ونَوْعٌ بَعدَ مُفَارَقَتِهِ، فَأَمَّا **النَّوعُ الأوَّلُ** فَهُوَ الْمَشَاقُّ وَالأَنْكَادُ الَّتِي لا يَحْصُلُ إِلاَّ بِهَا. وأَمَّا **النَّوعُ الثَّانِيْ** فَمَشَقَّةُ حِفْظِهِ وحِرَاسَتِهِ وتَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِهِ، فَلا يُصْبِحُ

إلاَّ مَهْمُوماً ولا يُمْسِيْ إلاَّ مَغْمُوماً. **والنَّوعُ الثَّالِثُ** مِنْ آفَاتِ الغِنَى مَا يَحْصُلُ لِلْعَبْدِ بَعْدَ مُفَارَقَتِهِ مِنْ تَعَلُّقِ قَلْبِهِ بِهِ، وكَونِهِ قَدْ حِيْلَ بَينَهُ وبَينَهُ، والْمُطَالَبَةِ بحُقُوقِهِ والْمُحَاسَبَةِ عَلَى مَقْبُوضِهِ ومَصْرُوفِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وفِيمَا أَنْفَقَهُ، وغِنَى الْعِلْمِ مَعَ سَلامَتِهِ مِنْ هَذِهِ الآفَاتِ فَهُوَ كَفِيْلٌ بِكُلِّ لَذَّةٍ وفَرْحَةٍ وسُرُورٍ، ولَكِنْ لا يُنَالُ إلاَّ عَلَى جِسْرٍ مِنَ التَّعَبِ والصَّبْرِ والْمَشَقَّةِ .

وَالثَّلاثُونَ: أَنَّ الْمَالَ لا يُرَادُ لِذَاتِهِ وعَيْنِهِ، فَإِنَّهُ لا يَحْصُلُ بِذَاتِهِ شَيْءٌ مِنَ الْمَنَافِعِ أَصْلاً، فَإِنَّهُ لا يُشْبِعُ ولا يُرْوِيْ ولا يدَفِّئُ ولا يُمَتِّعُ، وإِنَّمَا يُرَادُ لِهَذِهِ الأَشْيَاءِ، فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ طَرِيقاً إِلَيهَا أُرِيْدَ إِرَادَةَ الْوَسَائِلِ، ولَذَّاتُهُ مُنَغَّصَةٌ مَمْزُوجَةٌ بالآفاتِ ومَعْجُونَةٌ بالآلامِ، مُحْتَاطَةٌ بالْمَخَاوِفِ، وفي الغَالِبِ لا تَفِيْ آلامُهَا بطَيِّبِهَا، والقَلْبُ الَّذِي قَدْ وَجَّهَ قَصْدَهُ وإِرَادَتَهُ إلى هَذِهِ اللَّذَّاتِ لا يَزَالُ مُسْتَغْرِقاً فِي الْهُمُومِ والغُمُومِ والأَحْزَانِ، ومَا يَنَالُهُ مِنَ اللَّذَّاتِ فِي جَنبِ هَذِهِ الآلامِ كَقَطْرَةٍ فِي بَحْرٍ، وأَمَّا غِنَى العِلْمِ والإِيْمَانِ فَدَائِمُ اللَّذَّةِ، مُتَّصِلُ الْفَرْحَةِ، مُقْتَضٍ لأَنوَاعِ الْمَسَرَّةِ والْبَهْجَةِ، لا يَزُولُ فيحْزَنُ، ولا يُفَارِقُ فَيُؤْلِمُ، بَلْ أَصْحَابُهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] .

وَالْحَادِيْ وَالثَّلاثُونَ: أَنَّ غَنِيَّ الْمَالِ يُبْغِضُ الْمَوتَ ولِقَاءَ اللهِ، فَإِنَّهُ لِحُبِّهِ لَهُ يَكْرَهُ مُفَارَقَتَهُ، ويُحِبُّ بَقَاءَهُ لِيَتَمَتَّعَ بِهِ كَمَا شَهِدَ الْوَاقِعُ، أَمَّا العِلْمُ فَإِنَّهُ يُحَبِّبُ لِلْعَبْدِ لِقَاءَ رَبِّهِ، ويُزَهِّدُهُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ النَّكِدَةِ الفَانِيَةِ .

وَالثَّانِيْ وَالثَّلاثُونَ: أَنَّ الأَغْنِيَاءَ يَمُوتُ ذِكْرُهُمْ بِمَوتِهِمْ، والعُلَمَاءَ يَمُوتُونَ ويَبْقَى ذِكْرُهُمْ، كَمَا قَالَ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ رضي الله عنه فِي هَذَا الحَدِيثِ: **"مَاتَ خُزَّانُ الأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ** ". فَخُزَّانُ الأَموَالِ أَحْيَاءٌ كَأَمْوَاتٍ، والعُلَمَاءُ بَعْدَ مَوتِهِمْ أَمْوَاتٌ كَأَحْيَاءٍ .

وَالثَّالِثُ وَالثَّلاثُونَ: أَنَّ القَدْرَ الْمَقْصُودَ مِنَ الْمَالِ هُوَ مَا يَكْفِي الْعَبدَ ويُقِيْمُهُ ويَدْفَعُ ضَرُورَتَهُ حَتَّى يَتَمَكَّنَ مِنْ قَضَاءِ جَهَازِهِ فِي التَّزَوُّدِ لِسَفَرِهِ إِلَى رَبِّهِ عز وجل، فَإِذَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ

شَغَلَهُ وقطَعَهُ عَنِ السَّفرِ وعَنْ قَضَاءِ جهَازِهِ وتَعْبِئَةِ زَادِهِ، فَكَانَ ضَرَرُهُ عَلَيهِ أَكْثَرَ مِنْ مَصْلَحَتِهِ، وكُلَّمَا زَادَ غِنَاهُ بِهِ ازْدَادَ تَثْبِيطاً وتَخلُّفاً مِنَ التَّجَهُّزِ لِمَا أَمَامَهُ، وأَمَّا العِلْمُ النَّافِعُ فَكُلَّمَا ازْدَادَ مِنهُ ازْدَادَ فِي تَعْبِئَةِ الزَّادِ وقَضَاءِ الجَهَازِ وإِعْدَادِ الْمَسِيْرِ، واللَّهُ الْمُوَفِّقُ، وبِهِ الاِسْتِعَانَةُ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بِهِ، فَعُدَّةُ هَذَا السَّفرِ هُوَ العِلْمُ والعَمَلُ، وعُدَّةُ الإِقَامَةِ جَمْعُ الأَمْوَالِ والادِّخَارُ، ومَنْ أَرَادَ شَيْئاً هَيَّأَ لَهُ عُدَّتَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦] [١] .

وَالرَّابِعُ وَالثَّلاثُونَ: أَنَّ الصدَقَةَ بالعِلْمِ أَعْظَمُ نَفْعاً مِنَ الصَّدَقَةِ بالْمَالِ، وفي كُلٍّ خَيْرٌ، كَمَا أَنَّ ضَرَرَ البُخْلِ بالعِلْمِ أَشَدُّ مِنْ ضَرَرِ الْبُخْلِ بالْمَالِ؛ فَعَنْ سَعِيدِ بْنِ عَبدِ الرَّحْمَنِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبدِ العَزِيزِ رَحِمَهُ اللَّهُ كَتَبَ إِلَى الْقُرَظِيِّ: **أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ بَلَغَنِيْ كِتَابُكَ يَعِظُنِي ويُذَكِّرُنِي مَا هُوَ لِيْ حَظٌّ وعَلَيكَ حَقٌّ، وقَدْ أَصبْتَ بذَلِكَ أَفْضَلَ الأَجْرِ، إِنَّ الْمَوعِظَةَ كَالصَّدَقَةِ، بَلْ هِيَ أَعْظَمُ أَجْراً، وأَبْقَى نَفْعاً، وأَحْسَنُ ذُخْراً، وأَوْجَبُ عَلَى الْمُؤْمِنِ حَقّاً؛ وَلَكَلِمَةٌ يَعِظُ بهَا الرَّجُلُ أَخَاهُ لِيَزْدَادَ بهَا فِي هُدَىً رَغْبَةً خَيْرٌ مِنْ مَالٍ يَتَصَدَّقُ بهِ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ بِهِ إِلَيْهِ حَاجَةٌ، وَإِنَّ مَا يُدْرِكُ أَخُوكَ بمَوْعِظَتِكَ مِنَ الْهُدَى خَيْرٌ مِمَّا يَنَالُ بصَدَقَتِكَ مِنَ الدُّنْيَا، وَأَنْ يَنجُوَ أَخُوْكَ بمَوْعِظَتِكَ مِنْ هَلَكَةٍ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَنجُوَ بصَدَقَتِكَ مِنْ فَقْرٍ، فَعِظْ مَنْ تَعِظُ لِقَضَاءِ حَقٍّ عَلَيْكَ، وَاسْمَعْ كَذَلِكَ حِيْنَ تُوْعَظُ، وَكُنْ كَالطَّبِيْبِ الْمُجَرِّبِ الْعَالِمِ الَّذِي قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ إِذَا وَضَعَ الدَّوَاءَ حَيْثُ لا يَنْبَغِيْ اعْتَنَهُ وَأُعِيْبَ، وَإِذَا أَمْسَكَهُ مِنْ حَيْثُ يَنبَغِي جَهِلَ وَأَثِمَ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يُدَاوِيَ مَجْنُوناً لَمْ يُدَاوِهِ وَهُوَ مُرْسَلٌ حَتَّى يَسْتَوْثِقَ مِنهُ وَيُوَثِّقَ لَهُ خَشْيَةَ أَلاَّ يَبْلُغَ مِنهُ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَتَّقِي مِنهُ مِنَ الشَّرِّ، وَكَانَ طِبُّهُ وَتَجْرِبَتُهُ مِفْتَاحَ عِلْمِهِ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَمْ يُجْعَلِ الْمِفْتَاحُ عَلَى الْبَابِ لِكَيْ مَا يُغْلَقَ فَلا يُفْتَحَ، ولا لِيُفْتَحَ فَلا يُغْلَقَ، وَلَكِنْ لِيُغْلَقَ فِيْ حِيْنِهِ وَيُفْتَحَ فِيْ حِيْنِهِ، وَالسَّلامُ** [٢] .

---

(١) «مفتاح دار السعادة» باختصار (١/١٥٦-١٧٥) .

(٢) «الجامع في الحديث» لابن وهب (٣٣١) .

الْحَدِيثُ الثَّانِي عَشَرَ

عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "مَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً فَاضِلَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبِسَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وَمَنْ أَنْفَقَ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ أَوْ مَازَ أَذًى عَنِ الطَّرِيقِ أَوْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَحَسَنَةٌ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَالصَّوْمُ جُنَّةٌ مَا لَمْ يَخْرِقْهَا، وَمَنِ ابْتَلاهُ اللَّهُ بِبَلاءٍ فِي جَسَدِهِ فَهُوَ لَهُ حِطَّةٌ "[1] .

قوله (فَبِسَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ) لَيسَ هَذَا لِبَيَانِ نِهَايَةِ التَّضْعِيفِ، بَلْ هُوَ أَقَلُّ الْمَوعُودِ عَلَى الإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عز وجل، واللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ، وقَدْ قَالَ سبحانه وتعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقَدْ رُوِيَ عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه وغَيرِهِ مِنَ السَّلَفِ أَنَّ القَرْضَ الْحَسَنَ هُوَ النَّفَقَةُ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ[2]؛ وعَنْ أَبِي عُثْمَانَ النَّهْدِيِّ رحمه الله قَالَ: أَتَيْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ رضي الله عنه فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكَ تَقُولُ: إِنَّ الْحَسَنَةَ تُضَاعَفُ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ، قَالَ: وَمَا أَعْجَبَكَ مِنْ ذَلِكَ فَوَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُهُ - يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ - يَقُولُ: "إِنَّ اللَّهَ لَيُضَاعِفُ الْحَسَنَةَ أَلْفَيْ أَلْفِ حَسَنَةٍ". ثُمَّ تَلا هَذِهِ الآيَةَ ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، فَقَالَ: إِذَا قَالَ اللَّهُ عز وجل: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فَمَنْ يَقْدُرُ قَدْرَهُ ؟!"[3]؛ فَقَولُهُ: أَضْعَافاً كَثِيرَةً لا يُحْصِيهِ إلاَّ اللَّهُ، وقَدْ رُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِب، وأَبِي الدَّرْدَاءِ، وأَبِي هُرَيرَةَ، وأَبِي أُمَامَةَ، وعَبدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، وعَبدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، وجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، وعِمرَانَ بْنِ

---

(١) رواه أحمد في مسنده برقم (١٦٩٠) وأبو يعلى في مسنده (٨٧٨) والبيهقي في سننه واللفظ له برقم (١٩٠٣٧) وإسناده حسن .

(٢) «تفسير ابن كثير» (١/٣١٠) .

(٣) رواه أحمد في مسنده (٧٩٣٢) وقال الهيثمي في المجمع: رواه أحمد بإسنادين والبزار بنحوه، وأحد إسنادي أحمد جيد . وقال ابن كثير في تفسيره (١/٣١٠): هذا حديث غريب، وعلي بن زيد بن جدعان عنده مناكير، ولكن رواه ابن أبي حاتم من وجهٍ آخر، وذَكَرَهُ؛ ثم قال: وفي معنى هذا الحديث ما رواه الترمذي وغيره عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "مَنْ دَخَلَ السُّوقَ فَقَالَ: لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ حَيٌّ لا يَمُوتُ بِيَدِهِ الْخَيْرُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ، وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَ أَلْفِ سَيِّئَةٍ، وَرَفَعَ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ دَرَجَةٍ " .

حُصَين الْخُزَاعِيِّ ﷺ، كُلُّهُمْ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : أَنَّهُ قَالَ: "**مَن أَرْسَلَ نَفَقَةً فَي سَبيلِ اللَّهِ وَأَقَامَ فِيْ بَيْتِهِ فَلَهُ بكُلِّ دِرْهَمٍ سَبْعُمِائَةِ دِرْهَمٍ، وَمَنْ غَزَا بِنَفْسِهِ فِيْ سَبِيلِ اللَّهِ وَأَنْفَقَ فِيْ وَجْهِهِ ذَلِكَ فَلَهُ بِكُلِّ دِرْهَمٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، ثُمَّ تَلا هَذِهِ الآيَةَ** ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾"[(١)]، وبمَعنَاهُ مَا رُوِيَ عَنْ مُعَاذِ بن جَبَلٍ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: "**طُوبَى لِمَنْ أَكْثَرَ فِي الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ، فَإِنَّ لَهُ بِكُلِّ كَلِمَةٍ سَبْعِينَ أَلْفَ حَسَنَةٍ، كُلُّ حَسَنَةٍ مِنْهَا عَشَرَةُ أَضْعَافٍ، مَعَ الَّذِي لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مَنَ الْمَزِيدِ**"، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَفَرَأَيْتَ النَّفَقَةَ؟ فَقَالَ: "**النَّفَقَةُ عَلَى قَدْرِ ذلِكَ.**" قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ – أَحَدُ الرُّوَاةِ –: فَقُلْتُ لِمُعَاذٍ: إِنَّمَا النَّفَقَةُ سَبْعُمِائَةِ ضِعْفٍ، فَقَالَ مُعَاذٌ: قَلَّ فَهْمُكَ، إِنَّمَا ذَلِكَ إِذَا أَنْفَقُوهَا وَهُمْ مُقِيمُونَ فِي أَهْلِيهِمْ غَيْرَ غَزَاةٍ، فَإِذَا غَزَوْا وَأَنْفَقُوا خَبَّأَ اللَّهُ لَهُمْ مَنْ خِزَانَةِ رَحْمَتِهِ مَا يَنْقَطِعُ عَنْهُ عِلْمُ الْعِبَادِ وَصِفَتُهُمْ، فَأُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ، وَحِزْبُ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ[(٢)] .

قوله (**أَوْ مَازَ أَذىً عَنِ الطَّرِيقِ**) أَيْ أَمَاطَهُ .

قوله (**وَالصَّوْمُ جُنَّةٌ**) أَيْ وِقَايَةٌ، ووَصَفَهُ بِذَلِكَ لأَنَّهُ يَقِيْ صَاحِبَهُ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الشَّهَوَاتِ[(٣)] .

قوله (**فَهُوَ لَهُ حِطَّةٌ**) أَيْ تَحُطُّ عَنْهُ الذُّنُوبَ .

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه برقم (٢٧٦١) وقال في الزوائد: في إسناده الخليل بن عبد الله لا يعرف قاله الذهبي وابن عبد الهادي. وقال الطوسي في مستخرجه على جامع الترمذي: هذا حديث حسن. كذا قال .

(٢) رواه الطبراني في الكبير برقم (١٦٥٦٨) وقال الهيثمي في المجمع والمنذري في الترغيب: في إسناده راو لم يُسَمَّ .

(٣) النهاية لابن الأثير (٨٢٨/١) .

مَعْنَى الْحَدِيْثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ

يُبَيِّنُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ الَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ فَإِنَّهُ يُضَاعَفُ لَهُ فِي الثَّوَابِ الْحَسَنَةُ بِسَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وهَذَا أَقَلُّ الْمُضَاعَفَةِ، وقَدْ تُضَاعَفُ الحَسَنَةُ إلى مَا لا يَعْلَمُ قَدْرَهُ إلاَّ اللَّهُ ﷻ، وذَلِكَ بِحَسَبِ الإِخْلاصِ والاحْتِيَاجِ لِلنَّفَقَةِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : **"مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلا يَقْبَلُ اللَّهُ إلاَّ الطَّيِّبَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ "** [(١)] .

وسُئِلَ ﷺ عَنْ أَفْضَلِ الصَّدَقَةِ، فَقَالَ: **"جُهْدُ الْمُقِلِّ"** [(٢)]، وقَالَ ﷺ : **"سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ."** قَالُوا: وَكَيْفَ ؟ قَالَ:" **كَانَ لِرَجُلٍ دِرْهَمَانِ تَصَدَّقَ بِأَحَدِهِمَا، وَانْطَلَقَ رَجُلٌ إِلَى عُرْضِ مَالِهِ، فَأَخَذَ مِنْهُ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ فَتَصَدَّقَ بِهَا "** [(٣)] .

وهَذَا الفَضْلُ والْمُضَاعَفَةُ للإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِمَا فِيهِ مِنْ إِعْلاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ ﷻ وإِحْيَاءِ دِينِهِ، وهُوَ مَقْصَدُ بِعْثَةِ الأَنْبِيَاءِ، فَلا جَرَمَ أَنَّ الإنفاقَ في سبيلِ اللَّهِ لإِعْلاءِ كَلِمَتِهِ هُوَ أَعْظَمُ وُجُوهِ الإِنْفَاقِ فِي الخَيْرَاتِ، بَلْ إِنَّ الْمَقْصَدَ الأَسَاسِيَّ وَالْغَايَةَ العُظْمَى مِنْ إِعْطَاءِ الْمَالِ لِلْعَبْدِ أَنْ يُنْفِقَهُ لإِقَامَةِ أَوَامِرِ اللَّهِ ﷻ فِيْ نَفْسِهِ وفي غَيْرِهِ، فَيُنْفِقَ عَلَى نَفْسِهِ لِيَسْتَعِينَ عَلَى إِقَامَةِ النَّاسِ عَلَى هَذَا الْمَقْصَدِ، كَمَا قَالَ ﷺ: **"إِنَّ اللَّهَ ﷻ قَالَ: إِنَّا أَنْزَلْنَا الْمَالَ لإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ "** [(٤)] .

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة برقم (١٣٤٤) ورواه مسلم برقم (١٠١٤) .

(٢) رواه أبو داوود عن عبد الله بن حبشي الخثعمي برقم (١٤٤٩) ورواه ابن حزيمة عن أبي هريرة برقم (٢٤٤٤) والحاكم في المستدرك عنه برقم (١٥٠٩) وقال: حديث صحيح على شرط مسلم .

(٣) رواه أحمد في مسنده عن أبي هريرة برقم (٨٩١٦) والنسائي واللفظ له برقم (٢٥٤٧) والحاكم في المستدرك (١٥١٩) وقال: صحيح على شرط مسلم. وصححه ابن حبان (٣٣٤٧) .

(٤) رواه أحمد في مسنده عن أبي واقد الليثي (٢١٩٠٦) والطبراني في الكبير (٣٣٠١) و(٣٣٠٣) وقال الهيثمي في المجمع: رجال أحمد رجال الصحيح .

وقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "**لا خَيْرَ فِي مَالٍ لا يُنْفَقُ فِي سَبِيلِ اللهِ** " (١) .

ثُمَّ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مَنْ أَنْفَقَ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ فِي وُجُوهِ الخَيْرِ الأُخْرَى فَإِنَّ الحَسَنَةَ تُضَاعَفُ إِلَى عَشْرِ حَسَنَاتٍ، وأَنَّ الصَّوْمَ يَقِي الْعَبْدَ مِنَ الْمَعَاصِي وَالشَّهَوَاتِ وَمِنَ العَذَابِ فِي الآخِرَةِ، وإِنَّمَا يَقِيْ مِنَ النَّارِ لأَنَّهُ يُضْعِفُ مِنَ الشَّهَوَاتِ ويَقِي مِنْهَا، وَالنَّارُ مَحْفُوفَةٌ بالشَّهوَاتِ، فَشَبَّهَ الصَّوْمَ بجُنَّةِ الْمُقَاتِلِ الَّتِي يَتَّقِي بهَا رِمَاحَ العَدُوِّ وسِهَامَهُم، ولَكِنْ إِذَا انْخَرَقَتِ الْجُنَّةُ وَصَلَتْ سِهَامُ العَدُوِّ إِلَيْهِ مِنْ خِلالِ الْخُرُوق، وهَكَذَا الصَّوْمُ يَقِيْ الْعَبْدَ مِنَ الْمَعَاصِي وَالشَّهَوَاتِ مَا لَمْ يَتَعَرَّضْ لِلآخَرينَ بالْغِيْبَةِ وَالْكَذِبِ وغَيْرِهَا مِنَ الْمُخَالَفَاتِ الَّتِي تُضْعِفُ أَثَرَ الصَّومِ، فَإِذَا وَقَعَ فِيْهَا فَلا يَمْنَعُ الْعَبْدَ أَنْ يَقَعَ فِي سَخَطِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّ الإِبْتِلاءَ يَحُطُّ عَنِ العَبْدِ الْخَطَايَا وَيَقِيهِ مِنَ الذُّنُوب، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : "**لا يَزَالُ الْبَلاءُ يَنْزِلُ بِالْمُؤْمِنِ فِي جَسَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللهَ تَعَالَى وَمَا عَلَيْهِ خَطِيْئَةٌ** " (٢) .

فَائِـــــــدَة

إِذَا جَمَعَ الإنسانُ الْمَالَ لغَرَضٍ مُعَيَّنٍ فَإِنَّهُ يَسْهُلُ عَلَيهِ إِنْفَاقُهُ فِي ذَلِكَ الغَرَضِ، ويَشَقُّ عَلَيهِ الإِنْفَاقُ فِي غَيرِهِ، وَالصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ كَانُوا يَجْمَعُونَ الْمَالَ لِيُنْفِقُوهُ فِي سَبيلِ اللهِ لإِعْلاءِ كَلِمَتِهِ وإِحْيَاءِ دِينِهِ فِي الأَرْضِ، فَسَهُلَ عَلَيهِم إِنْفَاقُهُ فِي هَذِهِ الْوِجْهَةِ حَتَّى صَارَ إِنْفَاقُ الْمَالِ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ومَوَاضِعِ رِضَاهُ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ الإِنْفَاقِ عَلَى أَنْفُسِهِم وأَهْلِيهِم، بَلْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ لا حَقَّ لأَحَدِهِم فِي فَضْلِ مَالِهِ، وكَانُوا لا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُم أَوْلَى بِأَمْوَالِهِم مِنْ إِخوَانِهِم، وكَانُوا يَتَسَابَقُونَ فِي إِنْفَاقِ الْمَالِ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ .

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٣٧) بلفظ: " **لا خَيْرَ فِي قَوْلٍ لا يُرَادَ بِهِ وَجْهُ اللهِ، وَلا خَيْرَ فِي مَالٍ لا يُنْفَقُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلا خَيْرَ فِيمَنْ يَغْلِبُ جَهْلُهُ حِلْمَهُ، وَلا خَيْرَ فِيمَنْ يَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لائِمٍ** " .

(٢) رواه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة برقم (٧٨٧٩) وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي .

فَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّاب رضي الله عنه قَالَ : أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْماً أَنْ نَتَصَدَّقَ، فَوَافَقَ ذَلِكَ مَالاً عِنْدِي، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْماً، فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ ؟" فَقُلْتُ: مِثْلَهُ، قَالَ: وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ ؟" فَقَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَقُلْتُ: لاَ أُسَابِقُكَ إِلَى شَيْءٍ أَبَداً [(١)] .

وهَا هُوَ عُثْمَانُ رضي الله عنه يَلْتَزِمُ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ بِثَلاثِ مِئَةِ بَعِيرٍ بِأَحْلاسِهَا وأَقْتَابِهَا، وجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِأَلْفِ دِينَارٍ – وفي رِوَايَةٍ بِعَشْرَةِ آلافِ دِينَارٍ – فَفَرَّغَهَا فِي حِجْرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يُقَلِّبُهَا ويَقُولُ: "مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ" [(٢)]، قالَهَا مِرَاراً .

وتَصَدَّقَ عَبدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رضي الله عنه عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ بِشَطْرِ مَالِهِ أَرْبَعَةِ آلافٍ، ثُمَّ تَصَدَّقَ بِأَرْبَعِينَ أَلْفاً، ثُمَّ بِأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، ثُمَّ حَمَلَ عَلَى خَمْسِمِائَةِ فَرَسٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ حَمَلَ عَلَى أَلْفٍ وخَمْسِ مِائَةِ رَاحِلَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ [(٣)] .

وبَاعَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما أَرْضاً بِمِائَتَيْ نَاقَةٍ، فَحَمَلَ عَلَى مِائَةٍ مِنهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ [(٤)] .

وكَانَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ رضي الله عنها صَانِعَةً، تَدْبَغُ الْجِلْدَ وَتُخِيطُهُ وتَتَصَدَّقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ [(٥)] .

---

(١) رواه الترمذي عن زيد بن أسلم عن أبيه برقم (٣٦٧٥) وقال: حديث حسن صحيح. ورواه أبو داوود بمثله برقم (١٦٧٨) .

(٢) رواه الترمذي عن عبد الرحمن بن سمرة (٣٧٠١) وقال حديث حسن، ورواه الحاكم في المستدرك برقم (٤٥٥٣) وقال: حديث صحيح ووافقه الذهبي .

(٣) رواه ابن المبارك في «الزهد» عن الزهري (٥٢٠) والطبراني في الكبير (٢٦٥) وأبو نعيم في «الحلية» (٩٩/١) وقال الهيثمي في المجمع: هو مرسل ورجاله ثقات .

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢٩٦/١) .

(٥) رواه الطبراني في الكبير عن عائشة برقم (١٩٦٢٧) والحاكم في المستدرك (٦٧٧٦) وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي. وأصله في الصحيحين .

وَلا غرَابَةَ فِي هَذَا كُلِّهِ، فَإنَّهم رَضُوا بَيْعَةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنهُم أَنْفُسَهُمْ وأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ، وتَرَبَّوْا فِي مَدْرَسَةِ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ القَائِلِ: **"لَوْ أَنَّ لِي مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً مَا سَرَّنِي أَنْ يَأْتِيَ عَلَيَّ ثَلاثُ لَيَالٍ وَعِنْدِي مِنْهُ شَيْءٌ إلاَّ شَيْءٌ أَرْصُدُهُ لِدَيْن."** [(١)]، وَالْقَائِلِ حِينَمَا عَلِقَتْ بِهِ الأَعرَابُ يَسْأَلُونَهُ حَتَّى اضْطَرُّوْهُ إلى سَمُرَةٍ، فَخَطَفَتْ رِدَاءَهُ فوَقَفَ، فَقَالَ: **"أَعْطُونِي رِدَائِي، لَوْ كَانَ لِي عَدَدُ هَذِهِ الْعِضَاهِ نَعَماً لَقَسَّمْتُهُ بَيْنَكُمْ، ثُمَّ لا تَجِدُونِي بَخِيلاً وَلا كَذَّاباً وَلا جَبَاناً "** [(٢)] .

*****

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة برقم (٢٣٨٩) و(٦٤٤٥)ورواه مسلم عنه برقم (٢٢٤٩) ورواه البخاري عن أبي ذر برقم (٦٢٦٨) و(٦٤٤٤) ورواه مسلم عنه برقم (٢٣٥١) .

(٢) رواه البخاري عن جبير بن مطعم برقم (٣١٤٨) .

الْحَدِيثُ الثَّالِثُ عَشَر

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "**مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ**" **فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ** رضي الله عنه : **بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ ! مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ كُلِّهَا؟ قَالَ:" نَعَمْ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ**" [(١)].

وفي رِوَايَةٍ عَنْ أَبِيْ ذَرٍّ مَرْفُوعاً قَالَ: "**مَا مِنْ عَبْدٍ يُنفِقُ مِنْ كُلِّ مَالٍ لَهُ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلاَّ اسْتَقْبَلَتْهُ حَجَبَةُ الْجَنَّةِ، كُلُّهُمْ يَدْعُوهُ إِلى مَا عِندَهُ**" [(٢)] . قَالَ - يعني صَعْصَعَةَ بْنَ معاوية - وَكَيْفَ ذَاكَ؟ قَالَ: - يَعني أَبَا ذَرٍّ - **إِنْ رِحَالاً فَرَحْلَين، وَإِنْ كَانَتْ إِبِلاً فَبَعِيرَيْنِ، وَإِنْ كَانَتْ بَقَراً فَبَقَرَتَيْنِ** " [(٣)] .

قوله (**مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ**) مَعْنَاهُ عِندَ أَهْلِ العِلْمِ مَنْ أَنْفَقَ شَيئَينِ مِنْ نَوعٍ وَاحِدٍ نَحوَ دِرْهَمَين أَو دِيْنَارَين أَو فَرَسَين أَو قَمِيصَين، وقَد جَاءَ في حَدِيث أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه مَرفُوعاً: بَعِيرَين شَاتَين حِمَارَين دِرهَمَين؛ وكَذَلِكَ مَنْ صَلَّى رَكْعَتَين ومَشَى في سَبيل اللَّهِ خُطْوَتَين، أو صَامَ يومَين ونَحوُ ذَلِكَ كُلِّه، وإِنَّمَا أَرَادَ - واللَّهُ أَعْلَمُ - أَقَلَّ التَّكْرَار وأَقَلَّ وُجُوهِ الْمُدَاوَمَةِ عَلَى العَمَلِ مِنْ أَعمَالِ البِرِّ، لأَنَّ الإِثْنَينِ أَقَلُّ الْجَمْعِ، ورُوِيَ هَذَا التَّفْسِيرُ عَنِ الْحَسَنِ البِصْرِيِّ رحمه الله [(٤)] .

---

(١) رواه البخاري (١٨٩٧) و(٣٦٦٦) ورواه مسلم (٢٤١٨) و (٢٤٢٠) .

(٢) رواه أحمد في مسنده عن أبي ذر (٢١٣٧٩) وابن حبان في صحيحه (٤٦٤١) والحاكم في المستدرك (٢٤٣٩) واللفظ له وقال: حديث صحيح، ووافقه الذهبي .

(٣) قال أبو حاتم: العرب في لغتها تسمي المفردين المتلازمين زوجين، قال تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ .

(٤) «التمهيد» لابن عبد البر (١٨٥/٧) .

قوله (**فِي سَبِيلِ اللَّهِ**) قيل: هُوَ عَلَى العُمُومِ فِي جَمِيعِ وُجُوهِ الْخَيرِ، وقِيلَ هُوَ مَخْصُوصٌ بِالجِهَادِ، والأَوَّلُ أَصَحُّ وأَظْهَرُ [(١)] .

قوله (**هَذَا خَيْرٌ**) لَيسَ اسْمَ تَفْضِيلٍ، بَلِ الْمَعْنَى هَذَا خَيرٌ مِنَ الْخَيْرَاتِ، وَالتَّنْوِينُ لِلتَّعظِيمِ، أَيْ هَذَا خَيرٌ عَظِيمٌ، وبِهِ تَظْهَرُ الْفَائِدَةُ [(٢)] .

قوله(**فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلاةِ**) أَيْ إِنْ كَانَ الغَالِبُ مِنْ عَمَلِهِ الصَّلاَةَ دُعِيَ مِنْ بَابِهَا، لأَنَّهُ مَنْ أَكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ دُعِيَ بِهِ ونُسِبَ إِلَيهِ؛ فَقَولُهُ "**فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاةِ**" يُرِيدُ مَنْ أَكْثَرَ مِنهَا فنُسِبَ إِلَيهَا، لأَنَّ الْجَمِيعَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاةِ، وكَذَلِكَ مَنْ أَكْثَرَ مِنَ الْجِهَادِ ومِنَ الصِّيَامِ ومِنَ الصَّدَقَةِ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى، وإِنْ كَانَ لَهُ فِي سَائِرِ أَعْمَالِ البِرِّ حَظٌّ [(٣)] .

قوله فِي الرِّوَايَةِ الأُخْرَى (**اسْتَقْبَلَتْهُ حَجَبَةُ الْجَنَّةِ**) أَيْ خَزَنَتُهَا كَمَا جَاءَ مُفَسَّراً فِي رِوَايَةِ البُخَارِيِّ .

قَولُ أَبِي بَكْرٍ ﵁ (**يَا رَسُولَ اللَّهِ ! مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ**)، ظَاهِرُهُ أَنَّهُ لَيسَ عَلَيهِ ضَرُورَةٌ فِي أَنْ يُدعَى مِنْ غَيرِهَا، وأَنَّ الدُّعَاءَ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ يَكْفِي فِي التَّنَاهِي فِي الْخَيْرِ وَسَعَةِ الثَّوَابِ، لَكِنَّهُ مَعَ مَا فِي الدُّعَاءِ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الأَبوَابِ مِنَ الْخَيْرِ الْعَظِيمِ، هَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ جَمِيعِهَا، لأَنَّ ذَلِكَ أَكْثَرُ مِنَ الْخَيرِ وأَوْسَعُ مِنْ إِنْعَامِ اللَّهِ ﷻ عَلَى مَن أَطَاعَهُ .

---

(١) «شرح مسلم للنووي» (١١٧/٧) .
(٢) «فتح الباري» (١٤٥/٤) .
(٣) «الاستذكار» لابن عبد البر (١٤٦/٥) .

مَعْنى الْحَدِيْثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ

يُبَيِّنُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مَنْ أَنْفَقَ صِنفَين مِنْ أَصنَافِ الْمَالِ في طَاعَةِ الله ﷻ وإعْلاءِ كَلِمَتِهِ، فَإِنَّ خَزَنَةَ الجَنَّةِ تَسْتَقْبِلُهُ وتَدْعُوهُ إلى بَابِ العَمَلِ الَّذِي أَكْثَرَ مِنهُ، لأَنَّ لِكُلِّ عَامِلٍ بَاباً مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ يُدعى مِنهُ بذَلِكَ العَمَلِ، كَمَا قَالَ ﷺ :" **لِكُلِّ أَهْلِ عَمَلٍ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، يُدْعَوْنَ بِذَلِكَ الْعَمَلِ**". [(١)]، فَإِنْ غَلَبَ عَلَيهِ الإِكْثَارُ مِنَ الصَّلاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلاةِ، وهَكَذَا بَاقِي الأَعْمَال، وهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَعمَالَ البرِّ لا يُفْتَحُ جَمِيعُهَا لِكُلِّ إنسَانٍ في الأَغْلَبِ وأَنَّه إِنَّمَا فُتِحَ فِيهَا كُلِّهَا لِقَلِيلٍ مِنَ النَّاسِ، وأَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه مِنْ ذَلِكَ القَلِيلِ [(٢)] .

فَائِـــــــــدَة

كَتَبَ عَبدُ الله بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ العُمَرِيُّ العَابِدُ رحمه الله إلى الإمَامِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ رحمه الله يَحُضُّهُ عَلَى الانفِرَادِ والعَمَلِ وتَركِ مَجَالِسِ النَّاسِ في العِلْمِ، فَكَتَبَ إلَيْه مَالِكٌ رحمه الله: **"إنَّ الله تعالى قَسَّم بَيْنَ عِبَادِهِ الأَعمَالَ كَمَا قَسَّمَ الأَرْزَاقَ، فَرُبَّ رَجُلٍ فُتِحَ لَهُ في الصَّلاةِ وَلَمْ يُفتَحْ لَهُ في الصَّوْمِ، وَآخَرُ فَتَحَ اللهُ لَهُ في الْجِهَادِ وَلَمْ يَفْتَحْ لَهُ في الصَّلاةِ، وَآخَرُ فُتِحَ لَهُ في الصَّدَقَةِ وَلَمْ يُفْتَحْ لَهُ في الصِّيَامِ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ نَشْرَ العِلْمِ وَتَعْلِيمَهُ مِنْ أَفْضَلِ الأَعمَالِ، وَقَدْ رَضِيتُ بمَا فَتَحَ اللهُ لِي فِيهِ وَقَسَمَ لِي مِنهُ، وَمَا أَظُنُّ مَا أَنَا فِيهِ بِدُونِ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنَ الْعِبَادَةِ، وكِلانَا عَلَى خَيرٍ إنْ شَاءَ الله** " [(٣)] .

---

(١) رواه أحمد في مسنده مرفوعاً عن أبي هريرة برقم (٩٨٠٠) وابن أبي شيبة في مصنفه (٨٩٠٣) وسنده صحيح .

(٢) «الاستذكار» لابن عبد البر (١٤٦/٥) .

(٣) «الاستذكار (١٤٦/٥) و«سير أعلام النبلاء» (١١٤/٨) .

وقَالَ الإمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ : قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :" **إنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُؤتِي الرَّجُلَ الْعِلْمَ ولا يُؤْتِيهِ الْحِلْمَ، وَيُؤْتِيهِ الْحِلَمَ ولا يُؤْتِيهِ الْعِلْمَ، وَإِنَّ أَبَا يَعْلَى شَدَّادَ بْنَ أَوْسٍ مِمَنْ آتاهُ اللَّهُ العِلْمَ وَالْحِلمَ** " (١) .

وهكَذَا كَانَ أَصْحَابُ النَّبيِّ ﷺ، رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، فَبَعْضُهُم أُعْطِيَ قُوَّةً فِي الْحِفْظِ كَأَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَيثُ قَالَ: كُنتُ رَجُلاً مِسْكِينًا أَخْدُمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى مِلْءِ بَطْنِي، وَكَانَ الْمُهَاجِرُونَ يَشْغَلُهُمُ الصَّفْقُ بالأَسْوَاق، وَكَانَتِ الأَنصَارُ يَشْغَلُهُمُ الْقِيَامُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :" **مَنْ يَبْسُطُ ثَوْبَهُ فَلَنْ يَنسَى شَيْئاً سَمِعَهُ مِنِّي**" . فَبَسَطْتُ ثَوْبي حَتَّى قَضَى حَدِيثَهُ، ثُمَّ ضَمَمْتُهُ إِلَيَّ، فَمَا نَسِيتُ شَيْئاً سَمِعْتُهُ مِنهُ (٢) .

وكَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَحْفَظَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ،فَقَدْ رَوَى عَنِ النَّبيِّ ﷺ خَمْسَةَ آلافٍ وثَلاثَمِائةٍ وأَرْبَعَةً وَسَبْعِينَ حَدِيثاً، ومَعَ هَذَا كَانَ عَابِداً مُجَاهِداً ودَاعِياً إلى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

وهَذَا خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أُعْطِيَ ذَكَاءً وفِطنَةً وحِنْكَةً فِي أَسَالِيبِ القِتَال لَمْ يُعْطَهَا أَحَدٌ فِي زَمَانِهِ، فَكَانَ مُسْتَغْرِقاً فِي اسْتِنفَادِ جَمِيعِ طَاقَاتِهِ لِنَشرِ الدِّينِ وإعْلاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ، حَتَّى إِنَّه اشْتَغَلَ بِهِ عَنْ كَثِيرٍ مِن أَعْمَال الدِّينِ، كَمَا قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : "**لَقَدْ مَنَعَنِي كَثِيراً مِنَ الْقِرَاءَةِ الْجِهَادُ فِي سَبيلِ اللَّهِ.**" (٣)، وفي رِوَايَةٍ: "**لَقَدْ شَغَلَنِي الْجِهادُ عَنْ تَعَلُّمِ كَثِيرٍ مِنَ الْقُرْآنِ.**" وكَانَتْ شَهْوَتُهُ ونَهْمَتُهُ فِي الجِهَادِ لإعْلاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ونَشْرِ دِينِهِ، حَيثُ قَالَ: "**مَا لَيْلَةٌ تَهْدَى إلى بَيْتِي فِيهَا عَرُوسٌ أَنَا لَهَا مُحِبٌّ، أَوْ أُبَشَّرُ فِيهَا بغُلامٍ بأَحَبَّ إلَيَّ مِنْ لَيْلَةٍ شَدِيدَةِ الْجَلِيدِ فِي سَرِيَّةٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أُصَبِّحُ بهَا الْعَدُوَّ** " (٤) .

وهَذَا الفَارُوقُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أُعْطِيَ مِن مَخَافَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَظّاً عَظِيماً، فَكَانَ مِنْ أَفْقَهِ النَّاسِ بِمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ، حَتَّى إِنَّه وَافَقَ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي عِدَّةِ أُمُورٍ، يَقُولُ فِيهَا شَيَئاً

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في «الاستيعاب» عن مالك مرسلاً (١/٢٠٩) .

(٢) رواه مسلم برقم (٢٤٩٢) .

(٣) رواه أبو يعلى في مسنده عن قيس بن هاني برقم (٧١٨٨) قال الهيثمي في المجمع: رجاله رجال الصحيح .

(٤) رواه أبو يعلى في مسنده عن قيس بن حازم برقم (٧١٨٥) قال الهيثمي في المجمع: رجاله رجال الصحيح .

فَيَنْزِلُ القُرآنُ بِمُوَافَقَتِهِ، فَقَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: **لَو اتَّخَذْتَ مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلَّى، فَنَزَلَتْ** ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ **[البقرة: ١٢٥]** ، وقَالَ: **إنَّ نِسَاءَكَ يَدْخُلُ عَلَيْهِنَّ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، فَلَوْ أَمَرْتَهُنَّ بِالْحِجَابِ**، فَنَزَلَتْ آيَةُ الْحِجَاب، وقَالَ: **عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ**، فَنَزَلَتْ كَذَلِكَ. وأَمْثَالُ ذَلِكَ [١]، وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : **"جَعَلَ اللهُ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبِهِ."** [٢] ، وقَالَ ابْنُ مَسعُودٍ رضي الله عنه: **"لَوْ وُضِعَ عِلْمُ عُمَرَ فِي كِفَّةِ مِيزَانٍ وجُعِلَ عِلْمُ أَهْلِ الأَرْضِ فِي كِفَّةٍ لَرَجَحَ عِلْمُ عُمَرَ"**[٣]، وقَالَ رضي الله عنه: **"واللهِ إِنِّي لأَحْسَبُ عُمَرَ ذَهَبَ بِتِسْعَةِ أَعْشَارِ الْعِلْمِ "** [٤] .

وقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **"أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي أَمْرِ اللهِ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ، وَأَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللهِ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، أَلا إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِيناً، وإِنَّ أَمِينَ هَذِهِ الأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ."** [٥]، وفِي رِوَايَةٍ: **"وَأَقْضَاهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِيْ طَالِبٍ "** [٦] .

وقَالَ الشَّافِعِيُّ رحمه الله : **" مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً فَلْيُدَقِّقْ فِيهِ."** [٧]، فَمَنْ فُتِحَ لَهُ فِي سَبِيلٍ مِنَ السُّبُلِ الْمُوصِلَةِ إِلى اللهِ عز وجل فَلْيُدَقِّقْ فِيهِ، ولْيَتَفَرَّغْ لَهُ مَعَ قِيَامِهِ بِالوَاجِبَاتِ الأُخْرَى، ولْيَخْدُمْ دِينَهُ مِنْ خِلالِهِ، وَلْيَسْتَعْمِلْ مَا آتَاهُ اللهُ عز وجل مِنْ طَاقَاتٍ فِي التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ، وتَقْرِيبِ الْخَلْقِ إِليهِ .

*****

(١) روى معناه البخاري عن أنس بن مالك برقم (٤٠٢) و(٤٤٨٣) .

(٢) رواه الترمذي عن ابن عمر برقم (٣٦٨٢) وقال: حديث حسن .

(٣) أخرجه أبو نعيم في «تثبيت الإمامة وترتيب الخلافة» برقم (٧٢) .

(٤) المصدر السابق رقم (٧٣) .

(٥) رواه أحمد في مسنده عن أنس بن مالك (١٢٩٠٤) والترمذي في سننه (٣٧٩١) وقال: حديث حسن صحيح، والحاكم في المستدرك (٥٧٨٤) وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي .

(٦) رواه ابن ماجه عن أنس بن مالك بسند صحيح (١٥٤) .

(٧) رواه البيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى» (١/٣٧٧) .

الْحَدِيْثُ الرَّابِعُ عَشَرَ

عَنْ ثَوبَانَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنفِقُهُ الرَّجُلُ دِينَارٌ يُنفِقُهُ عَلَى عِيَالِهِ، وَدِينَارٌ يُنفِقُهُ عَلَى دَابَّتِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَدِينَارٌ يُنفِقُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ " (١) .

قوله (دِينَارٌ يُنفِقُهُ عَلَى عِيَالِهِ) فِيهِ أَفْضَلِيَّةُ الإِنْفَاقِ عَلَى العِيَال، لأَنَّ النَّفَقَةَ عَلَيهِم وَاجِبَةٌ، ولا يَقُومُ بِهَا غَيرُ الْمُنْفِق، والوَاجِبُ مُقَدَّمٌ عَلَى النَّفْل، وقَدْ جَاءَ فِي فَضْلِ إِنْفَاقِ الرَّجُلِ عَلَى مَنْ يَعُولُ وَالتَّحْذِيرِ مِنْ تَضْيِيْعِهِم أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ، مِنهَا مَا رَوَاهُ الشَّيخَانِ عَنْ أَبِي مَسعُودٍ البَدْرِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "إِذَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً يَحْتَسِبُهَا، فَهِيَ لَهُ صَدَقَةٌ." (٢)، وعَنْ سَعْدِ بنْ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ فِي حَدِيثِهِ الطَّوِيلِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:" إِنَّكَ لَنْ تُنفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلاَّ أُجِرْتَ عَلَيْهَا حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِيِّ امْرَأَتِكَ." (٣)، وعن عَبدِ اللَّهِ بن عُمَرَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :"كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْماً أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ " (٤) .

قوله (دِينَارٌ يُنفِقُهُ عَلَى دَابَّتِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) فِيهِ أَفْضَلِيَّةُ إِنْفَاقِ الْمَرْءِ عَلَى دَابَّتِهِ فِي سَبيلِ اللَّهِ، لأَنَّهَا وَسِيلَةٌ لِحَمْلِهِ وإِعَانَتِهِ عَلَى الْقِيَامِ بِنَشْرِ الدِّينِ والدِّفَاعِ عَنِ الْمُسْلِمِينَ، وسَيَأْتِي قَرِيباً فَضْلُ الإِنْفَاقِ عَلَى الخَيْلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

قوله (دِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) الْمَقصُودُ هُوَ تَجْهِيزُ الْخَارِجِينَ فِي سَبيلِ اللَّهِ بِمَا يَحْتَاجُونَهُ مِنَ الرِّكَابِ والنَّفَقَاتِ الَّتِي تُعِينُهُم عَلَى مُوَاصَلَةِ خُرُوجِهِم وَاسْتِنْفَادِ طَاقَاتِهِم فِي سَبِيلِ اللَّهِ لإِعْلاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ، كَمَا كَانَ الصَّحَابَةُ ﷺ ؛ فَهَا هُوَ

---

(١) رواه مسلم برقم (٩٩٨) والترمذي برقم (١٩٦٦) وقال: حسن صحيح. ورواه أحمد في مسنده برقم (٢٢٤٣٤).

(٢) رواه البخاري برقم (٥٥) ومسلم برقم (١٠٠٢) .

(٣) رواه البخاري برقم (٥٦) و(١٢٣٣) و(٤١٤٧) و مسلم برقم (١٦٢٨) .

(٤) رواه أحمد في مسنده برقم (٦٤٩٥) وأبو داوود برقم (١٦٩٢) والنسائي في «السنن الكبرى» (٩١٧٧) والحاكم في المستدرك (١٥١٥) وقال: صحيح الاسناد، ورواه مسلم بمعناه (٢٣٥٩) .

الصِّدِّيقُ رضي الله عنه يَأْخُذُ مَالَهُ كُلَّهُ فِي رِحْلَةِ الْهِجْرَةِ لِيُنْفِقَهُ عَلَى خَيْرِ الأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم [(١)]، وأَنْفَقَ مَالَهُ كُلَّهُ كَذَلِكَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ [(٢)]. وهَا هُوَ عُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ رضي الله عنه يَحْمِلُ عَلَى ثَلاثِمِائَةِ بَعِيرٍ بِأَحْلاسِهَا وأَقْتَابِهَا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ [(٣)]، وجَاءَ رضي الله عنه إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بِأَلْفِ دِينَارٍ حِينَ جَهَّزَ جَيْشَ العُسْرَةِ فَفَرَّغَهَا فِي حِجْرِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، فَجَعَلَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يُقَلِّبُهَا ويَقُولُ: "**مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ هذَا الْيَوم.**" [(٤)]. وهَا هُوَ عَبدُ الرَّحْمَن بنُ عَوفٍ رضي الله عنه يَتَصَدَّقُ بِشَطْرِ مَالِهِ أَرْبَعَةِ آلافٍ ثُمَّ بِأَرْبَعينَ أَلْفاً ثُمَّ بِأَرْبَعِينَ أَلفاً، ثُمَّ حَمَلَ عَلَى خَمْسمِائَةِ فَرَسٍ فِي سَبيلِ الله، ثُمَّ حَمَلَ عَلَى أَلفٍ وخَمْسمِائَةِ رَاحِلَةٍ فِي سَبِيلِ الله [(٥)]. وكَانَ بَعضُهُم يُحَامِلُ على ظَهرِهِ حَتَّى يَكْسِبَ الْمَالَ لِيُنفِقَهُ فِي سَبيلِ الله [(٦)]، ومَنْ كَانَ لا يَجِدُ النَّفَقَةَ كَانَ يَتوَلَّى وعَينَاهُ تَفِيضَانِ مِنَ الدَّمعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُ مَا يُنفِقُ فِي سَبِيلِ الله .

وقَدْ رَغَّبَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بتَجْهِيزِ مَنْ يُرِيدُ الْخُرُوجَ فِي سَبِيلِ الله عز وجل، وبَيَّنَ أَنَّهُ شَرِيكٌ لَهُ فِي الثَّوَابِ، فَقَالَ: "**مَنْ جَهَّزَ غَازِياً فِي سَبِيلِ الله فَقَدْ غَزَا.**" [(٧)]؛ وهَذَا التَّرتِيبُ فِي الأَفضَلِيَّةِ إِذَا اسْتَوَتِ الْحَالَةُ فِي الأَهْلِ ومَنْ يَصْحَبُهُ فِي الْخُرُوجِ فِي سَبِيلِ الله، أَمَّا إِذَا كَانَتْ إِحْدَى الْجِهَاتِ أَحوَجَ وَأَوْكَدَ كَمَا فِي حَالَةِ نَقْصِ الدِّينِ فِي حَيَاةِ الْمُسلِمِينَ وَالْحَاجَةِ لِدَعْوَتِهِم إلى الإِيْمَانِ والْحَاجَةِ لِدَعْوَةِ الكُفَّارِ إلى الإِسْلامِ، فَلا شَكَّ أَنَّ الإِنْفَاقَ فِي سَبِيلِ الله يَكُونُ أَفْضَلَ وأَعْظَمَ أَجْراً، لأَنَّهُ يَصِيرُ أَفرَضَ الفُرُوضِ وأَعظَمَ الوَاجِبَاتِ، ولا يَتَقَدَّمُ عَلَيهِ أَيُّ مَصْرِفٍ آخَرَ، فَإِذَا اسْتَوَتِ الْمَرَاتِبُ فَتَرتِيبُ الأَفْضَلِ كَمَا وَقَعَ فِي الحَدِيثِ .

---

(١) سيأتي تخريجه قريباً .

(٢) «تهذيب تاريخ دمشق» (١/١١) .

(٣) رواه أحمد في مسنده عن عبد الرحمن بن خباب السلمي (١٦٦٩٦) والترمذي في سننه (٣٧٠٠) والطبراني في الأوسط (٥٩١٥) .

(٤) رواه الترمذي عن عبد الرحمن بن سمرة (٣٧٠١) والحاكم في المستدرك (٤٥٥٣) وقال: صحيح الاسناد ووافقه الذهبي .

(٥) تقدم تخريجه .

(٦) رواه البخاري عن أبي مسعود (١٤١٥) ومسلم (٢٤٠٢) .

(٧) رواه البخاري عن زيد بن خالد الجهني (٢٨٤٣) ومسلم (٥٠١١) و(٥٠١٢) .

مَعْنَى الْحَدِيْثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ

بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ في هَذَا الحَدِيثِ أَنَّ جِهَاتِ إِنْفَاقِ الْمَالِ تَتَفَاوَتُ في الأَفْضَلِيَّةِ، فَبَعضُهَا أَفضَلُ مِنْ بَعضٍ، وذَلِكَ يَختَلِفُ باخْتِلافِ أَحْوَالِ الْمُسْلِمِينَ وحَاجَاتِهِمُ الدِّينيَّةِ والدُّنيَوِيَّةِ لِلإِنْفَاقِ، فَإِذَا كَانَ حَالُ الْمُسْلِمِينَ في الدَّاخِلِ مُلتَزِماً بتَعَالِيمِ الشَّرعِ الحَنِيفِ، والنَّاسُ في إِقبَالٍ عَلَى الدِّينِ فَيَكُونُ الْخُرُوجُ في سَبِيلِ اللَّهِ والإِنْفَاقُ في جِهَتِهِ فَرضاً عَلَى الكِفَايَةِ، ويَكُونُ في حَقِّ البَاقِينَ مُستَحَبّاً، ولا شَكَّ أَنَّ الإِنْفَاقَ الوَاجِبَ عَلَى مَنْ يَعُولُ الْمَرْءُ أَفْضَلُ مِنَ الإِنْفَاقِ الْمُسْتَحَبِّ، أَمَّا إِذَا نَقَصَ الدِّينُ مِنْ حَيَاةِ الْمُسْلِمِينَ وضَعُفَ الإِيْمَانُ واليَقِينُ في قُلُوبِهِم، وخَرَجَتْ سُنَنُ سَيِّدِ الْمُرسَلِينَ ﷺ مِنْ حَيَاتِهِم، وتَهَاوَنُوا في أَدَاءِ العِبَادَاتِ، وفَسَدَتْ مُعَامَلاتُهُم، وصَارَتْ حَيَاتُهُم تَبَعاً لِحَيَاةِ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ، بَلْ وَخَرَجَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الإِسْلامِ وصَارُوا مُرتَدِّينَ، فَعِندَ هَذِهِ الأَحْوَالِ لا شَكَّ أَنَّ أَفْضَلَ وِجْهَةٍ يُنفِقُ الْمَرْءُ فِيهَا مَالَهُ هِيَ في سَبِيلِ اللَّهِ، لإِعَادَةِ مَا خَرَجَ مِنَ الدِّينِ إلى حَيَاةِ الْمُسْلِمِينَ، وإِعَادَةِ مَنْ خَرَجَ مِنَ الدِّينِ إِلَيهِ، وقَدْ سَبَقَ قَولُ النَّبِيِّ ﷺ :" **مَنْ أَنفَقَ نَفَقَةً فَاضِلَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبِسَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وَمَنْ أَنْفَقَ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ أَوْ مَازَ أَذىً عَنْ طَرِيقٍ أَوْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَحَسَنَةٌ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا** " (١) .

وَالصَّحَابَةُ رضي الله عنهم هُمْ أَفْقَهُ هَذِهِ الأُمَّةِ في أَوْلَوِيَّاتِ الإِنْفَاقِ، فَهَا هُوَ أَفْقَهُ هَذِهِ الأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا ﷺ يُنْفِقُ جَمِيعَ مَالِهِ فِي رِحْلَةِ الْهِجْرَةِ، فَقَدْ أَخرَجَ ابْنُ إِسحَاقَ عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنها قَالَتْ: **لَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مَعَهُ، احْتَمَلَ أَبُو بَكْرٍ مَالَهُ كُلَّهُ مَعَهُ، خَمْسَةَ آلافِ دِرْهَمٍ أَوْ سِتَّةَ آلافِ دِرْهَمٍ، فَانْطَلَقَ بِهَا مَعَهُ. قَالَتْ: فَدَخَلَ عَلَيْنَا جَدِّي أَبُو قُحَافَةَ وَقَدْ ذَهَبَ بَصَرُهُ، فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنِّي لأُرَاهُ قَدْ فَجَعَكُمْ بِمَالِهِ مَعَ نَفْسِهِ. قَالَتْ: قُلْت: كَلاَّ يَا أَبَتِ! إِنَّهُ قَدْ تَرَكَ لَنَا خَيْرًا كَثِيراً، قَالَتْ: وَأَخَذْتُ أَحْجَارًا فَوَضَعْتُهَا فِي كُوَّةٍ فِي الْبَيْتِ الَّذِي كَانَ أَبِي يَضَعُ مَالَهُ فِيهَا، ثُمَّ وَضَعْتُ عَلَيْهَا ثوباً، ثُمَّ أَخَذْتُ بِيَدِهِ، فَقُلْت: يَا أَبَتِ! ضَعْ يَدَكَ عَلَى هذَا الْمَالِ. قَالَتْ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ، فَقَالَ**

---

(١) تقدم تخريجه .

لا بَأْسَ، إذَا كَانَ تَرَكَ لَكُمْ هَذَا فَقَدْ أَحْسَنَ، وَفِي هذَا بَلاغٌ لَكُمْ، وَلا وَاللهِ مَا تَرَكَ لَنَا شَيْئاً، وَلَكِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُسَكِّنَ الشَّيْخَ بِذلِكَ ." [(١)]، وكَذَلِكَ أَعْطَى أَبُو بَكرٍ رضي الله عنه مَالَه كُلَّهُ أَرْبَعَةَ آلافِ دِرْهَمٍ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ [(٢)]، وعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ : جِئْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعدَ خُرُوجِهِ مِنَ الطَّائِفِ بِستَّةِ أَشْهُرٍ، ثُمَّ أَمَرَهُ اللهُ بِغَزوَةِ تَبُوكَ، وَهِيَ الَّتِي ذَكَرَ اللهُ فِي سَاعَةِ العُسرَةِ، وذَلِكَ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وقَدْ كَثُرَ النِّفَاقُ، وكَثُرَ أَصْحَابُ الصُّفَّةِ – والصُّفَّةُ بَيتٌ كَانَ لأَهْلِ الفَاقَةِ يَجْتَمِعُونَ فِيهِ، فَتَأْتِيهِم صَدَقَةُ النَّبِيِّ ﷺ والْمُسْلِمِينَ، وإِذَا حَضَرَ غَزْوٌ عَمِدَ الْمُسْلِمُونَ إِلَيهِم فَاحْتَمَلَ الرَّجُلُ الرَّجُلَ أَوْ مَا شَاءَ اللهُ، فَجَهَّزُوهُم وغَزَوْا مَعَهُم وَاحْتَسَبُوا عَلَيْهِم– فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ بالنَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ والْحِسْبَةِ، فَأَنْفَقُوا احْتِسَاباً،...وأَفْضَلُ مَا تَصَدَّقَ بِهِ يومَئِذٍ أَحَدٌ عَبدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوفٍ، تَصَدَّقَ بِمِائَتَي أُوقِيَّةٍ، وتَصَدَّقَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ بِمِائَةِ أُوقِيَّةٍ، وتَصَدَّقَ عَاصِمٌ الأَنصَارِيُّ بِتِسْعِينَ وَسَقاً مِنْ تَمْرٍ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه : يَا رَسُولَ اللهِ ! إِنِّي لا أَرَى عَبدَ الرَّحْمنِ إلاَّ قَدِ احْتُوبَ، مَا تَرَكَ لأَهْلِهِ شَيَئاً، فَسَأَلَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**هَلْ تَرَكْتَ لأَهْلِكَ شَيْئاً** ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَكْثَرَ مِمَّا أُنْفِقُ وأَطْيَبَ، قَالَ: كَمْ ؟ قَال: مَا وَعَدَ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنَ الرِّزْقِ وَالْخَيْرِ" [(٣)]. ولا تَخْفَى قِصَّةُ الرَّجُلِ الأَنصَارِيِّ وزَوجَتِهِ مَعَ ضَيفِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَمَا أَطْعَمَا الضَّيْفَ وبَاتَا طَاوِيَيْنِ، فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ :" **لَقَدْ عَجِبَ اللهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا البَارِحَةَ** " [(٤)]. وجَاءَ رَجُلٌ إلى أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه وقَالَ: إِنَّ أَخِي مَاتَ وأَوصَى بِطَائِفَةٍ من مَالِهِ يتَصَدَّقُ بِهِ،

---

(١) رواه أحمد في مسنده برقم (٢٦٩٥٧) والطبراني في الكبير (١٩٧٢١) والحاكم في المستدرك (٤٢٦٧) وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في المجمع: رجال أحمد رجال الصحيح غير ابن اسحاق، وقد صرَّح بالسماع .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢/٢٨-٢٩) .

(٤) رواه البخاري عن أبي هريرة برقم (٣٥٨٧) ومسلم (٢٠٥٤) .

وقَالَ: لا تُمْضِ شَيْئاً حَتَّى تَأْتِيَ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَفِي أَيِّ شَيْءٍ تَرَى أَنْ نَجْعَلَهُ ؟ قَالَ:" **مَا مِنْ شَيْءٍ يُجْعَلُ فِيهِ خَيْرٌ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ** " [(١)] .

وهَكَذَا كَانَ الصَّحَابَةُ ﷺ يُقدِّمُون الإنفَاقَ في سَبيلِ اللَّهِ عَلَى غَيرِهِ مِنْ جهَاتِ الإنفَاق، وكَانُوا يُقتِّرُونَ في الإنْفَاق عَلَى حَاجَاتِهِم، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ كَانَ يَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ لَهُ مالٌ لا ليَتَمَتَّعَ بِهِ فِي دُنيَاهُ، بَلْ لِيُنْفِقَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لإعْلاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ ونَشرِ دِينِه، فَعَنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّاب ﷺ أَنَّهُ قَالَ يوماً لأَصْحَابِهِ: "**تَمَنَّوا**" فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَتَمَنَّى لَوْ أَنَّ هَذِهِ الدَّارَ مَمْلُوءَةٌ ذَهَباً أُنفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وأَتَصدَّقُ، وقَالَ رَجُلٌ: أَتَمَنَّى لَوْ أَنَّهَا مَمْلُوءَةٌ زَبَرْجَداً وجَوْهَراً فَأُنفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وأَتَصدَّقُ، فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: "**أَتَمَنَّى رِجَالاً عَلَى أَمْثَالِ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَسَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، وَحُذَيْفَة بْنِ الْيَمَانِ** " [(٢)]. فَأُولَئِكَ تَمَنَّوْا مَالاً يُنفِقُونَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لإعْلاءِ كَلِمَتِهِ وإقَامَةِ دِينِهِ، وأَمَّا عُمَرُ ﷺ فَتَمَنَّى رِجَالاً أُمَنَاءَ عَلَى دِينِ اللَّهِ بَاعُوا أَنْفُسَهم وأَموالَهُم لله، عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَى أَنْ يُقَدِّمُوا أَنْفُسَهُم وأَموالَهُم لإعْلاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ وإقَامَةِ دِينِهِ، فَصَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيهِ، أَدَّوُا الأَمَانَةَ وبَلَّغُوا رِسَالَةَ اللَّهِ إِلَى خَلْقِهِ، وقَدَّمُوا مُقْتَضَيَاتِ نَشرِ الدِّينِ والدِّفَاعِ عَنهُ عَلَى مُقْتَضَيَاتِ أَنْفُسِهِم وأَهْلِيهِم، فَكَانُوا مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ ﷻ فِيهِم: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ **[الأحزاب:٢٣]**، ومِنَ الَّذِينَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهِم:" **لا يَزَالُ اللَّهُ يَغرِسُ فِي هَذَا الدِّيْنِ بِغَرْسٍ يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي طَاعَتِهِ.**" [(٣)]؛ وقَالَ ﷺ:" **إِنَّ شُهَدَاءَ اللَّهِ فِي الأَرْضِ أُمَنَاءُ اللَّهِ فِي الأَرْضِ فِي خَلْقِهِ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا** " [(٤)] .

---

(١) رواه الترمذي في سننه عن أبي حبيبة الطائي (٢١٢٣) وسعيد بن منصور في سننه واللفظ له (٢٣٣٠)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح .

(٢) رواه الحاكم في المستدرك برقم (٥٠٠٥) وقال الذهبي: على شرط البخاري ومسلم .

(٣) رواه أحمد عن أبي عنبة الخولاني برقم (١٧٨٢٢) وإسناده حسن .

(٤) رواه أحمد عن أبي عنبة الخولاني برقم (١٧٨٢١) وقال الهيثمي في المجمع: رجاله ثقات .

والصَّحَابَةُ ﷺ فَهِمُوا أَنَّ الْمَالَ لِلَّهِ ﷻ ويَجِبُ إِنْفَاقُهُ لإِقَامَةِ دِينِ الله ﷻ فِي أَرْضِهِ، وَاكْتَفَوْا فِي الإِنْفَاقِ عَلَى أَنْفُسِهِم وأَهْلِيهِم بِقَدْرِ الْحَاجَةِ، فعَنْ مَالِكِ الدَّارِ مَوْلَى عُمَرَ، أَنَّ عُمَرَ بنَ الْخَطَّابِ ﷺ أَخَذَ أَرْبَعَ مِائَةِ دِينَارٍ، فَجَعَلَهَا فِي صُرَّةٍ، فَقَالَ لِلْغُلامِ: "**اذْهَبْ بِهَا إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ، ثُمَّ تَلَهَّ سَاعَةً فِي الْبَيْتِ حَتَّى تَنْظُرَ مَا يَصْنَعُ**"، فَذَهَبَ بِهَا الْغُلامُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: يَقُولُ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ: اجْعَلْ هَذِهِ فِي بَعْضِ حَاجَتِكَ، فَقَالَ: وَصَلَهُ الله وَرَحِمَهُ، ثُمَّ قَالَ: تَعَالَيْ يَا جَارِيَةُ، اذْهَبِي بِهَذِهِ السَّبْعَةِ إِلى فُلانٍ، وَبِهَذِهِ الْخَمْسَةِ إِلى فُلانٍ، حَتَّى أَنْفَدَهَا، فَرَجَعَ الْغُلامُ وَأَخْبَرَهُ، فَوَجَدَهُ قَدْ أَعَدَّ مِثْلَهَا لِمُعَاذِ بن جَبَلٍ، فَقَالَ: "**اذْهَبْ بِهَذَا إِلى مُعَاذِ بن جَبَلٍ وَتَلَهَّ فِي الْبَيْتِ حَتَّى تَنْظُرَ مَا يَصْنَعُ**"، فَذَهَبَ بِهَا إِلَيْهِ، فَقَالَ: يَقُولُ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ: اجْعَلْ هَذَا فِي بَعْضِ حَاجَتِكَ، فَقَالَ: رَحِمَهُ الله وَوَصَلَهُ، تَعَالَيْ يَا جَارِيَةُ، اذْهَبِي إِلى بَيْتِ فُلانٍ بِكَذَا، وَاذْهَبِي إِلى بَيْتِ فُلانٍ بِكَذَا، فَاطَّلَعَتِ امْرَأَةُ مُعَاذٍ، فَقَالَتْ: نَحْنُ وَالله مَسَاكِينُ فَأَعْطِنَا – وَلَمْ يَبْقَ فِي الْخِرْقَةِ إِلاَّ دِينَارَانِ – فَدَحَى بِهِمَا إِلَيْهَا، وَرَجَعَ الْغُلامُ إِلى عُمَرَ فَأَخْبَرَهُ فَسُرَّ بِذَلِكَ، وَقَالَ:"**إِنَّهُمْ إِخْوَةٌ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ** " (١).

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ عَامِرٍ الْجُمَحِيِّ ﷺ، قَالَ: بَلَغَ عُمَرَ ﷺ أَنَّهُ لا يَدَّخِرُ فِي بَيْتِهِ مِنَ الْحَاجَةِ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِعَشْرَةِ آلافٍ فَأَخَذَهَا ، فَجَعَلَ يُفَرِّقُهَا صُرَرًا ، فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ : أَيْنَ تَذْهَبُ بِهَذِهِ، قَالَ : أَذْهَبُ بِهَا إِلى مَنْ يُرَجِّحُ لَنَا فِيهَا ، فَمَا أَبْقَى مِنْهَا إِلاَّ شَيْئًا يَسِيرًا، فَلَمَّا نَفِدَ الَّذِي كَانَ عِنْدَهُمْ ، قَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ : اذْهَبْ إِلى بَعْضِ أَصْحَابِكَ الَّذِينَ أَعْطَيْتَهُمْ يُرَجِّحُونَ لَكَ فَخُذْ مِنْ أَرْبَاحِهِمْ، وَجَعَلَ يُدَافِعُهَا ويُمَاطِلُهَا حَتَّى طَالَ ذلِكَ ، فَقَالَ :

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٦٤٧٦) وقال المنذري في الترغيب: رواته إلى مالك الدار ثقات مشهورون، ومالك الدار لا أعرفه. وقال الهيثمي في المجمع: مالك الدار لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. قلت: ذكره ابن حبان في الثقات. وقال الحافظ في الإصابة : مالك بن عياض مولى عمر، وهو الذي يقال له مالك الدار، له إدراكٌ، وسمع من أبي بكر الصديق رضي الله عنه، روى عن الشيخين ومعاذ وأبي عبيدة، روى عنه ابناه عَوْنٌ وعبد الله، وأبو صالح السمَّان؛ وذكره ابن سعد في الطبقة الأولى من التابعين في أهل المدينة وقال: كان معروفاً، وقال علي بن المديني: كان مالك الدار خازناً لعمر .

سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:" **لَوْ أَنَّ حَوراءَ أَطْلَعَتْ أُصْبُعاً مِنْ أَصابعِها لَوَجَدَ رِيْحَهَا كُلُّ ذِي رُوحٍ، فَأَنَا أَدعُهُنَّ لَكُنَّ ؟! وَاللَّهِ لأَنْتُنَّ أَحَقُّ أَنْ أَدَعَكُنَّ لَهُنَّ مِنْهُنَّ لَكُنَّ** " (١) .

فَهَؤُلاءِ زَادَتْهُمْ أَمْوَالُهُم قُرْباً مِنَ اللَّهِ ورِفْعَةً فِي دَرَجَاتِهِم، وانْتَشَرَ بِهَا الإِسْلامُ فِي مَشَارِقِ الأَرضِ ومَغَارِبِهَا، ودَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً .

ولَمَّا أَسَاءَتِ الأُمَّةُ هَذَا الفَهْمَ، وَاعْتَقَدَتْ أَنَّها حُرَّةُ التَّصرُّفِ فِي أَمْوَالَهَا، وأَنْفَقَتْهَا عَلَى شَهَوَاتِهَا وَاسْتَغْرَقَتْ فِيهَا، وأَرَادَتْ أَنْ تَعيشَ جَنَّتَهَا وتَتَعجَّلَ طَيِّبَاتِهَا فِي حَيَاتِهَا الدُّنيَا تَقْلِيداً لِلكُفَّارِ، تَوَقَّفَ انْتِشَارُ الدِّينِ، وخَرَجَ الدِّينُ مِنْ حَيَاةِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَمَنْ قَامَ فِي زَمَانٍ مِنَ الأَزمِنَةِ بِإِحْيَاءِ مَا كَانُوا عَلَيهِ مِنَ الطَّرَائِقِ فِي إِنْفَاقِ الْمَالِ فَقَدْ حَازَ قَصَبَ السَّبَقِ، ونَالَ شَرَفاً تعجزُ الخَلائِقُ عن نَيلِهِ، وكَانَ مِنَ السَّابِقِينَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ ﷻ فِيهِم: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [الواقعة: ١٠- ١١]، قَالَ عُثمَانُ بنُ أَبِي سَودَةَ:" **هُمْ أَوَّلُهُمْ رَوَاحاً إلى الْمَسْجِدِ، وَأَوَّلُهُمْ خُرُوجاً فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ." (٢)، وكَذَلِكَ يُقَالُ: أَوَّلُهُم إِنفَاقاً فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ويَكُونُ مِنَ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمُ النَّبِيُّ ﷺ : "**لِكُلِّ قَرْنٍ مِنْ أُمَّتِي سَابِقُونَ** " (٣) .

ويُصِيبُهُم مَا وَعَدَ اللَّهُ ورَسُولُهُ مِنَ الفَضْلِ العَظِيمِ لِمَنْ أَحْيَا سُنَّةً قَدْ أُمِيتَتْ، حَيثُ قَالَ ﷺ: "**مَنْ أَحْيَا سُنَّةً مِنْ سُنَّتِي قَدْ أُمِيتَتْ بَعْدِي فَإِنَّ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلَ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً** "(٤). وقَالَ ﷺ:" **مَنْ أَحْيَا سُنَّتِي فَقَدْ أَحَبَّنِي، وَمَنْ أَحَبَّنِي كَانَ مَعِي فِي الْجَنَّةِ** " (٥). جَعَلَنَا اللَّهُ ﷻ مِنهُم بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ .

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٥٣٧٨) وقال الهيثمي في المجمع: رجاله ثقات .

(٢) مصنف ابن أبي شيبة برقم (١٩٣٣٩) .

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» عن عبد الله بن عمرو بسند صحيح (٨/١) .

(٤) رواه الترمذي في سننه عن بلال بن الحارث (٢٦٧٧) وابن ماجه (٢١٠) وقال الترمذي: حديث حسن .

(٥) رواه الترمذي في سننه عن أنس بن مالك (٢٦٧٨) وقال: حديث حسن .

فائـــــــدة

قَال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾ [القصص: ٧٧]. بيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ في هَذِهِ الحَيَاةِ أَنْ يَبتَغِيَ في كُلِّ شَيْءٍ أَعطَاهُ إِيَّاهُ الدَّارَ الآخِرَةَ، فَيصْرِف جُهْدَهُ ووقْتَهُ ومَالَهُ ونَشاطَهُ وشبَابَهُ وصِحَّتَهُ وقُوَّتَهُ وفَرَاغَهُ في مِرضَاتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ والرُّقِيِّ في دَرَجَاتِ الآخِرَةِ؛ وحَتَّى يَستَطِيعَ مُواصَلَةَ هَذِهِ الْمَسِيرَةِ والْقِيَامَ بهَا لا بُدَّ لَهُ مِنْ وَسَائِلَ تُعِينُهُ عَلَى هَذَا الْمَقصَدِ، وذَلِكَ بحُكْمِ الطَّبِيعَةِ البَشَرِيَّةِ، فَلا بُدَّ لَهُ مِنْ كَسب لِيَأْكُلَ ويَشْرَبَ ويَنْكِحَ ويَسْكُنَ، فَهَذِهِ الوَسَائِلُ إِنْ أَعَانَتْ عَلَى هَذَا الْمَقصَدِ وهُوَ ابْتِغَاءُ مَرضَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والدَّارِ الآخِرَةِ فَنِعْمَتِ الْوَسَائِلُ هِيَ، وتَأْخُذُ نَفْسَ حُكْمِ الْمَقْصَدِ في الأَجْرِ والثَّوَابِ، كَمَا قَالَ ﷺ: "**فَإِنَّ أَحَدَكُمْ فِي صَلاةٍ مَا كَانَ يَعْمِدُ إلى الصَّلاةِ.**" [(١)]، فلَمَّا كَانَ مَشْيُهُ إلى الصَّلاةِ وَسِيلَةً لأَدَائِهَا أَخَذَ حُكْمَهَا .

وقَالَ مُعَاذٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "**أَتَقَوَّى بنَوْمَتِي عَلَى قَوْمَتِي، ثُمَّ أَحْتَسِبُ نَوْمَتِي بمَا أَحْتَسِبُ بهِ قَوْمَتِي** " [(٢)]، فلَمَّا كَانَ نَومُهُ وَسِيلَةً يَتَقَوَّى بهَا عَلَى قِيَامِ اللَّيلِ أَخَذَ حُكْمَهُ في الأَجْرِ والثَّوَابِ .

وهَكَذَا جَمِيعُ الوَسَائِلِ لَهَا نَفْسُ أَحْكَامِ الْمَقَاصِدِ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَيهَا، أَمَّا إِذَا اتُّخِذَتِ الْوَسَائِلُ مَقَاصِدَ وغَايَاتٍ، وصَارَ جَمعُ الْمَالِ والاِشْتِغَالُ في الدُّنيَا مَقصُوداً لِذَاتِهِ، وأَعَاقَ عَنِ الْقِيَامِ بوَاجِبَاتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ الْمُتَعَلِّقَةِ بالْمَالِ والنَّفْسِ، وصَدَّ عَنِ الْقِيَامِ بالْمَسؤُولِيَّةِ الْمَنُوطَةِ بِهَذِهِ الأُمَّةِ في نَشْرِ الدِّينِ، فَبِئْسَتِ الْوَسَائِلُ هِيَ، ويَكُونُ ذَلِكَ سَبَباً في خَسَارَةِ الإِنْسَانِ في الدُّنيَا والآخِرَةِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٩].

---

(١) رواه أحمد في مسنده عن أبي هريرة برقم (١٠٨٤٧) وإسناده صحيح .

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه عن أبي موسى برقم (١٠٧١) وإسناده صحيح .

وإلى هذا أشارَ قولُهُ ﷻ: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾، قَالَ عَونُ بنُ عَبدِ اللهِ رَحِمَهُ اللهُ: "**إنَّ أَقْوَاماً يَضَعُونَهَا عَلَى غَيرِ مَوْضِعِهَا، وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنيَا أَنْ تَعمَلَ بطَاعَةِ الله** " [(١)]، وقَالَ جُمهُورُ الْمُفَسِّرِينَ: "**لا تَنْسَ أَنْ تُقَدِّمَ مِنْ دُنْيَاكَ لآخِرَتِكَ، فإنَّمَا تَجِدُ فِي آخِرَتِكَ مَا قَدَّمْتَ مِنَ الدُّنيَا مِمَّا رَزَقَكَ اللهُ** " [(٢)] .

وهَذَا هُوَ نَصِيبُ الإنْسَانِ مِنَ الدُّنيَا الَّذِي يَبقَى بَعدَ الْمَوتِ، ولَعَلَّ قَولَ النَّبيِّ ﷺ: "**وَلَكِنْ سَاعَةً فَسَاعَةً** "، يُشِيرُ إلى ذَلِكَ، أَيْ سَاعَةً تَقْضِيهَا فِي الْمَقْصَدِ وهُوَ عَمَلُ الآخِرَةِ، وسَاعَةً تَقْضِيهَا فِي وَسِيلَةٍ تُعِينُكَ عَلَى عَمَلِ الآخِرَةِ، فَإنَّ إجْمَامَ الرُّوحِ وتَرْوِيْحَ الْقَلْبِ وَسِيلَةٌ تُزِيلُ الْمَلَلَ والسَّآمَةَ عَنِ الْعَبدِ، فَيُقْبِلُ عَلَى عَمَلِ الآخِرَةِ بانْشِرَاحٍ واسْتِئْنَاسٍ وفَرَاغِ قَلْبٍ، وعِندَهَا لا تَكُونُ هَذِهِ الوَسِيلَةُ مِنَ الدُّنيَا بَل تَكُونُ مِنْ عَمَلِ الآخِرَةِ، كَمَا قَالَ وَهْبُ ابْنُ مُنَبِّهٍ رَحِمَهُ اللهُ: إنَّ فِي حِكْمَةِ آلِ دَاوُودَ عِبْرَةً: "**يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ اللَّبِيْبِ أَنْ لا يَشْغَلَ نَفْسَهُ إلاَّ فِي أَرْبَعِ سَاعَاتٍ، سَاعَةٍ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ، وسَاعَةٍ يُحَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ، وسَاعَةٍ يَلْقَى فِيهَا إخْوَانَهُ الَّذِينَ يَنْصَحُونَهُ فِي نَفْسِهِ ويُخْبِرُونَهُ بعُيُوبِهِ، وسَاعَةٍ يَخْلُو بَيْنَ نَفْسِهِ وبَيْنَ لَذَّاتِهَا فِيمَا يَحِلُّ ويُجْمِلُ، فَإنَّ هَذِهِ السَّاعَةَ عَوْنٌ عَلَى هَذِهِ السَّاعَاتِ، وَاسْتِجْمَامٌ لِلْقُلُوبِ، وفَضْلٌ وبُلْغَةٌ** " [(٣)] .

وسُئِلَ أَبُو صَفوَانَ الرُّعَينِيُّ رَحِمَهُ اللهُ عَنِ الدُّنيَا الَّتِي ذَمَّهَا اللهُ فِي القُرآنِ، والَّتِي يَنبَغِي لِلعَاقِلِ أَنْ يَتَجَنَّبَهَا فَقَالَ: "**كُلُّ مَا أَصَبْتَ فِي الدُّنيَا تُرِيدُ بِهِ الدُّنيَا فَهُوَ مَذمُومٌ، وَكُلُّ مَا أَصَبْتَ فِيهَا تُرِيْدُ بِهِ الآخِرَةَ فَلَيْسَ مِنهَا** " [(٤)] .

---

(١) «تفسير الطبري» (٢٧٦٠٩) .

(٢) رواه ابن أبو حاتم في تفسيره عن عبد الرحمن بن أسلم (١٧٨٦٨) وروى مثله عن ابن عباس قال:" **أَنْ تَعمَلَ فِيهَا لآخِرَتِكَ**." وعن مجاهد قال:" **أَنْ تَعمَلَ فِيهَا بطَاعَتِي وَلآخِرَتِكَ**." ونقل قول الجمهور الشوكاني في «فتح القدير» (٤/٢٦٦) .

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣١٣) ومعمر بن راشد في «جامعه» (٣٩٥) وهناد في «الزهد» (١٢٢٦) .

(٤) «تاريخ مدينة دمشق» لابن عساكر (٣٠٦/٦٦) وذكره ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» ص (٤٣٠) .

وقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: "مَتَاعُ الْغُرُورِ هُوَ مَا يُلْهِيكَ عَنْ طَلَبِ الآخِرَةِ، وَمَا لَمْ يُلْهِكَ فَلَيْسَ بِمَتَاعِ الْغُرُورِ، وَلَكِنَّهُ مَتَاعُ بَلاغٍ إِلى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنهُ " (١) .

وقَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه: "الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ لَيْسَتْ مِنَ الدُّنيَا، إِنَمَا هِيَ مِنَ الآخِرَةِ، لأَنَّهَا تُفَرِّغُكَ لَهَا " (٢) .

وقَالَ أَبُو سُلَيمَانَ الدَّارَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: "الدُّنيَا حِجَابٌ عَنِ اللهِ لأَعْدَائِهِ، وَمَطِيَّةٌ مُوصِلَةٌ إِلَيْهِ لأَوْلِيَائِهِ، فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ شَيْئاً وَاحِداً لِلاِتِّصَالِ بِهِ وَالانقِطَاعِ عَنهُ " (٣) .

ورُوِيَ بِهَذَا الْمَعنَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:" نِعْمَتِ الدَّارُ الدُّنيَا لِمَنْ تَزَوَّدَ مِنهَا لآخِرَتِهِ حَتَّى يُرْضِيَ رَبَّهُ، وَبِئْسَتِ الدَّارُ لِمَنْ صَدَّتهُ عَنْ آخِرَتِهِ، وَقُصِدَتْ بِهِ عَنْ رِضَا رَبِّهِ " (٤) .

وعَنْ أَيْفَعَ بْنِ عَبْدٍ الْكَلاعِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:"إِنَّ اللهَ لَمَّا أَدْخَلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ، قَالَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ؟ قَالُوا: لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، قَالَ: لَنِعْمَ مَا اتَّجَرْتُمْ في يَوْمٍ أَوْ بَعْضِ يَوْمٍ، رَحْمَتِي وَرِضْوَانِي وَجَنَّتِي، امْكُثُوا فِيهَا خَالِدِينَ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ النَّارِ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ؟ قَالُوا: لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، فَيَقُولُ: بِئْسَ مَا اتَّجَرْتُمْ فِي يَوْمٍ أَوْ بَعْضِ يَوْمٍ، نَارِي وَسُخْطِي، امْكُثُوا فِيهَا خَالِدِينَ مُخَلَّدِينَ " (٥) .

---

(١) «جامع العلوم والحكم» ص (٤٣٠) .

(٢) «قوت القلوب» (٢/٤٠٥) .

(٣) «جامع العلوم والحكم» ص (٤٣٠) .

(٤) رواه الحاكم في المستدرك عن طارق بن أشيم برقم (٧٨٧٠) وقال: صحيح الاسناد وتعقبه الذهبي فقال: بل منكر وقال ابن الجوزي في «العلل المتناهية»: هذا حديث لا يصح عن رسول ﷺ وإنما يروي هذا الكلام عن عَلِيٍّ رضي الله عنه.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره مرسلاً (١٤٨٩٢) وأبو نعيم في «الحلية» (٥/١٣٢) وذكره ابن كثير في تفسيره (٣/٢٦٤) .

وقَالَ الحَسَنُ البصْريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"نعْمَتِ الدَّارُ كَانَتِ الدُّنيَا لِلمُؤْمِنِ، وَذلِكَ أَنَّهُ عَمِلَ قَلِيلاً، وأَخَذَ زَادَهُ مِنْهَا إلى الْجَنَّة، وَبِئْسَتِ الدَّارُ كَانَتْ لِلكَافِرِ والْمُنَافِقِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ ضَيَّعَ لَيَالِيَهُ، وَكَانَ زَادُهُ مِنهَا إلى النَّارِ "** [(١)] .

فَمَا أُخِذَ مِنَ الدُّنْيَا بنِيَّةِ التَّقَوِّي عَلَى طَلَبِ الآخِرَةِ فَهُوَ دَاخِلٌ في قِسمِ إرَادَةِ الآخِرَةِ والسَّعْيِ لَهَا، لا في إرَادَةِ الدُّنيا والسَّعيِ لَهَا [(٢)]، وسُئِلَ الْحَسَنُ البصْريُّ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ فَقَالَ:" **أَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ مَالِهِ قَدْرَ عِيشَتِهِ، وَأَنْ يُقَدِّمَ مَا سِوَى ذَلِكَ لآخِرَتِهِ "** [(٣)] .

*****

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (١٦٣٧) .

(٢) «جامع العلوم والحكم» ص(٤٣٠) .

(٣) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره عن سلام بن مسكين (١٧٨٧٠) .

الْحَدِيْثُ الْخَامِسُ عَشَــرَ

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَفْضَلُ الصَّدَقَاتِ ظِلُّ فُسْطَاطٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَنِيحَةُ خَادِمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ طَرُوقَةُ فَحْلٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ " [١] .

قوله (ظِلُّ فُسْطَاطٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) أَيْ أَنْ يَمْنَحَ الْخَارِجَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خيمَةً يَستَظِلُّ بِهَا، سَوَاءٌ خَرَجَ لِلْغَزْوِ أَوْ لِلدَّعْوَةِ أَوْ لِطَلَبِ الْعِلْمِ أَوْ لِلْحَجِّ أَوْ نَحْوِهَا، وسَوَاءٌ مَنَحَهُم عَلَى سَبيلِ الْهِبَةِ أَوِ الإِعَارَةِ أَوْ الاسْتِظْلالِ أَوْ عَلَى وَجْهِ الْمُشَارَكَةِ [٢]. وقَالَ ﷺ: "مَنْ أَظَلَّ رَأْسَ غَازٍ أَظَلَّهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ جَهَّزَ غَازِيًا حَتَّى يَسْتَقِلَّ كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ حَتَّى يَمُوتَ أَوْ يَرْجِعَ " [٣] .

قوله (وَمَنِيحَةُ خَادِمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) أَيْ أَنْ يَمْنَحَ مَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَادِماً يَخْدُمُهُ، سَوَاءٌ وَهَبَهُ إِيَّاهُ أَوْ أَقْرَضَهُ أَوْ أَعَارَهُ، والْخَادِمُ يَقَعُ عَلَى الذَّكَرِ وَالأُنْثَى [٤] .

قوله (أَوْ طَرُوقَةُ فَحْلٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) أَيْ نَاقَةٌ أَوْ فَرَسٌ بَلَغَتْ أَنْ يَطْرُقَهَا الْفَحْلُ، يُعْطِيهِ إِيَّاهَا لِيَرْكَبَهَا إِعَارَةً أَوْ هِبَةً [٥]، ويَدخُلُ فِيهَا أَيُّ نَوعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الرَّكَائِبِ. والطَّرُوقَةُ هِيَ الْحِقَّةُ الَّتِي بَلَغَتْ ثَلاثَ سِنِينَ ودَخَلَتْ فِي الرَّابِعَةِ [٦] .

---

(١) رواه أحمد في مسنده برقم (٢٢٣٢١) والترمذي برقم (١٦٢٧) واللفظ له وقال: حديث حسن صحيح، والحاكم في المستدرك (٢٤٥٢) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي .

(٢) أشار إلى هذا العموم في «سَبِيلِ اللَّهِ » وفي «الْمَنِيحَةِ» الملا علي القاري في «مرقاة المفاتيح» (٧/٣٥٨) .

(٣) رواه أحمد في مسنده عن عمر بن الخطاب (١٢٦) و(٣٧٦) والبيهقي في سننه (١٨٣٥٢) وفي «شعب الإيمان» (٤٢٧٦) والحاكم في المستدرك (٢٤٤٧) وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي .

(٤) «فيض القدير» للمناوي (٢/٥٧) .

(٥) المصدر السابق .

(٦) ذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢/١٦٤) .

مَعْنَى الْحَدِيْثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ

يُبَيِّنُ النَّبيُّ ﷺ أَنَّ أَفْضَلَ الصَّدَقَاتِ ثَوَاباً عَنْدَ اللهِ ﷻ مَا تَعَدَّى نَفْعُهَا لِلآخَرِينَ في دِيْنِهِم ومَا يُعِينُ عَلَى الْقِيَامِ بِهِ، فَإِنَّ إِعَانَةَ الْخَارِجِ في سَبِيلِ اللهِ لإِعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ وَنَشْرِ دِينِهِ بِإِظْلالِهِ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ، أَوْ بِإِعَانَتِهِ بِخَادِمٍ يَخْدُمُهُ في سَفَرِهِ، أَوْ رَكُوبَةٍ تَحْمِلُهُ، كُلُّ ذَلِكَ يَتَعَدَّى نفعُهُ لِلْخَارِجِ نَفْسِهِ وللآخَرِينَ، لِمَا في الْخُرُوجِ في سَبيلِ اللهِ لِدَعوَةِ الخَلْقِ إلى اللهِ مِنَ الأَثَرِ في هِدَايَةِ الخَلْقِ ودُخُولِهِم في رَحْمَةِ اللهِ ونَجَاتِهِم مِنْ عَذَابِهِ، لِذَلِكَ كَانَ النَّبيُّ ﷺ يَحُثُّ عَلَى التَّصدُّقِ بالفَاضِلِ مِنَ الْمَالِ والدَّوَابِّ، لِمَا في ذَلِكَ مِنَ الأَثَرِ في تَجْهِيزِ الْخَارِجِينَ في سَبِيلِ اللهِ، وزِيَادَةِ تَسَارُعِ انْتِشَارِ الإِسْلامِ، فَعَنْ أَبِيْ سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ ﷺ: "**مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ**- أَيْ رَكُوبَةٌ فَاضِلَةٌ عَنْ حَاجَتِهِ- **فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ ظَهْرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلُ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لا زَادَ لَهُ**". قَالَ أَبُو سَعِيدٍ رضي الله عنه: فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ، حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لاَ حَقَّ لأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ [(١)] .

وهَكَذَا كَانَ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم يَتَصَدَّقُونَ بالفَاضِلِ مِنَ الْمَالِ وَالدَّوَابِّ، بَلْ كَانُوا لا يَرَوْنَ أَنْفُسَهُم أَحَقَّ بِمَا لَدَيهِم مِنَ الْمَالِ والدَّوابِّ مِنْ إخوانِهِم، فَانْتَشَرَ الدِّينُ فِي مَشَارِقِ الأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا عَلَى قِلَّةِ أَسْبَابِهِم. قَالَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما : "**أَتَى عَلَيْنَا زَمَانٌ وَمَا يَرَى أَحَدٌ مِنَّا أَنَّهُ أَحَقُّ بِالدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ مِنْ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ، وَإِنَّا فِي زَمَانٍ الدِّينَارُ وَالدِّرْهَمُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ أَخِينَا الْمُسْلِمِ.**" [(٢)]، وقَالَ حُذَيْفَةُ رضي الله عنه: "**لَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَرَى أَحَدُنَا أَنَّهُ أَحَقُّ بِدِينَارِهِ وبِدِرْهَمِهِ مِنْ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ** " ثُمَّ قَالَ: "**لَقَدْ طَالَ بِي عُمُرٌ حَتَّى أَدْرَكْتُكُمْ، وَالدِّرْهَمُ وَالدِّينَارُ أَحَبُّ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ** " [(٣)] .

---

(١) رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري برقم (٤٦١٤) .

(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (١١١) والطبراني في الكبير (١٣٥٨٣) قال الهيثمي في المجمع: راوه الطبراني بأسانيد وبعضها حسن. ونقله ابن القطان في «بيان الوهم والإيهام» عن «الزهد» لأحمد بن حنبل، وقال: حديث صحيح ورجاله ثقات .

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في «تهذيب الآثار» (٣٤٥) .

وكَانُوا إذَا خرَجُوا في سَبيلِ اللَّهِ تَعاوَنُوا، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ مَا يُجهِّزُ بِهِ إخْوَانَهُ ويَحْمِلُهُم عَلَيهِ جَهَّزَهُم وحمَلَهُم، كَمَا تَقدَّمَ في تَجْهيزِ عُثْمانَ ﷺ جَيْشَ الْعُسرَةِ وحَمْلِهِ عَلَى ثَلاثِمائَةِ بَعِيرٍ، وحَمْلِ عَبدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوفٍ ﷺ عَلَى خَمْسِمِائَةِ رَاحِلَةٍ ثُمَّ أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةِ رَاحِلَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

ثُمَّ مَنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مَا يُجهِّزُ بِهِ إخْوَانَهُ ضَمَّ إلَيهِ عَدَداً مِنْ إخْوَانِهِ الَّذِينَ لا مَالَ لَدَيْهِم لِيُعِينَهُم عَلَى خُرُوجِهِم، كَمَا قَالَ النَّبيُّ ﷺ لأَصْحَابِهِ يَوْماً:" **يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرينَ وَالأَنْصَارِ! إنَّ مِنْ إخْوَانِكُمْ قَوْماً لَيْسَ لَهُمْ مَالٌ وَلا عَشِيرَةٌ، فَلْيَضُمَّ أَحَدُكُمْ إلَيْهِ الرَّجُلَيْنِ أَوِ الثَّلاثَةَ.**" قَالَ جَابِرٌ ﷺ: فَمَا لأَحَدِنَا مِنْ ظَهْرِ جَمَلِهِ إلاَّ عُقْبَةٌ كَعُقْبَةِ أَحَدِهِم [(١)] .

ثُمَّ مَنْ كَانَ لا يَسْتَطِيعُ الخُرُوجَ بِنَفْسِهِ لِعُذْرٍ جَهَّزَ الخَارِجينَ بِمَالِهِ أَوْ خَلَفَهُمْ في أَهْلِيهِم بِخَيْرٍ، حَتَّى لا تَفُوتَهُ فَضِيلَةُ خِدْمَةِ الدِّينِ بِأَيِّ طَرِيْقَةٍ كَانَتْ، كَمَا قَالَ النَّبيُّ ﷺ حِينَمَا بَعَثَ بَعْثاً إلى بَنِي لِحْيَانَ:" **لِيَخْرُجْ مِنْ كُلِّ رَجُلَيْنِ رَجُلٌ، وَالأَجْرُ بَيْنَهُمَا.**" وقَالَ لِلْقَاعِدِ: "**أَيُّكُمْ خَلَفَ الْخَارِجَ فِي أَهْلِهِ كَانَ لَهُ مِثْلُ نِصْفِ أَجْرِ الْخَارِجِ** " [(٢)] .

وقَالَ ﷺ لِفَتَىً مِنْ أَسْلَمَ أَرَادَ الْخُرُوجَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ولَيْسَ لَهُ مَالٌ يَتَجَهَّزُ بِهِ:" **اذْهَبْ إلى فُلانٍ الأَنْصَارِيِّ ، فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ تَجَهَّزَ فَمَرِضَ، فَقُلْ لَهُ : إنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُقْرِئُكَ السَّلامَ ، وَيَقُولُ لَكَ: أَعْطِنِي مَا تَجَهَّزْتَ بِهِ** "، فَقَالَ لامْرَأَتِهِ : يَا فُلانَةُ ، ادْفَعِي إلَيْهِ مَا جَهَّزتِني بِهِ، وَلا تَحْبِسِي عَنْهُ شَيْئًا ، فَإِنَّكِ وَاللَّهِ إنْ حَبَسْتِ عَنهُ شَيْئًا لا يُبَارِكُ اللَّهُ لَكِ فِيهِ [(٣)] .

---

(١) رواه أحمد في مسنده عن جابر برقم (١٤٨٦٣) وأبو داوود برقم (٢٥٣٦) والحاكم في المستدرك برقم (٢٤٥١) وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي .

(٢) رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري (٥٠١٦) وأحمد في مسنده (١٣١٦٠) واللفظ له .

(٣) رواه مسلم عن أنس بن مالك برقم (٥٠١٠) .

فَائِـــــــــدَة

عَنْ كَعْب بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "**مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ**" [١]، وفي رِوَايَةٍ: "**مَا ذِئْبَانِ ضَارِيَانِ جَائِعَانِ بَاتَا فِي زَرِيبَةِ غَنَمٍ أَغْفَلَهَا أَهْلُهَا يَفْتَرِسَانِ وَيَأْكُلانِ بِأَسْرَعَ مِنهَا فَسَاداً مِنْ حُبِّ الْمَالِ وَالشَّرَفِ فِي دِينِ الْمُسْلِمِ**" [٢]. أَيْ أَنَّ الحِرْصَ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ والْجَاهِ أَكْثَرُ إِفْسَاداً لِدِينِ الْعَبْدِ مِنْ إِفْسَادِ الذِّئْبَيْنِ لِلْغَنَم، أَمَّا الْمَالُ فَلأَنَّهُ يُحَرِّكُ دَاعِيَةَ الشَّهْوَةِ ويَجُرُّ إِلَى التَّنَعُّمِ فِي الْمُبَاحَاتِ الْمُثْقِلِ عَنِ الْعِبَادَةِ وَالدَّعْوَةِ، كَمَا قَالَ ﷺ : "**إِنَّ عِبَادَ اللَّهِ لَيْسُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ**" [٣]. ورُبَّمَا يَعْجِزُ عَنْ كَسْبِ الْحَلال، فَلا يَجدُ سَبِيلاً لِقَضَاءِ شَهْوَتِهِ إِلاَّ فِي الْحَرَامِ، فَيَصِيرُ لا يَعْرِف مَعْرُوفاً ولا يُنْكِرُ مُنْكَراً إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ؛ مَعَ مَا فِي التَّوَسُّعِ فِي الْمُبَاحَاتِ مِنَ الاِشْتِغَال عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْوَظَائِفِ الدِّينِيَّةِ، وأَمَّا الْجَاهُ فَكَفَى بِهِ إِفْسَاداً أَنَّ الْمَالَ يُبْذَلُ لِلْجَاهِ، وهُوَ أَعْظَمُ إِفْسَاداً مِنَ الْمَالِ، فَإِنَّ مَعْنَاهُ الْعُلُوُّ وَالْكِبْرِيَاءُ وَالعِزُّ، وهِيَ لا تَنْبَغِي إِلاَّ لِلَّهِ ﷻ .

فَيَتَلَخَّصُ مِنْ هَذَا أَنَّ أَهَمَّ سَبَبٍ يُفْسِدُ دِينَ الْعَبْدِ هُوَ الحِرْصُ، وهُوَ عَلَى نَوْعَيْنِ :

أَحَدُهُمَا : الْحِرْصُ عَلَى الشَّهْوَةِ الظَّاهِرِيَّةِ كَالْمُلْكِ وَالْمَالِ .

وَالثَّانِيْ : الْحِرْصُ عَلَى الشَّهْوَةِ الْخَفِيَّةِ كَالشَّرَفِ وَالْمَكَانَةِ وَالرُّتْبَةِ .

---

(١) رواه أحمد في مسنده برقم (١٥٧٨٤) و(١٥٧٩٤) والترمذي (٢٣٧٦) وقال: حديث حسن صحيح .

(٢) رواه الطبراني في الكبير عن أبي هريرة (٣٢٠) وفي الأوسط (٧٧٢) وفي الصغير (٩٤٣) وأبو يعلى في مسنده (٦٤٤٩) قال المنذري في الترغيب والهيثمي في المجمع: إسناده جيد .

(٣) رواه أحمد في مسنده (٢٢١٠٥) (٢٢١١٨) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦١٧٨) وقال المنذري في الترغيب والهيثمي في المجمع: رجاله ثقات .

فَسَبَبُ خِذْلانِ إِبْلِيسَ وفَسَادِ دِيْنِهِ هُوَ حِرْصُهُ عَلَى الشَّهْوَةِ الْخَفِيَّةِ الْمُتَمَثِّلَةِ بِرَفْضِهِ السُّجُودَ لآدَمَ عليه السلام تَكَبُّراً مِنْهُ وحِرْصاً عَلَى مَكَانَتِهِ وشَرَفِهِ الْمَزْعُومِ، وسَبَبُ خُرُوجِ آدَمَ عليه السلام مِنَ الْجَنَّةِ هُوَ حِرْصُهُ عَلَى الشَّهْوَةِ الظَّاهِرِيَّةِ الْمُتَمَثِّلَةِ بالأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ حِرْصاً مِنْهُ عَلَى الْبَقَاءِ فِي الْمُلْكِ والنَّعِيمِ، وسَبَبُ حِرْمَانِ هِرَقْلَ مِنْ دُخُولِ الإِسْلامِ هُوَ الحِرْصُ عَلَى الشَّهْوَةِ الظَّاهِرِيَّةِ الْمُتَمَثِّلَةِ بالْمُلْكِ والْمَالِ، حَيْثُ أَقَرَّ بِنُبُوَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، ولَكِنَّهُ خَشِيَ زَوَالَ مُلْكِهِ، وسَبَبُ خِذْلانِ كِسْرَى وحِرْمَانِهِ مِنْ دُخُولِ الإِسْلامِ تَكَبُّرُهُ وتَغَطْرُسُهُ وأَنَفَتُهُ أَنْ يُكْتَبَ اسْمُ النَّبِيِّ ﷺ فِي رِسَالَتِهِ إِلَيْهِ قَبْلَ اسْمِهِ، فَقَامَ بِتَمْزِيقِ الرِّسَالَةِ؛ وهَذَا هُوَ السَّبَبُ الَّذِي لأَجْلِهِ حُرِمَ أَبُو جَهْلٍ مِنْ دُخُولِ الإِسْلامِ، حَيْثُ قَالَ لِلْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ يَوْماً بَعْدَمَا دَعَاهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الإِسْلامِ، فَقَالَ: "**واللهِ إِنِّي لأَعْلَمُ أَنَّ مَا يَقُولُ حَقٌّ، وَلَكِنْ يَمْنَعُنِي شَيْءٌ، أَنَّ بَنِي قُصَيٍّ قَالُوا: فِيْنَا الْحِجَابَةُ، فَقُلْنَا: نَعَمْ، ثُمَّ قَالُوا: فِيْنَا السِّقَايَةُ، فَقُلْنَا: نَعَمْ، ثُمَّ قَالُوا: فِيْنَا النَّدْوَةُ، فَقُلْنَا: نَعَمْ، ثُمَّ قَالُوا: فِيْنَا اللِّوَاءُ، فَقُلْنَا: نَعَمْ، ثُمَّ أَطْعَمُوا وَأَطْعَمْنَا، حَتَّى إِذَا تَحَاكَّتِ الرُّكَبُ قَالُوا: مِنَّا نَبِيٌّ، وَاللهِ لا أَفْعَلُ**" [1] .

فَلِهَذَا كَانَ لِزَاماً عَلَى الْمُسْلِمِ الَّذِي يُرِيدُ سَلامَةَ دِيْنِهِ مِنَ الْفَسَادِ أَنْ يَجْتَهِدَ لِتَزْكِيَةِ نَفْسِهِ مِنْ هَذَا الدَّاءِ الخَطِيرِ الَّذِي جُبِلَتِ النَّفْسُ البَشَرِيَّةُ عَلَيْهِ، فَيَتَخَلَّصَ مِنْ حِرْصِهِ عَلَى الْمَالِ بإِنْفَاقِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ عز وجل وفِي وُجُوهِ الخَيْرِ، كَمَا قَالَ سبحانه وتعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وكَذَلِكَ يَتَخَلَّصُ مِنَ الْحِرْصِ عَلَى الشَّرَفِ وَالْمَكَانَةِ بِمُخَالَطَةِ الضُّعَفَاءِ وَالْمَسَاكِيْنِ وَمُجَالَسَتِهِم، كَمَا أُمِرَ النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ، حَيثُ قَالَ سبحانه وتعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨]، وهَذَانِ الأَمْرَانِ - أَعْنِي الْخُلُوصَ مِنَ الْحِرْصِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ - يَتَحَصَّلُ عَلَيْهِمَا الْمُسْلِمُ بِخُرُوجِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ بِمَالِهِ وَنَفْسِهِ، ولا يَتَسَنَّى لَهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِهِجْرَتِهِ مَحْبُوبَاتِهِ لِتَعَلُّمِ مَحْبُوبَاتِ اللهِ سبحانه وتعالى، والقِيَامِ بِهَا وإِقَامَةِ النَّاسِ عَلَيْهَا .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه عن المغيرة بن شعبة (٣٥٨٢٩) والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/٢٠٧) وابن إسحاق في سيرته (٢٧٤) (١٩١/٤) وذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» (٦٥/٣) .

فَالصَّحَابَةُ ﭬ لَمْ يُخَاطَبُوا بِـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ إلاَّ بَعْدَ هِجْرَتِهِم جَمِيعَ مَحْبُوبَاتِهِم مِنْ آبائِهِم وأَبْنَائِهِم وإِخْوَانِهِم وأَزْوَاجِهِم وعَشَائِرِهِم وأَمْوَالِهِم وتِجَارَاتِهِم ومَسَاكِنِهِم وأَوْطَانِهِم [(١)] .

وهَذَا أَمْرٌ مَعْقُولٌ، فَإِنَّ الإِنْسَانَ لا يَتَحَصَّلُ عَلَى نَصِيبٍ مِنْ مَحَبَّةِ مَحْبُوبٍ إلاَّ بَعْدَ بَذْلِهِ مَهْرَ هَذِهِ الْمَحَبَّةِ مِنْ مَحْبُوبٍ آخرَ، وقَدْ بَيَّنَ الفُقَهَاءُ في قَوَاعِدِهِم قَاعِدَةً تُبيِّنُ هَذَا، وهِيَ أَنَّ **الْمَشْغُولَ لا يُشْغَلُ**، أَيْ أَنَّهُ لا يُمْكِنُ أَنْ يُشْغَلَ بِغَيْرِ مَا اشْتَغَلَ بِهِ إلاَّ بَعْدَ تَفْرِيغِهِ مِنْهُ، وهَذَا أَمْرٌ شَرْعِيٌّ وعَقْلِيٌّ، فَالْمَرْأَةُ الْمُتَزَوِّجَةُ مَشْغُولَةٌ بِعَقْدِ نِكَاحٍ مَعَ رَجُلٍ، فَلا يُمْكِنُ أَنْ تَشْتَغِلَ بِعَقْدٍ آخرَ مَعَ رَجُلٍ آخرَ حَتَّى تَتَفَرَّغَ مِنَ العَقْدِ الأَوَّلِ؛ وَالإِنَاءُ الْمَشْغُولُ حَيِّزُهُ بِسَائِلٍ لا يُمْكِنُ أَنْ يُشْغَلَ حَيِّزُهُ بِسَائِلٍ آخرَ حَتَّى يُفَرَّغَ مِمَّا فِيْهِ .

وهَكَذَا قَلْبُ الإنسانِ وعَاءٌ، إِذَا اشْتَغَلَ بِمَحَبَّةِ الْمَخْلُوقِ وَاسْتَغْرَقَ فِيهَا وبِمَحَبَّةِ الدُّنْيَا والحِرْصِ عَلَى شَهَوَاتِهَا الظَّاهِرِيَّةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ بِحَيْثُ تَتَرَبَّعُ عَلَى عَرْشِ قَلْبِهِ، فَلا يُمْكِنُ لِهَذَا القَلْبِ أَنْ يَشْتَغِلَ بِمَحَبَّةِ الخَالِقِ ولا بِمَحْبُوبَاتِهِ ولا بالاِسْتِعْدَادِ لِلآخِرَةِ والتَّنَافُسِ فِيهَا، وَالتَّسَابُقِ في التَّرَقِّي في مَدَارِجِهَا إلاَّ بَعْدَ تَفْرِيغِ القَلْبِ مِمَّا قَدِ اشْتَغَلَ بِهِ مِنْ حُبِّ الْمَخْلُوقِ وَالدُّنْيَا، كَمَا قَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : **"حَرَامٌ عَلَى قُلُوبِكُم أَنْ تُصِيبَ حَلاَوَةَ الإِيْمَانِ، حَتَّى تَزْهَدُوا في الدُّنيَا."** [(٢)]، وقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:" **حُزْنُ الدُّنْيَا لِلدُّنْيَا يَذْهَبُ بِهَمِّ الآخِرَةِ، وفَرَحُ الدُّنْيَا لِلدُّنْيَا يَذْهَبُ بِحَلاوَةِ الْعِبَادَةِ.**"، وقَالَ مَالِكُ بْنُ دِيْنَارٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: "**بِقَدْرِ مَا تَحْزَنُ لِلدُّنْيَا كَذَلِكَ يَخْرُجُ هُمُّ الآخِرَةِ مِنْ قَلْبِكَ، وبِقَدْرِ مَا تَحْزَنُ لِلآخِرَةِ كَذَلِكَ يَخْرُجُ هَمُّ الدُّنْيَا مِنْ قَلْبِكَ.**"، وقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:" **إِنَّ الْبَدَنَ إِذَا سَقِمَ لَمْ يَنْجَعْ فِيهِ طَعَامٌ وَلا شَرَابٌ وَلا نَومٌ وَلا رَاحَةٌ، كَذَلِكَ الْقَلْبُ إِذَا عَلِقَ حُبُّ الدُّنْيَا لَمْ تَنْجَعْ فِيهِ الْمَوَاعِظُ.**"، وقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:" **حُزْنُكَ عَلَى الدُّنْيَا يُخْرِجُ حُزْنَ الآخِرَةِ مِنْ قَلْبِكَ، وفَرَحُكَ**

---

(١) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٥/٩٣ - ٩٤) .

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/٩٤) وأخرجه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (٤٦٤) وفي «ذم الدنيا» (٣٧٥) عن عمران القصير .

بالدُّنْيَا يُخرِجُ حَلاوَةَ الآخِرَةِ مِنْ قَلْبكَ."، وقَالَ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الْحَوَارِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "**مَنْ نَظَرَ إلى الدُّنْيَا نَظَرَ إِرَادَةٍ وحُبٍّ لَهَا أَخْرَجَ اللَّهُ نُورَ الْيَقِينِ وَالزُّهْدِ مِنْ قَلْبِهِ.**"، وقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:" **إذَا سَكَنَتِ الدُّنْيَا فِي الْقَلْبِ تَرَحَّلَتْ مِنْهُ الآخِرَةُ.**"، وقَالَ أَبُو حَازِمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: "**يَسِيرُ الدُّنْيَا يَشْغَلُ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الآخِرَةِ** "[(١)] .

فَلا بُدَّ مِنْ بيئةٍ يَتِمُّ فِيهَا تَخْلِيَةُ القَلْبِ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ وإِرَادَةِ الدُّنْيَا وتَحْلِيَتُهُ بمَحَبَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وإِرَادَةِ الدَّارِ الآخِرَةِ، لأَنَّهُ لا يُمْكِنُ لِلْقَلْبِ أَنْ يَطْمَئِنَّ بغَيرِ ذَلِكَ، بَلْ يَبْقَى مَشْغُولاً مَهْمُوماً كَالْعَبْدِ الَّذِي فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ مُتَخَاصِمُونَ يَسْعَى لإِرْضَائِهِم ولا سَبيلَ لِذَلِكَ، فَلا يُمْكِنُ لَهُ أَنْ يَهْنَأَ إلاَّ إذَا اجْتَمَعَ قَصْدُهُ عَلَى سَيِّدٍ وَاحِدٍ مُسَالِمٍ، كَمَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ **[الزمر: ٢٩]**، فَهَذَا مَثَلٌ لِمَنِ اشْتَغَلَ قَلْبُهُ بغَيْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لا يَطْمَئِنُّ عَلَى حَالٍ إلاَّ إذَا تَفَرَّغَ قَلْبُهُ مِنَ الأَغْيَارِ وَالأَنْدَادِ، وَاشْتَغَلَ قَلْبُهُ باللهِ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا قِيلَ: "**القَلْبُ بَيْتُ اللَّهِ الْمُقَدَّسُ، إذَا دَخَلَ فِيهِ غَيرُ اللَّهِ تَنَجَّسَ.**" وقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ :

وَالقَلْبُ بَيْتُ الرَّبِّ جَلَّ جَلالُهُ   حُبًّا وَإِخْلاصاً مَعَ الإِحْسَانِ[(٢)] .

"فَالْقَلْبُ لا يُفْلِحُ ولا يَصْلُحُ ولا يَتَنَعَّمُ ولا يَبْتَهِجُ ولا يَلْتَذُّ ولا يَطْمَئِنُّ ولا يَسْكُنُ إلاَّ بعِبَادَةِ رَبِّهِ وحُبِّهِ والإِنَابَةِ إِلَيْهِ، ولَوْ حَصَلَ لَهُ جَمِيعُ مَا يَلْتَذُّ بِهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ لَمْ يَطْمَئِنَّ إِلَيْهَا وَلَمْ يَسْكُنْ إِلَيْهَا، بَلْ لا تَزِيدُهُ إلاَّ فَاقَةً وقَلَقاً، حَتَّى يَظْفَرَ بمَا خُلِقَ لَهُ وهُيِّئَ لَهُ مِنْ كَونِ اللَّهِ وَحْدَهُ نِهَايَةَ مُرَادِهِ وغَايَةَ مَطَالِبِهِ، فَإِنَّ فِيهِ فَقْراً ذَاتِيّاً إلى رَبِّهِ وإِلَهِهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ مَعْبُودُهُ ومَحْبُوبُهُ وإِلَهُهُ ومَطْلُوبُهُ، كَمَا أَنَّ فِيهِ فَقْراً ذَاتِيّاً إِلَيْهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ رَبُّهُ وخَالِقُهُ

---

(١) ذكر هذه الآثار البيهقي في الزهد الكبير من رقم (٢٤٩) إلى (٢٥٥) .

(٢) «القصيدة النونية» لابن القيم (٢/٣٢٣) .

ورَازِقُهُ ومُدَبِّرُهُ، وكُلَّمَا تَمَكَّنَتْ مَحَبَّةُ اللَّهِ مِنَ القَلْبِ وقَوِيَتْ فِيْهِ أَخْرَجَتْ مِنْهُ تَأَلُّهَهُ لِمَا سِوَاهُ وَعُبُودِيَّتَهُ لَهُ " (١) .

وقَالَ سَهْلٌ التَّسْتُرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "**حَرَامٌ عَلَى قَلْبٍ أَنْ يَشُمَّ رَائِحَةَ الْيَقِينِ وَفِيْهِ سُكُونٌ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ، وَحَرَامٌ عَلَى قَلْبٍ أَنْ يَدْخُلَهُ النُّورُ وَفِيْهِ شَيْءٌ مِمَّا يَكْرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ**"(٢).
"وَلا تَدْخُلُ مَحَبَّةُ اللَّهِ فِيْ قَلْبٍ فِيهِ حُبُّ الدُّنْيَا إِلاَّ كَمَا يَدْخُلُ الْجَمَلُ فِيْ سَمِّ الإِبْرَةِ" (٣)، "وَالْقُلُوبُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِالشَّهَوَاتِ مَحْجُوبَةٌ عَنِ اللَّهِ بِقَدْرِ تَعَلُّقِهَا " (٤) .

"فَلَيْسَ فِي الْكَائِنَاتِ شَيْءٌ غَيْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَسْكُنُ القَلْبُ إِلَيْهِ، وَيَطْمَئِنُّ بِهِ، وَيَأْنَسُ بِهِ، وَيَتَنَعَّمُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَيْهِ، ومَنْ عَبَدَ غَيْرَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَحَصَلَ لَهُ بِهِ نَوْعُ مَنْفَعَةٍ ولَذَّةٍ، فَمَضَرَّتُهُ بِذَلِكَ أَضْعَافُ أَضْعَافِ مَنْفَعَتِهِ، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ أَكْلِ الطَّعَامِ الْمَسْمُومِ اللَّذِيذِ؛ وكَمَا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَوْ كَانَ فِيْهِمَا آلِهَةٌ غَيْرُ اللَّهِ لَفَسَدَتَا، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[الانبياء:٢٢]، فَكَذَلِكَ القَلْبُ إِذَا كَانَ فِيْهِ مَعْبُودٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَسَدَ فَسَاداً لا يُرْجَى صَلاحُهُ إِلاَّ بِأَنْ يَخْرُجَ ذَلِكَ الْمَعْبُودُ مِنْهُ، ويَكُونَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَحْدَهُ إِلَهَهُ ومَعْبُودَهُ الَّذِي يُحِبُّهُ ويَرْجُوهُ ويَخَافُهُ ويَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ ويُنِيْبُ إِلَيْهِ " (٥) .

"وَخَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْقُلُوبَ وجَعَلَهَا مَحَلاًّ لِمَعْرِفَتِهِ ومَحَبَّتِهِ وإِرَادَتِهِ، فَهِيَ عَرْشُ الْمَثَلِ الأَعْلَى الَّذِي هُوَ مَعْرِفَتُهُ ومَحَبَّتُهُ وإِرَادَتُهُ، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [النحل : ٦٠]، وقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الروم: ٢٧]، وقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾

---

(١) «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» ص (٥٤٦) .
(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في «الزهد والرقائق» برقم (٩) .
(٣) «الفوائد» لابن القيم ص (١٤٣) .
(٤) المصدر السابق ص (١٤٢) .
(٥) «إغاثة اللهفان» ص (٣٠) .

[الشورى: ١١]، فَهَذَا مِنَ الْمَثَلِ الأَعْلَى، وَهُوَ مُسْتَوٍ عَلَى قَلْبِ الْمُؤْمِنِ، فَهُوَ عَرْشُهُ، وإنْ لَمْ يَكُنْ أَطْهَرَ الأَشْيَاءِ وَأَنْزَهَهَا وأَبْعَدَهَا مِنْ كُلِّ دَنَسٍ وخَبَثٍ لَمْ يَصْلُحْ لاِسْتِوَاءِ الْمَثَلِ الأَعْلَى عَلَيْهِ مَعْرِفَةً ومَحَبَّةً وإِرَادَةً، فَاسْتَوَى عَلَيْهِ مَثَلُ الدُّنْيَا الأَسْفَلِ ومَحَبَّتُهَا وإِرَادَتُهَا والتَّعَلُّقُ بِهَا، فَضَاقَ وأَظْلَمَ وبَعُدَ مِنْ كَمَالِهِ وفَلاحِهِ، حَتَّى تَعُودَ القُلُوبُ عَلَى قَلْبَيْنِ :

قَلْبٍ هُوَ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، فَفِيهِ النُّورُ وَالْحَيَاةُ وَالْفَرَحُ وَالسُّرُورُ وَالْبَهْجَةُ وَذَخَائِرُ الْخَيْرِ؛

وقَلْبٍ هُوَ عَرْشُ الشَّيْطَانِ، فَهُنَاكَ الضِّيْقُ وَالظُّلْمَةُ وَالْمَوْتُ وَالْحُزْنُ وَالْغَمُّ وَالْهَمُّ، فَهُوَ حَزِيْنٌ عَلَى مَا مَضَى، مَهْمُومٌ بِمَا يُسْتَقْبَلُ، مَغْمُومٌ فِيْ الْحَالِ، وقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ وغَيْرُهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "**إِذَا دَخَلَ النُّورُ الْقَلْبَ انْفَسَحَ وَانْشَرَحَ.**" قَالُوا: فَمَا عَلامَةُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ: "**الإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالتَّجَافِيْ عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَالاِسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُوْلِهِ.**"[(١)]، وَالنُّورُ الَّذِي يَدْخُلُ القَلْبَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ آثَارِ الْمَثَلِ الأَعْلَى، فَلِذَلِكَ يَنْفَسِحُ وَيَنْشَرِحُ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِيْهِ مَعْرِفَةُ اللَّهِ وَمَحَبَّتُهُ فَحَظُّهُ الظُّلْمَةُ وَالضِّيْقُ "[(٢)] .

"وَقَبُولُ الْمَحَلِّ لِمَا يُوْضَعُ فِيْهِ مَشْرُوطٌ بِتَفْرِيْغِهِ مِنْ ضِدِّهِ، وَهَذَا كَمَا أَنَّهُ فِي الذَّوَاتِ وَالأَعْيَانِ فَكَذَلِكَ فِي الاعْتِقَادَاتِ وَالإِرَادَاتِ، فَإِذَا كَانَ القَلْبُ مُمْتَلِئاً بِالْبَاطِلِ اعْتِقَاداً وَمَحَبَّةً لَمْ يَبْقَ فِيْهِ لاعْتِقَادِ الْحَقِّ ومَحَبَّتِهِ مَوْضِعٌ، كَمَا أَنَّ اللِّسَانَ إِذَا اشْتَغَلَ بِالتَّكَلُّمِ بِمَا لا يَنْفَعُ لَمْ يَتَمَكَّنْ صَاحِبُهُ مِنَ النُّطْقِ بِمَا يَنفَعُهُ إِلاَّ إِذَا فَرَّغَ لِسَانَهُ مِنَ النُّطْقِ بِالْبَاطِلِ، وَكَذَلِكَ الْجَوَارِحُ إِذَا اشْتَغَلَتْ بِغَيرِ الطَّاعَةِ لَمْ يُمْكِنْ شَغْلُهَا بِالطَّاعَةِ إِلاَّ إِذَا فَرَّغَهَا مِنْ ضِدِّهَا؛ فَكَذَلِكَ القَلْبُ الْمَشْغُولُ بِمَحَبَّةِ غَيْرِ اللَّهِ وإِرَادَتِهِ وَالشَّوْقِ إِلَيْهِ وَالأُنْسِ بِهِ، لا يُمْكِنُ شَغْلُهُ بِمَحَبَّةِ اللَّهِ وإِرَادَتِهِ وَحُبِّهِ وَالشَّوْقِ إِلى لِقَائِهِ إِلاَّ بِتَفْرِيْغِهِ مِنْ تَعَلُّقِهِ بِغَيْرِهِ، وَلا حَرَكَةَ اللِّسَانِ بِذِكْرِهِ وَالْجَوارِحِ بِخِدْمَتِهِ إِلاَّ إِذَا فَرَّغَها مِنْ ذِكْرِ غَيْرِهِ وَخِدْمَتِهِ .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه عن ابن مسعود (٣٤٣١٥) والحاكم في المستدرك (٧٨٦٣) والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٥٥٢) والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»، وإسناده ضعيف .

(٢) «الفوائد» ص (٣٨-٣٩) .

فَإِذَا امْتَلأَ القَلْبُ بِالشُّغْلِ بِالْمَخْلُوقِ وَالْعُلُومِ الَّتِي لا تَنْفَعُ لَمْ يَبْقَ فِيْهَا مَوْضِعٌ لِلشُّغْلِ بِاللهِ وَمَعْرِفَةِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَحْكَامِهِ، وَسِرُّ ذَلِكَ أَنَّ إِصْغَاءَ القَلْبِ كَإِصْغَاءِ الأُذُنِ، فَإِذَا صَغَا إِلى غَيْرِ حَدِيثِ اللهِ لَمْ يَبْقَ فِيْهِ إِصْغَاءٌ ولا فَهْمٌ لِحَدِيْثِهِ، كَمَا إِذَا مَالَ إِلى غَيْرِ مَحَبَّةِ اللهِ لَمْ يَبْقَ فِيْهِ مَيْلٌ إِلى مَحَبَّتِهِ، فَإِذَا انْطَلَقَ القَلْبُ بِغَيْرِ ذِكْرِهِ لَمْ يَبْقَ فِيْهِ مَحَلٌّ لِلنُّطْقِ بِذِكْرِهِ كَاللِّسَانِ " [(١)] .

وَلَيْسَ هُنَاكَ بِيْئَةٌ تَصْلُحُ لإِصْلاحِ هَذَا القَلْبِ وَاجْتِمَاعِهِ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ حُبّاً وَإِخْلاصاً وَرَجَاءً وَاسْتِعَانَةً وَخَشْيَةً إِلاَّ بِيْئَةُ الْمَسْجِدِ بِصُحْبَةِ الْبَرَرَةِ الأَخْيَارِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، وَيُعْنَوْنَ بِصَلاحِ نُفُوسِهِم وَيُعِيْنُونَ غَيْرَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، كَمَا قِيْلَ لِلْحَسَنِ الْبِصْرِيِّ رَحِمَهُ اللهُ:" كَيْفَ نَصْنَعُ بِمُجَالَسَةِ أَقْوَامٍ هَهُنَا، يُحَدِّثُونَنَا حَتَّى تَكَادَ قُلُوبُنَا أَنْ تَطِيْرَ؟! فَقَالَ: "**لأَنْ تَصْحَبَ أَقْوَاماً يُخَوِّفُونَكَ حَتَّى تُدْرِكَ أَمْناً خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَصْحَبَ أَقْوَاماً يُؤَمِّنُونَكَ حَتَّى تَلْحَقَكَ الْمَخَاوِفُ** " [(٢)] .

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه :" **لَوْلا أَنْ أَسِيْرَ فِي سَبِيْلِ اللهِ، أَوْ أَضَعَ جَبِيْنِي فِي التُّرَابِ أَوْ أُجَالِسَ قَوْماً يَلْتَقِطُونَ طَيِّبَ الْكَلامِ كَمَا يُلْتَقَطُ طَيِّبُ التَّمْرِ لأَحْبَبْتُ أَنْ أَكُونَ قَدْ لَحِقْتُ بِاللهِ** " [(٣)] .

*****

(١) «الفوائد» ص (٤١-٤٢) .

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» برقم (٣٠٣) وأبو نعيم في «الحلية» (٢/١٥٠) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٩٤١٩) و(٣٤٤٦٦) وابن المبارك في «الجهاد» (٢٢٢) وفي «الزهد» له (١١٨٠).

الْحَدِيْثُ السَّادِسُ عَشَـر

عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : "مَنِ احْتَبَسَ فَرَساً فِي سَبِيلِ اللهِ، إيْمَاناً بِاللهِ وتَصْدِيقاً بِوَعْدِهِ، فَإِنَّ شِبَعَهُ وَرِيَّهُ وَرَوْثَهُ وَبَوْلَهُ فِي مِيزَانِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " [(١)] .

قوله (مَنِ احْتَبَسَ فَرَساً فِي سَبِيلِ اللهِ) أَيْ رَبَطَهَا وحَبَسَهَا عَلَى نَفْسِهِ أَوْ غَيرِهِ فِي سَبِيل إعلاءِ كَلِمَةِ اللهِ ونَشرِ دِينِهِ والذَّبِّ عَنِ الإسْلامِ والْمُسْلِمِينَ .

قوله (إِيْمَاناً بِاللهِ) أَيْ رَبَطَهُ خَالِصاً للهِ ﷻ وَامْتِثَالاً لأَمْرِهِ .

قوله (وتَصْدِيقاً بِوَعْدِهِ) هُوَ عِبَارَةٌ عَنِ الثَّوَابِ الْمُرَتَّبِ عَلَى الاحْتِبَاسِ، فَاحْتِبَاسُهُ يَكُونُ تَصْدِيقاً بِوَعدِ اللهِ بِالثَّوَابِ الْجَزِيلِ عَلَى هَذَا الاحْتِبَاسِ لِقَولِهِ ﷻ: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الانفال : ٦٠] .

قوله (فَإِنَّ شِبَعَهُ وَرِيَّهُ وَرَوْثَهُ وَبَوْلَهُ فِي مِيزَانِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) أَيْ أَنَّ ثَوَابَ ذَلِكَ يَكُونُ فِي مِيزَانِهِ، لا أَنَّ الأَرْوَاثَ بِعَيْنِهَا تُوزَنُ، لأَنَّ الرَّوثَ لا يُوزَنُ بَلْ أَجْرُهُ، ولا نَقُولُ إنَّ زِنَةَ الأَجْرِ زِنَةُ الرَّوثِ، بَل أَضْعَافُهُ إلى مَا شَاءَ اللهُ .

مَعْنَى الْحَدِيْثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ

يُبَيِّنُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مَنْ رَبَطَ فَرَساً وجَعَلَهَا مَوقُوفَةً عَلَى نَفْسِهِ أَوْ غَيرِهِ لِمَقْصَدٍ وَاحِدٍ أَلا وَهُوَ إعلاءُ كَلِمَةِ اللهِ ونَشرِ دِينِهِ والدِّفَاعُ عَنِ الإسْلامِ والْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ اللهَ ﷻ يُعْطِيهِ الأَجْرَ وَالثَّوَابَ عَلَى نِيَّتِهِ كَمَا يُعطِي العَامِلَ فِعْلاً، بِحَيْثُ يُؤْجَرُ عَلَى مَا تَأْكُلُهُ وتَشرَبُهُ، وَمَا تُخْرِجُهُ مِنْ بَولٍ ورَوْثٍ، ويَكُونُ ثَوَابُهَا فِي مِيزَانِهِ يَومَ القِيَامَةِ، كَمَا جَاءَ فِي روايةٍ أُخرَى: "وَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ أَجْرٌ، فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ لأَهْلِ الإِسْلاَمِ فِي مَرْجٍ وَرَوْضَةٍ،

(١) رواه البخاري برقم (٢٨٥٣) وأحمد في مسنده برقم (٨٨٦٦) .

فَمَا أَكَلَتْ مِنْ ذَلِكَ الْمَرْجِ أَوِ الرَّوْضَةِ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ كُتِبَ لَهُ عَدَدَ مَا أَكَلَتْ حَسَنَاتٌ، وَكُتِبَ لَهُ عَدَدَ أَرْوَاثِهَا وَأَبْوَالِهَا حَسَنَاتٌ، وَلاَ تَقْطَعُ طُوْلَهَا فَاسْتَنَّتْ شَرَفاً أَوْ شَرَفَيْنِ إِلاَّ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ عَدَدَ آثَارِهَا وَأَرْوَاثِهَا حَسَنَاتٍ، وَلا مَرَّ بِهَا صَاحِبُهَا عَلَى نَهْرٍ، فَشَرِبَتْ مِنهُ وَلا يُرِيدُ أَنْ يَسْقِيَهَا إِلاَّ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ عَدَدَ مَا شَرِبَتْ حَسَنَاتٍ " [(١)] .

وقَدْ سَمَّى النَّبيُّ ﷺ الْخَيْلَ الَّتِي تُرْبَطُ فِي سَبيل اللَّهِ ﷻ فَرَسَ الرَّحْمَنِ تَشْرِيفاً لَهَا وَلِصَاحِبِهَا، حَيثُ قَسَّمَ الْخَيْلَ إِلى ثَلاثَةِ أَقْسَامٍ :

فَرَسُ الرَّحْمنِ: الَّذِيْ يُرْتَبَطُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَعَلَفُهُ وَبَوْلُهُ وَرَوْثُهُ أَجْرٌ .

وَفَرَسُ الشَّيْطَانِ: الَّذِيْ يُقَامَرُ عَلَيْهِ وَيُرَاهَنُ عَلَيْهِ، فَهِيَ لَهُ وِزْرٌ .

وَفَرَسُ الإِنْسَانِ: فَالفَرَسُ يَرْتَبِطُهَا الإِنْسَانُ يَلْتَمِسُ بَطْنَهَا - أَيْ يَنتَفِعُ بِهَا - فَهِيَ سِتْرٌ مِنْ فَقْرٍ [(٢)] .

ويَدْخُلُ فِي هَذَا - وَاللَّهُ أَعلَمُ - كُلُّ رَكُوبَةٍ يُمْكِنُ لِلإِنْسانِ أَنْ يَنْتَفِعَ بِهَا وَيَنْفَعَ بِهَا الأُمَّةَ، فَإِنْ حَبَسَهَا عَلَى مَصلَحَةِ الإِسْلام والْمُسْلِمِينَ فَإِنَّهَا تَكُونُ لَهُ أَجْراً ، أَوْ عَلَى مَصلَحَةِ نَفْسِهِ فَتَكُونُ لَهُ مِنَ الفَقْرِ سِتْراً، أَوِ اسْتَعْمَلَهَا فِي مَعَاصِي اللَّهِ فَتَكُونُ عَلَيهِ وِزْراً .

ويَدْخُلُ فِي ثَوَابِ احْتِبَاسِ الْخَيْلِ وغَيرِهَا مِنَ الرَّكَائِبِ الإِنْفَاقُ عَلَيهَا فِيمَا يُصْلِحُهَا كَيْ تُعْطِيَ أَفضَلَ جُهْدٍ، كَمَا قَالَ النَّبيُّ ﷺ : "**إِنَّ الْمُنفِقَ عَلَى الْخَيْلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَالْبَاسِطِ يَدَيْهِ بِالصَّدَقَةِ لا يَقْبِضُهَا** " [(٣)] .

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة برقم (٢٣٧١) و(٢٨٦٠) و(٣٦٤٦) ومسلم برقم (٢٣٣٧) .

(٢) رواه أحمد في مسنده عن ابن مسعود (٣٧٥٦) واللفظ له، ورواه الطبراني في الكبير بنحوه عن خباب بن الأرت (٣٦١٧) وقال المنذري في الترغيب: بإسناد حسن .

(٣) رواه أحمد في مسنده عن أبي الدرداء (١٧٦٥٩) وأبو داوود في سننه (٤٠٩١) والطبراني في الكبير (٥٦١٦) وقال النووي في «رياض الصالحين»: رواه أبو داوود بإسناد حسن .

وَقَالَ ابْنُ مَسعُودٍ ﷺ : "لَئِنْ أُمَتِّعَ بِسَوْطٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحُجَّ حِجَّةً بَعْدَ حِجَّةٍ " [(١)] .

فَائِــــــــدَة

يَدْخُلُ فِي احْتِبَاسِ الْخَيْلِ وَالإِبلِ وَغَيرِهَا مِنْ أَنْوَاعِ مَا يُركَبُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا حُبِسَ عَلَى **مَا فِيهِ نَفْعٌ عَامٌّ لِلأُمَّةِ**، كَخِدْمَةِ مَرَاكِزِ الدَّعْوَةِ ودُورِ القُرآنِ وَالْجَامِعَاتِ والْمَدَارِسِ الإِسلامِيَّةِ، الَّتِي تُعْنَى بِتَعْلِيمِ الْعِلْمِ الشَّرعِيِّ، وَالَّتِي بهَا تُحْفَظُ أَجْيَالُ الْمُسلِمِينَ مِنَ الغَزوِ العَقَدِيِّ والفِكْرِيِّ، ويَنْتَشِرُ بهَا الدِّينُ وتَعْلُو كَلِمَةُ اللَّهِ فِي الأَرضِ، كَمَا يَدخُلُ مَا حُبِسَ عَلَى **مَا فِيهِ نَفْعٌ خَاصٌّ لأَفْرَادِ الأُمَّةِ**، كَمَا فِي احْتِبَاسِ الْمَرَاكِبِ عَلَى الْحُجَّاجِ والعُمَّارِ، وَكُلُّهَا يَدخُلُ تَحْتَ مُسَمَّى فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَا قَالَ ﷺ : "**إِنَّ الْحَجَّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**." [(٢)]؛ وسَيَأْتِي تَفصِيلُ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

*****

(١) رواه ابن أبي شيبه في مصنفه (١٩٣٨٨) والطبراني في الكبير (٨٥٧٥) وابن المبارك في «الجهاد» (٢٢٦) وقال الهيثمي في المجمع: رجاله ثقات .

(٢) رواه أبو داوود في سننه عن أم معقل الأسدية (١٩٩١) وابن خزيمة في صحيحة (٢٣٧٦) وسنده جيد .

الحَدِيثُ السَّابِعُ عَشَرَ

عَنْ أَبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:" **إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، وَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ لِمَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ، فَجَعَلَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ، وَمَنْ لَمْ يَأْخُذْهُ بِحَقِّهِ فَهُوَ كَالآكِلِ الَّذِي لا يَشْبَعُ، وَيَكُونُ عَلَيهِ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ** " (١) .

قوله (**إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ**) شَبَّهَ الدُّنيَا وزينَتَهَا – ومِنهَا الْمَالُ – فِي الرَّغبَةِ فِيهَا وَالْمَيلِ إِلَيهَا وحِرصِ النُّفُوسِ عَلَيهَا بالفَاكِهَةِ الْخَضْرَاءِ الْحُلْوَةِ الْمُسْتَلَذَّة، فَإِنَّ الأَخْضَرَ مَظْهَرُهُ مَرغُوبٌ فِيهِ عَلَى انْفِرَادِهِ بالنِّسبَةِ لِلْيَابِسِ، والْحُلو مَذَاقُهُ كَذَلِكَ عَلَى انْفِرَادِهِ بالنِّسبَةِ لِلْحَامِضِ، فَاجْتِمَاعُهُمَا أَشَدُّ؛ وفِيهِ إِشَارَةٌ إلى عَدَمِ بَقَاءِهِ لأَنَّ الْخَضْرَاوَاتِ والفَاكِهَةَ لا تَبقَى ولا تُرَادُ لِلبَقَاءِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ (٢) .

قوله (**وَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ لِمَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ**) أَيْ لَيسَ جَمِيعُ الْمَالِ مَذمُوماً، بَل مَا أَخَذَهُ الْمُسلِمُ بِحَقِّهِ دُونَ أَنْ يَشتَغِلَ بِهِ عَنْ مَقصَدِهِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ سبحانه وتعالى ودَعْوَةِ الْخَلْقِ إِلَيهِ، فَأَخَذَهُ مِنْ طُرُقِهِ الْمَشرُوعَةِ ووَضَعَهُ فِي مَوَاضِعِهِ الَّتِي أَمَرَهُ اللَّهُ سبحانه وتعالى بِوَضْعِهِ فِيهَا، فَإِنَّهُ يَكُونُ مَحمُوداً ويُبَارَكُ فِيهِ، بَل ويَرتَقِي بِهِ إلى أَفضَلِ الْمَنازِلِ عِندَ اللَّهِ سبحانه وتعالى، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "**إِنَّمَا الدُّنْيَا لأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالاً وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ ...**" (٣) .

قوله (**فَهُوَ كَالآكِلِ الَّذِي لا يَشْبَعُ**) هَذَا تَشبِيهٌ لِلَّذِي يَنهَمِكُ فِي جَمعِ الْمَالِ ويَشتَغِلُ بِهِ عَن أَدَاءِ حُقُوقِ اللَّهِ سبحانه وتعالى وحُقُوقِ الآخَرِينَ فِيهِ بِالشَّرَهِ وَالامتِلاء، وفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ هَذَا يُهْلِكُهُ، فَإِنَّ الإِنسَانَ إِذَا أَكَلَ بِلا شِبَعٍ فَإِنَّهُ يَهلِكُ . واللَّهُ أَعْلَمُ .

---

(١) رواه البخاري برقم (٢٦٨٧) واللفظ له، ورواه مسلم بمعناه برقم (٢٤٧٠) .

(٢) «شرح مسلم للنووي» (٧/١٢٧) .

(٣) رواه أحمد في مسنده عن أبي كبشة الأنماري برقم (١٨٠٥٣) والترمذي برقم (٢٣٢٥) وقال: حديث حسن صحيح .

قوله (وَيَكُونُ عَلَيهِ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ) يَحتَمِلُ أَنْ يَشهَدَ بأَنْ يُنطِقَهُ الله ﷻ، ويَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَجَازاً، والْمُرَادُ شَهَادَةُ الْمَلَكِ الْمُوَكَّلِ بِهِ [(١)] .

مَعْنَى الْحَدِيثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ

يُبَيِّنُ النَّبيُّ ﷺ أَنَّ الْمَالَ فِتنَةٌ مَخُوفَة كَمَا قَالَ ﷺ : "**وَالله مَا الْفقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ** ." [(٢)]، وذَلِكَ لأَنَّ حُبَّه زُيِّنَ فِي قُلُوبِ بَنِي آدَمَ وجُبِلُوا عَلَى هَذِهِ الْمَحَبَّةِ، ولَكِنْ مِنهُم مَن اسْتَمَرَّ عَلَى مَا طُبِعَ عَلَيهِ مِنْ ذَلِكَ وجَعَلَ جَمْعَهُ مَقْصَداً لَهُ، فَانْهَمَكَ بِجَمْعِهِ مِمَّا حَلَّ وحَرُمَ، ولَمْ يُرَاعِ للهِ ﷻ فِيهِ حَقّاً، فَصَارَ وَلاؤُهُ وبَرَاؤُهُ وعَطَاؤُهُ ومَنعُهُ لأَجْلِهِ، فَهَذَا هُوَ الْمَالُ الْمَذْمُومُ صَاحِبُهُ؛ ومِنهُم مَنْ رَاعَى فِيهِ الأَمْرَ وَالنَّهْيَ، ووَقَفَ عِنْدَ مَا حُدَّ لَهُ مِنْ ذَلِكَ، فَهَذَا لَمْ يَتَنَاوَلْهُ ذَمٌّ، ومِنهُم مَن ارْتَقَى عَنْ ذَلِكَ فَزَهِدَ فِيهِ بَعدَ أَنْ قَدَرَ عَلَيهِ، وَأَعْرَضَ عَنهُ مَعَ إِقْبَالِهِ عَلَيهِ وتَمَكُّنِهِ مِنْهُ، فَأَنْفَقَهُ فِي وُجُوهِ الْخَيرِ كُلِّهَا، وأَعْلاهَا الإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِ الله لإِعلاءِ كَلِمَةِ الله ﷻ، فَهَذَا هُوَ الْمَقَامُ الْمَحمُودُ، وإِلَى هَذَا أَشَارَ عُمَرُ بنُ الْخَطَّابِ ﷺ بِقَولِهِ: "**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ أُنْفِقَهُ فِي حَقِّهِ** "[(٣)]. وَأَمَّا إِذَا لَمْ يَأْخُذْ هَذَا الإِنسَانُ الْمَالَ بِحَقِّهِ فَاشْتَغَلَ بِجَمعِهِ عَنْ أَوَامِرِ الله ﷻ وَاسْتَأْثَرَ بِهِ، وبَخِلَ بِهِ عَلَى دِينِ الله ﷻ وعَلَى خَلْقِهِ، فَإِنَّهُ يَكُونُ وَبَالاً عَلَيهِ فِي الدُّنيَا بِتَسلِيطِ مَالِهِ عَلَيهِ، وجَعْلِهِ عَذَاباً وسَبَباً فِي ذِلَّتِهِ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [التوبة: ٥٥]، وقَالَ ﷺ: "**إِذَا ضَنَّ النَّاسُ بِالدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ** - أَيْ بَخِلُوا بِهِمَا -، **وَتَبَايَعُوا بِالْعِينَةِ، وَاتَّبَعُوا أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَتَرَكُوا الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ الله، أَنزَلَ الله بِهِمْ**

---

(١) «فتح الباري» (١١/٢٩٨) .

(٢) رواه البخاري عن عمرو بن عوف الأنصاري (٣١٥٨) و(٤٠١٥) و (٦٤٢٥) ومسلم (٧٦١٤) .

(٣) رواه البخاري تعليقاً في باب قول النبي ﷺ : "**هَذَا الْمَالُ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ**" بلفظ، قَالَ عُمَرُ: "**اللَّهُمَّ إِنَّا لا نَستَطِيعُ إِلاَّ أَنْ نَفْرَحَ بِمَا زَيَّنتَهُ لَنَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ أُنْفِقَهُ فِي حَقِّهِ**".

ذُلاًّ، فَلَمْ يَرْفَعْهُ عَنهُمْ حَتَّى يُرَاجِعُوا دِينَهُمْ."[١]، وَكَذَلِكَ يَكُونُ عَلَيهِ وَبَالاً يومَ القِيامَةِ، كَمَا قَالَ ﷺ: "وَرُبَّ مُتَخَوِّضٍ فِيمَا شَاءَتْ بِهِ نَفْسُهُ مِنْ مَالِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، لَيْسَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلاَّ النَّارُ "[٢] .

قَالَ الغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "مَثَلُ الْمَالِ مَثَلُ الْحَيَّةِ الَّتِي فِيهَا تِرْيَاقٌ نَافِعٌ وَسُمٌّ نَاقِعٌ، فَإِنْ أَصَابَهَا الْعَارِفُ الَّذِي يَحْتَرِزُ عَنْ شَرِّهَا وَيَعْرِفُ اسْتِخْرَاجَ تِرْيَاقِهَا كَانَ نِعْمَةً، وَإِنْ أَصَابَهَا الْغَبِيُّ فَقَدْ لَقِيَ الْبَلاءَ الْمُهْلِكَ "[٣] .

فَائِـــــــــدَة

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه :"مَنْ كَانَ مُسْتَنّاً فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ، فَإِنَّ الْحَيَّ لا تُؤْمَنُ عَلَيهِ الْفِتْنَةُ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ، كَانُوا أَفْضَلَ هَذِهِ الأُمَّةِ: أَبَرَّهَا قُلُوباً، وأَعْمَقَهَا عِلْماً، وأَقَلَّهَا تَكَلُّفاً، قَومٌ اخْتَارَهُمُ اللَّهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ، ولإِقَامَةِ دِينِهِ، فَاعْرِفُوا لَهُمْ فَضْلَهُمْ، وَاتَّبِعُوهُمْ عَلَى أَثَرِهِمْ، وتَمَسَّكُوا بِمَا اسْتَطَعْتُم مِنْ أَخْلاقِهِم وسِيَرِهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيم "[٤] .

فَالصَّحَابَةُ رضي الله عنهم هُمْ خِيرَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ خَلْقِهِ بَعْدَ الأَنبِيَاءِ، وأَفْقَهُهُم بِمَا يُحِبُّهُ اللَّهُ ورَسُولُهُ ﷺ، فَإِذَا أَرَادَتِ الأُمَّةُ أَنْ تَعُودَ إِلى مَا كَانَ عَلَيهِ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم مِنَ الْعِزَّةِ والسِّيَادَةِ والرِّفعَةِ فَعَلَيهِم أَنْ يَتَشَبَّهُوا بِطَرَائِقِهِم فِي قَضَاءِ أَوقَاتِهِم وإِنْفَاقِ أَموَالِهِم، لأَنَّهُ لا تَصْلُحُ

---

(١) رواه أحمد في مسنده عن ابن عمر (٤٨٢٥) وأبو يعلى في مسنده (٥٦٥٩) والطبراني في الكبير (١٣٥٨٣) وصححه ابن القطان في «بيان الوهم والإيهام» وقال : هذا الإسناد كُلُّ رجاله ثقات .

(٢) رواه أحمد في مسنده (٢٧٠٥٤) و(٢٧١٢٤) واللفظ له ، والطبراني في الكبير عن خوله بنت قيس (٢٠٠٤٥) والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٣٠٤) .

(٣) «إحياء علوم الدين» (٣/٣٦٠) وانظر «فتح الباري» (١١/٢٩٩) .

(٤) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٩٢٦)، والبغوي في «شرح السنة» (١/٢١٤) وذكره التبريزي في «مشكاة المصابيح» رقم (١٩٣)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» عن ابن عمر (١/٣٠٥) .

أَحْوَالُ آخرِ هَذِهِ الأُمَّةِ إلاَّ بِمَا صَلَحَتْ بِهِ أَحْوَالُ أَوَّلِهَا، ولَنْ تُعطَى هَذِهِ الأُمَّةُ مَا تُحِبُّ حَتَّى تُعطِيَ اللهَ عَجَلَّ مَا يُحِبُّ، لِقَولِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧] ، فَالنُّصرَةُ عَلَى الأعدَاءِ وَالتَّمكِينُ والاسْتِخلافُ في الأَرضِ مَحبُوبَةٌ لَدَينَا، ولا يُمْكِنُ أَنْ نَتَحَصَّلَ عَلَيهَا إلاَّ بنُصرَةِ دِينِ اللهِ بالْمَالِ والنَّفسِ وتَقْدِيْمِ مَحبُوبَاتِ اللهِ عَلَى مَحبُوبَاتِنا، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢]. فأعظَمُ أَمْرٍ كَانَ الصَّحَابَةُ ﷺ يُنْفِقُونَ أَموالَهُم فِيهِ هُوَ إعلاءُ كَلِمَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ ونَشرُ دِينِهِ، كَمَا تَقَدَّمَ في إنْفَاقِ أَبِي بَكْرٍ وعُثمَانَ بنِ عَفَّانَ وعَبدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوفٍ وَابْنِ عُمَرَ رَضِوَانُ اللهِ عَلَيهِمْ أَجْمَعِينَ، وكَانُوا يَعتَقِدُونَ أَنَّ عِزَّهُم وكَرَامَتَهُم ونَجَاتَهُم مِنَ الْهَلَكَةِ مَربُوطَةٌ بإنفَاقِهِم أَمْوَالَهُم في سَبِيلِ اللهِ سُبْحَانَهُ لإعْلاءِ كَلِمَتِهِ، وأَنَّ التَّهْلُكَةَ تَكُونُ بالإقَامَةِ في أَهْلِيهِم وإصْلاحِ أَمْوَالِهِم وتَركِ الْجُهدِ بالْمَالِ وَالنَّفسِ لإقَامَةِ شَرعِ اللهِ عَجَلَّ، كَمَا قَالَ أَبُو أَيُّوبَ الأَنْصَارِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في سَبَبِ نُزُولِ قَولِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥]، قَالَ: **"فِينَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ نَزَلَت هَذِهِ الآيَةُ، لَمَّا نَصرَ اللهُ عَجَلَّ نَبِيَّهُ، وأَظْهَرَ الإسْلامَ قُلْنَا: هَلُمَّ نُقِيمُ فِي أَمْوَالِنَا وَنُصْلِحُهَا، فَأَنزلَ اللهُ عَجَلَّ هَذِهِ الآيَةَ، فَالإلْقَاءُ بَأَيْدِينَا إلى التَّهْلُكَةِ أَنْ نُقِيمَ في أَمْوَالِنَا وَنُصْلِحَهَا، ونَدَعَ الْجِهَادَ "** [(١)] .

ثُمَّ كَانُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم عَلَى الأَضْيَافِ الوَارِدِينَ إلى الْمَدِينَةِ لِتَعَلُّمِ الإسْلام، فَقَد كَانَ الرَّجُلُ إذَا قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ إنْ كَانَ لَهُ عَرِيْفٌ – أَيْ إنْسَانٌ يَعْرِفُهُ – نَزَلَ عَلَيهِ، فَإذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ عَرِيْفٌ نَزَلَ مَعَ أَصحَابِ الصُّفَّةِ ﷺ [(٢)] ، وكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إذَا أَمْسَى قَسَّمَ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ بَيْنَ نَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَكَانَ الرَّجُلُ يَذهَبُ بالرَّجُلِ، وَالرَّجُلُ يَذهَبُ بالرَّجُلَيْنِ، وَالرَّجُلُ يَذهَبُ بِالثَّلاثَةِ حَتَّى العَشَرَةِ، فَكَانَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ يَرْجِعُ كُلَّ لَيْلَةٍ إلى

---

(١) رواه الترمذي عن أسلم أبي عمران التجيبي برقم (٢٩٧٢) وقال: حديث حسن صحيح، ورواه الحاكم في المستدرك عنه واللفظ له برقم (٢٤٣٤) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي .

(٢) رواه البيهقي في سننه عن طلحة النضري (٤١٣٤) والطبراني في الكبير (١٥٢٢١) وأخرجه البزار بنحوه، وقال الهيثمي: رجال البزار رجال الصحيح غير محمد بن عثمان العقيلي وهو ثقة .

أَهْلِهِ بِثَمَانِينَ مِنهُمْ يُعَشِّيهِمْ [(١)]، ومَا بَقِيَ مِنَ الأَضيَافِ يَذهَبُ بِهِم رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إلى بَيتِهِ؛ وأَهْلُ الصُّفَّةِ هُمْ أَضْيَافُ الإِسْلامِ لا يَأْوُونَ عَلَى أَهْلٍ ولَيسَ لَهُمْ مَالٌ، وكَانُوا يُقِيمُونَ فِي مَسْجِدِ النَّبيِّ ﷺ؛ فَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنهما أَنَّ أَصْحَابَ الصُّفَّةِ كَانُوا أُنَاسًا فُقَرَاءَ، وَأَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ:" **مَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ اثْنَيْنِ فَلْيَذْهَبْ بِثَالِثٍ، وَإِنْ أَرْبَعٌ فَخَامِسٌ أَوْ سَادِسٌ** ." وَأَنَّ أَبَا بَكْرٍ جَاءَ بِثَلاثَةٍ، فَانْطَلَقَ النَّبيُّ ﷺ بِعَشَرَةٍ [(٢)] .

وكَانَ لِعَبدِ اللَّهِ بْنِ عَمرٍو رضي الله عنهما ثَلاثُمِائَةِ رَاحِلَةٍ، مِنهَا مِائَةُ رَاحِلَةٍ يَحْمِلُ عَلَيهَا إخوَانَهُ فِي سَبيلِ اللَّهِ ، ومِائَتَا زَامِلَةٍ – وهِيَ البَعِيرُ الَّذِي يُحْمَلُ عَلَيهِ الطَّعَامُ وَالْمَتَاعُ – لِمَنْ نَزَلَ عَلَيهِ مِنْ أَهْلِ الأَمْصَارِ ولأَضْيَافِهِ [(٣)] .

ثُمَّ كَانُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم فِي قَضَاءِ حَوَائِجِ الْمُسلِمِينَ، مِنْ إطعَامِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَكِسوَتِهِم إِيْمَاناً وَاحْتِسَاباً، لا يُرِيدُونَ جَزَاءً وَلا شُكُوراً، وهَذَا مِنْ أَفْضَلِ الأَعمَالِ، كَمَا قَالَ النَّبيُّ ﷺ حِينَمَا سُئِلَ عَنْ أفضَلِ الأَعمَالِ، فَقَالَ:" **إِدْخَالُكَ السُّرُوْرَ عَلَى مُؤْمِنٍ، أَشْبَعْتَ جَوْعَتَهُ، أَوْ كَسَوْتَ عَوْرَتَهُ، أَوْ قَضَيْتَ حَاجَتَهُ** " [(٤)] .

فَهَا هُوَ عُمَرُ رضي الله عنه يَتَصَدَّقُ بِأَرضِهِ فِي خَيبَرَ، وكَانَتْ أَحَبَّ مَالِهِ إِلَيهِ، تَصَدَّقَ بِهَا فِي الْفُقَرَاءِ وفِي الْقُرْبَى والرِّقَابِ وفِي سَبِيلِ اللَّهِ والضَّعِيفِ وَابْنِ السَّبِيلِ عَلَى أَلاَّ يُبَاعَ أَصْلُهَا ولا يُوهَبَ ولا يُورَثَ [(٥)]. وَاشْتَرَى عُثمَانُ رضي الله عنه بِئْرَ رُومَةَ فَجَعَلَهَا صَدَقَةً لِلمُسلِمِينَ [(٦)] .

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» عن محمد بن سيرين (٣٤١/١) وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٦٢/٢٠) .

(٢) رواه البخاري برقم (٦٠٢) و(٣٥٨١) ومسلم (٥٤٨٦) .

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢٩١/١) ورواه الحاكم في المستدرك عن سليمان بن ربيعة العنْزي (٨٦١٨) وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي .

(٤) رواه الطبراني في الأوسط عن عمر (٥٠٨١) وفيه محمد بن بشير الكندي وهو ضعيف، ولكن له شاهد عند أبي الشيخ في «الثواب» من حديث ابن عمر، فيصير الحديث به حسناً .

(٥) رواه البخاري عن ابن عمر برقم (٢٥٨٦) ورواه مسلم برقم (١٦٣٢) .

(٦) رواه النسائي في سننه عن الأحنف بن قيس برقم (٣٦٠٦) وسنده صحيح .

وأُتِيَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بمِائَةِ أَلْفٍ ففَرَّقَتها، وَهِيَ يَوْمَئِذٍ صَائِمَةٌ، فَقَالَتْ لَهَا أُمُّ دُرَّةَ: أَمَا اسْتَطَعْتِ فِيمَا أنفقْتِ أَنْ تَشْتَرِي بِدِرْهَمٍ لَحماً تُفْطِرِين عَلَيْهِ ؟ فَقَالَتْ: لَوْ كُنتِ أذكَرْتِنِي لَفعَلْتُ [(١)] .

وقَالَ عُروَةُ رَحِمَهُ اللهُ: "قَدْ رَأَيْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تَصدَّقُ بسَبْعِينَ أَلْفاً ، وَإِنَّهَا لَتَرْقَعُ جَانبَ دِرْعِهَا "[(٢)]. وكَانَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا لا يُعجبُهُ شَيْءٌ مِنْ مَالِهِ إلاَّ خَرَجَ مِنهُ للهِ عَزَّ وَجَلَّ [(٣)]، وأَتَتْهُ يَوماً اثْنَانِ وعِشْرُونَ أَلْفَ دِينَارٍ فِي مَجْلِسٍ فَلَمْ يَقُم حَتَّى فَرَّقَهَا [(٤)] .

وعَنْ نَافِعٍ أَنَّ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بَعَثَ إلى ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مِائَةَ أَلْفٍ، فَمَا حَالَ الحَوْلُ وَعِندَهُ مِنهَا شَيْءٌ .[(٥)]، وَأَتَاهُ أَرْبَعَةُ آلافٍ مِنْ قِبَلِ مُعَاوِيَةَ، وَأَرْبَعَةُ آلافٍ مِنْ قِبَلِ إنسَانٍ آخَرَ، وَأَلْفَانِ مِنْ قِبَلِ آخرَ وَقَطِيفَةٌ، فَجَاءَ إلى السُّوقِ يُرِيدُ عَلَفاً لِرَاحِلَتِهِ بدِرْهَمٍ نَسِيئَةً [(٦)]، أَيْ تَصَدَّقَ بهَا كُلِّهَا، وهُوَ بحَاجَةٍ إلَيها .

وَأَقْرَضَ أَبُو الدَّحْدَاحِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَائِطاً فِيهِ سِتُّمِائَةِ نَخْلَةٍ لَمَّا سَمِعَ قَولَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ **[البقرة: ٢٤٥]** [(٧)] .

وتَصدَّقَ أَبُو طَلْحَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بعَينِ بَيْرُحَاءَ عَلَى أَقَارِبِهِ وبَنِي عَمِّهِ لَمَّا نَزَلَ قَولُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [(٨)] .

---

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» عن أم درة (٨/٦٧) .

(٢) أخرجه هناد في «الزهد» (٦١٧) والطبري في «تهذيب الآثار» (٣٤٦) .

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/٢٩٥) عن نافع مولى ابن عمر وأخرجه أحمد في «الورع» (٢٧٩) .

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» عن ميمون بن مهران برقم (١/٢٩٦) .

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» عن نافع (١/٢٩٦) .

(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» عن أيوب بن وائل الراسبي عن رجل كان جاراً لابن عمر (١/٢٩٦) .

(٧) رواه أبو يعلى في مسنده برقم (٤٩٨٦) والطبراني في الكبير (١٨٢١٥) والبزار في مسنده (٢٠٣٣)، وقال الهيثمي في المجمع: رواه أبو يعلى والطبراني ورجالهما ثقات، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح .

(٨) رواه البخاري عن أنس بن مالك برقم (١٤٦١) و(٢٣١٨) ورواه مسلم برقم (٢٣٦٢) و(٢٣٦٣) .

وتَصَدَّقَ طَلْحَةُ بْنُ عُبيد الله رضي الله عنه يوماً بِمائَةِ أَلْفِ دِرهَمٍ ثُمَّ حَبَسَهُ عَنِ الرَّواحِ إلى الْمَسجدِ أَنْ جَمَعَتْ لَهُ زَوجَتُهُ بَينَ طَرَفَي ثَوبِهِ وهُوَ بِحَاجَةٍ إلى إِصْلاحٍ (١) .

وكَانَ لِلزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّام رضي الله عنه أَلْفُ مَمْلُوكٍ تُؤَدِّي إِلَيهِ الخَرَاجَ (٢)، ولا يُدْخِلُ بَيتَهُ مِنْ خَرَاجِهِم شَيئاً، بَلْ يَتَصَدَّقُ بِهِ (٣) .

وهَذَا فِي الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم كَثِيرٌ لا يُحصَى، وأَمَّا إِنْفَاقُهُم عَلَى حَوَائِجِهِم فَكَانَ بِقَدَرٍ وحِسَابٍ بِدُونِ إِسْرَافٍ، وكَانُوا يُؤْثِرُونَ قَضَاءَ حَوَائِجِ النَّاسِ عَلَى قَضَاءِ حَوَائِجِ أَنْفُسِهِم رَغبَةً فِيمَا عَندَ الله سبحانه وتعالى، وإِيثَاراً لِمَا يَبقَى، كَمَا تَقَدَّمَ فِي تَصَدُّقِ طَلحَةَ رضي الله عنه بِمِائَةِ أَلْفٍ، وثَوبُهُ يَحْتَاجُ إلى إِصْلاحٍ، وكَذَلِكَ ابنُ عُمَرَ رضي الله عنهما حِينَمَا تَصَدَّقَ بِعَشرَةِ آلافٍ ثُمَّ اشْتَرَى عَلَفاً بِدِرهَمٍ نَسِيئَةً ، ودَارَ رَأْسُ شَاةٍ بَينَ سَبعَةِ أَبيَاتٍ، كُلُّهُم يَحتَاجُهُ حَتَّى رَجَعَ إلى الأَوَّلِ (٤) .

فهَذَا التَّرتِيبُ سَهَّلَ عَلَى الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم الْقِيَامَ بِأَعْبَاءِ تَبلِيغِ الدِّينِ، ونَشرِهِ إلى أَنْحَاءِ الْعَالَمِ، ولَمْ يَشغَلْهُم شَيْءٌ عَنْ هَذَا الْمَقصَدِ الْعَظِيمِ، فَكَانَت أَمْوَالُهُم سَبَباً لِقُربِهِم مِنَ الله سبحانه وتعالى ونَيْلِهِم رِضْوَانَهُ، وسَبَباً فِي هِدَايَةِ مَنْ بَعدَهُم مِنَ الْخَلائِقِ .

نَسْأَلُ الله أَنْ يُوَفِّقَنَا لِتَعَلُّمِ طَرَائِقِ الصَّحَابَةِ فِي حَيَاتِهِم، وَأَنْ يُوَفِّقَنَا لِتَطبِيقِهَا فِي حَيَاتِنَا كَي يَرضَى عَنَّا كَمَا رَضِيَ عَنْهُم، ويُعطِينَا مَا أَعطَاهُم إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيْمٌ .

*****

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» برقم (١/٨٨) .

(٢) الخراج: شيء يجعله السيد على غلامه يؤديه إليه، وما بقي من كسبه يكون له .

(٣) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» برقم (١٥٥٦٥) .

(٤) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه عن مجاهد (٣٥٤٤٧) والحاكم في المستدرك عن ابن عمر (٣٧٩٩) وقال: صحيح الإسناد، وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٤٧٩) والطبري في «تهذيب الآثار» (٣٤٣) .

الْحَدِيثُ الثَّامِنُ عَشَرَ

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: " **إِنَّ خَلِيلِي ﷺ عَهِدَ إِلَيَّ أَيُّمَا ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ أُوكِيَ عَلَيْهِ فَهُوَ كَيٌّ عَلَى صَاحِبِهِ، حَتَّى يُفْرِغَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ إِفْرَاغاً** "(١) .

قوله (**أُوكِيَ عَلَيْهِ**) أَيِ ادَّخَرَهُ وَلَمْ يُؤَدِّ الحُقُوقَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِهِ .

قوله (**فَهُوَ كَيٌّ عَلَى صَاحِبِهِ**) أَيْ يَكُونُ هَذَا الذَّهَبُ أَوِ الْفِضَّةُ جَمْراً يَومَ الْقِيَامَةِ يُكْوَى بِهِ، كَمَا جَاءَ فِي روايةٍ أُخْرَى عَنهُ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "**مَنْ أَوْكَى عَلَى ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ وَلَمْ يُنْفِقْهُ فِي سَبِيلِ اللهِ كَانَ جَمْرًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُكْوَى بِهِ** "(٢) .

قوله (**حَتَّى يُفرِغَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ إِفْرَاغاً**) أَيْ يُنْفِقَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ عز وجل ولا يَدَّخِرَهُ، وجَاءَ بلَفْظِ الإِفْرَاغِ لِلإِشَارَةِ إلى أَنَّ السَّلامَةَ مِنَ الْمَالِ تَكُونُ بإِنْفَاقِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ وعَدَمِ إِبْقَاءِ شَيْءٍ مِنْهُ، يُقَالُ: أَفْرَغْتُ الإِنَاءَ إِفْرَاغاً إِذَا قَلَبْتُ مَا فِيهِ (٣)، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "**يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ أَنْ تَبْذُلَ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ، وَأَنْ تُمْسِكَهُ شَرٌّ لَكَ، وَلاَ تُلاَمُ عَلَى كَفَافٍ.**"(٤)، وقَالَ ﷺ: "**مَا يَسُرُّنِي أَنَّ لِي أُحُداً ذَهَباً، تَأْتِي عَلَيَّ ثَالِثَةٌ وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ إِلاَّ دِينَارٌ أُرْصِدُهُ لِدَيْنٍ عَلَيَّ.**"(٥)، وفي رِوَايَةٍ قَالَ أَبُو ذَرٍّ رضي الله عنه: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**يَا أَبَا ذَرٍّ أَيُّ جَبَلٍ هَذَا ؟**" قُلْتُ: أُحُدٌ يَا رَسُولَ اللهِ ! قَالَ:" **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَسُرُّنِي أَنَّهُ لِي ذَهَباً قِطَعاً أُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَدَعُ مِنْهُ قِيرَاطاً** "(٦) .

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢١٤٦١) وقال المنذري في الترغيب والهيثمي في المجمع : رجاله رجال الصحيح .

(٢) رواه الطبراني في الكبير عن أبي ذر (١٦٤١) وفي الأوسط (٥٤٧٠) وقال المنذري في الترغيب: رجاله رجال الصحيح .

(٣) «النهاية» لابن الاثير (٣/٨٣٥) .

(٤) رواه مسلم عن أبي أمامة (٢٤٣٥) .

(٥) رواه مسلم عن أبي هريرة برقم (٩٩١) .

(٦) رواه أحمد في مسنده (٢١٣٢٩) وحسنه المنذري في الترغيب .

مَعْنَى الْحَدِيْثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ

يُبَيِّنُ النَّبيُّ ﷺ أَنَّ الْمَالَ أَمَانَةٌ لله عِنْدَ الإِنْسانِ، وَسَوفَ يَسْأَلُهُ اللَّهُ ﷻ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْهُ، مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، ومَعْلُومٌ أَنَّ الأَمَانَةَ لا يَجُوزُ لِلإِنْسانِ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِيهَا إلاَّ بحَسَبِ مَا يُرِيدُ صَاحِبُهَا، واللَّهُ ﷻ هُوَ صَاحِبُ الْمَالِ في الحَقِيْقَةِ، وَيُرِيدُ مِنَ الْمُسْلِمِ أَنْ يَجْعَلَ مَالَهُ وَسِيْلَةً لِنَيْلِ رِضَاهُ، وذَلِكَ بإِنْفَاقِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لإِعْلاءِ كَلِمَتِهِ وَنَشْرِ دِيْنِهِ، كَمَا قَالَ ﷺ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ ﷻ: "**إِنَّا أَنْزَلْنَا الْمَالَ لإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيْتَاءِ الزَّكَاةِ** " [(١)] . وكَذَلِكَ يُنْفِقُهُ فِي أَدَاءِ حُقُوقِ اللَّهِ ﷻ وحُقُوقِ الْعِبَادِ فِي الْمَالِ، ويُنْفِقُ عَلَى حَاجَتِهِ بدُونِ إِسْرَافٍ، ولا يَدَّخِرُهُ ، فَإِنَّ فِي ادِّخَارِهِ التَّلَفَ وَالبَوَارَ، كَمَا قَالَ النَّبيُّ ﷺ: "**مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إلاَّ مَلَكَانِ يَنْزِلانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً.**"[(٢)]، وقَالَ ﷺ لأَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنهما : "**لا تُوْكِي فَيُوْكَى عَلَيْكِ.**" وفِي رِوَايَةٍ قَالَ لَهَا: "**انْفَحِي – أَوِ انْضَحِي أَوْ أَنْفِقِي –، وَلاَ تُحْصِي فَيُحْصِيَ اللَّهُ عَلَيْكِ، وَلاَ تُوعِي فَيُوعِيَ اللَّهُ عَلَيْكِ** " [(٣)] .

وفي ادِّخَارِ الْمَالِ الْفَاضِلِ عَنِ الحَاجَةِ مِنَ الوَعِيدِ الشَّدِيدِ مَا جَعَلَ النَّبيَّ ﷺ لا يَدَّخِرُ شَيْئاً لِغَدٍ [(٤)]؛ وكَانَ ﷺ يَقُولُ: "**إِنِّي لأَلِجُ هَذِهِ الْغُرْفَةَ مَا أَلِجُهَا حِينَئِذٍ إلاَّ خَشْيَةَ أَنْ يَكُونَ فِيهَا مَالٌ، فَأُتَوَفَّى وَلَمْ أُنْفِقْهُ.**"[(٥)]؛ وصَلَّى يَوْماً صَلاةَ الْعَصْرِ بالْمَدِينَةِ، فَسَلَّمَ ثُمَّ قَامَ مُسْرِعاً فَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ إِلى بَعْضِ حُجَرِ نِسَائِهِ، فَفَزِعَ النَّاسُ مِنْ سُرْعَتِهِ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ، فَرَأَى

---

(١) رواه أحمد في مسنده عن أبي واقد الليثي (٢١٩٠٦) والطبراني في الكبير (٣٣٠١) (٣٣٠٣) وفي الأوسط (٢٤٤٦) وقال الهيثمي في المجمع: رجال أحمد رجال الصحيح .

(٢) رواه البخاري عن أبي هريرة (١٤٤٢) ومسلم (٢٣٨٣) .

(٣) رواه البخاري عن أسماء (١٤٣٣) ومسلم (٢٤٢٣) .

(٤) رواه الترمذي عن أنس بن مالك (٢٣٦٢) وابن حبان في صحيحه (٦٣٥٦) .

(٥) رواه الطبراني في الكبير عن سمرة بن جندب (٧١٠٥) وقال المنذري في الترغيب والهيثمي في المجمع : إسناده صحيح .

أَنَّهُمْ قَدْ عَجِبُوْا مِنْ سُرْعَتِهِ، فَقَالَ:" **ذَكَرْتُ شَيْئاً مِنْ تِبْرٍ عِنْدَنَا، فَكَرِهْتُ أَنْ يَحْبِسَنِي، فَأَمَرْتُ بِقِسْمَتِهِ** "(١) . وَالتِّبْرُ: قِطَعُ الذَّهَبِ أَوِ الْفِضَّةِ .

وعَادَ ﷺ بلالاً ﵁، فَأَخْرَجَ لَهُ صُبْرًا مِنْ تَمْرٍ، فَقَالَ:" **مَا هَذَا يَا بلالُ ؟**" قَالَ: ادَّخَرْتُهُ لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: "**أَمَا تَخْشَى أَنْ يُجْعَلَ لَكَ بُخَارٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، أَنْفِقْ بلالُ، وَلا تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلالاً.**"(٢)؛ وتُوُفِّيَ رَجُلٌ عَلَى عَهْدِهِ ﷺ فَلَمْ يُوْجَدْ لَهُ كَفَنٌ، فَأُتِيَ بِهِ فَقَالَ ﷺ : "**انْظُرُوا إِلَى دَاخِلَةِ إِزَارِهِ**" فَأُصِيبَ دِينَارٌ أَوْ دِينَارَانِ، فَقَالَ:"**كَيَّتَانِ**" (٣)؛ وتُوُفِّيَ آخرُ، فَقَالَ ﷺ: "**هَلْ تَرَكَ شَيْئاً** ؟ قَالُوا: نَعَمْ، ثَلاثَةَ دَنَانِيْرَ. فَقَالَ بِأَصَابِعِهِ :" **ثَلاثُ كَيَّاتٍ.**" (٤)؛ وتُوُفِّيَ رَجُلٌ عَلَى عَهْدِهِ ﷺ فَقَالَ رَجُلٌ آخَرُ – وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَسْمَعُ – : أَبْشِرْ بِالْجَنَّةِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ " **أَوَلا تَدْرِي، فَلَعَلَّهُ تَكَلَّمَ فِيْمَا لا يَعْنِيْهِ أَوْ بَخِلَ بِمَا لا يَنْقُصُهُ.**"(٥)، وفي رواية "اسْتُشْهِدَ رَجُلٌ " .

وكَذَلِكَ كَانَ الصَّحَابَةُ ﵃ يَخْشَوْنَ مِنَ الْوَعِيدِ عَلَى ادِّخَارِ الْمَالِ، فَعَنْ طَلْحَةَ بْنِ يَحْيَى عَنْ جَدَّتِهِ سُعْدَى زَوْجَةِ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ ﵄ قَالَتْ:" **دَخَلْتُ يَوْماً عَلَى طَلْحَةَ، فَرَأَيْتُ مِنْهُ ثِقَلاً، فَقُلْتُ لَهُ: مَالَكَ ؟ لَعَلَّهُ رَابَكَ مِنَّا شَيْءٌ فَنُعْتِبَكَ ؟ قَالَ: لا، وَلَنِعْمَ حَلِيْلَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ أَنْتِ، وَلَكِنِ اجْتَمَعَ عِنْدِيْ مَالٌ، وَلا أَدْرِيْ كَيْفَ أَصْنَعُ بِهِ ؟ قَالَتْ: وَمَا يُغِمُّكَ مِنْهُ ؟ ادْعُ قَوْمَكَ فَاقْسِمْهُ بَيْنَهُمْ. فَقَالَ: يَا غُلامُ عَلَيَّ بِقَوْمِي** ".

---

(١) رواه البخاري عن أبي سروعة عقبة بن الحارث برقم (٨٥١) .

(٢) رواه الطبراني عن ابن مسعود (١٠٢٠) والبزار في مسنده (١٩٧٨) والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٣٤٥) وقال المنذري في الترغيب والهيثمي في المجمع : إسناده حسن .

(٣) رواه أحمد في مسنده عن ابن مسعود (٣٩١٥) وابن حبان في صحيحه (٣٢٦٣) والطبراني في الكبير عن أبي أمامه (٧٥٠٦) واللفظ له، وقال الهيثمي في المجمع: رجاله ثقات .

(٤) رواه أحمد في مسنده عن سلمة بن الأكوع (١٦٥١٠) والطبراني في الكبير (٦٢٩٠) وابن حبان في صحيحه (٣٢٦٤) وقال الهيثمي في المجمع: رجاله رجال الصحيح .

(٥) رواه الترمذي عن أنس بن مالك (٢٣١٦) وقال: حديث حسن غريب، وقال المنذري في الترغيب: رواته ثقات .

فَسَأَلْتُ الْخَازِنَ: كَمْ قَسَّمَ ؟ قَالَ: أَرْبَعَمِائَةِ أَلْفٍ" (١). وعَنِ الْحَسَنِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ:" بَاعَ أَرْضاً بِسَبْعِمِائَةِ أَلْفٍ - يعني طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللَّهِ - فَبَاتَ ذَلِكَ الْمَالُ عِنْدَهُ لَيْلَةً، فَبَاتَ أَرِقاً مِنْ مَخَافَةِ ذَلِكَ الْمَالِ حَتَّى أَصْبَحَ فَفَرَّقَهُ." وفي رِوَايَةٍ أَنَّهُ قَالَ لَمَّا بَاعَ الأَرْضَ: "إِنَّ رَجُلاً تَبِيْتُ هَذِهِ عِنْدَهُ فِيْ بَيْتِهِ لا يَدْرِيْ مَا يَطْرُقُهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ لَغَرِيْرٌ بالله، فَبَاتَ وَرُسُلُهُ تَخْتَلِفُ فِي سِكَكِ الْمَدِيْنَةِ حَتَّى السَّحَرِ وَمَا عِنْدَهُ دِرْهَمٌ " (٢) .

وَإِنْفَاقُ الْمَالِ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ دَلِيْلٌ عَلَى ثِقَةِ الْعَبْدِ بِرَبِّهِ وَحُسْنِ رَجَائِهِ مِنْهُ، كَمَا قَالَ ﷺ: "وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ."(٣)، وقَالَ ذُو النُّونِ المصريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: " ثَلاثَةٌ مِنْ أَعْلامِ الرَّجَاءِ - أَيْ مِنْ عَلامَاتِهِ - الْعِبَادَةُ بِحَلاوَةِ الْقَلْبِ، وَالإِنْفَاقُ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ، وَالْمُثَابَرَةُ عَلَى فَضَائِلِ الأَعْمَالِ بِخَالِصِ التَّنَافُسِ " (٤) .

وَهُوَ كَذَلِكَ سَبَبٌ فِي إِنْفَاقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْعَبْدِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبأ: ٣٩]، ويَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الحَدِيثِ القُدُسِيِّ: "يَا ابْنَ آدَمَ أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ."(٥)، كَمَا يَدْعُو لَهُ المَلَكَانِ الْمُوَكَّلانِ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيَقُولانِ:" اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً."(٦)، وقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ الرَّازِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "بَدَأَ أَمْرِيْ فِي سِيَاحَتِي حِيْنَ خَرَجْتُ مِنَ الرَّيِّ، فَوَقَعَ فِي قَلْبِيْ شَأْنُ الْمُؤْنَةِ وَالنَّفَقَةِ، فَتَفَكَّرْتُ فِي نَفْسِيْ، فَإِذَا بِهَاتِفٍ فِي قَلْبِيْ:" أَخْرِجْ مَا فِيْ الْجَيْبِ، حَتَّى نُعْطِيَكَ مِنَ الْغَيْبِ" (٧) .

---

(١) رواه الطبراني في الكبير عن سعدى بنت عوف (١٩٥) والحاكم في المستدرك (٥٦١٥) وقال المنذري في الترغيب: بإسناد حسن، وقال الهيثمي في المجمع: رجاله ثقات .

(٢) رواه أحمد في «الزهد» (٧٨٧) وأبو نعيم في «الحلية» (١ / ٨٩) والدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (٤٨٤).

(٣) رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري (٥٥٦) .

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩ / ٣٩٣) .

(٥) رواه البخاري عن أبي هريرة (٤٦٨٤) و(٥٣٥٢) ومسلم (٢٣٥٥) و(٢٣٥٦) .

(٦) تقدم تخريجه .

(٧) أخرجه الخطيب البغدادي في «الزهد والرقائق» برقم (٨) .

فائـــــــــدة

قَالَ الإِمَامُ الغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ :" اعْلَمْ أَنَّ الْمَالَ مِثْلُ حَيَّةٍ فِيْهَا سُمٌّ وَتِرْيَاقٌ، فَفَوَائِدُهُ تِرْيَاقُهُ، وَغَوَائِلُهُ سُمُومُهُ، فَمَنْ عَرَفَ غَوَائِلَهُ وَفَوَائِدَهُ أَمْكَنَهُ أَنْ يَحْتَرِزَ مِنْ شَرِّهِ، وَيَسْتَدِرَّ خَيْرَهُ؛ أَمَّا الْفَوَائِدُ فَهِيَ تَنْقَسِمُ إلى دُنْيَوِيَّةٍ وَدِيْنِيَّةٍ، أَمَّا الدُّنْيَوِيَّةُ فَلا حَاجَةَ إلى ذِكْرِهَا، فَإِنَّ مَعْرِفَتَهَا مَشْهُورَةٌ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَ أَصْنَافِ الْخَلْقِ، وَلَوْلا ذَلِكَ لَمْ يَتَهَالَكُوْا عَلَى طَلَبِهَا، وَأَمَّا الدِّيْنِيَّةُ فَتَنْحَصِرُ جَمِيْعُهَا في ثَلاثَةِ أَنْوَاعٍ :

النَّوْعُ الأَوَّلُ: أَنْ يُنْفِقَهُ عَلَى نَفْسِهِ إِمَّا في عِبَادَةٍ أَوْ في الاِسْتِعَانَةِ عَلَى عِبَادَةٍ، أَمَّا في الْعِبَادَاتِ فَهُوَ كَالاِسْتِعَانَةِ بِهِ عَلَى الْحَجِّ وَالْجِهَادِ، فَإِنَّهُ لا يُتَوَصَّلُ إِلَيْهِمَا إِلاَّ بِالْمَالِ، وَهُمَا مِنْ أَمَّهَاتِ الْقُرُبَاتِ، وأَمَّا فِيْمَا يُقَوِّيْهِ عَلَى الْعِبَادَةِ فَذَلِكَ هُوَ الْمَطْعَمُ وَالْمَلْبَسُ وَالْمَسْكَنُ وَالْمَنْكَحُ وَضَرُورَاتُ الْمَعِيْشَةِ، فَإِنَّ هَذِهِ الْحَاجَاتِ إِذَا لَمْ تَتَيَسَّرْ كَانَ الْقَلْبُ مَصْرُوفاً إلى تَدْبِيْرِهَا فَلا يَتَفَرَّغُ لِلدِّيْنِ، **وَمَا لا يُتَوَصَّلُ إلى الْعِبَادَةِ إِلاَّ بِهِ فَهُوَ عِبَادَةٌ**، فَأَخْذُ الْكِفَايَةِ مِنَ الدُّنْيَا لأَجْلِ الاِسْتِعَانَةِ عَلَى الدِّيْنِ مِنَ الْفَوَائِدِ الدِّيْنِيَّةِ، وَلا يَدْخُلُ في هَذَا التَّنَعُّمُ وَالزِّيَادَةُ عَلَى الْحَاجَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ حُظُوظِ الدُّنْيَا فَقَطْ .

النَّوْعُ الثَّانِيْ: مَا يَصْرِفُهُ إلى النَّاسِ، وَهُوَ أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ: الصَّدَقَةُ، وَالْمُرُوءَةُ، وَوِقَايَةُ الْعِرْضِ، وَأُجْرَةُ الاِسْتِخْدَامِ .

أَمَّا الصَّدَقَةُ: فَلا يَخْفَى ثَوَابُهَا أَنَّهَا تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى .

وَأَمَّا الْمُرُوْءَةُ: فَهِيَ صَرْفُ الْمَالِ في ضِيَافَةٍ وَهَدِيَّةٍ وَإِعَانَةٍ وَمَا يَجْرِيْ مَجْرَاهَا، فَبِهَا يَكْتَسِبُ الْعَبْدُ الإِخْوَانَ وَالأَصْدِقَاءَ، وَبِهِ يَكْتَسِبُ السَّخَاءَ وَيَلْتَحِقُ بِزُمْرَةِ الأَسْخِيَاءِ – قُلْتُ: كَمَا أَنَّهُ بِهَذَا الْمَالِ يُؤَلِّفُ قُلُوْبَ النَّاسِ لِلدُّخُولِ في الإِسْلامِ وَرُجُوْعِ الْعُصَاةِ وَالْمُذْنِبِيْنَ إلى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَيُنْفِقُهُ في خِدْمَتِهِمْ وَإِكْرَامِهِمْ وَتَعْلِيْمِهِمْ وَتَأْهِيْلِهِمْ لأَنْ يَصِيْرُوْا دُعَاةً إلى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَيُجَهِّزُهُمْ لِلْخُرُوْجِ في سَبِيْلِ اللَّهِ لِلدَّعْوَةِ وَالْجِهَادِ، وَنَاهِيْكَ بِهَذَا خَيْراً عَظِيْماً .

وذَلِكَ كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَفْعَلُ، حَيْثُ أَعْطَى رَجُلاً غَنَماً بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَأَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ أَسْلِمُوْا، فَإِنَّ مُحَمَّداً يُعْطِي عَطَاءً لا يَخْشَى الْفَاقَةَ (١)؛ وَأَعْطَى ﷺ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ مِائَةً مِنَ النَّعَمِ ثُمَّ مِائَةً ثُمَّ مِائَةً، فَقَالَ صَفْوَانُ ﷺ:" **لَقَدْ أَعْطَانِيْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا أَعْطَانِيْ وَإِنَّهُ لأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ، فَمَا بَرِحَ يُعْطِيْنِيْ حَتَّى إِنَّهُ لأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ** "(٢). وقَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ: "**إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُسْلِمُ مَا يُرِيْدُ إِلاَّ الدُّنْيَا، فَمَا يُسْلِمُ حَتَّى يَكُوْنَ الإِسْلامُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا** " - (٣) .

وَأَمَّا وِقَايَةُ الْعِرْضِ: فَنَعْنِيْ بِهِ بَذْلَ الْمَالِ لِدَفْعِ هَجْوِ الشُّعَرَاءِ وَثَلْبِ السُّفَهَاءِ وَقَطْعِ أَلْسِنَتِهِمْ وَدَفْعِ شَرِّهِمْ، وَهُوَ أَيْضاً مَعَ تَنَجُّزِ فَائِدَتِهِ فِي الْعَاجِلَةِ مِنَ الْحُظُوْظِ الدِّيْنِيَّةِ .

وَأَمَّا الاِسْتِخْدَامُ: فَهُوَ أَنَّ الأَعْمَالَ الَّتِيْ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا الإِنْسَانُ لِتَهْيِئَةِ أَسْبَابِهِ كَثِيْرَةٌ، وَلَوْ تَوَلاَّهَا بِنَفْسِهِ ضَاعَتْ أَوْقَاتُهُ وتَعَذَّرَ عَلَيْهِ سُلُوكُ سَبِيْلِ الآخِرَةِ بِالْفِكْرِ وَالذِّكْرِ الَّذِيْ هُوَ أَعْلَى مَقَامَاتِ السَّالِكِيْنَ، وَكُلُّ مَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَقُومَ بِهِ غَيْرُكَ وَيَحْصُلَ بِهِ غَرَضُكَ فَأَنْتَ مَتْعُوبٌ إِذَا انْشَغَلْتَ بِهِ، إِذْ عَلَيْكَ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ وَالذِّكْرِ وَالْفِكْرِ مَا لا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَقُومَ بِهِ غَيْرُكَ، فَتَضْيِيْعُ الْوَقْتِ فِي غَيْرِهِ خُسْرَانٌ .

النَّوْعُ الثَّالِثُ: مَا لا يَصْرِفُهُ إِلَى إِنْسَانٍ مُعَيَّنٍ، وَلَكِنْ يَحْصُلُ بِهِ خَيْرٌ عَامٌّ، كَبِنَاءِ الْمَسَاجِدِ وَالْقَنَاطِرِ وَالرِّبَاطَاتِ وَدُوْرِ الْمَرْضَى وغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأَوْقَافِ الْمُرْصُوْدَةِ لِلْخَيْرَاتِ، وَهِيَ مِنَ الْخَيْرَاتِ الْمُؤَبَّدَةِ الدَّارَّةِ بَعْدَ الْمَوْتِ الْمُسْتَجْلِبَةِ بَرَكَةَ أَدْعِيَةِ الصَّالِحِيْنَ إِلَى أَوْقَاتٍ مُتَمَادِيَةٍ، وَنَاهِيكَ بِهَا خَيْراً، فَهَذِهِ جُمْلَةُ فَوَائِدِ الْمَالِ فِي الدِّيْنِ .

---

(١) رواه مسلم عن أنس بن مالك (٢٣١٢) .

(٢) رواه مسلم عن ابن شهاب الزهري (٢٣١٤) .

(٣) رواه مسلم عن أنس بن مالك برقم (٢٣١٢) .

وَأَمَّا الآفَاتُ فَدِيْنِيَّةٌ ودُنْيَوِيَّةٌ؛ أَمَّا الدِّيْنِيَّةُ فَثَلاثٌ :

الأُوْلَى: أَنَّهُ يَجُرُّ إِلى الْمَعَاصِيْ لِلتَّمَكُّنِ بِهِ مِنْهَا، إِذْ مِنَ الْعِصْمَةِ أَنْ لا تَجِدَ، وَمَتَى اسْتَشْعَرَتِ النَّفْسُ الْقُدْرَةَ عَلَى الْمَعْصِيَةِ انْبَعَثَ دَاعِيَتُهَا إِلَيْهَا، فَلا تَسْتَقِرُّ حَتَّى تَرْتَكِبَهَا، فَإِنِ اقْتَحَمَ مَا اشْتَهَاهُ هَلَكَ، وَإِنْ صَدَّهُ وَقَعَ فِي شِدَّةٍ، إِذِ الصَّبْرُ مَعَ الشِّدَّةِ أَشَدُّ، وَفِتْنَةُ السَّرَّاءِ أَعْظَمُ مِنْ فِتْنَةِ الضَّرَّاءِ .

الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ يَجُرُّ إِلى التَّنَعُّمِ فِي الْمُبَاحَاتِ حَتَّى يَصِيْرَ إِلْفاً لَهُ لا يَقْدِرُ عَلَى تَرْكِهِ، فَإِذَا اشْتَدَّ أُنْسُهُ بِهِ رُبَّمَا لا يَقْدِرُ عَلَى التَّوَصُّلِ إِلَيْهِ بِالْكَسْبِ الْحَلالِ فَيَقْتَحِمُ الشُّبُهَاتِ لِيَنْتَظِمَ لَهُ أَمْرُ دُنْيَاهُ، وَيَتَيَسَّرَ لَهُ تَنَعُّمُهُ، حَتَّى لَوْ لَمْ يَتَوَصَّلْ إِلَيْهِ إِلاَّ بِسَعْيٍ أَوْ كَسْبِ حَرَامٍ لاقْتَرَفَهُ تَحْصِيْلاً لِمَأْلُوْفَاتِهِ، إِذْ مَنْ كَثُرَ مَالُهُ كَثُرَ احْتِيَاجُهُ إِلى مُعَاشَرَةِ النَّاسِ وَمُخَالَطَتِهِمْ، وَمِنْ لازِمِ ذَلِكَ أَنَّهُ يُنَافِقُهُمْ وَيَعْصِي اللَّهَ فِي طَلَبِ رِضَاهُمْ أَوْ سَخَطِهِمْ، فَتَثُورُ الْعَدَاوَةُ وَالْحِقْدُ وَالْحَسَدُ وَالرِّيَاءُ وَالْكَيْدُ وَالْكَذِبُ وَالْغِيْبَةُ وَالنَّمِيْمَةُ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْمَعَاصِيْ وَالأَخْلاقِ وَالأَحْوَالِ السَّيِّئَةِ الْمُوْجِبَةِ لِلْمَقْتِ وَاللَّعْنِ .

الثَّالِثَةُ: وَهِيَ الَّتِيْ لا يَنْفَكُّ عَنْهَا أَحَدٌ مِنْ ذَوِيْ الأَمْوَالِ، وَهُوَ الاشْتِغَالُ بِإِصْلاحِ حَالِهِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ عز وجل وَمَرْضَاتِهِ، وكُلُّ شُغْلٍ عَنِ اللَّهِ فَهُوَ شُؤْمٌ وَخُسْرَانٌ مُبِيْنٌ، لِذَلِكَ قَالَ عِيْسَى عليه السلام: "**فِي الْمَالِ ثَلاثُ آفَاتٍ: أَنْ يَأْخُذَهُ مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ، فَقِيلَ: إِنْ أَخَذَهُ مِنْ حِلِّهِ؟ فَقَالَ: يَضَعُهُ فِيْ غَيْرِ حَقِّهِ، فَقِيْلَ: إِنْ وَضَعَهُ فِيْ حَقِّهِ ؟ فَقَالَ: يَشْغَلُهُ إِصْلاحُهُ عَنِ اللَّهِ عز وجل .**"[1]، وَهَذَا هُوَ الدَّاءُ الْعُضَالُ، فَإِنَّ أَصْلَ الْعِبَادَاتِ وَمُخَّهَا وَسِرَّهَا ذِكْرُ اللَّهِ وَالتَّفَكُّرُ فِي جَلالِهِ، وَذَلِكَ يَسْتَدْعِي قَلْباً فَارِغاً، وَمُحَالٌ فَرَاغُهُ مَعَ مَا تَعَلَّقَ بِهِ مِنْ إِصْلاحِ الْمَالِ وَالاعْتِنَاءِ بِتَحْصِيْلِهِ وَدَفْعِ مَضَارِّهِ، وَذَلِكَ بَحْرٌ لا سَاحِلَ لَهُ، وَأَوْدِيَةُ أَفْكَارِ الدُّنْيَا لا نِهَايَةَ لَهَا، فَهَذِهِ جُمْلَةُ الآفَاتِ الدِّيْنِيَّةِ سِوَى مَا يُقَاسِيْهِ أَرْبَابُ الأَمْوَالِ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الآخِرَةِ مِنَ الْخَوْفِ وَالْحُزْنِ وَالْهَمِّ وَالْغَمِّ الدَّائِمِ، وَالتَّعَبِ فِي دَفْعِ الْحُسَّادِ وَتَجَشُّمِ الْمَصَاعِبِ

---

(١) رواه أحمد في الزهد ص (٩٢) والبيهقي في الزهد الكبير ص (١٣٤) .

وَالْمَشَاقِّ فِي حِفْظِ الأَمْوَالِ وَكَسْبِهَا، فَإِذَنْ **تِرْيَاقُ الْمَالِ أَخْذُ الْقَوْتِ مِنْهُ، وَصَرْفُ الْبَاقِيْ إِلى وُجُوْهِ الْخَيْرِ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ سُمُوْمٌ وَآفَاتٌ** .

فَإِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ فَالْمَالُ لَيْسَ بِخَيْرٍ مَحْضٍ وَلا شَرٌّ مَحْضٌ، بَلْ سَبَبٌ لِلأَمْرَيْنِ جَمِيْعاً، يُمْتَدَحُ تَارَةً لا مَحَالَةَ وَيُذَمُّ أُخْرَى، وَمَقْصَدُ الأَكْيَاسِ وَأَرْبَابِ الْبَصَائِرِ سَعَادَةُ الآخِرَةِ، وَالَّتِيْ هِيَ النَّعِيْمُ الدَّائِمُ وَالْمُلْكُ الْمُقِيْمُ، وَالْقَصْدُ إِلى هَذَا دَأْبُ الْكِرَامِ وَالأَكْيَاسِ، إِذْ قِيْلَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ : مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ وَأَكْيَسُهُمْ ؟ فَقَالَ ﷺ: "**أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْراً، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ اسْتِعْدَاداً**"[(١)]. فَالْمَالُ آلَةٌ وَوَسِيْلَةٌ إِلَى مَقْصُوْدٍ صَحِيْحٍ، مَنْ عَرَفَهُ وَاسْتَعْمَلَهُ لِذَلِكَ الْمَقْصُودِ فَقَدْ أَحْسَنَ وَانْتَفَعَ، وَكَانَ مَالُهُ مَحْمُوداً فِي حَقِّهِ، كَمَا قَالَ ﷺ: "**نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ**."[(٢)]، كَمَا يَصْلُحُ أَنْ يُتَّخَذَ آلَةً وَوَسِيْلَةً إِلى مَقَاصِدَ فَاسِدَةٍ، وَهِيَ الْمَقَاصِدُ الصَّادَّةُ عَنْ سَعَادَةِ الآخِرَةِ وَتَسُدُّ سَبِيْلَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، فَهُوَ إِذاً مَحْمُوْدٌ مَذْمُوْمٌ، مَحْمُوْدٌ بِالإِضَافَةِ إِلى الْمَقْصَدِ الْمَحْمُودِ، وَمَذْمُوْمٌ بِالإِضَافَةِ إِلَى الْمَقْصَدِ الْمَذْمُوْمِ.

وَلَمَّا كَانَتِ الطِّبَاعُ مَائِلَةً إِلى اتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ القَاطِعَةِ لِسَبِيْلِ اللهِ، وَكَانَ الْمَالُ مُسَهِّلاً لَهَا وَآلَةً إِلَيْهَا عَظُمَ النَّظَرُ فِيمَا يَزِيْدُ عَلَى قَدْرِ الْكِفَايَةِ، فَاسْتَعَاذَ الأَنْبِيَاءُ عليهم السلام مِن شَرِّهِ، حَتَّى قَالَ نَبِيُّنَا ﷺ: "**اللَّهُمَّ اجْعَلْ قُوْتَ آلِ مُحَمَّدٍ كَفَافاً** ". فَلَمْ يَطْلُبْ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا تَمَحَّضَ خَيْرُهُ، وقَالَ ﷺ :" **اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِيْناً، وَأَمِتْنِي مِسْكِيْناً وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِيْنِ**."[(٣)]، وقَالَ ﷺ:" **تَعِسَ عَبْدُ الدِّيْنَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلا انْتَقَشَ**."[(٤)]، فَبَيَّنَ أَنَّ مُحِبَّهُمَا

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه عن ابن عمر (١٥٣١) والطبراني في الأوسط (٤٦٧١) وفي الصغير (١٠٠٨) والحاكم في المستدرك (٨٦٢٣) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي. وابن المبارك في «الزهد» (٢٧٢) والبيهقي في «الزهد» الكبير (٤٥٦) والبزار في مسنده (٦١٧٥) وقال الهيثمي: رجاله ثقات. وجوَّدَ إسنادَه الحافظُ العراقيُّ في المغني .

(٢) رواه أحمد في مسنده عن عمرو بن العاص (١٧٧٦٣) والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٩٩) وابن حبان في صحيحه (٣٢١٠) وصححه الحافظ العراقي في «المغني» .

(٣) رواه الترمذي عن أنس (٢٣٥٢) وابن ماجه (٤١٢٦) والحاكم في المستدرك (٧٩١١) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي .

(٤) رواه البخاري عن أبي هريرة (٢٨٨٧) .

عَابِدٌ لَهُمَا . وقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ رَحِمَهُ اللهُ: **"الدِّرْهَمُ عَقْرَبٌ، فَإِنْ لَمْ تُحْسِنْ رُقْيَتَهُ فَلا تَأْخُذْهُ، فَإِنَّهُ إِنْ لَدَغَكَ قَتَلَكَ بِسُمِّهِ."** قِيلَ: وَمَا رُقْيَتُهُ ؟ قَالَ:" **أَخْذُهُ مِنْ حِلِّهِ وَوَضْعُهُ فِي حِلِّهِ** " [(١)] .

فَالْعَاقِلُ يَأْخُذُ حَاجَتَهُ مِنْهَا وَيُقَدِّمُ مَا فَضَلَ لآخِرَتِهِ، وَيَرْضَى بِالْقَلِيْلِ مِنْهَا مَعَ سَلامَةِ دِيْنِهِ، كَمَا فَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ حِيْنَمَا صَلَّى فِي خَمِيْصَةٍ لَهَا أَعْلامٌ فَنَظَرَ إِلى أَعْلامِهَا، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ:" **اذْهَبُوْا بِخَمِيْصَتِيْ هَذِهِ إِلى أَبِيْ جَهْمٍ وَأْتُوْنِي بِأَنْبِجَانِيَّةِ أَبِيْ جَهْمٍ، فَإِنَّهَا أَلْهَتْنِيْ آنِفاً عَنْ صَلاتِيْ** " [(٢)] .

وَحِيْنَمَا قَامَ أَبُو طَلْحَةَ يُصَلِّيْ فِي حَائِطِهِ طَارَ دُبْسِيٌّ، فَطَفِقَ يَتَرَدَّدُ يَلْتَمِسُ مَخْرَجاً، فَأَعْجَبَهُ ذَلِكَ، فَجَعَلَ يُتْبِعُهُ بَصَرَهُ سَاعَةً، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى صَلاتِهِ، فَإِذَا هُوَ لا يَدْرِيْ كَمْ صَلَّى، فَقَالَ: لَقَدْ أَصَابَتْنِيْ فِيْ مَالِيْ هَذَا فِتْنَةٌ، فَجَاءَ إِلَى رَسُول اللهِ ﷺ فَذَكَرَ لَهُ الَّذِيْ أَصَابَهُ فِيْ حَائِطِهِ مِنَ الْفِتْنَةِ وَقَالَ: يَا رَسُوْلَ اللهِ! هُوَ صَدَقَةٌ للهِ فَضَعْهُ حَيْثُ شِئْتَ [(٣)]؛ وَهَذَا هُوَ حَالُ الأَكْيَاسِ، يَرْضَوْنَ بَالْيَسِيْرِ مِنَ الدُّنْيَا مَعَ سَلامَةِ الدِّيْنِ، وَإِذَا طَغَى شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا وَأَثَّرَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الدِّيْنِ كَانُوْا يُسَارِعُونَ بِالْخُرُوجِ مِنْهُ وَتَقْدِيْمِهِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَلَمَّا قِيْلَ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيْزِ رَحِمَهُ اللهُ بِمَرَضِهِ: تَرَكْتَ أَوْلادَكَ الثَّلاثَةَ عَشَرَ فُقَرَاءَ، لا دِيْنَارَ لَهُمْ وَلا دِرْهَمَ، قَالَ:" **لَمْ أَمْنَعْهُمْ حَقّاً لَهُمْ، وَلَمْ أُعْطِهِمْ حَقّاً لِغَيْرِهِمْ، وَإِنَّمَا وَلَدِيْ أَحَدُ رَجُلَيْنِ، إِمَّا مُطِيْعٌ للهِ، فَاللهُ يَكْفِيْهِ، وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِيْنَ، وَإِمَّا عَاصٍ للهِ فَلا أُبَالِيْ عَلامَ وَقَعَ** " [(٤)] .

---

(١) «إحياء علوم الدين» بتصرف يسير (٣/ ٣٢٠ – ٣٢٥).

(٢) رواه البخاري عن عائشة (٣٧٣) و(٧٥٢) و (٥٨١٧) ومسلم (١٢٦٦) و (١٢٦٧) .

(٣) «موطأ مالك» (٣٢٦) .

(٤) إحياء علوم الدين (٣/٢٣٤) .

وأَصَابَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبِ الْقُرَظِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ مَالاً، فَقِيلَ لَهُ: ادَّخِرْ لِوَلَدِكَ مِنْ بَعْدِكَ، قَالَ: "**لا، ولَكِنْ أَدَّخِرُهُ لِنَفْسِي عِنْدَ رَبِّي، وَأَدَّخِرُ رَبِّيْ لِوَلَدِيْ**" [(١)] .

وقَالَ أَبُو حَازِمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: "**اعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ وَقَدْ كَانَ لَهُ أَهْلٌ قَبْلَكُمْ، فَآثِرْ نَفْسَكَ أَيُّهَا الْمَرْءُ بِالنَّصِيحَةِ عَلَى وَلَدِكَ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَا تُخَلِّفُ مَالَكَ فِي يَدِ رَجُلَيْنِ: عَامِلٍ فِيهِ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ فَيَشْقَى بِمَا جَمَعْتَ لَهُ، وعَامِلٍ فِيهِ بِطَاعَةِ اللَّهِ فَيَسْعَدُ بِمَا شَقِيتَ لَهُ، فَارْجُ لِمَنْ قَدَّمْتَ مِنْهُمْ رَحْمَةَ اللَّهِ، وثِقْ لِمَنْ أَخَّرْتَ مِنْهُمْ بِرِزْقِ اللَّهِ**"[(٢)] .

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: "**مُصِيْبَتَانِ لَمْ يَسْمَعِ الأَوَّلُونَ وَالآخِرُوْنَ بِمِثْلِهِمَا تُصِيْبَانِ الْعَبْدَ عِنْدَ مَوْتِهِ، يُؤْخَذُ مِنْهُ مَالُهُ كُلُّهُ، وَيُسْأَلُ عَنْهُ كُلِّهِ**" [(٣)] .

"فَمِثَالُ الْمَالِ مِثَالُ الْحَيَّةِ الَّتِي فِيهَا تِرْيَاقٌ نَافِعٌ وَسُمٌّ نَاقِعٌ، فَإِنْ أَصَابَهَا الْمُعْزِمُ الَّذِي يَعْرِفُ وَجْهَ الاِحْتِرَازِ عَنْ سُمِّهَا وَطَرِيْقَ اسْتِخْرَاجِ تِرْيَاقِهَا النَّافِعِ كَانَتْ نِعْمَةً، وَإِنْ أَصَابَهَا السَّوَادِيُّ الْغِرُّ – أَيِ الْمُغَفَّلُ الَّذِي يَنْخَدِعُ – فَهِيَ عَلَيْهِ بَلاءٌ وهَلاكٌ؛ وَهُوَ مِثْلُ الْبَحْرِ الَّذِي تَحْتَهُ أَصْنَافُ الْجَوَاهِرِ وَاللَّآلِئِ، فَمَنْ ظَفِرَ بِالْبَحْرِ فَإِنْ كَانَ عَالِماً بِالسِّبَاحَةِ وَطَرِيْقِ الْغَوْصِ وَطَرِيْقِ الاِحْتِرَازِ عَنْ مُهْلِكَاتِ الْبَحْرِ فَقَدْ ظَفِرَ بِنِعَمِهِ، وَإِنْ خَاضَهُ جَاهِلاً بِذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ، فَلِذَلِكَ مَدَحَ اللَّهُ الْمَالَ وَسَمَّاهُ خَيْراً، وَمَدَحَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وقَالَ: "**نِعْمَ الْعَونُ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ الْمَالُ.**"[(٤)]، وَكَذَلِكَ مَدَحَ الْجَاهَ وَالْعِزَّ إِذْ مَنَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ ﷺ بِأَنْ أَظْهَرَهُ عَلَى الدِّيْنِ كُلِّهِ وَحَبَّبَهُ فِيْ قُلُوبِ الْخَلْقِ، وَهُوَ الْمَعْنِيُّ بِالْجَاهِ، وَلَكِنَّ الْمَنْقُولَ فِيْ مَدْحِهِمَا قَلِيْلٌ، وَالْمَنْقُولُ فِي ذَمِّ الْمَالِ وَالْجَاهِ كَثِيْرٌ، وَحَيْثُ ذُمَّ الرِّيَاءُ فَهُوَ ذَمُّ الْجَاهِ،

---

(١) «الزهد الكبير» للبيهقي برقم (٤٣٦) .

(٢) «الزهد الكبير» للبيهقي برقم (٤٣٨) و«المجالسة وجواهر العلم» للدينوري (٩٦٤) .

(٣) إحياء علوم الدين (٢٣٤/٣) .

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية محمد بن المنكدر عن جابر، ورواه أبو القاسم البغوي من رواية ابن المنكدر مرسلاً، ومن طريقه رواه القضاعي في مسند الشهاب، انتهى. ورواه ابن أبي الدنيا في «إصلاح المال» عن محمد بن المنكدر من قوله (٥٨) بلفظ:" **نِعْمَ الْعَوْنُ عَلَى الدِّيْنِ الْغِنَى**".

إِذِ الرِّيَاءُ مَقْصُودُهُ اجْتِلابُ الْقُلُوب، وَمَعْنَى الْجَاهِ مُلْكُ الْقُلُوب، وَإِنَّمَا كَثُرَ هَذَا وَقَلَّ ذَاكَ لأَنَّ النَّاسَ أَكْثَرُهُمْ جُهَّالٌ بِطَرِيْقِ الرُّقْيَةِ لِحَيَّةِ الْمَالِ وَطَرِيْقِ الْغَوْصِ فِيْ بَحْرِ الْجَاهِ، فَوَجَبَ تَحْذِيْرُهُمْ، فَإِنَّهُمْ يَهْلِكُونَ بِسُمِّ الْمَالِ قَبْلَ الْوُصُولِ إِلَى تِرْيَاقِهِ، وَيُهْلِكُهُمْ تِمْسَاحُ بَحْرِ الْجَاهِ قَبْلَ الْعُثُورِ عَلَى جَوَاهِرِهِ، وَلَوْ كَانَا مَذْمُومَيْنِ بِالإِضَافَةِ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ لَمَا تُصُوِّرَ أَنْ يَنْضَافَ إِلَى النُّبُوَّةِ الْمُلْكُ، كَمَا كَانَ لِرَسُولِنَا ﷺ، وَلا أَنْ يَنْضَافَ إِلَيْهَا الْغِنَى كَمَا كَانَ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَالنَّاسُ كُلُّهُمْ صِبْيَانٌ وَالأَمْوَالُ حَيَّاتٌ، وَالأَنْبِيَاءُ الْعَارِفُونَ الْمُعْزِمُونَ، فَقَدْ يَضُرُّ الصَّبِيَّ مَا لا يَضُرُّ الْمُعْزِمَ؛ نَعَمْ، الْمُعْزِمُ لَوْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ يُرِيْدُ بَقَاءَهُ وَصَلاحَهُ وَقَدْ وَجَدَ حَيَّةً وَعَلِمَ أَنَّهُ لَوْ أَخَذَهَا لأَجْلِ تِرْيَاقِهَا لاقْتَدَى بِهِ وَلَدُهُ وَأَخَذَ الْحَيَّةَ إِذَا رَآهُ لِيَلْعَبَ بِهَا فَيَهْلِكَ، فَلَهُ غَرَضٌ فِيْ التِّرْيَاق، وَلَهُ غَرَضٌ فِيْ حِفْظِ الْوَلَدِ، فَوَاجِبٌ عَلَيْهِ أَنْ يَزِنَ غَرَضَهُ فِيْ التِّرْيَاق بِغَرَضِهِ فِيْ حِفْظِ الْوَلَدِ، فَإِذَا كَانَ يَقْدِرُ عَلَى الصَّبْرِ عَنِ التِّرْيَاق وَلا يَسْتَضِرُّ بِهِ ضَرَراً كَثِيْراً، وَلَوْ أَخَذَهَا لأَخَذَهَا الصَّبِيُّ، وَيَعْظُمُ ضَرَرُهُ بِهَلاكِهِ، فَوَاجِبٌ عَلَيْهِ أَنْ يَهْرُبَ عَنِ الْحَيَّةِ إِذَا رَآهَا، وَيُشِيْرَ عَلَى الصَّبِيِّ بِالْهَرَب، وَيُقَبِّحَ صُوْرَتَهَا فِيْ عَيْنِهِ، وَيُعَرِّفَهُ أَنَّ فِيْهَا سُمًّا قَاتِلاً لا يَنْجُو مِنْهُ أَحَدٌ، وَلا يُحَدِّثَهُ أَصْلاً بِمَا فِيْهَا مِنْ نَفْعِ التِّرْيَاق، فَإِنَّ ذَلِكَ رُبَّمَا يَغُرُّهُ فَيُقْدِمُ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ تَمَامِ الْمَعْرِفَةِ .

وَكَذَلِكَ الْغَوَّاصُ إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ لَوْ غَاصَ فِيْ الْبَحْرِ بِمَرْأًى مِنْ وَلَدِهِ لاتَّبَعَهُ وَهَلَكَ، فَوَاجِبٌ عَلَيْهِ أَنْ يُحَذِّرَ الصَّبِيَّ سَاحِلَ الْبَحْرِ وَالنَّهْرِ، فَإِنْ كَانَ لا يَنْزَجِرُ الصَّبِيُّ بِمُجَرَّدِ الزَّجْرِ مَهْمَا رَأَى وَالِدَهُ يَحُومُ حَوْلَ السَّاحِلِ، فَوَاجِبٌ عَلَيْهِ أَنْ يَبْعُدَ مِنَ السَّاحِلِ مَعَ الصَّبِيِّ وَلا يَقْرُبَ مِنْهُ بَيْنَ يَدَيْهِ .

فَكَذَلِكَ الأُمَّةُ فِيْ حِجْرِ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كَالصِّبْيَانِ وَالأَغْبِيَاءِ، وَلِذَلِكَ قَالَ ﷺ :" **إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ وَالِدٍ لِوَلَدِهِ.**"[١]، وَقَالَ ﷺ : "**إِنَّكُمْ تَتَهَافَتُونَ عَلَى النَّارِ تَهَافُتَ الْفَرَاشِ،**

---

(١) رواه أبو داود في سننه عن أبي هريرة (٨) والنسائي في سننه (٤٠) وابن ماجه (٣١٣) وابن خزيمة في صحيحه (٨٠) وصححه ابن الملقن في «البدر المنير» .

وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ."[(١)]، وَحَظُّهُمُ الأَوْفَرُ فِيْ حِفْظِ أَوْلادِهِمْ عَنِ الْمَهَالِكِ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يُبْعَثُوْا إِلاَّ لِذَلِكَ، وَلَيْسَ لَهُمْ فِيْ الْمَالِ حَظٌّ إِلاَّ بِقَدْرِ الْقُوتِ، فَلا جَرَمَ اقْتَصَرُوْا عَلَى قَدْرِ الْقُوتِ، وَمَا فَضَلَ فَلَمْ يُمْسِكُوهُ بَلْ أَنْفَقُوْهُ، فَإِنَّ الإِنْفَاقَ فِيْهِ التِّرْيَاقُ، وَفِيْ الإِمْسَاكِ السُّمُّ، وَلَوْ فَتَحُوْا لِلنَّاسِ بَابَ كَسْبِ الْمَالِ ورَغَّبُوْا فِيْهِ لَمَالُوْا إِلَى سُمِّ الإِمْسَاكِ وَرَغِبُوْا عَنِ تِرْيَاقِ الإِنْفَاقِ، فَلِذَلِكَ قُبِّحَتِ الأَمْوَالُ، وَالْمَعْنَى تَقْبِيْحُ إِمْسَاكِهَا وَالْحِرْصِ عَلَيْهَا لِلاِسْتِكْثَارِ مِنْهَا وَالتَّوَسُّعِ فِيْ نَعِيْمِهَا بِمَا يُوْجِبُ الرُّكُونَ إِلَى الدُّنْيَا وَلَذَّاتِهَا .

فَأَمَّا أَخْذُهَا بِقَدْرِ الْكِفَايَةِ وَصَرْفُ الفَاضِلِ إِلَى الْخَيْرَاتِ فَلَيْس بِمَذْمُوْمٍ، وَحَقُّ كُلِّ مُسَافِرٍ أَنْ لا يَحْمِلَ إِلاَّ بِقَدْرِ زَادِهِ فِيْ السَّفَرِ إِذَا صَمَّمَ الْعَزْمَ عَلَى أَنْ يَخْتَصَّ بِمَا يَحْمِلُهُ، فَأَمَّا إِذَا سَمَحَتْ نَفْسُهُ بِإِطْعَامِ الطَّعَامِ وَتَوْسِيْعِ الزَّادِ عَلَى الرُّفَقَاءِ فَلا بَأْسَ بِالاِسْتِكْثَارِ، وَقَوْلُهُ ﷺ :" **لِيَكُنْ بَلاغُ أَحَدِكُمْ مِنَ الدُّنْيَا كَزَادِ الرَّاكِبِ**." [(٢)]، مَعْنَاهُ لأَنْفُسِكُمْ خَاصَّةً، وَإِلاَّ فَقَدْ كَانَ فِيْمَنْ يَرْوِيْ هَذَا الْحَدِيْثَ وَيَعْمَلُ بِهِ مَنْ يَأْخُذُ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ فِيْ مَوْضِعٍ وَاحِدٍ وَيُفَرِّقُهَا فِيْ مَوْضِعِهِ ولا يُمْسِكُ مِنْهَا حَبَّةً،...فَإِذَنِ النِّعَمُ الدُّنْيَوِيَّةُ مَشُوْبَةٌ، قَدِ امْتَزَجَ دَوَاؤُهَا بِدَائِهَا، وَمَرْجُوُّهَا بِمَخُوفِهَا، وَنَفْعُهَا بِضُرِّهَا، فَمَنْ وَثِقَ بِبَصِيْرَتِهِ وَكَمَالِ مَعْرِفَتِهِ فَلَهُ أَنْ يَقْرُبَ مِنْهَا مُتَّقِياً دَاءَهَا وَمُسْتَخْرِجاً دَوَاءَهَا، وَمَنْ لا يَثِقُ بِهَا فَالْبُعْدَ الْبُعْدَ، وَالْفِرَارَ الْفِرَارَ عَنْ مَظَانِّ الأَخْطَارِ، فَلا تَعْدِلْ بِالسَّلامَةِ شَيْئاً فِيْ حَقِّ هَؤُلاءِ، وَهُمُ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ إِلاَّ مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَهَدَاهُ لِطَرِيْقِهِ [(٣)] .

*****

---

(١) رواه البخاري بمعناه عن أبي هريرة (٦٤٨٣) ومسلم (٦٠٩٧) ورواه مسلم عن جابر (٦٠٩٨) ولفظه" **مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا، فَجَعَلَ الْجَنَادِبُ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا، وَهُوَ يَذُبُّهُنَّ عَنْهَا، وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وَأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِنْ يَدِي** " .

(٢) رواه أحمد في مسنده عن سلمان (٢٣٧١١) والطبراني في الكبير (٦١٦٠) والبيهقي في «شعب الإيمان» واللفظ له (١٠٣٩٤) وابن حبان في صحيحه (٧٠٦) ورواه الحاكم في المستدرك عن عائشة (٧٨٧٦) وقال: صحيح الإسناد. ورواه الترمذي في سننه عنها (١٧٨٠) ورواه أبو يعلى عن خباب (٧١٢٤) وقال المنذري في الترغيب: بإسناد جيد. وقال الهيثمي في المجمع: رجاله رجال الصحيح غير يحيى بن جعدة وهو ثقة .

(٣) «إحياء علوم الدين» (٤/ ١٤٨-١٤٩) .


باب
فضل الدعوة في
الخروج
في سبيل الله

الْحَدِيْثُ التَّاسِعُ عَشَــرَ

عَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "**مَنْ دَعَا إِلى هُدىً كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً، وَمَنْ دَعَا إِلى ضَلاَلَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئاً** " (١) .

قوله (**مَنْ دَعَا إِلى هُدىً**) أَيْ مَنْ أَرْشَدَ غَيرَهُ إلى فِعْلِ مَا يَهْتَدِي بِهِ الإِنْسَانُ إِلى مَرْضَاتِ رَبِّهِ ﷻ، أَوْ أَمَرَهُ بِهِ أَوْ أَعَانَهُ عَلَيهِ؛ ونَكَّرَ الْهُدَى لِيَشْمَلَ جَمِيعَ مَا يُهْتَدَى بِهِ إِلى مَرْضَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنَ التَّوْحِيدِ وهُوَ أَعْلاهَا، إلى إِمَاطَةِ الأَذَى عَنِ الطَّرِيق .

قوله (**كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ**) أَيْ أَنَّهُ بِدَعْوَتِهِ إِلى الخَيْرِ تَسَبَّبَ بِهِدَايَةِ النَّاسِ لِفِعْلِهِ، وَالدَّالُّ عَلَى الخَيْرِ كَفَاعِلِهِ فِي الأَجْرِ، فَيَحْصُلُ لَهُ مِنَ الأَجْرِ بِالتَّسَبُّبِ بِنَفْسِ الْقَدْرِ الَّذِي يَحْصُلُ لِمَنْ قَامَ بِالْعَمَلِ بِالْمُبَاشَرَةِ .

قوله (**لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً**) أَيْ كَوْنُ الدَّاعِي يَتَحَصَّلُ بدعوتِهِ عَلَى نَفْسِ أُجُورِ الْمَدْعُوِّينَ لا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِ الْمَدْعُوِّينَ شَيْئاً، بَلْ يَأْخُذُ الْمَدْعُوُّ أَجْرَ العَمَلِ كَامِلاً كَمَا يَأْخُذُهُ الدَّاعِي أَيْضاً .

قوله (**وَمَنْ دَعَا إِلى ضَلاَلَةٍ**) أَيْ مَنْ أَرْشَدَ غَيْرَهُ إِلى فِعْلِ إِثْمٍ وإِنْ قَلَّ، أَوْ أَمَرَ بِهِ، أَوْ أَعَانَ عَلَيهِ .

قوله (**كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ**) أَيْ أَنَّهُ بِدَعْوَتِهِ إِلى الإِثْمِ وتَسَبُّبِهِ بِهِ، صَارَ كَمَنْ قَامَ بِمُبَاشَرَةِ الإِثْمِ بنفْسِهِ، فَيُصِيبُهُ نَفْسُ الإِثْمِ الَّذِي يُصِيبُ الشَّخْصَ الْمُبَاشِرَ لِلإِثْمِ .

---

(١) رواه مسلم برقم (٦٩٨٠) .

مَعْنَى الْحَدِيْثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ

يُبَيِّنُ النَّبيُّ ﷺ أَنَّ الْمُتَسَبِّبَ بالفِعْلِ والْمُبَاشِرَ لَهُ سَوَاءٌ في الثَّوَابِ والعِقَابِ، فمَنْ تَسَبَّبَ بقِيَامِ غَيْرِهِ بعَمَلٍ صَالِحٍ، إمَّا بأَمْرٍ أَوْ بإِرْشَادٍ أَوْ بإعَانَةٍ، فَإِنَّهُ يَأْخُذُ مِثْلَ أَجْرِ مَنْ بَاشَرَ هَذَا الْعَمَلَ بنَفْسِهِ، ومَنْ تَسَبَّبَ بقِيَامِ غَيْرِهِ بعَمَلٍ سَيِّءٍ كَانَ عَلَيهِ مِثْلُ إِثْمِ مَنْ بَاشَرَ هَذَا العَمَلَ بنَفْسِهِ، فَالدَّالُّ عَلَى الخَيْرِ كَفَاعِلِهِ، وَالدَّالُّ عَلَى الشَّرِّ كَفَاعِلِهِ أَيْضاً، ويَبْقَى ثَوَابُ العَمَلِ الصَّالِحِ يَعُودُ عَلَى الْمُتَسَبِّبِ بِهِ مَا عُمِلَ بِهِ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ، وكَذَلِكَ إِثْمُ الْمُتَسَبِّبِ بالعَمَلِ السَّيِّءِ يَعُودُ عَلَيه مَا عُمِلَ بِهِ، كَمَا قَالَ ﷺ: **"مَنْ سَنَّ في الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بهَا بَعْدَهُ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بهَا، وَلاَ يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ في الإِسْلاَمِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بهَا، وَلاَ يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ."** (١)، وقَالَ ﷺ : **"لاَ تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلاَّ كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ "** (٢) .

فَإِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْداً وأَرَادَ بِهِ خَيْراً جَعَلَهُ سَبَباً لِنَشْرِ الخَيْرَاتِ، كَمَا قَالَ ﷺ: **"إِذَا أَرَادَ اللهُ بعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ "**. قَالُوا: وَكَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ ؟ قَالَ:**" يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ مَوْتِهِ"** (٣)؛ وفي رِوَايَةٍ: **"إِذَا أَرَادَ اللهُ بعَبْدٍ خَيْرًا عَسَلَهُ"**. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا عَسَلُهُ؟ قَالَ: **" يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ، ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ "** (٤) .

---

(١) رواه مسلم عن جرير بن عبد الله برقم (٦٩٧٥) .

(٢) رواه البخاري عن عبد الله بن مسعود برقم (٦٨٩) ومسلم برقم (١٦٧٧) .

(٣) رواه أحمد في مسنده عن أنس (١٢٠٣٦) والطبراني في الأوسط (١٩٤١) والحاكم في المستدرك برقم (١٢٥٧) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه وله شاهد بإسناد صحيح وذكره بعده. وقال الهيثمي في المجمع: رجال أحمد والبزار رجال الصحيح .

(٤) رواه أحمد في مسنده عن أبي عنبة الخولاني (١٧٧٨٤) والبزار في مسنده عن عمرو بن الحَمِقِ (٢٣١٠) والطبراني في الكبير عنه وعن أبي أمامة (١٦٩٤) وفي الأوسط (٤٦٥٦) والحاكم في المستدرك وصححه وجعله شاهداً للحديث قبله، ورواه ابن حبان في صحيحه عن عمرو بن الْحَمِقِ الخزاعي (٣٤٢) .

*وقوله "**عَسَلَهُ**" مِنَ العَسْلِ وهو طِيْبُ الثَّنَاءِ، وقال بعضهم: هذا مَثَلٌ، أي وَفَّقَهُ اللهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ يُتْحِفُهُ به، كما يُتْحِفُ الرجلُ أخاه إذا أَطْعَمَهُ العَسَلَ. قاله المنذري في الترغيب .

وقَالَ ﷺ: "**إِنَّ مِنْ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلْخَيْرِ مَغَالِيقَ لِلشَّرِّ، وَإِنَّ مِنْ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلشَّرِّ مَغَالِيقَ لِلْخَيْرِ، فَطُوبَى لِمَنْ جَعَلَ اللَّهُ مَفَاتِيحَ الْخَيْرِ عَلَى يَدَيْهِ، وَوَيْلٌ لِمَنْ جَعَلَ اللَّهُ مَفَاتِيحَ الشَّرِّ عَلَى يَدَيْهِ** " (١) .

وهَذَا مَحْضُ فَضْلِ اللَّهِ ﷻ عَلَى الْعَبْدِ، فَاللَّهُ ﷻ أَعْلَمُ حَيْثُ يجعلُ رِسَالاتِهِ أَصْلاً ومِيرَاثاً، فَهُوَ أَعْلَمُ بمَنْ يَصْلُحُ لِتَحَمُّلِ رِسَالَتِهِ فيُؤَدِّيهَا إلى عِبَادِهِ بالأَمَانَةِ والنَّصِيحَةِ وتَعْظِيمِ الْمُرْسِلِ والقِيَامِ بحَقِّهِ، والصَّبْرِ عَلَى أَوَامِرِهِ والشُّكْرِ لِنعَمِهِ والتَّقَرُّبِ إلَيهِ، ومَنْ لا يَصْلُحُ لِذَلِكَ، وكَذَلِكَ ﷻ أَعْلَمُ بمَنْ يَصْلُحُ مِنَ الأُمَمِ لِورَاثَةِ رُسُلِهِ والقِيَامِ بخِلافَتِهِم وحَمْلِ مَا بَلَّغُوهُ عَنْ رَبِّهِم، قَالَ عَبدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: "**إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ خَيْرَ قُلُوبِ أَهْلِ الأَرْضِ، فَاخْتَصَّهُ بِرِسَالَتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ، فَرَأَى قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَاخْتَارَهُمْ لِصُحْبَتِهِ** " (٢) .

فَالرَّبُّ ﷻ إذَا عَلِمَ مِنَ الْمَحَلِّ أَهْلِيَّةً لِفَضْلِهِ ومَحَبَّتِهِ ومَعْرِفَتِهِ وتَوْحِيدِهِ حَبَّبَ إلَيهِ ذَلِكَ، ووَضَعَهُ فِيهِ، وكَتَبَهُ في قَلْبِهِ، ووَفَّقَهُ لَهُ وأَعَانَهُ عَلَيهِ، ويَسَّرَ لَهُ طُرُقَهُ، وأَغْلَقَ دُونَهُ الأَبْوَابَ الَّتِي تَحُولُ بَينَهُ وبَينَ ذَلِكَ، ثُمَّ تَوَلاَّهُ بلُطْفِهِ وتَدْبِيرِهِ وتَيْسِيرِهِ وتَرْبِيَتِهِ أَعْظَمَ مِنْ تَرْبِيَةِ الوَالِدِ الشَّفِيقِ الرَّحِيمِ الْمُحْسِنِ لِوَلَدِهِ، الَّذِي هو أَحَبُّ شَيْءٍ إلَيْهِ (٣) .

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه عن أنس بن مالك برقم (٢٣٧) والبيهقي في «شعب الإيمان» برقم (٦٩٨) وقال الحافظ في «فتح الباري»: صححه ابن حبان عن أنس .

(٢) رواه أحمد في مسنده برقم (٣٦٠٠) ولفظه: "**إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِه، فَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ، فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ، يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ** ." ورواه البزار في مسنده برقم (١٨١٦) وقال فيه: "**فَجَعَلَهُمْ أَنْصَارَ دِينِهِ**"، ورواه الطبراني في الكبير برقم (٨٥٠٤) وقال الهيثمي في المجمع: رجاله موثقون. وقال السخاوي في «المقاصد الحسنة»: هو موقوف حسن .

(٣) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (١/٢٠٨ – ٢٠٩) .

فَائِـــــــدَة

الْمُكَلَّفُ بِالدَّعْوَةِ إلى اللهِ ﷻ هُوَ كُلُّ مُسْلِمٍ ومُسْلِمَةٍ، لأَنَّ الأُمَّةَ الإسلامِيَّةَ تَتَكَوَّنُ مِنْهُم، فَكُلُّ بَالِغٍ عَاقِلٍ مِنَ الأُمَّةِ الإسلامِيَّةِ مُكَلَّفٌ بِهَذَا الوَاجِبِ ذَكَراً كَانَ أَوْ أُنْثَى، فَلا يَخْتَصُّ بالْعُلَمَاءِ بِأَصْلِ هَذَا الْوَاجِبِ، لأَنَّهُ واجِبٌ عَلَى الْجَمِيْعِ، وإِنَّمَا يَخْتَصُّونَ بِتَبْلِيغِ تَفَاصِيْلِهِ وأَحْكَامِهِ ومَعَانِيْهِ نَظَراً لِسَعَةِ عِلْمِهِمْ بِهِ، ومَعْرِفَتِهِم بِجُزْئِيَّاتِهِ، ويَزِيدُ الأَمْرَ وُضُوحاً – وهو أَنَّ الْمُكَلَّفَ بالدعوةِ إلى اللهِ ﷻ هُوَ كُلُّ مُسْلِمٍ ومُسْلِمَةٍ – قَوْلُ رَبِّنَا ﷻ: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[يوسف: ١٠٨]، فأَتْبَاعُ الرَّسُولِ ﷺ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ، يَدْعُونَ إلى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ، كَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْعُو إلى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ويَقِينٍ، ومَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ مِنَ اللَّوَازِمِ الضَّرُورِيَّةِ لإِيْمَانِ الْمُسْلِمِ أَنْ يَدْعُوَ إلى اللهِ، فَإِذَا تَخَلَّفَ عَنِ الدَّعوةِ دَلَّ تَخَلُّفُهُ عَلَى وُجُودِ نَقْصٍ أَوْ خَلَلٍ فِي إِيْمَانِهِ، يَجِبُ تَدَارُكُهُ بِالْقِيَامِ بِهَذَا الْوَاجِبِ، وقَدْ قَالَ ﷺ: **"لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ "** [(١)]. ويَدْخُلُ فِي مَعْنَى الشَّاهِدِ كُلُّ مُسْلِمٍ عَلِمَ مِنْ أَمْرِ الإِسْلامِ شَيْئاً [(٢)] .

وفِي التَّلازُمِ بَيْنَ الإِيْمَانِ وَالدَّعْوَةِ إلى اللهِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ زِيَادَةَ الإِيْمَانِ تَدْفَعُ إلى زِيَادَةِ الحَرَكَةِ لِدِينِ اللهِ والعَكْس، فَالإِيْمَانُ شَبِيهٌ بالْقُوَّةِ الكَامِنَةِ فِي الجِهَازِ الْمُحَرِّكِ الَّذِي لا يَعْدُو أَنْ يكونَ عُشْرَ مِعْشَارِ حَجْمِ الطَّائِرَةِ، فتَنْطَلِقُ بانْطِلاقِهِ الطَّائِرَةُ، فتَقْطَعُ الْمَسَافَاتِ الشَّاسِعَةَ بِبُرْهَةٍ يَسِيرَةٍ، وتُقْلِعُ بِقُوَّةِ دَفْعِهِ الطَّائِرَةُ الْمُسْتَقِرَّةُ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ؛ وإِنَّ قُوَّةَ الْمُحَرِّكِ تَظْهَرُ لِلْعَيَانِ بِسَبَحِ الطَّائِرَةِ فِي أَجْوَاءِ الفَضَاءِ، كَذَلِكَ قُوَّةُ الإِيْمَانِ تَتَجَلَّى بِسَبْحِ صَاحِبِ الإِيْمَانِ فِي أَجْوَاءِ الدَّعوةِ إلى اللهِ، وإِذَا عَجَزَ الْمُحَرِّكُ عَنْ أَنْ يَنْطَلِقَ بالطَّائِرَةِ أَوِ السَّيَّارَةِ فَقَدْ أَصَابَهُ الْخَلَلُ، وتَسَرَّبَ إِلَيهِ الْعَطَبُ، وكَذَلِكَ الإِيْمَانُ الَّذِي لا يَدْفَعُ صَاحِبَهُ

---

(١) رواه البخاري عن أبي بكره برقم (٦٧) و(١٠٤) و(١٧٣٩) و(١٧٤١) و(٤٤٠٦) و(٥٥٥٠) و(٧٠٧٨) و(٧٤٤٧) ورواه عن أبي شريح العدوي (١٨٣٢) و(٤٢٩٥) ورواه مسلم عنه (٣٣٧٠) ورواه عن أبي بكرة (٤٤٧٧) و(٤٥٧٨) .

(٢) «أصول الدعوة» للدكتور عبد الكريم زيدان ص (٣٠٩) بتصرف يسير .

إلى السَّيْر فِيْ سَبِيْلِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ هُوَ إِيْمَانٌ هَامِدٌ خَامِدٌ، قَدْ أَصَابَهُ الْوَهْنُ، وتَسَرَّبَ إِلَيْهِ الخَلَلُ [(١)] .

وَالدَّعوةُ إلى اللَّهِ تُؤَدَّى بصُورَةٍ فَرْدِيَّةٍ وبصُورَةٍ جَمَاعِيَّةٍ، ويَدُلُّ عَلَى هَذَا كُلِّهِ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِهِ : "وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الآيَةِ أَنْ تَكُونَ فِرْقَةٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ مُتَصَدِّيَةً لِهَذَا الشَّأْنِ، وإِنْ كَانَ ذَلِكَ وَاجِباً عَلَى كُلِّ فَرْدٍ مِنَ الأُمَّةِ بِحَسَبِهِ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيْمَانِ "** [(٢)] [(٣)] .

وَالوَاقِعُ أَنَّ تَجَمُّعَ الدُّعَاةِ لِلْقِيَامِ بوَاجِبِ الدَّعْوَةِ بصُورَةٍ جَمَاعِيَّةٍ يَكُونُ ضَرُورِيّاً كُلَّمَا كَانَتْ مُهِمَّةُ الدَّعْوَةِ جَسِيمَةً، كَمَا لَوْ أُرِيدَ نَشْرُ الدَّعوةِ إلى اللَّهِ فِي الْمُجْتَمَعَاتِ الْوَثَنِيَّةِ الجَاهِلِيَّةِ الَّتِي عَشْعَشَ فِيهَا الشَّيْطَانُ وبَيَّضَ، وصَدَّ أَهْلَهَا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وأَرْكَسَهُمْ فِي حَمْأَةِ الشِّرْكِ، كَمَا فِي الأَقْطَارِ الوَثَنِيَّةِ فِي أَفْرِيقْيَا ونَحْوِهَا، فَإِنَّ مِثْلَ هَذِهِ الأَقْطَارِ تَحْتَاجُ إلى جُهُودٍ كَبِيرَةٍ جِدّاً ومُنَظَّمَةٍ لِنَشْرِ الدَّعوةِ إلى اللَّهِ، وتَعْلِيمِهِمْ أُمُورَ الإِسْلامِ مِمَّا لا يَقْوَى عَلَيْهِ جُهْدُ فَرْدٍ ولا جُهُودٌ مُبَعْثَرَةٌ لِبَعْضِ الأَفْرَادِ .

ويُؤَيِّدُ هَذَا التَّبْشِيرَ بالإِسْلامِ عَلَى شَكْلٍ جَمَاعِيٍّ مَا جَاءَ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَأْمُرُ مَنْ يُسْلِمُ بالتَّحَوُّلِ إلى دَارِ الهِجْرَةِ لِيَضُمَّ جُهُودَهُ إلى جُهُودِ الْمُسْلِمِينَ وتَوْجِيهِهَا التَّوْجِيهَ السَّلِيمَ مِنْ قِبَلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كَمَا أَنَّنَا نَجِدُ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [المائدة: ٢]، دَلِيْلاً آخَرَ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ التَّجَمُّعِ والدَّعوةِ الجَمَاعِيَّةِ، بَلْ وَوُجُوبِهَا إِذَا كَانَ البِرُّ لا يُمْكِنُ تَحْصِيلُهُ بِدُونِ ذَلِكَ، وقَدْ

---

(١) «تأملات في فقه الدعوة» لطلعت عفيفي وجمال عبد الستار ص (١-٢) .

(٢) رواه مسلم برقم (١٨٦) .

(٣) «تفسير ابن كثير» (١/٣٩٣) .

أَشَارَ الإمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللهُ عَلَى مَا رَوَاهُ الْجَصَّاصُ عَنْهُ إلى ضَرُورَةِ التَّجَمُّعِ عَلَى الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وتَوْجِيهِ الْجُهُودِ الْجَمَاعِيَّةِ لِتَحْقِيقِ هَذَا الْمَقْصُودِ (١) .

كَمَا أَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ سَبْعِينَ مِنَ الْقُرَّاءِ فِي بِئْرِ مَعُونَةَ لِلدَّعْوَةِ وَالتَّعْلِيمِ(٢)، وأَرْسَلَ مُعَاذاً وأَبَا مُوسَى الأَشْعَرِيَّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا إلى الْيَمَنِ (٣)، وأَرْسَلَ مُصْعَبَ بْنَ عُمَيْرٍ وَابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ إلى الْمَدِينَةِ (٤) .

وحَتَّى تَسْتَطِيعَ الأُمَّةُ القِيَامَ بِأَعْبَاءِ هَذِهِ الْوَظِيفَةِ والفَرِيضَةِ العُظْمَى لا بُدَّ لَهَا مِنْ أَنْ تَتَعَاوَنَ وتَتَكَافَلَ وتَتَكَاتَفَ جُهُودُهَا فِي خِدْمَةِ دِينِهَا وحَمْلِ مَسْؤُولِيَّتِهَا، وأَنْ تَعْتَصِمَ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيْعاً، وتَتَجَنَّبَ كُلَّ وَسِيلَةٍ تُؤَدِي إلى التَّفَرُّق، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾ إلى قَوْلِهِ: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ ﴾ [آل عمران: ١٠٣- ١٠٥] .

فَبَعْدَ أَنْ أَمَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِأَنْ نَكُونَ أُمَّةً أَوْ تَكُونَ مِنَّا أُمَّةٌ تَدْعُو إلى الْخَيرِ وتَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وبَيَّنَ أَنَّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ دُونَ سِوَاهُمْ، لأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِين يُقِيمُونَ الدِّينَ ويَحْفَظُونَ سِيَاجَهُ، وبِهِمْ تَتَحَقَّقُ الْوِحْدَةُ الْمَقْصُودَةُ مِنهُ، بَعْدَ هَذَا الأَمْرِ نَهَانَا عَنِ التَّفَرُّقِ والاخْتِلافِ الَّذِي يَذْهَبُ بِتِلْكَ الْوِحْدَةِ، ويَتَعَذَّرُ مَعَهُ الْقِيَامُ بِتِلْكَ الدَّعْوَةِ الصَّالِحَةِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ ﴾، وهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ، تَفَرَّقُوا فِي الدِّينِ وكَانُوا شِيَعاً، كُلُّ شِيعَةٍ تَذْهَبُ مَذْهَباً يُخَالِفُ مَذْهَبَ الأُخْرَى، وصَارَ كُلٌّ يَنْصُرُ مَذْهَبَهُ، ويَدْعُو إِلَيْهِ، ويُخَطِّئُ مَا سِوَاهُ، حَتَّى

---

(١) «أصول الدعوة» للدكتور عبد الكريم زيدان ص (٣٠٩ – ٣١١) .

(٢) رواه البخاري عن أنس بن مالك (٣٠٦٤) و(٤٠٨٨) ومسلم (١٥٨٢) .

(٣) رواه البخاري عن أبي موسى الأشعري (٣٠٣٨) و(٤٣٤٤) و(٤٣٤٥) و(٦١٢٤) ومسلم (٤٦٢٣) و(٥٣٣٣)

(٤) رواه البخاري عن البراء بن عازب (٣٩٢٤) و(٣٩٢٥) و(٤٩٤١) ولفظه:" **أَوَّلُ مَنْ قَدِمَ عَلَيْنَا مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ وَابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، وَكَانَا يُقْرِئَانِ النَّاسَ، فَقَدِمَ بِلالٌ وَسَعْدٌ وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ، ثُمَّ قَدِمَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي عِشْرِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ**" .

تَعادَوْا واقْتَتَلُوْا عَلَى ذَلِكَ، فَلَوْ كَانُوا أُمَّةً وَاحِدَةً، أَوْ كَانَ فِيهِم أُمَّةٌ تَدْعُو إلى الخَيْرِ وتَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ مُعْتَصِمِينَ بِحَبْلٍ وَاحِدٍ لَمَا تَفرَّقُوا فِي الْمَقَاصِدِ، ولَوْ لَمْ يَتَفرَّقُوا لَمَا اخْتَلَفُوا فِي الدِّين، ولَمَا تَعَدَّدَتْ فيهمُ الْمَذَاهِبُ في أُصُولِهِ وفُرُوعِهِ، حَتَّى قَتَلَ بَعْضُهُم بَعْضاً، فَلا تَكُونُوا مِثْلَهُم فَيَحِلَّ بكُمْ مَا حَلَّ بهِمْ، فَهَذِهِ الآيَةُ مُتَمِّمَةٌ لِقَولِهِ ﷻ: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ ومَا بَعْدَهَا، فَالاِعْتِصَامُ بحَبْلِ اللهِ هُوَ الأَصْلُ، وبهِ يَكُونُ الاجْتِمَاعُ وَالاِتِّحَادُ الَّذِي يَجْعَلُ الأُمَّةَ كَالشَّخْصِ الْوَاحِدِ، وَالدَّعوةُ إلى الخَيْرِ هِيَ الَّتِي تَغْذُوا هَذِهِ الْوِحْدَةَ وتُمِدُّهَا وتُنَمِّيهَا، والأَمْرُ بالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ تَقُومُ بِهِ أُمَّةٌ قَوِيَّةٌ هُوَ الَّذِي يَحْفَظُهَا ويُؤَيِّدُهَا ويَشُدُّ أَزْرَهَا .

وهَذِهِ الآيَةُ كَالدَّلِيلِ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ وِجْهَةُ الأُمَّةِ الدَّاعِيَةِ الآمِرَةِ النَّاهِيَةِ وَاحِدَةً، لأَنَّ الَّذِينَ سَبَقُوهُمْ مَا أَفْلَحُوا لِعَدَمِ وِحْدَتِهِمْ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: لا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ فيكُمْ أُمَّةٌ لِلدَّعْوَةِ والأَمْرِ وَالنَّهْيِ إلاَّ إذَا اجْتَمَعَتْ عَلَى مَقْصَدٍ وَاحِدٍ، فَالتَّرْتِيبُ في الآيَاتِ طَبيعِيٌّ، إذْ مِنَ الْبَدِيْهِيِّ أَنَّ الْمُتَّفِقِينَ فِي الْمَقْصَدِ لا يَخْتَلِفُونَ اخْتِلافاً ضَارّاً يُنَافِيهِ، وإنَّمَا يَقَعُ الاخْتِلافُ بَعْدَ التَّفَرُّقِ فِي الْمَقَاصِدِ، وَالتَّبَايُنِ فِي الأَهْوَاءِ، بذَهَاب كُلٍّ إلى تَأْييْدِ مَقْصَدِهِ وإرْضَاءِهِ فِيهِ، وَالاِخْتِلافُ فِي الرَّأْيِ لأَجْلِ تَأْيِيْدِ الْمَقْصَدِ الْمُتَّفقِ عَلَيهِ لا يَضُرُّ، بَلْ يَنْفَعُ، وهُوَ طَبيعِيٌّ، ولا مَنْدُوْحَةَ عَنهُ [١] .

*****

(١) «تفسير المنار» لمحمد رشيد رضا (٤/٣٨-٣٩) .

الْحَدِيْثُ الْعِشْرُونَ

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: " **لأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلاً يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ.**" قَالَ: فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ:" **أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ** ؟" فَقِيلَ: هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ. قَالَ: فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ، فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، فَقَالَ عَلِيٌّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا ؟ فَقَالَ:" **انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ، فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ** " [(١)] .

قوله (**فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا**) أَيْ يَخُوضُونَ ويَتَحَدَّثُونَ فِي ذَلِكَ .

قوله (**كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا**) فِيهِ حِرْصُ الصَّحَابَةِ ﵃ عَلَى نَيْلِ مَحَبَّةِ اللَّهِ ورَسُولِهِ لا عَلَى نَيْلِ الإِمَارَةِ، لأَنَّ تَوَلِّيَ الإِمَارَةِ يَومَئِذٍ كَانَ عَلامَةً عَلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ ورَسُولِهِ لِلمُوَلَّى ومَحَبَّتِهِ لَهُمَا .

قوله (**فَبَصَقَ رَسُولُ ﷺ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ**) فِيهِ مُعْجِزَةٌ ظَاهِرَةٌ، حَيثُ بَرَأَ مِنَ الرَّمَدِ الَّذِي بِعَيْنَيهِ حَتَّى عَادَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ .

قوله (**أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا ؟**) فِيهِ أَنَّ الصَّحَابَةَ ﵃ كَانُوا يَفْهَمُونَ أَنَّ الْمَقْصُودَ الأَعْلَى لِلْقِتَالِ هُوَ هِدَايَةُ النَّاسِ إِلى مَا كَانَ عَلَيهِ الصَّحَابَةُ ﵃ مِنَ الإِيْمَانِ باللهِ ﷻ والْعَمَلِ بِشَرَائِعِ الإِسْلامِ، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿**فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟**﴾ **[البقرة: ١٣٧]**، وأَنَّ الْقِتَالَ لَيْسَ مَقْصُوداً لِذَاتِهِ، بَلِ الْمَقْصُودُ هُوَ الْهِدَايَةُ إِلى

---

(١) رواه البخاري برقم (٢٩٤٢) و(٣٧٠١) و(٤٢١٠) ورواه مسلم برقم (٦٣٧٦) .

الدِّينِ الْحَقِّ، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، قَالَ الطِّيبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: وكَأَنَّهُ ﷺ اسْتَحْسَنَ قَولَهُ: "**أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا ؟**" وَاسْتَحْمَدَهُ عَلَى مَا قَصَدَهُ مِنْ مُقَاتَلَتِهِ إِيَّاهُم حَتَّى يَكُونُوا أَمْثَالَنَا مُهْتَدِينَ لإِعْلاءِ دِينِ اللهِ، وَمِنْ ثَمَّ حَثَّهُ الرَّسُولُ ﷺ بِقَولِهِ: "**فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ** " [(١)] .

قوله (**انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ**) أَيِ اتَّئِدْ فِيهِ ولا تَعْجَلْ .

قوله (**ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلامِ**) فِيهِ أَنَّهُ لا يَجُوزُ ابْتِدَاءُ الْكُفَّارِ بِالْقِتَالِ إِلاَّ بَعْدَ دَعْوَتِهِم إِلَى الإِسْلامِ، كَمَا قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا:" **مَا قَاتَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَوْماً حَتَّى دَعَاهُمْ** "[(٢)] .

وكَانَ ﷺ إِذَا بَعَثَ أَمِيراً عَلَى سَرِيَّةٍ أَوْ عَلَى جَيْشٍ أَوْصَاهُ بِتَقْوَى اللهِ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ وَبِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ خَيْراً، وَأَمَرَهُ أَنْ يَبْدَأَ بِدَعْوَةِ الْعَدُوِّ قَبْلَ قِتَالِهِمْ [(٣)] ؛ وأَرْسَلَ ﷺ عَلِيّاً رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَى قَوْمٍ وَأَمَرَهُ أَنْ لا يُقَاتِلَهُمْ حَتَّى يَدْعُوَهُمْ [(٤)] ؛ وكَذَلِكَ قَالَ لِفَرْوَةَ الْغُطَيْفِيِّ حِيْنَمَا بَعَثَهُ إِلَى قَوْمِهِ [(٥)] ؛ أَمَّا إِذَا بَلَغَتْهُمُ الدَّعْوَةُ فَيُسْتَحَبُّ تَجْدِيدُ دَعْوَتِهِم .

قوله (**فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا**) تَأْكِيدٌ لِمَا أَرْشَدَهُ مِنْ دُعَائِهِم إِلَى الإِسْلامِ أَوَّلاً، فَإِنَّهُ رُبَّمَا يَكُونُ سَبَباً لإِيْمَانِهِمْ مِنْ غَيرِ حَاجَةٍ إِلَى قِتَالِهِمُ الْمُتَفَرِّعِ عَلَيْهِ

---

(١) «مرقاة المفاتيح» (١١/٢٤٤) .

(٢) رواه أحمد في مسنده (٢٠٥٣) والحاكم في المستدرك (٣٣) وقال صحيح الإسناد وأقره الذهبي. ورواه الطبراني في الكبير (١١٢٧٠) وقال الهيثمي: رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني بأسانيد، ورجال أحدها رجال الصحيح .

(٣) رواه مسلم عن بريدة برقم (٤٦١٩) وأبو داود برقم (٢٦١٢) واللفظ له .

(٤) رواه الطبراني في الأوسط عن أنس بن مالك برقم (٨٢٦٥) وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير عثمان بن يحيى القرقساني وهو ثقة .

(٥) رواه أحمد في مسنده عن فروة الغطيفي (٢٤٣٠٦) والترمذي وحَسَّنَهُ (٣٢٢٢) وحَسَّنَهُ ابن كثير في التفسير (٣/٥٣٥) .

حُصُولُ الْغَنَائِمِ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ وغَيرِهَا، "فَإِنَّ إِيْجَادَ مُؤْمِنٍ وَاحِدٍ خَيْرٌ مِنْ إِعْدَامِ أَلْفِ كَافِرٍ"(١) .

قوله (**خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**) حُمْرُ جَمْعُ حَمْرَاءَ، وَالنَّعَمُ هِيَ الإِبلُ، وهُوَ مِنْ إِضَافَةِ الْمَوْصُوفِ إلى الصِّفَةِ، أَيْ خيرٌ لَكَ مِنَ الإِبلِ الْحَمْرَاءِ، وإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ تَرْغِيباً لِلْعَرَبِ فِيهَا، لأَنَّ حُمْرَ النَّعَمِ مِنْ أَعَزِّ الأَمْوَالِ عِنْدَهُمْ، فَكَانَتْ كِنَايَةً عَنْ أَنَّهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنيا كُلِّهَا (٢)، كَمَا جَاءَ في رِوَايَةٍ:" **لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى يَدَيْكَ رَجُلاً خَيْرٌ لَكَ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَغَرَبَتْ** " (٣) .

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:" تَشْبِيهُ أُمُورِ الآخِرَةِ بِأَعْرَاضِ الدُّنْيَا إِنَّمَا هُوَ لِلتَّقْرِيبِ مِنَ الأَفْهَامِ ، وَإِلاَّ فَذَرَّةٌ مِنَ الآخِرَةِ الْبَاقِيَةِ خَيْرٌ مِنَ الأَرْضِ بِأَسْرِهَا وَأَمْثَالِهَا مَعَهَا لَوْ تُصُوِّرَتْ " (٤) .

وقَالَ الْمُنَاوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في قَولِهِ: "**خَيْرٌ لَكَ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَغَرَبَتْ**." أَيْ فَتَصَدَّقْتَ بِهِ، وذَلِكَ لأَنَّ الْهُدَى عَلَى يَدَيْهِ شُعْبَةٌ مِنَ الرِّسَالَةِ، لأَنَّ الرُّسُلَ إِنَّمَا بُعِثَتْ لِتُؤَدِّيَ عَنِ اللَّهِ، فَإِذَا وَرَدَ الْقِيَامَةَ فَلَهُ حَظٌّ مِنْ ثَوَابِ الرُّسلِ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا هَدَاهُ بِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنَ اللَّهِ، وَالرُّسُلُ أَقْرَبُ الْخَلْقِ إلى اللَّهِ في دَارِ السَّلامِ في الدَّرَجَاتِ، فَمَنْ دُوْنَ الرُّسُلِ إِذَا كَانَ دَاعِياً إلى اللَّهِ فَهَدَى بِهِ عَبْداً فَقَدْ حَازَ مِنْ ثَوَابِ الرُّسُلِ حَظّاً مِنَ الْكَرَامَةِ، ومَنْ يَحْصُلُ مِنْ ثَوَابِ الرُّسُلِ شَيْئاً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيهِ الشَّمْسُ وغَرَبَتْ، يَعْنِي فَأَنْفَقَهُ كُلَّهُ في سَبِيلِ اللَّهِ، وإِذَا هَدَى اللَّهُ قَلْباً عَلَى لِسَانٍ نَاطِقٍ بِالْهُدَى فَقَدْ أَكْرَمَ النَّاطِقَ بِجَزِيلِ الْكَرَامَةِ، فَمِنَ الْكَرَامَاتِ أَنْ جَعَلَ لِكَلامِهِ مِنَ النُّورِ كِسْوَةً تَلِجُ آذَانَ السَّامِعِينَ مَعَ تِلْكَ الْكِسْوَةِ، فَتَخْرِقُ حُجُبَ الشَّهَوَاتِ، حَتَّى تَصِلَ إلى مُسْتَقَرِّ الإِيْمَانِ مِنْ قُلُوبِهِم، فَتُحْيِيَ مَا

---

(١) «مرقاة المفاتيح» (١١/٢٤٤) .

(٢) «مرقاة المفاتيح» (١١/٢٤٤) .

(٣) رواه الطبراني في الكبير عن أبي رافع (٩٣٠) وقال الهيثمي في المجمع: رواه الطبراني عن يزيد بن أبي زياد مولى ابن عباس، وذكره المِزِّيُّ في الرواة عن أبي رافع، وذكره ابن حبان في الثقات، وبقية رجاله ثقات. وحسنه السيوطي في الجامع الصغير .

(٤) «شرح مسلم للنووي» (١٥/١٧٤) .

مَاتَ، وتَشْفِيَ مَا سَقِمَ؛ ومِنهَا أَنْ جَعَلَ لِكَلامِهِ مِنَ السُّلْطَانِ مَا يُذْهِلُ نُفُوسَ الْمُخَلِّطِينَ عَنْ شَهَوَاتِهِم؛ ومِنهَا أَنْ تَأْخُذَ نِعَمُهُ النُّوْرَانِيَّةُ بنَوَاصِي قُلُوب الْعِبَادِ الأَبَّاق- أَي الشَّارِدِينَ- فَتَرُدَّهُمْ إلى اللَّهِ جَذْباً وَسَيْراً؛ ومِنهَا أَنْ جَعَلَهُ مِنَ الْعَمَلَةِ الْخَزَنَةِ لِلقُلُوب ببِذْرٍ يَبْذُرُهُ، فَيَزْرَعُهُ اللَّهُ فِيهَا وَيُنَمِّيهِ مِنهَا، فَلا مَنْقَبَةَ أَعْلَى مِنْهَا [(١)] .

مَعْنَى الْحَدِيْثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ

يُبَيِّنُ النَّبيُّ ﷺ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْقِتَالِ هُوَ هِدَايَةُ النَّاسِ، وإِخْرَاجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ، وأَنَّ الْقِتَالَ لَيْسَ مَقْصُوداً لِذَاتِهِ، ولا مَا يُتَحَصَّلُ عَلَيهِ مِنَ الْغَنَائِمِ النَّفِيسَةِ، كَمَا جَاءَ عَنهُ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا بَعَثَ بَعْثاً قَالَ:" **تَأَلَّفُوا النَّاسَ وَلا تُغِيرُوْا عَلَيْهِمْ حَتَّى تَدْعُوهُمْ، فَمَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ مَدَرٍ وَلا وَبَرٍ إلاَّ أَنْ تَأْتُونِي بِهِمْ مُسْلِمِيْنَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَأْتُونِي بِنِسَائِهِمْ وَأَوْلادِهِمْ وَتَقْتُلُوْا رِجَالَهُمْ** "[(٢)] ؛ ورُوِيَ عَنهُ ﷺ أَنَّهُ أُتِيَ بأُسَارَى مِنَ اللاَّتِ والْعُزَّى، فَقَالَ: "**هَلْ دَعَوْتُمُوهُمْ إِلى الإِسْلامِ ؟**"، فَقَالُوا: لا، فَقَالَ لَهُم:" **هَلْ دَعَوْكُمْ إِلى الإِسْلامِ ؟**"، فَقَالُوا: لا، قَالَ: "**خَلُّوا سَبِيْلَهُمْ حَتَّى يَبْلُغُوا مَأْمَنَهُمْ** "؛ ثُمَّ قَرَأَ هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٦]، ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ **[الأنعام: ١٩]** [(٣)]، وفي رِوَايَةٍ قَالَ: "**رُدُّوهُمْ إلى مَأْمَنِهِم ثُمَّ ادْعُوهُمْ** "[(٤)]؛ ولَمَّا قَتَلَ أُسَامَةُ ابْنُ زيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا رَجُلاً مِنَ الْمُشْرِكِينَ بَعْدَمَا قَتَلَ عِدَّةً مِنَ الصَّحَابَةِ ثُمَّ قَالَ: لا إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ .

---

(١) «فيض القدير» (٥/٣٣٧-٣٣٨) .

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» عن عبد الرحمن بن عائذ (٧٠٥٧) و(٧٠٥٨) وأبو نعيم في «المعرفة» (٤٦٨٢) وقال الحافظ في «الإصابة»: أخرجه ابن شاهين والبغوي .

(٣) رواه البيهقي في السنن عن أبي بن كعب برقم (١٨٠١٢) في باب دعاء من لم تبلغه الدعوة من المشركين وجوباً، ودعاء من بَلَغَتْهُ نظراً، وقال: روح بن مسافر ضعيف .

(٤) رواه الحارث في مسنده من طريق الواقدي كما في «كنز العمال» (١١٤٢٦) .

أَغْلَظَ ﷺ لَهُ القَوْلَ، ومَا زَالَ يُكَرِّرُ قَوْلَهُ:" **أَقَتَلْتَهُ بَعْدَمَا قَالَ لا إلهَ إلاَّ اللَّهُ ؟!**" وقَالَ: "**فَكَيْفَ تَصْنَعُ بلا إلَهَ إلاَّ اللَّهُ إذَا جَاءَتْ يَوْمَ القِيَامَةِ ؟**"[١]، ولَمَّا قَالَ ﷺ لأَهْلِ مَكَّةَ: "**اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ.**" خَرَجُوا فَبَايَعُوهُ عَلَى الإسْلامِ .

فَفِي حَدِيثِ الْبَابِ يُبَيِّنُ النَّبِيُّ ﷺ فَضِيْلَةَ الدَّعْوَةِ إلى اللَّهِ ﷻ، وأَنَّ هِدَايَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ خَيْرٌ مِنَ الدُّنيا ومَا فِيهَا مِنَ النَّفَائِسِ لَوْ غَنِمَهَا رَجُلٌ ثُمَّ أَنْفَقَهَا في طَاعَةِ اللَّهِ ﷻ، كَمَا تَقَدَّمَ الْقَولُ في قَوْلِهِ ﷺ:" **لَغَدْوَةٌ فِي سَبيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا** "[٢]؛ لأَنَّهُ بِهِدَايَتِهِ إلى الإسْلامِ يُنْقِذُهُ اللَّهُ ﷻ مِنْ غَضَبِهِ وعَذَابِهِ، ويَصِيرُ هُوَ ومَالُهُ في خِدْمَةِ الإِسْلامِ، كَمَا حَصَلَ مَعَ الصَّحَابَةِ ﷺ حِينَمَا أَسْلَمُوا فَوَظَّفُوا جَمِيْعَ طَاقَاتِهِمُ الْبَدَنِيَّةِ والْمَالِيَّةِ والفِكْرِيَّةِ لإعْلاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ ونَشْرِ دِينِهِ؛ فَالَّذِينَ قَاتَلُوهُ في بِدَايَةِ الدَّعوةِ هُمُ الَّذِينَ قَاتَلُوا مَعَهُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَهَا هُوَ خَالدُ بْنُ الوَلِيدِ ﷺ يَقُودُ الْفُتُوحَاتِ الإِسْلامِيَّةَ في بِلادِ الشَّامِ حَتَّى فَتَحَهَا اللَّهُ ﷻ عَلَى يَدَيْهِ، وكَانَ أَحَبَّ شَيْءٍ إلى نَفْسِهِ الجِهَادُ في سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ لإعْلاءِ كَلِمَتِهِ؛ وهَا هُوَ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ ﷺ حِينَمَا أَسْلَمَ قَالَ: "**وَاللَّهِ لا أَدَعُ نَفَقَةً كُنْتُ أُنْفِقُهَا فِي صَدٍّ عَنْ سَبيلِ اللَّهِ إلاَّ أَنْفَقْتُ ضِعْفَيْهَا فِي سَبيلِ اللَّهِ، وَلا قِتَالاً كُنْتُ أُقَاتِلُ فِي صَدٍّ عَنْ سَبيلِ اللَّهِ إلاَّ أَبْلَيْتُ ضِعْفَيْنِ فِي سَبيلِ اللَّهِ** "؛ ثُمَّ اجْتَهَدَ حَتَّى قُتِلَ شَهِيداً "[٣] .

وَلَمَّا أَسْلَمَ ضِمَامُ بْنُ ثَعْلَبَةَ ﷺ رَجَعَ إلى قُوْمِهِ دَاعِياً، فَأَمْسَى ومَا فِي حَاضِرِهِ رَجُلٌ ولا امْرَأَةٌ إلاَّ مُسْلِماً [٤]، ولَمَّا أَسْلَمَ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو الدَّوْسِيُّ ﷺ رَجَعَ إلى قَوْمِهِ ودَعَاهُمْ إلى اللَّهِ، فَجَاءَ بِسَبْعِينَ بَيْتاً مِنْ بُيُوتِ دَوْسٍ مُسْلِمِيْنَ [٥] .

---

(١) رواه مسلم بعدة روايات عن أسامة بن زيد برقم (١٥٨-١٦٠) .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) رواه الحاكم في المستدرك عن عروة بن الزبير (٥٠٥٧) وابن أبي شيبة في مصنفه (١٩٥٢٣) وابن عساكر عن عبد الله بن الزبير (٨٢١٢) .

(٤) تقدم تخريجه .

(٥) تقدم تخريجه .

ولَمَّا أَسْلَمَ أَبُو ذَرٍّ الْغِفَارِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رَجَعَ إلى قَوْمِهِ فَدَعَاهُم إلى اللهِ فَأَسْلَمَ نِصْفُهُمْ، وقَالَ نِصْفُهُمُ الْبَاقِي: إذَا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ أَسْلَمْنَا، فَقَدِمَ رسولُ اللهِ ﷺ، فَأَسْلَمَ نِصْفُهُمُ الْبَاقِي، ثُمَّ أَسْلَمَتْ قَبِيلَةُ أَسْلَمَ بِإِسْلامِهِمْ، فَقَالَ ﷺ: "**غِفَارُ غَفَرَ اللهُ لَهَا، وَأَسْلَمُ سَالَمَهَا اللهُ**" [(١)] .

وكَذَا لَمَّا أَسْلَمَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بدَعوةِ مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رَجَعَ إلى قَوْمِهِ فَدَعَاهُمْ إلى اللهِ، فمَا أَمْسَى فِي دَارِ عَبدِ الأَشْهَلِ رَجُلٌ ولا امْرَأَةٌ إلاَّ مُسْلِماً أَوْ مُسْلِمَةً [(٢)]. ولَمَّا أَسْلَمَ زَيْدُ بْنُ سُعْنَةَ الْحَبْرُ الْيَهُودِيُّ تَصَدَّقَ بشَطْرِ مَالِهِ عَلَى أُمَّةِ النَّبيِّ ﷺ، وكَانَ أَكْثَرَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَالاً، وبَايَعَ النَّبيَّ ﷺ، وشَهِدَ مَعَهُ مَشَاهِدَ كَثِيرَةً، ثُمَّ تُوُفِّيَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ مُقْبلاً غَيْرَ مُدْبِرٍ [(٣)] .

وهَذَا هُوَ الْفَتْحُ الْحَقِيقيُّ الَّذِي بِهِ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ويَخْسَأُ الْكَافِرُونَ، وهُوَ فَتْحُ قُلُوبِ الْعِبَادِ لِمَا يُحِبُّهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ويَرْضَاهُ، فَقَدْ كَانَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيْقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ: "**مَا كَانَ فَتْحٌ أَعْظَمَ فِي الإسْلامِ مِنْ فَتْحِ الْحُدَيْبِيَةِ، وَلَكِنَّ النَّاسَ يَوْمَئِذٍ قَصُرَ رَأْيُهُمْ عَمَّا كَانَ بَيْنَ النَّبيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ وَرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْعِبَادُ يَعْجَلُونَ، وَاللهُ لا يَعْجَلُ كَعَجَلَةِ الْعِبَادِ حَتَّى تَبْلُغَ الأُمُورُ مَا أَرَادَ، لَقَدْ نَظَرْتُ إلى سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ قَائِماً عِنْدَ الْمَنْحَرِ يُقَرِّبُ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ هَدْيَهُ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَنْحَرُهَا بِيَدِهِ، وَدَعَا الْحَلاَّقَ فَحَلَقَ رَأْسَهُ، وَأَنْظُرُ إلى سُهَيْلٍ يَلْقُطُ مِنْ شَعَرِهِ، وَأَرَاهُ يَضَعُهُ عَلَى عَيْنَيْهِ، وَأَذْكُرُ إبَاءَهُ أَنْ يُقِرَّ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ أَنْ يَكْتُبَ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَيَأْبَى أَنْ يَكْتُبَ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، فَحَمِدْتُ اللهَ الَّذِي هَدَاهُ لِلإسْلامِ، وَصَلَوَاتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَى نَبِيِّ الرَّحْمَةِ الَّذِي هَدَانَا وَأَنْقَذَنَا مِنَ التَّهْلُكَةِ**" [(٤)] .

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) رواه الطبراني في الكبير عن عبد الله بن سلام (٥١٤٧)، وقال الهيثمي في المجمع: رجاله ثقات. وقال الحافظ في الإصابة : رجال الإسناد موثقون .

(٤) أخرجه ابن عساكر عن الواقدي كما في «كنز العمال» (٣١٣٦)، وانظر «مختصر تاريخ دمشق» (١/١٤٢٧) .

وعَنْ أَبِيْ عَمْرِو بْنِ عَدِيٍّ بْنِ الحَمْرَاءِ الخُزَاعِيِّ قَالَ: "نَظَرْتُ إِلى سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو يَوْمَ جَاءَ نَعْيُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إلى مَكَّةَ، وَقَدْ تَقَلَّدَ السَّيْفَ ثُمَّ قَامَ خَطِيباً بِخُطْبَةِ أَبِي بَكْرٍ فِي الْمَدِينَةِ، كَأَنَّهُ كَانَ يَسْمَعُهَا، فقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ ! مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّداً فَإِنَّ مُحَمَّداً قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لا يَمُوتُ، وَقَدْ نَعَى اللَّهُ نَبِيَّكُمْ إِلَيْكُمْ، وَهُوَ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، وَنَعَاكُمْ إلى أَنْفُسِكُمْ، فَهُوَ الْمَوْتُ حَتَّى لا يَبْقَى أَحَدٌ، أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقَالَ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقَالَ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾[آل عمران: ١٨٥]، ثُمَّ تَلا﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص: ٨٨]، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْتَصِمُوا بِدِينِكُمْ، وَتَوَكَّلُوا عَلَى رَبِّكُمْ، فَإِنَّ دِينَ اللَّهِ قَائِمٌ، وَكَلِمَةَ اللَّهِ تَامَّةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرٌ مَنْ نَصَرَهُ وَمُعِزٌّ دِيْنَهُ، وَقَدْ جَمَعَكُمُ اللَّهُ عَلَى خَيْرِكُمْ." فَلَمَّا بَلَغَ عُمَرَ كَلامُ سُهَيْلٍ بِمَكَّةَ، قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ حَقٌّ، هَذَا هُوَ الْمَقَامُ الَّذِي عَنَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ قَالَ: "**لَعَلَّهُ يَقُومُ مَقَاماً لا تَكْرَهُهُ** " [(١)] .

وقَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه فِي قَولِهِ سبحانه وتعالى:﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ [الفتح: ١]، قَالَ: "**الْفَتْحُ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ** "[(٢)]؛ وقَالَ الزُّهْرِيُّ رحمه الله: "**لَمْ يَكُنْ فِي الإِسْلامِ فَتْحٌ قَبْلَ فَتْحِ الْحُدَيْبِيَةِ أَعْظَمَ مِنْهُ، إِنَّمَا كَانَ الكُفْرُ حَيْثُ الْقِتَالُ، فَلَمَّا أَمِنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ، كَلَّمَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، وتَفَاوَضُوا فِي الْحَدِيْثِ وَالْمُنَازَعَةِ، وَلَمْ يُكَلَّمْ أَحَدٌ بِالإِسْلامِ يَعْقِلُ إِلاَّ بَادَرَ إِلى الدُّخُولِ فِيهِ، فَلَقَدْ دَخَلَ فِي تَيْنِكَ السَّنَتَيْنِ مِثْلُ مَنْ كَانَ دَخَلَ فِي الإِسْلامِ قَبْلَ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرُ**" [(٣)] . قَالَ ابْنُ هِشَامٍ رحمه الله:" يَدُلُّ عَلَيهِ أَنَّهُ ﷺ خَرَجَ فِي الْحُدَيْبِيَةِ فِي أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ، ثُمَّ خَرَجَ بَعْدَ سَنَتَيْنِ إِلى مَكَّةَ فِي عَشْرَةِ آلافٍ [(٤)] .

---

(١) أخرجه الواقدي في مغازيه (١/١٠٧) وانظر «مختصر تاريخ دمشق» (١/١٤٢٧) .

(٢) رواه البخاري برقم (٤٨٣٤) .

(٣) رواه البيهقي في سننه (١٨٥٩٣) وذكره في «معرفة السنن والآثار» (٧/١٤٦) وانظر «فتح الباري» (١/٥٥٠) و«سيرة ابن هشام» (٣/٢٠٦-٢٠٧) .

(٤) «سيرة ابن هشام» (٣/٢٠٦-٢٠٧) وانظر « فتح الباري» (٧/٥٥٠) .

وقَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في هَذَا الصُّلْحِ: "وَكَانَ فِي الصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ ضَيْمًا لِلْمُسْلِمِينَ، وَفِي الصُّورَةِ الْبَاطِنَةِ عِزًّا لَهُمْ، فَإِنَّ النَّاس لأَجْلِ الأَمْنِ الَّذِي وَقَعَ بَيْنهمُ اخْتَلَطَ بَعْضُهمْ بِبَعْضٍ مِنْ غَيْرِ نَكِيرٍ، وَأَسْمَعَ الْمُسْلِمُونَ الْمُشْرِكِينَ الْقُرْآنَ، وَنَاظَرُوهُمْ عَلَى الإِسْلام جَهْرَةً آمِنِينَ، وَكَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ لا يَتَكَلَّمُونَ عِنْدَهُمْ بِذَلِكَ إلاَّ خُفْيَةً، وَظَهَرَ مَنْ كَانَ يُخْفِي إِسْلامَهُ، فَذَلَّ الْمُشْرِكُونَ مِنْ حَيْثُ أَرَادُوا الْعِزَّةَ، وَأُقْهِرُوا مِنْ حَيْثُ أَرَادُوا الْغَلَبَةَ " [(١)] .

وهَكَذَا فَالْمَصَالِحُ الْمُتَرَتِّبَةُ عَلَى هِدَايَةِ رَجُلٍ وَاحِدٍ لا يَقْدُرُ قَدْرَهَا إلاَّ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ، ولا يَعْدِلُ فَضْلَهَا أَيُّ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ الدِّينِ الأُخْرَى، ولأَنَّ الدَّعْوَةَ إلى اللَّهِ وهِدَايَةَ النَّاسِ إِلَيهِ عَمَلُ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، فَمَنْ قَامَ بِهَذَا الْعَمَلِ فَقَدْ نَابَ عَنْهُم فِي هِدَايَةِ الْخَلْقِ إلى الْخَالِقِ، فَيَكُونُ قَدْ تَحصَّلَ عَلَى ثَوَابِهِمْ، ولا شَكَّ أَنَّ الْقَلِيلَ مِنْ عَمَلِ الْمُرْسَلِينَ أَفْضَلُ مِنَ الدُّنْيَا ومَا فِيهَا لَوْ أُنْفِقَتْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

يَقُولُ ابْنُ الجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ في مَقَامِ الدَّلالَةِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ والدَّعْوَةِ إِلَيهِ:" أَلَسْتَ تَبْغِي الْقُرْبَ مِنْهُ ؟ فَاشْتَغِلْ بِدَلالَةِ عِبَادِهِ عَلَيهِ، فَهِيَ حَالاتُ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُمْ آثَرُوا تَعْلِيمَ الْخَلْقِ عَلَى خَلَوَاتِ التَّعَبُّدِ لِعِلْمِهِمْ أَنَّ ذَلِكَ آثَرُ عِنْدَ حَبِيبِهِمْ، وهَلْ كَانَ شُغْلُ الأَنْبِيَاءِ إِلاَّ مُعَانَاةَ الْخَلْقِ، وحُثُّهُمْ عَلَى الْخَيْرِ ونَهْيَهُمْ عَنِ الشَّرِّ ؟!" [(٢)] .

فَائِــــــــدَة

قَالَ الإِمَامُ الْغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ :" إِنَّ الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ هُوَ الْقُطْبُ الأَعْظَمُ فِي الدِّينِ، وهُوَ الْمُهِمُّ الَّذِي ابْتَعَثَ اللَّهُ لَهُ النَّبِيِّينَ أَجْمَعِينَ، وَلَوْ طُوِيَ بِسَاطُهُ وأُهْمِلَ عِلْمُهُ وعَمَلُهُ لَتَعَطَّلَتِ النُّبُوَّةُ، وَاضْمَحَلَّتِ الدِّيَانَةُ، وعَمَّتِ الْفَتْرَةُ، وفَشَتِ الضَّلالَةُ، وشَاعَتِ الْجَهَالَةُ، وَاسْتَشْرَى الْفَسَادُ، واتَّسَعَ الْخَرْقُ وخَرِبَتِ الْبِلادُ، وهَلَكَ الْعِبَادُ، ولَمْ يَشْعُرُوا بِالْهَلاكِ إلاَّ يَوْمَ التَّنَادِ، وقَدْ كَانَ الَّذِي خِفْنَا أَنْ يَكُونَ، فَإِنَّا للهِ وإِنَّا إِلَيْهِ

---

(١) «فتح الباري» (٥/٤٢٧) .

(٢) «صيد الخاطر» ص (٢٢) .

رَاجِعُونَ[(١)]، إِذْ قَدِ انْدَرَسَ مِنْ هَذَا الْقُطْبِ عَمَلُهُ وعِلْمُهُ، وَانْمَحَقَ بِالْكُلِّيَّةِ حَقِيقَتُهُ ورَسْمُهُ، فَاسْتَوْلَتْ عَلَى الْقُلُوبِ مُدَاهَنَةُ الخَلْقِ، وَانْمَحَقَتْ عَنهَا مُرَاقَبَةُ الخَالِقِ، وَاسْتَرْسَلَ النَّاسُ فِي اتِّبَاعِ الْهَوَى والشَّهَوَاتِ اسْتِرْسَالَ الْبَهَائِمِ، وعَزَّ عَلَى بِسَاطِ الأَرْضِ مُؤْمِنٌ صَادِقٌ لا تَأْخُذُهُ فِي الله لَوْمَةُ لائِمٍ، فَمَنْ سَعَى فِي تَلافِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ، وسَدِّ هَذِهِ الثُّلْمَةِ، إِمَّا مُتَكَفِّلاً بِعَمَلِهَا، أَوْ مُتَقَلِّداً لِتَنْفِيذِهَا مُجَدِّداً لِهَذِهِ السُّنَّةِ الدَّائِرَةِ، نَاهِضاً بِأَعْبَائِهَا، وَمُتَشَمِّراً في إِحْيَائِهَا، كَانَ مُسْتَأْثِراً مِنْ بَيْنِ الْخَلْقِ بِإِحْيَاءِ سُنَّةٍ أَفْضَى الزَّمَانُ إِلى إِمَاتَتِهَا، ومُسْتَبِدّاً بِقُرْبَةٍ تَتَضَاءَلُ دَرَجَاتُ الْقُرْبِ دُوْنَ ذِرْوَتِهَا "[(٢)] .

وقَالَ الإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:" وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْبَابَ أَعْنِي بَابَ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ قَدْ ضُيِّعَ أَكْثَرُهُ مِنْ أَزْمَانٍ مُتَطَاوِلَةٍ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ فِي هَذِهِ الأَزْمَانِ إِلاَّ رُسُومٌ قَلِيلَةٌ جِدّاً، وَهُوَ بَابٌ عَظِيمٌ، بِهِ قِوَامُ الأَمْرِ وَمِلاكُهُ، وَإِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ عَمَّ الْعِقَابُ الصَّالِحَ وَالطَّالِحَ، وَإِذَا لَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدِ الظَّالِمِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِعِقَابِهِ، ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣]، فَيَنْبَغِي لِطَالِبِ الآخِرَةِ وَالسَّاعِي فِي تَحْصِيلِ رِضَا الله عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَعْتَنِيَ بِهَذَا الْبَابِ، فَإِنَّ نَفْعَهُ عَظِيمٌ لا سِيَّمَا وَقَدْ ذَهَبَ مُعْظَمُهُ، وَيُخْلِصَ نِيَّتَهُ، وَلا يُهَادِنَ مَنْ يُنْكِرُ عَلَيْهِ لارْتِفَاعِ مَرْتَبَتِه ؛ فَإِنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَالَ:﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ [الحج:٤٠]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى :

---

(١) قال الإمام أبو جعفر ابن جرير الطبري في «تهذيب الآثار» (٣٤٧): حدثني أبو حميد الحمصي أحمد بن المغيرة، حدثنا عثمان بن سعيد ، عن محمد بن مهاجر ، حدثني الزبيدي ، عن الزهري ، عن عروة ، عن عائشة ، أنها قالت: "يَا وَيْحَ لَبِيدٍ حَيْثُ يَقُولُ :

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ   وَبَقِيتُ فِي خَلْفٍ كَجِلْدِ الأَجْرَبِ

قَالَتْ عَائِشَةُ : فَكَيفَ لَوْ أَدْرَكَ زَمَانَنَا هَذَا ؟" قال عروة : رحم الله عائشة ، فكيف لو أدركت زماننا هذا ؟ ثم قال الزهري : رحم الله عروة ، فكيف لو أدرك زماننا هذا ؟ ثم قال الزبيدي : رحم الله الزهري ، فكيف لو أدرك زماننا هذا ؟ قال محمد : وأنا أقول : رحم الله الزبيدي ، فكيف لو أدرك زماننا هذا ؟ قال أبو حميد : قال عثمان : ونحن نقول : رحم الله محمداً ، فكيف لو أدرك زماننا هذا ؟ قال أبو جعفر : قال لنا أبو حميد : رحم الله عثمان ، فكيف لو أدرك زماننا هذا ؟ قال أبو جعفر : رحم الله أحمد بن المغيرة، فكيف لو أدرك زماننا هذا؟ قلت: رحم الله الجميع، فكيف لو أدركوا زماننا ؟ فالله المستعان .

(٢) «إحياء علوم الدين» (٢/٤٣٢) .

﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران:١٠١]، وَقَال ﷻ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت:٦٩]. وَقَالَ ﷻ : ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت:٢-٣] .

وَاعْلَمْ أَنَّ الأَجْرَ عَلَى قَدْرِ النَّصَب، وَلا يُتَارِكُهُ أَيْضاً لِصَدَاقَتِهِ وَمَوَدَّته وَمُدَاهَنَتِهِ وَطَلَب الْوَجَاهَةِ عِنْدَهُ وَدَوَامِ الْمَنْزِلَةِ لَدَيْهِ، فَإِنَّ صَدَاقَتَهُ وَمَوَدَّتَهُ تُوجِبُ لَهُ حُرْمَةً وَحَقّاً، وَمِنْ حَقِّهِ أَنْ يَنْصَحَهُ وَيَهْدِيَهُ إِلى مَصَالِحِ آخِرَتِهِ ، وَيُنْقِذَهُ مِنْ مَضَارِّهَا، وَصَدِيقُ الإِنْسَانِ وَمُحِبُّهُ هُوَ مَنْ سَعَى فِي عِمَارَةِ آخِرَتِهِ وَإِنْ أَدَّى ذَلِكَ إِلى نَقْصٍ فِي دُنْيَاهُ، وَعَدُوُّهُ مَنْ يَسْعَى فِي ذَهَابِ أَوْ نَقْصِ آخِرَتِهِ، وَإِنْ حَصَلَ بِسَبَبِ ذَلِكَ صُورَةُ نَفْعٍ فِي دُنْيَاهُ، وَإِنَّمَا كَانَ إِبْلِيسُ عَدُوّاً لَنَا لِهَذَا، وَكَانَتِ الأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ أَوْلِيَاءَ لِلْمُؤْمِنِينَ لِسَعْيِهِمْ فِي مَصَالِحِ آخِرَتِهِمْ وَهِدَايَتِهِمْ إِلَيْهَا، وَنَسْأَلُ اللهَ الْكَرِيْمَ تَوْفِيقَنَا وَأَحْبَابنَا وَسَائِرِ الْمُسْلِمِينَ لِمَرْضَاتِهِ، وَأَنْ يَعُمَّنَا بِجُودِهِ وَرَحْمَتِهِ. وَاللهُ أَعْلَمُ [(١)] .

وقَالَ ابْنُ العَرَبِيِّ الْمَالِكِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:" الأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ أَصْلٌ فِي الدِّين، وعُمْدَةٌ مِنْ أَعْمِدَةِ الْمُسْلِمِينَ، وخِلافَةُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، والْمَقْصُودُ الأَكْبَرُ مِنْ بَعْثِ النَّبِيِّينَ، وَهُوَ فَرْضٌ عَلَى جَمِيعِ النَّاسِ مَثْنَى وفُرَادَى بِشَرْطِ الْقُدْرَةِ " [(٢)] .

*****

(١) «شرح مسلم للنووي» (٢١٤/١) .

(٢) «عارضة الأحوذي» (١٣/٢) .

الْحَدِيثُ الْحَادِي وَالْعِشْرُونَ

عَنْ عَبدِ اللَّهِ بْنِ مَسعُودٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "نَضَّرَ اللَّهُ امْرَءاً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا وَحَفِظَهَا وَبَلَّغَهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إلى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، ثَلاثٌ لا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ، إخْلاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَمُنَاصَحَةُ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ " [(١)]، وفي رِوَايَةٍ : "نَضَّرَ اللَّهُ امْرَءاً سَمِعَ مَقَالَتِي فَحَفِظَهَا ثُمَّ ذَهَبَ إلى مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ..." [(٢)] .

قوله (نَضَّرَ اللَّهُ امْرَءاً) النَّضْرَةُ هِيَ الْبَهْجَةُ والْحُسْنُ الَّذِي يُكْسَاهُ الْوَجْهُ مِنْ آثَارِ الإيْمَانِ وابْتِهَاجِ الْبَاطِنِ بِهِ، وفَرَحِ الْقَلْبِ وسُرُورِهِ وَالْتِذَاذِهِ بِهِ، فَتَظْهَرُ هَذِهِ البَهْجَةُ وَالسُّرُورُ والفَرحَةُ نَضَارَةً عَلَى الوَجْهِ، ولِهَذَا يَجْمَعُ لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَينَ الْبَهْجَةِ وَالسُّرُورِ وَالنَّضْرَةِ،

---

(١) رواه الترمذي برقم (٢٦٥٨) وقال: حديث حسن صحيح، وفي لفظ "نَضَّرَ اللَّهُ امْرَءاً سَمِعَ مِنَّا شَيْئاً فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَ" ورقمه (٢٦٥٧)، ورواه ابن ماجه عنه برقم (٢٣٢) ولفظه "نَضَّرَ اللَّهُ امْرَءاً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثاً فَبَلَّغَهُ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَحْفَظُ مِنْ سَامِعٍ"، ورواه البيهقي عنه في «شعب الإيمان» برقم (١٧٣٨) ولفظه "نَضَّرَ اللَّهُ رَجُلاً سَمِعَ مِنَّا كَلِمَةً فَبَلَّغَهَا كَمَا سَمِعَ، فَإِنَّهُ رُبَّ مُبَلَّغٍ أَوعَى مِنْ سَامِعٍ"، ورواه أحمد برقم (٤١٥٧) ورواه الترمذي أيضاً عن زيد بن ثابت برقم (٢٦٥٦) بلفظ "نَضَّرَ اللَّهُ امْرَءاً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثاً فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيرَهُ ..." وقال: حديث حسن، ورواه عنه أيضاً أبو داوود برقم (٣٦٦٢) وابن ماجه برقم (٢٣٠)، ورواه أيضا عن أنس بن مالك برقم (٢٣٦) وقال السندي: قد تكلم في الزوائد على بعض الأحاديث من رقم (٢٣٠ إلى ٢٣٦) إلاّ أَنَّ متونها ثابتة عن الأئمة، ورواه عنه أحمد في المسند برقم (١٣٣٧٤) ورواه أيضاً عن جبير بن مطعم برقم (١٦٧٨٤) و(١٦٨٠٠) كما رواه عنه الحاكم برقم (٢٩٤) ولفظه "نَضَّرَ اللَّهُ عَبداً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا ثُمَّ أَدَّاهَا إلى مَنْ لَمْ يَسمَعْهَا " وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وقال جبير في بدايته:" قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالخَيفِ مِنْ مِنىً.." وكذا في رواية أنس عند الطبراني في الأوسط. وذلك في حِجَّةِ الوَدَاعِ. ورواه الحاكم أيضاً عن النعمان بن بشير برقم (٢٩٧) بلفظ "نَضَّرَ اللَّهُ وَجهَ امْرِئٍ سَمِعَ مَقَالَتِي فَحَمَلَهَا..." وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وقال الحاكم: وفي الباب عن جماعة من الصحابة، ومنهم عمر وعثمان وعلي وعبد اللَّه بن مسعود ومعاذ بن جبل وابن عمر وابن عباس وأبو هريرة وأنس وغيرهم، قال في الزوائد: وفي الباب أيضاً مما لم يذكره الحاكم عن أبي بن كعب وبشير بن سعد الأنصاري وجابر بن عبد اللَّه وزيد بن ثابت وسعد بن وقاص وعمرو بن قرة الفزاري وأبي أمامة الباهلي وأبي الدرداء وأبي سعيد الخدري وأبي قرطافة وغيرهم، وقال الحافظ ابن حجر: الحديث صحيح المتن وإن كان بعض أسانيده معلولاً . «فيض القدير» (٣٧٦/٦).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط برقم (٩٤٤٤) .

كَمَا فِي قَولِهِ ﷻ: ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ﴾ [الإنسان: ١١] ، فَالنَّضرَةُ فِي وُجُوهِهِم وَالسُّرُورُ فِي قُلُوبِهِم، والنَّعِيمُ وطِيبُ الْقَلْب يَظهَرُ نَضَارَةً فِي الْوَجهِ، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [المطففين: ٢٤] ، والْمَقصُودُ أَنَّ هَذِهِ النَّضْرَةَ فِي وَجْهِ مَنْ سَمِعَ سُنَّةَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﷺ وَوَعَاهَا وحَفِظَهَا وبَلَّغَهَا، فَهِيَ أَثَرُ تِلْكَ الحَلاوَةِ والسُّرُورِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ وبَاطِنِهِ [(١)]، فَهَذَا دُعَاءٌ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يُلْبِسَ ٱللَّهُ ﷻ مَنْ يُبَلِّغُ شَيئاً مِنَ الدِّينِ حُسْناً وبَهْجَةً ونَضَارَةً فِي الْوَجهِ فِي الدُّنيَا يَرَاهُ أَصْحَابُ البَصَائِرِ النَّيِّرَةِ، وأَنْ يُوصِلَهُ إِلَى النَّضَارَةِ الحَقِيقِيَّةِ الَّتِي لا تَزُولُ فِي الجَنَّةِ، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢] .

قوله (سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا وَحَفِظَهَا وَبَلَّغَهَا) فِيهِ فَضْلُ اسْتِمَاعِ الحَدِيثِ بِتَوَجُّهٍ وإمْعَانٍ وتَدَبُّرٍ، لِيَحْفَظَهُ ويَعِيَهُ ويُبَلِّغَهُ مَنْ لَمْ يَسمَعْهُ، وهَذِهِ أَربَعُ مَرَاتِبَ، **أَوَّلُهَا وَثَانِيهَا**: سَمَاعُهُ وعَقْلُهُ، فَإِذَا سَمِعَهُ وَعَاهُ بِقَلبِهِ أَيْ عَقَلَهُ وَاسْتَقَرَّ فِي قَلبِهِ كَمَا يَستَقِرُّ الشَّيءُ الَّذِي يُوعَى فِي وِعَائِهِ وَلا يَخْرُجُ مِنهُ، وكَذَلِكَ عَقْلُهُ بِمَنْزِلَةِ عِقَالِ الْبَعِيرِ وَالدَّابَّةِ ونَحْوِهَا حَتَّى لا تَشْرُدَ وتَذْهَبَ، **الْمَرتَبَةُ الثَّالِثَةُ**: تَعَاهُدُهُ وحِفْظُهُ حَتَّى لا يَنْسَاهُ فَيَذهَبَ، **الْمَرتَبَةُ الرَّابِعَةُ**: تَبلِيغُهُ وبَثُّهُ فِي الأُمَّةِ لِيَحْصُلَ بِهِ ثَمَرَتُهُ ومَقْصُودُهُ وهُوِيَّتُهُ فِي الأُمَّةِ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْكَنْزِ الْمَدفُونِ فِي الأَرضِ الَّذِي لا يُنفَقُ مِنهُ، وهُوَ مُعَرَّضٌ لِذَهَابِهِ، فَإِنَّ الْعِلمَ مَا لَمْ يُنفَقْ مِنْهُ ويُعَلَّمْ فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَذهَبَ، فَإِذَا أُنفِقَ مِنهُ نَمَا وزَكَا عَلَى الإنفَاقِ، فَمَنْ قَامَ بِهَذِهِ الْمَرَاتِبِ الأَربَعِ دَخَلَ تَحتَ هَذِهِ الدَّعوَةِ النَّبَوِيَّةِ الْمُتَضَمِّنَةِ كَمَالَ الظَّاهِرِ وَالبَاطِنِ [(٢)] . وفِيهِ أَنَّ اسْتِمَاعَ الحَدِيثِ يَكُونُ بِنِيَّةِ الْعَمَلِ والتَّبلِيغِ، كَمَا فِي رِوَايَة: "**نَضَّرَ ٱللَّهُ امْرَءاً سَمِعَ مِنَّا حَدِيْثاً فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ** " [(٣)]، وإِلاَّ يَكُنْ هَذَا العِلمُ حُجَّةً عَلَى صَاحِبِهِ، ويُصِبْهُ الوَعِيدُ الشَّدِيدُ عَلَى كِتمَانِ الْعِلْمِ، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾[البقرة: ١٥٩]،

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٩٤) .

(٢) المصدر السابق .

(٣) تقدم تخريجه .

وقَالَ ﷺ : "مَنْ كَتَمَ عِلْماً أَلْجَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَّارٍ" [(١)]، ويَكُونُ كَنْزُهُ هَذَا لِلْعِلْمِ أَشَدَّ إِثْماً مِنْ كَنْزِ الْمَالِ [(٢)]، ويَكُونُ قَدْ خَانَ الأَمَانَةَ وَالْعَهْدَ فِي النُّصْحِ لِلمُسلِمِينَ [(٣)] وَتَبلِيغِ مَا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، كَمَا أَخبَرَ مُعَاذُ بنُ جَبَلٍ ﷺ عِندَ مَوتِهِ بِمَا أَشَارَ عَلَيهِ النَّبِيُّ ﷺ بِعَدَمِ إِظهَارِهِ لِلنَّاسِ خَشْيَةَ أَنْ يَتَّكِلُوا، فَأَخْبَرَ بِهِ مُعَاذٌ تَأَثُّماً، أَيْ لِرَفعِ الإِثْمِ الْمُتَرَتِّبِ عَلَى كِتمَانِ حَدِيثٍ وَاحِدٍ .

قَولُهُ فِي الرِّوَايَةِ الأُخْرَى (ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا) فِيهِ أَنَّ الْمُبَلِّغَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لا يَنتَظِرُ قُدُومَ النَّاسِ إِلَيهِ لِيُبَلِّغَهُمْ، بَل هُوَ الَّذِي يَذهَبُ بِمَقَالَتِهِ ﷺ إِلى النَّاسِ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَذهَبُ إِلى النَّاسِ فِي أَسْوَاقِهِم ومَنَازِلِهِم ومَجَامِعِهِم وأَنْدِيَتِهِم، ويَتَحَمَّلُ أَذَاهُم فِي ذَلِكَ، قَالَ جَابِرُ بنُ عَبدِ اللَّهِ رضي الله عنهما:" **مَكَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يَتبَعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِم بِعُكَاظَ وَمِجَنَّةَ، وَفِي الْمَوَاسِمِ بِمِنىً، يَقُوْلُ: "مَنْ يُؤْوِينِيْ ؟ مَنْ يَنصُرُنِيْ حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّيْ ؟ وَلَهُ الْجَنَّةُ** " [(٤)] .

وعَنْ مُدْرِكَةَ بْنِ الحَارِثِ ﷺ قَالَ:" **حَجَجْتُ مَعَ أَبِي، فَلَمَّا نَزَلْنَا مِنىً، إِذَا نَحْنُ بِجَمَاعَةٍ، فَقُلْتُ لأَبِي: مَا هَذِهِ الْجَمَاعَةُ ؟ قَالَ: هَذَا الصَّابِئُ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ**

---

(١) رواه أحمد في مسنده عن أبي هريرة برقم (١٠٤٩٢) و(١٠٦٠٥) ورواه ابن حبان في صحيحه برقم (٩٥) كما رواه عن عبد الله بن عمرو برقم (٩٦) ورواه الحاكم في المستدرك عن عبد الله بن عمرو بن العاص وقال: هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين وليس له علة، ووافقه الذهبي .

(٢) روى الطبراني في الأوسط بسند حسن (٦٩٣) عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "**مَثَلُ الَّذِي يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ، ثُمَّ لا يُحَدِّثُ بِهِ كَمَثَلِ الَّذِي يَكْنُزُ الْكَنْزَ، ثُمَّ لا يُنفِقُ مِنهُ**" وأخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم». (٧٧٤) وروى أحمد في مسنده برقم (١٠٤٨١) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "**مَثَلُ عِلْمٍ لا يُنتَفَعُ بِهِ كَمَثَلِ كَنْزٍ لا يُنفَقُ مِنهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**" وروى الدارمي برقم (٥٥٥) بسند صحيح عن سلمان ﷺ موقوفاً، قال: "**عِلْمٌ لا يُقَالُ بِهِ كَكَنزٍ لا يُنفَقُ مِنهُ** " .

(٣) روى الطبراني في الكبير برقم (١١٧٠١) عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: "**تَنَاصَحُوا فِي الْعِلْمِ، فَإِنَّ خِيَانَةَ أَحَدِكُمْ فِي عِلْمِهِ أَشَدُّ مِنْ خِيَانَتِهِ فِي مَالِهِ، وَإِنَّ اللَّهَ ﷻ مُسَائِلُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ". قال المنذري في الترغيب: رواته ثقات إلاّ أبا سعيد البقال، واسمه سعيد بن المرزبان وفيه خلاف .

(٤) رواه أحمد في مسنده عن جابر رضي الله عنه برقم (١٤٤٩٦) وقال ابن كثير في البداية: هذا إسناد جيد على شرط مسلم و لم يخرجوه .

يَقُولُ:" يَا أَيُّهَا النَّاسُ ! قُولُوا: لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ تُفْلِحُوا " [(١)]، وتَقَدَّمَتْ قِصَّةُ خُرُوجِهِ ﷺ إلى الطَّائِفِ لِلدَّعوَةِ ومَا لَقِيَهُ فِيهَا مِنَ الأَذَى .

وقَالَ رَبِيعَةُ بْنُ عُبَادَةَ مِنْ بَنِي الدِّيلِ – وكَانَ جَاهِلِيّاً فَأَسْلَمَ – قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي سُوقِ ذِيْ الْمَجَازِ وَهُوَ يَقُوْلُ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ تُفْلِحُوا ". وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ، وَوَرَاءَهُ رَجُلٌ وَضِيءُ الْوَجْهِ أَحْوَلُ ذُو غَدِيرَتَيْنِ يَقُول: إِنَّهُ صَابِئٌ كَاذِبٌ، يَتَّبِعُهُ حَيْثُ ذَهَبَ، فَسَأَلْت عَنهُ، فَقَالُوا: هَذَا عَمُّهُ أَبُولَهَبٍ [(٢)(٣)] .

وهَكَذَا كَانَ الأَنبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَمَا تَرَكُوا النَّاسَ عَلَى جَهلِهِم وَانْتَظَرُوا مَجيئَهُم، بَل كَانُوا يُنَادُونَ النَّاسَ فِي مَجَامِعِهِم ويَدُورُونَ عَلَى أَبوَابِهِم فِي الاِبْتِدَاءِ، ويَطْلُبُونَ وَاحِداً وَاحِداً فَيُرشِدُونَهُم، لأَنَّ مَرضَى الْقَلْبِ لا يَعْرِفُونَ مَرَضَهُم [(٤)]، كَمَا أَنَّهُم لا يَشْعُرُونَ بِحَاجَتِهِم إلى الدِّينِ إلاَّ إِذَا عُرِّفُوا ذَلِكَ، وهَذَا دَأْبُ وَرَثَتِهِم فِي تَبلِيغِ مَا جَاءَ عَنْهُم .

---

(١) رواه الطبراني في الكبير برقم (٨٠٦) وقال الهيثمي في المجمع: رجاله ثقات .

(٢) رواه أحمد في مسنده من رقم (١٦٠٦٣) إلى (١٦٠٧٠) ورواه الطبراني في الكبير من رقم (٤٥٨٢) إلى (٤٥٩٠) وقال الهيثمي في المجمع: رواه أحمد وابنه والطبراني في الكبير والأوسط باختصار بأسانيد، وأحد أسانيد عبد الله بن أحمد ثقات الرجال .

(٣) قال الواقدي: حدثني محمد بن صالح عن عاصم بن عمر بن قتادة ويزيد بن رومان وغيرهما قالوا: أَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ ثَلاثَ سِنِينَ مِنْ أَوَّلِ نُبُوَّتِهِ مُستَخفِياً ثُمَّ أَعلَنَ فِي الرَّابِعَةِ، فَدَعَا النَّاسَ إلى الإسلام عَشرَ سِنِينَ، يُوَافِي الْمَوسِمَ كُلَّ عَامٍ يَتبَعُ الحَاجَّ فِي مَنَازِلِهِم وفِي الْمَوَاسِمِ بِعُكَاظَ ومِجَنَّةَ وذِي الْمَجَازِ، يَدعُوهُم إلى أَنْ يَمنَعُوهُ حَتَّى يُبَلِّغَ رِسَالاتِ رَبِّهِ ولَهُمُ الجَنَّةُ، فَلا يَجدُ أَحَداً يَنصُرُهُ ولا يُجيبُهُ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْأَلُ عَنِ الْقَبَائِلِ ومَنَازِلِهَا قَبِيلَةً قَبِيلَةً، ويَقُولُ: "**يَا أَيُّهَا النَّاسُ! قُولُوا لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ تُفْلِحُوا وَتَملِكُوا بِهَا العَرَبَ، وتَذِلُّ لَكُمُ العَجَمُ، فَإِذَا آمَنْتُم كُنتُم مُلُوكاً فِي الجَنَّةِ**". وأَبُو لَهَبٍ وَرَاءَهُ يَقُولُ: لا تُطِيعُوهُ فَإِنَّهُ صَابِئٌ كَذَّابٌ، فَيَرُدُّونَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَقبَحَ الرَّدِّ ويُؤْذُونَهُ، ويَقُولُونَ: أُسْرَتُكَ وعَشِيْرَتُكَ أَعْلَمُ بكَ حَيثُ لَمْ يَتَّبِعُوْكَ، وَهُوَ يَدعُوهُم إلى اللَّهِ، وَيَقُولُ: "**اللَّهُمَّ لَوْ شِئْتَ لَمْ يَكُونُوا هَكَذَا**".قال: وكان مِمَّنْ يُسَمَّى لَنَا مِنَ القَبَائِلِ الَّذِينَ أَتَاهُم رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ودَعَاهُم وعَرَضَ نَفْسَهُ عَلَيهِم: بَنُو عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ ومُحَارِب بْنِ خَصَفَةَ، وفَزَارَةُ، وغَسَّانُ، ومُرَّةُ، وحَنِيفَةُ، وسُلَيمٌ، وعَبْسُ، وبَنُو النَّضْرِ، وكِنْدَةُ وكَلْبٌ، وَالحَارِثُ بْنُ كَعْبٍ، وعُذْرَةُ وَالحَضَارِمَةُ، فَلَمْ يَستَجِبْ مِنْهُم أَحَدٌ" «زاد المعاد» (٣ / ٣٢)
ويرجع لمزيد من الوقائع الكثيرة في دعوته ﷺ للقبائل والجماعات إلى كتاب «حياة الصحابة» (١/٦٨-٩٣) .

(٤) «إحياء علوم الدين» (٤ / ٦٩) .

قوله (فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إلى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنهُ) وفي الرِّوَايَةِ الأُخْرَى (فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بفَقِيهٍ) هَذَا أَمْرٌ بالتَّبلِيغ عَلَى كُلِّ حَالٍ لِيَعُمَّ الْبَلاغُ الْكُلَّ كَمَا هُوَ مُقْتَضَى عُمُوم الرِّسَالَة إِلَيْهِمْ، وَلأَنَّهُ قَدْ يَفْهَمُ الْمُبَلَّغُ مَا لا يَفْهَمُهُ الْحَامِلُ مِنَ الأَسْرَارِ وَالْعُلُوم [(١)]؛ وفِيهِ أَنَّ الْفَهْمَ لَيسَ شَرطاً فِي تَبلِيغِ مَا سَمِعَهُ الْمُسلِمُ، بَل عَلَيهِ أَنْ يُبَلِّغَ غَيرَهُ، كَمَا فِيهِ تَنبِيهٌ عَلَى فَائِدَةِ التَّبلِيغِ، وأَنَّ الْمُبَلَّغَ قَدْ يَكُونُ أَفهَمَ مِنَ الْمُبَلِّغِ، فَيَحْصُلُ لَهُ فِي تِلكَ الْمَقَالَةِ مَا لَمْ يَحصُلْ لِلْمُبَلِّغ [(٢)]، كَمَا قَالَ ﷺ: **"لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَلَعَلَّ بَعض مَنْ يَبْلُغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعض مَنْ سَمِعَهُ "**، فَكَانَ مُحَمَّدُ بنُ سِيرِينَ رَحِمَهُ اللهُ إِذَا ذَكَرَهُ يَقُولُ: صَدَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ [(٣)]، أَيْ كَانَ مِنَ اللاَّحِقِينَ الْمُبَلَّغِينَ مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنَ السَّابقِينَ الْمُبَلِّغِينَ، وَالفَضْلُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ بَعدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلسَّابِقِينَ، لامْتِثَالِهِمُ الأَمرَ بالتَّبلِيغِ عَلَى كُلِّ حَالٍ .

قوله (ثَلاثٌ لا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ، إِخْلاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَمُنَاصَحَةُ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ) أَيْ أَنَّ قَلبَ الْمُسلم لا يَدْخُلُ فِيهِ خِيَانَةٌ أَوْ حِقْدٌ يَمْنَعُهُ مِنْ تَبْلِيغ الْعِلْم، فَيَنْبَغِي لَهُ الثَّبَاتُ عَلَى هَذِهِ الْخِصَال حَتَّى لا يَمْنَعَهُ شَيْءٌ مِنَ التَّبْلِيغ، وَبِهَذَا ظَهَرَ مُنَاسَبَةُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ بمَا قَبْلهَا [(٤)]،فَلا يَبقَى فِي قَلبِهِ مَعَ هَذِهِ الخِصَالِ الثَّلاثَةِ غِلٌّ ولا غِشٌّ، فَإِنَّهَا تَنفِي الغِلَّ والْغِشَّ وهُوَ فَسَادُ القَلْبِ وسَخَائِمُهُ، فَالْمُخْلِصُ للهِ عَزَّ وَجَلَّ إِخْلاصُهُ يَمنَعُ غِلَّ قَلْبِهِ، وَيُخرِجُهُ ويُزِيلُهُ جُمْلَةً، لأَنَّهُ قَدِ انْصَرَفَتْ دَوَاعِي قَلْبِهِ وإِرَادَتِهِ إِلى مَرضَاتِ رَبِّهِ، فَلَمْ يَبْقَ فِيهِ مَوْضِعٌ لِلغِلِّ والغِشِّ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ **[يوسف: ٢٤]**، فَلَمَّا أَخْلَصَ لِرَبِّهِ صَرَفَ عَنهُ دَوَاعِيَ السُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ، فَانْصَرَفَ عَنهُ

---

(١) «حاشية السندي على ابن ماجه» (٢١٧/١) .

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١ / ٩٤) و«فتح الباري» (١٥٩/١) .

(٣) رواه البخاري عن أبي بكرة برقم (٤١٤٤) و(٥٢٣٠) و(٧٠٠٩) .

(٤) «حاشية السندي على ابن ماجه» (٢١٤/١) .

السُّوءُ والفَحشَاءُ؛ فَالإخْلاصُ هُوَ سَبيلُ الخَلاصِ، والإسْلامُ مَركَبُ السَّلامَةِ، وَالإيْمَانُ خَاتَمُ الأَمَانِ .

وقوله (**وَمُنَاصَحَةُ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ**) هَذَا أَيْضاً مُنَافٍ لِلْغِلِّ والْغِشِّ، فَإِنَّ النَّصِحَيَة لا تُجَامِعُ الْغِلَّ، إِذْ هِيَ ضِدُّهُ، فَمَنْ نَصَحَ الأَئِمَّةَ وَالأُمَّةَ فَقَدْ بَرِئَ مِنَ الْغِلِّ .

وقوله (**وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ**) وَهَذَا أَيْضاً مِمَّا يُطَهِّرُ الْقَلْبَ مِنَ الْغِلِّ والْغِشِّ، فَإِنِّ صَاحِبَهُ لِلُزُومِهِ جَمَاعَةَ الْمُسلِمِينَ يُحِبُّ لَهُم مَا يُحِبُّ لِنَفسِهِ، ويَكْرَهُ لَهُم مَا يَكْرَهُ لِنَفسِهِ، وَيَسُوْؤُهُ ما يَسُوْؤُهُمْ ويَسُرُّهُ مَا يَسُرُّهُمْ [(١)] .

قوله (**فإنَّ دَعوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِم**) هَذَا مِنْ أَحسَنِ الْكَلامِ وأَوجَزِهِ وأَفخَمِهِ مَعْنىً، شَبَّهَ دَعوَةَ الْمُسلِمِينَ بالسُّورِ والسِّيَاجِ الْمُحِيطِ بِهِمُ الْمَانِعِ مِنْ دُخُولِ عَدُوِّهِم عَلَيهِم، فَتِلكَ الدَّعوَةُ الَّتِي هِيَ دَعوَةُ الإِسْلامِ وهُمْ دَاخِلُوهَا، وَلَمَّا كَانَتْ سُوراً وسِيَاجاً عَلَيهِمْ، أَخبَرَ أَنَّ مَنْ لَزِمَ جَمَاعَةَ الْمُسلِمِينَ أَحَاطَتْ بِهِ تِلْكَ الدَّعوَةُ الَّتِي هِيَ دَعْوَةُ الإِسْلامِ، كَمَا أَحَاطَتْ بِهِم، فَالدَّعوَةُ تَجْمَعُ شَمْلَ الأُمَّةِ، وتَلُمُّ شَعْثَهَا، وتُحِيطُ بِهَا، فَمَنْ دَخَلَ فِي جَمَاعَتِهَا أَحَاطَتْ بِهِ وشَمِلَتْهُ [(٢)] .

مَعْنَى الْحَدِيْثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ

فِي الْحَدِيثِ دُعَاءٌ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ بالنَّضَارَةِ والْبَهْجَةِ وحُسْنِ الْوَجْهِ لِلَّذِي يَحفَظُ عَنْهُ ﷺ شَيئاً مِمَّا أُمِرَ بتَبلِيغِهِ لِلنَّاسِ، ثُمَّ يَذهَبُ بِهِ إلى مَنْ لَمْ يَسمَعْهُ ويُبَلِّغُهُ إِيَّاهُ، وَهَذِهِ النَّضَارَةُ تَكُونُ فِي الدُّنيَا يَرَاهَا أَرْبَابُ البَصَائِرِ النَّيِّرَةِ، وتَدُومُ حَقِيقَتُهَا فِي الجَنَّةِ حِينَمَا تَظهَرُ فِي وُجُوهِهِم نَضْرَةُ النَّعِيم، وذَلِكَ لأَنَّهُ بِتَبلِيغِهِ أَظْهَرَ مَحَاسِنَ الدِّينِ ونَضَارَتَهُ وسَمَاحَتَهُ فَجُوزِيَ

(١) «مفتاح دار السعادة» (١ / ٩٤- ٩٥) .

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١ / ٩٥) .

بالْمِثْلِ، لِذَلِكَ فَكَلُّ مَنْ بَلَّغَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَيئاً مِمَّا جَاءَ بِهِ تَجِدُ فِي وَجهِهِ الْحُسنَ والنَّضَارَةَ بِبَرَكَةِ دُعَائِهِ ﷺ؛ والنَّبيُّ ﷺ دَعَا بِدُعَائِهِ هَذَا حِينَمَا كَمُلَ الدِّينُ وتَمَّتْ نعْمَةُ اللَّهِ عَلَى العِبَادِ، وذَلِكَ فِي حجَّةِ الوَدَاعِ، وكَذَا قَولُهُ: ﷺ **"لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ فَلَعَلَّ بَعضَ مَنْ يَبْلُغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعضِ مَنْ سَمِعَهُ"** [(١)]، وذَلِك حَتَّى تَتَحَرَّكَ الأُمَّةُ لِتَبلِيغِ رِسَالَةِ اللَّهِ ﷻ إلى خَلْقِهِ بالشَّوق والرَّغبَةِ، ولَمْ يُبقِ أَمَامَهُم أيَّ مَانعٍ مِنَ التَّبلِيغِ، بَلْ رَغَّبَهُم فِي التَّبلِيغِ وَدَعَا لِمَنْ بَلَّغَ عَنهُ ولَوْ حَدِيثاً وَاحِداً، ولَمْ يَشتَرِطِ الْفَهْمَ لِلحَدِيثِ مِنْ قِبَلِ الْمُبَلِّغِ، كَمَا طَمَّعَهُم فِي أَنْ يَكُونَ مِنَ النَّاسِ الْغَائِبِينَ مَنْ هُوَ أَفقَهُ لِمَا فِي صُدُورِهِم مِنْهُم إِذَا بَلَغَهُم ذَلِكَ، ولَمْ يَشْتَرِطْ لِلتَّبلِيغِ كَثْرَةَ بِضَاعَةِ الْمُبَلِّغِ مِنَ العِلمِ، بَلْ قَالَ ﷺ : **"نَضَّرَ اللَّهُ امْرَءاً سَمِعَ مَقَالَتِيْ "** وفي رِوَايَةٍ **"سَمِعَ مِنَّا حَدِيْثاً "** وفي رِوَايَةٍ أُخرَى **"سَمِعَ مِنَّا شَيْئاً "** وفي رِوَايَةٍ أُخرَى **"سَمِعَ مِنَّا كَلِمَةً "** وقَالَ ﷺ : **"بَلِّغُوا عَنِّي وَلَو آيَةً "**، والأَمْرُ لِلوُجُوبِ، وَالْمَأْمُورُ بِقَولِهِ: **"بَلِّغُوا "** هُوَ الأُمَّةُ جَمْعَاء، فَكُلُّ مَنْ بَلَغَهُ شَيْءٌ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَجِبُ عَلَيهِ أَنْ يُبَلِّغَهُ لِهَذَا الأَمْرِ، ولِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ حِفْظِ الدِّينِ مِنَ الضَّيَاعِ وَالانْدِرَاسِ، كَمَا أَنَّهُ بِالتَّبلِيغِ يَنتَشِرُ الدِّينُ فِي أَرجَاءِ الْمَعْمُورَةِ؛ "فَأَمَرَ ﷺ بالتَّبلِيغِ عَنهُ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ حُصُولِ الْهُدَى بالتَّبلِيغِ، وَلَهُ ﷺ أَجْرُ مَنْ بَلَّغَ عَنهُ وأَجْرُ مَنْ قَبِلَ ذَلِكَ البَلاغَ...، فَكُلُّ مَنْ هَدَى وَاهْتَدَى بِتَبلِيغِهِ فَلَهُ أَجْرُهُ، لأَنَّه هُوَ الدَّاعِي إِلَيهِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي تَبلِيغِ العِلْمِ عَنهُ إِلاَّ حُصُولُ مَا يُحِبُّهُ ﷺ لَكَفَى بِهِ فَضْلاً، وَعَلامَةُ الْمُحِبِّ الصَّادِقِ أَنْ يَسعَى فِي حُصُولِ مَحْبُوبِ مَحْبُوبِهِ، وَيَبْذُلَ جُهْدَهُ وطَاقَتَهُ فِيهَا، ومَعلُومٌ أَنَّهُ لا شَيْءَ أَحَبُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ إِيْصَالِ الْهُدَى إِلَى جَمِيعِ الأُمَّةِ، فَالْمُبَلِّغُ سَاعٍ فِي حُصُولِ مَحَابِّهِ، فَهُوَ أَقرَبُ النَّاسِ مِنهُ، وأَحَبُّهُم إِلَيهِ، وهُوَ نَائِبٌ وخَلِيفَةٌ فِي أُمَّتِهِ [(٢)] .

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١ / ٩٥- ٩٦) .

فَمَنْ بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَهُوَ خَلِيفَتُهُ فِي التَّبلِيغِ، وكُلُّ مَنْ سَمِعَ شَيْئاً فِي أَمْرِ الدِّينِ فَهُوَ خَلِيفَتُهُ فِي التَّبلِيغِ مَأْمُورٌ مِنْ جِهَتِهِ بِالبَيَانِ كَالْمَبْعُوثِ، لِقَولِهِ ﷺ: **"أَلا فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ "** [(١)][(٢)] .

ثُمَّ بَيَّنَ ﷺ أَنَّ قَلْبَ الْمُسلِمِ إِذَا اجْتَمَعَتْ فِيهِ ثَلاثُ خِصَالٍ فَلا يُمْكِنُ أَنْ تَجْتَمِعَ مَعَ الْغِلِّ والْغِشِّ والحَسَدِ وغَيرِهِ مِنْ أَمْرَاضِ القَلْبِ الْمُهْلِكَةِ، والْمَانِعَةِ مِنَ الْقِيَامِ بِمُهِمَّةِ التَّبلِيغِ الَّتِي تَقُومُ عَلَى أَسَاسِ النُّصْحِ لِلنَّاسِ عَامَّةً، ولِلمُسلِمِينَ خَاصَّةً، وهَذِهِ الْخِصَالُ هِيَ إِخْلاصُ العَمَلِ للهِ ﷻ والْمُنَاصَحَةُ لأَئِمَّةِ الْمُسلِمِينَ ولُزُوْمُ جَمَاعَتِهِم، فَإِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ أُمَّةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ، قُوَّتُهَا فِي اجْتِمَاعِيَّتِهَا فِي الْقُلُوبِ وفِي الفِكْرِ .

فَائِـــــــدَة

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ:" وَالَّذِينَ حُفِظَتْ عَنْهُمُ الْفَتْوَى مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِائَةٌ ونَيِّفٌ[(٣)] وَثَلاثُونَ نَفْساً مَا بَينَ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ، وكَانَ الْمُكْثِرُونَ مِنهُم سَبْعَةً: عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وعَبدُ اللَّهِ بْنُ مَسعُودٍ، وعَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ، وزَيدُ بْنُ ثَابتٍ، وعَبدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، وعَبدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ ﷺ؛ قَالَ أَبُو مُحَمَّدِ ابْنُ حَزْمٍ: وَيُمْكِنُ أَنْ يُجْمَعَ مِنْ فَتْوَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ سِفْرٌ ضَخْمٌ .

ثُمَّ عَدَّ عِشْرِينَ صَحَابِيّاً، وَهُمُ الْمُتَوَسِّطُونَ فِي الْفُتْيَا، ويُمْكِنُ أَنْ يُجْمَعَ مِنْ فُتْيَا كُلِّ وَاحِدٍ مِنهُم جُزْءٌ صَغِيرٌ جدّاً، ثُمَّ ذَكَرَ الْمُقِلِّينَ مِنهُم فِي الْفُتْيَا، وَالَّذِينَ لا يُروَى عَنِ الْوَاحِدِ مِنهُمْ إِلاَّ الْمَسْأَلَةُ أَوِ الْمَسْأَلَتَانِ وَالزِّيَادَةُ الْيَسِيرَةُ عَلَى ذَلِكَ، وَيُمكِنُ أَنْ يُجمَعَ مِنْ فُتيَا

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) «أصول السرخسي» (٣٢٥/١) .

(٣) النَّيِّفُ: الزائد على غيره، ويقال للزائد من واحد إلى ثلاثة .

جَمِيعِهِم جُزْءٌ صَغِيرٌ فَقَطْ بَعدَ التَّقَصِّي وَالْبَحْثِ؛ ثُمَّ قَالَ: هَؤُلاءِ الَّذِينَ نُقِلَتْ عَنْهُمُ الْفَتْوَى مِنْ أَصحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ [(١)] .

وَقَالَ مَسْرُوقٌ رَحِمَهُ اللهُ:" **جَالَسْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَكَانُوا كَالإِخَاذِ**[(٢)]**، الإِخَاذَةُ تُروِي الرَّاكِبَ، وَالإِخَاذَةُ تُروِي الرَّاكِبَيْنِ، وَالإِخَاذَةُ تُروِي الْعَشَرَةَ، وَالإِخَاذَةُ لَوْ نَزَلَ بِهَا أَهْلُ الأَرْضِ لأَصْدَرَتْهُم، وَإِنَّ عَبدَ اللهِ** - يعني ابنَ مَسعُودٍ - **مِنْ تِلْكَ الإِخَاذَةِ**" [(٣)] .

وَقَالَ أَبُو زُرْعَةَ رَحِمَهُ اللهُ: "**قُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ مِائَةِ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةَ عَشَرَ أَلْفاً مِنَ الصَّحَابَةِ مِمَّنْ رَوَى عَنْهُ وَسَمِعَ مِنْهُ** ". فَقِيلَ لَهُ: هَؤُلاءِ أَيْنَ كَانُوا وَأَيْنَ سَمِعُوا ؟ قَالَ: "**أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَأَهْلُ مَكَّةَ وَمَنْ بَيْنَهُمَا مِنَ الأَعْرَابِ، وَمَنْ شَهِدَ مَعَهُ حَجَّةَ الوَدَاعِ، كُلٌّ رَوَى وَسَمِعَ مِنْهُ بِعَرَفَةَ** " .

وقَالَ الرَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: "**جَمِيعُ مَنْ صَنَّفَ فِي الصَّحَابَةِ لَمْ يَبْلُغْ مَجْمُوعُ مَا فِي تَصَانِيفِهُم عَشرَةَ آلافٍ** " [(٤)] .

وَمِنْ هُنَا يَتَّضِحُ أَنَّ الْقَلِيلَ مِنَ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم صَدَرَتْ عَنهُمُ الْفَتْوَى، فَلَمْ يَكُونُوا كُلُّهُم مِنْ أَرْبَابِ الْفَتْوَى، وَلَكِنَّهُم جَمِيعاً كَانُوا مُبَلِّغِينَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَامِلِينَ لِوَاءَ الدَّعْوَةِ إلى اللهِ لِوَاءَ الرَّحمَةِ عَلَى خَلْقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَلَيسَ مِنْ شُرُوطِ الْمُبَلِّغِ وَالدَّاعِي أَنْ يَكُونَ فَقِيهاً أَوْ مُحَدِّثاً أَوْ مُفْتِياً، كَمَا قَالَ ﷺ : "**بَلِّغُوا عَنِّيْ وَلَوْ آيَةً** "[(٥)]، ولَمْ يَشْتَرِطْ أَنْ يَكُونَ عَالِماً بِغَيرِهَا، وقَالَ ﷺ: "**نَضَّرَ اللهُ امْرَءاً سَمِعَ مِنَّا حَدِيْثاً فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ** " [(٦)]، ولَم يَشْتَرِطْ لِتَبلِيغِهِ حِفْظَ غَيرِهِ .

---

(١) «إعلام الموقعين» (١ / ١٨- ١٩) .
(٢) الإخَاذ: جمع إخاذة وهي ما يُشبهُ الغَدِيرَ من الماء .
(٣) «إعلام الموقعين» (١ / ٢١) .
(٤) «تدريب الراوي» (٢/ ١٢٧) .
(٥) تقدم تخريجه .
(٦) تقدم تخريجه .

وقَالَ الإِمَامُ الغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "**وَإِنَّمَا يَجِبُ التَّبلِيغُ عَلَى أَهْلِ العِلْمِ، فَكُلُّ مَنْ تَعَلَّمَ مَسْأَلَةً وَاحِدَةً فَهُوَ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ بِهَا** " (١) .

وقَالَ الإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "إِنَّمَا يَأْمُرُ وَيَنهَى مَنْ كَانَ عَالِماً بِمَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنهَى عَنْهُ، وَذَلِكَ يَختَلِفُ باخْتِلافِ الشَّيْءِ، فَإِنْ كَانَ مِنَ الْوَاجِبَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْمُحَرَّمَاتِ الْمَشْهُورَةِ كَالصَّلاةِ وَالصِّيَامِ وَالزِّنَا وَالْخَمْرِ وَنَحْوِهَا، فَكُلُّ الْمُسْلِمِينَ عُلَمَاءُ بِهَا، وَإِنْ كَانَ مِنْ دَقَائِقِ الأَفْعَالِ وَالأَقْوَالِ وَمِمَّا يَتَعَلَّقُ بالاجْتِهَادِ، لَمْ يَكُنْ لِلْعَوَامِّ مَدْخَلٌ فِيهِ، وَلا لَهُمْ إِنكَارُهُ، بَلْ ذَلِكَ لِلْعُلَمَاءِ " (٢) .

فَلا شَكَّ أَنَّ الدَّعوَةَ إلى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَشْرُوطٌ لَهَا العِلمُ، ولَكِنَّ العِلْمَ لَيسَ شَيئاً وَاحِداً لا يَتَجزَّأُ ولا يَتَبَعَّضُ، وإِنَّمَا هُوَ بطَبيعَتِهِ يَتجَزَّأُ ويَتَبَعَّضُ، فَمَنْ عَلِمَ مَسأَلَةً وَجَهِلَ أُخْرَى فَهُوَ عَالِمٌ بالأُولَى جَاهِلٌ بالثَّانِيَةِ، وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ يُعَدُّ مِنْ جُملَةِ العُلَمَاءِ بالْمَسأَلَةِ الأُولَى، وَبالتَّالِي يَتوَفَّرُ فِيهِ شَرْطُ وُجُوبِ الدَّعوَةِ إِلى مَا عَلِمَ دُونَ مَا جَهِلَ، وعَلَى هَذَا فَكُلُّ مُسلِمٍ يَدعُو إلى اللَّهِ بِالقَدْرِ الَّذِي يَعْلَمُهُ .

وقَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: "فَإِنْ قِيلَ: فَمَا تَقُولُونَ فِيمَنْ بَذَلَ جُهْدَهُ فِي مَعْرِفَةِ مَسْأَلَةٍ أَوْ مَسأَلَتَينِ هَلْ لَهُ أَنْ يُفْتِيَ بِهَا ؟ قِيلَ: نَعَمْ، يَجُوزُ فِي أَصَحِّ القَولَينِ، وَهُمَا وَجهَانِ لأَصْحَابِ أَحْمَدَ، وَهَلْ هَذَا إِلاَّ مِنَ التَّبلِيغِ عَنِ اللَّهِ وعَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَجَزَى اللَّهُ مَنْ أَعَانَ الإِسْلامَ وَلَو بِشَطْرِ كَلِمَةٍ خَيراً ؛ وَمَنْعُ هَذَا مِنَ الإِفْتَاءِ بِمَا عَلِمَ خَطَأٌ مَحْضٌ " (٣) .

فَمَنْ عَرَفَ شَيئاً مِنْ مَعَانِي الإِسْلامِ فَهُوَ عَالِمٌ بِهَذَا الشَّيْءِ، وَعَلَيهِ تَبلِيغُهُ إلى مَنْ يَجْهَلُهُ، فَلَيسَ العِلْمُ شَيئاً وَاحِداً لا يَتَجَزَّأُ ولا يَتَبَعَّضُ، وإِنَّمَا هُوَ قَابِلٌ لِلتَّجزِئَةِ، وكُلُّ مُسلِمٍ يَعلَمُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَنَّ الحِسَابَ فِي يَومِ الْقِيَامَةِ حَقٌّ،

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٢/ ٤٨٠) .
(٢) «شرح مسلم للنووي» (٢ / ٢١٣) .
(٣) «إعلام الموقعين» (٤/٢١٧) .

وأنَّ القُرآنَ كَلامُ اللهِ حَقٌّ، وأنَّ الصَّلاةَ والصِّيَامَ والحَجَّ والزَّكَاةَ مِنْ فَرَائِضِ الإِسْلامِ فَعَلَيهِ أَنْ يُبَلِّغَ مَا عَلِمَهُ، ويَكُونُ هَذَا الْمَعْنَى هُوَ الْمَقْصُودَ مِنْ قَولِهِم إنَّ الدَّعْوَةَ تَجبُ عَلَى العُلَمَاءِ لا عَلَى غَيرِهِم، أَيْ عَلَى مَنْ يَعْلَمُ الْمَسأَلَةَ الَّتِي يَدعُو إِلَيهَا وحُكْمَهَا، سَوَاءٌ كَانَ مِنْ عَامَّةِ الْمُسلِمِينَ أَوْ مِمَّنْ نَالَ حَظّاً كَبِيراً مِنَ الْعِلْمِ؛ فَكُلُّ مُسلِمٍ هُوَ مِنْ رِجَالِ الدِّينِ وَالإِسْلامِ، فَهُوَ يَدعُو إِلى اللهِ عَجَلَّ باعْتِبَارِهِ مُسْلِماً مُؤْمِناً بالله وَرَسُولِهِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف: ١٠٨] ، وتَقَدَّمَ قَولُ عَبدِ الرَّحمَنِ بْنِ زَيدِ بْنِ أَسلَمَ رَحِمَهُ اللهُ في تَفْسِيرِهَا حَيثُ قَالَ:" **وَحَقٌّ واللهِ عَلَى مَن اتَّبَعَهُ أَنْ يَدْعُوَ إِلى مِثْلِ مَا دَعَا إِلَيهِ، وَيُذَكِّرَ بِالْقُرْآنِ وَالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَيَنْهَى عَنْ مَعَاصِي اللهِ**"(١)، وَلَكِنْ لَوْ تَرَكَ الْمُسلِمُ الدَّعْوَةَ إِلى اللهِ تَرْكاً مُستَمِرّاً مُتَعَمَّداً فَإِنَّهُ لا يَنْضَوِي تَحْتَ مَفْهُومِ قَولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ لأَنَّ أَتْبَاعَ الرَّسُولِ ﷺ هُمُ الَّذِينَ يَدعُونَ إِلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى(٢)، كَمَا قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: "**فَلا يَكُونُ الرَّجُلُ مِنْ أَتْبَاعِهِ حَقّاً حَتَّى يَدْعُوَ إِلى مَا دَعَا إِلَيهِ** " (٣) .

وَيَتَّضِحُ مِنْ هَذَا الْكَلامِ أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلى اللهِ تَنْقَسِمُ إِلى قِسمَينِ :

دَعْوَةِ الْعَوَامِّ: وَهِيَ الدَّعوَةُ إِلى الْقِيَامِ بِالْوَاجِبَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالامْتِنَاعِ عَنِ الْمُحَرَّمَاتِ الْمَشْهُورَةِ بِالتَّرغِيبِ وَالتَّرهِيبِ، فَهَذِهِ يَشتَرِكُ فِيهَا جَمِيعُ الْمُسلِمِينَ، كَمَا قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: "**فَكُلُّ الْمُسلِمِينَ عُلَمَاءُ بِهَا** ". أَيْ مُكَلَّفُونَ بِالدَّعوَةِ إِلَيهَا، كَمَا كَانَ حَالُ أَكْثَرِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم .

وَدَعْوَةِ الْخَوَاصِّ: وَهِيَ الدَّعوَةُ الَّتِي تَخْتَصُّ بِدَقَائِقِ الأَقوَالِ وَالأَفْعَالِ كَالتَّفْسِيرِ وَالفِقْهِ وَالحَدِيثِ وَالرَّدِّ عَلَى الشُّبُهَاتِ الَّتِي يُثِيرُهَا أَعْدَاءُ الإِسْلامِ، فَهَذِهِ لا مَدْخَلَ لِلعَوَامِّ فِيهَا، بَلْ يُرْجَعُ فِي كُلِّ فَنٍّ فِيهَا إِلى أَهْلِهِ .

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) «أصول الدعوة» للدكتور عبد الكريم زيدان ص (٣١٢-٣١٩) .

(٣) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٩٣) .

وَإلى هَذَا أَشَارَ ابْنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِ قَولِهِ تَعَالَى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ [سورة النحل: ١٢٥] ، حَيث قَالَ رَحِمَهُ اللهُ: "**جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ مَرَاتِبَ الدَّعوَةِ بِحَسَبِ مَرَاتِبِ الْخَلْقِ** :

أَوَّلاً: فَالْمُستَجِيبُ الْقَابِلُ الذَّكِيُّ الَّذِي لا يُعَانِدُ الْحَقَّ وَلا يَأْبَاهُ يُدْعَى بِطَرِيقِ الْحِكْمَةِ؛ "فَهَذَا بَاحِثٌ عَنِ الْحَقِّ طَالِبٌ لَهُ، فَلا يَحتَاجُ لأَكْثَرَ مِنْ حِكْمَةٍ يُدَلُّ بِهَا عَلَى الْحَقِّ، كَمَا فِي قِصَّةِ إِسْلامِ أَبِي بَكْرٍ، وإِسْلامِ أَبِي ذَرٍّ، وَإِسْلامِ سَلمَانَ وغَيرِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِمْ أَجْمَعِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَبْحَثُونَ عَنِ الْحَقِّ، فَلا يَحْتَاجُونَ لِمَوعِظَةٍ لِوُجُودِ الرَّغبَةِ عِندَهُم، وَلا لِلْمُجَادَلَةِ لِعَدَمِ الْمُعَانَدَةِ " [(١)] .

ثَانياً: وَالْقَابِلُ الَّذِي عِنْدَهُ نَوعُ غَفْلَةٍ وَتَأَخُّرٍ يُدْعَى بِالْمَوعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَهِيَ الأَمْرُ وَالنَّهْيُ الْمَقرُونُ بِالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ؛ "فَهَذَا مَشغُولٌ بِشَهَوَاتِهِ، مَغْرُورٌ بِدُنْيَاهُ، مَغْبُونٌ فِي نَفْسِهِ ومَالِهِ، ولَكِنَّهُ لَو دُعِيَ إِلى الْحَقِّ لأَجَابَ، وَذَلِكَ لِسَلامَةِ قَلبِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ الْمُضِلَّةِ، فَهَذَا يَحتَاجُ إِلى تَرغِيبٍ فِيمَا عِندَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الثَّوَابِ، وَتَرهِيبٍ مِمَّا عِنْدَهُ مِنَ الْعِقَابِ، وَبَعدَ مَجِيءِ الرَّغبَةِ والرَّهبَةِ عِنْدَهُ يَصِيرُ مِنَ الْقِسْمِ الأَوَّلِ، فَيُؤْمَرُ وَيُنْهَى بِالحِكْمَةِ " .

وهَذَانِ القِسْمَانِ يُمَثِّلانِ عَامَّةَ الْمُسلِمِينَ، فَلا يَحْتَاجُونَ فِي دَعْوَتِهِم وتَذْكِيرِهِم إِلى مُجَادَلَةٍ لِعَدَمِ الْمُعَانَدَةِ مِنْ قِبَلِهِمْ، وَعَامَّةُ الْمُسْلِمِينَ يَستَطِيعُونَ الْقِيَامَ بِهَذَا النَّوعِ مِنَ الدَّعوَةِ؛ وَالْمَصَالِحُ الْمُتَرَتِّبَةُ عَلَى قِيَامِ العَوَامِّ بِهَذِهِ الدَّعوَةِ أَعْظَمُ بِكَثِيرٍ مِنْ مَفَاسِدِهَا كَمَا مَرَّ فِي دَعوَةِ كَثِيرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ لأَقْوَامِهِم، وكَانُوا حَدِيثِي الْعَهْدِ بِالإِسْلامِ، كَأَبِي بَكْرٍ وَأَبِي ذَرٍّ، وَالطُّفَيلِ بْنِ عَمرٍو، وَسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ، وَضِمَامِ بْنِ ثَعْلَبَةَ، وَدَعوَةِ الْجِنِّ لِقَومِهِم لَمَّا سَمِعُوا القُرآنَ، ثُمَّ وَلَّوا إِلى قَومِهِم مُنْذِرِينَ .

(١) الْمُظَلَّلُ هو كلام ابن القيم، وما بين القوسين توضيح لكلامه ، وكذا في القسمين التاليين .

فَلا تُتْرَكُ هَذِهِ الدَّعوةُ لِمَفَاسِدَ مُتَوهَّمَةٍ أَوْ قَلِيلَةٍ لا تَكَادُ تُذْكَرُ أَمَامَ الْمَصَالِحِ الْعَظِيمَةِ، لأَنَّ الشَّرِيعَةَ جَاءَتْ بِالأَمْرِ بِكُلِّ مَا فِيهِ مَصْلَحَةٌ خَالِصَةٌ أَوْ رَاجِحَةٌ، وَالنَّهْيِ عَنْ كُلِّ مَا فِيهِ مَفْسَدَةٌ خَالِصَةٌ أَوْ رَاجِحَةٌ .

وقَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: "**تَرْكُ الْخَيرِ الْكَثِيرِ الْغَالِبِ لأَجْلِ الشَّرِّ الْقَلِيلِ الْمَغْلُوبِ شَرٌّ كَثِيرٌ** " [(١)] .

وقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: "وَهَلْ فِي الْحِكْمَةِ الإِلَهِيَّةِ تَعْطِيلُ الْخَيرِ الْكَثِيرِ لأَجْلِ شَرٍّ جُزْئِيٍّ يَكُونُ مِنْ لَوَازِمِهِ ؟ فَهَذَا الْغَيثُ الَّذِي يُحْيِي اللَّهُ بِهِ الْبِلادَ والْعِبَادَ وَالشَّجَرَ والدَّوَابَّ، كَمْ يَحْبِسُ مِنْ مُسَافِرٍ، وَيَمْنَعُ مِنْ قَصَّارٍ، وَيَهْدِمُ مِنْ بِنَاءٍ وَيَعُوقُ مِنْ مَصْلَحةٍ ؟ وَلَكِنْ أَيْنَ هَذَا مِمَّا يَحْصُلُ بِهِ مِنَ الْمَصَالِحِ ؟ وَهَلْ هَذِهِ الْمَفَاسِدُ فِي جَنْبِ مَصَالِحِهِ إِلاَّ كَتَفْلَةٍ فِي بَحْرٍ؟ وَهَلْ تَعْطِيلُهُ لِئَلاَّ تَحْصُلَ بِهِ هَذِهِ الْمَفَاسِدُ إِلاَّ مُوجِباً لأَعْظَمِ الْمَفَاسِدِ وَالْهَلاكِ ؟ وَهَذِهِ الشَّمْسُ الَّتِي سَخَّرَهَا اللَّهُ لِمَنَافِعِ عِبَادِهِ وَإِنْضَاجِ ثِمَارِهِم وَأَقْوَاتِهِم وَتَربِيَةِ أَبْدَانِهِم وَأَبْدَانِ الْحَيَوَانَاتِ وَالطَّيرِ، وَفِيهَا مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْمَصَالِحِ مَا فِيهَا، كَمْ تُؤْذِي مُسَافِراً وغَيرَهُ بِحَرِّهَا ؟ وَكَمْ تُجَفِّفُ رُطُوبَةً ؟ وَكَمْ تُعَطِّشُ حَيَوَاناً ؟ وَكَمْ تَحْبِسُ عَنْ مَصْلَحَةٍ ؟ وَكَمْ تُنَشِّفُ مِنْ مَوِردٍ وتُحْرِقُ مِنْ زَرعٍ ؟ وَلَكِنْ أَيْنَ يَقَعُ هَذَا فِي جَنْبِ مَا فِيهَا مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْمَصَالِحِ الضَّرُورِيَّةِ وَالْمُكَمِّلَةِ ؟ فَتَعْطِيلُ الْخَيرِ الْكَثِيرِ لأَجْلِ الشَّرِّ اليَسِيرِ شَرٌّ كَبِيرٌ، وَهُوَ خِلافُ مُوجَبِ الحِكْمَةِ الَّتِي تَنَزَّهَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنهُ " [(٢)] .

وقَالَ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ :" **قَدْ تَكُونُ الْمَفْسَدَةُ مِمَّا يُلْغَى مِثْلُهَا فِي جَانِبِ عِظَمِ الْمَصْلَحَةِ، وَهُوَ مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُتَّفَقَ عَلَى تَرجِيحِ الْمَصْلَحَةِ عَلَيهِ** " [(٣)] .

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/٣٦٧) .

(٢) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (١/٢١٣، ٢١٤) .

(٣) «الموافقات» (٣/٩٦) .

ثَالِثاً: وَالْمُعَانِدُ الْجَاحِدُ يُجَادَلُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ [١]؛" فَهَذَا لَيسَ عِندَهُ طَلَبٌ لِلْحَقِّ وَلا هُوَ قَابِلٌ لَهُ، بَلْ يَجْحَدُهُ ويُنْكِرُهُ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي يَحتَاجُ إلى مُجَادَلَةٍ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ الْحَقُّ، فَإِذَا تَبَيَّنَ لَهُ يَصِيرُ مِنْ أَهْلِ القِسْمِ الثَّاني، فَيُدعَى بِالْمَوعِظَةِ الْحَسَنَةِ لِيَقْبَلَهُ، وَذَلِكَ بِبَيَانِ فَضَائِلِ اتِّبَاعِهِ لِلْحَقِّ وقَبُولِهِ لَهُ، فَإِذَا قَبِلَهُ وَانْقَادَ لَهُ فَبِالْحِكْمَةِ يُؤْخَذُ إِلَيهِ وَيُدَلُّ عَلَيهِ، وَهَذَا النَّوعُ مِنَ الدَّعوَةِ هُوَ الَّذِي يَقْصِدُهُ العُلَمَاءُ حِينَمَا يَشْتَرِطُونَ لِلدَّاعِيَةِ أَنْ يَكُونَ عَالِماً بالأَحْكَامِ الشَّرعِيَّةِ وأُصُولِ الْفِقْهِ وقَوَاعِدِهِ وغَيرِهَا مِنَ الْعُلُومِ، لأَنَّهُ يَحتَاجُ لإِقْنَاعِ الْخَصْمِ مِنْ خِلالِ عَرضِ الْحُجَجِ وبَيَانِ الدَّلائِلِ لإِثْبَاتِ الْحَقِّ الَّذِي يَدْعُو إِلَيهِ، كَمَا يَحتَاجُ لإِبْطَالِ دَعوَى الْمُجَادِلِ بدَحْضِ حُجَجِهِ وتَزْيِيْفِ أَقْوَالِهِ، وهَذَا لا يَسْتَطِيعُهُ إلاَّ الْعَالِمُ الْمُخْتَصُّ، وَلا مَدْخَلَ لِلعَوَامِّ فِي هَذَا لِعِظَمِ الْمَفَاسِدِ الْمُتَرَتِّبَةِ عَلَى قِيَامِهِم بِهِ .

وَلَيسَ الجَدَلُ مَقْصُوداً لِذَاتِهِ فِي بَابِ الدَّعوَةِ، بَلْ جَاءَ فِي الحَدِيثِ التَّرغِيبُ فِي تَرْكِهِ وَالتَّرهِيبُ مِنهُ، حَيثُ قَالَ ﷺ: **"أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقّاً ."** [٢]، وَالْمِرَاءُ هُوَ الجِدَالُ، وَقَالَ ﷺ: **"مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلاَّ أُوتُوا الْجَدَلَ "** [٣] .

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ قَالَ: كُنَّا جُلُوساً عِندَ بَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَتَذَاكَرُ يَنْزِعُ هَذَا بِآيَةٍ، وَيَنْزِعُ هَذَا بِآيَةٍ، فَخَرَجَ عَلَينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَأَنَّمَا يُفْقَأُ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ، فَقَالَ: **"يَا هَؤُلاءِ بِهَذَا بُعِثْتُمْ ؟! أَمْ بِهَذَا أُمِرْتُمْ ؟! لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعضٍ "** [٤] .

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١ / ١٩٣) .

(٢) رواه أبو دوواد عن أبي أمامة برقم (٤٨٠٢) وقال النووي في «رياض الصالحين»: حديث صحيح، رواه أبو داوود بإسناد صحيح .

(٣) رواه أحمد في مسنده برقم (٢٢٢١٨) والترمذي برقم (٣٢٥٣) وقال: حديث حسن صحيح .

(٤) رواه أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمر (٦٨٤٥) وابن ماجه بنحوه (٨٥) قال البوصيري في الزوائد: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، وقال الهيثمي في المجمع: رواه الطبراني في الكبير والأوسط والبزار، وعن أنس مثله، رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات أثبات .

وَإِنَّمَا الْمُقْصُودُ مِنَ الْجدَالِ إِزَالَةُ الشُّبُهَاتِ الْعَالِقَةِ فِي أَذْهَانِ الْمُعَانِدِينَ ، كَمَا قَالَ الإِمَامُ الرَّازِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ :" أَمَّا الجَدَلُ فَلَيسَ مِنْ بَابِ الدَّعوَةِ، بَلِ الْمَقْصُودُ مِنْهُ غَرَضٌ آخَرُ مُغَايرٌ لِلدَّعوَةِ، وَهُوَ الإِلْزَامُ وَالإِفْحَامُ، فَلِهَذَا السَّبَبِ لَمْ يَقُلْ أُدْعُ إِلى سَبيلِ رَبِّكَ بالحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَالجَدَلِ الأَحْسَنِ، بَلْ قَطَعَ الجَدَلَ عَنْ بَابِ الدَّعوَةِ تَنْبيهاً عَلَى أَنَّهُ لا يُحَصِّلُ الدَّعوَةَ، وإِنَّمَا الغَرَضُ مِنهُ شَيْءٌ آخَرُ؛ واللَّهُ أَعلَمُ " [١] .

فَالْمَقْصُودُ مِنَ الْجدَالِ فِي بَابِ الدَّعْوَةِ هُوَ نَفْسُ الْمَقْصُودِ مِنَ الْقِتَالِ، حَيثُ إِنَّ الْقِتَالَ لا يُرَادُ لِذَاتِهِ، بَلْ يُرَادُ لإِزَالَةِ الْعَوَائِقِ الْمَادِّيَّةِ مِنْ أَمَامِ طَرِيقِ الدَّعْوَةِ، وَلَوْ أَمْكَنَ إِيْصَالُ الْحَقِّ إِلَى النَّاسِ بِدُونِ الْقِتَالِ لَمَا احْتِيجَ إِلَيهِ؛ وكَذَلِكَ الْجدَالُ لا يُرَادُ لِذَاتِهِ، وإِنَّمَا يُرَادُ مِنهُ إِزَالَةُ الْعَوَائِقِ الْمَعْنَوِيَّةِ الَّتِي تَمْنَعُ وُصُولَ الْحَقِّ إِلَى النَّاسِ، وهِيَ الشُّبُهَاتُ الْعَالِقَةُ فِي أَذْهَانِ النَّاسِ مِمَّا يُخَالِفُ الْحَقَّ ويَمْنَعُ مِنْ قَبُولِهِ ، ولَوْ أَمْكَنَ إِيْصَالُ الْحَقِّ إِلَى النَّاسِ بِدُونِهِ لَمَا احْتِيجَ إِلَيهِ .

وكَذَا بَيَّنَ الإِمَامُ ابْنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَقْسَامَ النَّاسِ فِي الدَّعوَةِ حَيثُ قَالَ:" النَّاسُ ثَلاثَةُ أَقْسَامٍ: إِمَّا أَنْ يَعتَرِفَ بِالْحَقِّ وَيَتَّبِعَهُ، فَهَذَا صَاحِبُ الحِكْمَةِ؛ وَإِمَّا أَنْ يَعتَرِفَ بِهِ وَلَكِنْ لا يَعْمَلُ بِهِ، فَهَذَا يُوعَظُ حَتَّى يَعْمَلَ؛ وَإِمَّا أَلاَّ يَعتَرِفَ بِهِ، فَهَذَا يُجَادَلُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، لأَنَّ الجِدَالَ فِيهِ مَظِنَّةُ الإِغْضَابِ، فَإِذَا كَانَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، حَصَلَتْ مَنْفَعَتُهُ بِغَايَةِ الإِمْكَانِ كَدَفْعِ الصَّائِلِ " [٢] .

*****

---

(١) «التفسير الكبير للرازي» (١٩ / ١١٤) .

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٤٥) .


باب
فضل التعليم
والتعلم في الخروج
في سبيل الله

الْحَدِيْثُ الثَّانِيْ وَالْعِشْرُونَ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَنْ جَاءَ مَسْجِدِي هَذَا لَمْ يَأْتِهِ إِلاَّ لِخَيْرٍ يَتَعَلَّمُهُ أَوْ يُعَلِّمُهُ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَنْ جَاءَ لِغَيْرِ ذَلِكَ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الرَّجُلِ يَنظُرُ إِلى مَتاعِ غَيْرِهِ "(١) .

قوله (مَنْ جَاءَ مَسْجِدِي هَذَا) هَذَا التَّقييدُ لَيسَ احْتِرَازِيّاً بَلْ هُوَ اتِّفَاقِيٌّ، لأَنَّ مَسْجِدَهُ ﷺ كَانَ مَحَلاًّ لِلكَلامِ حِينَئِذٍ، وحُكمُ سَائِرِ الْمَسَاجدِ كَحُكْمِهِ (٢) .

قوله (لَمْ يَأْتِهِ إِلاَّ لِخَيْرٍ يَتَعَلَّمُهُ أَوْ يُعَلِّمُهُ) أَيْ لَيسَ لَهُ مَقْصَدٌ مِنْ مَجيئِهِ إلى الْمَسجدِ إِلاَّ أَنْ يَتَعَلَّمَ العِلْمَ الشَّرعِيَّ أَوْ يَعَلِّمَهُ .

قوله (فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) وَجهُ مُشَابَهَةِ مَنْ خَرَجَ لِتَعَلُّمِ الدِّينِ وتَعليمِهِ وتَبليغِهِ بالْمُجَاهِدِ في سَبيلِ اللَّهِ ﷻ، أَنَّ في تَعَلُّمِهِ وتَعليمِهِ وتَبليغِهِ إحْيَاءً لِلدِّين وإعْلاءً لِكَلِمَةِ اللَّهِ وإتعَاباً لِلنَّفسِ وإذْلالاً لِلشَّيطَانِ، ولأَنَّ كُلاًّ مِنَ التَّعليمِ وَالتَّعَلُّمِ وَالتَّبْلِيغِ وَالجِهَادِ في سَبيلِ اللَّهِ عِبادَةٌ نَفْعُهَا مُتَعَدٍّ إلى الآخَرينَ .

قوله (وَمَنْ جَاءَ لِغَيْرِ ذَلِكَ) أَيْ مَنْ جَاءَ لِغَيرِ مَا ذُكِرَ مِنَ التَّعليمِ وَالتَّعَلُّمِ، ولِغَيرِ مَا بُنِيَتِ الْمَسَاجدُ لأَجْلِهِ مِنَ الصَّلاةِ وَالاِعْتِكَافِ وَالذِّكْرِ وَالتِّلاوَةِ .

قوله (فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الرَّجُلِ يَنظُرُ إِلَى مَتَاعِ غَيْرِهِ) أَيْ بِمَنْزِلَةِ مَنْ دَخَلَ السُّوقَ، لا يَبيعُ ولا يَشْتَرِي، بَل لِيَنظُرَ إلى أَمْتِعَةِ النَّاسِ، فَيَنْقَلِبُ بِلا فَائِدَةٍ ولا رِبْحٍ .

---

(١) رواه أحمد في مسنده برقم (٩٤١٩) وابن أبي شيبة في مصنفه برقم (٧٥١٧) وابن ماجه من طريقه واللفظ له برقم (٢٢٧) وقال في الزوائد: إسناده صحيح على شرط مسلم، ورواه الحاكم في المستدرك برقم (٣٠٩) وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي .

(٢) «حاشية السندي على سنن ابن ماجه» بتصرف (١/٢١١) .

مَعْنَى الْحَدِيْثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ

يُبَيِّنُ النَّبيُّ ﷺ أَنَّ مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ إلى الْمَسجدِ لا يُريدُ إلاَّ أَنْ يَتَعَلَّمَ عِلْماً يَزْدَادُ بِهِ مِنَ اللهِ قُرباً، وَيرتَفِعُ بِهِ في دَرَجَاتِ الآخِرَةِ، أَوْ يُعَلِّمَ غَيْرَهُ مَا يَحتَاجُهُ لِذَلِكَ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْمُجَاهِدِ في سَبيلِ اللهِ، حَيثُ إنَّ كُلاًّ مِنهُمَا يَجتَهِدُ لإعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ وإحيَاءِ دِينِهِ، ويُتْعِبُ في ذَلِكَ نَفْسَهُ بخُرُوجهِ مِنْ بَيْتِهِ مَكَانِ رَاحَتِهِ ومَقْضَى شَهَوَاتِهِ، فَيُفَارِقُ مَحبُوبَاتِهِ ومَأْلُوفَاتِهِ لِيَنْتَفِعَ بتَعَلُّمِ الدِّينِ ويَنْفَعَ بتَعْلِيمِهِ، وهَذَا مِنْ أَعْظَمِ أَنْوَاعِ الجِهَادِ في سَبيلِ اللهِ، كَمَا قَالَ أَبُو الدَّرداءِ رضي الله عنه: **"مَا مِنْ أَحَدٍ يَغْدُوْ إلَى الْمَسْجِدِ لِخَيْرٍ يَتَعَلَّمُهُ أَوْ يُعَلِّمُهُ إلاَّ كَتَبَ اللهُ لَهُ أَجْرَ مُجَاهِدٍ لا يَنقَلِبُ إلاَّ غَانماً."** [(١)]، وقَالَ رضي الله عنه: **"مَنْ رَأَى الْغُدُوَّ وَالرَّوَاحَ إلى الْعِلْمِ لَيْسَ بجِهَادٍ فَقَدْ نَقَصَ عَقْلُهُ وَرَأْيُهُ."**[(٢)]، وقَالَ أَبُو أُمَامَةَ رضي الله عنه: **"الْغُدُوُّ وَالرَّوَاحُ إلى هَذِهِ الْمَسَاجدِ مِنَ الْجهَادِ فِي سَبيلِ اللهِ."**[(٣)] [(٤)]، وقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: **"لأَنْ أَعْلَمَ بَاباً مِنَ الْعِلْمِ فِي أَمْرٍ وَنَهْيٍ أَحَبُّ إلَيَّ مِنْ سَبْعِينَ غَزْوَةً في سَبيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ."**[(٥)]، وقَالَ الحَسَنُ البصْريُّ رحمه الله: **"لأَنْ أَتَعَلَّمَ بَاباً مِنَ الْعِلْمِ فَأُعَلِّمَهُ مُسْلِماً أَحَبُّ إلَيَّ مِنْ أَنْ تَكُونَ لِيَ الدُّنْيَا كُلُّهَا، أَجْعَلُهَا فِي سَبيلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى"** [(٦)] .

أَمَّا مَنْ جَاءَ إلى الْمَسجدِ لِغَيرِ هَذَا الْمَقصَدِ فَهُوَ مَحرُومٌ مِمَّا يَنْتَفِعُ بِهِ النَّاسُ مِنَ الْعِلْمِ والْعَمَلِ والثَّنَاءِ الجَمِيلِ في الدُّنيَا، ومِنَ الدَّرَجَاتِ والثَّوَابِ الجَزيلِ في العُقْبَى، كَالَّذِي يَدْخُلُ

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/١٦٣) .

(٢) المصدر السابق .

(٣) رواه أحمد في مسنده بسند صحيح (٢٢٣٥٨) .

(٤) قال في «تيسير العَلاَّم»: " وينبغي أَنْ يُعلَمَ أَنَّ طَلَبَ العِلْمِ الشَّرْعِيِّ نوعٌ عَظِيمٌ مِنَ الجهَاد في سَبيلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأَنَّ الانتصارَ للحَقِّ ودَحْضِ حُجَجِ الزنادقة والملحدين والغَربيِّينَ المبشرين الذين يُحَاربُونَ الإسْلامَ ويُريدُونَ القَضَاءَ عَلَيهِ هُوَ مِنْ أَعْظَمِ الجِهَادِ في سَبيلِ اللهِ، فَالْقَصْدُ مِنَ الجِهَادِ إظْهَارُ الإسْلام ونَصْرُهُ، فَكَتْبُ هَؤُلاءِ مِنَ الجِهَادِ الكَبيرِ العَظِيمِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ أي القرآن ." (٢/٢١٣) .

(٥) أخرجه الخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» برقم (٥١) .

(٦) المصدر السابق برقم (٥٢) .

السُّوقَ يَجدُ النَّاسَ يَبْتَاعُونَ وَيَشْتَرُونَ ويَربَحُونَ، وهُوَ يَنْظُرُ إِلَيهم لا يُشَارِكُهُم ولا يَنْتَفِعُ مَعَهُم، فَلا يَنْقَلِبُ إلاَّ بِالخَيبَةِ وَالحَسْرَةِ والخُسْرَانِ .

وفي الحَدِيثِ أَنَّ الْمَسجدَ سُوقٌ لِتعلُّم مَحْبُوبَاتِ اللَّهِ ﷻ وتَعلِيمِهَا والعَمَل بهَا، وَالتَّاجرُ الكَيِّسُ لا يَدخُلُ السُّوقَ ويَخرُجُ مِنهُ دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُ نَصِيبٌ مِنَ الرِّبْحِ، وهَكَذَا الْمُسلِمُ الكَيِّسُ الَّذِي يَعْلَمُ فَضِيلَةَ تَعَلُّمِ الدِّين وتَعْلِيمِهِ، كَمَا قَالَ ﷺ : **"مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفقِّهْهُ فِي الدِّين"** [(١)]، وقَالَ ﷺ: **"الدُّنيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إلاَّ ذِكْرَ اللَّهِ وَمَا وَالاهُ أَوْ عَالِمًا أَوْ مُتعَلِّمًا "**[(٢)]، وقَالَ ﷺ: **"خَيْرُكُم مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ "** [(٣)]، وغَيرِهَا مِنَ الْفَضَائِلِ؛ فَلا يَنبَغِي لَهُ أَنْ يَدْخُلَ الْمَسجدَ ويَنقَلِبَ مِنهُ دُونَ أَنْ يَتَعَلَّمَ خَيراً أَوْ يُعَلِّمَهُ، وهَذَا الْفَضْلُ الْعَظِيمُ يَتَحَصَّلُ عَلَيهِ الْمُسلِمُ بِمُجَرَّدِ أَنْ يَنْوِيَ هَذِهِ النِّيَّةَ، سَوَاءٌ تَعَلَّمَ وعَلَّمَ أَوْ لا، وَهَذَا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﷻ؛ فَيَنبَغِي لِلْمُسلِمِ أَنْ يُصَحِّحَ نِيَّتَهُ قَبْلَ كُلِّ عَمَلٍ كَيْ يَتَحَصَّلَ عَلَى عَظِيمِ فَضْلِ اللَّهِ جَلَّ جَلالُهُ، كَمَا قَالَ ﷺ: **"وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى"** [(٤)]، وقَالُوا: **"النِّيَّةُ تِجَارَةُ الْعُلَمَاءِ "** .

فَائِــــــــدَة

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ:" قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ **[العنكبوت:٦٩]**، عَلَّقَ سُبْحَانَهُ الْهِدَايَةَ بِالجِهَادِ، فَأَكْمَلُ النَّاسِ هِدَايَةً أَعْظَمُهُمْ جِهَاداً، وأَفْرَضُ الجِهَادِ جِهَادُ النَّفْسِ وجِهَادُ الْهَوَى وجِهَادُ الشَّيطَانِ وجِهَادُ الدُّنيَا، فَمَنْ جَاهَدَ هَذِهِ الأَرْبَعَةَ فِي اللَّهِ هَدَاهُ اللَّهُ سُبُلَ رِضَاهُ الْمُوصِلَةَ إِلى جَنَّتِهِ، ومَنْ تَرَكَ الجِهَادَ فَاتَهُ الْهُدَى بِحَسَبِ مَا

(١) رواه البخاري عن معاوية برقم (٧١) ورواه مسلم برقم (١٠٣٧) .

(٢) رواه ابن ماجه في سننه عن أبي هريرة (٤١١٢) واللفظ له، والترمذي بنحوه (٢٣٢٢) وقال: حديث حسن .

(٣) رواه البخاري عن عثمان بن عفان برقم (٤٧٣٩) .

(٤) رواه البخاري عن عمر بن الخطاب برقم(١، ٥٤، ٢٣٢٩، ٣٦٥٨، ٤٧٨٣، ٦٣١١، ٦٥٥٣) ورواه مسلم برقم (١٩٠٧) .

عَطَّلَ مِنَ الجِهَادِ، قَالَ الْجُنَيدُ رَحِمَهُ اللهُ: "**والَّذِينَ جَاهَدُوا أَهْوَائَهُمْ فِيْنَا بالتَّوْبَةِ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَ الإِخْلاصِ.**" ولا يَتَمَكَّنُ مِنْ جِهَادِ عَدُوِّهِ فِي الظَّاهِرِ إلاَّ مَنْ جَاهَدَ هَذِهِ الأَعدَاءَ بَاطِناً، فَمَنْ نُصِرَ عَلَيهَا نُصِرَ عَلَى عَدُوِّهِ، ومَنْ نُصِرَتْ عَلَيهِ نُصِرَ عَلَيهِ عَدُوُّهُ "[١].

وقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: "**لَيْسَ الْجِهَادُ فِي هَذِهِ الآيَةِ قِتَالَ الْعَدُوِّ، بَلْ هُوَ نَصْرُ الدِّينِ، وَالرَّدُّ عَلَى الْمُبْطِلِينَ، وَقَمْعُ الظَّالِمِينَ، وَأَعْظَمُهُ الأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنكَرِ، وَمِنْهُ مُجَاهَدَةُ النُّفُوسِ فِي طَاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ الْجِهَادُ الأَكْبَرُ؛ قَالَهُ الحَسَنُ وغَيرُهُ** "[٢]، وقَالَ الضَّحَّاكُ رَحِمَهُ اللهُ: "**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِي الْهِجْرَةِ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سَبِيلَ الثَّبَاتِ عَلَى الإِيْمَانِ**"[٣]، وقَالَ سَهلُ بنُ عَبدِ اللهِ رَحِمَهُ اللهُ: "**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِي إِقَامَةِ السُّنَّةِ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَ الْجَنَّةِ** "، وقَالَ: "**مَثَلُ السُّنَّةِ فِي الدُّنيَا كَمَثَلِ الْجَنَّةِ فِي الْعُقْبَى، مَنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ فِي الْعُقْبَى سَلِمَ، فَكَذَلِكَ مَنْ لَزِمَ السُّنَّةَ فِي الدُّنيَا سَلِمَ** "[٤]، وقَالَ الرَّبِيعُ ابْنُ أَنسٍ رَحِمَهُ اللهُ:" **لَيسَ عَلَى الأَرْضِ عَبْدٌ أَطَاعَ رَبَّهُ وَدَعَا إِلَيْهِ وَنَهَى عَنهُ إلاَّ وَإِنَّهُ قَدْ جَاهَدَ فِي اللهِ** "[٥]، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أَيْ بِالنُّصرَةِ والْمَعُونَةِ والحِفْظِ والْهِدَايَةِ[٦].

وقَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ :" إِنَّ جِهَادَ الْهَوَى إِنْ لَمْ يَكُنْ أَعظَمَ مِنْ جِهَادِ الكُفَّارِ فَلَيْسَ بِدُونِهِ؛ قَالَ رَجُلٌ لِلحَسَنِ البِصْرِيِّ رَحِمَهُ اللهُ: يَا أَبَا سَعِيدٍ! أَيُّ الجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:" **جِهَادُ هَوَاكَ**". وسَمِعْتُ شَيْخَنَا رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ:" **جِهَادُ النَّفْسِ والْهَوَى أَصْلُ جِهَادِ الكُفَّارِ**

(١) «الفوائد» ص (٨٢-٨٣) .
(٢) «تفسير القرطبي» (١٣/٢٩٤) .
(٣) المصدر السابق .
(٤) «تفسير البغوي» (٦/٢٥٦) و«تفسير الثعلبي» (٧/٢٩٠) .
(٥) «تفسير ابن أبي حاتم» (١١/٤٧٣) برقم (١٨٢٩٩) .
(٦) «تفسير القرطبي» (١٣/٢٩٤) .

وَالْمُنَافِقِينَ، فَإِنَّهُ لا يَقْدِرُ عَلَى جِهَادِهِمْ حَتَّى يُجَاهِدَ نَفْسَهُ وهَوَاهُ أَوَّلاً، حَتَّى يَخْرُجَ الْهَوَى "[١] .

وقَالَ الإمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ :

إنِّـــي بُلِيْـــتُ بِأَرْبَـــعٍ يَرْمِـــيْنَـــنِي ... بالـــنَّبْلِ عَنْ قَـــوْسٍ لَهُـــنَّ صَرِيْـــــرُ

إبْلِيْـــسُ وَالدُّنْيَـــا وَنَفْسٌ وَالْهَـــوَى ... أَنَّى يَفِـــرُّ مِنَ الْـــهَوَى نحْرِيْـــــرُ [٢]

وقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ:" ولَمَّا كَانَ جِهَادُ أَعدَاءِ اللهِ فَرْعاً عَلَى جِهَادِ الْعَبدِ نَفْسَهُ فِي ذَاتِ اللهِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "**الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنهُ.**"[٣]، كَانَ جِهَادُ النَّفْسِ مُقَدَّماً عَلَى جِهَادِ الْعَدُوِّ فِي الْخَارِجِ وَأَصْلاً لَهُ، فَإِنَّهُ مَا لَمْ يُجَاهِدْ نَفْسَهُ أَوَّلاً لِتَفْعَلَ مَا أُمِرَتْ بِهِ وَتَتْرُكَ مَا نُهِيَتْ عَنهُ وَيُحَارِبَهَا فِي اللهِ لَمْ يُمْكِنْهُ جِهَادُ عَدُوِّهِ فِي الْخَارِجِ، فَكَيْفَ يُمْكِنُهُ جِهَادُ عَدُوِّهِ وَالإنْتِصَافُ مِنْهُ، وَعَدُوُّهُ الَّذِي بَيْنَ جَنبَيْهِ قَاهِرٌ لَهُ مُتَسَلِّطٌ عَلَيْهِ، لَمْ يُجَاهِدْهُ، وَلَمْ يُحَارِبْهُ فِي اللهِ، بَلْ لا يُمْكِنُهُ الْخُرُوجُ إلى عَدُوِّهِ حَتَّى يُجَاهِدَ نَفْسَهُ عَلَى الْخُرُوجِ "[٤] .

وقَالَ رَحِمَهُ اللهُ أَيْضاً: **جِهَادُ النَّفْسِ أَرْبَعُ مَرَاتِبَ أَيْضاً :**

إحْدَاهَا: أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى تَعَلُّمِ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ الَّذِي لا فَلاحَ لَهَا وَلا سَعَادَةَ فِي مَعَاشِهَا وَمَعَادِهَا إلاَّ بِهِ، وَمَتَى فَاتَهَا عِلْمُهُ شَقِيَتْ فِي الدَّارَيْنِ .

---

(١) «روضة المحبين» ص (٤٧٨) .

(٢) «ديوان الشافعي» ص (٦٤) .

(٣) رواه أحمد في مسنده (٢٤٠٠٤) عن فَضَالَةَ بْنَ عُبَيْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: "**أَلا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ؟ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ**". رواه الحاكم في المستدرك برقم (٢٤) وصححه على شرط مسلم وسكت عنه الذهبي، وقال الهيثمي في المجمع: رواه البزار والطبراني في الكبير باختصار ورجال البزار ثقات .

(٤) «زاد المعاد» (٣/٣- ٤) .

الثَّانِيَةُ: أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى الْعَمَلِ بِهِ بَعْدَ عِلْمِهِ، وَإِلاَّ فَمُجَرَّدُ الْعِلْمِ بلا عَمَلٍ إِنْ لَمْ يَضُرَّهَا لَمْ يَنْفَعْهَا [١] .

الثَّالِثَةُ: أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ وَتَعْلِيمِهِ مَنْ لا يَعْلَمُهُ، وَإِلاَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْهُدَى وَالْبَيِّنَاتِ، وَلا يَنْفَعُهُ عِلْمُهُ وَلا يُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ .

الرَّابِعَةُ: أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى الصَّبْرِ عَلَى مَشَاقِّ الدَّعْوَةِ إلى اللَّهِ وَأَذَى الْخَلْقِ، وَيَتَحَمَّلَ ذَلِكَ كُلَّهُ للهِ؛ فَإِذَا اسْتَكْمَلَ هَذِهِ الْمَرَاتِبَ الأَرْبَعَ صَارَ مِنَ الرَّبَّانِيِّينَ، فَإِنَّ السَّلَفَ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّ الْعَالِمَ لا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُسَمَّى رَبَّانِيًّا حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ وَيَعْمَلَ بِهِ وَيُعَلِّمَهُ؛ **فَمَنْ عَلِمَ وَعَمِلَ وَعَلَّمَ فَذَاكَ يُدْعَى عَظِيمًا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ** " [٢][٣] .

وقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ :" ثُمَّ لِيَتَأَمَّلِ الْعَبْدُ ضَرُورَتَهُ وفَاقَتَهُ إلى قَولِهِ ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ الَّذِي مَضمُونُهُ مَعْرِفَةُ الْحَقِّ وقَصْدُهُ وإِرَادَتُهُ والْعَمَلُ بِهِ والثَّبَاتُ عَلَيهِ والدَّعوَةُ إِلَيهِ والصَّبْرُ عَلَى أَذَى الْمَدعُوِّ، فَباسْتِكمَالِ هَذِهِ الْمَرَاتِبِ الْخَمْسِ تُسْتَكْمَلُ الْهِدَايَةُ، ومَا نَقَصَ مِنهَا نَقَصَ مِنْ هِدَايَتِهِ [٤] .

فَلَمَّا كَانَتْ حَاجَةُ الْعَبدِ إلى سُؤَالِ الْهِدَايَةِ أَعْظَمَ الْحَاجَاتِ، وفَاقَتُهُ إِلَيهَا أَشَدَّ الْفَاقَاتِ، فَرَضَ عَلَيهِ الرَّبُّ الرَّحِيمُ هَذَا السُّؤَالَ كُلَّ يومٍ ولَيْلَةٍ فِي أَفْضَلِ أَحْوَالِهِ، وهِيَ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ مَرَّاتٍ مُتَعَدِّدَةً، لِشِدَّةِ ضَرُورَتِهِ وفَاقَتِهِ إلى هَذَا الْمَطلُوبِ [٥] .

---

(١) روى أحمد بن حنبل في كتاب «الزهد» برقم (٣٢٧) عن زياد أبي عمر يقول: بَلَغَنِي أَنَّ عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ عليه السلام قال: "**إِنَّهُ لَيْسَ بِنَافِعِكَ أَنْ تَعْلَمَ مَا لَمْ تَعْلَمْ وَلَمَّا تَعْمَلْ بِمَا قَدْ عَلِمْتَ، إِنَّ كَثْرَةَ الْعِلْمِ لا تَزِيدُ إِلاَّ كِبْراً إِذَا لَمْ تَعْمَلْ بِهِ**" .

(٢) رواه الترمذي عن الفضيل بن عياض قال:" **عَالِمٌ عَامِلٌ مُعَلِّمٌ يُدْعَى كَبِيراً فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ**." وسنده إلى الفضيل صحيح، ورواه أحمد في كتاب «الزهد» (٣٣٠) عن عبد العزيز بن ظبيان، ورواه أبو نعيم في «الحلية» (٩٣/٦) عن ثور بن يزيد، كلاهما من قول المسيح ابن مريم عليه السلام .

(٣) «زاد المعاد» (٦ /٣) .

(٤) «أسرار الصلاة» لابن القيم ص (٣٥) .

(٥) «أسرار الصلاة» ص (٣٧) .

وَالْعَبْدُ مُفْتَقِرٌ إلى الْهِدَايَةِ في كُلِّ لَحْظَةٍ ونَفَسٍ في جَمِيعِ مَا يَأْتِيهِ ويَذَرُهُ، فَإِنَّهُ بَينَ أُمُورٍ لا يَنفَكُّ عَنهَا :

إحْدَاهَا: أُمُورٌ قَدْ أَتَاهَا عَلَى غَيرِ وَجْهِ الْهِدَايَةِ جَهْلاً، فَهُوَ مُحتَاجٌ إلى أَنْ يَطْلُبَ الْهِدَايَةَ إلى الْحَقِّ فِيهَا .

ثَانيهَا: أَوْ يَكُونُ عَارِفاً بِالْهِدَايَةِ فِيهَا فَأَتَاهَا عَلَى غَيرِ وَجْهِهَا عَمْداً، فَهُوَ مُحتَاجٌ إلى التَّوبَةِ مِنهَا .

ثَالِثُهَا: أَوْ أُمُورٌ لَمْ يَعْرِفْ وَجْهَ الْهِدَايَةِ فِيهَا عِلْماً ولا عَمَلاً، فَفَاتَتْهُ الْهِدَايَةُ إلى عِلْمِهَا ومَعْرِفَتِهَا وإلى قَصْدِهَا وإرَادَتِهَا وعَمَلِهَا .

رَابِعُهَا: أَوْ أُمُورٌ قَدْ هُدِيَ إِلَيْهَا مِنْ وَجْهٍ دُونَ وَجْهٍ، فَهُوَ مُحتَاجٌ إلى تَمَامِ الْهِدَايَةِ فِيهَا.

خَامِسُهَا: أَوْ أُمُورٌ قَدْ هُدِيَ إلى أَصْلِهَا دُونَ تَفَاصِيلِهَا، فَهُوَ مُحْتَاجٌ إلى هِدَايَةِ التَّفْصِيل.

سَادِسُهَا: أَوْ طَرِيقٌ هُدِيَ إِلَيهَا وَهُوَ مُحتَاجٌ إلى هِدَايَةٍ أُخْرَى فِيهَا، فَالْهِدَايَةُ إلى الطَّرِيقِ شَيْءٌ، وَالْهِدَايَةُ في نَفْسِ الطَّرِيقِ شَيْءٌ آخَرُ، أَلا تَرَى الرَّجُلَ يَعْرِفُ أَنَّ طَرِيقَ الْبَلَدِ الْفُلانيِّ هُوَ طَرِيقُ كَذَا وكَذَا، ولَكِنْ لا يُحْسِنُ أَنْ يَسْلُكَهُ، فَإِنَّ سُلُوكَهُ يَحتَاجُ إلى هِدَايَةٍ خَاصَّةٍ في نَفْسِ السُّلُوكِ، كَالسَّيْرِ في وَقْتِ كَذَا دُونَ وَقْتِ كَذَا، وأَخْذِ الْمَاءِ في مَفَازَةِ كَذَا مِقْدَارَ كَذَا، والنُّزُولِ في مَوضِعِ كَذَا دُونَ كَذَا، فَهَذِهِ هِدَايَةٌ في نَفْسِ السَّيْرِ قَدْ يُهْمِلُهَا مَنْ هُوَ عَارِفٌ بِأَنَّ الطَّرِيقَ هِيَ هَذِهِ، فَيَهْلِكُ ويَنقَطِعُ عَنِ الْمَقصُودِ .

سَابِعُهَا: وكَذَلِكَ أَيْضاً ثَمَّ أُمُورٌ هُوَ مُحتَاجٌ إلى أَنْ يَحْصُلَ لَهُ فِيهَا مِنَ الْهِدَايَةِ في الْمُستَقْبَلِ مِثْلُ مَا حَصَلَ لَهُ في الْمَاضِي .

ثَامِنُهَا: وأُمُورٌ هُوَ خَالٍ عَنِ اعْتِقَادِ حَقٍّ أَوْ بَاطِلٍ فِيهَا، فَهُوَ مُحتَاجٌ إلى هِدَايَةِ الصَّوَابِ فِيهَا .

تَاسِعُهَا: وأُمُورٌ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ فِيهَا عَلَى هُدَىً وَهُوَ عَلَى ضَلالَةٍ ولا يَشْعُرُ، فَهُوَ مُحتَاجٌ إلى انْتِقَالِهِ عَنْ ذَلِكَ بِهِدَايَةٍ مِنَ اللهِ .

عَاشِرُهَا: وأُمُورٌ قَدْ فَعَلَهَا عَلَى وَجْهِ الْهِدَايَةِ، وَهُوَ مُحتَاجٌ إلى أَنْ يَهْدِيَ غَيْرَهُ إِلَيْهَا ويُرْشِدَهُ ويَنْصَحَهُ، فَإِهْمَالُهُ ذَلِكَ يُفَوِّتُ عَلَيهِ مِنَ الْهِدَايَةِ بِحَسَبِهِ، كَمَا أَنَّ هِدَايَتَهُ لِلْغَيْرِ وتعْلِيمَهُ ونُصْحَهُ يَفْتَحُ لَهُ بَابَ الْهِدَايَةِ، فَإِنَّ الجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، فَكُلَّمَا هَدَى غَيْرَهُ وعَلَّمَهُ، هَدَاهُ اللهُ وعَلَّمَهُ، فَيَصِيرُ هَادِياً مَهْدِيّاً، كَمَا في دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ وغَيْرُهُ: **"اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الإِيْمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِيْنَ، غَيْرَ ضَالِّينَ وَلا مُضِلِّينَ، سِلْماً لأَوْلِيَائِكَ، حَرْباً لأَعْدَائِكَ، نُحِبُّ بِمَحَبَّتِكَ مَنْ أَحَبَّكَ، وَنُعَادِيْ بِعَدَاوَتِكَ مَنْ خَالَفَكَ"**(١)(٢) .

فَلا بُدَّ لِلإِنْسَانِ حَتَّى يَتَحَصَّلَ عَلَى الْهِدَايَةِ مِنْ سَبَبَيْنِ مُجْتَمِعَيْنِ :

الأَوَّلُ: هُوَ الدُّعَاءُ بِالْهِدَايَةِ، كَمَا قَالَ ﷻ في الحَدِيثِ القُدُسِيِّ: **"يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ "** (٣)، فَافْتَرَضَ عَلَينَا أَنْ نَطلُبَ الْهِدَايَةَ فِي كُلِّ رَكعَةٍ مِنْ رَكَعَاتِ الصَّلاةِ، حَيثُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **"لا صَلاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ"**(٤)، وسُورَةُ الفَاتِحَةِ هِيَ ثَنَاءٌ عَلَى اللهِ ﷻ وطَلَبٌ لِلهِدَايَةِ .

الثَّانِي: هُوَ الْمُجَاهَدَةُ، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ **[العنكبوت: ٦٩]**، فَقَدْ عَلَّقَ اللهُ ﷻ تَحصِيلَ الْهِدَايَةِ عَلَى الْمُجَاهَدَةِ، وقَدْ جَعَلَ الدُّنيا دَارَ الأَسْبَابِ، فَكَمَا أَنَّهُ لا يَتَحَصَّلُ الإِنْسَانُ فِي هَذِهِ الدُّنيَا عَلَى أَيِّ ثَمَرَةٍ إِلاَّ إِذَا اتَّخَذَ الأَسبَابَ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ ﷻ سَبِيلاً لَهَا، كَذَلِكَ الْهِدَايَةُ هِيَ ثَمَرَةٌ مُعَلَّقٌ تَحْصِيلُهَا عَلَى مُجَاهَدَةِ النَّفْسِ عَلَى امْتِثَالِ أَوَامِرِ اللهِ ﷻ الْمُتَوَجِّهَةِ إِلَيهَا فِي كُلِّ حَالٍ، وعَلَى إِقَامَةِ

---

(١) رواه الترمذي عن ابن عباس برقم (٣٤١٩) وقال: حديث غريب .

(٢) من «رسالة ابن القيم لأحد إخوانه» ص (٨–١٠) .

(٣) رواه مسلم عن أبي ذر برقم (٢٥٧٧) .

(٤) رواه البخاري عن عبادة بن الصامت برقم (٧٢٣) ورواه مسلم عنه برقم (٣٩٤) .

النَّاسِ عَلَيهَا، وَلَكِنَّ النَّاسَ إذَا أَرَادُوا الْمَالَ اجْتَهَدُوا فِي تَحصِيلِهِ مِنْ أَسبَابِهِ، كَالتِّجَارةِ والزِّرَاعةِ والصِّنَاعَةِ وغَيرِهَا مِنَ الأَسبَابِ، وإِذَا أَرَادَ أَحَدُهُم أَنْ يَتَحَصَّلَ عَلَى مَرْتَبَةٍ عِلْمِيَّةٍ فَإِنَّهُ يَبْذُلُ قُصَارَى جُهْدِهِ فِي تَحصِيلِهَا ولا يَكتَفِي بِقَولِهِ: اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا أَوِ اللَّهُمَّ وَفِّقْنَا؛ مَعَ أَنَّ الأَرزَاقَ فِي الدُّنيَا مُقَسَّمَةٌ لا حِيلَةَ فِيهَا ولا كِيَاسَةَ، أَمَّا الْهِدَايَةُ الَّتِي عَلَّقَ اللَّهُ ﷻ تَحصِيلَهَا عَلَى الْمُجَاهَدَةِ، فَإِنَّ النَّاسَ قَدِ اكْتَفَوْا فِي تَحصِيلِهَا بِقَولِهِم: اللَّهُمَّ اهْدِنَا؛ وذَلِكَ لِعَدَمِ شُعُورِهِم بِالاحْتِيَاجِ إِلَيهَا، فَلِذَلِكَ لا بُدَّ مِنْ تَوَفُّرِ بِيئَةٍ يَشْعُرُ فِيهَا الْمُسلِمُ بِحَاجَتِهِ الْمُستَمِرَّةِ لِلهِدَايَةِ، وَيَتَعَاهَدُ إِيْمَانَهُ فِيهَا، وَيَسعَى لِتَجدِيدِهِ وزِيَادَتِهِ، كَمَا قَالَ ﷺ: **"إنَّ الإِيْمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوبُ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ أَنْ يُجَدِّدَ الإِيْمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ."**[(١)]، وقَالَ ﷺ: **"جَدِّدُوا إِيْمَانَكُمْ "** [(٢)]، وقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ ﷺ: **"إنَّ مِنْ فِقْهِ الْعَبْدِ أَنْ يَتَعَاهَدَ إِيْمَانَهُ وَمَا نَقَصَ مِنهُ، وَمِنْ فِقْهِ الْعَبْدِ أَنْ يَعْلَمَ أَيَزْدَادُ الإِيْمَانُ أَمْ يَنقُصُ؟ وَإِنَّ مِنْ فِقْهِ الرَّجُلِ أَنْ يَعْلَمَ نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ أَنَّى تَأْتِيْهِ "** [(٣)] .

وقَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"الإِيْمَانُ يَبْدُوْ فِي الْقَلْبِ ضَعِيفاً ضَئِيلاً كَالْبَقْلَةِ، فَإِنْ صَاحِبُهُ تَعَاهَدَهُ فَسَقَاهُ بِالْعُلُومِ النَّافِعَةِ وَالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَأَمَاطَ عَنهُ الدَّغَلَ وَمَا يُضْعِفُهُ وَمَا يُوْهِنُهُ، أَوْشَكَ أَنْ يَنْمُوَ أَوْ يَزْدَادَ، وَيَصِيرَ لَهُ أَصْلٌ وَفُرُوْعٌ وَثَمَرَةٌ وَظِلٌّ إِلى مَا لا يَتَنَاهَى، حَتَّى يَصِيرَ أَمْثَالَ الْجِبَالِ، وَإِنْ صَاحِبُهُ أَهْمَلَهُ وَلَمْ يَتَعَاهَدْهُ جَاءَهُ عَنْزٌ فَنَتَفَتْهَا، أَوْ صَبِيٌّ فَذَهَبَ بِهَا ، أَوْ كَثُرَ عَلَيْهَا الدَّغَلُ فَأَضْعَفَهَا أَوْ أَهْلَكَهَا أَوْ أَيْبَسَهَا، كَذَلِكَ الإِيْمَانُ "** [(٤)] .

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك عن عبد الله بن عمرو بن العاص رقم (٥) وقال: رواته مصريون ثقات، ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في المجمع: رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن .

(٢) رواه أحمد في مسنده عن أبي هريرة (٨٧١٠) والحاكم في المستدرك (٧٦٥٧) وقال: صحيح الإسناد. وقال المنذري في الترغيب: إسناد أحمد حسن، وقال الهيثمي في المجمع: رجاله ثقات .

(٣) أخرجه محمد بن عثمان الأذرعي في كتاب «الوسوسة»، كذا في «كنز العمال» (١٧١٤) وعزاه ابن تيمية في كتاب «الإيمان» للإمام أحمد .

(٤) ذكره ابن تيمية في كتاب «الإيمان» ص (٢١٣) .

والإنْسَانُ ضَعِيفٌ بنَفْسِهِ قَوِيٌّ بِإخْوَانِه، والشَّيطَانُ ذِئْبُ الإنسَانِ ويَأْكُلُ الْقَاصِيَةَ الشَّارِدَةَ عَنِ الجَمَاعَةِ، فَحتَّى يَستَطِيعَ الإنسَانُ مُجَاهَدَةَ نَفسِهِ وهَوَاهُ وشَيطَانِهِ وَالدُّنيَا فَلا بُدَّ لَهُ مِنْ بيئَةٍ صَالِحَةٍ يَحفَظُ إيْمَانَهُ الْموجُودَ، ويَتَعَلَّمُ مَا لَيسَ عِندَهُ مِنَ الإيْمَانِ، ويَنشُرُ مَا تَحَصَّلَ لَدَيْهِ مِنَ الْعِلمِ والإيْمَانِ فِيهَا، وهَذِهِ البيئَةُ هِيَ بيئَةُ الْمَسجِدِ خَيْرِ الْبِقَاعِ وأَحَبِّهَا إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، ولا بُدَّ لَهُ مِنْ صُحْبَةٍ صَالِحَةٍ تُعِينُهُ عَلَى هَذِهِ الْمُجَاهَدَةِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨] .

وقَالَ عِيسَى ابْنُ مَريَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لِلحَوَارِيِّينَ: "**جَالِسُوا مَنْ يَزِيْدُ أَعْمَالَكُمْ مَنطِقُهُ، وَمَنْ تُذَكِّرُكُمْ باللهِ رُؤْيَتُهُ، وَيُزَهِّدُكُمْ فِي دُنيَاكُمْ عَمَلُهُ** " [(١)] .

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ الله: أَيُّ جُلَسَائِنَا خَيْرٌ ؟ قَالَ: "**مَنْ ذَكَّرَكُمُ الله رُؤْيَتُهُ، وَزَادَ فِي عَمَلِكُمْ مَنطِقُهُ، وَذَكَّرَكُمْ فِي الآخِرَةِ عَمَلُهُ** " [(٢)] .

وقَالَ لُقْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لابْنِهِ:" **يَا بُنَيَّ جَالِسِ الْعُلَمَاءَ وزَاحِمْهُمْ برُكْبَتَيْكَ، فَإنَّ الْقُلُوبَ لَتَحْيَا بِالْحِكْمَةِ كَمَا تَحْيَا الأَرْضُ الْمَيْتَةُ بوَابِلِ الْقَطْرِ** " [(٣)] .

لِذَلِكَ لَمَّا تَضْعُفُ الْبِيئَةُ الإيْمَانِيَّةُ الْمُحِيطَةُ بالإنسَانِ وتَقِلُّ الصُّحْبَةُ الصَّالِحَةُ الَّتِي تُعِينُهُ عَلَى الصَّلاحِ، فَإِنَّ مُجَاهَدَتَهُ فِي الثَّبَاتِ عَلَى الْحَقِّ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ تَتَضَاعَفُ، وبِهَذَا تَتَضَاعَفُ أُجُورُهُ، كَمَا قَالَ ﷺ: "**فَإنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّاماً الصَّبْرُ فِيْهِنَّ مِثلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ،**

---

(١) رواه أحمد في «الزهد» برقم (٢٩٩) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٤٤٥) .

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٤٤٦) وقال الهيثمي: رواه أبو يعلى، وفيه مبارك بن حسان وقد وُثِّق، وبقية رجاله رجال الصحيح .

(٣) إحياء علوم الدين (٢/٢٤٥) .

لِلْعَامِلِ فِيْهِنَّ أَجْرُ خَمْسِيْنَ رَجُلاً يَعْمَلُونَ مِثلَ عَمَلِكُمْ ." قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ ! أَجْرُ خَمْسِيْنَ مِنَّا أَوْ مِنهُمْ ؟ قَالَ: "**بَلْ أَجْرُ خَمْسِيْنَ مِنْكُمْ** " (١) .

وقَالَ عَبدُ اللهِ بنُ عَمْرٍو رضي الله عنهما :" **لَخَيْرٌ أَعْمَلُهُ الْيَوْمَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مِثلَيْهِ فِيْمَا مَضَى، لأَنَّا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهِمَّتُنا الآخِرَةُ، وَلا تُهِمُّنا الدُّنيا، وَإِنَّا الْيَوْمَ قَدْ مَالَتْ بنا الدُّنيَا** " (٢) .

كَمَا أَنَّهُ لا بُدَّ لِتَحصِيلِ الْهِدَايَةِ مِنَ الإِنَابَةِ إلى اللهِ، كَمَا قَالَ سبحانه وتعالى: ﴿ **وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ** ﴾ [الشورى: ١٣]، وهِيَ عُكُوفُ القَلْبِ عَلَى اللهِ عز وجل، كَاعْتِكَافِ الْبَدَنِ فِي الْمَسجدِ لا يُفَارِقُهُ، وحَقِيقَةُ ذَلِكَ عُكُوفُ الْقَلْبِ عَلَى مَحَبَّتِهِ، وذِكْرُهُ بالإِجْلال والتَّعْظِيْمِ، وعُكُوفُ الجَوَارِحِ عَلَى طَاعَتِهِ بالإِخْلاصِ لَهُ والْمُتَابَعَةِ لِرَسُولِهِ، ومَنْ لَمْ يَعْكُفْ قَلْبُهُ عَلَى اللهِ وَحْدَهُ عَكَفَ عَلَى التَّمَاثِيْلِ الْمُتَنَوِّعَةِ، كَمَا قَالَ إِمَامُ الحُنَفَاءِ لِقَومِهِ: ﴿ **مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٥٢]، فَاقْتَسَمَ هُوَ وقَوْمُهُ حَقِيقَةَ الْعُكُوفِ، فَكَانَ حَظُّ قَوْمِهِ الْعُكُوفَ عَلَى التَّمَاثِيْلِ، وكَانَ حَظُّهُ الْعُكُوفَ عَلَى الرَّبِّ الْجَلِيلِ، والتَّمَاثِيلُ جَمعُ تِمْثَالٍ، وهِيَ الصُّوَرُ الْمُمَثَّلَةُ .

---

(١) رواه أبو داود عن أبي ثعلبة الخشني برقم (٤٣٤١) ورواه الترمذي برقم (٣٠٥٨) وقال حديث حسن غريب. وابن ماجة (٤٠١٤) وابن حبان في صحيحه (٣٨٥)، وقال الهيثمي: رواه البزار والطبراني بنحوه — عن ابن مسعود — إلاَّ أَنَّه قال:" **لِلْمُتَمَسِّكِ أَجْرُ خَمْسِيْنَ شَهِيْداً**. فقال عُمَرُ: يا رسول اللهِ! مِنَّا أَوْ مِنهُمْ؟ قال: "**مِنْكُمْ**". ورجال البزار رجال الصحيح غير سهل بن عامر البجلي وثقه ابن حبان. وبمعناه ما أخرجه أبو الشيخ في «الأمثال» برقم (٢٣٣) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **أَنْتُمُ الْيَوْمَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ، ثُمَّ تَظْهَرُ فِيكُمُ السَّكْرَتَانِ : سَكْرَةُ الْجَهْلِ، وَسَكْرَةُ حُبِّ الْعَيْشِ، وَسَتُحَوَّلُونَ عَنْ ذَلِكَ، فَلا تَأْمُرُونَ بِمَعْرُوفٍ وَلا تَنْهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ، وَلا تُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، الْقَائِمُونَ يَوْمَئِذٍ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَهُمْ أَجْرُ خَمْسِينَ صِدِّيقاً**." قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ مِنَّا أَوْ مِنْهُمْ ؟ قَالَ :" **لا بَلْ مِنْكُمْ**." ومن طريقه أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/٤٩)؛ كما أخرجه عن معاذ بن جبل. وأخرجه عن عائشة بنحوه إلاَّ أَنَّهُ قَالَ فِي آخره: "**وَالْقَائِمُونَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ كَالسَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ**." وبنحوه أخرجه البزار في مسنده عن معاذ بن جبل (٢٦٣١) وقال الهيثمي: رواه البزار، وفيه الحسن بن بشر، وَثَّقَهُ أبو حاتم وغَيْرُهُ، وفيه ضعف .

(٢) رواه ابن المبارك في «الجهاد» برقم (٢١٧) .

فتعَلُّقُ الْقَلْبِ بغَيْرِ الله وَاشْتِغَالُهُ بِهِ وَالرُّكُوْنُ إلَيهِ عُكُوفٌ مِنهُ عَلَى التَّمَاثِيلِ الَّتِي قَامَتْ بقَلْبِهِ، وهُوَ نَظِيرُ الْعُكُوفِ عَلَى تَمَاثِيلِ الأَصْنَامِ، ولِهَذَا كَانَ شِرْكُ عُبَّادِ الأَصْنَامِ بالْعُكُوْفِ بِقُلُوبِهِمْ وهِمَمِهِمْ وإِرَادَاتِهِمْ عَلَى تَمَاثِيلِهِم .

فَإِذَا كَانَ فِي القَلْبِ تَمَاثِيلُ قَدْ مَلَكَتهُ وَاستَعْبَدَتهُ، بِحَيثُ يَكُونُ عَاكِفاً عَلَيهَا، فَهُوَ نَظِيرُ عُكُوفِ عُبَّادِ الأَصنَامِ عَلَيهَا، ولِهَذَا سَمَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ عَبْداً لَهَا، ودَعَا عَلَيهِ بالتَّعْسِ وَالنَّكْسِ، فَقَالَ: **"تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ، إنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلا انْتَقَشَ** "[(١)][(٢)]. والتَّعْسُ: هُوَ أَنْ يَخِرَّ عَلَى وَجهِهِ، والنَّكْسُ: أَنْ يَخِرَّ عَلَى رَأْسِهِ [(٣)] . وهَذَا العَكَوفُ فِي الحَقِيقَةِ حَبْسٌ؛ فَطَالِبُ الله والدَّارِ الآخِرَةِ لا يستقيمُ لَهُ سَيْرُهُ وَطَلَبُهُ إلاَّ بِحَبْسَيْنِ :

أَحَدُهُمَا: حَبْسُ قَلْبِهِ فِي طَلَبِهِ ومَطْلُوبِهِ، وحَبْسُهُ عَنِ الإلْتِفَاتِ إلى غَيْرِهِ، وحَبْسُ لِسَانِهِ عَمَّا لا يُفِيْدُ، وحَبْسُهُ عَلَى ذِكْرِ الله وَمَا يَزِيدُ فِي إِيْمَانِهِ ومَعْرِفَتِهِ .

وَالثَّانِي: حَبْسُ جَوَارِحِهِ عَنِ الْمَعَاصِي وَالشَّهَوَاتِ، وحَبْسُهَا عَلَى الوَاجِبَاتِ والْمَندُوبَاتِ، فَلا يُفَارِقُ الْحَبْسَ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ، فَيُخَلِّصَهُ مِنَ السِّجْنِ إلى أَوْسَعِ فَضَاءٍ وَأَطْيَبِهِ، ومَتَى لَمْ يَصْبِرْ عَلَى هَذَينِ الْحَبْسَيْنِ وَفَرَّ إلى فَضَاءِ الشَّهَوَاتِ، أَعْقَبَهُ ذَلِكَ الحَبْسَ الفَظِيْعَ عِندَ خُرُوجِهِ مِنَ الدُّنيَا؛ فَكُلُّ خَارِجٍ مِنَ الدُّنيَا إمَّا مُتَخَلِّصٌ مِنَ الْحَبْسِ، وَإِمَّا ذَاهِبٌ إلى الْحَبْسِ [(٤)] .

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة (٢٨٨٦) و(٢٨٨٧) و(٦٤٣٥) .

(٢) «الفوائد» ص (٢٨٤ –٢٨٥) .

(٣) «تهذيب اللغة» للأزهري (٤٨/٢) و«لسان العرب» (٣٢/٦) .

(٤) «الفوائد» ص (٧٤) .

وهَذِهِ الإنَابَةُ تَحصُلُ لِلعَبدِ بأَمرَينِ اثْنَينِ :

الأَوَّلُ: وَهْبِيٌّ مِنَ اللَّهِ ﷻ، بأَنْ يَعْصِمَهُ مِنْ كُلِّ مَا يَمِيْلُ بقَلْبِهِ إلى غَيرِهِ، ويُسَلِّمَهُ مِنْ كُلِّ مَا يَشْغَلُهُ عَنهُ، فَغَالِبُ النَّاسِ وَاقِعٌ في شِبَاكِ زوجةٍ لا تَرْحَمُهُ، وَوَلَدٍ لا يَعْذُرُهُ، وجَارٍ لا يَأْمَنُهُ، وصَاحِبٍ لا يَنْصَحُهُ، وشَرِيكٍ لا يُنْصِفُهُ، وعَدُوٍّ لا يَنَامُ عَنْ مُعَادَاتِهِ، ونَفْسٍ أَمَّارَةٍ بالسُّوءِ، ودُنيَا مُتَزَيِّنَةٍ، وهَوَىً مُرْدٍ، وشَهْوَةٍ غَالِبَةٍ، وغَضَبٍ قَاهِرٍ، وشَيْطَانٍ مُزَيِّنٍ، وضَعْفٍ مُسْتَوْلٍ عَلَيهِ، فَإنْ تَوَلاهُ اللَّهُ وجَذَبَهُ إِلَيْهِ انقَهَرَتْ لَهُ هَذِهِ كُلُّهَا، وَإِنْ تَخَلَّى عَنهُ وَوَكَلَهُ إلى نَفْسِهِ اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ فَكَانَتِ الْهَلَكَةُ [١] .

وَالأَمْرُ الثَّاني: كَسْبِيٌّ مِنْ كَسْبِ الْعَبْدِ، وذَلِكَ باتِّخَاذِ الأَسْبَابِ الْمُقْتَضِيَةِ لِحُصُولِ الإنَابَةِ في قَلبِهِ ومُجَانَبَةِ مَوَانِعِهَا، وذَلِكَ بالْمُحَافَظَةِ عَلَى الْبِيئَةِ الصَّالِحَةِ والصُّحْبَةِ الصَّالِحَةِ الَّتِي تُذَكِّرُهُ إذَا نَسِيَ، وَتُعَلِّمُهُ إذَا جَهِلَ، وَتَنصَحُ لَهُ في شُؤُونِهِ كُلِّهَا، وَتُعِيْنُهُ عَلَى نَفسِهِ في تَخَطِّي كُلِّ مَا يُعِيْقُهُ عَنِ اللَّهِ ﷻ وَامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ، كَمَا كَانَ الصَّحَابَةُ ﷺ يَتَنَاصَحُونَ ويَتَوَاصَوْنَ بالْحَقِّ وَالصَّبْرِ وَالمَرْحَمَةِ،" **فَقَدْ كَانَ الرَّجُلانِ مِنهُمْ إذَا الْتَقَيَا لَمْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَقْرَأَ أَحَدُهُمَا عَلَى الآخَرِ سُوْرَةَ الْعَصْرِ، ثُمَّ يُسَلِّمُ أَحَدُهُمَا عَلَى الآخَرِ**" [٢]، وكَانَ يَدْعُوْ بَعْضُهُمُ الْبَعْضَ إلى الْمُذَاكَرَةِ بمَا يَزِيدُ إِيْمَانَهُمْ وقُرْبَهُمْ مِنَ اللَّهِ ﷻ، فَقَدْ كَانَ عبدُ اللَّهِ ابْنُ رَوَاحَةَ ﷺ إذَا لَقِيَ الرَّجُلَ مِنْ أَصحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ: "**تَعَالَ نُؤمِنْ بربِّنَا سَاعَةً**."[٣]، وكَانَ يَأْخُذُ بيَدَيْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ فَيَقُولُ: "**تَعَالَ نُؤمِنْ سَاعَةً، إنَّ الْقَلْبَ أَسْرَعُ تَقَلُّباً مِنَ الْقِدْرِ إذَا اسْتَجْمَعَتْ غَلَيَانَهَا**."[٤]، وفي رِوَايَةٍ يَقُولُ:" **اجْلِسْ نَتَذَاكَرْ سَاعَةً**." فَيَجْلِسُونَ فَيَتَذَاكَرُونَ، ثُمَّ يَقُولُ:" **هَذَا مَجْلِسُ الإيْمَانِ، مَثَلُ الإيْمَانِ مَثَلُ قَمِيْصِكَ، بَيْنَا أَنَّكَ قَدْ نَزَعْتَهُ إِذْ لَبِسْتَهُ، وَبَيْنَا أَنَّكَ قَدْ لَبِسْتَهُ إِذْ نَزَعْتَهُ، الْقَلْبُ أَسْرَعُ**

---

(١) «الفوائد» ص (٦٤) .

(٢) رواه الطبراني في الكبير عن أبي مدينة الدارمي، وكانت له صحبة (١٣٦٦) وفي الأوسط (٥١٢٤) وقال الهيثمي في المجمع: رجاله رجال الصحيح .

(٣) رواه أحمد في مسنده عن أنس بن مالك (١٣٧٩٦) وحَسَّنَهُ العجلوني في «كشف الخفاء» (١/٥٠) .

(٤) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» عن أبي الدرداء (٢٨/١١١) .

تَقَلُّباً مِنَ الْقِدْرِ إِذَا اسْتَجْمَعَتْ غَلَيَانَهَا "[(١)]، وكَذَلِكَ كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب رضي الله عنه يَفْعَلُ، فَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ:" **كَانَ عُمَرُ يَأْخُذُ بِيَدِ الرَّجُلِ وَالرَّجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَيَقُوْلُ: قُمْ بِنَا نَزْدَادُ إِيْمَاناً، فَيَذْكُرُوْنَ اللهَ عز وجل**." [(٢)]، وكَانَ يَقُولُ رضي الله عنه لأَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه وهُوَ جَالِسٌ مَعَهُ فِي الْمَجلِسِ:" **ذَكِّرْنَا رَبَّنَا** ". فَيَقرَأُ عِندَهُ [(٣)] . وهَكَذَا كَانَ أَعْلَمُ هَذِهِ الأُمَّةِ بِالْحَلالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رضي الله عنه إِذَا لَقِيَ أَصْحَابَهُ قَالَ لَهُمُ :" **اجْلِسُوْا بِنَا نُؤمِنْ سَاعَةً** " [(٤)] .

نَسأَلُ اللهَ عز وجل أَنْ يَهْدِيَنَا وَيَهْدِيَ بنَا وَيَجْعَلَنَا سَبَباً لِمَنِ اهْتَدَى، وَأَنْ يَجْعَلَنَا مَفَاتِيْحَ لِلْخَيْرِ مَغَالِيْقَ لِلشَّرِّ، سَبَباً لإِحْيَاءِ مَا مَاتَ مِنْ سُنَنِ الْحَبِيْبِ الْمُصْطَفَى صلى الله عليه وسلم وأَصْحَابِهِ الْكِرَامِ، إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيْمٌ .

*****

(١) المصدر السابق .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه عن زر (٣٠٣٦٦) واللالكائي في «السنة» عن أبي ذر كما في «كنز العمال»(٣٩٢١)

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه (٧١٩٦) والدارمي في سننه (٣٤٩٣) وعبد الرزاق في مصنفه (٤١٧٩) .

(٤) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه عن الأسود بن هلال(٣٠٣٦٣) بسند صحيح، وذكره البخاري في صحيحه تعليقاً. وانظر «فتح الباري» (١/ ٤٨) .

الْحَدِيْثُ الثَّالِثُ وَالْعِشْرُونَ

عَنْ أَبِي الدَّرداء رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: "مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ الله لَهُ طَرِيقاً إلى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضاً لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ يَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانِ فِي الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وإِنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَلاَ دِرْهَماً، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ " [(١)] .

قوله (مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا) سُلُوكُ الطَّرِيقِ لالْتِمَاسِ العِلْمِ يَدخُلُ فِيهِ سُلُوكُ الطَّرِيقِ الحَقِيقِيِّ، وهُوَ الْمَشْيُ بالأَقْدَامِ إلى مَجَالِسِ الْعُلَمَاءِ وَالرِّحْلَةُ في طَلَبِ العِلْمِ، كَمَا يَدخُلُ فِيهِ سُلُوكُ الطَّرِيقِ الْمَعنَوِيِّ الْمُؤَدِّي إلى حُصُولِ العِلْمِ، مِثْلُ حِفْظِهِ ودِرَاسَتِهِ ومُذَاكَرَتِهِ ومُطَالَعَتِهِ وكِتَابَتِهِ والتَّفَهُّمِ لَهُ، ونَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الطُّرُقِ الْمَعْنَوِيَّةِ الَّتِي يُتَوَصَّلُ بهَا إلى الْعِلْمِ [(٢)]، دَلَّ عَلَى ذَلِكَ إِطْلاقُ الطَّرِيقِ حَيْثُ قَالَ: (طَرِيقاً) بلا تَقْيِيدٍ، ودَلَّ إِطْلاقُ العِلْمِ عَلَى أَنَّ هَذَا الفَضْلَ لِكُلِّ مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً لِتَعَلُّمِ أَيِّ قَدْرٍ كَانَ مِنَ الْعِلْمِ الشَّرعِيِّ مَهْمَا قَلَّ .

قوله (سَهَّلَ الله لَهُ طَرِيقاً إِلى الْجَنَّةِ) قَدْ يُرَادُ بذَلِكَ أَنَّ الله يُيَسِّرُ لَهُ الْعِلْمَ الَّذِي طَلَبَهُ وسَلَكَ سَبِيلَهُ ويُيَسِّرُهُ عَلَيهِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ طَرِيقٌ يُوصِلُ إلى الجَنَّةِ، وهَذَا كَقَولِهِ سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[القمر: ١٧]، وقَدْ يُيَسِّرُ لَهُ عُلُوماً أُخْرَى يَنْتَفِعُ بهَا وَتَكُونُ مُوصِلَةً إلى الجَنَّةِ كَمَا قِيلَ:" مَنْ عَمِلَ بمَا عَلِمَ أَوْرَثَهُ الله عِلْمَ ما لَمْ يَعْلَمْ." وَكما قِيلَ:" إِنَّ ثَوَابَ الْحَسَنَةِ الْحَسَنَةُ بَعْدَهَا." وقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ قَولُهُ سبحانه وتعالى:﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾[مريم: ٧٦]، ويَدخُلُ في هَذَا أيضاً أَنَّ الله يُيَسِّرُ لَهُ إِذَا قَصَدَ

---

(١) رواه أحمد في مسنده برقم (٢١٧٦٣) وأبو دوواد في سننه برقم (٣٦٤١) والترمذي برقم (٢٦٨٢) وابن ماجه برقم (٢٢٣) واللفظ له، وإسناده جيد .

(٢) «جامع العلوم والحكم» ص (٤١٥) .

بطَلَبِهِ وَجْهَ اللهِ تعالى الانْتِفاعَ بعِلْمِهِ والْعَمَلَ بمُقتَضَاهُ، كَمَا قَالَ الفُضَيلُ بنُ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللهُ: "**وَالَّذِيْنَ جَاهَدُوْا فِيْ طَلَبِ الْعِلْمِ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ بِهِ**" (١)؛ وقَدْ يَدخُلُ في ذَلِكَ أَيضاً تَسهيلُ طَرِيقِ الجَنَّةِ الحِسِّيِّ يومَ الْقِيَامَةِ، وهُوَ الصِّرَاطُ ومَا قَبْلَهُ ومَا بَعدَهُ مِنَ الأَهْوَالِ (٢)، ويَكُونُ سَبَباً لِهِدَايَتِهِ لِدُخُولِ الجَنَّةِ بذَلِكَ .

قوله (**وَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضاً لِطَالِبِ الْعِلْمِ**) وفي رِوَايَةٍ:" **مَا مِنْ خَارِجٍ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ إِلاَّ وَضَعَتْ لَهُ الْمَلاَئِكَةُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا بِمَا يَصْنَعُ**" (٣)، هَذَا مَحمُولٌ عَلَى الحَقِيقَةِ وإِنْ لَمْ يُشَاهَدْ، أَيْ تَفرِشُهَا لِتَكُونَ وِطَاءً ومَعُونَةً لَهُ إِذَا مَشَى، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ:" **هَلْ مِنْ طَالِبِ عِلْمٍ فَيُعَانَ**." أَوْ تَكُفُّهَا عَنِ الطَّيَرَانِ وتَنْزِلُ عِندَ مَجَالِسِ العِلْمِ لِسَمَاعِهِ، أَو أَنَّ ذَلِكَ بمَعنَى التَّوَاضُعِ تَوقِيراً لِعِلْمِهِ وتَعظِيماً لِحَقِّهِ ومَحَبَّةً لِمَا يَطلُبُ؛ ورُوِيَ عَنْ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللهُ في مَعْنَاهُ أَنَّ الْمَلاَئِكَةَ تَبسُطُ أَجْنِحَتَهَا بالدُّعَاءِ لِطَالِبِ العِلمِ بَدَلاً مِنَ الأَيدِي .

قَالَ أَحمَدُ بنُ شُعَيبٍ رَحِمَهُ اللهُ: كُنَّا عِندَ بَعْضِ الْمُحَدِّثِينَ، فَحَدَّثَنَا بهَذَا الحَدِيثِ، وفي الْمَجلِسِ رَجُلٌ مِنَ الْمُعتَزِلَةِ، فَجَعَلَ يَستَهْزِئُ بالحَدِيثِ، فَقَالَ: لأَطْرُقَنَّ غَداً نَعْلِي بمَسَامِيرَ فَأَطَأُ بهَا أَجنِحَةَ الْمَلاَئِكَةِ، فَفَعَلَ ومَشَى في النَّعلَينِ، فَجَفَّتْ رِجْلاهُ، وَوَقَعَتْ فِيهَا الأَكَلَةُ .

وقَالَ الطَّبَرَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: سَمِعتُ أَبَا يَحْيَى زَكَرِيَّا السَّاجِيَّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: كُنَّا نَمشِي في بَعْضِ أَزِقَّةِ البَصْرَةِ إلى بَابِ بَعْضِ الْمُحَدِّثِينَ، فَأَسرَعْنَا في الْمَشيِ، وكَانَ مَعَنَا رَجُلٌ مَاجِنٌ

---

(١) «تفسير البغوي» (٦/٢٥٦)، «تفسير الثعلبي» (٧/٢٩٠) «تفسير الخازن» (٥/ ٢٠٠) .

(٢) «جامع العلوم والحكم» ص (٤١٥ –٤١٦) .

(٣) رواه أحمد في مسنده برقم (١٨٠٩٣) وابن حبان في صحيحه (٨٥) و (١٣٢٥) ورواه الترمذي (٢٦٨٢) وابن ماجه واللفظ له برقم (٢٢٦)، وقال في الزوائد: رجال إسناده ثقات، إلَّا أن عاصم بن أبي النجود اختلط بأخره . قلت: ويشهد له حديث الباب، فهو حديث حسن .

مُتَّهَمٌ فِي دِينِهِ، فَقَالَ: ارْفَعُوا أَرْجُلَكُمْ عَنْ أَجْنِحَةِ الْمَلائِكَةِ لا تَكْسِرُوهَا، فَمَا زَالَ مِنْ مَوضِعِهِ حَتَّى جَفَّتْ رِجْلاه وسَقَطَ [(١)] .

قوله (**وَإِنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ يَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانِ فِي الْمَاءِ**) أَيْ أَنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ يَستَغْفِرُ لَهُ الْعَالَمُ الْعُلْوِيُّ مِنَ الْمَلائِكَةِ والْعَالَمُ السُّفْلِيُّ، الْبَرِّيُّ وَالْبَحْرِيُّ، مُجَازَاةً عَلَى حُسنِ صَنِيعِهِ بِإِلْهَامٍ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِيَّاهُمْ ذَلِكَ، وذَلِكَ لِعُمُومِ نَفْعِ العِلْمِ، فَإِنَّ مَصَالِحَ كُلِّ شَيْءٍ ومَنَافِعَهُ مَنُوطَةٌ بِهِ [(٢)]، وقيل: إِنَّهُ لَمَّا عُرِفَتِ الرَّحْمَةُ والإِحْسَانُ فِي التَّعَامُلِ مَعَ الحَيَوَانَاتِ بِعِلْمِه اسْتَحَقَّ أَنْ تَستَغْفِرَ لَهُ البَهَائِمُ؛ وَلَمَّا كَانَ تَعلِيمُهُ لِلنَّاسِ الخَيرَ سَبَباً لِنَجَاتِهِم وسَعَادَتِهِم وزَكَاةِ نُفُوسِهِم جَازَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ جِنسِ عَمَلِهِ، بِأَنْ جَعَلَ عَلَيهِ مِنْ صَلاتِهِ وصَلاةِ مَلائِكَتِهِ وأَهْلِ الأَرْضِ مَا يَكُونُ سَبَباً لِنَجَاتِهِ وسَعَادَتِهِ وفَلاحِهِ، وأَيْضاً فَإِنَّ مُعَلِّمَ النَّاسِ الخَيرَ لَمَّا كَانَ مُظْهِراً لِدِينِ الرَّبِّ وأَحْكَامِهِ ومُعَرِّفاً لَهُم بِأَسْمَائِهِ وصِفَاتِهِ جَعَلَ اللَّهُ مِنْ صَلاتِهِ وصَلاةِ أَهْلِ سَّمَاوَاتِهِ وأَرْضِهِ عَلَيهِ مَا يَكُونُ تَنْوِيهاً بِهِ، وتَشرِيفاً لَهُ، وإِظهَاراً لِلثَّناءِ عَلَيهِ بَينَ أَهْلِ السَّمَاءِ وَالأَرضِ [(٣)]، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ القُدُسِيِّ: "**مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنهُمْ**" [(٤)] .

قوله(**وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ**)، وَذَلِكَ لأَنَّ كَمَالَ العِلْمِ كَمَالٌ يَتَعَدَّى آثَارُهُ إِلَى الغَيْرِ، وكَمَالَ الْعِبَادَةِ كَمَالٌ غَيرُ مَتَعَدٍّ آثَارُهُ، فَشَابَهَ الأَوَّلَ بِنُورِ الْقَمَرِ، وَالثَّانِيَ بِنُورِ سَائِرِ الْكَوَاكِبِ؛ وفِيهِ تَنبِيهٌ عَلَى أَنَّ كَمَالَ العِلْمِ لَيسَ لِلْعَالِمِ مِنْ ذَاتِهِ، بَلْ تَلَقَّاهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ كَنُورِ القَمَرِ، فَإِنَّهُ مُستَفَادٌ مِنْ نُورِ الشَّمسِ، ثُمَّ الْمُرَادُ بِالعَالِمِ مَنْ غَلَبَ عَلَيهِ الاِشْتِغَالُ بِالعِلْمِ مَعَ اشْتِغَالِهِ بالأَعمالِ الضَّرُورِيَّةِ – مِنَ الْعِبَادَةِ وَالتَّعلِيمِ وَالتَّبلِيغِ – وبِالْعَابِدِ مَنْ غَلَبَ عَلَيهِ الْعِبَادَةُ مَعَ اطِّلاعِهِ عَلَى العِلْمِ الضَّرُورِيِّ،

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/٨٣– ٨٤) .
(٢) «حاشية السندي على ابن ماجه» (١/١٤٦) .
(٣) «مفتاح دار السعادة» (١/٨٢) .
(٤) رواه البخاري عن أبي هريرة برقم (٧٤٠٥) ومسلم برقم (٦٩٨١) .

أَمَّا غَيرُهُمَا فَبِمَعْزِلٍ عَنِ الْفَضْلِ [(١)]، كَمَا قَالَ ﷺ: "**اغْدُ عَالِماً أَوْ مُتَعَلِّماً أَوْ مُسْتَمِعاً أَوْ مُحِبّاً، وَلا تَكُنِ الْخَامِسَ فَتَهْلِكَ** " [(٢)]، وقَدْ جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:" **فَضْلُ الْعِلْمِ خَيْرٌ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ** " [(٣)] .

قوله (**إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَلاَ دِرْهَماً**) أَيْ أَنَّ الأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مُنَزَّهُونَ عَنْ إِرَادَةِ الدُّنْيَا ومُلْكِهَا لأَنْفُسِهِم أَوْ لِذُرِّيَّاتِهِم مِنْ بَعْدِهِم، بَل مَا يَتْرُكُونَهُ مِنْ أَعْرَاضِ الدُّنيَا يَكُونُ صَدَقَةً عَلَى فُقَرَاءِ أُمَمِهِم ومَسَاكِينِهِم، فَلَيسَ لَهُم فِي نُبُوَّتِهِم حَظٌّ دُنْيَوِيٌّ، كَمَا قَالَ ﷺ : "**إِنَّا مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ لا نُورِّثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ** " [(٤)] .

قوله (**إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**) أَيْ أَنَّهُم لَمْ يَتْرُكُوا شَيئاً يَنتَفِعُ بِهِ النَّاسُ إِلاَّ الْعِلْمَ، فَمَنْ حَازَ مِيرَاثَ الأَنْبِيَاءِ فَقَدْ نَالَ شَرَفاً عَظِيماً ونَصِيباً كَبِيراً وَافِراً .

مَعْنَى الْحَدِيثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ

يُبَيِّنُ الحَدِيثُ أَنَّ شَرَفَ العِلْمِ مِنْ شَرَفِ الْمَعْلُومِ، وَأَشْرَفُ العُلُومِ هُوَ العِلْمُ باللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وبِأَحْكَامِهِ، فَمَنْ مَشَى فِي أَيِّ طَرِيقٍ يَطْلُبُ عِلماً يَزِيدُهُ مَعْرِفَةً بِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ وبِأَسْمَائِهِ وصِفَاتِهِ ومَحبُوبَاتِهِ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُيَسِّرُ لَهُ هَذَا الطَّرِيقَ ويُعِينُهُ عَلَيهِ، وَيَجْعَلُهُ قَائِداً لَهُ إِلى الجَنَّةِ،

---

(١) «حاشية السندي على ابن ماجه» (١/١٤٦) .

(٢) رواه الطبراني في الأوسط عن أبي بكرة برقم (٥١٧١) والبزار في مسنده (٣٦٢٦) وقال الهيثمي في المجمع: رجاله موثوقون .

(٣) رواه الطبراني في الأوسط عن حذيفة بن اليمان برقم (٣٩٦٠) والبزار في مسنده برقم (٢٩٦٩) ورواه الحاكم في المستدرك عنه برقم (٣١٧) ورواه عن سعد بن أبي وقاص برقم (٣١٤)، قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وقال المنذري في الترغيب: إسناده حسن .

(٤) رواه البخاري عن أبي بكر برقم (٢٩٢٦) و(٢٩٤٧) و(٣٨١٠) وعن عمر برقم (٢٩٢٧) ورواه مسلم عن أبي بكر برقم (٤٦٧٩) و(٤٦٨١) وعن عمر برقم (٤٦٧٦) ورواه النسائي في «السنن الكبرى» عن عمر برقم (٦٣٠٩) واللفظ له .

كَمَا يُسَخِّرُ مَلائِكَتَهُ فِي مَعُونَةِ هَذَا الْعَبدِ مَعُونَةً مَادِّيَّةً، بِتَهيئَةِ الأَسبَابِ الْمُعِينَةِ لَهُ عَلَى مُوَاصَلَةِ طَرِيقِهِ، ومَعُونَةً مَعنَوِيَّةً بِالدُّعَاءِ وَالإِسْتِغْفَارِ لَهُ، وَتَضَعُ أَجْنحَتَهَا تَوَاضُعاً لَهُ وتَوقِيراً ومَحَبَّةً وَإِكْرَاماً لِمَا يَحْمِلُهُ ويَطْلُبُهُ مِنْ مِيرَاثِ النُّبُوَّةِ، لأَنَّهُ يَطْلُبُ مَا فِيهِ حَيَاةُ الْعَالَمِ ونَجَاتُهُ، فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ الْمَلائِكَةِ، وبَينَهُ وبَينَهُم تَنَاسُبٌ، فَإِنَّ الْمَلائِكَةَ أَنْصَحُ خَلْقِ اللهِ وَأَنْفَعُهُم لِبَنِي آدَمَ، وَعَلَى أَيْدِيهِم حَصَلَ لَهُم كُلُّ سَعَادَةٍ وَعِلْمٍ وهُدًى، ومِنْ نَفْعِهِم لِبَنِي آدَمَ ونُصْحِهِم أَنَّهُم يَسْتَغْفِرُونَ لِمُسِيئِهِم، ويُثْنُونَ عَلَى مُؤْمِنِهِم، وَيُعِينُونَهُم عَلَى أَعْدَائِهِم مِنَ الشَّيَاطِينِ، ويَحْرِصُونَ عَلَى مَصَالِحِ الْعِبَادِ أَضْعَافَ حِرْصِهِم عَلَى مَصَالِحِ أَنْفُسِهِم، بَل يُرِيدُونَ لَهُم مِنْ خَيرِ الدُّنيَا والآخِرَةِ مَا لا يُرِيدُونَهُ لأَنْفُسِهِم ولا يَخْطُرُ بِبَالِهِم، كَمَا قَالَ بَعْضُ التَّابِعِينَ: **"وَجَدْنَا الْمَلائِكَةَ أَنْصَحَ خَلْقِ اللهِ لِعِبَادِهِ، وَوَجَدْنَا الشَّيَاطِيْنَ أَغشَّ الْخَلْقِ لِلْعِبَادِ "**؛ وقَالَ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]، فَأَيُّ نُصْحٍ مِثْلُ هَذَا إِلاَّ نُصْحُ الأَنْبِيَاءِ، فَإِذَا طَلَبَ الْعَبدُ العِلْمَ فَقَدْ سَعَى فِي أَعْظَمِ مَا يَنْصَحُ بِهِ عِبادَ اللهِ، فَلِذَلِكَ تُحِبُّهُ الْمَلائِكَةُ وتُعَظِّمُهُ، وقَدْ جَاءَ فِي الحَدِيثِ عَنْ صَفوَانَ بْنِ عَسَّالٍ رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي جِئْتُ أَطْلُبُ العِلْمَ، قَالَ: **"مَرْحَبًا بِطَالِبِ الْعِلْمِ، إِنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ لَتَحُفُّ بِهِ الْمَلائِكَةُ وَتُظِلُّهُ بِأَجْنحَتِهَا، فَيَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضاً حَتَّى تَبْلُغَ السَّمَاءَ الدُّنيَا مِنْ حُبِّهِمْ لِمَا يَطْلُبُ"** [(١)]؛ فَفِي هَذَا الحَدِيثِ تَحُفُّهُ الْمَلائِكَةُ وتُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا، وفِي الأَوَّلِ تَضَعُ لَهُ أَجْنحَتَهَا، فَالوَضْعُ تَوَاضُعٌ وتَوقِيرٌ وتَبْجِيلٌ، والْحَفُّ بِالأَجْنحَةِ حِفْظٌ وحِمَايَةٌ وصِيَانَةٌ، فَتَضَمَّنَ الحَدِيثَانِ تَعْظِيمَ الْمَلائِكَةِ لَهُ، وحُبَّهَا إِيَّاهُ، وحِيَاطَتَهُ وحِفْظَهُ؛ ثُمَّ إِنَّهُ لَمَّا كَانَ العَالِمُ - وطَالِبُ العِلْمِ - سَبَباً فِي حُصُولِ العِلْمِ الَّذِي بِهِ نَجَاةُ النُّفُوسِ مِنْ أَنْوَاعِ الْمُهلِكَاتِ، وَكَانَ سَعْيُهُ مَقصُوراً عَلَى هَذَا، وَكَانَتْ نَجَاةُ الْعِبَادِ عَلَى يَدَيهِ، جُوْزِيَ مِنْ جِنسِ عَمَلِهِ، وجُعِلَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ والأَرضِ سَاعِياً فِي نَجَاتِهِ مِنْ أَسْبَابِ الْمُهْلِكَاتِ بِاسْتِغْفَارِهِم،

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٧٣٤٧) قال الهيثمي في المجمع: رجاله رجال الصحيح. وقال المنذري في الترغيب: رواه أحمد والطبراني بإسناد جيد واللفظ له، وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال: صحيح الإسناد .

وَإِذَا كَانَتِ الْمَلائِكَةُ تَستَغْفِرُ لِلمُؤْمِنينَ فَكَيفَ لا تَستَغْفِرُ لِنَجَاتِهِم وخَلاصِهِم، وقَدْ جَاءَ في الحَدِيثِ: "**إنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِيْ النَّاسِ الْخَيْرَ**" [(١)] .

ثُمَّ شَبَّهَ حَالَ الْعَالِمِ بِالْقَمَرِ والْعَابِدِ بِالْكَوكَبِ، فَإِنَّ الْقَمَرَ يُضِيءُ الآفَاقَ، ويَمْتَدُّ نُورُهُ في أَقْطَارِ الْعَالَمِ، وهَذِهِ حَالُ الْعَالِمِ، وأَمَّا الْكَوكَبُ فَنُورُهُ لا يُجَاوِزُ نَفْسَهُ أَوْ مَا قَرُبَ مُنهُ، وهَذِهِ حَالُ الْعَابِدِ الَّذِي يُضِيءُ نُورُ عِبَادَتِهِ عَلَيهِ دُونَ غَيرِهِ، وإِنْ جَاوَزَ نُورُ عِبَادَتِهِ غَيرَهُ فَإِنَّمَا يُجَاوِزُهُ غَيرَ بَعِيدٍ، كَمَا يُجَاوِزُ ضَوءُ الْكَوكَبِ لَهُ مُجَاوَزَةً يَسيرَةً؛ وفي التَّشْبِيهِ الْمَذْكُورِ لَطِيفَةٌ أُخْرَى، وهِيَ أَنَّ الجَهلَ كَاللَّيلِ في ظُلْمَتِهِ وجِنْسِهِ، والْعُلَمَاءَ والعُبَّادَ بِمَنْزِلَةِ الْقَمَرِ والْكَوَاكِبِ الطَّالِعَةِ فِي تِلْكَ الظُّلْمَةِ، وفَضْلَ نُورِ الْعَالِمِ فِيهَا عَلَى نُورِ الْعَابِدِ كَفَضْلِ نُورِ الْقَمَرِ عَلَى الْكَوَاكِبِ؛ وجَاءَ كَذَلِكَ تَشْبِيهُ الْعُلَمَاءِ بِالنُّجُومِ، ولِهَذَا هِيَ فِي تَعْبِيرِ الرُّؤْيَا عِبَارَةٌ عَنِ الْعُلَمَاءِ، فَإِنَّ النُّجُومَ يُهْتَدَى بِهَا فِي ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالْبَحْرِ، وكَذَلِكَ الْعُلَمَاءُ، وَالنُّجُومُ زِينَةٌ لِلسَّمَاءِ، وكَذَلِكَ الْعُلَمَاءُ زِينَةٌ لِلأَرْضِ، وهِيَ رُجُومٌ لِلشَّيَاطِينِ، حَائِلَةٌ بَينَهُم وبَينَ استِرَاقِ السَّمعِ لِئَلاَّ يُلَبِّسُوا بِمَا يَسْتَرِقُونَهُ مِنَ الْوَحْيِ الْوَارِدِ إلى الرُّسُلِ مِنَ اللَّهِ عَلَى أَيْدِي الْمَلائِكَةِ، وكَذَلِكَ الْعُلَمَاءُ رُجُومٌ لِشَيَاطِينِ الإِنْسِ وَالْجِنِّ الَّذِينَ يُوحِي بَعضُهُم إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَولِ غُرُوراً، ولَولاهُم لَطُمِسَتْ مَعَالِمُ الدِّينِ بِتَلبِيسِ الْمُضِلِّينَ، ولَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَقَامَهُم حُرَّاساً وحَفَظَةً لِدِينِهِ ورُجُوماً لأَعْدَائِهِ وأَعداءِ رُسُلِهِ .

ثُمَّ بَيَّنَ عَظِيمَ مَقَامِ الْعُلَمَاءِ حَيثُ إِنَّهُم يَرِثُونَ عَنِ الأَنْبِيَاءِ عِلْمَهُم وهَدْيَهُم وطَرِيقَتَهُم في التَّبلِيغِ مِنَ الصَّبرِ وَالاحْتِمَالِ ومُقَابَلَةِ إِسَاءَةِ النَّاسِ إِلَيْهِم بالإِحْسَانِ وَالرِّفْقِ بِهِم، وَاستِجْلابِهِم إلى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِأَحْسَنِ الطُّرُقِ، وَبَذْلِ مَا يُمْكِنُ مِنَ النَّصِيحَةِ لَهُم، وَالتَّدَرُّجِ فِي تَرْبِيَتِهِم مِنْ صِغَارِ العِلْمِ إِلَى كِبَارِهِ، وتَحْمِيلِهِم مَا يُطِيقُونَ، فَإِنَّهُ بِذَلِكَ يَحصُلُ لَهُم نَصِيبُهُم مِنْ هَذَا الْمِيرَاثِ الْعَظِيمِ قَدْرُهُ الجَلِيلِ خَطَرُهُ، فَكُلَّمَا حَمَلَ الإِنسَانُ مِنْ مِيرَاثِ النُّبُوَّةِ فِي العِلْمِ والتَّبلِيغِ اقْتَرَبَتْ مَكَانَتُهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، لأَنَّ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَى الْمَورُوثِ وَرَثَتُهُ .

---

(١) رواه الترمذي عن أبي أمامة برقم (٢٦٨٥) وقال: حديث حسن غريب صحيح .

وَفِيهِ أَنَّهُ كُلَّمَا ازْدَادَ الإِنْسَانُ مِنْ مِيرَاثِ النُّبُوَّةِ ازْدَادَتْ مَسْؤُولِيَّتُهُ عَنْ تَبلِيغِ مَا عَلِمَهُ، لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَأْمُورٌ بِتَبْلِيغِ جَمِيعِ مَا أُوحِيَ إِلَيهِ، وهَكَذَا وَارِثُهُ .

ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّ الأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مُنَزَّهُونَ عَنْ إِرَادَةِ الدُّنيَا ومُلْكِهَا لأَنْفُسِهِم أَو لِذُرِّيَّاتِهِم مِنْ بَعْدِهِم، بَلْ مَا يَتْرُكُونَهُ مِنْ أَعْرَاضِ الدُّنيَا يَكُونُ صَدَقَةً عَلَى فُقَرَاءِ أُمَمِهِم ومَسَاكِينِهِم .

فَالأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في الْحَقِيْقَةِ إِنَّمَا يُوَرِّثُونَ الْعِلْمَ، كَمَا جَاءَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ مَرَّ بِسُوقِ الْمَدِينَةِ، فوَقَفَ عَلَيْهَا، فقَالَ: **"يَا أَهْلَ السُّوقِ، مَا أَعْجَزَكُمْ! قَالُوا: وَمَا ذَاكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ؟! قَالَ: ذَاكَ مِيرَاثُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُقَسَّمُ، وَأَنتُمْ هَا هُنَا لا تَذْهَبُونَ فَتَأْخُذُونَ نَصِيبَكُمْ مِنهُ! قَالُوا: وَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: فِي الْمَسْجِدِ. فَخَرَجُوا سِرَاعاً إِلى الْمَسْجِدِ، وَوَقَفَ أَبُو هُرَيْرَةَ لَهُمْ حَتَّى رَجَعُوا، فَقَالَ لَهُمْ: مَا لَكُمْ ؟ قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ قَدْ أَتَيْنَا الْمَسْجِدَ، فَدَخَلْنَا، فَلَمْ نَرَ فِيهِ شَيْئاً يُقَسَّمُ. فَقَالَ لَهُمْ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَمَا رَأَيْتُمْ فِي الْمَسْجِدِ أَحَدًا ؟ قَالُوا: بَلَى، رَأَيْنَا قَوْماً يُصَلُّونَ ويَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ، وَقَوْماً يَتَذَاكَرُونَ الْحَلالَ وَالْحَرَامَ، فَقَالَ لَهُمْ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَيْحَكُمْ، فَذَاكَ مِيرَاثُ مُحَمَّدٍ ﷺ "** [(١)] .

فَلا شَكَّ بَعدَ هَذِهِ الْفَضَائِلِ وغَيرِهَا أَنَّ مَنْ أَخَذَ هَذَا الْعِلْمَ فَقَدْ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ، فَإِنَّ أَعْظَمَ الْحُظُوظِ مَا نَفَعَ الْعَبدَ ودَامَ نَفْعُهُ لَهُ، ولَيسَ هَذَا إِلاَّ حَظُّهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالدِّينِ، فَهُوَ الحَظُّ الدَّائِمُ الَّذِي إِذَا انْقَطَعَتِ الْحُظُوظُ لأَرْبَابِهَا فَهُوَ مَوصُولٌ لَهُ أَبَدَ الآبدِينَ، لأَنَّهُ مَوصُولٌ بِالْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ [(٢)] .

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط برقم (١٤٢٥)، قال الهيثمي في المجمع : إسناده حسن .

(٢) «مفتاح دار السعادة» باختصار وتصرف يسيرين (٨٨/١) .

فَائِــــــــدَةٌ

عَنْ جَابرٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "**الْعِلْمُ عِلْمَانِ: عِلْمٌ فِيْ الْقَلْبِ فَذَاكَ الْعِلْمُ النَّافِعُ، وَعِلْمٌ عَلَى اللِّسَانِ فَذلِكَ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى ابْنِ آدَمَ**" [(١)] .

فَالْعِلْمُ يَنْقَسِمُ إِلى هَذَينِ الْقِسْمَيْنِ :

الأَوَّلُ: مَا كَانَ ثَمَرَتُهُ فِي قَلْبِ الإِنْسَانِ، وَهُوَ الْعِلْمُ باللهِ ﷻ وأَسْمَائِهِ وصِفَاتِهِ وأَفْعَالِهِ، الْمُقْتَضِيَةِ لِخَشْيَتِهِ ومَهَابَتِهِ وإِجْلالِهِ وَالْخُضُوعِ لَهُ، ومَحَبَّتِهِ ورَجَائِهِ ودُعَائِهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيهِ ونَحْوِ ذَلِكَ، فَهَذَا هُوَ الْعِلْمُ النَّافِعُ [(٢)]، كَمَا قَالَ ابنُ مَسعُودٍ ﷺ :" **لَيسَ الْعِلْمُ بكَثرَةِ**

---

(١) رواه الحافظ أبو بكر الخطيب في «تاريخ بغداد» (٢١٧٩) وقال المنذري في الترغيب : بإسناد حسن، ورواه ابن عبد البر النمري في «جامع بيان العلم وفضله» عن الحسن مرسلاً بإسناد صحيح. وقال الحافظ العراقي في «المغني»: سنده جيد، وإعلال ابن الجوزي له وَهْمٌ .

(٢) «جامع العلوم والحكم» ص (٤١٦)؛ وقال ابن قدامة المقدسي رَحِمَهُ اللَّهُ:" وَاعْلَمْ أَنَّهُ بُدِّلَتْ أَلْفَاظٌ وحُرِّفَتْ، ونُقِلَتْ إلى مَعَانٍ لَمْ يُرِدْهَا السَّلَفُ الصَّالِحُ؛ فَمِنْ ذَلِكَ : **الْفِقْهُ**، فَإِنَّهُمْ تَصَرَّفُوا فِيهِ بالتَّخْصِيصِ، فَخَصُّوهُ بمَعْرِفَةِ الْفُرُوعِ وَعِلَلِهَا، ولَقَدْ كَانَ اسْمُ الْفِقْهِ فِي الْعَصْرِ الأَوَّلِ مُنْطَلِقاً عَلَى عِلْمِ طَرِيقِ الآخِرَةِ، ومَعْرِفَةِ دَقَائِقِ آفَاتِ النُّفُوسِ، ومُفْسِدَاتِ الأَعْمَالِ، وقُوَّةِ الإِحَاطَةِ بحَقَارَةِ الدُّنْيَا، وشِدَّةِ التَّطَلُّعِ إلى نَعِيمِ الآخِرَةِ، وَاسْتِيْلاءِ الْخَوْفِ عَلَى الْقَلْبِ . ويَدُلُّكَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ ﴾، ومَا يَحْصُلُ بِهِ الإِنْذَارُ والتَّخْوِيفُ هُوَ هَذَا الْفِقْهُ، وقَالَ ﷻ: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾، وأَرَادَ بِهِ مَعَانِيَ الإِيْمَانِ دُوْنَ الْفَتَاوَى؛ ولِذَلِكَ قَالَ الْحَسَنُ رَحِمَهُ اللَّهُ:" **إِنَّمَا الْفَقِيهُ الزَّاهِدُ فِي الدُّنْيَا، الرَّاغِبُ فِي الآخِرَةِ، الْبَصِيرُ بدِينِهِ، الْمُدَاوِمُ عَلَى عِبَادَةِ رَبِّهِ، الْوَرِعُ الْكَافُّ عَنْ أَعْرَاضِ الْمُسْلِمِينَ، الْعَفِيفُ عَنْ أَمْوَالِهِمْ، النَّاصِحُ لَهُمْ.**"، فَكَانَ إِطْلاقُهُمُ اسْمَ الْفِقْهِ عَلَى عِلْمِ الآخِرَةِ أَكْثَرَ، لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُتَنَاوِلاً لِلْفَتَاوَى، ولَكِنْ كَانَ مُتَنَاوِلاً لِذَلِكَ بطَرِيقِ الْعُمُومِ وَالشُّمُولِ، فَثَارَ مِنْ هَذَا التَّخْصِيصِ تَلْبِيسٌ بَعَثَ النَّاسَ عَلَى التَّجَرُّدِ لِعِلْمِ الْفَتَاوَى الظَّاهِرَةِ، وَالإِعْرَاضِ عَنْ عِلْمِ الْمُعَامَلَةِ لِلآخِرَةِ. **اللَّفْظُ الثَّانِي: الْعِلْمُ** ؛ فَقَدْ كَانَ ذَلِكَ يُطْلَقُ عَلَى الْعِلْمِ باللهِ ﷻ وَبآيَاتِهِ، أَيْ نعَمِهِ وأَفْعَالِهِ فِي عِبَادِهِ، فَخَصُّوهُ وسَمَّوْا بِهِ الْغَالِبَ الْمُنَاظِرَ فِي مَسَائِلِ الْفِقْهِ، وإِنْ كَانَ جَاهِلاً بالتَّفْسِيرِ وَالأَخْبَارِ. **اللَّفْظُ الثَّالِثُ: التَّوْحِيدُ؛** وقَدْ كَانَ ذَلِكَ إِشَارَةً إِلى أَنْ تُرَى الأُمُورُ كُلُّهَا مِنَ اللَّهِ ﷻ رُؤْيَةً تَقْطَعُ الاِلْتِفَاتَ إِلى الأَسْبَابِ وَالْوَسَائِطِ، فَلا يَرَى الْخَيْرَ وَالشَّرَّ كُلَّهُ إِلاَّ مِنْهُ جَلَّ جَلَالُهُ، فَيُثْمِرُ ذَلِكَ التَّوَكُّلَ وَالرِّضَى، وقَدْ جُعِلَ الآنَ عِبَارَةً عَنْ صِنَاعَةِ الْكَلامِ فِي الأُصُولِ، وذَلِكَ مِنَ الْمُنْكَرَاتِ عِنْدَ السَّلَفِ . «مختصر منهاج القاصدين» (٩/١) بتصرف من عبارة الإحياء، وانظر «إحياء علوم الدين» (٥٤/١-٥٦) .

الْحَدِيْث، وَلكِنَّ الْعِلْمَ الْخَشْيَةُ." [(١)]، وقَالَ ﷺ :" كَفَى بخَشْيَةِ اللَّهِ عِلْماً، وَكَفَى بالاِغْتِرَارِ بالله جَهْلاً."، وقَالَ ﷺ:" إنَّ أَقْوَاماً يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، وَلَكِنْ إذَا وَقَعَ فِي الْقَلْبِ فَرَسَخَ فِيهِ نَفَعَ." [(٢)]، وكَتَبَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّاب ﷺ إلى أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ ﷺ :" إنَّ الْفِقْهَ لَيْسَ بكَثْرَةِ السَّرْدِ وَسَعَةِ الْهَذْرِ وَكَثْرَةِ الرِّوَايَةِ، وَإنَّمَا الْفِقْهُ خَشْيَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ."، وقَالَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِب ﷺ :" أَلا أُخْبِرُكُمْ بالفَقِيهِ؟ مَنْ لَمْ يُقَنِّطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَلَمْ يُؤَمِّنهُمْ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ، وَلَمْ يُرَخِّصْ لَهُمْ فِي مَعَاصِي اللَّهِ، وَلَمْ يَدَعِ القُرْآنَ رَغْبَةً عَنهُ إلى غَيْرِهِ."، وسُئِلَ الحَسَنُ البِصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ مَسأَلَةٍ فَأَجَابَ، فَقِيلَ: إنَّ فُقَهَائَنَا لا يَقُولُونَ ذَلِكَ، فَقَالَ: "وَهَلْ رَأَيْتُمْ فَقِيْهاً قَطُّ؟! الْفَقِيْهُ هُوَ الْقَائِمُ لَيْلَهُ الصَّائِمُ نَهَارَهُ، الزَّاهِدُ فِي دُنيَاهُ، الَّذِيْ لا يُدَارِيْ وَلا يُمَارِيْ، يَنْشُرُ حِكْمَةَ اللَّهِ، فَإنْ قُبلَتْ مِنهُ حَمِدَ اللَّهَ، وَفَقِهَ عَنِ اللَّهِ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ، وَعَلِمَ مَا يُحِبُّهُ وَمَا يَكْرَهُهُ، فَذَاكَ هُوَ الْعَالِمُ الْذِي قِيْلَ فِيْهِ: "مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ فِي الدِّيْن" [(٣)]، وَإذَا لَمْ يَكُنْ بهَذِهِ الصِّفَةِ فَهُوَ مِنَ الْمَغْرُوْرِيْنَ." [(٤)]، وفِي رِوَايَةٍ قَالَ: تَدْرِيَ مَا الْفَقِيهُ ؟" الْوَرِعُ الزَّاهِدُ الْمُقِيمُ عَلَى سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَالَّذِي لا يَسْخَرُ بمَنْ أَسْفَلَ مِنهُ، وَلا يَهْزَأُ بمَنْ فَوقَهُ، وَلا يَأْخُذُ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَهُ اللَّهُ إيَّاهُ حُطَاماً."، وفِي رِوَايَةٍ قَالَ:" الزَّاهِدُ فِي الدُّنيَا الرَّاغِبُ فِي الآخِرَةِ الْبَصِيرُ فِي دِينِهِ الْمُجْتَهِدُ فِي الْعِبَادَةِ، هَذَا الفَقِيهُ."، وقَالَ: "مَا رَأَيتُ فَقِيهاً قَطُّ يُدَارِيْ ولا يُمَارِيْ، إنَّمَا يُفْشِي حِكْمَتَهُ، فَإنْ قُبلَتْ حَمِدَ اللَّهَ، وإنْ رُدَّتْ حَمِدَ اللَّهَ."؛ وعَنْ مُجَاهِدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ:" الْفَقِيهُ مَنْ يَخَافُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ." وقِيلَ لِسَعدِ بْنِ إبْرَاهِيمَ رَحِمَهُ اللَّهُ: مَنْ أَفْقَهُ أَهْلِ الْمَدِيْنَةِ ؟ قَالَ: أَتقَاهُمْ . وقَالَ أَبُو حَازِمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ :" لا يَكُونُ الْعَالِمُ عَالِماً حَتَّى يَكُونَ فِيه ثَلاثُ خِصَالٍ : لا يَحْقِرُ مَنْ دُونَهُ فِيْ الْعِلْمِ، وَلا يَحْسُدُ

---

(١) رواه أحمد في «الزهد» (٨٧٢) وفي «الورع» (٢٨٢) ورواته ثقات. ورواه أبو نعيم في «الحلية» (١/١٣١).

(٢) رواه مسلم عن ابن مسعود موقوفاً (١٩٤٥).

(٣) تقدم تخريجه .

(٤) «مغني المحتاج» للشربيني (٣/٧٩) ورواه أحمد في «الزهد» برقم (١٥٣٥) عن عمران القصير، قال: جاء رجل إلى الحسن فسأله عن مسائل فأجابه، فقال الرجل: يا أبا سعيد إن الفقهاء يقولون كذا وكذا، فقال له الحسن:" وَهَلْ رَأَيتَ بعَينكَ فَقِيهاً؟ إنَّمَا الفَقِيهُ الزَّاهِدُ فِي الدُّنيَا الرَّاغِبُ فِي الآخِرَةِ البَصِيرُ بذَنْبِهِ الْمُدَاوِمُ عَلَى عِبَادَةِ رَبِّهِ " .

مَنْ فَوْقَه، وَلا يَأْخُذُ عَلَى عِلْمِهِ دُنيا."؛ وقَالَ الْفُضَيلُ بنُ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:" إِنَّمَا الْفَقِيهُ الَّذِي أَنْطَقَتْهُ الخَشْيَةُ وأَسْكَتَتْهُ الخَشْيَةُ، إنْ قَالَ قَالَ بالكِتَاب وَالسُّنَّةِ، وَإِنْ سَكَتَ سَكَتَ بالكِتَاب وَالسُّنَّةِ، وإنِ اشْتَبَهَ عَلَيهِ شَيْءٌ وَقَفَ عِنْدَهُ وَرَدَّهُ إلى عَالِمِهِ."، وقَالَ الشَّعْبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "إنَّ الفَقِيهَ مَنْ وَرِعَ عَنْ مَحارِمِ اللَّهِ، والْعَالِمَ مَنْ خَافَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ."، وَاسْتَفْتَاهُ رَجُلٌ فقَالَ: أَيُّها الْعَالِمُ أَفْتِنِيْ، فَقَالَ: "إنَّمَا العَالِمُ مَنْ يَخَافُ اللَّهَ."، وقَالَ سُفْيَانُ ابْنُ عُيَيْنَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ :" العَالِمُ بالله الْخَائِفُ مِنَ اللَّهِ، وَإِنْ لَمْ يُحْسِنْ فُلانٌ عَنْ فُلانٍ، وَمَنْ لَمْ يُحْسِنِ الْعِلْمَ وَالخَوفَ مِنَ اللَّهِ فَهُوَ جَاهِلٌ، وَإِنْ كَانَ يُحْسِنُ فُلانٌ عَنْ فُلانٍ " .

وسُئِلَ عَبدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ اللَّهُ : هَلْ لِلعُلَمَاءِ عَلامَةٌ يُعْرَفُونَ بهَا ؟ قَالَ:" عَلامَةُ العَالِمِ مَنْ عَمِلَ بعِلْمِهِ، وَاسْتَقَلَّ كَثِيرَ العِلْمِ والعَمَلِ مِنْ نَفْسِهِ، ورَغِبَ فِي عِلْمِ غَيْرِهِ، وقَبِلَ الْحَقَّ مِنْ كُلِّ مَنْ أَتَاهُ بِهِ، وَأَخَذَ العِلْمَ حَيثُ وَجَدَهُ، فَهَذِهِ عَلامَةُ الْعَالِمِ وصِفَتُهُ."، وقَالَ الزُّهْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:" لا نَثِقُ لِلنَّاسِ بعَمَلِ عَامِلٍ لا يَعْلَمُ، وَلا نَرْضَى لَهُمْ بعِلْمِ عَالِمٍ لا يَعْمَلُ."، وقَالَ الحَسَنُ رَحِمَهُ اللَّهُ :" كَانَ الرَّجُلُ إِذَا طَلَبَ بَاباً مِنَ الْعِلْمِ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ يُرَى ذَلِكَ فِي تَخَشُّعِهِ وبَصَرِهِ ولِسَانِهِ ويَدِهِ وزُهْدِهِ وصَلاتِهِ وبَدَنِهِ، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَطْلُبُ الْبَابَ مِنَ الْعِلْمِ فَهُوَ خَيرٌ لَهُ مِنَ الدُّنيا ومَا فِيهَا."، وقَالَ مَخْلَدُ بْنُ الْحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ: "إنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَسْمَعُ الْعِلْمَ الْيَسِيرَ فَيَسُودُ بِهِ أَهْلَ زَمَانِهِ، يُعْرَفُ ذَلِكَ فِي صِدْقِهِ ووَرَعِهِ، وإِنَّهُ لَيَرْوِي الْيَومَ خَمْسِينَ أَلْفَ حَدِيثٍ لا تَجُوزُ شَهَادَتُهُ عَلَى قَلَنْسُوَتِهِ." (١)، وقَالَ سُفْيَانُ بنُ عُيَيْنَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ :" الْعِلْمُ إِذَا لَمْ يَنْفَعْ ضَرَّ."، وَقَالَ الفُضَيلُ بنُ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ :"إِنَّا نَتَكَلَّمُ بكَلامٍ أَحْسَبُ أَنَّ الْمَلائِكَةَ تَسْتَحْسِنُهُ، وَلَعَلَّهَا تَلْعَنُ عَلَيهِ."، ورُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ:" يُوشِكُ أَنْ لا يَبْقَى مِنَ الإِسْلامِ إلاَّ اسْمُهُ، وَلا يَبْقَى مِنَ الْقُرْآنِ إلاَّ رَسْمُهُ، مَسَاجِدُهُمْ يَومئذٍ عَامِرَةٌ وَهِيَ خَرَابٌ مِنَ الْهُدَى، عُلَمَاؤُهُمْ شَرُّ مَنْ تَحْتَ أَدِيْمِ السَّمَاءِ، مِنْ عِندِهُمْ تَخْرُجُ الْفِتنَةُ وَفِيهِمْ تَعُودُ." (٢)، وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ ذَكَرَ فِتَناً فِي آخِرِ الزَّمَانِ،

(١) «الكفاية في علم الرِّواية» للخطيب البغدادي ص (٦) .

(٢) أخرجه الدينوري في «المجالسة وجاهر العلم» (٥١٩) ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» مرفوعاً (١٩٠٨) ولا يصح.

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ رضي الله عنه:" مَتَى ذَلِكَ يَا عَلِيُّ ؟" قَالَ: "إِذَا تُفُقِّهَ لِغَيْرِ الدِّيْن، وتُعُلِّمَ الْعِلْمُ لِغَيْرِ الْعَمَلِ، وَالْتُمِسَتِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ." [(١)]، وعَنْهُ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: "يَا حَمَلَةَ الْعِلْمِ! اعْمَلُوا بِهِ، فَإِنَّمَا الْعَالِمُ مَنْ عَمِلَ وَوَافَقَ عِلْمَهُ عَمَلُهُ، وسَيَكُونُ أَقْوَامٌ يَحْمِلُونَ الْعِلْمَ لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُم، تُخَالِفُ سَرِيْرَتُهُم عَلانِيَتَهُم، ويُخَالِفُ عَمَلُهُم عِلْمَهُم، يَقْعُدُونَ حِلَقاً، فَيُبَاهِي بَعْضُهُمْ بَعْضاً " [(٢)] .

وقَالَ عِيسَى عليه السلام :" يَا مَعْشَرَ الحَوَارِيِّيْنَ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ الدُّنيَا لا تَصْلُحُ إِلاَّ بِالْمِلْحِ، وَالطَّعَامُ لا يَطِيبُ إِلاَّ بِهِ، فَإِذَا فَسَدَ الْمِلْحُ فَسَدَ الطَّعَامُ وذَهَبَتْ مَنْفَعَتُهُ، وَكَذَلِكَ العُلَمَاءُ مِلْحُ الأَرضِ لا تَسْتَقِيمُ الأَرْضُ إِلاَّ بِهِم، وَإِذَا فَسَدَ العُلَمَاءُ فَسَدَتِ الأَرْضُ."، وقَالَ سُفيَانُ بنُ عُيَيْنَةَ رحمه الله:" إِذَا كُنْتَ فِي زَمَانٍ يُرْضَى فِيهِ بِالقَولِ دُونَ الفِعْلِ، وَبِالْعِلْمِ دُونَ الْعَمَلِ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ فِي شَرِّ زَمَانٍ وَبَينَ شَرِّ النَّاسِ " .

وَقَالَ بَعضُ عُلَمَاءِ السَّلَفِ:" مَا أَرَى أَنْ يُعَذِّبَ اللهُ هَذَا الْخَلْقَ إِلاَّ بِذُنُوبِ العُلَمَاءِ." قَالَ أَبُو عَبدِ اللهِ ابْنُ بَطَّةَ العَكْبَرِيُّ رحمه الله: ومَعْنَى ذَاكَ - واللهُ أَعْلَمُ - أَنَّ العَالِمَ إِذَا زَلَّ عَنِ الْمَحَجَّةِ وعَدَلَ عَنِ الْوَاضِحَةِ وآثَرَ مَا يَهْوَاهُ عَلَى مَا يَعْلَمُهُ، وسَامَحَ نَفْسَهُ فِيمَا تَدْعُوهُ إِلَيهِ، زَلَّ النَّاسُ بِزَلَلِـــهِ، وَانْهَمَكُوا مُسرِعِينَ فِي أَثَرِهِ، يَقْفُوْنَ مَسْلَكَهُ ويَسْلُكُونَ مَحَجَّتَهُ، وكَانَ مَا يَأْتُونَهُ وَيَرْتَكِبُونَهُ مِنَ الذُّنُوبِ وحَوْبَاتِ الْمَأْثَمِ بِحُجَّةٍ، وَعَلَى اتِّبَاعِ قُدْوَةٍ، فَلا تَجْرِي مَجْرَى الذُّنُوبِ الَّتِي تُمْحَى بِالاِسْتِغْفَارِ، وَمُرتَكِبُهَا بَيْنَ الوَجَلِ وَالاِنْكِسَارِ، فَالْمُقْتَدُونَ بِهِ فِيهَا كَالسَّفِينَةِ، إِذَا غَرِقَتْ غَرِقَ بِغَرَقِهَا خَلْقٌ كَثِيرٌ وَجَوهَرٌ خَطِيرٌ، أَضْعَافَ ثَمَنِهَا وقِيمَتِهَا بِأَضْعَافٍ مُضَاعَفَةٍ . واللهُ أَعْلَمُ " [(٣)] .

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٢٠٧٤٣) .

(٢) أخرجه الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» رقم (٣١) وابن عساكر (٥٠٩/٤٢) .

(٣) ذكر الأقوال السابقة ابن بطة العكبري في كتابه «إبطال الحيل» ص (١٣ - ٢٩) .

وَسُئِلَ الإِمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ طَلَبِ الْعِلْمِ، فَقَالَ: "**إِنَّ طَلَبَ الْعِلْمِ لَحَسَنٌ، وَلَكِنِ انْظُرِ الَّذِي يَلْزَمُكَ مِنْ حِينِ تُصْبِحُ حَتَّى تُمْسِيَ، وَمِنْ حِينِ تُمْسِي حَتَّى تُصْبِحَ فَالْزَمْهُ، وَلا تُؤْثِرَنَّ عَلَيْهِ شَيئاً** " [(١)] .

وسُئِلَ ابْنُ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ قَولِهِ ﷺ: "**طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيْضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**" أَيُّ شَيْءٍ تَفْسِيرُهُ ؟ فَقَالَ: "**لَيسَ هُوَ الَّذِي تَطْلُبُونَ، إِنَّمَا طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ أَنْ يَقَعَ الرَّجُلُ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ دِينِهِ، فَيَسْأَلَ عَنْهُ حَتَّى يَعْلَمَهُ.**" [(٢)]، وسُئِلَ أَحْمَدُ بْنُ عَطَاءٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ نَفْسِ الحَدِيثِ فَقَالَ: "**عِلْمُ الحَالِ وَعِلْمُ الوَقْتِ وَعِلْمُ السِّرِّ، فَمَنْ جَهِلَ وَقْتَهُ وَمَا عَلَيهِ فَقَدْ جَهِلَ العِلْمَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ.**"[(٣)]، وسُئِلَ ابنُ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ اللَّهُ: مَا الَّذِي يَجِبُ عَلَى النَّاسِ مِنْ تَعْلِيمِ العِلْمِ ؟ فَقَالَ: "**أَنْ لا يُقْدِمَ الرَّجُلُ عَلَى الشَّيْءِ إِلاَّ بِعِلْمٍ، يَسْأَلُ وَيَتَعَلَّمُ.**" [(٤)]، وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ :" **أَفْضَلُ العِلْمِ الوَرَعُ وَالتَّوَكُّلُ.**" [(٥)]، وَقَالَ الإِمَامُ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : "**لَيسَ الْعِلْمُ بِكَثْرَةِ الرِّوَايَةِ، وَلَكِنَّهُ نُورٌ يَجْعَلُهُ اللَّهُ فِي قَلْبِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ.**" [(٦)]، وفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: "**الْعِلْمُ وَالحِكْمَةُ نُورٌ يَهْدِيْ بِهِ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ، وَلَيسَ بِكَثْرَةِ الْمَسَائِلِ** "، وقِيلَ لأَحمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّ مَعْرُوفاً الْكَرْخِيَّ قَصِيرُ العِلْمِ، فَقَالَ: "**وَهَلْ يُرَادُ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ** "، وَسَأَلَهُ ابْنُهُ عَبدُ اللَّهِ: هَلْ كَانَ مَعَ مَعْرُوفٍ شَيْءٌ مِنَ الْعِلْمِ؟ فَقَالَ: "**يَا بُنَيَّ كَانَ مَعَهُ رَأْسُ العِلْمِ خَشْيَةُ اللَّهِ** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى " [(٧)]، وقَالَ إِبْرَاهِيمُ الخَوَّاصُ رَحِمَهُ اللَّهُ:" **لَيسَ الْعِلْمُ بِكَثْرَةِ الرِّوَايَةِ، إِنَّمَا العَالِمُ مَنِ اتَّبَعَ العِلْمَ وَاسْتَعْمَلَهُ وَاقْتَدَى بِالسُّنَنِ، وَإِنْ كَانَ قَلِيلَ الْعِلْمِ** " [(٨)] .

---

(١) «المدخل إلى السنن الكبرى» للبيهقي ص (٣٢٨) .
(٢) المصدر السابق ص (٣٢٨) .
(٣) «تاريخ بغداد» (٥/٢٧) .
(٤) «الفقيه والمتفقه» للخطيب البغدادي (٤٥) .
(٥) رواه أحمد بن حنبل في «الزهد» (١٥١٩) .
(٦) «مسند الموطأ» للحافظ أبي القاسم الجوهري (١/٣) .
(٧) «تاريخ بغداد» (١٣/٢٠٠ – ٢٠١) .
(٨) «شعب الإيمان» للبيهقي (١٨٢٣) .

وَتَحْصِيلُ هَذَا العِلْمِ لا يَتَأَتَّى لِلإنْسَانِ وَهُوَ بَينَ شَهَوَاتِهِ ومَحْبُوبَاتِهِ، بَلْ لا بُدَّ لَهُ مِنَ الْمُجَاهَدَةِ فِي تَحْصِيلِهِ ومُفَارَقَةِ مَحْبُوبَاتِهِ وتَحمُّلِ الصِّعَابِ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ، كَمَا أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَلِيلَهُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بذَلِكَ حِينَمَا أَرَادَ الاسْتِزَادَةَ مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَالتَّرَقِّي مِنْ عِلْمِ اليَقِينِ إلى عَيْنِ اليَقِينِ، وكَمَا أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَلِيمَهُ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يَرْحَلَ فِي طَلَبِ العِلْمِ الإِلَهِيِّ، وكَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩] . وَمِنْهَا سُبُلُ مَعْرِفَتِهِ ومَحَبَّتِهِ وتَوحِيْدِهِ .

وَالْقِسْمُ الثَّانِي: الْعِلْمُ الَّذِي عَلَى اللِّسَانِ وَهُوَ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى ابْنِ آدَمَ؛ وهُوَ الْعِلْمُ الَّذِيْ لَمْ يُسْبَقْ بالإِيْمَانِ، فَلا يَدْفَعُ صَاحِبَهُ عَلَى الْعَمَلِ وَالتَّبْلِيغِ، وَلا يُرَادُ بِهِ رِضْوَانُ اللَّهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ، وإِنَّمَا يُرَادُ بِهِ الْجَدَلُ وَالْفَخْرُ عَلَى الأَقْرَانِ [(١)]، أَوِ التَّوَصُّلُ إِلَى الدُّنْيَا مِنْ مَالٍ أَوْ جَاهٍ أَوْ وَظِيْفَةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، فَلَيْسَ هَذَا مِنْ زَادِ الآخِرَةِ، بَلْ إِنَّهُ يُعَجِّلُ بصَاحِبِهِ إلى دُخُولِ النَّارِ، وهَذَا هُوَ الَّذِيْ اسْتَعَاذَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْهُ، فَقَالَ:" **اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بكَ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ**."[(٢)]، وقَالَ مُعَاذُ بنُ جَبَلٍ رضي الله عنه: "**اعْلَمُوا مَا شِئتُمْ أَنْ تَعْلَمُوا، فَلَنْ يَأْجُرَكُمُ اللَّهُ بعِلْمٍ حَتَّى تَعْمَلُوا**." [(٣)]، وقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه:" **وَيْلٌ لِمَنْ لا يَعْلَمُ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَعَلَّمَهُ، ووَيْلٌ لِمَنْ يَعْلَمُ وَلا يَعْمَلُ سَبْعَ مَرَّاتٍ** " [(٤)] .

وقَالَ مَكْحُولٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: كَانَ رَجُلٌ يَسْأَلُ أَبَا الدَّرْدَاءِ فقَالَ:" **كُلُّ مَا تَسْأَلُ عَنْهُ تَعْمَلُ؟**" قَالَ: لا. قَالَ:" **فَمَا تَصْنَعُ بِزِيَادَةِ حُجَّةِ اللَّهِ عَلَيكَ** " [(٥)] .

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم في تفسيره (٣٢٧٦)، عن أم الفضل بن عباس رضي الله عنها، قالت: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" **لَيَظْهَرَنَّ الإِسْلامُ حَتَّى يُرَدَّ الْكُفْرُ إِلَى مَوطِنِهِ، وَلَتَخُوضُنَّ الْبِحَارَ بِالإِسْلامِ، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَتَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ وَيَقْرَؤُونَهُ، ثُمَّ يَقُولُونَ: قَدْ قَرَأْنَا الْقُرْآنَ، وَعَلِمْنَا فَمَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ خَيْرٌ مِنَّا ؟ فَهَلْ فِي أُولَئِكَ مِنْ خَيْرٍ ؟ ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: فَمَنْ أُولَئِكَ ؟ قَالَ: أُولَئِكَ مِنْكُمْ، وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ**". وانظر «تفسير ابن كثير» (١/٣٥٨) .

(٢) رواه مسلم عن زيد بن أرقم (٧٠٨١) .

(٣) رواه ابن المبارك في «الزهد»(٦٢) وأبو داود في «الزهد» (١٨٦) وقال فيه:" **فَلَنْ يَنْفَعَكُمُ اللَّهُ بِعِلْمٍ حَتَّى تَعْمَلُوا**."

(٤) رواه أحمد بن حنبل في «الزهد» (٨٢٣) .

(٥) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٦٥٩) .

وقَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ اللَّهُ :" **مِنْ عَقْلِ الرَّجُلِ أَنْ لا يَطْلُبَ الزِّيَادَةَ مِنَ الْعِلْمِ إلاَّ إذَا عَمِلَ بِمَا عَلِمَ، فَيَتَعَلَّمُ العِلْمَ كَيْ يَعْمَلَ بِهِ، إذِ الْعِلْمُ إنَّمَا يُطْلَبُ لِلْعَمَلِ**."، وقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبدِ الْعَزِيزِ رَحِمَهُ اللَّهُ: "**إنَّمَا قَصَّرَ بنَا عَنْ عِلْمِ مَا جَهِلْنَا تَقْصِيرُنَا فِي الْعَمَلِ بِمَا عَلِمْنَا، وَلَوْ عَمِلْنَا بِبَعْضِ مَا عَلِمْنَا لأُورِثْنَا عِلْمًا لا تَقُوم بِهِ أَبْدَانُنَا** " [(١)] .

فَأَوَّلُ مَا يُرفَعُ مِنَ العِلْمِ الْعِلْمُ النَّافِعُ الَّذِيْ يُخَالِطُ القُلُوبَ ويُصْلِحُهَا، وَيَبْقَى الَّذِيْ عَلَى اللِّسَانِ، فَيَتَهَاوَنُ النَّاسُ بِهِ، وَلا يَعْمَلُونَ بِمُقْتَضَاهُ، لا حَمَلَتُهُ ولا غَيْرُهُمْ، ثُمَّ يَذْهَبُ هَذَا العِلْمُ بِذَهَابِ حَمَلَتِهِ، فَلا يَبْقَى إلاَّ الْقُرْآنُ في الْمَصَاحِفِ، وَلَيسَ ثَمَّ مَنْ يَعْلَمُ مَعَانِيَهُ وَلا حُدُودَهُ وَلا أَحْكَامَهُ، ثُمَّ يُسرَى بِهِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ فَلا يَبْقَى فِي الْمَصَاحِفِ وَلا في الْقُلُوبِ مِنْهُ شَيْءٌ بِالْكُلِّيَّةِ [(٢)]، وَبَعْدَ ذَلِكَ تَقُومُ السَّاعَةُ [(٣)] .

فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُحْيِيَ الْعِلْمَ فَعَلَيْهِ أَنْ يُحْيِيَ الْعِلْمَ الَّذِي فِي الْقَلْبِ أَوَّلاً، كَمَا بَدَأَ النَّبيُّ ﷺ؛ قَالَ جُنْدُبُ بْنُ عَبدِ اللَّهِ رضي الله عنه:" **كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَنَحْنُ فِتيَانٌ حَزاوِرَةٌ** [(٤)]، **فَتَعَلَّمْنَا الإِيْمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ بَعْدُ، فَازدَدْنَا إيْمَاناً** " [(٥)] .

---

(١) «تفسير الثعلبي المسمى بالكشف والبيان» (٧/٢٩٠) .

(٢) أخرج الحاكم في المستدرك (٨٦٣٦) عَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **يَدْرُسُ الإِسْلامُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوبِ، لا يُدْرَى مَا صِيَامٌ وَلا صَدَقَةٌ وَلا نُسُكٌ؛ وَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي لَيلَةٍ فَلا يَبْقَى فِي الأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ، ويَبْقَى طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ، الشَّيْخُ الْكَبِيْرُ وَالْعَجُوزُ الْكَبِيرَةُ، يَقُولُونَ: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ، لا إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ، فَنَحْنُ نَقُولُهَا**." وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي . وأخرج الطبراني في الكبير (٨٧٠٠)، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، أَنَّهُ قَالَ:"**إنَّ أَوَّلَ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الأَمَانَةُ، وَآخَرَ مَا يَبْقَى مِنْ دِينِكُمُ الصَّلاةُ، وَلَيُصَلِّيَنَّ قَوْمٌ لا دِينَ لَهُمْ، وَلَيُنْتَزَعَنَّ الْقُرْآنُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِكُمْ**"، قَالُوا: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَلَسْنَا نَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَقَدْ أَثْبَتْنَاهُ فِي مَصَاحِفِنَا؟ قَالَ:" **يُسْرَى عَلَى الْقُرْآنِ لَيْلا فَيُذْهَبُ بِهِ مِنْ أَجْوَافِ الرِّجَالِ فَلا يَبْقَى فِي الأَرْضِ مِنْهُ شَيْءٌ**". وقال الهيثمي في المجمع: رواه الطبراني ورجاله الصحيح غير شداد بن معقل وهو ثقة .

(٣) جامع العلوم والحكم ص (٤١٧) .

(٤) حزاورة: جمع حَزْوَر أو حَزَوَّر، وهو مَنْ قَارَبَ البُلُوغَ .«النهاية لابن الأثير» (١/٩٥٢) .

(٥) رواه البيهقي في سننه برقم (٥٠٧٥) ورواه ابن ماجه برقم (٦١) قال في الزوائد: إسناد هذا الحديث صحيح ورجاله ثقات .

وعَنْ عَبدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ:" **كُنَّا إِذَا تَعَلَّمْنَا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ، لَمْ نَتَعَلَّمْ مِنَ الْعَشْرِ الَّتِي نَزَلَتْ بَعْدَهَا حَتَّى نَعْلَمَ مَا فِيهِ.**" قِيلَ لِشَرِيكٍ: مِنَ الْعَمِلِ ؟ قَالَ: نَعَمْ [١] .

وعَنْ عَبدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ:" **لَقَدْ عِشْنَا بُرْهَةً مِنْ دَهْرِنَا، وَأَحَدُنَا يُؤتَى الإِيْمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ، وَتَنْزِلُ السُّورَةُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ فَنَتَعَلَّمُ حَلالَهَا وَحَرَامَهَا، وَآمِرَهَا وَزَاجِرَهَا وَمَا يَنبَغِي أَنْ يَقِفَ عِندَهُ مِنهَا، كَمَا تَعَلَّمُونَ أَنتُمُ الْيَوْمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ لَقَدْ رَأَيْتُ الْيَوْمَ رِجَالاً يُؤتَى أَحَدُهُمُ الْقُرْآنَ قَبْلَ الإِيْمَانِ، فَيَقْرَأُ مَا بَيْنَ فَاتِحَتِهِ إِلى خَاتِمَتِهِ مَا يَدْرِي مَا آمِرُهُ وَلا زَاجِرُهُ، وَلا مَا يَنبَغِي أَنْ يَقِفَ عِندَهُ مِنْهُ، فَيَنثُرُهُ نَثْرَ الرَّمْلِ .**"[٢]، ومَكَثَ رضي الله عنه عَلَى سُورَةِ الْبَقَرَةِ ثَمَانِيَ سِنِينَ يَتَعَلَّمُهَا [٣]؛ وَعَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ: "**إِنَّا قَوْمٌ أُوتِينَا الإِيْمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ، وَإِنَّكُمْ قَوْمٌ أُوتِيتُمُ الْقُرْآنَ قَبْلَ أَنْ تُؤْتَوُا الإِيْمَانَ** " [٤] .

وقَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها : "**إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنهُ** - أَي الْقَرْآنِ - **سُورَةٌ مِنَ الْمُفَصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلى الإِسْلامِ نَزَلَ الْحَلالُ وَالْحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ. لَقَالُوا: لا نَدَعُ الْخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ: لا تَزْنُوا. لَقَالُوا: لا نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا** " [٥] .

وقَالَ الإِمَامُ ابْنُ تَيْمِيَةَ رحمه الله:" فَالْعَالِمُ تَارَةً يَأْمُرُ، وَتَارَةً يَنْهَى، وَتَارَةً يُبِيحُ، وَتَارَةً يَسْكُتُ عَنِ الأَمْرِ أَوِ النَّهْيِ أَوِ الإِبَاحَةِ، .. فَأَمَّا إِذَا كَانَ الْمَأْمُورُ وَالْمَنهِيُّ لا يَتَقَيَّدُ بِالْمُمْكِنِ إِمَّا لِجَهْلِهِ، وَإِمَّا لِظُلْمِهِ، وَلا يُمْكِنُ إِزَالَةُ جَهْلِهِ وَظُلْمِهِ، فَرُبَّمَا كَانَ الأَصْلَحُ الْكَفَّ وَالإِمْسَاكَ عَنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، كَمَا قِيلَ: **إِنَّ مِنْ الْمَسَائِلِ مَسَائِلَ جَوَابُهَا السُّكُوتُ؛**

---

(١) رواه البيهقي في سننه برقم (٥٠٧٢) .

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (١٠١) وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي . ورواه البيهقي في سننه برقم (٥٠٧٣) .

(٣) أخرجه مالك في الموطأ بلاغاً برقم (٦٩٥) .

(٤) رواه البيهقي في سننه برقم (٥٠٧٤) .

(٥) رواه البخاري عن عائشة في كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن برقم (٤٧٠٧) .

كَمَا سَكَتَ الشَّارِعُ فِي أَوَّلِ الأَمْرِ عَنِ الأَمْرِ بِأَشْيَاءَ وَالنَّهْيِ عَنْ أَشْيَاءَ حَتَّى عَلا الإِسْلامُ وَظَهَرَ، فَالْعَالِمُ فِي الْبَيَانِ وَالْبَلاغِ كَذَلِكَ، قَدْ يُؤَخِّرُ الْبَيَانَ وَالْبَلاغَ لأَشْيَاءَ إلى وَقْتِ التَّمَكُّنِ .. فَإِذَا حَصَلَ مَنْ يَقُومُ بالدِّينِ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَوِ الأُمَرَاءِ أَوْ مَجْمُوعِهِمَا، كَانَ بَيَانُهُ لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ شَيْئًا فَشَيْئًا بِمَنْزِلَةِ بَيَانِ الرَّسُولِ ﷺ لِمَا بُعِثَ بِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لا يُبَلِّغُ إلاَّ مَا أَمْكَنَ عِلْمُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ، وَلَمْ تَأْتِ الشَّرِيعَةُ جُمْلَةً، كَمَا يُقَالُ: "**إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُطَاعَ فَأْمُرْ بِمَا يُسْتَطَاعُ**"، فَكَذَلِكَ الْمُجَدِّدُ لِدِينِهِ وَالْمُحْيِي لِسُنَّتِهِ، لا يُبَلِّغُ إلاَّ مَا أَمْكَنَ عِلْمُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ، كَمَا أَنَّ الدَّاخِلَ فِي الإِسْلامِ لا يُمْكِنُ حِينَ دُخُولِهِ أَنْ يُلَقَّنَ جَمِيعَ شَرَائِعِهِ وَيُؤْمَرَ بِهَا كُلِّهَا. وَكَذَلِكَ التَّائِبُ مِنْ الذُّنُوبِ وَالْمُتَعَلِّمُ وَالْمُسْتَرْشِدُ لا يُمْكِنُ فِي أَوَّلِ الأَمْرِ أَنْ يُؤْمَرَ بِجَمِيعِ الدِّينِ وَيُذْكَرَ لَهُ جَمِيعُ الْعِلْمِ، فَإِنَّهُ لا يُطِيقُ ذَلِكَ، وَإِذَا لَمْ يُطِقْهُ لَمْ يَكُنْ وَاجِبًا عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْحَالِ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ وَاجِبًا لَمْ يَكُنْ لِلْعَالِمِ وَالأَمِيرِ أَنْ يُوجِبَهُ جَمِيعَهُ ابْتِدَاءً، بَلْ يَعْفُو عَنِ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ بِمَا لا يُمْكِنُ عِلْمُهُ وَعَمَلُهُ إلى وَقْتِ الإِمْكَانِ، كَمَا عَفَا الرَّسُولُ ﷺ عَمَّا عَفَا عَنْهُ إلى وَقْتِ بَيَانِهِ، وَلا يَكُونُ ذَلِكَ مِنْ بَابِ إِقْرَارِ الْمُحَرَّمَاتِ وَتَرْكِ الأَمْرِ بِالْوَاجِبَاتِ، لأَنَّ الْوُجُوبَ وَالتَّحْرِيمَ مَشْرُوطٌ بِإِمْكَانِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَقَدْ فَرَضْنَا انْتِفَاءَ هَذَا الشَّرْطِ؛ فَتَدَبَّرْ هَذَا الأَصْلَ فَإِنَّهُ نَافِعٌ "[(١)] .

قُلْتُ: فَكَمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَدَأَ بِالْجُهْدِ عَلَى قُلُوبِ النَّاسِ حَتَّى تَتَوَجَّهَ مِنَ الْمَخْلُوقِ إلى الْخَالِقِ وَمِنَ الأَسْبَابِ إلى الأَعْمَالِ وَمِنَ الدُّنْيَا إلى الآخِرَةِ، وَبَعْدَ هَذَا جَاءَ عِنْدَهُمُ الشَّوْقُ وَالرَّغْبَةُ لامْتِثَالِ أَوَامِرِ الله ﷻ وَالتَّضْحِيَةِ لإِحْيَائِهَا فِي النَّاسِ، فَكَذَلِكَ الدَّاعِي إلى الله ﷻ لا بُدَّ أَنْ يُرَكِّزَ عَلَى هَذِهِ الْمَحَاوِرِ الثَّلاثَةِ فِي دَعْوَتِهِ، لأَنَّهُ بِصَلاحِ هَذِهِ الأُمُورِ يَصْلُحُ دِينُ الْعَبْدِ وَتَصْلُحُ دُنْيَاهُ وَآخِرَتُهُ، كَمَا قَالَ ﷺ : "**صَلاحُ أُمَّتِي بِالزُّهْدِ وَالْيَقِيْنِ**". كَمَا أَنَّهُ لا بُدَّ أَنْ يَجْتَهِدَ لِتَكْوِينِ الْبِيْئَةِ الَّتِي تَصْلُحُ لِتَعَلُّمِ هَذَا الإِيْمَانِ، لأَنَّ بِيئَةَ الدُّنْيَا تَزِيدُ الإِنْسَانَ تَعَلُّقاً بِالْمَخْلُوقِ وَاعْتِنَاءً بِأَسْبَابِ التَّرَقِّي فِيهَا، فَلا تَصْلُحُ لإِصْلاحِ إِيْمَانِ الْعَبْدِ وَهِيَ مَنْ أَفْسَدَهُ؛ فَالنَّبِيُّ ﷺ كَوَّنَ الْبِيئَةَ الإِيْمَانِيَّةَ فِي مَكَّةَ فِي دَارِ الأَرْقَمِ بْنِ أَبِي الأَرْقَمِ، وَهَاجَرَ إلى

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٠/٣٥- ٣٦) .

الْمَدِينَةِ لِتَكْوِينِ الْبِيْئَةِ الَّتِي يُحْفَظُ فِيهَا الإِيْمَانُ ويَزْدَادُ، وَمِنهَا يَنْتَشِرُ، وَالدَّاعِيْ إلى الله كَذَلِكَ، يَجْتَهِدُ لِتَكْوِينِ هَذِهِ البِيْئَةِ ويَدْعُو النَّاسَ إِلَيْهَا، لِمَا لَهَا مِنْ أَثَرٍ فِي صَلاحِ القُلُوبِ وتَزْكِيَةِ النُّفُوسِ، فَكَمَا أَنَّ النَّاسَ يَتَأَثَّرُونَ مِنَ الْبَرْدِ وَالحَرِّ، كَذَلِكَ يَتَأَثَّرُونَ مِنْ بيئةِ الْفَسَادِ وَبِيئَةِ الإِصْلاحِ .

فَالرَّجُلُ الَّذِيْ قَتَلَ مِئَةَ نَفْسٍ كَانَ يَسْعَى لِلتَّوْبَةِ مِنَ الذُّنُوبِ، وَلَكِنَّ الظَّاهِرَ أَنَّ بِيْئَتَهُ فَاسِدَةٌ وَصُحْبَتَهُ فَاسِدَةٌ، فَكُلَّمَا نَوَى التَّوْبَةَ ذَكَّرَتْهُ الْبِيْئَةُ بِأَعْمَالِهِ السَّابِقَةِ، وَقَامَتِ الصُّحْبَةُ الفَاسِدَةُ بِتَذْكِيرِهِ بِأَفْعَالِهِ، فَسُرْعَانَ مَا يَرْجِعُ وَيَنْتَكِسُ، فَلِذَلِكَ لَمْ يَقُلْ لَهُ العَالِمُ: اجْلِسْ حَتَّى أُعَلِّمَكَ، لأَنَّهُ بِتَعْلِيمِهِ الإِيْمَانَ فِي بِيْئَةٍ مُخَالِفَةٍ لا يَكُونُ لَهُ إِلاَّ تَأْثِيرٌ لَحْظِيٌّ، ثُمَّ سُرْعَانَ مَا يَزُولُ أَثَرُهُ فِي بِيئَةِ الْفَسَادِ، بَلْ قَالَ لَهُ:" **انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ بِهَا أُنَاساً يَعْبُدُونَ الله، فَاعْبُدِ الله مَعَهُمْ، وَلا تَرْجِعْ إِلى أَرْضِكَ، فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ** " [(١)] .

فَدَلَّ هَذَا عَلَى فَضْلُ التَّحَوُّلِ مِنَ الأَرْضِ الَّتِي يُصِيبُ الإِنْسَانُ فِيهَا الْـمَعْصِيَةَ لِمَا يَغْلُبُ بِحُكْمِ الْعَادَةِ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ، إِمَّا لِتَذَكُّرِهِ لأَفْعَالِهِ الصَّادِرَةِ قَبْلَ ذَلِكَ وَالْفِتْنَةِ بِهَا، وَإِمَّا لِوُجُودِ مَنْ كَانَ يُعِيْنُهُ عَلَى ذَلِكَ وَيَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ لَهُ الأَخِيرُ – أَيِ الْعَالِمُ – وَلا تَرْجِعْ إِلى أَرْضِكَ، فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ؛ فَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلى أَنَّ التَّائِبَ يَنبَغِي لَهُ مُفَارَقَةُ الأَحْوَالِ الَّتِي اعْتَادَهَا فِي زَمَنِ الْـمَعْصِيَةِ، وَالتَّحَوُّلُ مِنهَا كُلِّهَا وَالاِشْتِغَالِ بِغَيْرِهَا [(٢)] .

فَالصُّحْبَةَ تُؤَثِّرُ عَلَى الإِنْسَانِ بِاكْتِسَابِ صِفَاتِ الْمُصَاحَبِ، لأَنَّ الطَّبْعَ يَسْرِقُ، وَالَّذِيْ تُجَالِسُهُ تُجَانسُهُ وتُؤَانسُهُ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ بَنِيْ جِنْسِكَ، كَمَا قَالَ ﷺ : "**الْفَخْرُ وَالْخُيَلاءُ فِي الْفَدَّادِينَ أَهْلِ الْوَبَرِ، وَالسَّكِينَةُ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ** " [(٣)]، فَإِذَا كَانَتْ مُجَالَسَةُ الْغَنَمِ وَالإِبِلِ وَالخَيْلِ تُؤَثِّرُ فِي الإِنْسَانِ بِالاِكْتِسَابِ مِنْ صِفَاتِهَا مَعَ انْعِدَامِ التَّجَانُسِ بَيْنَهُمَا، فَلَئِنْ تُؤَثِّرَ مُصَاحَبَتُهُ لِمَنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَجَانُسٌ مِنْ بَنِي جِنْسِهِ مِنْ بَابِ أَوْلَى .

---

(١) رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري برقم (٣٤٧٠) ومسلم برقم (٧١٨٤) .

(٢) «فتح الباري» (٦٣٣/٦) .

(٣) رواه البخاري عن أبي هريرة برقم (٣٤٩٩) ومسلم برقم (١٩٦) .

قَالَ الإمَامُ الغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ :" وَأَمَّا مُسَارَقَةُ الطَّبْعِ مِمَّا يُشَاهِدُهُ مِنْ أَخْلاقِ النَّاسِ وَأَعْمَالِهِم فَهُوَ دَاءٌ دَفِينٌ، قَلَّمَا يَتَنَبَّهُ لَهُ الْعُقَلاءُ فَضْلاً عَنِ الْغَافِلِينَ، فَلا يُجَالِسُ الإنْسَانُ فَاسِقاً مُدَّةً مَعَ كَوْنِهِ مُنْكِراً عَلَيْهِ فِي بَاطِنِهِ إلاَّ وَلَوْ قَاسَ نَفْسَهُ إلى مَا قَبْلَ مُجَالَسَتِهِ لأَدْرَكَ بَيْنَهُمَا تَفْرِقَةً فِي النَّفْرَةِ عَنِ الْفَسَادِ وَاسْتِثْقَالِهِ، إذْ يَصِيرُ الْفَسَادُ بِكَثْرَةِ الْمُشَاهَدَةِ هَيِّناً عَلَى الطَّبْعِ، فَيَسْقُطُ وَقْعُهُ وَاسْتِعْظَامُهُ لَهُ، وَإِنَّمَا الوَازِعُ عَنْهُ شِدَّةُ وَقْعِهِ فِي القَلْبِ، فَإِذَا صَارَ مُسْتَصْغَراً بِطُولِ الْمُشَاهَدَةِ أَوْشَكَ أَنْ تَنْحَلَّ الْقُوَّةُ الْوَازِعَةُ، ويُذْعِنَ الطَّبْعُ لِلمَيلِ إِلَيْهِ أَوْ لِمَا دُونَهُ، وَمَهْمَا طَالَتْ مُشَاهَدَتُهُ لِلْكَبَائِرِ مِنْ غُيرِهِ اسْتَحْقَرَ الصَّغَائِرَ مِنْ نَفْسِهِ، وَلِذَلِكَ يَزْدَرِي النَّاظِرُ إلى الأَغْنِيَاءِ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيهِ، فَتُؤَثِّرُ مُجَالَسَتُهُم فِي أَنْ يَسْتَصْغِرَ مَا عِنْدَهُ، وَتُؤَثِّرُ مُجَالَسَتُهُ الْفُقَرَاءَ فِي اسْتِعْظَامِ مَا أُتِيحَ لَهُ مِنَ النِّعَمِ، وَكَذَلِكَ النَّظَرُ إلى الْمُطِيعِينَ وَالعُصَاةِ هَذَا تَأْثِيرُهُ فِي الطَّبْعِ، فَمَنْ يَقْصُرْ نَظَرَهُ عَلَى مُلاحَظَةِ أَحْوَالِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فِي الْعِبَادَةِ وَالتَّنَزُّهِ عَنِ الدُّنيَا، فَلا يَزَالُ يَنْظُرُ إلى نَفْسِهِ بِعَيْنِ الاِسْتِصْغَارِ، وَإِلى عِبَادَتِهِ بِعَيْنِ الاِسْتِحْقَارِ، وَمَا دَامَ يَرَى نَفْسَهُ مُقَصِّراً فَلا يَخْلُوْ عَنْ دَاعِيَةِ الاِجْتِهَادِ رَغْبَةً فِي الاِسْتِكْمَالِ وَاسْتِتْمَاماً لِلاِقْتِدَاءِ، وَمَنْ نَظَرَ إلى الأَحْوَالِ الْغَالِبَةِ فِي أَهْلِ الزَّمَانِ وَإِعْرَاضِهِم عَنِ اللَّهِ، وَإِقْبَالِهِم عَلَى الدُّنيَا، وَاعْتِيَادِهِمُ الْمَعَاصِي اسْتَعْظَمَ أَمْرَ نَفْسِهِ بِأَدْنَى رَغْبَةٍ فِي الخَيرِ يُصَادِفُهَا فِي قَلْبِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْهَلاكُ، وَيَكْفِي فِي تَغَيُّرِ الطَّبْعِ مُجَرَّدُ سَمَاعِ الخَيرِ والشَّرِّ فَضْلاً عَنْ مُشَاهَدَتِهِ ..

وَمَبْدَأُ الرَّحمَةِ فِعْلُ الخَيرِ، وَمَبْدَأُ فِعْلِ الخَيرِ الرَّغْبَةُ، وَمَبْدَأُ الرَّغْبَةِ ذِكْرُ أَحْوَالِ الصَّالِحِينَ، فَهَذَا مَعْنَى نُزُولِ الرَّحمَةِ – يَعْنِي عِنْدَ ذِكْرِ الصَّالِحِينَ – وَالْمَفْهُومُ مِنْ فَحْوَى هَذَا الْكَلامِ كَالْمَفْهُومِ مِنْ عَكْسِهِ، وَهُوَ أَنَّ عِنْدَ ذِكْرِ الفَاسِقِينَ تَنْزِلُ اللَّعْنَةُ، لأَنَّ كَثْرَةَ ذِكْرِهِم تُهَوِّنُ عَلَى الطَّبعِ أَمْرَ الْمَعَاصِي، وَاللَّعْنَةُ هِيَ البُعْدُ، وَمَبْدَأُ البُعْدِ مِنَ اللَّهِ هُوَ الْمَعَاصِي وَالإعْرَاضُ عَنِ اللَّهِ بِالإقْبَالِ عَلَى الحُظُوظِ الْعَاجِلَةِ وَالشَّهَوَاتِ الحَاضِرَةِ لا عَلَى الْوَجهِ الْمَشْرُوعِ، وَمَبْدَأُ الْمَعَاصِي سُقُوطُ ثِقَلِهَا وَتَفَاحُشِهَا عَنِ الْقَلْبِ، وَمَبْدَأُ سُقُوطِ الثِقَلِ وُقُوعُ الأُنْسِ بِهَا بِكَثْرَةِ السَّمَاعِ، وَإِذَا كَانَ هَذَا حَالَ ذِكْرِ الصَّالِحِينَ وَالْفَاسِقِينَ فَمَا ظَنُّكَ بِمُشَاهَدَتِهِم؟ بَلْ قَدْ صَرَّحَ بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَيْثُ قَالَ: " **مَثَلُ الْجَلِيْسِ السُّوْءِ كَمَثَلِ الْكِيْرِ إِنْ لَمْ**

يُحرِّقْكَ بشَرَرِهِ عَلِقَ بكَ مِنْ رِيْحِهِ" (١)، فَكَمَا أَنَّ الرِّيحَ يَعْلَقُ بالثَّوب وَلا يَشْعُرُ بِهِ، فَكَذَلِكَ يَسْهُلُ الْفَسَادُ عَلَى القَلْبِ وَهُوَ لا يَشْعُرُ بِهِ، وَقَالَ:" **مَثَلُ الْجَلِيْسِ الصَّالِحِ مَثَلُ صَاحِبِ الْمِسْكِ، إنْ لَمْ يَهَبْ لَكَ مِنْهُ، تَجِدْ رِيْحَهُ"**، ومِمَّا يَدُلُّ عَلَى سُقُوطِ وَقْعِ الشَّيْءِ عَنِ الْقَلْبِ بِسَبَبِ تَكَرُّرِهِ وَمُشَاهَدَتِهِ أَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ إِذَا رَأَوْا مُسْلِماً أَفْطَرَ فِي نَهَارِ رَمَضَانَ اسْتَبْعَدُوا ذَلِكَ مِنْهُ اسْتِبْعَاداً يَكَادُ يُفْضِي إلى اعْتِقَادِهِم كُفْرَهُ، وَقَد يُشَاهِدُونَ مَنْ يُخْرِجُ الصَّلَوَاتِ عَنْ أَوْقَاتِهَا وَلا تَنْفِرُ عَنْهُ طِبَاعُهُم كَنَفْرَتِهِم عَنْ تَأْخِيرِ الصَّومِ، مَعَ أَنَّ صَلاةً وَاحِدَةً يَقْتَضِي تَرْكُهَا الْكُفْرَ عِنْدَ قَومٍ وَحَزَّ الرَّقَبَةِ عِنْدَ قَومٍ، وَتَرْكَ صَومِ رَمَضَانَ كُلِّهِ لا يَقْتَضِي ذَلِكَ، وَلا سَبَبَ لَهُ إلاَّ أَنَّ الصَّلاةَ تَتَكَرَّرُ، وَالتَّسَاهُلَ فِيهَا مِمَّا يَكْثُرُ، فَيَسْقُطُ وَقْعُهَا بِالْمُشَاهَدَةِ عَنِ الْقَلْبِ .

وَلِذَلِكَ لَوْ لَبِسَ الفَقِيهُ ثَوْباً مِنْ حَرِيرٍ أَوْ خَاتَماً مِنْ ذَهَبٍ أَوْ شَرِبَ مِنْ إِنَاءِ فِضَّةٍ اسْتَبْعَدَتْهُ النُّفُوسُ، وَاشْتَدَّ إِنْكَارُهَا، وَقَدْ يُشَاهَدُ فِي مَجْلِسٍ طَوِيلٍ لا يَتَكَلَّمُ إلاَّ بِمَا هُوَ اغْتِيَابٌ لِلنَّاسِ، وَلا يُسْتَبْعَدُ مِنْهُ ذَلِكَ، وَالْغِيْبَةُ أَشَدُّ مِنَ الزِّنَا، فَكَيفَ لا تَكُونُ أَشَدَّ مِنْ لُبْسِ الحَرِيرِ ؟! وَلَكِنْ كَثْرَةُ سَمَاعِ الْغِيْبَةِ ومُشَاهَدَةِ الْمُغْتَابِينَ أَسْقَطَ وَقْعَهَا عَنِ الْقُلُوبِ، وَهَوَّنَ عَلَى النَّفْسِ أَمْرَهَا، فَتَفَطَّنْ لِهَذِهِ الدَّقَائِقِ، وَفِرَّ مِنَ النَّاسِ فِرَارَكَ مِنَ الأَسَدِ، لأَنَّكَ لا تُشَاهِدُ مِنْهُم إلاَّ مَا يَزِيدُ فِي حِرْصِكَ عَلَى الدُّنيَا وَغَفْلَتِكَ عَنِ الآخِرَةِ، ويُهَوِّنُ عَلَيكَ الْمَعْصِيَةَ، وَيُضْعِفُ رَغْبَتَكَ فِي الطَّاعَةِ .

---

(١) رواه البخاري عن أبي موسى الأشعري برقم (٢١٠١) و(٥٥٣٤) ومسلم برقم (٦٨٦٠) ولفظه "**إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالجَلِيسِ السَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ؛ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنهُ رِيْحاً طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيْحاً خَبِيثَةً**". ولفظ المؤلف روى بنحوه ابن حبان في صحيحه برقم (٥٧٩) .

فَإِنْ وَجَدْتَ جَلِيساً يُذَكِّرُكَ اللَّهَ رُؤْيَتُهُ وَسِيرَتُهُ فَالْزَمْهُ وَلا تُفارِقْهُ، وَاغْتَنِمْهُ وَلا تَسْتَحْقِرْهُ، فَإِنَّهَا غَنِيْمَةُ الْعَاقِلِ وَضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، وَتَحَقَّقْ أَنَّ الجَلِيسَ الصَّالِحَ خَيرٌ مِنَ الْوِحْدَةِ، وَأَنَّ الْوِحْدَةَ خَيرٌ مِنَ الجَلِيسِ السُّوْءِ (١) " (٢) .

وقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأَمَّا الْحَرِيْصُ عَلَى الدُّنْيَا فَصُحْبَتُهُ سُمٌّ قَاتِلٌ، لأَنَّ الطِّبَاعَ مَجْبُولَةٌ عَلَى التَّشَبُّهِ وَالاقْتِدَاءِ، بَلِ الطَّبْعُ يَسْرِقُ مِنَ الطَّبْعِ مِنْ حَيثُ لا يَدْرِيْ صَاحِبُهُ، فَمُجَالَسَةُ الْحَرِيْصِ عَلَى الدُّنْيَا تُحَرِّكُ الْحِرْصَ، ومُجَالَسَةُ الزَّاهِدِ تُزَهِّدُ فِي الدُّنْيَا، فَلِذَلِكَ تُكْرَهُ صُحْبَةُ طُلاَّبِ الدُّنْيَا، وتُسْتَحَبُّ صُحْبَةُ الرَّاغِبِينَ فِي الآخِرَةِ ؛ قَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه: **"أَحْيُوا الطَّاعَاتِ بِمُجَالَسَةِ مَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ "** (٣) .

وَلا يُغْتَرَّ بِاعْتِقَادِ أَنَّ مُجَرَّدَ الْعِلْمِ بِمَا ذَكَرْنَا كَافٍ فِي حُصُولِ الْمَقْصُودِ، بَلْ لا بُدَّ أَنْ يُضِيْفَ إِلَيْهِ بَذْلَ الجُهْدِ فِي اسْتِعْمَالِهِ، وَاسْتِفْرَاغَ الْوُسْعِ وَالطَّاقَةِ فِيهِ؛ وَمِلاكُ ذَلِكَ الخُرُوجُ عَنِ الْعَوَائِدِ، فَإِنَّهَا أَعْدَاءُ الْكَمَالِ وَالْفَلاحِ، فَلا أَفْلَحَ مَنِ اسْتَمَرَّ عَلَى عَوَائِدِهِ أَبَداً، وَيَسْتَعِينُ عَلَى الخُرُوجِ عَنِ الْعَوَائِدِ بِالهَرَبِ عَنْ مَظَانِّ الْفِتْنَةِ وَالْبُعْدِ مِنْهَا (٤) .

فَلِذَلِكَ كَانَ لِزَاماً عَلَى دُعَاةِ الخَيْرِ وَخُلَفَاءِ الرَّسُولِ ﷺ وَنُوَّابِهِ فِي الدَّعْوَةِ أَنْ يَقُومُوا بِتَكْوِينِ الْبِيْئَاتِ الصَّالِحَةِ الَّتِي يَسْهُلُ فِيْهَا فَهْمُ الدِّيْنِ وَتَعَلُّمُهُ عَمَلِيّاً وَالاسْتِقَامَةُ وَالثَّبَاتُ عَلَيْهِ وَدَعْوَةُ النَّاسِ إِلَيْهِ وَإِقَامَتُهُمْ عَلَيهِ، كَمَا كَانَ يَفْعَلُ النَّبِيُّ ﷺ ، وَهَذَا لا يَكُونُ إِلاَّ بِمُفَارَقَةِ بِيْئَاتِ الْفَسَادِ وَتَرْكِهَا مُؤَقَّتاً، وَالْمُكْثِ فِي بِيْئَةِ الإِصْلاحِ حَتَّى يَصْلُحَ الْقَلْبُ وَتَسْتَقِيمَ الجَوَارِحُ عَلَى الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَيَأْخُذَ مَنَاعَةً ضِدَّ الفَسَادِ، وَذَلِكَ بِتَعَلُّمِ أَسَالِيْبِ

---

(١) أخرج الحاكم في المستدرك (٥٤٦٦) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٩٩٣) عن أبي ذر قَالَ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " **الْوِحْدَةُ خَيْرٌ مِنْ جَلِيسِ السُّوءِ، وَالْجَلِيسُ الصَّالِحُ خَيْرٌ مِنَ الْوِحْدَةِ، وَإِمْلاءُ الْخَيْرِ خَيْرٌ مِنَ السُّكُوتِ، وَالسُّكُوتُ خَيْرٌ مِنْ إِمْلاءِ الشَّرِّ.**" قال ابن حجر في «فتح الباري»: سنده حسن، لكن المحفوظ أنه موقوف على أبي ذر .

(٢) «إحياء علوم الدين» (٣٢٨/٢-٣٣٠) .

(٣) المصدر السابق (٢٤٥/٢) .

(٤) «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» لابن القيم ص (١١٣) .

الدَّعْوَةِ وَمَعْرِفَةِ مَدَاخِلِ الشَّيْطَانِ، ثُمَّ يَسْعَى لِتَكْوِينِ الْبِيْئَةِ الصَّالِحَةِ أَيْنَمَا حَلَّ وَارْتَحَلَ، وَبِهَذَا تَتَكَوَّنُ الْبِيْئَةُ الإِيْمَانِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ فِي زَمَنِ خَيْرِ الْقُرُونِ، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ وَالهَادِيْ إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

*****

الْحَدِيْثُ الرَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: "**مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى يَرْجِعَ** " (١) .

قوله (**مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ**) أَيْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ أَوْ بَلَدِهِ لَيسَ لَهُ مَقْصَدٌ إلاَّ طَلَبُ الْعِلْمِ الشَّرعِيِّ الَّذِي يُقَرِّبُهُ مِنَ اللَّهِ عز وجل ويَنْصَحُ بِهِ لِلْمُسْلِمِينَ ويُحْيِي بِهِ الدِّينَ .

وفِيهِ تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ العِلْمَ لا يُتَحَصَّلُ عَلَيهِ بالرَّاحَةِ والجُلُوسِ، بَلْ لا بُدَّ لَهُ مِنَ الخُرُوجِ ومُفَارَقَةِ الْمَحْبُوبَاتِ؛ فَقَدْ كَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ يَرْحَلُونَ فِي طَلَبِ حَدِيثٍ وَاحِدٍ أَيَّاماً وأَشْهُراً، كَمَا رَحَلَ جَابِرُ بْنُ عبدِ اللَّهِ رضي الله عنهما إلى عَبدِ اللَّهِ بْنِ أُنَيْسٍ رضي الله عنه مَسِيْرَةَ شَهْرٍ فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ (٢)؛ وخَرَجَ أَبُو أَيُّوبَ الأَنْصَارِيُّ رضي الله عنه مِنَ الْمَدِينَةِ إلى مِصْرَ لِيَسْمَعَ حَدِيْثاً وَاحِداً مِنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه كَانَا قَدْ سَمِعَاهُ مِنَ النَّبيِّ ﷺ، فَأَرَادَ أَبُو أَيُّوبَ رضي الله عنه أَنْ يَتَثَبَّتَ مِنْ حِفْظِهِ (٣) . وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ أَنَّ رَجُلاً مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ رَحَلَ إلى فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ وَهُوَ بِمِصْرَ، فَقَدِمَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَمُدُّ نَاقَةً لَهُ – أَيْ يَسْقِيهَا مَدِيداً مِنَ الْمَاءِ –، فَقَالَ:" إِنِّي لَمْ آتِكَ زَائِرًا إِنَّمَا أَتَيْتُكَ لِحَدِيثٍ بَلَغَنِي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَكَ مِنْهُ عِلْمٌ." (٤)؛ وعَنْ كَثِيرِ بْنِ قَيْسٍ رحمه الله قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ أَبِي الدَّرْدَاءِ فِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ، فَجَاءَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ إِنِّي جِئْتُكَ مِنْ مَدِينَةِ الرَّسُولِ ﷺ لِحَدِيثٍ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مَا جِئْتُ لِحَاجَةٍ (٥) .

---

(١) رواه الترمذي برقم (٢٦٤٧) والطبراني في الأوسط (٣٨٠) واللفظ له، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٢) رواه أحمد في مسنده (١٦٠٤٢) وذكره البخاري تعليقاً في باب الخروج في طلب العلم، ثم ذكر بعده حديث خروج موسى عليه السلام في طلب العلم، وأخرجه في «الأدب المفرد» (٩٧٠) وقال المنذري في الترغيب: رواه أحمد بإسناد حسن، والحاكم في المستدرك (٣٦٣٨) وصححه ووافقه الذهبي .

(٣) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٥٦٧) والخطيب في «الرحلة في طلب العلم»(١٢٠) بسند صحيح

(٤) رواه أحمد في مسنده (٢٣٩٦٩) وأبو داوود في سننه (٤١٦٢) وإسناده صحيح .

(٥) رواه أبو داوود في سننه (٣٦٤٣) وابن ماجه (٢٢٣) وإسناده جيد .

وقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ رَحِمَهُ اللَّهُ :" **إنْ كُنْتُ لأَرْحَلُ الأَيَّامَ وَاللَّيَالِيَ فِي طَلَبِ الْحَدِيْثِ الْوَاحِدِ.**" [(١)]، وقَالَ يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:" **لا يُسْتَطَاعُ الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجِسْمِ** " [(٢)] .

وقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه:" **لَوْ أَعْلَمُ أَحَداً أَعْلَمَ بِكِتَابِ اللَّهِ مِنِّيْ تَبْلُغُهُ الإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ .**"[(٣)]، وعَنْ عُبَيدِ اللَّهِ بْنِ عَدِيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ:" **بَلَغَنِي حَدِيثٌ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِب** رضي الله عنه **فَخِفْتُ إِنْ مَاتَ أَنْ لا أَجِدَهُ عِنْدَ غَيْرِهِ، فَرَحَلْتُ حَتَّى قَدِمْتُ عَلَيْهِ الْعِرَاقَ.**" [(٤)]، وقِيلَ لأَحْمَدَ بْنِ حَنبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: رَجُلٌ يَطْلُبُ العِلْمَ يَلْزَمُ رَجُلاً عِندَهُ عِلْمٌ كَثِيرٌ، أَوْ يَرْحَلُ؟ قَالَ:" **يَرْحَلُ، يَكْتُبُ عَنْ عُلَمَاءِ الأَمْصَارِ، فَيُشَافِهُ النَّاسَ، وَيَتَعَلَّمُ مِنهُمْ** " [(٥)] .

قوله (**فِي طَلَبِ الْعِلْمِ**) أَي الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ، سَوَاءٌ خَرَجَ لِتَعَلُّمِ مَا هُوَ فَرْضُ عَيْنٍ عَلَيهِ، كَالإِيْمَانِ بِاللهِ وَخَشْيَتِهِ ومَحَبَّتِهِ ورَجَائِهِ ومُرَاقَبَتِهِ، ولِتَعَلُّمِ الأَحْكَامِ اللاَّزِمَةِ لَهُ فِي دِيْنِهِ، أَوْ خَرَجَ لِتَعَلُّمِ مَا هُوَ فَرْضُ كِفَايَةٍ، كَالْفِقْهِ وَالحَدِيثِ وَالتَّفْسِيرِ حَالَ سُقُوطِ الْكِفَايَةِ بِغَيْرِهِ، وسَوَاءٌ كَانَ الْقَدْرُ الَّذِي يَتَعَلَّمُهُ كَثِيراً أَوْ قَلِيلاً، كَمَا قَالَ الشَّعْبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:" **لَوْ أَنَّ رَجُلاً سَافَرَ مِنْ أَقْصَى الشَّامِ إِلَى أَقْصَى الْيَمَنِ لِيَسْمَعَ كَلِمَةَ حِكْمَةٍ مَا رَأَيْتُ سَفَرَهُ ضَاعَ** "[(٦)].

قوله (**فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى يَرْجِعَ**) أَيْ فِي الجِهَادِ، لِمَا فِي طَلَبِ العِلْمِ مِنْ إِحْيَاءِ الدِّيْنِ وإِذْلالِ الشَّيْطَانِ وإِتْعَابِ النَّفْسِ كَمَا فِي الجهادِ [(٧)] .

---

(١) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٥٦٩) والخطيب في «الرحلة» (٤٤) بسند صحيح. وانظر «فتح الباري» (١/٢٣٠) .

(٢) رواه مسلم برقم (١٤٢١) .

(٣) رواه مسلم برقم (٦١٢) .

(٤) رواه الخطيب في «الرحلة» (٤٥) وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٨/٤٦) .

(٥) «فتح الباري» (١/٢٣٠) .

(٦) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» برقم (٥٧٨) ورواه أبو نعيم في «الحلية» (٤/٣١٣).

(٧) «تحفة الأحوذي» (٧/٦١) .

مَعْنَى الْحَدِيْثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ

يُبَيِّنُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ أَوْ بَلَدِهِ لأَجْلِ طَلَبِ الْعِلْمِ الَّذِي يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنَّهُ يَكُونُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الَّذِي يَتَكَفَّلُ بِتَيْسِيرِ أُمُورِهِ وإِعَانَتِهِ عَلَى الوُصُولِ إِلَى غَايَتِهِ، فَإِنْ مَاتَ فِي هَذَا السَّبِيلِ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وكَانَ لَهُ أَجْرُ شَهِيْدٍ، لِقَوْلِهِ ﷺ : **"وَمَنْ مَاتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيْدٌ "** [(١)] .

فَائِـــــــدَة

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ :" وَإِنَّمَا جُعِلَ طَلَبُ الْعِلْمِ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ لأَنَّ بِهِ قِوَامَ الإِسْلامِ كَمَا أَنَّ قِوَامَهُ بِالجِهَادِ، فَقِوَامُ الدِّينِ بِالْعِلْمِ وَالجِهَادِ، وَلِهَذَا كَانَ الجِهَادُ نَوْعَيْنِ :

جِهَادٌ بِالْيَدِ وَالسِّنَانِ، وَهَذَا الْمُشَارِكُ فِيهِ كَثِيرٌ .

وَالثَّانِي الْجِهَادُ بِالْحُجَّةِ وَالْبَيَانِ، وَهَذَا جِهَادُ الْخَاصَّةِ مِنْ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ، وَهُوَ جِهَادُ الأَئِمَّةِ، وَهُوَ أَفْضَلُ الجِهَادَيْنِ لِعِظَمِ مَنْفَعَتِهِ وَشِدَّةِ مُؤْنَتِهِ وكَثْرَةِ أَعْدَائِهِ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ، وَهِيَ مَكِّيَّةٌ: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ **[الفرقان: ٥١-٥٢]**، فَهَذَا جِهَادٌ لَهُمْ بِالْقُرْآنِ، وَهُوَ أَكْبَرُ الجِهَادَيْنِ .

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ سَبِيلَ اللَّهِ هِيَ الجِهَادُ وطَلَبُ الْعِلْمِ ودَعْوَةُ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ ، .. وطَلَبُ العِلْمِ وَتَعْلِيمُهُ مِنْ أَعْظَمِ سَبِيلِ اللَّهِ، قَالَ كَعْبُ الأَحْبَارِ رَحِمَهُ اللَّهُ:" **طَالِبُ الْعِلْمِ كَالْغَادِيْ الرَّائِحِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ**."[(٢)]، وَجَاءَ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:" **إِذَا جَاءَ الْمَوْتُ طَالِبَ**

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة برقم (١٩١٥) .

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/٣٧٧) .

الْعِلْمِ وَهُوَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ مَاتَ شَهِيْداً ."[(١)]، وقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ:" **مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ فَقَدْ بَايَعَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ**."، وقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:" **مَنْ رَأَى الْغُدُوَّ وَالرَّوَاحَ إلى الْعِلْمِ لَيْسَ بِجِهَادٍ فَقَدْ نَقَصَ عَقْلُهُ وَرَأْيُهُ** ."[(٢)(٣)]، وَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:" **مَا مِنْ أَحَدٍ يَغْدُوْ إلى الْمَسْجِدِ لِخَيْرٍ يَتَعَلَّمُهُ أَوْ يُعَلِّمُهُ إِلاَّ كُتِبَ لَهُ أَجْرُ مُجَاهِدٍ لا يَنْقَلِبُ إِلاَّ غَانِماً** " [(٤)] .

"وَحَاجَةُ الْعِبَادِ إلى العِلْمِ ضَرُورِيَّةٌ فَوقَ حَاجَةِ الجِسْمِ إلى الْغِذَاءِ، لأَنَّ الجِسْمَ يَحْتَاجُ إلى الْغِذَاءِ فِي الْيَومِ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ، وَحَاجَةُ الإِنْسَانِ إلى الْعِلْمِ بِعَدَدِ الأَنْفَاسِ، لأَنَّ كُلَّ نَفَسٍ مِنْ أَنْفَاسِهِ فَهُوَ مُحْتَاجٌ فِيهِ إلى أَنْ يَكُونَ مُصَاحِباً لإِيْمَانٍ وَحِكْمَةٍ، فَإِنْ فَارَقَهُ الإِيْمَانُ أَوِ الْحِكْمَةُ فِي نَفَسٍ مِنْ أَنْفَاسِهِ فَقَدْ عَطِبَ وَقَرُبَ هَلاكُهُ، ولَيْسَ إلى حُصُولِ ذَلِكَ سَبِيلٌ إِلاَّ بِالْعِلْمِ، فَالحَاجَةُ إِلَيْهِ فَوْقَ الحَاجَةِ إلى الطَّعَامِ والشَّرَابِ، وَقَدْ ذَكَرَ الإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ هَذَا الْمَعْنَى بِعَيْنِهِ فَقَالَ:" **النَّاسُ أَحْوَجُ إلى الْعِلْمِ مِنهُمْ إلى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، لأَنَّ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ يُحتَاجُ إِلَيْهِ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ، وَالْعِلْمَ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ** " .

كَمَا أَنَّ صَاحِبَ الْعِلْمِ أَقَلُّ تَعَباً وأَكْثَرُ أَجْراً، وَاعْتَبِرْ هَذَا بِالشَّاهِدِ، فَإِنَّ الصُّنَّاعَ وَالأُجَرَاءَ يُعَانُونَ الأَعْمَالَ الشَّاقَّةَ بِأَنْفُسِهِمْ، وَالأُسْتَاذَ الْمُعَلِّمَ يأمُرُهُم ويَنْهَاهُمْ ويُرِيْهِمْ كَيْفِيَّةَ العَمَلِ، ويَأْخُذُ أَضْعَافَ مَا يَأْخُذُونَهُ، وَقَدْ أَشَارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى هَذَا الْمَعْنَى حَيْثُ قَالَ: "**أَفْضَلُ الأَعْمَالِ الإِيْمَانُ بِاللهِ ثُمَّ الْجِهَادُ** " [(٥)]. فَالجِهَادُ فِيهِ بَذْلُ النَّفْسِ وغَايَةُ الْمَشَقَّةِ،

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» عن أبي هريرة وأبي ذر مرفوعاً (٨٥) و(١٦٢) و(٣٨٠) والخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (٥٠) وقال ابن عبد البر: في إسناده اضطراب؛ لأن منهم من يجعله عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس، ومنهم من يجعله عن سعيد عن أبي هريرة، وأبي ذر، ومنهم من يرسله عن سعيد، والفضائل تُرْوَى عن كُلِّ أَحَدٍ، والحُجَّةُ من جهَةِ الإسناد إنما تُتَقَصَّى في الأَحكَامِ وفي الحلال والحرام .

(٢) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٥٩) .

(٣) «مفتاح دار السعادة» (٩١/١، ٩٢) .

(٤) أخرجه أحمد في «الزهد» (٧٦٠) وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٦١) .

(٥) رواه البخاري عن أبي هريرة (١٥١٩) ومسلم (٢٥٨) بلفظ: سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:" **إِيْمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ**" قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ:"**جِهَادٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**" قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ:"**حَجٌّ مَبْرُورٌ**" .

وَالإِيْمَانُ عِلْمُ القَلْبِ وَعَمَلُهُ وتَصْدِيقُهُ، وهُوَ أَفْضَلُ الأَعْمَالِ، مَعَ أَنَّ مَشَقَّةَ الجِهَادِ فَوْقَ مشقَّتِهِ بأَضْعَافٍ مُضَاعَفَةٍ، وهَذَا لأَنَّ العِلْمَ يُعَرِّفُ مَقَادِيرَ الأَعْمَالِ وَمَرَاتِبَهَا، وفَاضِلَهَا ومَفْضُولَهَا، وراجحَهَا ومَرْجُوحَهَا، فَصَاحِبُهُ لا يَخْتَارُ لِنَفْسِهِ إِلاَّ أَفْضَلَ الأَعْمَالِ، وَالعَامِلُ بلا عِلْمٍ يَظُنُّ أَنَّ الفَضِيلَةَ فِي كَثْرَةِ الْمَشَقَّةِ، فَهُوَ يَتَحَمَّلُ الْمَشَاقَّ وإِنْ كَانَ مَا يُعَانِيهِ مَفْضُولاً، وَرُبَّ عَمَلٍ فَاضِلٍ والْمَفْضُولُ أَكْثَرُ مَشَقَّةً مِنهُ، وَاعْتَبِرْ هَذَا بحَالِ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه، فَإِنَّهُ أَفْضَلُ الأُمَّةِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ فِيهِمْ مَنْ هُوَ أَكْثَرُ عَمَلاً وحَجّاً وصَوْماً وصَلاةً وقِرَاءَةً مِنْهُ، قَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ رحمه الله: "**مَا سَبَقَكُمْ أَبُو بَكْرٍ بِكَثْرَةِ صَوْمٍ ولا صَلاةٍ، ولَكِنْ بِشَيْءٍ وَقَرَ فِي قَلْبِهِ.**"، وَهَذَا مَوضُوعُ الْمَثَلِ الْمَشْهُورِ :

مَـــنْ لِـــيْ بِمِثْلِ سَـــيْرِكَ الْمُـــدَلَّلِ   تَمْشِيْ رُوَيْـــداً وَتَجِـــيْءُ فِيْ الأَوَّلِ[1]

وَصِفَاتُ الْكَمَالِ كُلُّهَا تَرجعُ إِلَى الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ والإِرَادَةِ؛ وَالإِرَادَةُ فَرْعُ العِلْمِ، وَالنَّقْصُ كُلُّهُ يَعُودُ إِلَى عَدَمِ الْعِلْمِ وَالْعَزِيْمَةِ، وَالْكَمَالُ كُلُّهُ إِلَى الْعِلْمِ وَالْعَزِيْمَةِ، وَالنَّاسُ فِي هَذَا أَرْبَعَةُ أَضْرُبٍ :

الضَّرْبُ الأَوَّلُ: مَنْ رُزِقَ عِلْماً وَأُعِيْنَ عَلَى ذَلِكَ بِقُوَّةِ الْعَزِيْمَةِ عَلَى العَمَلِ، وَهَذَا الضَّرْبُ خُلاصَةُ الخَلْقِ، وَهُمُ الْمَوْصُوفُونَ فِي القُرْآنِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ **[الكهف: ١٠٧]**، وقَولِهِ: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ **[ص: ٤٥]**، وبِقَولِهِ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ **[الأنعام: ١٢٢]**، فبِالْحَيَاةِ تُنَالُ الْعَزِيْمَةُ، وبِالنُّورِ يُنَالُ العِلْمُ، وأَئِمَّةُ هَذَا الضَّرْبِ هُمْ أُوْلُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ .

الضَّرْبُ الثَّانِيْ: مَنْ حُرِمَ هَذَا وَهَذَا، وَهُمُ الْمَوْصُوفُونَ بِقَولِهِ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ **[الانفال: ٢٢]**، وبِقَولِهِ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ

---

(١) مفتاح دار السعادة» (١/١٠٧) .

أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤]، وبقولِهِ: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴾[النمل: ٨٠]، وهَذَا الصِّنْفُ شَرُّ الْبَرِيَّةِ، يُضَيِّقُونَ الدِّيَارَ ويُغَلُّوْنَ الأَسْعَارَ، وَعِنْدَ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ ولَكِنْ ظَاهِراً مِنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وهُمْ عَنِ الآخِرَةِ غَافِلُونَ، وَيَعْلَمُونَ ولَكِنْ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ، ويَنْطِقُونَ ولَكِنْ عَنِ الْهَوَى يَنْطِقُونَ، ويَتَكَلَّمُونَ وَلَكِنْ بالجَهْلِ يَتَكَلَّمُونَ، ويُؤْمِنُونَ وَلَكِنْ بِالْجِبْتِ والطَّاغُوتِ، وَيَعْبُدُونَ وَلَكِن مِنْ دُوْنِ اللهِ مَا يَضُرُّهُمْ ولا يَنْفَعُهُمْ .

الضَّرْبُ الثَّالِثُ: مَنْ فُتِحَ لَهُ بَابُ الْعِلْمِ وأُغْلِقَ عَنْهُ بَابُ الْعَزْمِ وَالْعَمَلِ، فَهَذَا فِي رُتْبَةِ الجَاهِلِ أَوْ شَرٌّ مِنْهُ، وفي الحَدِيثِ الْمَرفُوعِ: **"أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ اللهُ بِعِلْمِهِ"** [(١)]، ثَبَّتَهُ أَبُو نُعَيْمٍ وغيرُهُ، فَهَذَا جَهْلُهُ كَانَ خَيْراً لَهُ وأَخَفَّ لِعَذَابِهِ مِنْ عِلْمِهِ، فَمَا زَادَهُ الْعِلْمُ إلاَّ وَبَالاً وعَذَاباً، وهَذَا لا مَطْمَعَ فِي صَلاحِهِ، فَإِنَّ التَّائِهَ عَنِ الطَّرِيقِ يُرْجَى لَهُ الْعَوْدُ إِلَيْهَا إِذَا أَبْصَرَهَا، فَإِذَا عَرَفَهَا وحَادَ عَنهَا عَمْداً فَمَتَى تُرْجَى هِدَايَتُهُ ؟ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٦] .

الضَّرْبُ الرَّابِعُ: مَنْ رُزِقَ حَظّاً مِنَ الْعَزِيْمَةِ وَالإِرَادَةِ، وَلَكِنْ قَلَّ نَصِيْبُهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ، فَهَذَا إِذَا وُفِّقَ لَهُ الاقْتِدَاءُ بِدَاعٍ مِنْ دُعَاةِ اللهِ ورَسُولِهِ كَانَ مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِيهِمْ: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴾ [النساء: ٦٩-٧٠]، رَزَقَنَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَلا حَرَمَنَا بِسُوءِ أَعْمَالِنَا إِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيْمٌ [(٢)] .

*****

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» عن أبي هريرة (١٧٧٨) وإسناده ضعيف .

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/١٤٣- ١٤٥) .

الْحَدِيثُ الْخَامِسُ وَالْعِشْرُونَ

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "**مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ لا يُرِيدُ إِلاَّ أَنْ يَتَعَلَّمَ خَيْرًا أَوْ يُعَلِّمَهُ كَانَ لَهُ كَأَجْرِ حَاجٍّ تَامًّا حِجَّتُهُ**" (١) .

قوله (**مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ**) الْغُدُوُّ هُوَ الذَّهَابُ مَا بينَ طُلُوعِ الْفَجْرِ وَالزَّوَالِ، والْمُرَادُ هُنَا مُطْلَقُ الذَّهَابِ .

قوله (**لا يُرِيدُ إِلاَّ أَنْ يَتَعَلَّمَ خَيْرًا أَوْ يُعَلِّمَهُ**) قَالَ الإِمَامُ الغَزَالِيُّ رحمه الله:" هَذَا إِذَا خَرَجَ إلى طَلَبِ العِلْمِ النَّافِعِ فِي الدِّيْنِ دُوْنَ الفُضُولِ الَّذِي أَكَبَّ النَّاسُ عليه وسَمَّوْهُ عِلْماً، وَالْعِلْمُ النَّافِعُ مَا يَزِيْدُ مِنْ خَوْفِكَ مِنَ الله تعالى، ويَزِيْدُ بَصِيرَتَكَ بعُيُوبِ نَفْسِكَ وآفَاتِ عَمَلِكَ، ويَزِيْدُ في زُهْدِكَ في الدُّنْيَا، فَإِنْ دَعَتْكَ نَفْسُكَ إلى الخُرُوجِ في طَلَبِ الْعِلْمِ لِغَيْرِ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ دَسَّ في قَلْبِكَ الدَّاءَ الدَّفِينَ، وهُوَ حُبُّ الْمَالِ والْجَاهِ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ بِهِ فَتَكُونَ ضُحْكَةً لَهُ، فتَهْلِكَ ثُمَّ يَسْخَرَ بكَ " (٢) .

مَعْنَى الْحَدِيثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ

يُبيِّنُ النَّبيُّ ﷺ أَنَّ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ إلى بَيْتِ الله تعالى وهُوَ لا يَنْوِي إِلاَّ أَنْ يَتَعَلَّمَ عِلْماً يَبْتَغِي بِهِ رِضْوَانَ الله تعالى، أَوْ يَنْوِي تَعْلِيمَ مَا لَدَيْهِ مِنَ الْعِلْمِ، فَإِنَّ الله تعالى يُكْرِمُهُ بِأَنْ يُعْطِيَهُ أَجْرَ حَاجٍّ أَدَّى حِجَّتَهُ عَلَى وَجْهِ الْكَمَالِ، وذَلِكَ مَحْضُ كَرَمِ الله تعالى وفَضْلِهِ، لأَنَّ طَلَبَ العِلْمِ وتَعْلِيْمَهُ وَالْحَجَّ يَشْتَرِكَانِ فِي كَوْنِ كُلٍّ مِنْهُمَا سَبِيلاً مِنْ سُبُلِ الله تعالى، وأَنَّ تَحْصِيلَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنهُمَا يَحْتَاجُ إِلَى مُجَاهَدَةِ النَّفْسِ وإِخْرَاجِهَا عَنْ مَأْلُوفَاتِهَا،

---

(١) رواه الطبراني في الكبير برقم (٧٤٧٣) وأبو نعيم في «الحلية» برقم (٦/ ٩٧)، قال المنذري في الترغيب: بإسناد لا بأس به. وقال الهيثمي في المجمع: رجاله موثوقون كلهم .

(٢) «فيض القدير» للمناوي (٥/٤٧٨) نقلاً بالمعنى عن «بداية الهداية» للغزالي .

ومُفارَقةِ الأَحِبَّةِ والأَوْطَانِ وإِنْفَاقِ الْمالِ، وكُلٌّ مِنهُمَا نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الْجهَادِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَولِهِ ﷺ: **"مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ كَانَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى يَرْجعَ "** [(١)]، وسُئِلَ ﷺ هَلْ عَلَى النِّسَاءِ جِهَادٌ، فَقَالَ: **"عَلَيْهِنَّ جِهَادٌ لا قِتَالَ فِيْهِ، الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ "** [(٢)]، وقَالَ ﷺ: **"جِهَادُ الْكَبِيْرِ وَالضَّعِيْفِ وَالْمَرْأَةِ الْحجُّ وَالْعُمْرَةُ"** [(٣)]؛ وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَرَى الْجِهَادَ أَفْضَلَ الْعَمَلِ، أَفَلا نُجَاهِدُ ؟ قَالَ: **"لَكِنَّ أَفْضَلَ الْجِهَادِ حَجٌّ مَبْرُورٌ "** [(٤)] .

فَائِـــــــــدَة

كَانَتْ مَجَالِسُ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ أَصْحَابِهِ عَامَّتُهَا مَجَالِسُ تَذْكِيْرٍ بِاللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتَرْغِيْبٍ وتَرْهِيْبٍ، إِمَّا بِتِلاوَةِ الْقُرْآنِ، أَوْ بِمَا آتَاهُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْموعِظَةِ الحَسَنَةِ، وتَعْلِيمِ مَا يَنْفَعُ فِي الدِّيْنِ، كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ أَنْ يُذَكِّرَ ويَعِظَ ويَقُصَّ، وأَنْ يَدْعُوَ إلى سَبِيْلِ رَبِّهِ بِالحِكْمَةِ وَالْمَوعِظَةِ الحَسَنَةِ، وأَنْ يُبَشِّرَ ويُنْذِرَ، وسَمَّاهُ ﴿شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ **[الأحزاب: ٤٥-٤٦]**، وَالتَّبْشِيرُ والإِنْذَارُ هو التَّرْغِيبُ والتَّرْهِيبُ، وقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُوجِّهُ أَصْحَابَهُ فِيهَا مِنَ الْمَخْلُوقِ إلى الْخَالِقِ، وَذَلِكَ بِبَيَانِ غِنَى الْخَالِقِ وفَقْرِ الْخَلائِقِ إِلَيْهِ، وأَنَّ الْغِنَى الحَقِيقِيَّ لا يَكُونُ بالأَشْيَاءِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ بالاِتِّصَالِ بِالغَنِيِّ الْمُغْنِيْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَالاِسْتِغْنَاءِ بِهِ عَمَّنْ سِوَاهُ، وَالْقَنَاعَةِ بِمَا قَسَمَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) رواه أحمد في مسنده عن عائشة (٢٥٣٢٢) وابن ماجه (٢٩٠١) وابن خزيمة في صحيحه (٣٠٧٤) وقال الحافظ ابن حجر في «بلوغ المرام» (٦٤٤): إسناده صحيح وأصله في الصحيح .

(٣) رواه أحمد في مسنده عن أبي هريرة (٩٤٥٩) والنسائي في سننه (٢٦٢٦) والبيهقي في سننه (٨٥٤١) و(١٧٥٩١) وقال المنذري في الترغيب: بإسناد حسن. وقال الهيثمي في المجمع: رجاله رجال الصحيح .

(٤) رواه البخاري (١٥٢٠) و(٢٧٨٤) .

لِلْعَبْدِ، حَيْثُ قَالَ ﷺ عَنِ الْغِنَى: **"الْيَأْسُ مِمَّا فِي أَيْدِيْ النَّاسِ"** (١)، وقَالَ لِمَنْ قَالَ لَهُ أَوْصِنِيْ وأَوْجِزْ: **"عَلَيْكَ بالإِيَاسِ مِمَّا فِي أَيْدِيْ النَّاسِ"** (٢)، وقَالَ عُمَرُ ﷺ: **"الطَّمَعُ فَقْرٌ، وَالإِيَاسُ غِنىً، وَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا أَيِسَ مِنْ شَيْءٍ اسْتَغْنَى عَنْهُ"** (٣)، وقَالَ: **"أَجْمِعِ الْيَأْسَ مِمَّا فِيْ أَيْدِيْ النَّاسِ، فَإِنَّهُ الْغِنَى"** (٤)، وقَالَ ﷺ: **"لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ"** (٥)، وقَالَ يَوْماً لأَبِي ذَرٍّ ﷺ: **"أَتَرَى كَثْرَةَ الْمَالِ هُوَ الْغِنَى؟"** فَقَالَ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: **"فَتَرَى قِلَّةَ الْمَالِ هُوَ الْفَقْرَ؟"** قَالَ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَقَالَ ﷺ: **"إِنَّمَا الْغِنَى غِنَى الْقَلْبِ، وَالْفَقْرُ فَقْرُ الْقَلْبِ"** (٦)، فَمَنْ كَانَ غَنِيَّ القَلْبِ لا يَضُرُّهُ مَا فَاتَهُ مِنَ الدُّنْيَا، ومَنْ كَانَ فَقِيرَ الْقَلْبِ فَلا يُغْنِيْهِ مَالُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيْرِهَا، وقَدْ بَيَّنَ ﷺ لابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ وَهُوَ رَدِيْفُهُ عَلَى الدَّابَّةِ فَقْرَ جَمِيعِ الخَلائِقِ إلى خَالِقِهِمْ فِي إِيْصَالِ النَّفْعِ وَالضُّرِ، وَأَمَرَهُ أَنْ لا يَسْأَلَ غَيْرَهُ، ولا يَسْتَعِيْنَ بغَيْرِه، حَيْثُ قَالَ: **"يَا غُلامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَو اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ"** (٧) .

فَجَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ مُفْتَقِرَةٌ إِلَيْهِ فِي وُجُودِهَا، فَلا وُجُودَ لَهَا إِلاَّ بِهِ، وَهِيَ مُفْتَقِرَةٌ إِلَيهِ فِي قِيَامِهَا، فَلا قِوَامَ لَهَا إِلاَّ بِهِ، وَلا حَرَكَةَ ولا سُكُونَ إِلاَّ بِإِذْنِهِ، فَهُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، الْقَائِمُ

---

(١) رواه الطبراني في الكبير عن عبد الله بن مسعود برقم (١٠٢٣٩) وفي الأوسط برقم (٥٧٧٨) وهو حسن بشواهده .

(٢) رواه الحاكم في المستدرك عن سعد بن أبي وقاص برقم (٧٩٢٨) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي .

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٦١٣) و(٩٩٨) وأحمد في «الزهد» (٦١٣) .

(٤) رواه الطبراني في الكبير عن سعد بن عمارة برقم (٥٤٥٩) وقال الهيثمي في المجمع: رجاله ثقات .

(٥) رواه البخاري عن أبي هريرة (٦٤٤٦) ومسلم (٢٤٦٧) .

(٦) رواه الحاكم في المستدرك (٧٩٢٩) وقال: صحيح على شرط البخاري ووافقه الذهبي، ورواه ابن حبان في صحيحه (٦٨٥) .

(٧) رواه أحمد في مسنده برقم (٢٦٦٩) والترمذي (٢٥١٦) وقال: حديث حسن صحيح .

بنَفْسِهِ فَلا يَحْتَاجُ إلى شَيْءٍ، الْقَيِّمُ لِغَيْرِهِ، فَلا قِوَامَ لِشَيْءٍ إلاَّ بِهِ، فَلِلْخَالِقِ مُطْلَقُ الْغِنَى وكَمَالُهُ، ولِلْمَخْلُوقِ مُطْلَقُ الْفَقْرِ إلى اللَّهِ جَلَّ جَلالُهُ وكَمَالُهُ [(١)] .

وجَمِيعُ الخَلْقِ مُفْتَقِرُونَ إلى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في جَلْبِ مَصَالِحِهِمْ ودَفْعِ مَا يَضُرُّهُمْ في أُمُورِ دِينِهِمْ ودُنْيَاهُمْ، فَالْعِبَادُ لا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، فَفِي الحَدِيثِ الْقُدُسِيِّ يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: "**يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ**" [(٢)]، وكَانَ ﷺ يُبَايِعُ بَعْضَ أَصْحَابِهِ عَلَى أَنْ لا يَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئاً، وقَالَ: "**مَنْ يَتَكَفَّلُ لِي أَنْ لا يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئاً وَأَتَكَفَّلُ لَهُ بالْجَنَّةِ**" [(٣)]، لأَنَّ كُلَّ مَنْ عَلَّقَ قَلْبَهُ بالْمَخْلُوقَاتِ أَنْ يَنْصُرُوهُ أَوْ يَرْزُقُوهُ أَوْ يَهْدُوهُ خَضَعَ قَلْبُهُ لَهُم، وصَارَ فِيهِ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ لَهُمْ بِقَدْرِ ذَلِكَ ..، فَإِنَّ أَسْرَ الْقَلْبِ أَعْظَمُ مِنْ أَسْرِ الْبَدَنِ، وَاسْتِعْبَادَ القَلْبِ أَعْظَمُ مِنَ اسْتِعْبَادِ البَدَنِ ..، فَإِذَا كَانَ القَلْبُ الَّذِي هُوَ الْمَلِكُ رَقِيْقاً مُسْتَعْبَداً مُتَيَّماً لِغَيْرِ اللَّهِ جَلَّ جَلالُهُ فَهَذَا هُوَ الذُّلُّ وَالأَسْرُ الْمَحْضُ، وَالْعُبُودِيَّةُ لِمَا اسْتَعْبَدَ الْقَلْبَ ..، فَكَمَا أَنَّ طَمَعَهُ فِي الْمَخْلُوقِ يُوْجِبُ عُبُودِيَّةً له، فَيَأْسَهُ مِنهُ يُوجِبُ غِنَى قَلْبِهِ عَنهُ، كَمَا قِيلَ: "**اسْتَغْنِ عَمَّنْ شِئْتَ تَكُنْ نَظِيْرَهُ، وَأَفْضِلْ عَلَى مَنْ شِئْتَ تَكُنْ أَمِيْرَهُ، وَاحْتَجْ إلى مَنْ شِئْتَ تَكُنْ أَسِيْرَهُ**". وهَذَا أَمْرٌ يَجِدُهُ الإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ، فَإِنَّ الأَمْرَ الَّذِي يَيْأَسُ مِنْهُ لا يَطْلُبُهُ، ولا يَطْمَعُ فِيهِ، ولا يَبْقَى قَلْبُهُ فَقِيْراً إِلَيهِ ولا إلى مَنْ يَفْعَلُهُ، وأَمَّا إذَا طَمِعَ فِي أَمْرٍ مِنَ الأُمُورِ ورَجَاهُ فَإِنَّ قَلْبَهُ يَتَعَلَّقُ بِهِ، فَيَصِيرُ فَقِيراً إلى حُصُولِهِ وإلى مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ سَبَبٌ فِي حُصُولِهِ [(٤)]، لِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلَّذِي قَالَ لَهُ: أَوْصِنِي وَأَوْجِزْ، قَالَ: "**عَلَيْكَ بالْيَأْسِ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ**" [(٥)]، أَيْ وَطِّنْ نَفْسَكَ عَلَى التَّعَلُّقِ باللهِ وَحْدَهُ فِي أُمُورِ مَعَاشِكَ ومَعَادِكَ، فَلا تَسْأَلْ إلاَّ اللَّهَ،

---

(١) «معارج القبول» (١/٢٤٤) .

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة برقم (٢٥٧٧) .

(٣) رواه أحمد في مسنده عن ثوبان برقم (٢٢٣٦٦) والترمذي (٢٤٠٨) وقال: حديث حسن صحيح .

(٤) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٠/١١١- ١١٢) .

(٥) سبق تخريجه .

ولا تَطْمَعْ إلاَّ في فَضْلِهِ، وَوَطِّنْ نَفْسَكَ عَلَى الْيَأْسِ مِمَّا في أَيْدِي النَّاسِ، فَإِنَّ الْيَأْسَ عِصْمَةٌ، ومَنْ أَيسَ مِنْ شَيْءٍ اسْتَغْنَى عَنهُ، فَكَمَا أَنَّهُ لا يَسْأَلُ بِلِسَانِهِ إلاَّ اللهَ، فَلا يُعَلِّقُ قَلْبَهُ إلاَّ باللهِ، فَيَبْقَى عَبْداً للهِ حَقِيقَةً، سَالِماً مِنْ عُبُودِيَّةِ الخَلْقِ، قَدْ تَحَرَّرَ مِنْ رِقِّهِمْ، وَاكْتَسَبَ بِذَلِكَ الْعِزَّ وَالشَّرَفَ، فَإِنَّ الْمُتَعَلِّقَ بِالخَلْقِ يَكْسِبُ الذُّلَّ وَالسُّقُوطَ بِحَسَبِ تَعَلُّقِهِ بِهِمْ [(١)] .

وقَدْ بَيَّنَ جبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَنَّ عِزَّ الْمُؤْمِنِ باسْتِغْنَائِهِ عَنِ النَّاسِ[(٢)]، ولَنْ يَسْتَغْنِيَ الْقَلْبُ عَنْ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ إلاَّ بأَنْ يَكُونَ اللهُ جَلَّ جَلالُهُ هُوَ مَوْلاهُ الّذِي لا يَعْبُدُ إلاَّ إيَّاهُ، ولا يَسْتَعِينُ إلاَّ بِهِ، ولا يَتَوَكَّلُ إلاَّ عَلَيْهِ، ولا يَفْرَحُ إلاَّ بمَا يُحِبُّهُ ويَرْضَاهُ، ولا يَكْرَهُ إلاَّ مَا يُبْغِضُهُ الرَّبُّ ويَكْرَهُهُ، ولا يُوَالِي إلاَّ مَنْ وَالاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، ولا يُعَادِي إلاَّ مَنْ عَادَاهُ اللهُ، ولا يُحِبُّ إلاَّ للهِ، ولا يُبْغِضُ شَيْئاً إلاَّ للهِ، ولا يُعْطِي إلاَّ للهِ، فَكُلَّمَا قَوِيَ إخْلاصُ دِيْنِهِ للهِ كَمُلَتْ عُبُودِيَّتُهُ وَاسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ الْمَخْلُوقَاتِ، ولِكَمَالِ عُبُودِيَّتِهِ للهِ يُبَرِّئُهُ مِنَ الْكِبْرِ وَالشِّرْكِ [(٣)] . وقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٣]، فَذَكَرَ إسْلامَ الْكَائِنَاتِ طَوْعاً وكَرْهاً، لأَنَّ الْمَخْلُوقَاتِ جَمِيعَهَا مُتَعَبَّدَةٌ لَهُ التَّعَبُّدَ الْعَامَّ، سَوَاءٌ أَقَرَّ الْمُتَعَبِّدُ بذَلِكَ أَوْ أَنْكَرَهُ، وهُمْ مَدِينُونَ مَدَبَّرُونَ، فَهُمْ مُسْلِمُونَ طَوْعاً وكَرْهاً، ولَيسَ لأَحَدٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ خُرُوجٌ عَمَّا شَاءَهُ وقَدَّرَهُ وقَضَاهُ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بهِ، وهُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ومَلِيْكُهُمْ، يُصَرِّفُهُمْ كَيْفَ يَشَاءُ، وهُوَ خَالِقُهُم كُلِّهِمْ وبَارِئُهُمْ ومُصَوِّرُهُمْ، وكُلُّ مَا سِوَاهُ فَهُوَ مَرْبُوبٌ مَصْنُوعٌ مَفْطُورٌ فَقِيْرٌ مُحْتَاجٌ مُعَبَّدٌ مَقْهُورٌ، وهُوَ الْوَاحِدُ القَهَّارُ الخَالِقُ البَارِئُ الْمُصَوِّرُ، وهُوَ إنْ كَانَ قَدْ خَلَقَ مَا خَلَقَهُ بأَسْبَابٍ فَهُوَ خَالِقُ السَّبَبِ والْمُقَدِّرُ لَهُ، وهُوَ مُفْتَقِرٌ إلَيْهِ كَافْتِقَارِ هَذَا، وَلَيْسَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ سَبَبٌ مُسْتَقِلٌّ بِفِعْلٍ ولا دَفْعِ ضَرَرٍ، بَلْ كُلُّ مَا هُوَ سَبَبٌ فَهُوَ مُحْتَاجٌ إلى سَبَبٍ آخَرَ يُعَاوِنُهُ، وإلى مَا يَدْفَعُ عَنهُ الضَّرَرَ الَّذِي يُعَارِضُهُ

(١) «بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار» للسعدي ص (١٥١) .

(٢) رواه الحاكم في المستدرك عن سهل بن سعد برقم (٧٩٢١) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي. ورواه الطبراني في الأوسط (٤٢٧٨) وقال المنذري في الترغيب والهيثمي في المجمع: إسناده حسن .

(٣) «مجموع الفتاوى» (١١٨/١٠) .

ويُمَانِعُهُ، وهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَحْدَهُ الْغَنِيُّ عَنْ كُلِّ مَا سِواهُ، ولَيسَ لَهُ شَرِيْكٌ يُعَاوِنُهُ، ولا ضِدٌّ يُنَاوِؤُهُ ويُعَارِضُهُ [(١)] .

وَالَّذِي يُسَهِّلُ عَلَى الإنْسَانِ اليَأْسَ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ هُوَ الْعِلْمُ يَقِيْناً أَنَّهُ لَيسَ مِنْ شَيْءٍ يُطْمَعُ فِيهِ إلاَّ وبيَدِ اللهِ وَحْدَهُ خزَائِنُه، لا يَمْلِكُهَا غَيْرُهُ، ولا يُؤْتِي الْعَبْدَ مِنهَا شَيْئاً سِوَاهُ، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر: ٢١]، فَكُلُّ شَيْءٍ لا يُطْلَبُ إلاَّ مِمَّنْ عِندَهُ خَزَائِنُهُ، ومَفَاتِيْحُ تِلْكَ الخَزَائِنِ بيَدِهِ، وَأَنَّ طَلَبَهُ مِنْ غَيْرِهِ طَلَبٌ مِمَّنْ لَيسَ عِنْدَهُ ولا يَقْدِرُ عَلَيْهِ .

وَالَّذِي يُسَهِّلُ الزُّهْدَ فِي ثَنَاءِ النَّاسِ ومَدْحِهِمْ هُوَ الْعِلْمُ يَقِيْناً أَنَّهُ لَيسَ أَحَدٌ يَنْفَعُ مَدْحُهُ ويَزِيْنُ ويَضُرُّ ذَمُّهُ وَيَشِيْنُ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ، كَمَا قَالَ ذَلِكَ الأَعْرَابيُّ لِلنَّبيِّ ﷺ: إنَّ مَدْحِي زَيْنٌ وذَمِّي شَيْنٌ، فَقَالَ ﷺ: "ذَلِكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ" [(٢)]، فَازْهَدْ فِي مَدْحِ مَنْ لا يَزِيْنُكَ مَدْحُهُ وفِي ذَمِّ مَنْ لا يَشِيْنُكَ ذَمُّهُ، وَارْغَبْ فِي مَدْحِ مَنْ كُلُّ الزَّيْنِ فِي مَدْحِهِ، وكُلُّ الشَّيْنِ فِي ذَمِّهِ [(٣)] .

وتَحْصِيلُ هَذَا الْيَقِينِ يَحْتَاجُ إلى كَثْرَةِ الْكَلامِ عَنْ أَسْمَاءِ اللهِ وصِفَاتِهِ وأَفْعَالِهِ وآلائِهِ حَتَّى يَعْظُمَ فِي الْقُلُوبِ ولا يَبْقَى فِيهَا سِوَاهُ؛ فَإِنَّ الْقَلْبَ مُعَلَّقٌ بِالْمَخْلُوقِ مِنَ الدُّنْيَا وشَهَوَاتِهَا ورِئَاسَاتِهَا وصُحْبَةِ النَّاسِ والتَّعَلُّقِ بهِمْ وَالرَّجَاءِ مِنْهُم، ولا سَبيلَ إلى قَطْعِ هَذِهِ الأُمُورِ ورَفْضِهَا إلاَّ بقُوَّةِ التَّعَلُّقِ بِالْمَطْلَبِ الأَعْلَى، وإلاَّ فَقَطْعُهَا عَلَيْهِ بدُونِ تَعَلُّقِهِ بمَطْلُوبهِ مُمْتَنِعٌ، فَإِنَّ النَّفْسَ لا تَتْرُكُ مَأْلُوفَهَا ومَحْبُوبَهَا إلاَّ لِمَحْبُوبٍ هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهَا مِنْهُ، وآثَرُ عِنْدَهَا مِنهُ، وكُلَّمَا قَوِيَ تَعَلُّقُهُ بمَطْلُوبهِ ضَعُفَ تَعَلُّقُهُ بغَيْرِهِ، وَالتَّعَلُّقُ بالْمَطْلُوبِ هُوَ شِدَّةُ الرَّغْبَةِ فِيهِ، وَذَلِكَ عَلَى قَدْرِ مَعْرِفَتِهِ بِهِ وشَرَفِهِ وفَضْلِهِ عَلَى مَا سِوَاهُ [(٤)] .

---

(١) المصدر السابق (١٠/١١٩) .

(٢) رواه الترمذي عن البراء بن عازب برقم (٣٢٦٧) وقال: حديث حسن .

(٣) «الفوائد» لابن القيم ص(٢٢٠) .

(٤) المصدر السابق ص (٢٢٦) .

ومَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ نَوعَانِ :

أَحَدُهُمَا: الْمَعْرِفَةُ العَامَّةُ، وهِيَ مَعْرِفةُ الإِقْرَارِ بِهِ والتَّصْدِيقِ والإِيْمَانِ، وهَذِهِ عَامَّةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ .

وَالثَّانِيْ: مَعْرِفَةٌ خَاصَّةٌ تَقْتَضِي مَيْلَ الْقَلْبِ إلى اللهِ بالْكُلِّيَّةِ، والانْقِطَاعَ إِلَيْهِ والأُنْسَ بِهِ وَالطُّمَأْنِيْنَةَ بِذِكْرِهِ والْحَيَاءَ مِنْهُ والْهَيْبَةَ لَهُ، وهَذِهِ الْمَعْرِفَةُ الخَاصَّةُ هِيَ الَّتِي يَدُورُ حَوْلَهَا العَارِفُونَ، كَمَا قَالَ بَعْضُهُم: "**مَسَاكِينُ أَهْلُ الدُّنْيَا، خَرَجُوْا مِنْهَا ومَا ذَاقُوا أَطْيَبَ مَا فِيْهَا**" قِيلَ لَهُ: وَمَا هُوَ؟ قال: "**مَعْرِفَةُ اللهِ عَجَلَّ**" [1]، وهِيَ مَقْصُودُ مَنْ فَسَّرَ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، بـ"**لِيَعْرِفُون**" كَمَا قَالَ ذَلِكَ ابْنُ جُرَيْجٍ ومُجَاهِدٌ رَحِمَهُمَااللهُ . وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَمَعْرِفَةُ اللهِ لِعَبْدِهِ نَوْعَانِ :

أَحَدُهُمَا مَعْرِفَةٌ عَامَّةٌ، وَهِيَ عِلْمُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِعِبَادِهِ وَاطِّلاعُهُ عَلَى مَا أَسَرُّوهُ ومَا أَعْلَنُوهُ .

وَالثَّانِيْ: مَعْرِفَةٌ خَاصَّةٌ، وَهِيَ تَقْتَضِي مَحَبَّتَهُ لِعَبْدِهِ وتَقرِيْبَهُ إِلَيْهِ وإِجَابَةَ دُعَائِهِ وإِنْجَاءَهُ مِنَ الشَّدَائِدِ، وَهِيَ الْمُشَارُ إِلَيْهَا فِي قَولِهِ ﷺ فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ عَجَلَّ: "**وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِن اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ**" [2][3]، وهَذِهِ الْمَعْرِفَةُ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِلْعَبْدِ هِيَ وَعْدٌ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِمَنْ حَقَّقَ الْمَعْرِفَةَ الخَاصَّةَ باللهِ عَجَلَّ، كَمَا قَالَ ﷺ: "**تَعَرَّفْ إِلى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ**" [4] .

---

(١) «جامع العلوم والحكم» ص(٢٣٤) .

(٢) رواه البخاري عن أبي هريرة (٦٥٠٢) .

(٣) «جامع العلوم والحكم» ص(٢٣٤) .

(٤) رواه أحمد في مسنده برقم (٢٨٠٤) والحاكم في المستدرك (٦٣٠٣) وأصله عند الترمذي وانظر الحديث بعده .

كَمَا أَنَّ الْمَعْرِفَةَ الْخَاصَّةَ مِنَ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ تَقْتَضِي أَنْ لا يَسأَلَ غَيْرَهُ، ولا يَسْتَعِينَ بِغَيْرِهِ، ولا يَرْجُوَ غَيْرَهُ، ولا يَخْشَى غَيْرَهُ، كَمَا قَالَ ﷺ: **"إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ"** (١)، وقَالَ ﷺ: **"سَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ."**(٢)، وقَالَ:" **مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ"** (٣)، وقَالَ: **"لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ كُلَّهَا، حَتَّى يَسْأَلَهُ شِسْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ، وَحَتَّى يَسْأَلَهُ الْمِلْحَ"** (٤)، وقَالَتِ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ ﵂: **"سَلُوا اللَّهَ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الشِّسْعَ، فَإِنَّ اللَّهَ إِنْ لَمْ يُيَسِّرْهُ لَمْ يَتَيَسَّرْ"** (٥)، وذَلِكَ لأَنَّ السُّؤَالَ فِيهِ إِظْهَارُ الذُّلِّ مِنَ السَّائِلِ والْمَسْكَنَةِ والحَاجَةِ والافْتِقَارِ، وفِيهِ الاعْتِرَافُ بِقُدْرَةِ الْمَسْؤُولِ عَلَى رَفْعِ هَذَا الضَّرَرِ ونَيْلِ الْمَطْلُوبِ وجَلْبِ الْمَنَافِعِ ودَرْءِ الْمَضَارِّ، ولا يَصْلُحُ الذُّلُّ وَالافْتِقَارُ إِلاَّ للهِ وَحْدَهُ، لأَنَّهُ حَقِيقَةُ العُبُودِيَّةِ؛ وَكَانَ الإِمَامُ أَحْمَدُ ﵀ يَدْعُو ويَقُولُ: **"اللَّهُمَّ كَمَا صُنْتَ وَجْهِي عَنِ السُّجُودِ لِغَيْرِكَ فَصُنْهُ عَنِ الْمَسْأَلَةِ لِغَيْرِكَ، ولا يَقْدِرُ عَلَى كَشْفِ الضُّرِّ وجَلْبِ النَّفْعِ سِوَاكَ"**. كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ﴾ [يونس: ١٠٧] .

واللَّهُ ﷻ يُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ ويُرْغَبَ إِلَيْهِ فِي الْحَوَائِجِ، ويُلَحَّ فِي سُؤَالِهِ ودُعَائِهِ، ويَغْضَبُ عَلَى مَنْ لا يَسْأَلُهُ، ويَسْتَدْعِي مِنْ عِبَادِهِ سُؤَالَهُ، وهُوَ قَادِرٌ عَلَى إِعْطَاءِ خَلْقِهِ كُلِّهِمْ سُؤَالَهُمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ مُلْكِهِ شَيْءٌ، وَالْمَخْلُوقُ بِخِلافِ ذَلِكَ كُلِّهِ، يَكْرَهُ أَنْ يُسْأَلَ، ويُحِبُّ أَنْ لا يُسْأَلَ لِعَجْزِهِ وفَقْرِهِ وحَاجَتِهِ، ولِهَذَا قَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ ﵀ لِرَجُلٍ كَانَ

---

(١) رواه الترمذي عن ابن عباس برقم (٢٥١٦) وقال: حديث حسن صحيح .

(٢) رواه الترمذي عن عبد الله بن مسعود برقم (٣٥٧١)، وحَسَّنَ إسنادَهُ الحافظُ ابنُ حجرٍ كما قال السخاوي في «المقاصد الحسنة» والعجلوني في «كشف الخفاء» .

(٣) رواه الترمذي عن أبي هريرة برقم (٣٣٧٣) وأحمد في مسنده (٩٦٩٩) والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٥٨) والحاكم في المستدرك (١٨٠٧) وقال: هذا حديث صحيح .

(٤) رواه الترمذي عن أنس برقم (٣٦٠٤) وزيادة **"حَتَّى يَسْأَلَهُ الْمِلْحَ"** أخرجها البزار في مسنده برقم (٦٨٧٦) قال الهيثمي في المجمع: رجاله رجال الصحيح غير سَيَّار بن حاتم وهو ثقة .

(٥) رواه أبو يعلى برقم (٤٥٦٠) وقال الهيثمي في المجمع: رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عبيد الله بن المنادى وهو ثقة .

يَأْتِيْ الْمُلُوكَ: "وَيْحكَ، تَأْتِي مَنْ يُغْلِقُ عَنْكَ بَابَهُ ويُظْهِرُ لَكَ فَقْرَهُ ويُوَارِي عَنْكَ غِنَاهُ، وتَدَعُ مَنْ يَفْتَحُ لَكَ بَابَهُ بنِصْفِ اللَّيْلِ ونِصْفِ النَّهَارِ، ويُظْهِرُ لَكَ غِنَاهُ، ويَقُولُ: ادْعُنِيْ أَسْتَجِبْ لَكَ ". وقَالَ طَاوُوْسٌ لعَطَاءٍ رَحِمَهُمَاالله:" إِيَّاكَ أَنْ تَطْلُبَ حَوَائِجَكَ إِلى مَنْ أَغْلَقَ دُوْنَكَ بَابَهُ ويَجْعَلُ دُوْنَهَا حِجَابَهُ، وَعَلَيْكَ بِمَنْ بَابُهُ مَفْتُوحٌ إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، أَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ، وَوَعَدَكَ أَنْ يُجِيْبَكَ " .

وأَمَّا الاِسْتِعَانَةُ باللهِ عَزَّوَجَلَّ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الخَلْقِ، فَلأَنَّ الْعَبْدَ عَاجِزٌ عَنِ الاِسْتِقْلالِ بِجَلْبِ مَصَالِحِهِ ودَفْعِ مَضَارِّهِ، ولا مُعِيْنَ لَهُ عَلَى مَصَالِحِ دِينِهِ ودُنْيَاهُ إِلاَّ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فَهُوَ مُحْتَاجٌ إلى الاِسْتِعَانَةِ باللهِ فِي فِعْلِ الْمَأْمُورَاتِ وتَرْكِ الْمَحْظُورَاتِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْمَقْدُورَاتِ كُلِّهَا في الدُّنْيَا وعِنْدَ الْمَوتِ وَمَا بعدَهُ مِنْ أَهْوَالِ البَرْزَخِ ويَوْمِ القِيَامَةِ، ولا يَقْدِرُ عَلَى الإِعَانَةِ عَلَى ذَلِكَ إِلاَّ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فَمَنْ حَقَّقَ الاِسْتِعَانَةَ عَلَيهِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ أَعَانَهُ اللهُ، ومَنْ تَرَكَ الاِسْتِعَانَةَ باللهِ وَاسْتَعَانَ بغَيْرِهِ وَكَلَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلى مَنِ اسْتَعَانَ بِهِ، فَصَارَ مَخْذُولاً؛ وَكَتَبَ الحَسَنُ إِلى عُمَرَ بْنِ عَبدِ العزيزِ رَحِمَهُمَاالله:" لا تَسْتَعِنْ بغَيْرِ اللهِ فَيَكِلَكَ اللهُ إِلَيْهِ "؛ ومِنْ كَلامِ بَعْضِ السَّلَفِ:" يَا رَبِّ عَجِبْتُ لِمَنْ يَعْرِفُكَ كَيْفَ يَرْجُوْ غَيْرَكَ ؟! وَعَجِبْتُ لِمَنْ يَعْرِفُكَ كَيْفَ يَسْتَعِيْنُ بِغَيْرِكَ ؟!" [(١)] .

فَالتَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ وَالاِسْتِعَانَةُ بِهِ أَعْظَمُ الأَسْبَابِ الَّتِي تُسْتَجْلَبُ بِهَا الْمَنَافِعُ ويُسْتَدْفَعُ بِهَا الْمَضَارُّ، كَمَا قَالَ الفُضَيلُ بْنُ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللهُ:" لَوْ عَلِمَ اللهُ مِنْكَ إِخْرَاجَ الْمَخْلُوقِيْنَ مِنْ قَلْبِكَ لأَعْطَاكَ كُلَّ مَا تُرِيْدُ "، وبِذَلِكَ فَسَّرَ الإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللهُ التَّوَكُّلَ، فَقَالَ: "هُوَ قَطْعُ الاِسْتِشْرَافِ بِالْيَأْسِ مِنَ الْمَخْلُوقِيْنَ "، قِيلَ لَهُ فَمَا الْحُجَّةُ فِيْهِ ؟ قَالَ:" قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا أُلْقِيَ فِي النَّارِ فَعَرَضَ لَهُ جِبْرِيْلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَالَ: أَلَكَ حَاجَةٌ؟ قَالَ: أَمَّا إِلَيْكَ فَلا " .

(١) «جامع العلوم والحكم» ص (٢٣٧-٢٣٩) .

وَالتَّوَكُّلُ عِلْمٌ وَعَمَلٌ: فَالْعِلْمُ مَعْرِفَةُ القَلْبِ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ بِالنَّفْعِ وَالضُّرِّ، وعَامَّةُ الْمُؤْمِنِينَ تَعْلَمُ ذَلِكَ، **وَالْعَمَلُ** هُوَ ثِقَةُ الْقَلْبِ بِاللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وفَرَاغُهُ مِنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وهَذَا عَزِيْزٌ يَخْتَصُّ بِهِ خَوَاصُّ الْمُؤْمِنِينَ [(١)] .

وحَقِيقَةُ التَّوَكُّلِ هِيَ حَالٌ لِلْقَلْبِ يَنْشَأُ عَنْ معرفَتِهِ باللهِ وَالإِيْمَانِ بِتَفَرُّدِهِ بِالْخَلْقِ والتَّدْبِير وَالضُّرِّ والنَّفْعِ والْعَطَاءِ والْمَنْعِ، وأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَإِنْ لَمْ يَشَإِ النَّاسُ، ومَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ وإِنْ شَاءَهُ النَّاسُ، فيُوجِبُ لَهُ هَذَا اعْتِمَاداً عَلَيهِ وتَفْوِيضاً إِلَيهِ وطُمَأْنِينَةً بِهِ وثِقَةً ويَقِيناً بِكِفَايَتِهِ لِمَا تَوَكَّلَ عَلَيْهِ فِيْهِ، وأَنَّهُ مَلِيْءٌ بِهِ، ولا يَكُونُ إِلاَّ بِمَشِيئَتِهِ، شَاءَهُ النَّاسُ أَمْ أَبَوْهُ، فَتُشْبِهُ حَالَتُهُ حَالَ الطِّفْلِ مَعَ أَبَوَيْهِ فيمَا يَنُوبُهُ مِنْ رَغْبَةٍ ورَهْبَةٍ، وهُمَا مَلِيَّانِ بهمَا، فَانْظُرْ تَجَرُّدَ قَلْبِهِ عَنِ الالْتِفَاتِ إِلى غَيْرِ أَبَوَيْهِ، وحَبْسَ هَمِّهِ عَلَى إِنْزَالِ مَا يَنُوْبُهُ بهمَا، فَهَذِهِ حَالُ الْمُتَوَكِّلِ، ومَنْ كَانَ هَكَذَا مَعَ اللَّهِ فاللهُ كَافِيْهِ ولا بُدَّ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣٠] أَيْ كَافِيْهِ [(٢)] .

كَمَا يَنْشَأُ عَنْ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ إِخْلاصُ الْعُبُودِيَّةِ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فَتَصِيْرُ أَعْمَالُهُ وأَقْوَالُهُ وعَطَاؤُهُ ومَنْعُهُ وحُبُّهُ وبُغْضُهُ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فَمَنْ عَرَفَ أَنَّهُ لا يَنْفَعُ ولا يَضُرُّ ولا يُعْطِي ولا يَمْنَعُ غَيْرُ اللَّهِ، أَوْجَبَ ذَلِكَ إِفْرَادَهُ بالخَوْفِ والرَّجَاءِ والْمَحَبَّةِ والسُّؤَالِ والتَّضَرُّعِ والدُّعَاءِ وتَقْدِيْمَ طَاعَتِهِ عَلَى طَاعَةِ الْخَلقِ جَمِيْعاً، وأَنْ يَتَّقِيَ سَخَطَهُ وَلَوْ كَانَ فِيهِ سَخَطُ الخَلْقِ جَمِيْعاً، وإِفْرَادَهُ بالاِسْتِعَانَةِ بِهِ والسُّؤَالِ لَهُ، وإِخْلاصَ الدُّعَاءِ لَهُ في حَالِ الشِّدَّةِ وحَالِ الرَّخَاءِ [(٣)] .

وتَقَدَّمَ أَنَّ تَحْصِيلَ هَذَا اليَقِينِ وهَذَا التَّوَكُّلِ لا بُدَّ لَهُ مِنْ بيئَةٍ يَتِمُّ فِيهَا تَخْلِيَةُ القَلْبِ مِنَ الأَغْيَارِ والأَنْدَادِ، وتَحْلِيَتُهُ باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وذَلِكَ بِكَثْرَةِ الْكَلامِ عَنْ صِفَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأَفْعَالِهِ وتَصَرُّفَاتِهِ فِي خَلْقِهِ، وبِدَعْوَةِ الخَلْقِ إِلَيْهِ، كَمَا يَحْتَاجُ إِلى التَّفَكُّرِ فِي آيَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

---

(١) «لطائف المعارف» لابن رجب ص (٩٨- ٩٩) .

(٢) «مدارج السالكين» (١/٧٢) .

(٣) «جامع العلوم والحكم» ص (٢٤٠) .

الْمَسْطُورَةِ والْمَنْظُورَةِ، وَالطَّلَب مِنَ اللَّهِ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا ويُوَفِّقَنَا لأَنْ نَكُونَ مِنْ أَهْلِ اليَقِينِ؛ نَسْأَلُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَرْزُقَنَا إِيْمَاناً كَامِلاً ويَقِيْناً صَادِقاً .

ثُمَّ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُوَجِّهُ أَصْحَابَهُ مِنَ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ إِلى الآخِرَةِ الْبَاقِيَةِ، وذَلِك بذِكْرِ عُيُوبِ الدُّنْيَا وذَمِّهَا والتَّزْهِيدِ فِيهَا، وذِكْرِ فَضْلِ الْجَنَّةِ ومَدْحِهَا وَالتَّرْغِيب فِيهَا، وذِكْرِ النَّارِ وأَهْوَالِهَا والتَّرْهِيْب مِنهَا؛ فَبَيَّنَ ﷺ أَنَّ مَحَبَّةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِلْعبدِ تَكُونُ بقَدْرِ زُهْدِهِ فِي الدُّنْيَا، حَيثُ قَالَ ﷺ: **"ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبُّكَ اللَّهُ"** [(١)]، وَكَان يُحَذِّرُ مِنَ الدُّنْيَا وَالرَّغْبَةِ فِيهَا، حَيثُ قَالَ: **"فَاتَّقُوْا الدُّنْيَا"** [(٢)]، وَقَالَ ﷺ : **"لا تَتَّخِذُوا الضَّيْعَةَ فَتَرْغَبُوْا فِي الدُّنْيَا"** [(٣)]، وكَانَ يُبيِّنُ لِلصَّحَابَةِ رضي الله عنهم حَقِيقَةَ الدُّنْيَا بالنِّسْبَةِ إِلى الآخِرَةِ، فَقَالَ ﷺ: **"وَاللَّهِ مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ"** [(٤)]، وقَالَ ﷺ: **"مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلاَّ كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا"** [(٥)]، ومَرَّ ﷺ بشَاةٍ مَيْتَةٍ قَدْ أَلْقَاهَا أَهْلُهَا فَقَالَ: **"وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ عَلَى أَهْلِهَا"** [(٦)]، وضَرَبَ مَثَلاً للدُّنيا بمَا يَخْرُجُ مِنِ ابْنِ آدَمَ تَحْقِيراً لِشَأْنِهَا، فَقَالَ: **"إِنَّ مَطْعَمَ ابْنِ آدَمَ جُعِلَ مَثَلاً لِلدُّنْيَا، وَإِنْ قَزَّحَهُ وَمَلَّحَهُ فَانْظُرُوا إِلى مَا يَصِيرُ"** [(٧)]، وقَالَ: **"لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ"** [(٨)] .

---

(١) رواه ابن ماجه عن سهل بن سعد الساعدي (٤١٠٢) والطبراني في الكبير (٥٩٧٢) والحاكم في المستدرك (٧٨٧٣) وقال النووي في «رياض الصالحين»: حديث حسن، رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة .

(٢) رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري (٧١٢٤) .

(٣) رواه أحمد في مسنده عن ابن مسعود (٣٥٧٩) والترمذي (٢٣٢٨) وقال: حديث حسن، ورواه الحاكم في المستدرك (٧٩١٠) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي .

(٤) رواه مسلم عن المستورد بن شداد برقم (٧٣٧٦) .

(٥) رواه الترمذي عن عبد الله بن مسعود برقم (٢٣٧٧) وقال: حديث حسن صحيح .

(٦) رواه مسلم عن جابر بن عبد الله برقم (٧٦٠٧) وابن ماجه عن المستورد بن شداد برقم (٤١١١) والترمذي عنه (٢٣٢١) واللفظ له وقال: حديث حسن .

(٧) رواه أحمد في مسنده عن أبي بن كعب (٢١٢٣٩) والطبراني في الكبير (٥٣١) وابن حبان في صحيحه (٧٠٢) قال المنذري في الترغيب: بإسناد جيد قوي .

(٨) رواه الترمذي عن سهل بن سعد (٢٣٢٠) وقال: حديث صحيح .

ورَغَّبَ ﷺ فِي الاقْتِصَارِ عَلَى مَا يَحْتَاجُهُ مِنهَا، فَقَالَ ﷺ: **"لَيْسَ لابْنِ آدَمَ حَقٌّ فِي سِوَى هَذِهِ الْخِصَالِ، بَيْتٌ يُكِنُّهُ، وَثَوْبٌ يُوَارِي عَوْرَتَهُ، وَجِلْفُ الْخُبْزِ وَالْمَاءُ"** (١)، فالدُّنيَا مَا كَانَ فِيهَا مِنَ الحَرَامِ يُعَذَّبُ صَاحِبُهُ عَلَيهِ، وَمَا كَانَ مِنْ حَلالٍ يُحَاسَبُ عَلَيهِ، كَمَا قَالَ ﷺ حِينَمَا سَأَلَهُ عُمَرُ رضي الله عنه : أَئِنَّا لَمَسْؤُولُونَ عَنْ هَذَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ قَالَ: **"نَعَمْ إِلاَّ مِنْ ثَلاثٍ، خِرْقَةٍ كَفَّ بِهَا الرَّجُلُ عَوْرَتَهُ، أَوْ كِسْرَةٍ سَدَّ بِهَا جَوْعَتَهُ، أَوْ جُحْرٍ يَدْخُلُ فِيهِ مِنْ الْحَرِّ وَالْقُرِّ"** (٢)، وقَالَ ﷺ: **"أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَمْ أُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ، وَأُرْوِكَ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ"** (٣)، ومَا كَانَ فِيهَا مِنْ مُتَعٍ وشَهَوَاتٍ مُبَاحَةٍ فَإِنَّهَا تُنْقِصُ مِنْ دَرَجَاتِهِ فِي الآخرةِ، كَمَا قَالَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما:" **لا يُصِيْبُ عَبْدٌ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئاً إِلاَّ نَقَصَ مِنْ دَرَجَاتِهِ عِنْدَ اللهِ، وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ كَرِيْماً"** (٤)، وبَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ الْفُقَرَاءَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ قَبْلَ الأَغْنِيَاءِ بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ (٥)، لِذَلِكَ اخْتَارَ النَّبِيُّ ﷺ الْفَقْرَ عَلَى الْغِنَى حِيْنَمَا خَيَّرَهُ جِبْرِيْلُ عليه السلام بَيْنَهُمَا، وسَأَلَ اللهَ عز وجل أَنْ يَجْعَلَ رِزْقَهُ كَفَافاً (٦)، وكَانَ ﷺ يُبَيِّنُ خُطُورَةَ الدُّنيا عَلَى القُلُوبِ حَيْثُ تُفْسِدُهَا أَكْثَرَ مِنْ إِفْسَادِ الذِّئَابِ الضَّارِيَةِ لِلْغَنَمِ، كَمَا قَالَ ﷺ: **"مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ"** (٧)، وبَيَّنَ أَنَّهَا سَبَبُ هَلاكِ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ، فَقَالَ ﷺ: **" إِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الدِّرْهَمُ وَالدِّيْنَارُ، وَهُمَا مُهْلِكَاكُمْ "** (٨) .

---

(١) رواه الترمذي عن عثمان بن عفان برقم (٢٣٤١) وقال: حديث حسن صحيح، والحاكم في المستدرك (٧٨٦٦) وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي .

(٢) رواه أحمد في مسنده عن أبي عسيب (٢٠٧٨٧) وقال المنذري في الترغيب والهيثمي في المجمع: رجاله ثقات .

(٣) رواه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة (٧٢٠٣)، وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي .

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (٢٩٧) وفي «ذم الدنيا» (٣١١) بإسناد جيد، وروي مرفوعاً عن عائشة بإسناد فيه نظر، وانظر «جامع العلوم والحكم» ص (٣٥٩) .

(٥) رواه الترمذي عن أبي هريرة (٢٣٥٣) وقال: حديث حسن صحيح، ورواه ابن ماجه (٤١٢٢) .

(٦) رواه البخاري عن أبي هريرة (٦٤٦٠)، بلفظ **"اَللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا"**. ورواه مسلم (٢٤٧٤) و(٧٦٣٠) و(٧٦٣١) .

(٧) رواه أحمد في مسنده عن كعب بن مالك (١٥٧٨٤) والترمذي في سننه (٢٣٧٦) وقال: حديث حسن .

(٨) رواه البزار عن ابن مسعود برقم (١٦١٢)، وقال المنذري في الترغيب والهيثمي في المجمع: إسناده جيد .

وقَالَ ﷺ: "**لا تُفْتَحُ الدُّنْيَا عَلَى أَحَدٍ إِلاَّ أَلْقَى اللهُ ﷻ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**" (١)، وقَالَ ﷺ: "**إِنَّ مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا** " (٢) .

وقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ لا سَبِيلَ لِلْخَلاصِ مِنْ هُمُومِ الدُّنْيَا وغُمُومِهَا وأَحْزَانِهَا إِلاَّ بِجَعْلِ الْهِمَّةِ مُنْصَرِفَةً لِلآخِرةِ بِالْكُلِّيَّةِ، لأَنَّ الْهَمَّ الأَكْبَرَ يُنْسِي الْهَمَّ الأَصْغَرَ، فَقَالَ ﷺ: "**مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا هَمَّ آخِرَتِهِ كَفَاهُ اللهُ هَمَّ دُنْيَاهُ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ**" (٣)، وقَالَ ﷺ:" **مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ فَرَّقَ اللهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَمَعَ اللهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ**" (٤)؛ فَالْحَاصِلُ أَنَّ مَا كُتِبَ لِلْعَبْدِ مِنَ الرِّزْقِ يَأْتِيهِ لا مَحَالَةَ، إِلاَّ أَنَّهُ مَنْ طَلَبَ الآخِرَةَ يَأْتِيهِ بِلا تَعَبٍ، ومَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا يَأْتِيهِ بِتَعَبٍ وشِدَّةٍ، فَطَالِبُ الآخِرَةِ قَدْ جَمَعَ بَيْنَ الدُّنْيَا والآخِرَةِ، فَإِنَّ الْمَطْلُوبَ مِنْ جَمْعِ الْمَالِ الرَّاحَةُ فِي الدُّنْيَا، وقَدْ حَصَلَتْ لِطَالِبِ الآخِرَةِ، وطَالِبُ الدُّنْيَا قَدْ خَسِرَ الدُّنْيَا والآخِرَةَ، لأَنَّهُ فِي الدُّنْيَا فِي التَّعَبِ الشَّدِيْدِ فِي طَلَبِهَا، فَأَيُّ فَائِدَةٍ لَهُ فِي الْمَالِ إِذَا فَاتَتِ الرَّاحَةُ (٥) .

فَإِذَا أَصْبَحَ الْعَبْدُ وأَمْسَى وَلَيسَ هَمُّهُ إِلاَّ اللهَ وَحْدَهُ، تَحَمَّلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَوَائِجَهُ كُلَّهَا، وحَمَلَ عَنهُ كُلَّ مَا أَهَمَّهُ، وفَرَّغَ قَلْبَهُ لِمَحَبَّتِهِ، ولِسَانَهُ لِذِكْرِهِ، وجَوَارِحَهُ لِطَاعَتِهِ،

---

(١) رواه أحمد في مسنده عن أبي سنان الدؤلي (٩٣) واللفظ له، ورواه البزار في مسنده (٣١١) وقال المنذري في الترغيب والهيثمي في المجمع: بإسناد جيد .

(٢) رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري (١٤٥٦) ومسلم (٢٤٧٠) .

(٣) رواه ابن ماجه عن ابن مسعود (٢٥٧) والحاكم في المستدرك عن ابن عمر (٣٦٥٨) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي .

(٤) رواه الترمذي في سننه عن زيد بن ثابت برقم (٢٤٦٥) وابن ماجه واللفظ له (٤١٠٥)، والطبراني في الأوسط عن أنس بن مالك (٥٩٩٠) و(٨٨٨٢). وقال المنذري: رواته ثقات، وقال البوصيري: إسناد صحيح ورجاله ثقات .

(٥) «حاشية السندي على ابن ماجه» (٥٢٥/٢) .

وإنْ أَصْبَحَ وأَمْسَى وَالدُّنْيَا هَمُّهُ، حَمَّلَهُ اللَّهُ هُمُومَهَا وغُمُومَهَا وأَنْكَادَهَا، ووَكَلَهُ إلى نَفْسِهِ، فَشَغَلَ قَلْبَهُ عَنْ مَحَبَّتِهِ بِمَحَبَّةِ الْخَلْقِ، ولِسَانَهُ عَنْ ذِكْرِهِ بِذِكْرِهِم، وجَوَارِحَهُ عَنْ طَاعَتِهِ بِخِدْمَتِهِم وأَشْغَالِهِم، فَهُوَ يَكْدَحُ كَدْحَ الْوَحْش في خِدْمَةِ غَيْرِهِ، كَالْكِيْرِ يَنْفُخُ بَطْنَهُ، ويَعْصِرُ أَضْلاعَهُ في نَفْعِ غَيرِهِ، فَكُلُّ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ عُبُودِيَّةِ اللَّهِ وطَاعَتِهِ ومَحَبَّتِهِ بُلِيَ بِعُبُودِيَّةِ الْمَخْلُوق ومَحَبَّتِهِ وخِدْمَتِهِ [(١)] ؛ وقَالَ عَوْنُ بْنُ عَبدِ اللَّهِ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"كَانَ الْفُقَهَاءُ يَتَوَاصَوْنَ بَيْنَهُمْ بِثَلاثٍ، ويَكْتُبُ بذَلِكَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ: مَنْ عَمِلَ لآخِرَتِهِ كَفَاهُ اللَّهُ دُنْيَاهُ، وَمَنْ أَصْلَحَ سَرِيْرَتَهُ أَصْلَحَ اللَّهُ عَلانِيَتَهُ، وَمَنْ أَصْلَحَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ أَصْلَحَ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَمَا بَيْنَ النَّاسِ "** [(٢)]، وقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رضي الله عنه: **"إنْ أَنْتَ ابْتَدَأْتَ بِنَصِيْبِكَ مِنَ الدُّنْيَا يَفُتْكَ نَصِيْبُكَ مِنَ الآخِرَةِ، وعَسَى أَنْ لا تُدْرِكَ مِنْهُمَا الَّذِي تُرِيدُ، وَإِنِ ابْتَدَأْتَ بِنَصِيْبِكَ مِنَ الآخِرَةِ يَمُرُّ بِكَ عَلَى نَصِيْبِكَ مِنَ الدُّنْيَا، فَيَنْتَظِمُ لَكَ انْتِظَامًا، ثُمَّ تَدُوْرُ مَعَكَ حَيْثُ تَدُوْرُ."** [(٣)]، وقَالَ عِيسَى عليه السلام: **"يَا مَعْشَرَ الْحَوَارِيِّيْنَ ارْضَوْا بِدَنِيْءِ الدُّنْيَا مَعَ سَلامَةِ الدِّينِ كَمَا رَضِيَ أَهْلُ الدُّنْيَا بِدَنِيْءِ الدِّيْنِ مَعَ سَلامَةِ الدُّنْيَا"** [(٤)]، وسَأَلَهُ الحَوَارِيُّونَ عَنِ النَّاصِحِ للهِ مَنْ هُوَ ؟ فَقَالَ: **"الَّذِي يَبْدَأُ بِحَقِّ اللَّهِ فَيُؤْثِرُ حَقَّ اللَّهِ عَلَى حَقِّ النَّاسِ، وَإِذَا عَرَضَ لَهُ أَمْرَانِ أَمْرُ دُنْيَا وَأَمْرُ آخِرَةٍ يَبْدَأُ بِأَمْرِ الآخِرَةِ، وَيَتَفَرَّغُ لأَمْرِ الدُّنْيَا بَعْدُ "** [(٥)] .

وبَلَغَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَصْحَابِهِ شَيْءٌ فَقَالَ: **" عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا "** [(٦)] .

---

(١) «الفوائد» لابن القيم (١٢١) .

(٢) «حلية الأولياء» (٤/٢٤٧) .

(٣) رواه إسحاق بن راهويه موقوفاً ورواته ثقات، كذا في «إتحاف الخيرة» للبوصيري (٧٣٦٠) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في «الزهد» عن زكريا بن عدي (٥٢٢) و«ذم الدنيا» (٤٤٩) والبيهقي في «الزهد الكبير» (٩٨٩) .

(٥) رواه أحمد في «الزهد» عن أبي ثمامة الصايدي (٣٠٨) .

(٦) رواه البخاري عن عائشة (١٠٤٤) و(٥٢٢١) و(٦٦٣١) وعن أنس بن مالك (٤٦٢١) و(٦٤٨٦) وعن أبي هريرة (٦٤٨٥) و(٦٦٣٧) ورواه مسلم عن عائشة (٢١٢٧) وعن أنس (٦٢٨٦) .

وبَيَّنَ ﷺ أنَّ صَلاحَ هَذِهِ الأُمَّةِ بالزُّهْدِ واليَقِينِ [(١)]، وَوَصَّى ﷺ جَمَاعَةً مِنَ الصَّحَابَةِ أَنْ يَكُونَ بَلاغُ أَحَدِهِم مِنَ الدُّنيَا كَزَادِ الرَّاكِبِ، مِنْهُمْ سَلْمَانُ وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ وأَبُو ذَرٍّ وعَائِشَةُ ﷺ، وَوَصَّى ﷺ ابْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنْ يَكُونَ فِي الدُّنيا كَأَنَّهُ غَرِيبٌ أَو عَابِرُ سَبِيلٍ، وأَنْ يَعُدَّ نَفْسَهُ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ [(٢)]. وقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه لأَصْحَابِهِ:" **أَنْتُمْ أَكْثَرُ صَلاةً وصَوماً وجِهَاداً مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَهُمْ كَانُوا خَيْراً مِنْكُمْ** " قَالُوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: "**كَانُوا أَزْهَدَ مِنْكُمْ فِي الدُّنْيَا وَأَرْغَبَ مِنْكُمْ فِي الآخِرَةِ** " [(٣)] .

وقَدْ تَنَوَّعَتْ عِبَارَاتُ السَّلَفِ في الزُّهْدِ، فَعَنْ يونسَ بْنِ مَيسَرَةَ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ:" **لَيْسَ الزَّهَادَةُ فِي الدُّنْيَا بتَحْرِيْمِ الحَلالِ ولا بإضَاعَةِ الْمَالِ، وَلَكِنَّ الزَّهَادَةَ فِي الدُّنْيَا أَنْ تَكُونَ بمَا فِي يَدِ اللهِ أَوْثَقَ مِنْكَ بمَا فِي يَدِكَ، وَأَنْ يَكُونَ حَالُكَ فِي الْمَصِيبَةِ وحَالُكَ إِذَا لَمْ تُصَبْ بِهَا سَوَاءً، وأَنْ يَكُونَ مَادِحُكَ وذَامُّكَ فِي الْحَقِّ سَوَاءً**" [(٤)]. وقَالَ الحَسَنُ رَحِمَهُ اللهُ: "**إِنَّ مِنْ ضَعْفِ يَقِيْنِكَ أَنْ تَكُونَ بمَا فِي يَدِكَ أَوْثَقَ مِنْكَ بمَا فِي يَدِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**" [(٥)] . وقِيلَ لأَبِي حَازِمٍ رَحِمَهُ اللهُ: مَا مَالُكَ ؟ قَالَ: "**لِيْ مَالانِ لا أَخْشَى مَعَهُمَا الْفَقْرَ: الثِّقَةُ باللهِ وَالْيَأْسُ مِمَّا فِي أَيْدِيْ النَّاسِ**". وقِيلَ لَهُ: أَمَا تَخَافُ الْفَقْرَ ؟ فَقَالَ: "**أَنَا أَخَافُ الْفَقْرَ وَمَوْلايَ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ؟!**" [(٦)] .

وقَالَ الحَسَنُ رَحِمَهُ اللهُ: "**الزَّاهِدُ الَّذِي إِذَا رَأَى أَحَداً قَالَ: هُوَ أَفْضَلُ مِنِّيْ.**" ويُقَالُ: الزُّهْدُ فِي الرِّيَاسَةِ أَشَدُّ مِنْهُ فِي الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، فَمَنْ أَخْرَجَ مِنْ قَلْبِهِ حُبَّ الرِّيَاسَةِ فِي

---

(١) رواه أحمد في «الزهد» عن عبد الله بن عمرو(٥١) والطبراني في الأوسط (٧٦٥٠) وقال المنذري في الترغيب: وفي إسناده احتمال للتحسين .

(٢) «جامع العلوم والحكم» ص (٣٦٠) .

(٣) رواه الطبراني في الكبير (٨٦٨١) والحاكم في المستدرك (٧٨٨٠) وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي .

(٤) رواه أحمد في «الزهد» عن أبي مسلم الخولاني (٩٦) والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٧٧٤) وابن أبي الدنيا في «الزهد» (١٠٧) ورواه ابن ماجه مرفوعاً عن أبي ذر (٤١٠٠) ولا يصح رفعه .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في «اليقين» (٣٤) .

(٦) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٣٠١) وأبو نعيم في «الحلية» (٢٣٢/٣) .

الدُّنْيَا والتَّرَفُّعِ فِيهَا عَلَى النَّاسِ فَهُوَ الزَّاهِدُ حَقًّا، وهَذَا هُوَ الَّذِي يَسْتَوِي عِنْدَهُ حَامِدُهُ وذَامُّهُ فِي الحَقِّ، وهُوَ كَقَولِ وُهَيْبِ بْنِ الوَرْدِ: **"الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا أَنْ لا تَأْسَى عَلَى مَا فَاتَ مِنْهَا، وَلا تَفْرَحَ بِمَا آتَاكَ مِنْهَا."** وهذا يَرْجِعُ إلى أَنَّهُ يَسْتَوِيْ عِنْدَ العَبْدِ إِقْبَالُهَا وإِدْبَارُهَا وزِيَادَتُهَا ونَقْصُهَا، وهُوَ مِثْلُ اسْتِوَاءِ حَالِ الْمُصِيبَةِ وعَدَمِهَا. وسَئَلَ بَعْضُهُمُ الإِمَامَ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللهُ عَمَّنْ مَعَهُ مَالٌ، هَلْ يَكُونُ زَاهِداً ؟ قَالَ: **"إِنْ كَانَ لا يَفْرَحُ بِزِيَادَتِهِ، وَلا يَحْزَنُ بِنَقْصِهِ فَهُوَ زَاهِدٌ،** أَوْ كَمَا قَالَ." وقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: **"وَكَانَ مِنْ دُعَائِهِمْ اللَّهُمَّ زَهِّدْنَا فِي الدُّنْيَا وَوَسِّعْ عَلَيْنَا مِنْهَا، وَلا تَزْوِهَا عَنَّا فَتُرَغِّبَنَا فِيْهَا "** [١] . وقَالَ الفُضَيلُ بْنُ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللهُ: **"أَصْلُ الزُّهْدِ الرِّضَا عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ** [٢]. وقَالَ رَحِمَهُ اللهُ: **"القَنُوعُ هُوَ الزَّاهِدُ وَهُوَ الْغَنِيُّ"** [٣]. وقَالَ ﷺ: **"الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا يُرِيحُ الْقَلْبَ وَالْبَدَنَ "** [٤]. وقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: **"الزُّهْدُ تَرْكُ مَا يَشْغَلُ عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ "** [٥] .

فَالزُّهْدُ فِي الدُّنيا يُرَادُ بِهِ تَفْرِيْغُ القَلْبِ مِنَ الاشْتِغَالِ بِهَا، لِيَتَفَرَّغَ لِطَلَبِ اللهِ ومَعْرِفَتِهِ والقُرْبِ مِنْهُ والأُنْسِ بِهِ والشَّوْقِ إلى لِقَائِهِ، لأَنَّهُ لا سَبِيلَ لِلْجَمْعِ بَيْنَهُمَا فِي القَلْبِ، كَمَا قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: **"مَنْ أَحَبَّ الدُّنْيَا وَسَرَّتْهُ نُزِعَ خَوْفُ الآخِرَةِ مِنْ قَلْبِهِ"** [٦]، وقَالَ عَونُ بْنُ عَبدِ اللهِ رَحِمَهُ اللهُ: **"الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ فِي الْقَلْبِ كَكِفَّتَيِ الْمِيزَانِ، بِقَدْرِ مَا تَرْجَحُ إِحْدَاهُمَا تَخِفُّ الأُخْرَى"** [٧]، وقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ رَحِمَهُ اللهُ: **"إِنَّمَا الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ كَرَجُلٍ لَهُ امْرَأَتَانِ: إِنْ أَرْضَى إِحْدَاهُمَا أَسْخَطَ الأُخْرَى "** [٨] .

---

(١) «جامع العلوم والحكم» ص (٣٥٥- ٣٥٦) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (١٢٢) والدينوري في «المجالسة» رقم (٣٠٤٥) .

(٣) «جامع العلوم والحكم» ص (٣٥٤) .

(٤) رواه الطبراني في الكبير عن أبي هريرة (١٠٧٤) وفي الأوسط (٦١٢٠) وقال المنذري في الترغيب: إسناده مقارب.

(٥) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٩/٢٥٨) .

(٦) المصدر السابق (٧/٧٩) و(١٠/٢٢) .

(٧) المصدر السابق (٤/٢٥١) .

(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (٦٤) وفي «ذم الدنيا» (١١٩) .

وعَلَى كُلِّ حَالٍ فَالزُّهْدُ في الدُّنيا شِعَارُ أَنْبيَاء الله وأَوْلِيَائِهِ وأَحِبَّائِهِ، ومَوْضُوعُ دَعْوَةِ الأَنْبيَاءِ عليهم السلام، وَلا يَتَأَتَّى إلاَّ بالْيَقِينِ باللهِ سبحانه وتعالى وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، فَمَنْ حَقَّقَ الْيَقِينَ باللهِ في أُمُورِهِ كُلِّهَا، ورَضِيَ بتَدْبيرِهِ لَهُ، وَانْقَطَعَ عَنِ التَّعَلُّقِ بالْمَخْلُوقِينَ رَجَاءً وخَوْفاً، ومَنَعَهُ ذَلِكَ مِنْ طَلَبِ الدُّنيا بالأَسْبَابِ الْمَكْرُوهَةِ، فَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ كَانَ زَاهِداً في الدُّنْيَا حَقِيقَةً، وكَانَ مِنْ أَغْنَى النَّاسِ، وإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا، كَمَا قَالَ عَمَّارٌ رضي الله عنه: "**كَفَى بالْمَوْتِ وَاعِظاً، وَكَفَى بالْيَقِيْنِ غِنىً، وَكَفَى بالْعِبَادَةِ شُغْلاً.**" [1] .

فَالدُّنْيَا دَارٌ إِذَا أَضْحَكَتِ الْيَومَ أَبْكَتْ غَداً، وإِنْ سَرَّتِ اليَومَ أَعْقَبَ سُرُورُهَا الرَّدَى، وإِنْ حَلَّتْ فِيهَا النِّعَمُ جَمِيعاً حَلَّتْ فِيهَا النِّقَمُ سَرِيعاً .

وَالدُّنْيَا إِنْ أَخْصَبَتْ أَجْدَبَتْ، وإِنْ جَمَعَتْ فَرَّقَتْ، وإِنْ ضَمَّتْ شَتَّتَتْ، وإِنْ نَقَصَتْ نَقَّصَتْ، وإِنْ أَغْنَتْ عَنَّتْ، وإِنْ زَادَتْ أَبَادَتْ، وإِنْ عَمَّرَتْ دَمَّرَتْ، وإِنْ أَسْفَرَتْ أَدْبَرَتْ، وإِنْ رَاقَتْ أَرَاقَتْ، وإِنْ صَافَتْ حَافَتْ، وإِنْ عَمَّتْ بِنَوَالِهَا غَمَّتْ بِوَبَالِهَا، وإِنْ جَادَتْ بِوِصَالِهَا جَاءَتْ بِفِصَالِهَا !.

قُرْبُهَا بَعِيْدٌ، وحَبِيبُهَا طَرِيْدٌ، شَرَابُهَا سَرَابٌ، وعَذْبُهَا عَذَابٌ، دَارُ الهُمُومِ والأَحْزَانِ، والغُمُومِ والأَشْجَانِ، والبَيْنِ والْفِرَاقِ، والشَّقَاءِ والشِّقَاقِ، والْوَصَبِ والنَّصَبِ، والْمَشَقَّةِ والتَّعَبِ، كَثِيرُهَا قَلِيلٌ، وعَزِيزُهَا ذَلِيلٌ، وغَنِيُّهَا فَقِيرٌ، وجَلِيلُهَا حَقِيرٌ، غَزِيرَةُ الآفَاتِ، كَثِيرَةُ الْحَسَرَاتِ، قَلِيلَةُ الصَّفَاءِ، عَدِيْمَةُ الْوَفَاءِ، لا ثِقَةَ بعُهُودِهَا، ولا هِيَ تُوفِي لِوُعُودِهَا، مُحِبُّهَا تَعْبَانٌ، وعَاشِقُهَا وَلْهَانٌ، والْوَاثِقُ بهَا خَجْلانٌ، قَدْ سَتَرَتْ مَعَايبَهَا، وكَتَمَتْ مَصَائِبَهَا، وأَخْفَتْ نَوَائِبَهَا، وخَدَعَتْ بأَبَاطِيلِهَا، وغَرَّتْ برَشَاوِيهَا وبَرَاطِيلِهَا، ونَصَبَتْ شِبَاكَهَا، ووَضَعَتْ أَشْرَاكَهَا، وبَهْرَجَتْ زَيْفَهَا، وجَرَّدَتْ سَيْفَهَا، وأَبْدَتْ مَلامِحَهَا، وسَتَرَتْ قَبَائِحَهَا .

---

[1] رواه ابن أبي الدنيا في «القناعة والعفاف» عن عمار موقوفاً (١٦٧) وفي «اليقين» (٣١)، ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» عن عمار مرفوعاً (١٠٥٥٦) ولا يصح رفعه .

زِينَتُهَا الْمَالُ والْبَنُونَ والنِّسْوَانُ والْمَنْصِبُ والقُصُورُ والخِــلاَّنُ، فَأَمَّا الْمَالُ، فَإِنَّكَ تُسْأَلُ عَنهُ: مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبْتَهُ ؟ وفِيمَا أَنْفَقْتَهُ ؟ ويَا لَهُ مِنْ سُؤَالٍ، فِي يَوْمٍ تَشِيبُ فِيهِ الأَطْفَالُ، وتَعْظُمُ فِيهِ الأَهْوَالُ، ويَكْثُرُ فِيهِ الزِّحَامُ، ويَشْتَدُّ فِيهِ الخِصَامُ، وتَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ، وتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا مِنْ هَوْلِ ذَلِكَ الْمَقَامِ، ويُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ ! ويُحَاسَبُ فِيْهِ الأَغْنِيَاءُ عَلَى النَّقِيْرِ وَالْقِطْمِيْرِ والخَطِيْرِ والحَقِيْرِ والنَّاقِصِ والتَّامِّ، ويَسْبِقُ الْفُقَرَاءُ الأَغْنِيَاءَ إلى الجَنَّةِ بِخَمْسمِائَةِ عَامٍ .

وأَمَّا الوَلَدُ، فَإِنْ كَانَ صَغِيراً فَأَنْتَ بِهِ مَهْمُومٌ، وإِنْ كَانَ كَبِيراً فأَنْتَ بِهِ مَهْمُومٌ، وإِنْ كَانَ صَحِيحاً فأَنْتَ عَلَيهِ خَائِفٌ، وإِنْ كَانَ سَقِيماً فَقَلْبُكَ لِضَعْفِهِ وَاجِفٌ ! إِنْ أَدَّبْتَهُ غَضِبَ وشَرَدَ، وإِنْ نَصَحْتَهُ حَرِدَ وحَقَدَ، مَعَ مَا تَتوَقَّعُهُ مِنَ العُقُوقِ الْمُعْتَادِ، مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الأَوْلادِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ اللَّهُ ! وإِنْ أَقْدَمْتَ جَبَّنَكَ، وإِنْ سَمَحْتَ وأَنْفَقْتَ بَخَّلَكَ، وإِنْ زَهِدْتَ رَغَّبَكَ ! لَقَدْ عَظُمَتْ بِهِ الْفِتْنَةُ، وأَنْتَ تَعُدُّهَا مِنَّةً ! وعَمَّ بِهِ البَلاءُ، وأَنْتَ تَرَاهُ مِنَ النَّعْمَاءِ ! فَهُوَ كَمَا قَالَ ﷺ: "**إِنَّ الْوَلَدَ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ مَجْهَلَةٌ مَحْزَنَةٌ**" [(١)]. تَوَدُّ سُرُوْرَهُ بِهَمِّكَ، وفَرَحَهُ بِحُزْنِكَ، ورِبْحَهُ بِخُسْرَانِكَ، وزِيَادَةَ دِرْهَمِهِ ودِيْنَارِهِ بِخِفَّةِ مِيْزَانِكَ ! تَتَكَلَّفُ مِنْ أَجْلِهِ مَا لا تُطِيْقُ، وتَدْخُلُ بِسَبَبِهِ فِي كُلِّ مَضِيْقٍ !.

وأَمَّا نِسَاؤُهَا فأَوَّلُهَا نُطْفَةٌ مَذِرَةٌ، وآخِرُهَا جِيفَةٌ قَذِرَةٌ، وهِيَ مَا بَيْنَ ذَلِكَ تَحْمِلُ العَذِرَةَ! حَيْضُهَا يَمْنَعُكَ عَنْهَا شَطْرَ عُمُرِهَا، وعُقُوقُهَا لَكَ أَكْثَرُ مِنْ بِرِّهَا، إِنْ لَمْ تَكْتَحِلْ تَعَمَّشَتْ عَيْنُهَا، وإِنْ لَمْ تَتَزَيَّنْ ظَهَرَ شَيْنُهَا، وإِذَا لَمْ تَمْتَشِطْ شَعِثَ شَعَرُهَا، وإِنْ لَمْ تَدَّهِنْ طَفَى نُورُهَا، وإِنْ لَمْ تَتَطَيَّبْ تَفِلَتْ، وإِنْ لَمْ تَتَطَهَّرْ نَتِنَتْ، كَثِيْرَةُ العِلَلِ، سَرِيْعَةُ الْمَلَلِ، إِنْ كَبِرَتْ أَيِسَتْ، وإِنْ عَجَزَتْ هَرِمَتْ، تُحْسِنُ إِلَيْهَا جُهْدَكَ، فتُنْكِرُ ذَلِكَ عِنْدَ السَّخَطِ !.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك عن الأسود بن خلف برقم (٥٢٨٤) والطبراني في الكبير عن خولة بنت حكيم برقم (٢٠٠٨١) وقال الهيثمي في المجمع: رواه البزار ورجاله ثقات. ورواه ابن ماجه عن يعلى العامري برقم (٣٦٦٦) وقال في الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات .

وَأَمَّا مَنْصِبُهَا، فَكَمْ فَارَقَ مَنْصِبَكَ مُحِبٌّ لَهُ إلى أَنْ وَصَلَ إِلَيْكَ، وَكَمْ زَالَ ظِلُّهُ عَنْ مُغْبِطٍ نَفْسَهُ إلى أَنْ ظَلَّلَ عَلَيْكَ، وَسَيَنْفَصِلُ ويَبِيْنُ عَنْكَ كَمَا عَنْهُمْ بَانَ، وكَأَنَّكَ بذَلِكَ وَقَدْ كَانَ، فَإِذَا أَنْتَ لِفِرَاقِهِ ثَكْلانُ، وقَلبُكَ مَغْمُورٌ بالحَسَدِ، وصَدْرُكَ مَعْمُورٌ بالأَحْزَانِ، فَلَمْ يَدُمْ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنَ الْمَنْصِبِ والجَاهِ، ولَمْ تَفُزْ بمَا أَنْتَ طَالِبُهُ مِنْ أَسْبَابِ النَّجَاةِ، مَعَ مَا يَخْفَى عَلَيكَ مِمَّا فِي الْمَنْصِبِ مِنَ النَّصَبِ والتَّعَبِ وشَرِّ الْعَاقِبَةِ وسُوْءِ الْمُنْقَلَبِ، وَمَا تَكْسِبُ بِهِ مِنْ كَثْرَةِ الأَعْدَاءِ والْحُسَّادِ، ومَا اشْتَمَلَتْ عَلَيهِ بَوَاطِنُهُمْ مِنَ الضَّغَائِنِ والأَحْقَادِ، وشَمَاتَتِهِمْ بكَ عِنْدَ زَوَالِهِ وتَلَهُّفِكَ حُزْناً عَلَى مَا فَاتَ مِنْ إِقْبَالِهِ، وزَوَالِ أَكْثَرِ حَشَمِكَ وخَدَمِكَ، وإِعْرَاضِ مَنْ كَانَ يُسَرُّ بتَقْبِيْلِ قَدَمِكَ !.

وأَمَّا قُصُورُهَا، فَمَا هُوَ إلاَّ بَيْتٌ مِنْ طِينٍ وحَجَرٍ وتُرَابٍ، ومَدَرٍ وحَدِيدٍ وخَشَبٍ، إِنْ لَمْ يُكْنَسْ كَثُرَتْ فِيهِ الْقُمَامَةُ، وإِنْ لَمْ يُسْرَجْ فَمَا أَشَدَّ ظَلامَهُ، وإِنْ لَمْ تَتَعَاهَدْهُ بالْبِنَاءِ فَمَا أَسْرَعَ انْهِدَامَهُ، وإِنْ تَعَاهَدْتَهُ فَمَآلُهُ إلى خَرَابٍ، وعَنْ قَلِيلٍ يَصِيرُ كَالتُّرَابِ، يَتَفَرَّقُ عَنْهُ السُّكَّانُ، وتَنْتَقِلُ عَنْهُ النَّاسُ الْقُطَّانُ، ويُعْفَى أَثَرُهُ، ويَنْدَرِسُ خَبَرُهُ، ويُمْحَى رَسْمُهُ ويُنْسَى اسْمُهُ !.

وَأَمَّا الأَصْدِقَاءُ والأَخِلاَّءُ، فَخُلَّتُهُمْ تَنْقَلِبُ عَدَاوَةً يومَ الْقِيَامَةِ إلاَّ مَا بُنِيَ فِيهَا عَلَى التَّقْوَى، وإِنَّ الْمَرْءَ فِي الآخِرَةِ مَعَ مَحْبُوبِهِ، لِمُشَارَكَتِهِ إِيَّاهُ فِي مَطْلُوبِهِ، فَإِنْ كَانَ مِنَ الأَتْقِيَاءِ نَفَعَهُ أَخَاهُ، وإِنْ كَانَ مِنَ الأَشْقِيَاءِ ضَرَّهُ وأَرْدَاهُ ! مَعَ مَا يُتَوَقَّعُ فِي هَذِهِ الدَّارِ مِنَ الأَقْرِبَاءِ وَمِنَ الأَصْدِقَاءِ مِنَ الْجَفَاءِ، والصَّدِّ وقِلَّةِ الوَفَاءِ، وكَثْرَةِ الكَدَرِ وعَدَمِ الصَّفَاءِ، وتَغَيُّرِهِمْ لَدَيْكَ، وتَلَوُّنِهِمْ عَلَيْكَ، وإِسَاءَتِهِمْ إِلَيْكَ، وهَجْرِهِمْ إِيَّاكَ عِنْدَ فَوَاتِ الأَعْرَاضِ، ومَا تَحْوِيهِ قُلُوبُهُم مِنَ الْعِلَلِ والأَمْرَاضِ ! إِنْ وَقَعْتَ فِي شِدَّةٍ تَخَلَّوْا عَنْكَ، أَوْ وَقَعْتَ فِي زَلَّةٍ تَبَرَّؤُوا مِنْكَ، إِنَّهُم إِخْوَانُ السَّرَّاءِ، أَعْدَاءُ الضَّرَّاءِ، صَدَاقَتُهُم مَقْرُونَةٌ بالْغِنَى، صُحْبَتُهُم مَشْحُونَةٌ بالْعَنَا .. إِنْ قَلَّ مَالُكَ مَلُّوْكَ، وإِنْ تَغَيَّرَ حَالُكَ فَمَا أَخُوكَ أَخُوكَ، إلاَّ مَنْ رَحِمَ اللهُ !.

فَالْكَيِّسُ الفَطِنُ يُؤْثِرُ مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى، ومَا قَلَّ ويَكْفِي عَلَى مَا كَثُرَ ويُلْهِيْ، ويَتَوجَّهُ بِقَلْبِهِ وجَوَارِحِهِ إلى دَارٍ أَعَدَّهَا اللهُ كَرَامَةً لأَوْلِيَائِهِ، هِيَ دَارٌ بَاقِيَةٌ، قُصُورُهَا عَالِيَةٌ، وأَنْوَارُهَا زَاهِيَةٌ، وأَنْهَارُهَا جَارِيَةٌ، وقُطُوفُهَا دَانِيَةٌ، وأَفْرَاحُهَا مُتَوَالِيَةٌ !.

إنْ سَأَلْتَ عَنْ بِنَاءِهَا، فَلَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ ولَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، لا تَعَبَ فِيهَا وَلا نَصَبَ؛ وإنْ سَأَلْتَ عَنْ تُرَابِهَا فالْمِسْكُ الأَذْفَرُ، وإنْ سَأَلْتَ عَنْ حَصْبَائِهَا فَاللُّؤْلُؤُ والجَوْهَرُ؛ وإنْ سَأَلْتَ عَنْ أَنْهَارِهَا، فَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ، وأَنْهَارُ مِنْ عَسَلٍ ونَهْرُ الكَوْثَرِ، ونَهْرٌ مِنَ الخَمْرِ .

وإنْ سَأَلْتَ عَنْ قُصُورِهَا، فَالقَصْرُ مِنْ لُؤْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ، طُولُهَا سِتُّونَ مِيْلاً فِي السَّمَاءِ، أَوْ مِنْ زُمُرُّدَةٍ خَضْرَاءَ بَاهِرَةِ السَّنَاءِ، أَوْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ عَالِيَةِ البِنَاءِ، ولِلْمُؤْمِنِ فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهَا أَهْلٌ وخَدَمٌ، لا يُبْصِرُ بَعْضُهُم بَعْضاً لِسَعَةِ الْفِنَاءِ .

وإنْ سَأَلْتَ عَنْ فُرُشِهَا، فَمِنْ إسْتَبْرَقٍ بَطَائِنُهَا، فَمَا ظَنُّكَ بِظَهَائِرِهَا ؟ وَهِيَ مرفوعةٌ، بَيْنَ الفِرَاشَيْنِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَلَيسَ عَلَيهَا نَومٌ ولا سِنَةٌ، بَلْ هُمْ عَلَيهَا مُتَّكِئُونَ، مُقْبِلٌ بَعْضُهُم عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ .

وَإنْ سَأَلْتَ عَنْ أَكْلِهَا، فَمَوَائِدُهَا مَوْضُوعَةٌ، وأَكْلُهَا عَلَى الدَّوَامِ، وثِمَارُهَا لا مَمْنُوعَةٌ ولا مَقْطُوعَةٌ لِطُولِ الْمُقَامِ، بَلْ فَاكِهَةٌ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ، ولَحْمُ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ، ويُسْقَوْنَ فِيهَا مِنْ رَحِيْقٍ مَخْتُومٍ، خِتَامُهُ مِسْكٌ، وفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ؛ لا يَتَغَوَّطُ أَهْلُهَا ولا يَبُولُونَ، ولا يَبْصُقُونَ، ولا يَمْتَخِطُونَ، أَكْلُهُم يَرْشَحُ مِنْ جُلُودِهِم كَالْمِسْكِ رِيْحاً، ولَوْناً كَالْجُمَانِ، فَإذَا الْبَطْنُ قَدْ ضَمِرَ كَمَا كَانَ .

وإنْ سَأَلْتَ عَنْ نِسَاءِهَا، فَهِيَ حَوْرَاءُ عَيْنَاءُ، جَمِيلَةٌ حَسْنَاءُ، بِكْرٌ عَذْرَاءُ، كَأَنَّهَا الْيَاقُوتُ، لَمْ يَطْمِثْهَا إنْسٌ قَبْلَكَ وَلا جَانٌّ، كَلامُهَا رَخِيمٌ، وقَدُّهَا قَويْمٌ، وشَعَرُهَا بَهِيْمٌ، وقَدْرُهَا عَظِيمٌ، جفْنُهَا فَاتِرٌ، وحُسْنُهَا بَاهِرٌ، وجَمَالُهَا زَاهِرٌ، ودَلالُهَا ظَاهِرٌ، كَحِيلٌ طَرْفُهَا، جَمِيلٌ ظَرْفُهَا، عَذْبٌ نُطْقُهَا، عَجِيبٌ خَلْقُهَا، زَاهِيَةُ الحُلِيِّ، بَهِيَّةُ الْحُلَلِ، كَثِيرَةُ الْوِدَادِ، عَدِيْمَةُ الْمَلَلِ، وقَدْ قَصَرَتْ طَرْفَهَا عَلَيكَ فلَمْ تَنْظُرْ إلى سِوَاكَ، وتَحَبَّبَتْ إليك بِكُلِّ مَا وَافَقَ

هَوَاكَ ! لَوْ بَرَزَ ظُفْرُهَا لَطَمَسَتْ بَدْرَ التَّمَامِ، ولَوْ ظَهَرَ سِوَارُهَا لَيْلاً لَمْ يَبْقَ فِي الْكَوْنِ ظَلامٌ، وَلَوْ بَدَا مِعْصَمُهَا لَسَبَى كُلَّ الأَنَامِ، ولَوِ اطَّلَعَتْ بَينَ السَّمَاءِ والأَرْضِ لَمَلأَ رِيْحُهَا مَا بَيْنَهُمَا، ولَوْ تَفَلَتْ فِي الْبَحْرِ الْمَالِحِ عَادَ كَأَعْذَبِ الْمَاءِ، كُلَّمَا نَظَرْتَ إِلَيْهَا ازْدَادَتْ فِي عَيْنَيْكَ حُسْناً، وكُلَّمَا جَالَسْتَهَا زَادَتْ إِلى ذَلِكَ الْحُسْنِ حُسْناً .

وإِنْ سَأَلْتَ عَنْ زَوْجَتِكَ فِي الدُّنيا، إِنْ كَانَتْ مِنَ الصَّالِحَاتِ فَتَجِدُهَا فِي الآخِرَةِ أَجْمَلَ مِنَ الْحُورِ الْعِيْنِ بِمَا لا يَعْلَمُهُ إِلاَّ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَدْ ذَهَبَ مَا تَكْرَهُ فِيهَا، وزَالَ مَا يَسُوءُ عَنْهَا، وحَسُنَ خُلُقُهَا، وكَمُلَ خَلْقُهَا، كَحْلاءَ نَجْلاءَ، حَسْنَاءَ زَهْرَاءَ، بِكْراً عَذْرَاءَ. قَدْ طَهُرَتْ مِنَ الْحَيْضِ والنِّفَاسِ، وكَرُمَتْ فِيهَا الأَنْوَاءُ والأَجْنَاسُ، وزَالَ اعْوِجَاجُهَا، وزَادَ ابْتِهَاجُهَا، وعَظُمَتْ أَنْوَارُهَا، وجَلَّ مِقْدَارُهَا، وفُضِّلَتْ عَلَى الْحُوْرِ الْعِيْنِ فِي الْجَمَالِ والأَنْوَارِ، كَفَضْلِهِنَّ فِي هَذِهِ الدَّارِ !.

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ مُدَّةِ بَقَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ فِي هَذَا النَّعِيمِ الْعَظِيمِ، والْمَقَامِ الْكَرِيْمِ، فَهُمْ أَبَداً فِيهِ خَالِدُونَ، أَحْيَاءٌ لا يَمُوتُونَ، شَبَابٌ لا يَهْرَمُونَ، أَصِحَّاءُ لا يَسْقَمُونَ، فَرِحُونَ لا يَحْزَنُونَ، رَاضُونَ لا يَسْخَطُونَ، إِلى وَجْهِ رَبِّهِمْ يَنْظُرُونَ، مِنْ خَوْفِ الْقَطِيعَةِ والطَّرْدِ آمِنُونَ، فِي مَقَامٍ أَمِينٍ، دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ، وتَحِيَّتُهُم فِيهَا سَلامٌ، وآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ ! [(١)].

وثَمَرَةُ مَعْرِفَةِ خَسَاسَةِ الدُّنْيَا وفَنَائِهَا احْتِقَارُهَا وعَدَمُ الالْتِفَاتِ إِلَيْهَا، وثَمَرَةُ مَعْرِفَةِ نَفَاسَةِ الآخرةِ وبَقَائِهَا الإقْبَالُ عَلَيهَا وَالابْتِدَارُ إِلَيْهَا؛ وَالْجَهْلُ بِخَسَاسَةِ هَذِهِ الدَّارِ مُثْمِرٌ لِلإِخْلادِ إِلَيْهَا، وَالْجَهْلُ بِنَفَاسَةِ دَارِ الْقَرَارِ مُثْمِرٌ لإِيْثَارِ هَذِهِ الدُّنْيَا عَلَيهَا [(٢)] .

فَكَانَ تَوْجِيْهُ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ لِلنَّاسِ مِنَ الدُّنيا إِلى الآخِرَةِ، فَإِذَا تَوَجَّهَتْ قُلُوبُهُم ورَغِبَتْ فِي الآخِرَةِ، بَدَأَتْ تُعِدُّ العُدَّةَ وتَتَّخِذُ الزَّادَ لَهَا بالإِيْمَانِ والأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، فَكَانُوا

---

(١) «تهذيب مشارع الأشواق» لابن النحاس ص (٤٧-٥٦) .

(٢) «شجرة المعارف والأحوال» ص (٥٨ - ٥٩) من كلام العز بن عبدالسلام .

يُوَجِّهُونَهُم مِنَ الأَسْبَابِ الدُّنْيوِيَّةِ الضَّعِيفَةِ الظَّنِّيَّةِ إلى الأَعْمَالِ الدِّينِيَّةِ الْقَوِيَّةِ الْيَقِيْنِيَّةِ، ويُبَيِّنُونَ لَهُمْ مَنَافِعَهَا وآثَارَهَا فِي الْحَالِ والْمَآلِ، فَإِنَّ الإِنْسَانَ إِذَا قَوِيَ تَوَكُّلُهُ عَلَى اللهِ عَجَلَ صَارَ يَسْتَعِينُ باللهِ عَجَلَ ويَلْجَأُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ شَأْنٍ مِنْ شُؤُونِ حَيَاتِهِ، فَلا يَلْتَفِتُ بِقَلْبِهِ إِلى الأَسْبَابِ، بَلْ يَنْظُرُ مَا هُوَ أَمْرُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْمُتَوَجِّهُ إِلَيهِ فَيَمْتَثِلُهُ، فَالأَسْبَابُ اليَقِينِيَّةُ - وَهِيَ الأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ - أَقْوَى أَثَراً مِنَ الأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ لأَهْلِهَا وأَنْفَعُ مِنهَا، ولَكِنْ بِشَرْطِ اليَقِينِ، لأَنَّ قُوَّةَ السِّلاحِ بِرَامِيْهِ، فَإِنَّ الدُّعَاءَ مِنَ الأَعْمَالِ الَّتِي لَهَا أَثَرٌ عَظِيمٌ، فَبِدُعَاءِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَغَيَّرَتْ نَوَامِيْسُ الْكَوْنِ ونَزَلَ الْمَاءُ مِنَ السَّمَاءِ ونَبَعَ مِنَ الأَرْضِ وأُغْرِقَ الظَّالِمُونَ؛ وبِدُعَاءِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَرَجَتْ مِنَ الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ نَاقَةٌ عُشَرَاءُ؛ وبِدُعَاءِ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ رُزِقَ وَلَداً مَعَ انْقِطَاعِ أَسْبَابِ مَجِيْئِهِ؛ وبِدُعَاءِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أُعْطِيَ مُلْكاً عَظِيماً لا يَنْبَغِيْ لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ.

وكَذَلِكَ الصَّلاةُ فَإِنَّهَا سَبَبٌ لِلْفَلاحِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢]، وَالْفَلاحُ كَلِمَةٌ لَيْسَ فِي اللُّغَةِ أَجْمَعُ لِكُلِّ خَيْرٍ فِي الدُّنيا والآخِرَةِ مِنْهَا، فَهِيَ سَبَبٌ يَقِينِيٌّ لِحَلِّ الْمَشَاكِلِ وقَضَاءِ الْحَوَائِجِ إِذَا تَحَقَّقَتْ فِيهَا شَرَائِطُهَا؛ فَقَدْ قَالَ ﷺ: "**إِنَّمَا يَنْصُرُ اللهُ هَذِهِ الأُمَّةَ بِضُعَفَائِهِمْ، بِصَلاتِهِمْ وَدَعْوَتِهِمْ**."[(١)]، وكَانَ ﷺ **إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ فَزِعَ إِلى الصَّلاة.** [(٢)]، **وَكَانَ إِذَا نَزَلَ بِأَهْلِهِ ضِيْقٌ أَوْ حَاجَةٌ أَمَرَهُمْ بِالصَّلاةِ** [(٣)]، وقَامَ ﷺ لَيْلَةَ بَدْرٍ يُنَاجِي رَبَّهُ، وكَذَلِكَ لَيْلَةَ الْخَنْدَقِ، ولَمَّا بَعَثَ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ وَأَبَا نَائِلَةَ لِقَتْلِ كَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ قَامَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ يُصَلِّيْ [(٤)]، وكَذَلِكَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَمَا أُخِذَتْ زَوْجَتُهُ سَارَةُ مِنْ قِبَلِ جُنُودِ الْمَلِكِ الظَّالِمِ قَامَ يُصَلِّيْ

---

(١) رواه البخاري عن سعد بن أبي وقاص (٢٨٩٦) والبيهقي في سننه (١٣٢٨٤) واللفظ له .

(٢) رواه أحمد في مسنده عن حذيفة (٢٣٢٩٩) وأبو داوود في سننه (١٣٢١) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣١٨١) وابن جرير الطبري في «تفسيره» (٨٤٩) (٨٥٠) واللفظ له، وحَسَّنَهُ الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» .

(٣) رواه الطبراني في الأوسط عن عبد الله بن سلام (٨٨٦) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣١٨٠) و(٩٧٠٥) وقال الهيثمي في المجمع: رجاله ثقات .

(٤) رواه البخاري عن جابر بن عبد الله (٤٣٧) ومسلم (٤٧٦٥) .

فَكَفَاهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ شَرِّهِ، وأَخْدَمَهَا أُمَّنَا هَاجَرَ [(١)]. وجُرَيْجٌ الرَّاهِبُ لَمَّا اتُّهِمَ بِالْفَاحِشَةِ ظُلْماً وزُوْراً تَوضَّأَ وصَلَّى، فَأَنْطَقَ اللَّهُ الصَّبِيَّ بِتَبْرِئَتِهِ [(٢)].

فَالصَّلاةُ الْحَقِيقِيَّةُ أَفْضَلُ زَادٍ يُعِدُّهُ الْمُؤْمِنُ لِمَا يُوَاجِهُهُ مِنْ أَحْوَالِ الدُّنيا والآخِرَةِ، كَمَا كَانَ ابْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ: **"احْمِلُوا حَوَائِجَكُمْ عَلَى الْمَكْتُوبَةِ "**[(٣)]، وهَكَذَا جَمِيعُ أَعْمَالِ الدِّينِ فِيهَا الأَثَرُ الْعَظِيمُ فِي حَلِّ الْمَشَاكِلِ وقَضَاءِ الْحَوَائِجِ، وذَلِكَ لِوَعْدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيهَا، فَإِنَّ الأَسْبَابَ الْمَادِّيَّةَ لَيْسَ هُنَاكَ وَعْدٌ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيهَا، فَقَدْ يُتَاجِرُ الإِنْسَانُ ولا يَرْبَحُ، وقَدْ يَزْرَعُ ولا يَحْصُدُ، وقَدْ يَتزَوَّجُ ولا يُنْجِبُ، وقَدْ يَكُونُ لَدَيْهِ أَسْبَابُ النُّصْرَةِ الْمَادِّيَّةُ ولا يَنْتَصِرُ، أَمَّا أَعْمَالُ الدِّينِ فَيَتَعَلَّقُ بِهَا وَعْدُ اللَّهِ، واللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يُخْلِفُ الْمِيْعَادَ، وقِصَّةُ الثَّلاثَةِ النَّفَرِ الَّذِينَ انْسَدَّتْ عَلَيهِمُ الصَّخْرَةُ وهُمْ فِي الْغَارِ خَيْرُ دَلِيلٍ عَلَى أَثَرِ الأَعْمَالِ فِي حَلِّ الْمَشَاكِلِ فِي كُلِّ زَمَانٍ ومَكَانٍ [(٤)].

وأَسْبَابُ الدُّنيا لا بُدَّ أَنْ تُفَارِقَ صَاحِبَهَا إِمَّا فِي الدُّنيا أَوْ بِالْمَوتِ، أَمَّا أَعْمَالُ الدِّينِ فَإِنَّهَا تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا، لِذَلِكَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُوَجِّهُ أَصْحَابَهُ مِنَ الانْشِغَالِ بالأَسْبَابِ الْمَادِيَّةِ إلى الانْشِغَالِ بالأَسْبَابِ اليَقِينيَّةِ، كَمَا قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَرْوِيْ عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ: **"يَا ابْنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلأْ قَلْبَكَ غِنىً وَأَمْلأْ يَدَيْكَ رِزْقاً"** [(٥)]، وقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"لأَنْ أَقُولَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ"** [(٦)].

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة (٣٣٥٨) ومسلم (٦٢٩٤).

(٢) رواه البخاري عن أبي هريرة (٢٤٨٢) و (٣٤٣٦) ومسلم (٦٦٧٢) و(٦٦٧٣).

(٣) مصنف عبد الرزاق (٤٠٤٠) والطبراني في الكبير (٩٣٨٨) وقال الهيثمي في المجمع: عمرو لم يسمع من ابن مسعود وبقية رجاله ثقات.

(٤) رواه البخاري عن ابن عمر (٢٢٧٢) ومسلم (٧١٢٥).

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) رواه مسلم عن أبي هريرة (٧٠٢٢).

وَقَالَ ﷺ: "رَكْعَتا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيْهَا" (١). وقَالَ ﷺ: "غَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيْهَا" (٢). وخَرَجَ ﷺ يَوْماً عَلَى أَصْحَابِهِ وهُمْ فِي الصُّفَّةِ فَقَالَ: " أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إلى بُطْحَانَ أَوْ إلى الْعَقِيقِ فَيَأْتِيَ مِنْهُ بنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ فِي غَيْرِ إِثْمٍ ولا قَطْعِ رَحِمٍ". فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ نُحِبُّ ذَلِكَ. قَالَ: "أَفَلاَ يَغْدُو أَحَدُكُمْ إلى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمَ أَوْ يَقْرَأَ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلاَثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلاَثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الإِبِلِ " (٣). وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ إذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ أَنْ يَجِدَ فِيهِ ثَلاَثَ خَلِفَاتٍ عِظَامٍ سِمَانٍ ". قُلْنَا: نَعَمْ . قَالَ:" فَثَلاَثُ آيَاتٍ يَقْرَأُ بِهِنَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلاَتِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلاَثِ خَلِفَاتٍ عِظَامٍ سِمَانٍ " (٤) .

وهَكَذَا جَمِيعُ أَحَادِيْثِ الْفَضَائِلِ تُبَيِّنُ قِيمَةَ أَعْمَالِ الدِّينِ وفَضْلَهَا عَلَى أَعْمَالِ الدُّنيَا، وَذَلِكَ لأَنَّهَا هِيَ الْمَقْصُودَةُ لِذَاتِهَا، وبِهَا أُمِرْنَا بِالْمُنَافَسَةِ والْمَسَارَعَةِ والتَّسَابُقِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ [المطففين: ٢٦]، وقَالَ: ﴿ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [المائدة: ٤٨]، وَقَالَ: ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، فَهَذَا شَأْنُ جَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فِي دَعْوَتِهِمْ أَقْوَامَهُمْ إلى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَشَأْنُ خُلَفَائِهِمْ ونُوَّابِهِمْ فِي أُمَمِهِمْ، أَنْ يُوَجِّهُوا النَّاسَ مِنَ الْمَخْلُوقِ إلى الخَالِقِ، وَمِنَ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ إلى الآخِرَةِ البَاقِيَةِ، ومِنَ الأَسْبَابِ الْمَادِيَّةِ الظَّنِّيَّةِ النَّفْعِ الْمُنْقَطِعَةِ الأَثَرِ إلى الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ اليَقِيْنِيَّةِ النَّفْعِ الدَّائِمَةِ الأَثَرِ .

نَسْأَلُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَى أَنْ يَقْبَلَنَا فِي سَبِيلِهِمْ، وَيَشْغَلَنَا فِي عَمَلِهِمْ، وَيَحْشُرَنَا مَعَهُمْ، وَيُدْخِلَنَا مُدْخَلَهُمْ، إِنَّهُ سَمِيْعٌ قَرِيْبٌ مُجِيْبُ الدُّعَاءِ .

---

(١) رواه مسلم عن عائشة (١٧٢١) .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) رواه مسلم عن عقبة بن عامر (١٩٠٩) .

(٤) رواه مسلم عن أبي هريرة (١٩٠٨).


باب
فضل العبادات في
الخروج
في سبيل الله

الحَدِيْثُ السَّادِسُ وَالعِشْرُونَ

عَنْ أَبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "مَنْ صَامَ يَوْماً فِي سَبِيلِ اللَّهِ بَاعَدَ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفاً " (١) .

قوله: (مَنْ صَامَ يَوْماً فِي سَبِيلِ اللَّهِ) أَيْ فِي الجِهَادِ أَوْ فِي طَرِيقِ الْحَجِّ أَوِ الْعُمْرَةِ أَوْ طَلَبِ الْعِلْمِ أَوِ الدَّعْوَةِ إلى اللَّهِ ؛ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ :" إِنَّ سَبِيلَ اللَّهِ هِيَ الجِهَادُ وَطَلَبُ الْعِلْمِ وَدَعْوَةُ الْخَلْقِ إلى اللَّهِ، وَطَلَبُ الْعِلْمِ وتَعْلِيْمُهُ مِنْ أَعْظَمِ سُبُلِ اللَّهِ." (٢) .
وَقَالَ ﷺ: "إِنَّ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ " (٣) .

قوله ﷻ: (بَاعَدَ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ) أَيْ ذَاتَهُ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: وَجْهُ الطَّرِيقِ تُرِيْدُ بِهِ عَيْنَهُ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ يُنَجِّيهِ مِنْهَا، أَوْ يُعَجِّلُ إِخْرَاجَهُ مِنْهَا قَبْلَ أَوَانِ اسْتِحْقَاقِهِ (٤) .

قوله: (سَبْعِينَ خَرِيفاً) أَيْ سَبْعِينَ سَنَةً، أَيْ نَجَّاهُ وَبَاعَدَهُ عَنْهَا مَسَافَةً تُقْطَعُ فِي سَبْعِينَ سَنَةً، إِذْ كُلَّمَا مَرَّ خَرِيْفٌ انْقَضَتْ سَنَةٌ، وذِكْرُ رَقَمِ السَّبْعِينَ عَلَى عَادَةِ الْعَرَبِ لِلتَّكْثِيرِ، كَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٨٠]، أَيْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمُ اسْتِغْفَاراً كَثِيراً (٥)، وَعَبَّرَ عَنْهُ بِطَرِيقَةِ التَّمْثِيلِ لِيَكُونَ أَبْلَغَ، لأَنَّ مَنْ كَانَ مُبْعَداً عَنْ عَدُوِّهِ بِهَذَا الْقَدْرِ لا يَصِلُ إِلَيْهِ أَلْبَتَّةَ (٦) .

---

(١) رواه البخاري برقم (٢٨٤٠) ورواه مسلم برقم (٢٧٦٩) .
(٢) «مفتاح دار السعادة» باختصار (١/ ٩١-٩٢) .
(٣) رواه أحمد في مسنده عن أم معقل الأسدية (٢٧٣٢٧) والحاكم (١٧٧٤) وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي .
(٤) «فيض القدير» (٦/١٦١) .
(٥) يُؤَيِّدُ هذا القَولَ ما رواه ابن أبي عاصم عن عقبة بن عامر بنحوه، إلاَّ أَنَّهُ قال:" **مَسِيرَةَ مِئَةِ عَامٍ**." وإسناده حسن. وما رواه الطبراني في الصغير والأوسط بسند حسن بنحوه وقال فيه: "**جَعَلَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ خَنْدَقًا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**" .
(٦) «فيض القدير» (٦/ ١٦١) .

مَعْنَى الْحَدِيْثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ

بَيَّنَ النَّبيُّ ﷺ أَنَّ الَّذِي يَصُومُ يَوْماً وَهُوَ فِي طَرِيقِهِ لِإِعْلاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ ﷻ وَإِظْهَارِ دِيْنِهِ فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ يُبَاعِدُهُ عَنِ النَّارِ بِحَيْثُ لا يَجِدُ حَرَّهَا وَلا يَسْمَعُ حَسِيْسَهَا، فَإِنَّهُ قَدْ جَمَعَ بَيْنَ أَنْوَاعٍ مِنَ الْجِهَادِ: **جِهَادِ النَّفْسِ** بِمَنْعِهَا مِنْ شَهَوَاتِهَا، **وَجِهَادِ الشَّيْطَانِ** الَّذِي يُزَيِّنُ لَهُ الشَّهَوَاتِ، **وَالْجِهَادِ لِإِعْلاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ** ﷻ، سَوَاءٌ كَانَ جِهَادَ الدَّعْوَةِ بِالْحُجَّةِ وَالْبَيَانِ، أَوْ كَانَ جِهَادَ الْقِتَالِ بِالسَّيْفِ وَالسِّنَانِ .

وَقَدْ وَرَدَتْ عِدَّةُ آثَارٍ فِي فَضَائِلِ الْعِبَادَاتِ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ ﷻ، كَالصَّلاةِ وَالذِّكْرِ وَتِلاوَةِ الْقُرْآنِ وَالدُّعَاءِ، مِنْهَا مَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **"إِنَّ الصَّلاَةَ وَالصِّيَامَ وَالذِّكْرَ تُضَاعَفُ عَلَى النَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِسَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ"** [(١)]، وَرُوِيَ أَيْضاً عَنهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **"مَنْ قَرَأَ أَلْفَ آيَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَتَبَهُ اللَّهُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ"** [(٢)]. وَرَوَى الدَّارِمِيُّ عَنْ أَبِيْ أُمَامَةَ ﵁ أَنَّهُ قَالَ :" **مَنْ قَرَأَ أَلْفَ آيَةٍ كُتِبَ لَهُ قِنْطَارٌ مِنَ الأَجْرِ، وَالْقِيرَاطُ مِنْ ذَلِكَ لا يَفِي بِهِ دُنيَاكُم** . يَقُولُ: لا يَعْدِلُهُ دُنْيَاكُمْ " [(٣)] . وَعَنْ مَسْرُوق ﵀ قَالَ: **"مَا مِنْ حَالٍ أَحْرَى أَنْ يُستَجَابَ لِلْعَبْدِ فِيْهِ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ عَافِراً وَجْهَهُ سَاجِداً "** [(٤)] . يَعْنِيْ أَنَّ أَحْرَى حَالٍ يُسْتَجَابُ فِيْهَا دُعَاءُ الْعَبْدِ هِيَ أَنْ يَكُونَ خَارِجاً فِي سَبِيْلِ اللَّهِ، ثُمَّ أَنْ يَكُونَ سَاجِداً للهِ ﷻ .

---

(١) رواه أبو داوود عن سهل بن معاذ عن أبيه (٢٥٠٠) والبيهقي في سننه (١٨٣٥٥) والحاكم في المستدرك (٢٤١٥) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي . لكن في سنده زَبَّانُ بْنُ فَائِدٍ، وفيه كَلامٌ كَثِيرٌ، وقَد وَثَّقَهُ أَبُو حَاتِمٍ، وضَعَّفَهُ جَمَاعَةٌ. «مجمع الزوائد» .

(٢) رواه الطبراني في الكبير عن سهل بن معاذ عن أبيه (١٦٨٠٧) والبيهقي في سننه (١٨٣٥٦) والحاكم في المستدرك (٢٤٤٣) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي . ولكنه من رواية زَبَّان بن فائد، وقد تَقَدَّمَ ما فيه .

(٣) رواه الدارمي في سننه عن أبي أمامة موقوفاً (٣٤٦١) وقال محققه: إسناده صحيح .

(٤) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧٦٣٨) و(١٩٤٨) وابن المبارك في «الجهاد» (٣٤) .

فَائِـــــــدَة

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: "خُلِقَ بَدَنُ ابْنِ آدَمَ مِنَ الأَرْضِ، وَرُوْحُهُ مِنْ مَلَكُوتِ السَّمَاءِ، وَقُرِنَ بَيْنَهُمَا، فَإِذَا أَجَاعَ بَدَنَهُ وَأَسْهَرَهُ وَأَقَامَهُ فِي الخِدْمَةِ وَجَدَتْ رُوْحُهُ خِفَّةً وَرَاحَةً، فَتَاقَتْ إِلى الْمَوْضِعِ الَّذِي خُلِقَتْ مِنْهُ، وَاشْتَاقَتْ إِلى عَالَمِهَا الْعُلْوِيِّ، وَإِذَا أَشْبَعَهُ وَنَعَّمَهُ وَنَوَّمَهُ وَاشْتَغَلَ بخِدْمَتِهِ وَرَاحَتِهِ أَخْلَدَ الْبَدَنُ إِلى الْمَوْضِعِ الَّذِي خُلِقَ مِنْهُ، فَانْجَذَبَتِ الرُّوْحُ مَعَهُ، فَصَارَتْ فِي السِّجْنِ، فَلَوْلا أَنَّهَا أَلِفَتِ السِّجْنَ لاَسْتَغَاثَتْ مِنْ أَلَمِ مُفَارَقَتِهَا وَانْقِطَاعِهَا عَنْ عَالَمِهَا الَّذِي خُلِقَتْ مِنْهُ كَمَا يَسْتَغِيثُ الْمُعَذَّبُ، وَبِالْجُمْلَةِ فَكُلَّمَا خَفَّ الْبَدَنُ لَطُفَتِ الرُّوحُ وَخَفَّتْ وَطَلَبَتْ عَالَمَهَا الْعُلْوِيَّ، وَكُلَّمَا ثَـقُـلَ وَأَخْلَدَ إِلى الشَّهَوَاتِ وَالرَّاحَةِ ثَـقُـلَتِ الرُّوْحُ وَهَبَطَتْ مِنْ عَالَمِهَا، وَصَارَتْ أَرْضِيَّةً سُفلِيَّةً، فَتَرَى الرَّجُلَ رُوْحُهُ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى وَبَدَنُهُ عِنْدَكَ، فَيكُونُ نَائِماً عَلَى فِرَاشِهِ وَرُوحُهُ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى تَتَجَوَّلُ حَولَ الْعَرْشِ، وَآخَرُ وَاقِفٌ فِي الخِدْمَةِ بِبَدَنِهِ، وَرُوْحُهُ فِي السُّفْلِ تَجُولُ حَولَ السُّفْلِيَّاتِ، فَإِذَا فَارَقَتِ الرُّوحُ الْبَدَنَ الْتَحَقَتْ برَفِيقِهَا الأَعْلَى أَوِ الأَدْنَى، فَعِنْدَ الرَّفِيْقِ الأَعْلَى كُلُّ قُرَّةِ عَيْنٍ وَكُلُّ نَعِيمٍ وَسُرُورٍ وَبَهْجَةٍ وَلَذَّةٍ وَحَيَاةٍ طَيِّبَةٍ، وَعِنْدَ الرَّفِيقِ الأَسْفَلِ كُلُّ هَمٍّ وَغَمٍّ وَضِيْقٍ وَحَزَنٍ وَحَيَاةٍ نَكِدَةٍ وَمَعِيْشَةٍ ضَنْكٍ؛ وَأَصْلُ الضَّنْكِ فِي اللُّغَةِ الضِّيْقُ وَالشِّدَّةُ، وَكُلُّ مَا ضَاقَ فَهُوَ ضَنْكٌ، .. فَهَذِهِ الْمَعِيْشَةُ الضَّنْكُ فِي مُقَابَلَةِ التَّوَسُّعِ عَلَى النَّفْسِ وَالْبَدَنِ بالشَّهَوَاتِ وَاللَّذَّاتِ وَالرَّاحَةِ، فَإِنَّ النَّفْسَ كُلَّمَا وَسَّعْتَ عَلَيْهَا ضَيَّقْتَ عَلَى الْقَلْبِ حَتَّى تَصِيْرَ مَعِيْشَةً ضَنْكاً؛ وَكُلَّمَا ضَيَّقْتَ عَلَيْهَا وَسَّعْتَ عَلَى الْقَلْبِ حَتَّى يَنْشَرِحَ وَيَنْفَسِحَ، فَضَنْكُ الْمَعِيْشَةِ فِي الدُّنيَا بِمُوجِبِ التَّقْوَى سَعَتُهَا فِي الْبَرْزَخِ وَالآخِرَةِ، وَسَعَةُ الْمَعِيشَةِ فِي الدُّنيَا بِحُكْمِ الْهَوَى ضَنْكُهَا فِي الْبَرْزَخِ وَالآخِرَةِ، فَآثِرْ أَحْسَنَ الْمَعِيشَتَينِ وَأَطْيَبَهُمَا وَأَدْوَمَهُمَا، وَأَشْقِ الْبَدَنَ بنَعِيْمِ الرُّوْحِ، وَلا تُشْقِ الرُّوحَ بنَعِيمِ الْبَدَنِ، فَإِنَّ نَعِيْمَ الرُّوحِ وَشَقَاءَهَا أَعْظَمُ وَأَدْوَمُ، وَنَعِيمَ الْبَدَنِ وَشَقَاءَهُ أَقْصَرُ وَأَهْوَنُ. وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ [1] .

---

(١) «الفوائد» ص (٢٤٥ – ٢٤٧) .

وَأَنْوَاعُ السَّعَادَةِ الَّتِي تُؤْثِرُهَا النَّفْسُ ثَلاثَةٌ :

الأُوْلَى: سَعَادَةٌ خَارِجِيَّةٌ عَنْ ذَاتِ الإِنْسَانِ، بَلْ هِيَ مُسْتَعَارَةٌ لَهُ مِنْ غَيْرِهِ، تَزُولُ باسْتِرْدَادِ العَارِيَّةِ، وَهِيَ سَعَادَةُ الْمَالِ وَالْجَاهِ، فَبَيْنَا الْمَرْءُ سَعِيْداً مَلْحُوظاً بالْعِنَايَةِ مَرْمُوقاً بالأَبْصَارِ إِذْ أَصْبَحَ فِي الْيَوْمِ الْوَاحِدِ أَذَلَّ مِنْ وَتَدٍ بِقَاعٍ يُشَجُّ رَأسُهُ بالْفِهْرِوَاجِيْ [(١)]؛ فَالسَّعَادَةُ وَالْفَرَحُ بِهَذِهِ كَفَرَحِ الأَقْرَعِ بِجُمَّةِ ابْنِ عَمِّهِ، وَالْجَمَالُ بِهَا كَجَمَالِ الْمَرْءِ بِثِيَابِهِ وَبِزِيْنَتِهِ، فَإِذَا جَاوَزَ بَصَرُكَ كِسْوَتَهُ فَلَيْسَ وَرَاءَ عَبَادَانَ قَرْيَةٌ .

السَّعَادَةُ الثَّانِيَةُ: سَعَادَةٌ فِي جِسْمِهِ وَبَدَنِهِ، كَصِحَّتِهِ وَاعْتِدَالِ مِزَاجِهِ وَتَنَاسُبِ أَعْضَائِهِ وَحُسْنِ تَرْكِيْبِهِ وَصَفَاءِ لَوْنِهِ وَقُوَّةِ أَعْضَائِهِ، فَهَذِهِ أَلْصَقُ مِنَ الأُوْلَى، وَلَكِنْ هِيَ فِي الحَقِيْقَةِ خَارِجَةٌ عَنْ ذَاتِهِ وَحَقِيْقَتِهِ، فَإِنَّ الإِنْسَانَ إِنْسَانٌ بِرُوحِهِ وَقَلْبِهِ لا بِجِسْمِهِ وَبَدَنِهِ، كَمَا قِيلَ :

يَا خَادِمَ الْجِسْـــمِ كَمْ تَشْقَى بِخِدْمَتِهِ ... أَتَطْلُـــبُ الرِّبْحَ مِمَّا فِـــيْهِ خُسْـــرَانُ
أَقْبِلْ عَلَى الرُّوْحِ وَاسْتَكْمِلْ فَضَائِلَهَا ... فَأَنْـــتَ بِالرُّوْحِ لا بِالْجِسْمِ إِنْسَـــانُ

فَنِسْبَةُ هَذِهِ إِلَى رُوْحِهِ وَقَلْبِهِ كَنِسْبَةِ ثِيَابِهِ وَلِبَاسِهِ إِلَى بَدَنِهِ، فَإِنَّ الْبَدَنَ أَيْضاً عَارِيَّةٌ لِلرُّوحِ وَآلَةٌ لَهَا، وَمَرْكَبٌ مِنْ مَرَاكِبِهَا، فَسَعَادَتُهَا بِصِحَّتِهِ وَجَمَالِهِ وَحُسْنِهِ سَعَادَةٌ خَارِجِيَّةٌ عَنْ ذَاتِهِ وَعَنْ حَقِيْقَتِهَا .

وَالسَّعَادَةُ الثَّالِثَةُ: هِيَ السَّعَادَةُ الْحَقِيْقِيَّةُ، وَهِيَ سَعَادَةٌ نَفْسَانِيَّةٌ رُوْحِيَّةٌ قَلْبِيَّةٌ، وَهِيَ سَعَادَةُ الْعِلْمِ النَّافِعِ وَثَمَرَتِهِ، فَإِنَّهَا هِيَ الْبَاقِيَةُ عَلَى تَقَلُّبِ الأَحْوَالِ، وَالْمُصَاحِبَةُ لِلْعَبْدِ فِي جَمِيعِ أَسْفَارِهِ وَفِي دُوْرِهِ الثَّلاثَةِ، أَعْنِي دَارَ الدُّنْيَا وَدَارَ الْبَرْزَخِ وَدَارَ الْقَرَارِ، وَبِهَا يَتَرَقَّى مَعَارِجَ الْفَضْلِ وَدَرَجَاتِ الْكَمَالِ، أَمَّا **السَّعَادَةُ الأُوْلَى** فَإِنَّهَا تَصْحَبُهُ فِي الْبُقْعَةِ الَّتِي فِيهَا مَالُهُ وَجَاهُهُ، **وَالثَّانِيَةُ** تُعَرِّضُهُ لِلزَّوَالِ وَالتَّبَدُّلِ بِنَكْسِ الخَلْقِ وَالرَّدِّ إِلَى الضَّعْفِ، فَلا سَعَادَةَ فِي الحَقِيْقَةِ إِلاَّ فِي **الثَّالِثَةِ** الَّتِي كُلَّمَا طَالَ الأَمَدُ ازْدَادَتْ قُوَّةً وَعُلُوّاً، وَإِذَا عُدِمَ الْمَالُ وَالْجَاهُ

---

(١) هَذَا مَثَلٌ سَائِرٌ لِلدَّلاَلَةِ عَلَى غَايَةِ الذُّلِّ؛ وَ«الفِهْرُ»: الْحَجَرُ مِلْءُ الْكَفِّ. و «وَاجِيْ»: فَاعِلٌ، وأَصْلُهَا وَاجِيءٌ ، اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ وَجَأَ، خُفِّفَ الْهَمْزُ اضْطِرَاراً .

فَهِيَ مَالُ الْعَبْدِ وَجَاهُهُ، وَتَظْهَرُ قُوَّتُهَا وَأَثَرُهَا بَعْدَ مُفَارَقَةِ الرُّوحِ الْبَدَنَ إِذَا انْقَطَعَتِ السَّعَادَتَانِ الأُوْلَيَانِ، وَهَذِهِ السَّعَادَةُ لا يُعَرِّفُ قَدْرَهَا وَيَبْعَثُ عَلَى طَلَبِهَا إِلاَّ الْعِلْمُ بِهَا، فَعَادَتِ السَّعَادَةُ كُلُّهَا إِلى الْعِلْمِ وَمَا يَقْتَضِيهِ؛ وَاللهُ الْمُوَفِّقُ مَنْ يَشَاءُ، فَلا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى وَلا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ .

وَإِنَّمَا رَغِبَ أَكْثَرُ الخَلْقِ عَنِ اكْتِسَابِ هَذِهِ السَّعَادَةِ وَتَحْصِيلِهَا لِوُعُورَةِ طَرِيْقِهَا، وَمَرَارَةِ مَبَادِيْهَا، وَتَعَبِ تَحْصِيلِهَا، وَأَنَّهَا لا تُنَالُ إِلاَّ عَلَى جِدٍّ مِنَ التَّعَبِ، وَأَنَّهَا لا تَحْصُلُ إِلاَّ بِالْجِدِّ الْمَحْضِ بِخِلافِ الأُوْلَيَيْنِ، فَإِنَّهَا حَظٌّ قَدْ يَحُوزُهُ غَيْرُ طَالِبِهِ، وَبَخْتٌ قَدْ يَحُوزُهُ غَيْرُ جَالِبِهِ مِنْ مِيْرَاثٍ أَوْ هِبَةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ؛ أَمَّا سَعَادَةُ الْعِلْمِ فَلا يُوْرِثُكَ إِيَّاهَا إِلاَّ بَذْلُ الْوُسْعِ وَصِدْقُ الطَّلَبِ وَصِحَّةُ النِّيَّةِ .

وَمَنْ طَمَحَتْ هِمَّتُهُ إِلى الأُمُورِ الْعَالِيَةِ فَوَاجِبٌ عَلَيْهِ أَنْ يُشَدِّدَ عَلَى مَحَبَّةِ الطَّرِيقِ الدِّيْنِيَّةِ وَهِيَ السَّعَادَةُ، وَإِنْ كَانَتْ فِي ابْتِدَائِهَا لا تَنْفَكُّ عَنْ ضَرْبٍ مِنَ الْمَشَقَّةِ وَالْكُرْهِ وَالتَّأَذِّيْ، وَأَنَّهَا مَتَى أُكْرِهَتِ النَّفْسُ عَلَيْهَا وَسِيْقَتْ طَائِعَةً وَكَارِهَةً إِلَيْهَا وَصَبَرَتْ عَلَى لأْوَائِهَا وَشِدَّتِهَا أَفْضَتْ مِنْهَا إِلى رِيَاضٍ مُوْنِقَةٍ، وَمَقَاعِدِ صِدْقٍ وَمُقَامٍ كَرِيْمٍ، تَجِدُ كُلَّ لَذَّةٍ دُوْنَهَا لَعِبَ الصَّبِيِّ بِالْعُصْفُورَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلى لَذَّاتِ الْمُلُوكِ، فَالْمَكَارِمُ مَنُوطَةٌ بِالْمَكَارِهِ، وَالسَّعَادَةُ لا يُعْبَرُ إِلَيْهَا إِلاَّ عَلَى جِسْرِ الْمَشَقَّةِ، فَلا تُقْطَعُ مَسَافَتُهَا إِلاَّ فِي سَفِيْنَةِ الْجِدِّ وَالاجْتِهَادِ؛ قَالَ يَحْيَى بْنُ أَبِيْ كَثِيْرٍ: " **لاَ يُسْتَطَاعُ الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجِسْمِ** " [(١)]، وَقَدْ قِيلَ: " **مَنْ طَلَبَ الرَّاحَةَ تَرَكَ الرَّاحَةَ** " .

وَلَوْلا جَهْلُ الأَكْثَرِينَ بِحَلاوَةِ هَذِهِ اللَّذَّةِ وَعِظَمِ قَدْرِهَا لَتَجَالَدُوا عَلَيْهَا بِالسُّيُوفِ، وَلَكِنْ حُفَّتْ بِحِجَابٍ مِنَ الْمَكَارِهِ، وَحُجِبُوا عَنْهَا بِحِجَابٍ مِنَ الجَهْلِ، لِيَخْتَصَّ اللهُ لَهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ العَظِيمِ [(٢)] .

---

(١) رواه مسلم (١٤٢١) .

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/١٣٥ – ١٣٧) .

وَعَلَى هَذَا فَالإِنْسَانُ مُرَكَّبٌ مِنْ جَسَدٍ وَرُوْحٍ، فَالْجَسَدُ خُلِقَ مِنْ تُرَاب، وَغِذَاؤُهُ وَلَذَّتُهُ فِيْمَا يَخْرُجُ مِنَ التُّرَاب، وَمَصِيْرُهُ إِلَيْهِ؛ وَالرُّوحُ مِنْ أَمْرِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَغِذَاؤُهَا وَلَذَّتُهَا فِي أَوَامِرِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَمَصِيْرُهَا إِلَيْهِ؛ وَلَذَّاتُ الجَسَدِ وَقْتُهَا مَحْدُودٌ قَصِيْرٌ، وَلا بُدَّ أَنْ يَعْقُبَهَا نَوْعٌ مِنَ التَّقَزُّزِ يُزِيلُ لَذَّاتِهَا، "وَقَدْ ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُقَلاءِ إِلى أَنَّهَا لا حَقِيْقَةَ لَهَا ، وَإِنَّمَا هِيَ دَفْعُ الأَلَمِ فَقَطْ، فَإِنَّ لُبْسَ الثِّيَاب مَثَلاً إِنَّمَا فَائِدَتُهُ دَفْعُ التَّأَلُّمِ بِالْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالرِّيْحِ، وَلَيْسَ فِيْهَا لَذَّةٌ زَائِدَةٌ عَلَى ذَلِكَ؛ وَكَذَلِكَ الأَكْلُ إِنَّمَا فَائِدَتُهُ دَفْعُ أَلَمِ الْجُوعِ، وَلِهَذَا لَوْ لَمْ يَجِدْ أَلَمَ الْجُوعِ لَمْ يَسْتَطِبِ الأَكْلَ، وَكَذَلِكَ الشُّرْبُ مَعَ الْعَطَشِ وَالرَّاحَةُ مَعَ التَّعَبِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ فِي مُزَاوَلَةِ ذَلِكَ وَتَحْصِيْلِهِ أَلَماً وَضَرَراً، وَلَكِنَّ أَلَمَهُ وَضَرَرَهُ أَقَلُّ مِنْ ضَرَرِ مَا يُدفَعُ بِهِ أَلَمُهُ، فَيَحْتَمِلُ الإِنْسَانُ أَخَفَّ الضَّرَرَيْنِ دَفْعاً لأَعْظَمِهِمَا .

وَمِثْلُ هَذَا لا يُعَدُّ لَذَّةً وَلا سَعَادَةً وَلا كَمَالاً، بَلْ هُوَ فِي مَنْزِلَةِ قَضَاءِ الْحَاجَةِ مِنَ الْبَوْلِ وَالْغَائِطِ، فَإِنَّ الإِنْسَانَ يَتَضَرَّرُ بِثِقَلِهِ، فَإِذَا قَضَى حَاجَتَهُ اسْتَرَاحَ مِنْهُ، فَأَمَّا أَنْ يُعْتَبَرَ ذَلِكَ سَعَادَةً وَبَهْجَةً وَلَذَّةً مَطْلُوبَةً فَلا " [(١)] . وَأَمَّا لَذَّاتُ الرُّوحِ فَهِيَ حَقِيْقِيَّةٌ دَائِمَةٌ لا تَنْقَطِعُ، تَبْدَأُ فِي الدُّنْيَا بِمَعْرِفَةِ اللهِ وَتَوْحِيْدِهِ، وَتَتِمُّ فِي الجَنَّةِ بِالنَّظَرِ إِلى وَجْهِهِ الْكَرِيْمِ، وَتَدُومُ بِدَوَامِهِ فِيهَا .

وَكَمَا أَنَّ الإِنْسَانَ إِذَا لَمْ يَتَعَاهَدْ جَسَدَهُ بِالتَّغْذِيَةِ بِأَلْوَانِ الأَطْعِمَةِ وَالأَشْرِبَةِ يُصِيْبُهُ الضَّعْفُ وَالْعَجْزُ عَنِ الْقِيَامِ بِوَظَائِفِهِ، كَذَلِكَ الرُّوحُ إِذَا لَمْ يَتَعَاهَدْهَا بِالتَّغْذِيَةِ بِأَوَامِرِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُصِيْبُهَا الضَّعْفُ وَالْعَجْزُ عَنِ الْقِيَامِ بِالْوَظَائِفِ الدِّيْنِيَّةِ الْمَنُوطَةِ بِصَاحِبِهَا، وَلا يَسْتَطِيعُ صَاحِبُهَا أَنْ يَقُومَ بِامْتِثَالِ الأَوَامِرِ لِعَجْزِهِ عَنْ حَمْلِ الجَسَدِ عَلَيْهَا؛ وَكَمَا أَنَّ الإِنْسَانَ بِعَدَمِ تَغْذِيَتِهِ لِجَسَدِهِ تَضْعُفُ حَوَاسُّهُ عَنِ الْقِيَامِ بِوَاجِبَاتِهَا، كَذَلِكَ الرُّوْحُ إِذَا لَمْ تُغَذَّ لا تَعُودُ قَادِرَةً عَلَى التَّمْيِيْزِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالصَّاحِبِ وَالْعَدُوِّ، وَالنَّافِعِ وَالضَّارِّ، وَلا تَجِدُ لَذَّةً لِلإِيْمَانِ وَالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَلا يَسْمَعُ قَلْبُهُ الْحَقَّ وَلا يُمَيِّزُهُ عَنِ الْبَاطِلِ، بَلْ يَرَى الْبَاطِلَ حَقّاً وَالْحَقَّ بَاطِلاً، وَالْمَعْرُوفَ مُنْكَراً وَالْمُنْكَرَ مَعْرُوفاً، وَلا يَجِدُ لِلْمَعَاصِي رَائِحَةً مُنْتِنَةً

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/١٦٨ – ١٧٠) .

يَنْفِرُ مِنْهَا كَمَا هِيَ الْحَقِيْقَةُ، بَلْ يَصِيْرُ يَأْنَسُ بِهَا وَيَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا، وَهَذَا هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِيْنُ وَالْهَلاكُ الْعَظِيْمُ؛ فَحَتَّى تَتَقَوَّى الرُّوْحُ عَلَى الْقِيَامِ بِأَوَامِرِ اللَّهِ تَعَالَى وَالامْتِنَاعِ عَنْ نَوَاهِيْهِ، لا بُدَّ مِنْ تَعَاهُدِهَا بِالتَّغْذِيَةِ لَهَا، بِتَصْبِيْرِهَا فِي مَجَالِسِ الإِيْمَانِ مِرَاراً وَتَكْرَاراً، حَتَّى تَلِيْنَ لِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَعْظِيْمِهِ، وَتَخْرُجَ مِنْ سِجْنِ الشَّهَوَاتِ الْبَدَنِيَّةِ، وَتَرْقَى إِلى الْمَحَلِّ الَّذِي تَطْمَئِنُّ فِيهِ وَتَحِنُّ إِلَيْهِ .

فَمَنْ تَرَسَّخَتْ حَقِيْقَةُ الْيَقِين فِي قَلْبِهِ وَسَمَتْ رُوْحُهُ وَتَعَلَّقَتْ بِبَارِئِهَا وَاشْتَاقَتْ لِلِقَائِهِ وَالنَّظَرِ إِلى وَجْهِهِ الْكَرِيْمِ، تَجِدُهُ مُنْقَطِعاً بِقَلْبِهِ إِلى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، دَائِمَ التَّجْوَالِ بِفِكْرِهِ فِي مَلَكُوتِ اللَّهِ وَآثَارِ عَظَمَتِهِ فِيهِ، جُلُّ هَمِّهِ تَحْصِيلُ الْقُرْبِ مِنْ مَوْلاهُ، وَهَؤُلاءِ إِمَّا أَنْ يَنْقَطِعُوا عَنِ الْخَلْقِ فَلا يُخَالِطُوهُمْ وَلا يُعَامِلُوهُمْ وَيَفِرُّوْنَ مِنْهُمْ وَعَنْهُمْ فِرارَهُمْ مِنَ الأَسَدِ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَحْضِرُ ذِكْرَ اللَّهِ وَعَظَمَتَهُ وَثَوَابَهُ وَعِقَابَهُ بِقَلْبِهِ، وَيَدْخُلُ بِبَدَنِهِ فِي مَصَالِحِ دُنْيَاهُ مِنِ اكْتِسَابٍ بِالْحَلالِ وَالْقِيَامِ عَلَى الْعِيَالِ، وَيُخَالِطُ الْخَلْقَ فِيْمَا يَصِلُ إِلَيْهِمْ بِالنَّفْعِ مِمَّا هُوَ عِبَادَةٌ فِي نَفْسِهِ، كَتَعْلِيْمِ الْعِلْمِ وَالجِهَادِ وَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَهَؤُلاءِ أَشْرَفُ الْقِسْمَيْنِ، وَهُمْ خُلَفَاءُ الرُّسُلِ، وَهُمُ الَّذِيْنَ قَالَ فِيهِمْ عَلِيٌّ رضي الله عنه: "**صَحِبُوا الدُّنيَا بِأَبدَانٍ، أَروَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بِالمَحَلِّ الأَعْلَى** ." [(١)]، فَهَذِهِ الطَّبَقَةُ خُلَفَاءُ الرُّسُلِ، عَامَلُوا اللَّهَ تَعَالَى بِقُلُوبِهِمْ، وَعَاشَرُوا الْخَلْقَ بِأَبْدَانِهِمْ " [(٢)] .

وَالْوُصُولُ إِلى هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ هُوَ الْمَقْصُودُ الأَسْمَى مِنَ الصِّيَامِ وَالصَّلاةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْعِبَادَاتِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ **[طه: ١٤]**. وَهَذَا هُوَ صَوْمُ الْخَاصَّةِ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ [(٣)] . وَهُوَ أَنْ تَصُومَ قُلُوبُهُمْ عَمَّا سِوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ،

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨٠/١) بلفظ "**صَحِبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانٍ أَرْوَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بِالْمَنْظَرِ الأَعْلَى، أُوْلَئِكَ خُلَفَاءُ اللَّهِ فِي بِلادِهِ، وَدُعَاتُهُ إِلَى دِيْنِهِ** ". وذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» (٤٧/٩) وقال: رواه جماعة من الحفاظ الثقات، وفيه مواعظُ وكَلامٌ حَسَنٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ قَائِلِهِ. وانظر شرحه القيم في «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١٨٨/١ – ١٩٣) .

(٢) «لطائف المعارف» ص (٢١ –٢٢) .

(٣) انظر درجات الصوم في «إحياء علوم الدين» (٣٥٦/١) و«جامع العلوم والحكم» ص (٢٣٠) .

فَتَجْتَمِعَ قُلُوبُهُم عَلَيْهِ مَحَبَّةً وَرَجَاءً وَخَشْيَةً وَإِنَابَةً وَتَوَكُّلاً وَثِقَةً مُطْلَقَةً وَاسْتِعَانَةً وَاسْتِغَاثَةً، وَهَذَا حَقِيْقَةُ التَّوْحِيْدُ الَّذِيْ خُلِقَتِ الْخَلِيْقَةُ لأَجْلِهِ، فَيَصِيْرُ تَعَامُلُهُمْ مَعَ الْخَلْقِ وَسِيْلَةً لِلتَّقَرُّبِ إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَيْسَ لَهُمْ فِيْهِ حَظٌّ وَلا هَوىً .

نَسْأَلُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُوَفِّقَنَا لِبُلُوغِ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ، وَأَنْ يُعِيْنَنَا عَلَى دَعْوَةِ النَّاسِ إِلَيْهَا وَإِقَامَتِهِمْ عَلَيْهَا، كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ الْكِرَامُ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِيْنَ .

*****

الْحَدِيْثُ السَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْحَجَّ فَقَالَتِ امْرَأَةٌ لِزَوْجِهَا: أَحِجَّنِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى جَمَلِكَ. فَقَالَ: مَا عِنْدِي مَا أُحِجُّكِ عَلَيْهِ. قَالَتْ: أَحِجَّنِي عَلَى جَمَلِكَ فُلانٍ. قَالَ: ذَاكَ حَبِيسٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ امْرَأَتِي تَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلامَ وَرَحْمَةَ اللَّهِ، وَإِنَّهَا سَأَلَتْنِي الْحَجَّ مَعَكَ، قَالَتْ: أَحِجَّنِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَقُلْتُ: مَا عِنْدِي مَا أُحِجُّكِ عَلَيْهِ. فَقَالَتْ: أَحِجَّنِي عَلَى جَمَلِكَ فُلانٍ. فَقُلْتُ: ذَاكَ حَبِيسٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. فَقَالَ: "أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَحْجَجْتَهَا عَلَيْهِ كَانَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ". قَالَ: وَإِنَّهَا أَمَرَتْنِي أَنْ أَسْأَلَكَ مَا يَعْدِلُ حَجَّةً مَعَكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَقْرِئْهَا السَّلامَ وَرَحْمَةَ اللَّهِ وَبَرَكَاتِهِ وَأَخْبِرْهَا أَنَّهَا تَعْدِلُ حَجَّةً مَعِي". يَعْنِي عُمْرَةً فِي رَمَضَانَ [(١)].

قوله (فَقَالَتِ امْرَأَةٌ لِزَوْجِهَا) هُوَ أَبُو مَعْقِلٍ الأَسَدِيُّ، وَاسْمُهُ الْهَيْثَمُ، وَالْمَرْأَةُ هِيَ أُمُّ مَعْقِلٍ الأَسَدِيَّةُ أَوِ الأَشْجَعِيَّةُ [(٢)].

قوله (ذَاكَ حَبِيسٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) أَيْ مَوْقُوفٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَلا يَجُوزُ التَّصَرُّفُ فِيهِ فِي غَيْرِ الْوِجْهَةِ الَّتِي وُقِفَ عَلَيهَا.

قوله ﷺ: (أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَحْجَجْتَهَا عَلَيْهِ كَانَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) أَيْ كَمَا أَنَّ الْوَقْفَ عَلَى سَبِيلِ اللَّهِ يَدْخُلُ فِيهِ الجِهَادُ، كَذَلِكَ يَدْخُلُ فِيهِ الحَجُّ، فَهُوَ سَبِيلٌ مِنْ سُبُلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله ﷺ: (أَنَّهَا تَعْدِلُ حَجَّةً مَعِي) يَعْنِيْ عُمْرَةً فِي رَمَضَانَ، قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "فِيهِ أَنَّ ثَوَابَ الْعَمَلِ يَزِيدُ بِزِيَادَةِ شَرَفِ الْوَقْتِ، كَمَا يَزِيدُ بِحُضُورِ الْقَلْبِ وَبِخُلُوصِ

---

(١) رواه أبو داوود في سننه واللفظ له (١٩٩٢) والحاكم في المستدرك عن أم معقل برقم (١٧٧٩) وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. وابن خزيمة في صحيحه (٣٠٧٧) وأصله في الصحيحين مختصراً.

(٢) «تقريب التهذيب» (٢/٧٥٩).

الْقَصْدِ." [(١)]، كَمَا يَزِيْدُ أَيْضاً بِشَرَفِ الْمَكَانِ .

مَعْنَى الْحَدِيْثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ

يُبَيِّنُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ الْحجَّ مِنْ سَبِيْلِ اللَّهِ ﷻ، وَأَنَّ مَنْ وَقَفَ مِنْ مَالِهِ شَيْئاً في سَبِيْلِ اللَّهِ جَازَ صَرْفُهُ في تَجْهِيزِ الْحُجَّاجِ، وَإِذَا كَانَ مَرْكُوباً جَازَ حَمْلُ الْحَاجِّ عَلَيهِ؛ وَجَاءَ في رِوَايَةٍ أُخْرَى: "**إِنَّ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ**" [(٢)]، فَتَشْتَرِكُ الْعُمْرَةُ مَعَ الْحجِّ في هَذَا الْحُكْمِ .

فَعَنْ نَافِعٍ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ رَجُلاً جَاءَ إِلى ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَقَالَ: إِنَّ رَجُلاً أَوْصَى إِلَيَّ وَجَعَلَ نَاقَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ولَيْسَ هَذَا زَمَانٌ يُخْرَجُ إِلى الْغَزْوِ، أَفَأَحْمِلُ عَلَيهَا في الْحَجِّ ؟ فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : "**الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**" [(٣)] .

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ سِيْرِيْنَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: إِنَّ امْرَأَةً أَوْصَتْ بِثَلاثِيْنَ دِرْهَماً في سَبِيلِ اللَّهِ، فَلَمَّا كَانَ زَمَنُ التَّرَفِ، قُلْتُ لابْنِ عُمَرَ: امْرَأَةٌ أَوْصَتْ بِثَلاثِيْنَ دِرْهَماً في سَبِيلِ اللَّهِ، أَفَنُعْطِيهَا في الحَجِّ؟ فَقَالَ:"**أَمَا إِنَّهُ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ**" [(٤)] .

وَعَنْهُ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: قُلْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ: إِنَّهُ أُرْسِلَ إِلَيَّ بِدَرَاهِمَ أَجْعَلُهَا في سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنَّ مِنَ الْحَاجِّ مَنْ بَيْنَ مُنقَطِعٍ بِهِ، وَبَيْنَ مَنْ قَدْ ذَهَبَتْ نَفَقَتُهُ، أَفَأَجْعَلُهَا فِيْهِمْ ؟ قَالَ: "**نَعَمْ، اجْعَلْهَا فِيْهِمْ فَإِنَّهُ سَبِيلُ اللَّهِ** ." قَالَ: قُلْتُ: إِنِّيْ أَخَافُ أَنْ يَكُونَ صَاحِبِي إِنَّمَا أَرَادَ

---

(١) «فتح الباري» (٧٦٣/٣) .

(٢) رواه ابن خزيمة في صحيحه بسند صحيح برقم (٣٠٧٥) والحاكم في المستدرك عن أم معقل (١٧٧٤) وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي .

(٣) رواه الدارمي في سننه (٣٣٠٤) وقال المحقق: إسناده صحيح .

(٤) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه برقم (٣٠٨٣٧) .

الْمُجَاهِدِينَ، قَالَ: "**اجْعَلْهَا فِيهِمْ فَإِنَّهُ فِي سَبِيلِ اللهِ**." قَالَ: قُلْتُ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ أَنْ أُخَالِفَ مَا أُمِرْتُ بِهِ، قَالَ: فَغَضِبَ وَقَالَ:" **وَيْحَكَ أَوَلَيْسَ بِسَبِيلِ اللهِ** " [١] .

وَإِنَّمَا كَانَ الحَجُّ مِنْ أَعْظَمِ سُبُلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَتَّى سَمَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ جِهاداً،حَيْثُ قَالَ: "**جِهَادُ الْكَبِيرِ وَالضَّعِيفِ وَالْمَرْأَةِ الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ** " [٢] .

وقَالَ ﷺ: "**أَفْضَلُ الْجِهَادِ حَجٌّ مَبْرُورٌ** " [٣]، وذَلِكَ لاشْتِرَاكِهِ مَعَ الْجِهَادِ فِي الْوَسَائِلِ وَالْمَقَاصِدِ، حَيْثُ إِنَّهُ يَخْرِجُ الْمُسْلِمُ فِيهِ عَنْ هَوَى نَفْسِهِ إِلى مُرَادِ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَيُفَارِقُ مَحْبُوبَاتِهِ لإِقَامَةِ شَعَائِرِ اللهِ وَمَحْبُوبَاتِهِ؛ وَكُلٌّ مُنْهُمَا يُقْصَدُ لِتَزْكِيَةِ النَّفْسِ وَتَطْوِيعِهَا لأَمْرِ رَبِّهَا عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا يُقْصَدُ مِنْ كُلٍّ مِنْهُمَا تَبْلِيْغُ رِسَالَةِ اللهِ وَإِقَامَةِ الأُمَّةِ عَلَى مَسْؤُولِيَّةِ حَمْلِ الرِّسَالَةِ إِلى النَّاسِ كَافَّةً، فَإِنَّ حَجَّ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ لَهُ ثَلاثَةُ مَقَاصِدَ: **الأَوَّلُ**: هُوَ أَدَاءُ مَنَاسِكِ الحَجِّ الَّتِي افْتَرَضَهَا اللهُ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ؛ **وَالثَّانِي**: تَعْلِيمُ الْمُؤْمِنِينَ مَنَاسِكَ الحَجِّ، حَيْثُ قَالَ ﷺ: "**خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُم**" [٤]؛ **وَالثَّالِثُ**: هُوَ إِقَامَةُ الأُمَّةِ عَلَى حَمْلِ رِسَالَةِ اللهِ وَبَذْلِ الْجُهْدِ لِتَبْلِيغِهَا إِلى النَّاسِ كَافَّةً، كَمَا قَالَ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ بَعْدَ خُطْبَتِهِ: "**فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ**" [٥]؛ وَقَالَ عِنْدَ مَسْجِدِ الْخَيْفِ بِمِنىً: " **نَضَّرَ اللهُ امْرَءًا سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ**" [٦]؛ فَلِهَذَا فَإِنَّ الحَجَّ يَشْتَرِكُ مَعَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ فِي هَذِهِ الْمَقَاصِدِ.

فَالْحَجُّ مِنْ أَعْظَمِ الْوَسَائِلِ وَالْمَوَاسِمِ الَّتِي يَتَسَنَّى لِلْمُسْلِمِ فِيهِ أَنْ يَلْتَقِيَ بِإِخْوَانِهِ مِنْ شَتَّى بِقَاعِ الْعَالَمِ، وَيُقِيمَهُمْ عَلَى تَحَمُّلِ مَسْؤُولِيَّةِ تَبْلِيغِ الدِّيْنِ الْمَنُوطَةِ بِهَذِهِ الأُمَّةِ، وَيُهَيِّئَهُمْ لأَنْ يَرْجِعُوا إِلى بِلادِهِمْ وأَقْوَامِهِمْ دُعَاةً إِلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

---

(١) رواه البيهقي في سننه برقم (١٢٩٨٠) .

(٢) رواه أحمد في مسنده عن أبي هريرة (٩٤٥٩) والنسائي في سننه (٢٦٢٦) والطبراني في الكبير (١٢٢٧) والأوسط (٨٧٥١) والبيهقي في سننه (٨٥٤١) وقال المنذري: بإسناد حسن . وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح .

(٣) رواه البخاري عن عائشة (١٥٢٠) و(٢٧٨٤) .

(٤) رواه مسلم عن جابر بن عبد الله برقم (١٢٩٧) .

(٥) تقدم تخريجه .

(٦) تقدم تخريجه .

فَلَمَّا اشْتَرَكَ الْحَجُّ مَعَ الْجِهَادِ فِي الْوَسَائِلِ وَالْمَقَاصِدِ أَخَذَ نَفْسَ الْحُكْمِ فِي كَوْنِهِ جِهَاداً فِي سَبِيْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

فَائِـــــــدَة

اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي جَوَازِ إِخْرَاجِ زَكَاةِ الْمَالِ لِتَجْهِيْزِ الْحُجَّاجِ، فَذَهَبَ إِلَى جَوَازِهِ ابْنُ عُمَرَ وَابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهم ، فَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما لا يَرَى بَأْساً أَنْ يُعْطِيَ الرَّجُلُ مِنْ زَكَاةِ مَالِهِ فِي الْحَجِّ، وَأَنْ يُعْتِقَ رَقَبَةً [(١)]؛ وَجَوَّزَهُ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْهِ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ، وَذَهَبَ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ إِلَى عَدَمِ إِجْزَائِهِ، وَبِهِ قَالَ الأَئِمَّةُ مَالِكٌ وَأَبُو حَنِيْفَةَ وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ وَالشَّافِعِيُّ وَأَبُو ثَوْرٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي الرِّوَايَةِ الْمُصَحَّحَةِ الْمُعْتَمَدَةِ [(٢)]. فَذَهَبُوا إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فِي آيَةِ قَسْمِ الصَّدَقَاتِ هُوَ غَيْرُ الْمُرَادِ بِهِ فِي حَدِيْثِ الْبَابِ، فَذَهَبُوا إِلَى أَنَّهُ سَبِيْلٌ خَاصٌّ مِنْ سُبُلِ اللَّهِ، وَهُوَ الْغَزْوُ .

قَالَ ابْنُ قُدَامَةَ فِي الْمُغْنِيْ: لأَنَّ الزَّكَاةَ تُصْرَفُ لأَحَدِ رَجُلَيْنِ : **مُحْتَاجٍ إِلَيْهَا**، كَالْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِيْنِ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِيْنَ لِقَضَاءِ دُيُونِهِمْ، أَوْ **مَنْ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ** [(٣)]، كَالْعَامِلِ وَالْغَازِيْ وَالْمُؤَلَّفِ وَالْغَارِمِ لإِصْلاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ [(٤)] .

*****

---

(١) رواه أبو عبيد في الأموال (١١٩١) واختلف في إسناده، فضعفه أحمد بالاضطراب، ورواه البخاري في صحيحه تعليقاً بصيغة التمريض .

(٢) المغني والشرح الكبير (٤/٩٨) .

(٣) وَلِهَذِهِ الْعِلَّةِ الثَّانِيَةِ قَرَّرَ الْمَجْمَعُ الْفِقْهِيُّ بِرَابِطَةِ الْعَالَمِ الإِسْلامِيِّ دُخُولَ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَمَا يُعِيْنُ عَلَيْهَا وَيَدْعَمُ أَعْمَالَهَا، كُلُّ ذَلِكَ يَدْخُلُ فِي مَعْنَى ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فِي الآيَةِ الْكَرِيْمَةِ فِي قَسْمِ الصَّدَقَاتِ الْوَاجِبَةِ .

(٤) المغني والشرح الكبير (٤/٩٨) .



باب فضل الخدمة في الخروج في سبيل الله

الْحَدِيْثُ الثَّامِنْ وَالْعِشْرُونَ

عَنْ أَنسِ بْنِ مَالِكٍ ﵁ قَالَ: **كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي السَّفَرِ، فَمِنَّا الصَّائِمُ وَمِنَّا الْمُفْطِرُ، قَالَ: فَنَزَلْنَا مَنْزِلاً فِي يَوْمٍ حَارٍّ، أَكْثَرُنَا ظِلاًّ صَاحِبُ الْكِسَاءِ، وَمِنَّا مَنْ يَتَّقِي الشَّمْسَ بِيَدِهِ، قَالَ: فَسَقَطَ الصُّوَّامُ وَقَامَ الْمُفْطِرُونَ، فَضَرَبُوا الأَبْنِيَةَ وَسَقَوُا الرِّكَابَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "ذَهَبَ الْمُفْطِرُونَ الْيَوْمَ بالأَجْرِ "** (١) .

قوله (**فَسَقَطَ الصُّوَّامُ**) أَيْ ضَعُفُوْا عَنِ الْحَرَكَةِ وَمُبَاشَرَةِ حَوَائِجِهِمْ وَخِدْمَةِ أَنْفُسِهِمْ لأَجْلِ صَوْمِهِمْ .

قوله (**وَقَامَ الْمُفْطِرُونَ**) أَيْ بِالخِدْمَةِ، فَنَصَبُوا الْخِيَامَ وَسَقَوُا الإِبلَ الَّتِي يُسَارُ عَلَيهَا (٢) .

قوله ﷺ (**ذَهَبَ الْمُفْطِرُونَ الْيَوْمَ بالأَجْرِ**) أَي الأَجْرِ الْوَافِرِ، وَهُوَ أَجْرُ مَا فَعَلُوهُ مِنْ خِدْمَةِ الصَّائِمِينَ بِضَرْبِ الأَبْنِيَةِ وَسَقْيِ الرِّكَابِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَذَهَبُوا أَيْضاً بِأَجْرِ الصُّوَّامِ، لِقِيَامِهِم بِأَشْغَالِهِمْ وَأَشْغَالِ الصَّائِمِينَ، لأَنَّهُ مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ وَلَوْ بِإِعَانَةِ صَاحِبِهِ عَلَيْهِ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ، أَمَّا الصَّائِمُونَ فَلَمْ يَتَحَصَّلْ لَهُمْ إِلاَّ أَجْرُ الصَّوْمِ؛ وَلَيْسَ الْمُرَادُ نَقْصَ أَجْرِ الصُّوَّامِ، بَلِ الْمُرَادُ أَنَّ الْمُفْطِرِيْنَ حَصَلَ لَهُمْ أَجْرُ عَمَلِهِمْ وَمِثْلُ أَجْرِ الصُّوَّامِ لِتَعَاطِيْهِمْ أَشْغَالَهُمْ وَأَشْغَالَ الصُّوَّامِ .

مَعْنَى الْحَدِيْثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ

يُقَرِّرُ النَّبِيُّ ﷺ قَاعِدَةً عَامَّةً يَدُورُ عَلَيْهَا كَثِيرٌ مِنْ أَحْكَامِ الشَّرْعِ فِي تَفَاضُلِ الأَعْمَالِ فِيْمَا بَيْنَهَا، وَهِيَ أَنَّ الفِعْلَ الْمُتَعَدِّيَ نَفْعُهُ أَفْضَلُ وَأَعْظَمُ أَجْراً مِنَ الْفِعْلِ اللاَّزِمِ نَفْعُهُ،

---

(١) رواه البخاري برقم (٢٨٩٠) ومسلم برقم (٢٦٧٨) و(٢٦٧٩) .

(٢) «مرقاة المفاتيح» (٤/٤٥٢) .

وَأَنَّ مَنْ تَسَبَّبَ بِقِيَامِ غَيْرِهِ بِعَمَلٍ صَالِحٍ وَلَوْ بِإِعَانَتِهِ عَلَيْهِ وَتَفْرِيْغِهِ لَهُ، فَإِنَّهُ يَكُونُ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ، وَيَفْضُلُهُ بِمَا اسْتَقَلَّ بِهِ مِنْ عَمَلِ خِدْمَتِهِ وَإِعَانَتِهِ، لأَنَّهُ لَوْلا إِعَانَتُهُ إِيَّاهُ عَلَى هَذَا الْعَمَلِ لَمَا قَدَرَ عَلَى الْقِيَامِ بِهِ، فَإِنَّ أَجْرَ الصَّوْمِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ عَظِيْمٌ، وَلَكِنَّهُ إِذَا أَضْعَفَ الإِنْسَانَ عَنِ الْقِيامِ بِوَاجِبَاتِهِ أَوْ خِدْمَةِ نَفْسِهِ حَتَّى يَحْتَاجَ إِلى خِدْمَةِ غَيْرِهِ، فَإِنَّهُ يَصِيْرُ إِفْطَارُهُ أَفْضَلَ لَهُ، لأَنَّ الْمَصَالِحَ إِذَا تَعَارَضَتْ قُدِّمَ أَعْظَمُهَا نَفْعاً وَأَقَلُّهَا ضَرَراً؛ "فَبَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ أَجْرَ مَنْ قَامَ عَلَى خِدْمَةِ الصُّوَّامِ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْكَثْرَةِ بِالنِّسْبَةِ لأَجْرِ الصَّوْمِ مَبْلَغاً يَنْغَمِرُ فِيهِ أَجْرُ الصَّوْمِ، حَتَّى كَأَنَّ الأَجْرَ كُلَّهُ صَارَ لِلْمُفْطِرِ بِسَبَبِ قِيَامِهِ بِالْخِدْمَةِ " [١] .

وَرُوِيَ عَنْ أَبِي قِلابَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ نَاساً مِنْ أَصْحَابِ الرَّسُولِ ﷺ قَدِمُوْا يُثْنُونَ عَلَى صَاحِبٍ لَهُمْ خَيْراً، قَالُوا: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ فُلانٍ قَطُّ، مَا كَانَ فِي مَسِيْرٍ إِلاَّ كَانَ فِي قِرَاءَةٍ، وَلا نَزَلَ مَنْزِلاً إِلاَّ كَانَ فِي صَلاةٍ، قَالَ: **"فَمَنْ كَانَ يَكْفِيْهِ صَنْعَتَهُ ؟"** حَتَّى ذَكَرَ **" مَنْ كَانَ يَعْلِفُ جَمَلَهُ أَوْ دَابَّتَهُ ؟"** قَالُوا: نَحْنُ. قَالَ: **"فَكُلُّكُمْ خَيْرٌ مِنْهُ "** [٢] .

فَائِـــــــــــدَة

الْخِدْمَةُ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ عَمَلٌ عَظِيْمٌ، يَنَالُ بِهِ الْمُسْلِمُ الشَّرَفَ وَالرِّفْعَةَ عِنْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لأَنَّهُ يُرَبِّيْ فِي الْمُسْلِمِ خُلُقَ التَّوَاضُعِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **"وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلاَّ رَفَعَهُ اللَّهُ"** [٣]. كَمَا أَنَّهُ بِقِيَامِهِ بِالْخِدْمَةِ يَكُونُ فِي عَوْنِ إِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ وَقَضَاءِ حَوَائِجِهِمْ، وَبِهَا يُدْخِلُ السُّرُورَ عَلَى قُلُوبِهِمْ، فَيُجَازِيْهِ اللَّهُ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِ، كَمَا قَالَ ﷺ: **"وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ"** [٤]. وَقَالَ ﷺ: **"مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ**

---

(١) «إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام» لابن دقيق العيد بتصرف يسير. الحديث رقم (١٨٩) .

(٢) أخرجه ابن المبارك في الجهاد (٢١٤) وأبو داوود في «مراسيله» (٢٣٤/١) برقم (٣٠٦): وهو مرسل صحيح .

(٣) رواه مسلم عن أبي هريرة برقم (٦٧٥٧) .

(٤) رواه مسلم عن أبي هريرة برقم (٧٠٢٨) .

اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ" [(١)]. وعَنْ عَبدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّ لِلَّهِ عِنْدَ أَقْوَامٍ نِعَمًا يُقِرُّهَا عِنْدَهُمْ مَا كَانُوا فِي حَوَائِجِ النَّاسِ مَا لَمْ يَمَلُّوهُمْ، فَإِذَا مَلُّوهُمْ نَقَلَهَا مِنْ عِنْدِهِمْ إلى غَيْرِهِمْ." [(٢)]، وَفي رِوَايَةٍ: "إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا اخْتَصَّهُمْ بِالنِّعَمِ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ، يُقِرُّهُمْ فِيهَا مَا بَذَلُوهَا، فَإِذَا مَنَعُوهَا نَزَعَهَا مِنْهُمْ، فَحَوَّلَهَا إلى غَيْرِهِمْ " [(٣)]. وفي رِوَايَةٍ: "مَا مِنْ عَبْدٍ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ نِعْمَةً، فَأَسْبَغَهَا عَلَيْهِ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ حَوَائِجِ النَّاسِ إِلَيْهِ فَتَبَرَّمَ، فَقَدْ عَرَّضَ تِلْكَ النِّعْمَةَ لِلزَّوَالِ " [(٤)]. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "مَنْ مَشَى فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ خَيراً لَهُ مِن اعْتِكَافِ عَشْرِ سِنِيْنَ، وَمَن اعْتَكَفَ يوماً ابْتِغَاءَ وَجهِ اللَّهِ، جَعَلَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ ثَلاثَةَ خَنَادِقَ، كُلُّ خَندَقٍ أَبْعَدُ مِمَّا بَيْنَ الْخَافِقَيْنِ "[(٥)]. وَعَنْ عَبدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلاً جَاءَ إلى الرَّسُول ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلى اللَّهِ ؟ فَقَالَ: "أَحَبُّ النَّاسِ إلى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ - يَعْنِي مَسْجدَ الْمَدِينَةِ - شَهْرًا، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ مَلأَ اللَّهُ قَلْبَهُ رَجَاءً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يَقضِيَهَا لَهُ أَثْبَتَ اللَّهُ قَدَمَهُ يَوْمَ تَزُولُ الأَقْدَامِ " [(٦)]. وَعَنْ أَنَسِ ابْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَن لَقِيَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ بِمَا يُحِبُّ لِيَسُرَّهُ

---

(١) رواه مسلم عن ابن عمر برقم (٦٧٤٣) .

(٢) رواه الطبراني في الكبير برقم (٨٣٥٠) وهو حسن بشواهده .

(٣) رواه الطبراني في الكبير عن ابن عمر (٨٠٥) وفي الأوسط (٥١٦٢) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٦٦٢) وقال المنذري في الترغيب: لو قيل بتحسين سنده لكان مُمْكِناً .

(٤) رواه الطبراني في الأوسط عن ابن عباس (٧٥٢٩) والبيهقي في «شعب الإيمان» عن أبي هريرة (٧٦٦٠) وقال المنذري في الترغيب والهيثمي في المجمع: إسناده جيد .

(٥) رواه الطبراني في الأوسط (٧٣٤٦) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٩٦٥). وقال الهيثمي في المجمع: إسناده جيد .

(٦) رواه الطبراني في الكبير (١٣٤٦٨) وفي الأوسط (٦٠٢٦) وفي الصغير (٨٦١) وابن أبي الدنيا في «قضاء الحوائج» برقم (٣٦) وهو حسن بشواهده .

بذَلِكَ، سَرَّهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يومَ الْقِيَامَةِ" (١). وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه قَالَ: **"إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ خَلْقاً مِنْ خَلْقِهِ لِخَلْقِهِ، فَجَعَلَهُمْ لِلنَّاسِ وُجُوهاً وَلِلْمَعْرُوفِ أَهْلاً، يَفْزَعُ النَّاسُ إِلَيْهِمْ فِي حَوَائِجِهِمْ، أُوْلَئِكَ الآمِنُونَ يَوْمَ الْقِيامَةِ."**(٢)، وبَعَث الحَسَنُ الْبِصْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ قَوْماً مِنْ أَصْحَابِهِ فِي قَضَاءِ حَاجَةٍ لِرَجُلٍ، وَقَالَ لَهُمْ: مُرُّوا بِثَابِتٍ الْبُنَانِيِّ فَخُذُوهُ مَعَكُمْ. فَأَتَوْا ثَابِتاً فَقَالَ: أَنَا مُعْتَكِفٌ. فَرَجَعُوا إِلى الحَسَنِ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: قُولُوا لَهُ: **يَا أَعْمَشُ أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ مَشْيَكَ فِي حَاجَةِ أَخِيكَ الْمُسْلِمِ خَيرٌ لَكَ مِنْ حِجَّةٍ بَعْدَ حِجَّةٍ ؟!** فَرَجَعُوا إِلى ثَابِتٍ فَتَرَكَ اعْتِكَافَهُ وَذَهَب مَعَهُمْ (٣). وَقَالَ الحَسَنُ رَحِمَهُ اللهُ: **" لأَن أَقْضِيَ لِمُسْلِمٍ حَاجَةً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُصَلِّيَ أَلْفَ رَكْعَةٍ."**(٤)، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى عَنْهُ قَالَ: **" لأَنْ أَقْضِيَ لأَخٍ حَاجَةً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ شَهرَين "** (٥) .

كَمَا يَنَالُ الْمُسْلِمُ بِقِيَامِهِ بِعَمَلِ الخِدْمَةِ الْمَحَبَّةَ فِي قُلُوبِ الخَلْقِ، لِمَا جُبِلَتِ النُّفُوسُ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا، وَكَذَلِكَ يَحْظَى بِمُخَالَطَةِ الصَّالِحِينَ وَالتَّقرُّب مِنْهُمْ وَالتَّخَلُّق بِأَخْلاقِهِمْ وَوِرَاثَةِ عِلْمِهِمْ، فَإِنَّ أَكَابِرَ عُلَمَاءِ التَّابِعِيْنَ كَانُوا مِنَ الْمَوَالِي الَّذِينَ خَدَمُوا الصَّحَابَةَ رضي الله عنهم، فَوَرِثُوا عَنْهُمُ الْعِلْمَ، وَصَارُوا أَئِمَّةً تُشَدُّ إِلَيهِمُ الرِّحَالُ فِي طَلَب عُلُومِهِمْ، كَعِكْرِمَةَ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ، وَمُجَاهِدٍ، وطَاوُوْس بْنِ كَيْسَانَ، وَالحَسَنِ الْبِصْرِيِّ، وَيَزِيْدَ بْنِ أَبِيْ حَبِيْب، وَمَكْحُول، ومَيْمُونِ بْنِ مَهْرَانَ، وَالضَّحَّاكِ بْنِ مُزَاحِمٍ، رَحِمَهُمُ اللهُ وغَيْرِهِمْ، فَهَؤُلاءِ سَادُوْا أَهْلَ زَمَانِهِمْ بِالْعِلْمِ الَّذِيْ تَحَصَّلُوا عَلَيهِ بِخِدْمَتِهِمْ أَصْحَابَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَأَخْذِهِمْ لَهُ عَنْهُمْ (٦) .

---

(١) رواه الطبراني في الصغير (١١٧٨) وقال المنذري في الترغيب والهيثمي في المجمع: إسناده حسن .

(٢) أخرجه الترسي في ثواب «قضاء حوائج الإخوان» عن علي موقوفاً بسند صحيح برقم (٤٢) .

(٣) «جامع العلوم والحكم» ص (٤١٤). و«قضاء الحوائج» لابن أبي الدنيا برقم (١٠٣) .

(٤) «قضاء الحوائج» برقم (٣٧) .

(٥) المصدر السابق برقم (٣٨) .

(٦) أخرج ابن عساكر عن ابن شهاب الزهري، قال: **قَدِمْتُ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فَقَالَ لِيْ: مِنْ أَيْنَ قَدِمْتَ يَا زُهْرِيُّ؟ قُلْتُ: مِنْ مَكَّةَ. قَالَ: فَمَنْ خَلَّفْتَ يَسُودُ أَهْلَهُ– يعني في العلم–؟ قَالَ: قُلْتُ: عَطَاءَ بْنَ أَبِيْ رَبَاحٍ. قَالَ: فَمِنَ الْعَرَبِ أَمْ مِنَ الْمَوَالِيْ؟ قَالَ: قُلْتُ: مِنَ الْمَوَالِيْ. قَالَ: وبِمَ سَادَهُمْ؟ قُلْتُ: بِالدِّيَانَةِ وَالرِّوَايَةِ. قَالَ:** =

كَمَا يَحْظَى الْمُسْلِمُ بِخِدْمَتِهِ لِلصَّالِحِينَ بِدُعَائِهِمْ لَهُ بِالْخَيْرِ فِي دِيْنِهِ ودُنْيَاهُ، كَمَا حَظِيَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا بِدُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ لَهُ حِينَمَا بَاتَ عِنْدَ خَالَتِهِ مَيْمُونَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ، فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ اللَّيْلِ، قَامَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَوَضَعَ لَهُ وَضُوءاً – أَيْ مَاءً يَتَوَضَّؤُ بِهِ – فَقَالَ ﷺ: **"مَنْ وَضَعَ هَذَا ؟** فَأُخْبِــرَ، فَقَالَ: **"اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ "** (١) .

وَكَذِلَك حَظِيَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خَادِمُ رَسُول اللَّهِ ﷺ بِدُعَائِهِ ﷺ، حَيْثُ قَالَ: **"اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ "**، فَأَكْثَرَ اللَّهُ لَهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ، وَكَانَ لَهُ بُسْتَانٌ يَحْمِلُ الْفَاكِهَةَ فِي السَّنَةِ مَرَّتَيْنِ، وَكَانَ فِيهِ رَيْحَانٌ يَجِيءُ مِنْهَا رَائِحَةُ الْمِسْكِ (٢) . وَقَال أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **فَوَاللَّهِ إِنَّ مَالِي لَكَثِيرٌ، وَإِنَّ وَلَدِي وَوَلَدَ وَلَدِي لَيَتَعَادُّونَ عَلَى نَحْوِ الْمِائَةِ الْيَوْمَ** (٣) . وَدَفَنَ مِنْ أَوْلادِهِ قَبْلَ مَقْدَمِ الحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ الثَّقَفِيِّ مِائَةً وَعِشْرِينَ (٤) .

= إِنَّ أَهْلَ الدِّيَانَةِ وَالرِّوَايَةِ لَيَنْبَغِيْ أَنْ يَسُودُوا؛ فَمَنْ يَسُودُ أَهْلَ الْيَمَنِ؟ قَالَ: قُلْتُ: طَاوُوسُ بْنُ كَيسَانَ. قَالَ: فَمِنَ الْعَرَبِ أَمْ مِنَ الْمَوَالِيْ؟ قُلْتُ: مِنَ الْمَوَالِيْ. قَالَ: وبِمَ سَادَهُمْ؟ قَالَ: قُلْتُ: بِمَا سَادَهُم بِهِ عَطَاءٌ. قَالَ: إِنَّهُ لَيَنْبَغِيْ. فَمَنْ يَسُودُ أَهْلَ مِصْرَ؟ قَالَ: قُلْتُ: يَزِيدُ بْنُ أَبِيْ حَبِيبٍ. قال: فَمِنَ الْعَرَبِ أَمْ مِنَ الْمَوَالِيْ؟ قال: قلت: مِنَ الْمَوَالِيْ. قال: فَمَنْ يَسُودُ أَهْلَ الشَّامِ؟ قال: قلت: مَكْحُولٌ. قال: فَمِنَ الْعَرَبِ أَمْ مِنَ الْمَوَالِيْ؟ قال: قلت: عَبْدٌ نُوبِيٌّ، أَعْتَقَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْ هُذَيْلٍ. قال: فَمَنْ يَسُودُ أَهْلَ الجَزِيرَةِ؟ قال: قلت: مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ. قال: فَمِنَ الْعَرَبِ أَمْ مِنَ الْمَوَالِيْ؟ قال: قلت: مِنَ الْمَوَالِيْ. قال: فَمَنْ يَسُودُ أَهْلَ خُرَاسَانَ؟ قال: قلت: الضَّحَّاكُ بْنُ مُزَاحِمٍ. قال: فَمِنَ الْعَرَبِ أَمْ مِنَ الْمَوَالِيْ؟ قال: قلت: مِنَ الْمَوَالِيْ. قال: فَمَنْ يَسُودُ أَهْلَ الْبَصْرَةِ؟ قلت: الحَسَنُ بْنُ أَبِي الحَسَنِ. قال: فَمِنَ الْعَرَبِ أَمْ مِنَ الْمَوَالِيْ؟ قال: قلت: مِنَ الْمَوَالِي. قال: فَمَنْ يَسُودُ أَهْلَ الْكُوفَةِ؟ قلت: إِبْرَاهِيمُ النَّخْعِيُّ. قال: فَمِنَ الْعَرَبِ أَمْ مِنَ الْمَوَالِي؟ قلت: مِنَ الْعَرَبِ. فقال: وَيْلَكَ يَا زُهْرِيُّ! فَرَّجْتَ عَنِّيْ؛ وَاللَّهِ لَيَسُودَنَّ الْمَوَالِيْ عَلَى الْعَرَبِ حَتَّى يَخْطُبَ لَهَا عَلَى الْمَنَابِرِ وَالْعَرَبُ تَحْتَها! قال: قلت: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّمَا هُوَ أَمْرُ اللَّهِ ودِيْنُهُ، مَنْ حَفِظَهُ سَادَ، ومَنْ ضَيَّعَهُ سَقَطَ." تاريخ دمشق (٧١٣٣) . وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال:" **لَمَّا مَاتَ الْعَبَادِلَةُ صَارَ الْفِقْهُ فِي جَمِيعِ الْبُلْدَانِ إِلَى الْمَوَالِيْ إِلاَّ الْمَدِينَةَ.**" مقدمة ابن الصلاح ص (٢٤١) .

(١) رواه البخاري عن ابن عباس برقم (١٤٣) ومسلم برقم (٢٤٧٧) .

(٢) رواه الترمذي برقم (٣٨٣٣) وقال: هذا حديث حسن .

(٣) رواه مسلم برقم (٦٥٣١) .

(٤) رواه البخاري برقم (١٨٨١) .

وَكَذَلِكَ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لأَبِي قَتَادَةَ حِيْنَمَا حَفِظَهُ مِنَ السُّقُوطِ، وَهُوَ يَسِيرُ عَلَى رَاحِلَتِهِ لَيْلاً حَتَّى كَادَ يَسْقُطُ، فَقَالَ: "**حَفِظَكَ اللَّهُ بِمَا حَفِظْتَ بِهِ نَبِيَّهُ** " (١) .

فَلأَجْلِ هَذِهِ الْفَضَائِلِ وَغَيْرِهَا كَانَ مِنْ دَأْبِ الصَّالِحِينَ أَنْ يَتَنَافَسُوا فِي خِدْمَةِ بَعْضِهِمُ الْبَعْضَ، وَإِيْثَارِ إِخْوَانِهِمْ فِي الرَّاحَةِ، وَتَقْدِيْمِ النَّفْسِ فِي الأَعْمَالِ الصَّعْبَةِ؛ وَكَانُوا إِذَا خَرَجُوا فِي سَبِيْلِ اللَّهِ يَجْتَهِدُونَ فِي خِدْمَةِ إِخْوَانِهِمْ، وَإِدْخَالِ السُّرُورِ عَلَيْهِمْ، وَالإِنْفَاقِ عَلَيْهِم بِقَدْرِ الاِسْتِطَاعَةِ، طَلَباً لِمَرْضَاتِ اللَّهِ وَرَغْبَةً فِي مَوْعُودِ اللَّهِ عَلَى هَذَا الْعَمَلِ الْعَظِيمِ، فَهَا هُوَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ﷺ يَقُومُ بِخِدْمَةِ نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ، وَيَخْدُمُ أَهْلَ بَيْتِهِ وَأَصْحَابَهُ، كَمَا يَخْدُمُ أَهْلَ الخَارِجِينَ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ؛ فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ فِي وَصْفِ النَّبِيِّ ﷺ:" **كَانَ بَشَرًا مِنَ الْبَشَرِ، يَفْلِي ثَوْبَهُ، وَيَحْلُبُ شَاتَهُ، وَيَخْدُمُ نَفْسَهُ** "، وفي رِوَايَةٍ:" **يَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَخِيطُ ثَوْبَهُ، وَيَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ كَمَا يَعْمَلُ أَحَدُكُمْ فِي بَيْتِهِ** " (٢) .

وَلَمَّا سُئِلَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ ؟ قَالَتْ:" **كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ** – تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ –." (٣)، وعَنْ بِنْتٍ لِخَبَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ:" **خَرَجَ خَبَّابٌ فِي سَرِيَّةٍ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَعَاهَدُنَا حَتَّى كَانَ يَحْلُبُ عَنْزًا لَنَا، فَكَانَ يَحْلُبُهَا فِي جَفْنَةٍ لَنَا، فَكَانَتْ تَمْتَلِئُ حَتَّى تَطْفَحَ، قَالَتْ: فَلَمَّا قَدِمَ خَبَّابٌ حَلَبَهَا فَعَادَ حِلابُهَا إِلَى مَا كَانَ، قَالَت: فَقُلْنَا لِخَبَّاب: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَحْلُبُهَا حَتَّى تَمْتَلِئَ جَفْنَتُنَا، فَلَمَّا حَلَبْتَهَا نَقَصَ حِلابُهَا** " (٤) .

وخَدَمَهُ أَنَسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَشْرَ سِنِيْنَ، فَقَالَ:" **فَوَاللَّهِ مَا صَحِبْتُهُ فِي سَفَرٍ وَلا حَضَرٍ وَلا**

---

(١) رواه مسلم عن أبي قتادة برقم (١٥٩٤) .

(٢) رواه أحمد في مسنده برقم (٢٥٣٤١) وابن حبان في صحيحه برقم (٦٤٤٠) قال الحافظ العراقي في «المغني»: رجاله رجال الصحيح .

(٣) رواه البخاري برقم (٦٧٦) .

(٤) رواه أحمد في مسنده برقم (٢١١٠٨) والطبراني في الكبير برقم (٤٦٠) وقال الهيثمي في المجمع: رجالهما رجال الصحيح غير عبدالرحمن بن زيد القائش وهو ثقة .

خدَمْتُهُ إلاَّ كَانَتْ خِدْمَتُهُ لِيْ أَكْثَرَ مِنْ خِدْمَتِي لَهُ " [(١)] .

وَكَانَ ﷺ في سَفَرٍ، وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ بإصْلاحِ شَاةٍ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَيَّ ذَبْحُهَا، وَقَالَ آخَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَيَّ سَلْخُهَا، وَقَالَ آخَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَيَّ طَبْخُهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "**وَعَلَيَّ جَمْعُ الحَطَب**"، فَقَالُوا: نَحْنُ نَكْفِيْكَ، فَقَالَ ﷺ: "**قَدْ عَلِمتُ أَنَّكُم تَكْفُونيْ، وَلَكِنْ أَكْرَهُ أَنْ أَتَمَيَّزَ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ يَكْرَهُ مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يَرَاهُ مُتَمَيِّزاً بَيْنَ أَصْحَابِهِ**"، وَقَامَ ﷺ وَجَمَعَ الحَطَبَ [(٢)] .

وَكَانَ ﷺ في سَفَرٍ فَنَزَلَ لِلصَّلاةِ، فَتَقَدَّمَ إلى مُصَلاَّهُ ثُمَّ كَرَّ رَاجِعاً، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: "**أَعقِلُ نَاقَتِي**" قَالُوا: نَحْنُ نَكْفِيْكَ، نَحْنُ نَعْقِلُهَا. قَالَ:" **لا يَستَعِنْ أَحَدُكُم بِالنَّاسِ وَلَوْ فِي قَضمَةٍ مِن سِوَاكٍ** " [(٣)] .

وَهَذَا عُمَرُ بْنُ الخَطَّاب رضي الله عنه يَتفَقَّدُ أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه بَعْدَ صَلاةِ الْفَجْرِ، فَكَانَ يَرَاهُ إذَا صَلَّى الْفَجْرَ يَخْرُجُ فِي ضَوَاحِي الْمَدِيْنَةِ كُلَّ يومٍ، فَيَتَسَاءَلُ مَا لَهُ يَخْرُجُ ؟ ثُمَّ تَبِعَهُ مَرَّةً مِنَ الْمَرَّاتِ، فَإِذَا هُوَ قَدْ دَخَلَ بَيْتاً حَقِيراً، فَلَمَّا خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ دَخَلَ بَعْدَهُ عُمَرُ، فَإِذَا فِي الخَيْمَةِ عَجُوزٌ عَمْيَاءُ وَحَولَهَا صِبْيَةٌ صِغَارٌ، فَقَالَ لَهَا عُمَرُ: يَرْحَمُكِ اللَّهُ يَا أَمَةَ اللَّهِ، مَنْ هَذَا الشَّيْخُ الَّذِي يَأْتِيكُمْ ؟ قَالَتْ: إِنَّهُ لَيَتَرَدَّدُ عَلَيْنَا حَيْناً، وَاللَّهِ إِنِّيْ لا أَعْرِفُهُ. فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: فَمَاذَا يَفْعَلُ ؟ قَالَتْ: هُوَ يَأْتِيْ كُلَّ يومٍ يَكْنُسُ بَيْتَنَا، وَيَطْبُخُ عَشَاءَنَا، وَيُنَظِّفُ قُدُورَنَا وَيَجْلِبُ لَنَا الْمَاءَ ثُمَّ يَذْهَبُ. فَبَكَى عُمَرُ رضي الله عنه وَقَالَ: "**لَقَد أَتعَبتَ مَن بَعدَكَ يَا أَبَا بَكرٍ**"[(٤)]. وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه يَحْلُبُ لِلْحَيِّ أَغْنَامَهُم، فَلَمَّا اسْتُخْلِفَ قَالَتْ جَارِيَةٌ

---

(١) انظر «الطبقات السنية في تراجم الحنفية» للتقي الغزي (١/١٩) و«الوافي بالوفيات» للصفدي (١/٣١) و«خلاصة سير سيد البشر» للمحب الطبري (١/٨٧) .

(٢) «خلاصة سير سيد البشر» (١/٨٣) .

(٣) المصدر السابق .

(٤) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» بمعناه (٣٠/٣٢٢) .

مِنْهُمْ: الآنَ لا تُحْلَبُ لَنَا مَنَائِحُ دَارِنَا. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:" **بَلَى لَعَمْرِي لأَحْلُبَنَّهَا، وإِنِّي لأَرجُو أَنْ لا يُغَيِّرَنِي مَا دَخَلتُ فِيهِ عَنْ خُلُقٍ كُنْتُ عَلَيْهِ** " (١) .

وَكَانَ عُمَرُ ﷺ يَتَعَاهَدُ الأَرَامِلَ، يَسْقِي لَهُنَّ الْمَاءَ بِاللَّيْلِ، وَرَآهُ طَلْحَةُ ﷺ بِاللَّيْلِ يَدْخُلُ بَيْتَ امْرَأَةٍ، فَدَخَلَ إِلَيْهَا طَلْحَةُ نَهَاراً، فَإِذَا هِيَ عَجُوزٌ عَمْيَاءُ مُقْعَدَةٌ، فَسَأَلَهَا: مَا يَصْنَعُ هَذَا الرَّجُلُ عِنْدَكِ؟ قَالَتْ: هَذَا مِنْ كَذَا وَكَذَا يَتَعَاهَدُنِي، يَأْتِينِيْ بِمَا يُصْلِحُنِي، وَيُخْرِجُ عَنِّي الأَذَى، فَقَالَ طَلْحَةُ ﷺ:" **ثَكِلَتكَ أُمُّكَ يَا طَلحَةُ، أَعَثَرَاتِ عُمَرَ تَتْبَعُ؟**"(٢) .

وَكَانَ أَبُو وَائِلٍ رَحِمَهُ اللهُ يَطُوفُ عَلَى نِسَاءِ الحَيِّ وَعَجَائِزِهِنَّ كُلَّ يَومٍ، فَيَشْتَرِيْ لَهُنَّ حَوَائِجَهُنَّ وَمَا يُصْلِحُهُنَّ (٣) .

وَقَالَ جَرِيْرُ بْنُ حَازِمٍ رَحِمَهُ اللهُ: سَمِعْتُ شَيْخاً مِنْ عَبْسٍ يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيْهِ قَالَ: أَتَيْتُ السُّوقَ، فَاشْتَرَيْتُ عَلَفاً بِدِرْهَمٍ، فَرَأَيْتُ رَجُلاً فَسَخَّرْتُهُ فَحَمَلتُ عَلَيهِ الْعَلَفَ، فَمَرَّ بِقَوْمٍ فَقَالُوا: نَحْمِلُ عَنْكَ يَا أَبَا عَبدِ اللهِ. فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا ؟ قَالُوا: هَذَا سَلْمَانُ صَاحِبُ رَسُولِ اللهِ ﷺ. فَقُلْتُ: لَمْ أَعْرِفْكَ فَضَعْهُ عَافَاكَ اللهُ، فَأَبَىْ حَتَّى أَتَى مَنْزِلِيْ بِهِ، فَقَالَ: **قَدْ نَوَيْتُ فِيهِ نِيَّةً فَلا أَضَعُهُ حَتَّى أَبْلُغَ بَيْتَكَ** – وهُوَ يَوْمَئِذٍ أَمِيْرٌ عَلَى الْمَدَائِنِ – (٤) .

وَقَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ:" **صَحِبْتُ جَرِيْرَ بْنَ عَبدِ اللهِ ﷺ فَكَانَ يَخْدُمُنِيْ**." وَهُوَ أَكْبَرُ مِنْ أَنَسٍ (٥). وَقَالَ مُجَاهِدٌ رَحِمَهُ اللهُ: "**صَحِبْتُ ابْنَ عُمَرَ ﷺ فِي السَّفَرِ لأَخْدُمُهُ، فَكَانَ يَخْدُمُنِيْ** " (٦) .

---

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (١٨٦/٣) عن ابن عمر وعائشة وسعيد بن المسيب، وقال ابن كثير: هذا سياق حسن وله شواهد من وجوه أخر ومثل هذا تقبله النفس وتتلقاه بالقبول .

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤٧/١ – ٤٨) .

(٣) «جامع العلوم والحكم» ص (٤١٤) .

(٤) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٨٨/٤) وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٣٣/٢١) .

(٥) رواه البخاري برقم (٢٨٨٨) .

(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣٨٥/٣-٣٨٦) .

وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَفْضَلِيَّةَ عَمَلِ الخِدْمَةِ وَفَضْلَ خَادِمِ الْقَوْمِ عَلَى غَيْرِهِ، فَقَالَ ﷺ: **"خَيرُ الأَصْحَاب عِنْدَ اللهِ ﷻ خيرُهُم لِصَاحِبِه، وَخيرُ الجِيرَانِ عِندَ اللهِ ﷻ خيرُهُم لِجَارِهِ"** [(١)]. وَرُوِيَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **"أَعْظَمُ الْقَومِ أَجْراً خَادِمُهُم "** [(٢)]. وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: **"سَيِّدُ الْقَومِ خَادِمُهم، فَمَنْ سَبَقَهُم بِخِدمَةٍ لَمْ يَسْبِقُوهُ بِعَمَلٍ إلاَّ الشَّهَادَةَ "**. [(٣)]؛ قَالَ الطِّيْبِيُّ رحمه الله: فِيهِ وَجْهَانِ :

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ يَنْبَغِيْ أَنْ يَكُونَ السَّيِّدُ كَذَلِكَ، لِمَا وَجَبَ عَلَيْهِ مِنَ الإِقَامَةِ بِمَصَالِحِهِمْ، وَرِعَايَةِ أَمْوَالِهِم ظَاهِراً وَبَاطِناً؛ رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللهِ الْمَرْوَزِيِّ أَنَّهُ صَحِبَهُ أَبُو عَلِيٍّ الرِّبَاطِيُّ، فَقَالَ لأَبِيْ عَلِيٍّ: تَكُونُ أَنْتَ الأَمِيرَ أَمْ أَنَا ؟ فَقَالَ: بَلْ أَنْتَ، فَلَمْ يَزَلْ يَحْمِلُ الزَّادَ لِنَفْسِهِ وَلأَبِيْ عَلِيٍّ عَلَى ظَهْرِهِ. وَأَمْطَرَتِ السَّمَاءُ لَيْلَةً، فَقَامَ عَبْدُ اللهِ طَوَالَ اللَّيْلِ عَلَى رَأْسِ رَفِيْقِهِ فِي يَدِهِ كِسَاءٌ يَمْنَعُ الْمَطَرَ عَنْهُ، كُلَّمَا قَالَ: اللهَ اللهَ لا تَفْعَلْ، يَقُولُ: أَلَمْ تَقُلْ إِنَّ الإِمَارَةَ مُسَلَّمَةٌ لَكَ، فَلا تَتَحَكَّم عَلَيَّ، حَتَّى قَالَ أَبُو عَلِيٍّ: وَدِدْتُ أَنِّيْ مِتُّ وَلَمْ أُؤَمِّرْهُ .

وَثَانِيْهِمَا: أَخْبَرَ أَنَّ مَنْ يَخْدُمُهُمْ وَإِنْ كَانَ أَدْنَاهُمْ ظَاهِراً، فَهُوَ فِي الحَقِيْقَةِ سَيِّدُهُم، وَأَنَّهُ يُثَابُ بِعَمَلِهِ للهِ سبحانه وتعالى، وَإِلَيْهِ الإِشَارَةُ بِقَولِهِ:" **فَمَن سَبَقَهُم بِخِدمَةٍ لَمْ يَسْبِقُوهُ بِعَمَلٍ إِلاَّ الشَّهَادَةِ.**" أَيِ الْقَتْلِ أَوِ الْمَوْتِ فِي سَبِيْلِ اللهِ، وَذَلِكَ لأَنَّهُ شَرِيْكُهُم فِيمَا يُزَاوِلُونَهُ مِنَ الأَعْمَالِ بِوَاسِطَةِ خِدْمَتِهِ لَهُمْ [(٤)] .

---

(١) رواه أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو برقم (٦٥٦٦) وابن حبان في صحيحه (٥١٨) والحاكم في المستدرك برقم (١٦٢٠) و(٢٤٩٠) و(٧٢٩٥) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي .

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في سننه عن ضمرة بن حبيب مرسلاً برقم (٢٤٠٦) .

(٣) رواه الحاكم في «التاريخ» ومن طريقه البيهقي في «شعب الإيمان» برقم (٨٤٠٧) وقال العجلوني في «كشف الخفاء» (٤٦٣/١): الحديث ضعيف، على أنه قد يقال: إنه حسن لغيره لتعدد طرقه. وعلى كل حال فهو في فضائل الأعمال، وثبت عن أحمد بن حنبل وغيره من أئمة الحديث أنهم إذا رووا في فضائل الأعمال تساهلوا في الأسانيد .

(٤) «مرقاة المفاتيح» (٤٢٨/٧) .

وَقَال عَبدُ اللَّهِ بْنُ عُمرَ رَضِيَ اللهُ عَنهُما: "مَنْ خدَمَ أَصْحَابَهُ في سَبِيْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فُضِّلَ عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُم بِقِيْرَاطٍ مِنَ الأَجْرِ " [(١)] .

وَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ:" لأَنْ أُشَيِّعَ رُفْقَةً في سَبِيْلِ اللَّهِ فَأُصْلِحَ لَهُمْ أَحْلاسَهُمْ، وَأَرُدَّ عَلَيْهِم دَوَابَّهُمْ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ عَشْرِ حِجَجٍ بَعْدَ حِجَّةِ الإِسْلامِ " [(٢)] .

وعَنْ عَلِيِّ بْنِ رَبَاحٍ رَحِمَهُ اللهُ:" أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُصَلِّيْ عَلَى الرَّجُلِ الَّذِي يَرَاهُ يَخْدُمُ أَصْحَابَهُ " [(٣)] .

وَعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ عُمَرَ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّهُ كَانَ يُقَالُ: "ثَلاثَةٌ لا يَعلَمُ أَحَدٌ مَا فِيهِنَّ مِنَ الأَجْرِ: صَاحِبُ الخِدمَةِ في سَبيلِ اللَّهِ، وَصَاحِبُ الظِّلِّ في سَبيلِ اللَّهِ، أَوْ صَاحِبُ عُسْبِ الْفَرَسِ." [(٤)] – يَعْنِيْ إِعَارَةَ الْفَحْلِ – .

وَرُوِيَ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: "مَنْ خَدَمَ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلاً في سَبِيْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَومِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ، وَمَن سَقَى رَجُلاً في سَبِيْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَرَدَ حَوْضَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ يَومَ القِيَامَةِ وسَعَيْتُ في شَفَاعَتِهِ " [(٥)] .

وَقَالَ سَلْمَانُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: "كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ إِذَا سَافَرُوا اشْتَرَطَ أَفْضَلُهُمُ الْخِدْمَةَ، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ذَلِكَ اشْتَرَطَ الأَذَانَ " [(٦)] .

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الجهاد» برقم (٢١١) .

(٢) ذكره ابن النحاس في مشارع الأشواق برقم (٤٢٨) .

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الجهاد» (٢٠٦) وهو مرسل صحيح .

(٤) رواه سعيد بن منصور في سننه برقم (٢٤٠٨) .

(٥) أخرجه الحارث بن محمد في مسنده كما في «بغية الباحث» عن سلمان رضي الله عنه برقم (٦٢٧) وقال البوصيري في «إتحاف الخيرة»: رواه مسدد بسند مرسل ؛ وفيه عباد بن كثير وهو ضعيف .

(٦) المصدر السابق ، ولكن معناه صحيح يؤيده ما بعده .

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَشْتَرِطُ عَلَى الرَّجُلِ الْخِدْمَةَ إِذَا سَافَرَ مَعَهُ، عَلَى أَنْ لا يُسَافِرَ مَعَهُ بِجَـــلاَّلَةٍ وَلا يُنَازِعَهُ فِي الأَذَانِ وَالذَّبِيْحَةِ [١] .

وَكَانَ إِبْرَاهِيْمُ بْنُ أَدْهَمَ رَحِمَهُ اللَّهُ إِذَا غَزَا اشْتَرَطَ عَلَى رُفَقَائِهِ الْخِدْمَةَ وَالأَذَانَ [٢] .

وَكَانَ عَامِرُ بْنُ قَيْسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ إِذَا خَرَجَ لِلْغَزْوِ يَقِفُ يَتَوَسَّمُ بِالْمُجَاهِدِينَ، فَإِذَا رَأَى رُفْقَةً تُوَافِقُهُ، قَالَ لَهُمْ: **"يَا هَؤُلاءِ إِنِّيْ أُرِيدُ أَنْ أَصْحَبَكُمْ لِلْجِهَادِ، وَأَنْ أُجَاهِدَ مَعَكُمْ عَلَى أَنْ تُعْطُونِيْ مِنْ أَنْفُسِكُم ثَلاثَ خِصَالٍ."** فَيَقُولُونَ: وَمَا هُنَّ ؟ فَيَقُولُ: **الأُوْلَى: أَنْ أَكُونَ خَادِمَكُمْ، وَلا يُنَازِعَنِيْ أَحَدٌ مِنْكُمُ الْخِدْمَةَ. وَالثَّانِيَةُ: أَنْ أَكُونَ مُؤَذِّناً لَكُمْ، وَلا يُنَازِعَنِيْ أَحَدٌ مِنْكُمُ الأَذَانَ. وَالثَّالِثَةُ: أَنْ أُنْفِقَ عَلَيْكُمْ بِقَدْرِ طَاقَتِيْ."** فَإِذَا قَالُوا: نَعَم، انْضَمَّ إِلَيْهِمْ، فَإِنْ نَازَعَهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ شَيئاً مِنْ ذَلِكَ، رَحَلَ عَنْهُمْ إِلى غَيْرِهِمْ [٣] .

وَكَانَ عَمْرُوُ بْنُ عُتْبَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَشْتَرِطُ عَلَى أَصْحَابِهِ أَنْ يَكُونَ خَادِمَهُمْ، فَخَرَجَ فِي الرَّعْيِ فِي يَوْمٍ حَارٍّ، فَأَتَاهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ، فَإِذَا هُوَ بِالْغَمَامَةِ تُظِلُّهُ وَهُوَ نَائِمٌ، فَقَالَ: أَبْشِرْ يَا عَمْرُو ! فَأَخَذَ عَلَيْهِ عَمْرٌو أَلاَّ يُخْبِرَ بِهِ [٤] .

وَكَانَ الرَّبِيْعُ بْنُ خُثَيمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يَكْنُسُ الْحُشَّ – أَيِ الْمِرْحَاضَ – بِنَفْسِهِ، فَقِيْلَ: إِنَّكَ تُكْفَى هَذَا، فَقَالَ: **"إِنِّي أُحِبُّ أَنْ آخُذَ نَصِيبِي مِنَ الْمِهْنَةِ "** [٥] .

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الجهاد» برقم (٢١٣) .

(٢) «حلية الأولياء» (٨/٦) وأخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦/٣٢٥) .

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الجهاد» برقم (٢١٢) وفي «الزهد» له برقم (٨٦٧) وابن سعد في «الطبقات» (٧/١٠٩) .

(٤) أخرجه ابن المبارك في «الجهاد» برقم (٢١٠) وفي «الزهد» برقم (٨٦٩) وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/١٥٧) .

(٥) أخرجه وكيع في «الزهد» برقم (٤٨٣) ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه من طريقه برقم (٣٤٨٥١) والبيهقي في «شعب الإيمان» برقم (٨٥٩٢) وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/١١٦) .

وَصَحِبَ رَجُلٌ قوماً فِي الجِهَادِ، فَاشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَخْدُمَهُمْ، وَكَانَ إِذَا أَرَادَ أَحَدٌ مِنْهُم أَنْ يَغْسِلَ رَأْسَهُ أَوْ ثَوبَهُ قَالَ: هَذَا شَرْطِيْ، فَيَفْعَلُهُ، فَمَاتَ، فَجَرَّدُوهُ لِلْغُسْلِ، فَرَأَوْا عَلَى يَدِهِ مَكْتُوباً: "**مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ** "، فَنَظَرُوا، فَإِذَا هِيَ كِتَابَةٌ بَيْنَ الْجِلْدِ وَاللَّحْمِ [(١)] .

*****

(١) «جامع العلوم والحكم» ص (٣٤٢) .



باب
فضل الحراسة في الخروج في سبيل الله

الْحَدِيثُ التَّاسِعُ وَالْعِشْرُونَ

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "**عَيْنَانِ لا تَمَسُّهُمَا النَّارُ، عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**" [(١)] .

قوله (**لا تَمَسُّهُمَا النَّارُ**) أَيْ لا تَمَسُّ صَاحِبَهُمَا، فَعَبَّرَ بِالْجُزْءِ عَنِ الْجُمْلَةِ، وَعَبَّرَ بِالْمَسِّ إِشَارَةً إِلَى امْتِنَاعِ مَا فَوقَهُ بِالأَوْلَى؛ وَفِي رِوَايَةٍ: (**لا تَمَسُّهُمَا النَّارُ أَبَداً**) وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: (**لا تَرَيَانِ النَّارَ**) .

قوله (**عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ**) وَهِيَ مَرْتَبَةُ الْمُجَاهِدِينَ مَعَ النَّفْسِ التَّائِبِينَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، سَوَاءٌ كَانَ عَالِماً أَوْ غَيْرَ عَالِمٍ؛ وَالْبُكَاءُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ حُزْنٍ أَوْ مِنْ وَجَعٍ أَوْ مِنْ فَزَعٍ أَوْ مِنْ فَرَحٍ أَوْ مِنْ شُكْرٍ أَوْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَهُوَ أَعْلاهَا دَرَجَةً، وَأَغْلاهَا ثَمَناً فِي الدَّارِ الآخِرَةِ [(٢)] .

قوله (**وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**) وَهِيَ مَرْتَبَةُ الْمُجَاهِدِينَ فِي الْعِبَادَةِ، وَهِيَ شَامِلَةٌ لأَنْ تَكُونَ فِي الْقِتَالِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ وَطَلَبِ الْعِلْمِ وَالْحَجِّ؛ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

مَعْنَى الْحَدِيثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَبُشْرَى وَتَرْغِيبٌ بِفَضْلِ هَذَيْنِ الْعَمَلَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ، فَإِنَّ بُكَاءَ الْعَينِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُنْبِئُ عَنْ مَعْرِفَةٍ قَوِيَّةٍ بِاللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَصِفَاتِهِ وَعَظَمَتِهِ، كَمَا تُنْبِئُ عَنْ تَصْدِيقٍ بِوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، وَهَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ مِنَ الْخَلْقِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ **ٱللَّهُ ٱلَّذِى**

---

(١) رواه الترمذي في سننه (١٦٣٩) وقال: حديث حسن . ورواه أبو يعلى في مسنده عن أنس (٤٣٤٦) والحاكم في المستدرك (٢٤٣٠) وقال: صحيح الإسناد. والطبراني في الأوسط (٥٧٧٩) وقال الهيثمي في المجمع: رجال أبي يعلى ثقات .

(٢) «فيض القدير» (٤/٤٧٦) .

﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢]. فَالْمَعْرِفَةُ بِالله ﷻ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ هِيَ الَّتِي تُوَلِّدُ الخَشْيَةَ، وَيَتَوَلَّدُ مِنْهَا مُرَاقَبَةُ الله ﷻ وَاسْتِحْضَارُ عَظَمَتِهِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَمِنْهَا يَتَوَلَّدُ أَعْظَمُ أَنْوَاعِ الْبُكَاءِ، وَهُوَ الْبُكَاءُ مِنْ خَشْيَةِ الله ﷻ، وَالَّذِيْ بِهِ يُظَلُّ الْعَبْدُ يَومَ القِيَامَةِ فِي ظِلِّ عَرْشِ الرَّحمنِ يَومَ لا ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ، كَمَا جَاءَ عَنِ النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **"سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ ،.. وَرَجُلٌ ذَكَرَ الله خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ"** [(١)] . وَبِهَذَا الْبُكَاءِ يُحَرَّمُ الْمُسْلِمُ عَلَى النَّارِ .

وَقَدْ كَانَ النَّبيُّ ﷺ أَكْثَرَ النَّاسِ خَشْيَةً لله ﷻ، لأَنَّهُ أَعْرَفُ الخَلْقِ بِهِ، وَكَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ، وَكَانَ يُسْمَعُ لِصَدْرِهِ أَزِيْزٌ كَأَزِيْزِ الْمِرْجَلِ مِنَ الْبُكَاءِ، وَكَانَ يَقُومُ اللَّيْلَةَ بِالآيَةِ يُرَدِّدُهَا وَيَبْكِي؛ وَكَذَا كَانَ أَصْحَابُهُ رَضِوَانُ اللهِ عَلَيهِم أَجْمَعِينَ .

وَأَمَّا الْحِرَاسَةُ فِي سَبِيلِ الله ﷻ فَإِنَّ فِيهَا حِفْظاً لِلإِسْلامِ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ أَيِّ عَدُوٍّ، وَهَذَا فِيهِ مَصْلَحَةٌ عَامَّةٌ لِلْمُسْلِمِينَ؛ وَرُوِيَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ خَرَجَ فِي جَنَازَةِ رَجُلٍ، فَلَمَّا وُضِعَ، قَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه: يَا رَسُولَ الله ! لا تُصَلِّ عَلَيهِ، فَإِنَّهُ رَجُلٌ فَاجِرٌ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **"هَلْ رَآهُ أَحَدٌ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ الْخَيْرِ؟"** فَقَالَ رَجُلٌ: نَعَمْ، حَرَسْتُ مَعَهُ لَيْلَةً فِي سَبِيلِ الله، فَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ وَمَنْ مَعَهُ، فَلَمَّا أُدْخِلَ الْقَبْرَ حَثَا رَسُولُ الله ﷺ بِيَدِهِ مِنَ التُّرَابِ، ثُمَّ قَالَ: **"إِنَّ أَصْحَابَكَ يَظُنُّونَ أَنَّكَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّكَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ "** [(٢)] .

وَسَوَّى بَيْنَ الْعَينِ الْبَاكِيَةِ وَالعَيْنِ الْحَارِسَةِ لاسْتِوَائِهِمَا فِي سَهَرِ اللَّيْلِ لله، أَمَّا الْبَاكِيَةُ فَقَدْ بَكَتْ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ خَوفاً مِنَ الله، وَالْحَارِسَةُ سَهِرَتْ خَوفاً عَلَى دِيْنِ الله [(٣)] .

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة (٦٦٠) (١٤٢٣) (٦٤٧٩) (٦٨٠٦) ومسلم (٢٤٢٧) .

(٢) رواه الطبراني في الكبير عن أبي عطية (٩٤٥) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٢٩٧) وقال الهيثمي: رواه الطبراني عن شيخه إبراهيم بن محمد بن عرق، وضعفه الذهبي .

(٣) «فيض القدير» (٤/٤٧٧) .

فَائِــــــــدَة

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ، إنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلا انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَشْعَثَ رَأْسُهُ مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ** – أَيِ الْمُؤَخَّرَةِ – **كَانَ فِي السَّاقَةِ، إنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ** " (١) .

فِي هَذَا الحَدِيثِ دَعَا النَّبِيُّ ﷺ بِالتَّعَاسَةِ وَالشَّقَاوَةِ عَلَى مَنِ اتَّخَذَ غَيرَ اللَّهِ سبحانه وتعالى مَحْبُوباً وَمَقْصُوداً ومَعْبُوداً لَهْ، يُحِبُّ ويُبغِضُ فِيْهِ، وَيُوَالِيْ وَيُعَادِيْ لأَجْلِهِ؛ ثُمَّ بَيَّنَ أَعْظَمَ سَبِيلٍ لِلْخُرُوجِ مِنْ عُبُودِيَّةِ غَيْرِ اللَّهِ سبحانه وتعالى، وَذَلِكَ بِالتَّفَرُّغِ مِنْ جَمِيْعِ عَلائِقِ الدُّنْيَا الْمُعِيقَةِ عَنِ الْوُصُولِ إلى اللَّهِ سبحانه وتعالى، وَالاسْتِغْرَاقِ فِي خِدْمَةِ دِيْنِ اللَّهِ ودَعْوَةِ الخَلْقِ إِلَيْهِ وَالجِهادِ فِي سَبِيْلِهِ بِنَوْعَيْهِ: **جِهَادِ الْبَيَانِ** بِالْحُجَّةِ وَاللِّسَانِ، وَ**جِهَادِ الْبَنَانِ** بِالسَّيْفِ وَالسِّنَانِ، بِحَيْثُ لا يُرِيْدُ شَيْئاً مِنْ حُظُوظِ النَّفْسِ الْمَادِّيَّةِ أَوِ الْمَعْنَوِيَّةِ؛ فَقَوْلُهُ:" **إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ** "، مَعْنَاهُ ائْتِمَارُهُ وَطَاعَتُهُ لِمَا أُمِرَ بِهِ، وَإِقَامَتُهُ حَيْثُ أُقِيْمَ، لا يُفْقَدُ مِنْ مَكَانِهِ بِحَالٍ، وَفِيْ اتِّحَادِ الشَّرْطِ مَعَ الجَزَاءِ دَلالَةٌ عَلَى فَخَامَةِ الجَزَاءِ وَكَمَالِهِ" (٢). وَفِي قَوْلِهِ: "**إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ**" إِشَارَةٌ إِلى عَدَمِ الْتِفَاتِهِ إِلى الدُّنْيَا وَلا إِلى أَهْلِهَا، فَلا يَبْتَغِي مَالاً وَلا جَاهاً عِنْدَ النَّاسِ، فَلَيْسَ لَهُ جَاهٌ عِنْدَ النَّاسِ، وَلَكِنَّهُ عِنْدَ اللَّهِ سبحانه وتعالى وَجِيْهٌ مُقَرَّبٌ، فَلا يَقْبَلُ النَّاسُ شَفَاعَتَهُ، وَعِنْدَ اللَّهِ يَكُونُ شَفِيعاً مُشَفَّعاً (٣) .

قَالَ الحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رحمه الله:" هَذَا مِنْ الْمَوَاضِعِ الَّتِي اتَّحَدَ فِيهَا الشَّرْطُ وَالْجَزَاء لَفْظًا لَكِنَّ الْمَعْنَى مُخْتَلِفٌ، وَالتَّقْدِيرُ إِنْ كَانَ الْمُهِمُّ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِيهَا،– أَيْ أَنَّهُ يَدُورُ مَعَ مُقْتَضَيَاتِ الْجُهْدِ حَيْثُ دَارَتْ، دُونَ الْتِفَاتٍ لِهَوَى نَفْسِهِ وَمُرَادِهَا – وَقِيلَ مَعْنَى "**فَهُوَ فِي**

---

(١) رواه البخاري برقم (٢٨٨٧) .

(٢) «عمدة القاري شرح صحيح البخاري» للحافظ بدر الدين العيني (٢١/٣٦٩) .

(٣) المصدر السابق .

الْحِرَاسَةِ"، أَيْ فَهُوَ فِي ثَوَاب الْحِرَاسَة، وَقِيلَ: هُوَ لِلتَّعْظِيمِ أَيْ إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ فَهُوَ فِي أَمْرٍ عَظِيمٍ، وَالْمُرَاد مِنْهُ لازِمُهُ أَيْ فَعَلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَ بِلَوَازِمِهِ وَيَكُونَ مُشْتَغِلاً بِخُوَيْصَةِ عَمِلِهِ. وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: الْمَعْنَى أَنَّهُ خَامِلُ الذِّكْرِ لا يَقْصِدُ السُّمُوَّ، فَإِنِ اتَّفَقَ لَهُ السَّيْرُ سَارَ؛ فَكَأَنَّهُ قَالَ: إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ اسْتَمَرَّ فِيهَا، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَة اسْتَمَرَّ فِيهَا "[(١)] .

وَهَذَا دَأْبُ الْمُؤْمِنِ الصَّادِقِ فِي سَيْرِهِ إلى اللَّهِ ﷻ، فَالْمُؤْمِنُ الصَّادِقُ لا يَلْتَفِتُ بِقَلْبِهِ إلى غَيْرِ اللَّهِ، وَلا يَسْعَى لِلْقُرْبِ مِمَّنْ سِوَاهُ، وَلا يَشْغَلُ جَوَارِحَهُ إلاَّ في طَاعَةِ اللَّهِ، وَلَيْسَ لَهُ شُغْلٌ إلاَّ أَنْ يَنْتَظِرَ مَا يُرِيْدُهُ سَيِّدُهُ وَمَوْلاهُ في كُلِّ حَالٍ فَيُسَارِعَ إلى امْتِثَالِهِ .

قَالَ الإِمَامُ النَّوَوِيُّ عَنِ الحَارِثِ الْمُحَاسَبِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ:" **الصَّادِقُ هُوَ الَّذِيْ لا يُبَالِيْ لَوْ خَرَجَ كُلُّ قَدْرٍ لَهُ فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ مِنْ أَجْلِ صَلاحِ قَلْبِهِ، وَلا يُحِبُّ اطِّلاعَ النَّاسِ عَلَى مَثَاقِيْلِ الذَّرِّ مِنْ حُسْنِ عَمَلِهِ، وَلا يَكْرَهُ اطِّلاعَهُمْ عَلَى السَّيِّءِ مِنْ عَمَلِهِ، لأَنَّ كَرَاهَتَهُ ذَلِكَ دَلِيْلٌ عَلَى أَنَّهُ يُحِبُّ الزِّيَادَةَ عِنْدَهُمْ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ أَخْلاقِ الصِّدِّيقِيْنَ** " .

وَعَنْ أَبِيْ القَاسِمِ الجُنَيْدِ بْنِ مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ:" **الصَّادِقُ يَتَقَلَّبُ فِي الْيَوْمِ أَرْبَعِينَ مَرَّةً، وَالْمُرَائِيْ يَثْبُتُ عَلَى حَالَةٍ وَاحِدَةٍ أَرْبَعِينَ سَنَةً**." قُلْتُ – أَيِ الإِمَامُ النَّوَوِيُّ –: مَعْنَاهُ أَنَّ الصَّادِقَ يَدُورُ مَعَ الحَقِّ حَيْثُ دَارَ، فَإِذَا كَانَ الْفَضْلُ الشَّرْعِيُّ فِي الصَّلاةِ صَلَّى، وَإِذَا كَانَ فِي مُجَالَسَةِ الْعُلَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَالضِّيفَانِ وَالْعِيَالِ وَقَضَاءِ حَاجَةِ مُسْلِمٍ وَجَبْرِ قَلْبٍ مَكْسُورٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَعَلَ ذَلِكَ الأَفْضَلَ وَتَرَكَ عَادَتَهُ، وَكَذَلِكَ الصَّوْمُ وَالْقِرَاءَةُ وَالذِّكْرُ وَالأَكْلُ وَالشُّرْبُ وَالجِدُّ وَالْمُزَاحُ وَالاخْتِلاطُ وَالاعْتِزَالُ وَالتَّنَعُّمُ وَالابْتِذَالُ وَنَحْوُهَا، فَحَيْثُ رَأَى الْفَضِيْلَةَ الشَّرْعِيَّةَ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا فَعَلَهُ، وَلا يَرْتَبِطُ بِعَادَةٍ وَلا بِعِبَادَةٍ مَخْصُوصَةٍ كَمَا يَفْعَلُ الْمُرَائِيْ؛ وَقَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحْوَالٌ فِي صَلاتِهِ وَصِيَامِهِ وَأَوْرَادِهِ، وَأَكْلِهِ وَشُرْبِهِ وَلُبْسِهِ، وَرُكُوبِهِ وَمُعَاشَرَةِ أَهْلِهِ، وَجِدِّهِ وَمُزَاحِهِ، وَسُرُورِهِ وَغَضَبِهِ، وَإِغْلاظِهِ فِي إِنْكَارِ الْمُنْكَرِ وَرِفْقِهِ فِيهِ، وَعُقُوبَتِهِ مُسْتَحِقِّي التَّعْزِيْرِ وَصَفْحِهِ عَنْهُمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ بِحَسَبِ الإِمْكَانِ

---

(١) «فتح الباري» (١٠٢/٦) .

وَالأَفْضَلِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ؛ وَلا شَكَّ فِي اخْتِلافِ أَحْوَالِ الشَّيْءِ فِي الأَفْضَلِيَّةِ، فَإِنَّ الصَّوْمَ حَرَامٌ يَوْمَ الْعِيْدِ، وَاجِبٌ قَبْلَهُ، وَمَسْنُونٌ بَعْدَهُ؛ وَالصَّلاةَ مَحْبُوبَةٌ فِي مُعْظَمِ الأَوْقَاتِ، مَكْرُوهَةٌ فِي أَحْوَالٍ كَمُدَافَعَةِ الأَخْبَثَيْنِ؛ وَقُرَاءَةَ الْقُرْآنِ مَحْبُوبَةٌ، وَتُكْرَهُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ تَحْسِينُ اللِّبَاسِ يَومَ الْجُمُعَةِ وَالْعِيْدِ، وَخِلافُهُ يَومَ الإِسْتِسْقَاءِ [(١)] .

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي وَصْفِ أَهْلِ التَّعَبُّدِ الْمُطْلَق:" قَالُوا: إِنَّ أَفْضَلَ الْعِبَادَةِ الْعَمَلُ عَلَى مَرْضَاتِ الرَّبِّ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِمَا هُوَ مُقْتَضَى ذَلِكَ الْوَقْتِ وَوَظِيْفَتُهُ، فَأَفْضَلُ الْعِبَادَاتِ فِي وَقْتِ الْجِهَادِ الْجِهَادُ، وَإِنْ آلَ إِلى تَرْكِ الأَوْرَادِ مِنْ صَلاةِ اللَّيْلِ وَصِيَامِ النَّهَارِ، بَلْ وَمِنْ تَرْكِ إِتْمَامِ صَلاةِ الْفَرْضِ، كَمَا فِي حَالَةِ الأَمْنِ .

وَالأَفْضَلُ فِي وَقْتِ حُضُورِ الضَّيْفِ مَثَلاً الْقِيَامُ بِحَقِّهِ وَالإِشْتِغَالُ بِهِ عَنِ الْوِرْدِ الْمُسْتَحَبِّ، وَكَذَلِكَ فِي أَدَاءِ حَقِّ الزَّوْجَةِ وَالأَهْلِ، وَالأَفْضَلُ فِي أَوْقَاتِ السَّحَرِ الإِشْتِغَالُ بِالصَّلاةِ وَالْقُرْآنِ وَالدُّعَاءِ وَالذِّكْرِ وَالإِسْتِغْفَارِ .

وَالأَفْضَلُ فِي وَقْتِ اسْتِرْشَادِ الطَّالِبِ وَتَعْلِيْمِ الجَاهِلِ الإِقْبَالُ عَلَى تَعْلِيمِهِ وَالاشْتِغَالُ بِهِ .

وَالأَفْضَلُ فِي وَقْتِ الأَذَانِ تَرْكُ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ وِرْدِهِ وَالاشْتِغَالُ بِإِجَابَةِ الْمُؤَذِّنِ .

وَالأَفْضَلُ فِي أَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ الجِدُّ وَالنُّصْحُ فِي إِيْقَاعِهَا عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ، وَالْمُبَادَرَةُ إِلَيْهَا فِي أَوَّلِ الْوَقْتِ، وَالخُرُوجُ إِلى الجَامِعِ، وَإِنْ بَعُدَ كَانَ أَفْضَلَ ..

وَالأَفْضَلُ فِي أَوْقَاتِ ضَرُورَةِ الْمُحْتَاجِ إِلى الْمُسَاعَدَةِ بِالْجَاهِ أَوِ الْبَدَنِ أَوِ الْمَالِ الإِشْتِغَالُ بِمُسَاعَدَتِهِ، وَإِغَاثَةُ لَهْفَتِهِ، وَإِيْثَارُ ذَلِكَ عَلَى أَوْرَادِكَ وَخَلْوَتِكَ .

---

(١) «المجموع شرح المهذب» للنووي (١/٤٩ - ٥٠) .

وَالأَفْضَلُ فِي وَقْتِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ جَمْعِيَّةُ الْقَلْبِ وَالْهِمَّةِ عَلَى تَدَبُّرِهِ وَتَفَهُّمِهِ، حَتَّى كَأَنَّ اللهَ ﷻ يُخَاطِبُكَ بِهِ، فَتَجْمَعُ قَلْبَكَ عَلَى فَهْمِهِ وَتَدَبُّرِهِ وَالْعَزْمِ عَلَى تَنْفِيْذِ أَوَامِرِهِ أَعْظَمَ مِنْ جَمْعِيَّةِ قَلْبِ مَنْ جَاءَهُ كِتَابٌ مِنَ السُّلْطَانِ عَلَى ذَلِكَ ..

وَالأَفْضَلُ فِي وَقْتِ نُزُولِ النَّوَازِلِ وَأَذَاةِ النَّاسِ لَكَ أَدَاءُ وَاجِبِ الصَّبْرِ مَعَ خُلْطَتِكَ بِهِمْ، دُونَ الْهُرُوبِ مِنْهُمْ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ الَّذِيْ يُخَالِطُ النَّاسَ لِيَصْبِرَ عَلَى أَذَاهُمْ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِيْ لا يُخَالِطُهُم ولا يُؤْذُونَه، وَالأَفْضَلُ خُلْطَتُهُم فِي الخَيْرِ، فَهِيَ خَيْرٌ مِن اعْتِزَالِهِمْ فِيهِ، وَاعْتِزَالُهُم فِي الشَّرِّ، فَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ خُلْطَتِهِمْ فِيهِ، فَإِنْ عَلِمَ أَنَّهُ إِذَا خَالَطَهُم أَزَالَهُ أَوْ قَلَّلَهُ فَخُلْطَتُهُم حِيْنَئِذٍ أَفْضَلُ مِن اعْتِزَالِهِمْ [(١)] .

فَالأَفْضَلُ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحَالٍ إِيْثَارُ مَرْضَاتِ اللهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَالحَالِ، وَالاِشْتِغَالُ بِوَاجِبِ ذَلِكَ الْوَقْتِ وَوَظِيْفَتِهِ وَمُقْتَضَاهُ، وَهَؤُلاءِ هُمْ أَهْلُ التَّعَبُّدِ الْمُطْلَقِ ..

وَصَاحِبُ التَّعَبُّدِ الْمُطْلَقِ لَيْسَ لَهُ غَرَضٌ فِي تَعَبُّدٍ بِعَيْنِهِ يُؤْثِرُهُ عَلَى غَيْرِهِ، بَلْ غَرَضُهُ تَتَبُّعُ مَرْضَاتِ اللهِ أَيْنَ كَانَتْ، فَمَدَارُ تَعَبُّدِهِ عَلَيْهَا، فَهُوَ لا يَزَالُ مُتَنَقِّلاً فِي مَنَازِلِ الْعُبُودِيَّةِ، كُلَّمَا رُفِعَتْ لَهُ مَنْزِلَةٌ يَعْمَلُ عَلَى سَيْرِهِ إِلَيْهَا، وَاشْتَغَلَ بِهَا حَتَّى تَلُوحَ لَهُ مَنْزِلَةٌ أُخْرَى، فَهَذَا دَأْبُهُ فِي السَّيْرِ حَتَّى يَنْتَهِيَ سَيْرُهُ، فَإِنْ رَأَيْتَ الْعُلَمَاءَ رَأَيْتَهُ مَعَهُمْ، وَإِنْ رَأَيْتَ الْعُبَّادَ رَأَيْتَهُ مَعَهُمْ، وَإِنْ رَأَيْتَ الْمُجَاهِدِينَ رَأَيْتَهُ مَعَهُمْ، وَإِنْ رَأَيْتَ الذَّاكِرِينَ رَأَيْتَهُ مَعَهُمْ، وَإِنْ رَأَيْتَ الْمَتَصَدِّقِينَ رَأَيْتَهُ مَعَهُمْ، وَإِنْ رَأَيْتَ أَرْبَابَ الْجَمْعِيَّةِ وَعُكُوفِ الْقَلْبِ رَأَيْتَهُ مَعَهُمْ، فَهَذَا هُوَ الْعَبْدُ الْمُطْلَقُ الَّذِيْ لَمْ تَمْلِكْهُ الرُّسُومُ، وَلَمْ تُقَيِّدْهُ الْقُيُودُ، وَلَمْ يَكُنْ عَمَلُهُ عَلَى مُرادِ نَفْسِهِ

---

(١) روى أحمد في مسنده (٥٠٢٢) والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٨٨) والترمذي (٢٥٠٧) وابن ماجه (٤٠٣٢) بإسناد حسن، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" **الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ أَفْضَلُ مِنَ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لاَ يُخَالِطُ النَّاسَ وَلاَ يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ**." وفي رواية: "**أَعْظَمُ أَجْراً** ." حسنه الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٥١٢/١٠) وفي «بلوغ المرام» (١٥٣٦)، وقال الصنعاني في سبل السلام:" فِيهِ أَفْضَلِيَّةُ مَنْ يُخَالِطُ النَّاسَ مُخَالَطَةً يَأْمُرُهُمْ فِيهَا بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنْكَرِ وَيُحْسِنُ مُعَامَلَتَهُمْ، فَإِنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ الَّذِي يَعْتَزِلُهُمْ وَلا يَصْبِرُ عَلَى الْمُخَالَطَةِ ، وَالأَحْوَالُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلافِ الأَشْخَاصِ وَالأَزْمَانِ ، وَلِكُلِّ حَالٍ مَقَالٌ " .

وَمَا فِيهِ لَذَّتُهَا وَرَاحَتُهَا مِنَ الْعِبَادَاتِ، بَلْ هُوَ عَلَى مُرَادِ رَبِّهِ، وَلَوْ كَانَتْ رَاحَةُ نَفْسِهِ وَلَذَّتُهَا فِي سِوَاهُ .

فَهَذَا هُوَ الْمُتَحَقِّقُ بِـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ حَقّاً، الْقَائِمُ بِهَا صِدْقاً؛ مَلْبَسُهُ مَا تَهَيَّأَ، ومَأْكَلُهُ مَا تَيَسَّرَ، وَاشْتِغَالُهُ بِمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِوَقْتِهِ، وَمَجْلِسُهُ حَيْثُ انْتَهَى بِهِ الْمَكَانُ وَوَجَدَهُ خَالِياً، لا تَمْلِكُهُ إِشَارَةٌ، وَلا يَتَعَبَّدُهُ قَيْدٌ، وَلا يَسْتَوْلِي عَلَيْهِ رَسْمٌ، حُرٌّ مَجَرَّدٌ، دَائِرٌ مَعَ الأَمْرِ حَيْثُ دَارَ، يَدِيْنُ بِدِيْنِ الأَمْرِ أَنَّى تَوَجَّهَتْ رَكَائِبُهُ، وَيَدُورُ فِيهِ حَيْثُ اسْتَقَلَّتْ مَضَارِبُهُ، يَأْنَسُ بِهِ كُلُّ مُحِقٍّ، وَيَسْتَوْحِشُ مِنْهُ كُلُّ مُبْطِلٍ، كَالْغَيْثِ حَيْثُ وَقَعَ نَفَعَ، وَكَالنَّخْلَةِ لا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَكُلُّهَا مَنفَعَةٌ حَتَّى شَوْكُهَا، وَهُوَ مَوْضِعُ الْغِلْظَةِ مِنْهُ عَلَى الْمُخَالِفِيْنَ لأَوَامِرِ اللهِ، وَالْغَضَبِ إِذَا انْتُهِكَتْ مَحَارِمُ اللهِ، فَهُوَ للهِ وَبِاللهِ وَمَعَ اللهِ، قَدْ صَحِبَ اللهَ بِلا خَلْقٍ، وَصَحِبَ النَّاسَ بِلا نَفْسٍ، بَلْ إِذَا كَانَ مَعَ اللهِ عَزَلَ الخَلائِقَ عَنِ الْبَيْنِ وَتَخَلَّى عَنْهُمْ، وَإِنْ كَانَ مَعَ خَلْقِهِ عَزَلَ نَفْسَهُ مِنَ الْوَسَطِ وَتَخَلَّى عَنْهَا ؛ فَوَاهاً لَهُ ! مَا أَغْرَبَهُ بَيْنَ النَّاسِ ! وَمَا أَشَدَّ وَحْشَتَهُ مِنْهُمْ ! وَمَا أَعْظَمَ أُنْسَهُ بِاللهِ، وَفَرَحَهُ بِهِ، وطُمَأْنِيْنَتَهُ وَسُكُونَهُ إِلَيْهِ !! وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ، وَعَلَيْهِ التُّكْلانُ [١] .

*****

(١) «مدارج السالكين» (١/٧٧-٧٩) .

الْحَدِيْثُ الثَّلاثُونَ

عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: "**حَرْسُ لَيْلَةٍ فِيْ سَبِيلِ اللهِ أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ لَيْلَةٍ يُقَامُ لَيْلُهَا وَيُصَامُ نَهَارُهَا** "[(١)] .

قوله (**حَرْسُ لَيْلَةٍ فِيْ سَبِيلِ اللهِ**) هِيَ أَنْ يَقُومَ الْمُسْلِمُ بِحِرَاسَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَيِّ عَدُوٍّ قَدْ يَعْرِضُ لَهُمْ، سَوَاءٌ كَانَتِ الْحِرَاسَةُ بِالْمُرَابَطَةِ عَلَى الْحُدُودِ مَعَ الأَعْدَاءِ، أَوْ بِحِرَاسَةِ الخَارِجِيْنَ فِي سَبِيْلِ اللهِ لِلْجِهَادِ أَوِ الدَّعْوَةِ أَوْ طَلَبِ الْعِلْمِ أَوِ الحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، فَكُلُّ ذَلِكَ يَدْخُلُ تَحْتَ قَوْلِهِ "**فِي سَبِيْلِ اللهِ**"، واللهُ أَعْلَمُ .

قوله (**أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ لَيْلَةٍ يُقَامُ لَيْلُهَا وَيُصَامُ نَهَارُهَا**) هَذَا عَلَى سَبِيْلِ التَّكْثِيرِ وَالْمُبَالَغَةِ، وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ ذَاتَ الْعَدَدِ، بَلِ الْمَقْصُودُ تَفْضِيلُ جِنْسِ عَمَلِ الحِرَاسَةِ في سَبِيْلِ اللهِ عَلَى جِنْسِ عَمَلِ قِيَامِ اللَّيْلِ وَصِيَامِ النَّهَارِ، وَقَدْ مَرَّ لِهَذَا نَظَائِرُ كَثِيْرَةٌ .

مَعْنَى الْحَدِيْثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ

يُقَرِّرُ النَّبِيُّ ﷺ الْقَاعِدَةَ الْعَظِيْمَةَ الَّتِي عَلَيهَا مَدَارُ التَّفَاضُلِ بَيْنَ كَثِيْرٍ مِنْ أَعْمَالِ الدِّيْنِ، وَهِيَ أَنَّ الْعَمَلَ الْمُتَعَدِّيَ نَفْعُهُ لِلآخَرِيْنَ أَفْضَلُ مِنَ الْعَمَلِ اللاَّزِمِ نَفْعُهُ؛ فَلَمَّا كَانَ الحَارِسُ فِي سَبِيْلِ اللهِ يَحْمِيْ بَيْضَةَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ تُسْتَبَاحَ مِنْ قِبَلِ الْعَدُوِّ الَّذِي يَشْغَلُهُمْ عَنْ أُمُورِ دِيْنِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، فَيَتَسَبَّبُ بِحِرَاسَتِهِ بِدَوَامِ الأَمْنِ لِلْمُسْلِمِينَ حَتَّى يَقُومُوا بِأَدَاءِ عِبَادَاتِهِم وَأَشْغَالِهِم بِأَمْنٍ وَطُمَأْنِيْنَةٍ وَسَلامٍ، فَيُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِلْخَطَرِ فِي سَبِيْلِ دَوَامِ الأَمْنِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فلَمَّا كَانَ الحَارِسُ فِي سَبِيْلِ اللهِ بِهَذِهِ الْمَرْتَبَةِ اسْتَحَقَّ أَنْ يَفْضُلَ بِهَذَا الْعَمَلِ الْجَلِيْلِ عِبَادَةَ غَيْرِهِ عَلَى كَثْرَتِها، لأَنَّ نَفْعَهَا – أَيِ الْعِبَادَةِ – قَاصِرٌ عَلَى صَاحِبِهَا لا يَتَعَدَّاهُ إِلى غَيْرِهِ .

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٤٣٣) و(٤٦٣) والطبراني في الكبير (١٤٥) والحاكم في المستدرك (٤٢٦) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» من طريقه (٤٢٣٤) .

وَالْحِرَاسَةُ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ مِنْ مُوجِبَاتِ دُخُولِ الجَنَّةِ، حَيْثُ قَالَ ﷺ لأَنَسِ بْنِ مَرْثَدٍ حِيْنَمَا حَرَسَهُم لَيْلَةَ حُنَين، وَلَمْ يَنْزِلْ عَنْ مَكَانِ الحِرَاسَةِ إلاَّ مُصَلِّياً أَوْ قَاضِيَ حَاجَةٍ: " **قَدْ أَوْجَبْتَ، فَلاَ عَلَيْكَ أَنْ لاَ تَعْمَلَ بَعْدَهَا** " [(١)]. أَيْ قَدْ عَمِلْتَ عَمَلاً يُوجِبُ لَكَ الجَنَّةَ، فَلا عَلَيْكَ فِي تَرْكِ الْعَمَلِ بَعْدَ هَذِهِ الحِرَاسَةِ، لأَنَّهَا تَكْفِيْكَ لِدُخُولِ الْجَنَّةِ [(٢)] . وَهَذَا مُقَيَّدٌ بِانْتِفَاءِ مَوَانِعِ دُخُولِ الجَنَّةِ، وَهُوَ بِمَعْنَى الحَدِيْثِ السَّابِقِ "**عَيْنَانِ لا تَمَسُّهُمَا النَّارُ** " أَيْ أَنَّ عَمَلَهُمَا هَذَا يُوجِبُ الجَنَّةَ؛ وَهُوَ يُؤَيِّدُ مَا رُوِيَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "**مَنْ حَرَسَ مِنْ وَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مُتطَوِّعًا لا يَأْخُذُهُ سُلْطَانٌ، لَمْ يَرَ النَّارَ بِعَيْنَيْهِ إِلاَّ تَحِلَّةَ الْقَسَمِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾**" [(٣)]. أَيْ تَكْفِيرَ الْقَسَمِ . وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:" **أَلا أُنَبِّئُكُم بِلَيلَةٍ أَفضَلَ مِنْ لَيْلَةِ القَدْرِ ؟! حَارِسٌ حَرَسَ فِي أَرْضِ خَوْفٍ لَعَلَّهُ أَنْ لا يَرْجِعَ إِلى أَهْلِهِ.**" [(٤)]، وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "**مَن رَابَطَ لَيْلَةً حَارِساً مِنْ وَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ كَانَ لَهُ أَجْرُ مَنْ خَلْفَهُ مِمَّن صَامَ وَصَلَّى**" [(٥)] . وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:" **لأَن أَبِيْتَ حَارِساً وَخَائِفاً فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِمِائَةِ رَاحِلَةٍ.**" [(٦)]، وَعَنْ أَرْطَأَةَ بْنِ الْمُنْذِرِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لِجُلَسَائِهِ:" **أَيُّ النَّاسِ أَعْظَمُ أَجْراً ؟**" فَجَعَلُوا يَذْكُرُونَ الصَّومَ وَالصَّلاةَ، وَيَقُولُونَ: فُلانٌ وَفُلانٌ بَعْدَ أَمِيْرِ الْمُؤْمِنِينَ. فَقَالَ:" **أَلا أُخبِرُكُم بِأَعْظَمِ النَّاسِ أَجْراً مِمَّنْ ذَكَرتُم وَمِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؟**"

---

(١) رواه أبو داوود في سننه عن سهل بن الحنظلية (٢٥٠٣) والطبراني في الكبير (٥٦١٩) والحاكم في المستدرك (٢٤٣٣) وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الحافظ العراقي في «مستخرجه على المستدرك»

(٢) «عون المعبود» (٢٣/٥) .

(٣) رواه أحمد في مسنده عن سهل بن معاذ عن أبيه برقم (١٥٦٥٠) وأبو يعلى في مسنده برقم (١٤٩٠) والطبراني في الكبير برقم (١٦٨٠٩). قال الهيثمي في المجمع: رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني، وفي أحد إسنادي أحمد ابن لهيعة، وهو أحسن حالاً من رشدين. وقال المنذري في الترغيب: لا بأس به في المتابعات .

(٤) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه برقم (١٩٣٣٤) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (٨٨٦٨) والحاكم في المستدرك برقم (٢٤٢٤) وقال: صحيح على شرط البخاري ووافقه الذهبي .

(٥) رواه الطبراني في الأوسط عن أنس بن مالك برقم (٨٠٥٩) وقال المنذري في الترغيب: بإسناد جيد . وقال الهيثمي في المجمع: رجاله ثقات .

(٦) رواه ابن المبارك في «الجهاد» برقم (١٨٧) .

قَالُوا: بَلَى. قَال:" رُوَيجِلٌ بالشَّامِ آخِذٌ بلِجَامِ فَرَسِهِ يَكْلأُ ويَحرُسُ مِنْ وَرَاء بَيْضَةِ الْمُسْلِمِينَ، لا يَدْرِي أَسَبُعٌ يفترِسهُ، أَمْ هَامَّةٌ تَلْدَغهُ، أَمْ عَدُوٌّ يغشَاهُ ؟ فهَذَا أَعْظَمُ أَجْراً مِمَّنْ ذكَرتُم ومِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ " (١) .

فائـــــــــدة

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه:" رِبَاطُ لَيْلَةٍ إِلى جَانبِ الْبَحْرِ مِنْ وَرَاء عَوْرَةِ الْمُسْلِمِينَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَن أُوَافِقَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي أَحَدِ الْمَسْجدَيْنِ، مَسْجدِ الكَعْبَةِ وَمَسْجدِ رَسُول الله ﷺ بالْمَدِينَةِ، وربَاطُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ عِدْلُ سَنَةٍ، وتَمَامُ الرِّبَاطِ أَرْبَعُونَ لَيلَةً." (٢)، وقَالَ رضي الله عنه: "إِذَا رَابَطتَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ فَلْيَتعبَّدِ الْمُتَعَبِّدُونَ مَا شَاؤُوا." (٣)، وَقَالَ يَزيْدُ بْنُ أَبي حَبيْب: جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ إلى عُمَرَ بْنِ الخَطَّاب رضي الله عنه فقَالَ:" أَيْنَ كُنْتَ ؟" قَالَ: في الرِّبَاطِ. قَالَ: "كَمْ رَابَطْتَ ؟" قَالَ: ثَلاثِيْنَ يَوْماً. قَالَ:" فَهَلاَّ أَتْمَمْتَهَا أَربَعِينَ يوماً ؟" (٤). ورَابَطَ ابْنٌ لِعَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما ثَلاثِيْنَ لَيلَةً، وَلَمَّا رَجعَ قَالَ لَهُ أَبُوهُ:" أَعْزِمُ عَلَيكَ لَترجعَنَّ وَلَتُرَابطَنَّ عَشْراً حَتَّى تُتِمَّ الأَرْبَعِينَ." (٥) . وَعَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ رضي الله عنها تَرْفَعُ الحَدِيث، قَالَتْ: "مَنْ رَابَطَ فِي شَيْءٍ مِنْ سَوَاحِلِ الْمُسْلِمِينَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ أَجْزَأَتْ عَنْهُ رِبَاطَ سَنَةٍ." (٦) . وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "مَنْ صَلَّى لِلَّهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً فِي

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١/٢٨٣) .

(٢) أخرجه عبدالرزاق في مصنفه برقم (٩٦١٦) وأخرج ابن أبي شيبة قوله "**تَمَامُ الرِّبَاطِ أَربَعُونَ لَيلَةً**" برقم (١٩٤٥٦) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه برقم (١٩٤٥٢) .

(٤) رواه عبد الرزاق في مصنفه برقم (٩٦١٥) .

(٥) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه برقم (١٩٤٥٨) .

(٦) رواه أحمد في مسنده عن أم الدرداء مرفوعاً برقم (٢٧٠٨٥) والطبراني في الكبير (٢٠١١٥) وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني من رواية إسماعيل بن عياش عن المدنيين، وبقية رجاله ثقات .

جَمَاعَةٍ يُدْرِكُ التَّكْبِيرَةَ الأُولَى كُتِبَتْ لَهُ بَرَاءَتَانِ، بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ، وَبَرَاءَةٌ مِنَ النِّفَاقِ" [(١)].
وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِالْعَزِيزِ رَحِمَهُ اللهُ: "تَمَامُ الرِّبَاطِ أَرْبَعُونَ يَوْمًا " [(٢)] .

وَقَالَ الإِمَامُ الْقَرَافِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:" **التَّبْلِيْغُ لِمَنْ بَعْدَنَا مِنَ الْقُرُونِ وَاجِبٌ إِجْمَاعاً، وَإِهْمَالُ ذَلِكَ حَرَامٌ إِجْمَاعاً.**" [(٣)]؛ فَتَبْلِيغُ الدِّينِ إِلى النَّاسِ وَاجِبٌ عَلَى الأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، كَمَا كَانَ وَاجِباً عَلَى نَبِيِّهَا ﷺ، وَوَسَائِلُ الدَّعْوَةِ وَالتَّبْلِيغِ لا تَتَقَيَّدُ بِكَيْفِيَّةٍ مَعْلُومَةٍ، لأَنَّهَا مِنْ قَبِيلِ الْوَسَائِلِ الَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلى مَقَاصِدَ مَعْلُومَةِ الْمَعْنَى وَالْغَرَضِ، وَلَيْسَتْ مِنْ قَبِيْلِ الْعِبَادَاتِ التَّوْقِيْفِيَّةِ، وَفِي هَذَا يَقُولُ الإِمَامُ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:" **الأَصْلُ فِي الْعِبَادَاتِ بِالنِّسْبَةِ لِلْمُكَلَّفِ التَّعَبُّدُ دُوْنَ الإِلْتِفَاتِ إِلى الْمَعَانِي، وَأَصْلُ الْعَادَاتِ الإِلْتِفَاتُ إِلى الْمَعَانِيْ** " [(٤)] . فَإِذَا بَيَّنَ الشَّارِعُ الْغَرَضَ الْمَقْصُودَ مِنَ الْفِعْلِ الْمُعَيَّنِ، وَكَانَ هَذَا الْفِعْلُ كَالْعِلَّةِ لَهُ، فَإِنَّ الْوَسَائِلَ الْمُوصِلَةَ إِلَيْهِ تَأْخُذُ نَفْسَ حُكْمِ هَذَا الْفِعْلِ مِنَ الْوُجُوبِ أَوِ النَّدْبِ، وَلا يَتَوَقَّفُ هَذَا عَلَى وُجُودِ دَلِيْلٍ خَاصٍّ يَدُلُّ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ هَذَا الْفِعْلِ، لأَنَّهُ مِنْ بَابِ الْوَسَائِلِ، وَهُوَ بَابٌ وَاسِعٌ يُتَّبَعُ فِيهِ الْمَصَالِحُ الَّتِي تَتَمَاشَى مَعَ قَوَاعِدِ الشَّرْعِ وَمَصَالِحِ الْعِبَادِ .

وَالصَّحَابَةُ رضي الله عنهم وَمَنْ بَعْدَهُم مِنَ السَّلَفِ لَمْ يَتَقَيَّدُوا فِي بَابِ وَسَائِلِ حِفْظِ الدِّيْنِ وَتَبْلِيغِهِ بِمَا ثَبَتَ فِيهِ نَصٌّ خَاصٌّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَذَلِكَ لأَنَّ الْوَسَائِلَ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلافِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ، وَلَكِنَّهُمْ نَظَرُوا بِفَهْمِهِمُ الثَّاقِبِ وَبَصِيرَتِهِمُ الْفَذَّةِ إِلى الْمَعَانِيْ وَالْمَقَاصِدِ الَّتِي شُرِعَتْ لَهَا الأَوَامِرُ؛ وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا مَا وَقَعَ مِنَ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ ارْتِدَادِ الْعَرَبِ وَمُحَارَبَةِ أَبِيْ بَكْرٍ رضي الله عنه لِلْمُرْتَدِّينَ، فَفِيْ هَذِهِ الحَرْبِ مَاتَ كَثِيرٌ مِنَ الْقُرَّاءِ

---

(١) رواه أحمد في مسنده برقم (١٢٦٠٥) والترمذي برقم (٢٤١) وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني في الأوسط ورجاله ثقات .

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٥/٣٥٥) . وروي مرفوعاً عن أبي أمامة، رواه الطبراني في الكبير (٧٦٠٦) ولفظه: **"تَمَامُ الرِّبَاطِ أَرْبَعُونَ يَوْمًا، وَمَنْ رَابَطَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا لَمْ يَبِعْ وَلَمْ يَشْتَرِ، وَلَمْ يُحْدِثْ حَدَثًا خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ"**. وقال الهيثمي: وفيه أيوب بن مدرك وهو متروك .

(٣) «الفروق» للقرافي (٤/٣٠٥) .

(٤) «الموافقات» للشاطبي (٢/٥١٣) .

الَّذِين يَحْمِلُونَ الْقُرْآنَ الْكَرِيْمَ فِي صُدُورِهِمْ، فَأَشَارَ عُمَرُ ﷺ عَلَى أَبِيْ بَكْرٍ الصِّدِّيق ﷺ بِأَنْ يَجْمَعَ الْقُرْآنَ فِي مُصْحَفٍ وَاحِدٍ، فَقَال أَبُو بَكْرٍ ﷺ: **"كَيْفَ أَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؟"** فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: **"هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ"**. فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ بِأَبِيْ بَكْرٍ يُرَاجِعُهُ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ لِذَلِكَ صَدْرَهُ، وَرَأَى الَّذِي رَأَى عُمَرُ ﷺ، ثُمَّ أَمَرَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ زَيدَ بْنَ ثَابِتٍ ﷺ بِجَمْعِ الْقُرْآنِ" [(١)] . فَمِنْ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّ الصَّحَابَةَ ﷺ نَظَرُوا إِلى الْمَصْلَحَةِ الْمُتَرَتِّبَةِ عَلَى الْوَسِيْلَةِ، حَيْثُ إِنَّ لَهَا أَصْلاً فِي الْجُمْلَةِ وَهُوَ حِفْظُ الشَّرِيْعَةِ مِنَ الضَّيَاعِ، وَلَمْ يَتَقَيَّدُوا فِيهَا تَقَيُّدَهُم فِي الْعِبَادَاتِ التَّوْقِيْفِيَّةِ، بَلِ اعْتَبَرُوا مَا يَنْدَرِجُ تَحْتَ الْقَوَاعِدِ الْعَامَّةِ، وَهَذَا مِنْ شُمُولِيَّةِ الإِسْلامِ وَصَلاحِيَّتِهِ لِكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، فَكُلُّ زَمَانٍ لَهُ مِنَ الْوَسَائِلِ مَا تَصلُحُ لَهُ وَلا تَصْلُحُ لِغَيْرِهِ، وَقَولُ عُمَرَ ﷺ: **"هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ"**، وَإِجْمَاعُ الصَّحَابَةِ عَلَى ذَلِكَ يُبَيِّنُ لَنَا أَنَّ الشَّرِيْعَةَ تَقِفُ فِي بَابِ الْوَسَائِلِ مَعَ الْمَصَالِحِ، لأَنَّهَا جَاءَتْ بِالأَمْرِ بِكُلِّ مَا فِيهِ مَصْلَحَةٌ خَالِصَةٌ أَوْ رَاجِحَةٌ وَالنَّهْيِ عَنْ كُلِّ مَا فِيهِ مَفْسَدَةٌ خَالِصَةٌ أَوْ رَاجِحَةٌ، وَهَذَا أَصْلٌ عَظِيمٌ مِنْ أُصُولِ الشَّرِيْعَةِ الْغَرَّاءِ، وَهُوَ اعْتِبَارُ جَلْبِ الْمَصَالِحِ وَدَرْءِ الْمَفَاسِدِ، حَتَّى إِنَّ الْعِزَّ بْنَ عَبْدِ السَّلامِ رَجَّعَ الْفِقْهَ كُلَّهُ إِلى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ وَهَذَا الأَصْلِ .

ولا بُدَّ هُنَا مِنْ وُجُودِ أَمْرَيْنِ فِي الْوَسِيْلَةِ حَتَّى تَكُونَ مَشْرُوعَةً :

الأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ فِي هَذِهِ الْوَسِيْلَةِ الْمُسْتَحْدَثَةِ مَصْلَحَةٌ شَرْعِيَّةٌ ظَاهِرَةٌ .

وَالثَّانِيْ: أَنْ لا تَكُونَ الضَّرُورَةُ قَدْ دَعَتْ إِلى فِعْلِ هَذِهِ الْوَسِيْلَةِ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ تَرَكَهَا النَّبِيُّ ﷺ لا لِعِلَّةٍ، لأَنَّهُ إِذَا كَانَتِ الضَّرُورَةُ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ تَقْتَضِيْ فِعْلَهَا وَلَمْ يَفْعَلْهَا النَّبِيُّ ﷺ، فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ مَشْرُوعِيَّتِهَا، لأَنَّ كُلَّ أَمْرٍ انْعَقَدَ سَبَبُهُ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَمْ يَفْعَلْهُ فَإِنَّ فِعَلَهُ يَكُونُ بِدْعَةً، إِلاَّ إِذَا تَرَكَهَا لِعِلَّةٍ كَخَوْفِ فِتْنَةٍ، فَعِنْدَهَا تَبْقَى مَشْرُوعَةً مَتَى زَالَتِ الْعِلَّةُ؛ فَلَمَّا كَانَ فِي جَمْعِ الْقُرْآنِ مِنَ الْمَصَالِحِ الْعَظِيْمَةِ الَّتِي هِيَ حِفْظُ الْقُرْآنِ وَالشَّرِيْعَةِ مِنَ الضَّيَاعِ وَالانْدِرَاسِ، وَلَمْ يَكُنْ سَبَبُ هَذَا الْفِعْلِ وَمُقْتَضِيْهِ مَوْجُوداً فِي

---

(١) رواه البخاري عن زيد بن ثابت برقم (٤٦٧٩) و(٤٩٨٦) و(٧١٩١) .

زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلا جَرَمَ أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ ﷺ عَلَى مَشْرُوعِيَّتِهِ، وَصَارَ هَذَا وَاجِباً عَلَى الأُمَّةِ؛ وَهَكَذَا بَعْدَ أَنْ أَمَرَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ بِجَمْعِ الْقُرْآنِ الكَرِيْمِ ، كَانَ كُلُّ إِقْلِيمٍ مِنْ أَقَالِيمِ الإِسْلامِ يَأْخُذُونَ بِقِرَاءَةِ مَن اشْتَهَرَ بَيْنَهُم مِنَ الصَّحَابَةِ، فَنَشَبَ خِلافٌ قَوِيٌّ، دَفَعَ عُثْمَانَ ابْنَ عَفَّانَ ﷺ بَعْدَ مَشُورَةِ الصَّحَابَةِ ﷺ إلى اسْتِنْسَاخِ مَصَاحِفَ وَإِرْسَالِهَا إلى الأَمْصَارِ، وَأَمَرَ بِحَرْقِ مَا عَدَاهَا، مَعَ أَنَّهَا مِمَّا كَتَبَهُ الصَّحَابَةُ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَفِي ذَلِكَ مِنَ الْمَصَالِحِ الْعَظِيْمَةِ فِي سَدِّ بَابِ الْفِتْنَةِ وَحَسْمِ مَادَّةِ الإِخْتِلافِ مَا لا يَخْفَى .

ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْمَصَاحِفَ كَانَتْ خالِيَةً مِنَ النَّقطِ والشَّكلِ، ولَمَّا كَثُرَتِ الْفُتُوحَاتُ الإِسْلامِيَّةُ، وَدَخَلَ كَثِيرٌ مِنَ الْعَجَمِ فِي الإِسْلامِ، وَاخْتَلَطَ اللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ بِاللِّسَانِ الأَعْجَمِيِّ، وَكَثُرَ اللَّحْنُ عَلَى الأَلْسِنَةِ، وَكَانَ مِنَ الصَّعْبِ عَلَى هَؤُلاءِ أَنْ يُمَيِّزُوا بَيْنَ الأَحْرُفِ، وَخَشِيَ وُلاةُ الأَمْرِ أَنْ يُفْضِيَ ذَلِكَ إلى اللَّحْنِ فِي كِتَابِ اللهِ ﷻ، وَتَحْرِيْفِ كَلِمِهِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، أَشَارَ زِيَادُ بْنُ أَبِيْ سُفْيَانَ عَلَى أَبِيْ الأَسْوَدِ الدُّؤَلِيِّ أَنْ يَسْتَحْدِثَ طَرِيْقَةً يَحْفَظُ بِهَا كَلامَ اللهِ ﷻ مِنَ التَّحْرِيْفِ، فَوَضَعَ نِقَاطَ الإِعْرَابِ، بِأَنْ وَضَعَ نُقْطَةً فَوقَ الحَرْفِ لِتَدُلَّ عَلَى الْفَتْحِ، وَنُقْطَةً أَمَامَ الحَرْفِ لِتَدُلَّ عَلَى الضَّمِّ، وَنُقْطَةً تَحْتَ الحَرْفِ لِتَدُلَّ عَلَى الْكَسْرِ، وَنُقْطَتَيْنِ لِتَدُلَّ عَلَى التَّنْوِيْنِ، وَذَلِكَ بِمِدَادٍ يُخَالِفُ لَونَ مِدَادِ الْمُصْحَفِ الشَّرِيْفِ، وَلَمَّا صَعُبَ عَلَى كَثِيْرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ التَّمْيِيزُ بَعْدَ ذَلِكَ بَيْنَ الحُرُوفِ الْمُتَشَابِهَةِ، طَلَبَ الحَجَّاجُ ابْنُ يُوسُفَ الثَّقَفِيُّ فِي عَهْدِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ مِنْ نَصْرِ بْنِ عَاصِمٍ وَيَحْيَى بْن يَعْمُرَ أَنْ يَعْمَلا عَلَى إِبْعَادِ التَّحْرِيْفِ عَنْ سَاحَةِ الْقُرْآنِ، فَوَضَعَا نِقَاطَ الإِعْجَامِ لِتَمْيِيْزِ الْحُرُوفِ الْمُتَشَابِهَةِ عَنْ بَعْضِهَا بِلَوْنِ مِدَادِ الْمُصْحَفِ، فَالبَاءُ نُقْطَةٌ وَاحِدَةٌ تَحْتُ، وَالتَّاءُ بِالْمُثَنَّاةِ الْفَوْقِيَّةِ، وَالثَّاءُ بِالْمُثَلَّثَةِ الْفَوْقِيَّةِ، وَالجِيْمُ نُقْطَةٌ تَحْتُ، وَالحَاءُ مُهْمَلَةٌ (غَيْرُ مَنْقُوطَةٍ)، وَالخَاءُ نُقْطَةٌ فَوقُ، ثُمَّ جَاءَ الخَلِيْلُ بْنُ أَحْمَدَ الفَرَاهِيْدِيُّ بَعْدَ ذَلِكَ بِقَرْنٍ، وَابْتَدَعَ عَلامَاتٍ أُخْرَى وَزَادَهَا، فَجَعَلَ الضَّمَّةَ وَاواً صَغِيْرَةً تُكْتَبُ فَوقَ الحَرْفِ، وَالْفَتْحَةَ أَلِفاً صَغِيْرَةً مَبْطُوحَةً فَوقَ الحَرْفِ، وَالْكَسْرَةَ أَلِفاً مَبْطُوحَةً تَحْتَ الحَرْفِ، ثُمَّ وَضَعَ الشَّدَّةَ رَأْسَ الشِّيْنِ لِلسُّكُونِ [1] .

---

(١) «أحكام التلاوة والتجويد» إعداد لجنة دور القرآن الكريم (٣/١٩- ٢٤) .

وَصارَتْ كِتَابَةُ الْمُصْحَفِ بِهَذِهِ الْعَلامَاتِ وَاجِبَةً بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ مَوجُودَةً فِي زَمَنِ النُّبُوَّةِ، وَذَلِكَ لِكَوْنِهَا وَسِيْلَةً لِحِفْظِ الْقُرْآنِ الكَرِيْمِ مِنَ الضَّيَاعِ وَالتَّحْرِيْفِ، وَهُوَ وَاجِبٌ عَلَى الأُمَّةِ بِمَجْمُوعِهَا، وَلا يَتَأَتَّى هَذَا الْوَاجِبُ إِلاَّ بِهَذِهِ الْوَسِيْلَةِ الْمُسْتَحْدَثَةِ، **وَمَا لا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلاَّ بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ**، وَلَمْ تَكُنِ الضَّرُورَةُ فِي زَمَنِ النُّبُوَّةِ تَقْتَضِي فِعَلَ هَذِهِ الْوَسَائِلِ، وَفِي هَذَا يَقُولُ الإِمَامُ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:" فَحَقٌّ مَا فَعَلَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لأَنَّ لَهُ أَصْلاً يَشهَدُ لَهُ فِي الْجُمْلَةِ، وَهُوَ الأَمْرُ بِتَبْلِيْغِ الشَّرِيْعَةِ، وَذَلِكَ لا خِلافَ فِيْهِ، لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾[المائدة: ٦٧]، وأُمَّتُهُ مِثلُهُ - أَيْ مَأْمُورَةٌ بِالتَّبْلِيْغِ -، وَفِي الحَدِيْثِ **"فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ مِنْكُمُ الغَائِبَ"**[(١)]، وَأَشبَاهِهِ، وَالتَّبليغُ كَمَا لا يَتَقَيَّدُ بِكَيفِيَّةٍ مَعْلُومَةٍ، لأَنَّهُ مِنْ قَبِيْلِ الْمَعْقُولِ الْمَعْنَى، فَيَصِحُّ بِأَيِّ شَيْءٍ أَمْكَنَ مِنَ الْحِفْظِ وَالتَّلْقِينِ وَالْكِتَابَةِ وَغَيْرِهَا، كَذَلِكَ لا يَتَقَيَّدُ حِفْظُهُ عَنِ التَّحْرِيْفِ وَالزَّيْغِ بِكَيْفِيَّةٍ دُونَ أُخْرَى" [(٢)] .

وَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ:" وَمَا أَحْدَثَهُ السَّلَفُ وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ الْعُلَمَاءُ لَمْ يَقَعْ فِيهِ مُخَالَفَةٌ لِمَا وَضَعَهُ الشَّارِعُ بِحَالٍ، بَيَانُ ذَلِكَ أَنَّ جَمْعَ الْمُصْحَفِ مَثَلاً لَمْ يَكُنْ فِي زَمَنِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِلاسْتِغْنَاءِ عَنْهُ بِالحِفْظِ فِي الصُّدُورِ، وَلأَنَّهُ لَمْ يَقَعْ فِي الْقُرْآنِ اخْتِلافٌ يُخَافُ بِسَبَبِهِ الاِخْتِلافُ فِي الدِّيْنِ، .. فَحَاصِلُ الأَمْرِ أَنَّ جَمْعَ الْمُصْحَفِ كَانَ مَسْكُوتاً عَنْهُ فِي زَمَانِهِ ﷺ، ثُمَّ لَمَّا وَقَعَ الاِخْتِلافُ فِي الْقُرْآنِ وَكَثُرَ حَتَّى صَارَ أَحَدُهُم يَقُولُ لِصَاحِبِهِ: أَنَا كَافِرٌ بِمَا تَقْرَأُ بِهِ، صَارَ جَمْعُ الْمُصْحَفِ وَاجِباً وَرَأْياً رَشِيداً فِي وَاقِعَةٍ لَمْ يَتَقَدَّمْ بِهَا عَهْدٌ، فَلَمْ يَكُنْ فِيهَا مُخَالَفَةٌ، وَإِلاَّ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ النَّظَرُ فِي كُلِّ وَاقِعَةٍ لَمْ تَحْدُثْ فِي الزَّمَانِ الْمُتَقَدِّمِ بِدْعَةً، وَهَذَا بَاطِلٌ بِاتِّفَاقٍ، لَكِنَّ مِثْلَ هَذَا النَّظَرِ مِنْ بَابِ الاِجْتِهَادِ الْمُلائِمِ لِقَوَاعِدِ الشَّرِيْعَةِ، وَإِنْ لَمْ يَشْهَدْ لَهُ أَصْلٌ مُعَيَّنٌ، وَهُوَ الَّذِيْ يُسَمَّى الْمَصَالِحَ الْمُرْسَلَةَ، وَكُلُّ مَا أَحْدَثَهُ السَّلَفُ الصَّالِحُ مِنْ هَذَا الْقَبِيْلِ، لا يَتَخَلَّفُ عَنْهُ بِوَجْهٍ، وَلَيْسَ مِنَ الْمُخَالِفِ لِمَقْصَدِ الشَّارِعِ

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) «الاعتصام» للشاطبي (١/١٨٦) .

أَصْلاً، كَيْفَ وَهُوَ يَقُولُ: "**مَا رَآهُ الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ حَسَنٌ**" (١)، وَ"**لا تَجْتَمِعُ أُمَّتِيْ عَلَى ضَّلالَةٍ** " (٢)؛ فَثَبَتَ أَنَّ هَذَا الْمُجْمَعَ عَلَيْهِ مُوَافِقٌ لِقَصْدِ الشَّارِعِ، فَقَدْ خَرَجَ هَذَا الضَّرْبُ عَنْ أَنْ يَكُونَ فِيهِ الْفِعْلُ أَوِ التَّرْكُ مُخَالِفاً لِلشَّارِعِ، وَأَمَّا الْبِدْعَةُ الْمَذْمُومَةُ فَهِيَ الَّتِيْ خَالَفَتْ مَا وَضَعَ الشَّارِعُ مِنَ الأَفْعَالِ أَوِ التُّرُوكِ " (٣) .

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ بَعْدَ إِيرادِ إجْمَاعِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم عَلَى جَمْعِ الْمُصْحَفِ فِي زَمَنِ أَبِيْ بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَنَسْخِهِ فِي زَمَنِ عُثْمَانَ رضي الله عنهما :" لَمْ يَرِدْ نَصٌّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِمَا صَنَعُوا مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُمْ رَأَوهُ مَصْلَحَةً تُنَاسِبُ تَصَرُّفَاتِ الشَّرْعِ قَطْعاً، فَإِنَّ ذَلِكَ رَاجِعٌ إِلى حِفْظِ الشَّرِيْعَةِ، وَالأَمْرُ بِحِفْظِهَا مَعْلُومٌ، وَإِلَى مَنْعِ الذَّرِيْعَةِ لِلاِخْتِلافِ فِي أَصْلِهَا الَّذِيْ هُوَ الْقُرْآنُ، وَقَدْ عُلِمَ النَّهْيُ عَنِ الاِخْتِلافِ فِي ذَلِكَ بِمَا لا مَزِيدَ عَلَيْهِ، وَإِذَا اسْتَقَامَ هَذَا الأَمْرُ فَاحْمِلْ عَلَيهِ كَتْبَ الْعِلْمِ فِي السُّنَنِ وَغَيْرِهَا إِذَا خِيْفَ عَلَيهَا الاِنْدِرَاسُ، زِيَادَةً عَلَى مَا جَاءَ فِي الأَحَادِيْثِ مِنَ الأَمْرِ بِكَتْبِ الْعِلْمِ " (٤) .

وَعَلَى هَذَا دَرَجَ السَّلَفُ الصَّالِحُ فِي بَابِ الْوَسَائِلِ، حَيْثُ يَنْظُرُونَ إِلى الْمَصْلَحَةِ فِي الْفِعْلِ، وَعَدَمِ وُجُودِ الْمُقْتَضِي فِي زَمَنِ النُّبُوَّةِ، وَتَصِيْرُ هَذِهِ الْوَسِيْلَةُ لَهَا نَفْسُ حُكْمِ الْمَقْصَدِ الَّذِيْ تُؤَدِّيْ إِلَيْهِ؛ قَالَ سُلْطَانُ الْعُلَمَاءِ الْعِزُّ بْنُ عَبْدِ السَّلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ:" **لِلْوَسَائِلِ أَحْكَامُ الْمَقَاصِدِ، فَالْوَسِيْلَةُ إِلى أَفْضَلِ الْمَقَاصِدِ هِيَ أَفْضَلُ الْوَسَائِلِ، وَالْوَسِيْلَةُ إِلى أَرْذَلِ الْمَقَاصِدِ هِيَ أَرْذَلُ الْوَسَائِلِ.**" (٥)، وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: "**الاِشْتِغَالُ بِعِلْمِ النَّحْوِ الَّذِي يُفهَمُ بِهِ**

---

(١) رواه أحمد في مسنده عن عبد ٱللَّه بن مسعود موقوفاً (٣٦٠٠) والطبراني في الأوسط (٣٦٠٢) والحاكم في المستدرك (٤٤٦٥) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي وقال الهيثمي في المجمع: رجاله موثوقون .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) «الموافقات» (٣/٣٩-٤٢) .

(٤) «الاعتصام» (٢/٨٢) .

(٥) «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» للعز بن عبدالسلام (١/٤٦) .

كَلامُ اللهِ وَكَلامُ رَسُولِهِ ﷺ وَذَلِكَ وَاجِبٌ، لأَنَّ حِفْظَ الشَّرِيْعَةِ وَاجِبٌ، وَلا يَتَأَتَّى حِفْظُهَا إِلاَّ بِمَعْرِفَةِ ذَلِكَ، وَمَا لا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلاَّ بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ " [(١)] .

وَقَالَ الشَّاهُ وَلِيُّ اللهِ الدِّهْلَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:" فَإِذَا كَانَ لِلْوَاجِبِ طُرُقٌ مُتَعَدِّدَةٌ وَجَبَ تَحْصِيْلُ طَرِيقَةٍ مِنْ تِلْكَ الطُّرُقِ مِنْ غَيرِ تَعْيِيْنٍ، وَإِذَا تَعَيَّنَ لَهُ طَرِيقٌ وَاحِدٌ وَجَبَ ذَلِكَ الطَّرِيقُ بِخُصُوصِهِ؛ وَكَانَ السَّلَفُ لا يَكْتُبُونَ الحَدِيثَ، ثُمَّ صَارَ يَومَنَا هَذَا كِتَابَةُ الحَدِيثِ وَاجِبَةً، لأَنَّ رِوَايَةَ الحَدِيثِ لا سَبِيْلَ لَهَا الْيَومَ إِلاَّ مَعْرِفَةَ هَذِهِ الْكُتُبِ، وَكَانَ السَّلَفُ لا يَشتَغِلُونَ بِالنَّحْوِ وَاللُّغَةِ وَكَانَ لِسَانُهُمْ عَرَبِيّاً لا يَحْتَاجُونَ إِلى هَذَا ثُمَّ صَارَ يَومَنَا هَذَا مَعْرِفَةُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَاجِبَةً، لِبُعْدِ الْعَهْدِ عَنِ الْعَرَبِ الأُوَلِ، وَشَوَاهِدُ مَا نَحْنُ فِيهِ كَثِيْرَةٌ جِدّاً " [(٢)] .

وَبَعْدَ هَذَا نَقُولُ: إِنَّ تَبْلِيغَ الدِّيْنَ إِلى النَّاسِ وَاجِبٌ عَلَى الأُمَّةِ، وَالسَّفَرَ وَبَعْثَ البُعُوثِ لِلْقِيَامِ بِمُهِمَّةِ الدَّعْوَةِ إِلى اللهِ هِيَ مَسْؤُولِيَّةُ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ عَصْرٍ، فَيَجِبُ عَلَى الأُمَّةِ أَنْ تَتَّخِذَ جَمِيْعَ الْوَسَائِلِ الَّتِي مِنْ خِلالِهَا يَتِمُّ تَأْدِيَةُ هَذَا الْوَاجِبِ مَا دَامَت غَيرَ مُحَرَّمَةٍ بِذَاتِهَا، وَلا تَقِفُ فِي هَذَا الْبَابِ مَعَ مَا ثَبَتَ فِعلُهُ فِي الزَّمَنِ السَّابِقِ، لأَنَّ لِكُلِّ زَمَانٍ وَسَائِلَ تَخْتَلِفُ عَنْ غَيْرِهِ، ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْوَسَائِلَ تَأْخُذُ حُكْمَ الْمَقْصَدِ الَّذِيْ تُؤَدِّي إِلَيْهِ، فَإِذَا تَأَدَّى الْمَقْصَدُ بِهَا وَبِغَيْرِهَا، كَانَ الأَخْذُ بِمَا يَتَأَدَّى بِهِ الْوَاجِبُ وَاجِباً، وَمَنْدُوباً فِي غَيْرِهَا، أَمَّا إِذَا لَمْ يَتَأَدَّ الْوَاجِبُ إِلاَّ بِهَا فَإِنَّهَا تَجِبُ بِعَيْنِهَا، وَمِنْ هَذِهِ الْوَسَائِلِ تَرتِيبُ أَوْقَاتٍ مُعَيَّنَةٍ لِلْخُرُوجِ لِلدَّعْوَةِ وَالتَّبْلِيغِ وَالتَّعْلِيمِ، كَمَا تَرْجَمَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي صَحِيْحِهِ فِي كِتَابِ الْعِلْمِ، فَقَالَ: «**بَاب مَنْ جَعَلَ لأَهْلِ الْعِلْمِ أَيَّاماً مَعْلُومَةً**» ثُمَّ أَوْرَدَ بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِيْ وَائِلٍ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: "**كَانَ عَبْدُ اللهِ يُذَكِّرُ النَّاسَ فِي كُلِّ خَمِيسٍ** .. الحديث." [(٣)]، قَالَ الْعَلاَّمَةُ الْكَشْمِيرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: " **يُرِيْدُ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ التَّعيِيْنَات لا تُعَدُّ بِدْعَةً** " [(٤)] .

---

(١) «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» للعز بن عبدالسلام (٤٦/١) .
(٢) «الإنصاف» ص (٩٦) .
(٣) رواه البخاري برقم (٧٠) .
(٤) «فيض الباري» (٢٥٢/١) .

فَتَرْتِيْبُ الأَوْقَاتِ لأَهْلِ الْعِلْمِ وَالدَّعْوَةِ مِنَ الْوَسَائِلِ الْمُهِمَّةِ لِحِفْظِ الدِّيْنِ وَتَبْلِيْغِهِ، خَاصَّةً وَأَنَّ هَذَا الْعَمَلَ – عَلَى أَهَمِّيَّتِهِ الْبَالِغَةِ – قَدْ تُرِكَ وَنُسِيَ أَكْثَرُهُ مُنْذُ أَزْمِنَةٍ طَوِيْلَةٍ، كَمَا قَالَ الْغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: **"إنَّ الأَمْرَ بالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ هو القُطْبُ الأَعْظَمُ فِي الدِّينِ، وهو الْمُهِمُّ الَّذِي ابْتَعَثَ اللهُ لَهُ النَّبِيِّينَ أَجْمَعِيْنَ، وَلَوْ طُوِيَ بِسَاطُهُ وأُهْمِلَ عِلْمُهُ وعَمَلُهُ لَتَعَطَّلَتِ النُّبُوَّةُ وَاضْمَحَلَّتِ الدِّيَانَةُ وعَمَّتِ الفَتْرَةُ وفَشَتِ الضَّلالَةُ وشَاعَتِ الْجَهَالَةُ، وَاسْتَشْرَى الفَسَادُ واتَّسَعَ الْخَرْقُ وخَرِبَتِ البِلادُ وهَلَكَ العِبَادُ، ولَمْ يَشْعُرُوا بالهَلاكِ إلاَّ يَوْمَ التَّنَادِ، وقَدْ كَانَ الَّذِي خِفْنَا أَنْ يكونَ، فإنَّا للهِ وإنَّا إلَيْهِ رَاجِعُونَ، إذْ قَدِ انْدَرَسَ مِنْ هَذَا القُطْبِ عَمَلُهُ وعِلْمُهُ، وَانْمَحَقَ بِالْكُلِّيَّةِ حَقِيقَتُهُ ورَسْمُهُ "** [(١)] .

وَقَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: **"وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْبَابَ أَعْنِي بَابَ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ قَدْ ضُيِّعَ أَكْثَرُهُ مِنْ أَزْمَانٍ مُتَطَاوِلَةٍ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ فِي هَذِهِ الأَزْمَانِ إلاَّ رُسُومٌ قَلِيلَةٌ جِدًّا، وَهُوَ بَابٌ عَظِيمٌ بِهِ قِوَامُ الأَمْرِ وَمِلاكُهُ "** [(٢)] .

وَلا شَكَّ أَنَّ الْمَصْلَحَةَ فِي تَرْتِيبِ الأَوْقَاتِ وَإِخْرَاجِ الْجَمَاعَاتِ لِلدَّعْوَةِ وَالتَّبْلِيغِ ظَاهِرَةٌ لا تَخْفَى، وَلَمْ تَكُنِ الضَّرُورَةُ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ تَقْتَضِيْ مِثْلَ هَذَا الْخُرُوجِ بِهَذَا التَّرْتِيبِ، وَلا فِي أَحَدِ أَزْمِنَةِ الدَّوْلَةِ الإِسْلامِيَّةِ الَّتِيْ مَرَّتْ عَبْرَ ثَلاثَةَ عَشَرَ قَرْناً مِنْ هِجْرَةِ الْمُصْطَفَى ﷺ، حَيْثُ كَانَتْ هُنَاكَ خِلافَةٌ إِسْلامِيَّةٌ تَتَبَنَّى الْقِيَامَ بِوَاجِبِ تَبْلِيْغِ الدِّيْنِ عَنْ طَرِيْقِ إِرْسَالِ الْجُيُوشِ لِلْجِهَادِ وَدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيهِمُ الْعُلَمَاءُ لِلتَّعْلِيمِ، وَالْقُضَاةُ لِفَصْلِ النِّزَاعَاتِ بَيْنَ النَّاسِ، وَيُقَامُ الأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ مِنْ خِلالِ نِظَامِ الْحِسْبَةِ، حَيْثُ يَأْمُرُ وَيَنْهَى وَيُقِيْمُ الْقِصَاصَ وَالْحُدُودَ وَالتَّعَازِيْرَ .

وَبَعْدَ سُقُوطِ آخِرِ دَوْلَةٍ إِسْلامِيَّةٍ قَبْلَ مَا يُقَارِبُ قَرْناً مِنَ الزَّمَانِ، لَمْ تَعُدْ هَاتَانِ الْوَسِيْلَتَانِ لإِقَامَةِ الدِّيْنِ وَحِفْظِهِ مَوْجُودَتَيْنِ – أَعْنِي الْجِهَادَ لِنَشْرِ الإِسْلامِ فِي الْخَارِجِ، وَنِظَامَ الْحِسْبَةِ لإِقَامَةِ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ فِي الدَّاخِلِ –، أَضِفْ إِلَى هَذَا انْتِشَارَ

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٢/٤٣٢) .

(٢) «شرح مسلم للنووي» (١/٢١٤) .

الْفَسَادِ فِي الْبِلادِ، وَشُيُوعَ الشِّرْكِيَّاتِ وَالْبِدَعِ بَيْنَ النَّاسِ، وَالْمَشْيَ وَرَاءَ طُرُقِ الأَغْيَارِ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، وَعُمُومَ الجَهْلِ وَالْغَفْلَةِ، وَانْحِلالَ الأَخْلاقِ، وَالاِسْتِئْثَارَ بِالأَمْوَالِ وَكَثْرَةَ الْفَواحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ، وَخُرُوجَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الإِسْلامِ وَارْتِدَادَهِمْ، وَتَسَلُّطَ الأَعْدَاءِ، وَخُرُوجَ الْغَيْرَةِ عَلَى حُرُمَاتِ اللَّهِ، وَالانْهِمَاكَ فِي عُبُودِيَّةِ الْمَالِ وَالدُّنْيَا، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الأَحْوَالِ الَّتِي لَمْ يَسْبِقْ لَهَا مَثِيلٌ فِي زَمَنٍ مِنَ الأَزْمِنَةِ السَّابِقَةِ، فَكَانَ لِزَاماً عَلَى الأُمَّةِ أَنْ تَجْتَهِدَ بِصِفَةٍ جَمَاعِيَّةٍ لإِعَادَةِ مَنْ خَرَجَ مِنَ الدِّين إِلَيْهِ، وَإِعَادَةِ مَا خَرَجَ مِنَ الدِّينِ إِلى حَيَاةِ الْمُسْلِمِينَ .

فَبَدَأَتِ الْجَمَاعَاتُ تَخْرُجُ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ ﷻ فِي الدَّاخِلِ وَالخَارِجِ لأَوْقَاتٍ مُعَيَّنَةٍ لإِصْلاحِ مَا فَسَدَ مِنْ صِفَاتِ الْمُسْلِمِينَ، وَذَلِكَ بِإِخْرَاجِهِمْ مِنْ بِيْئَاتِ الْفَسَادِ وَالْغَفْلَةِ إِلى بِيْئَةِ الإِصْلاحِ وَالذِّكْرِ مَعَ الصُّحْبَةِ الصَّالِحَةِ، فَبَدَأَ النَّاسُ يَعُودُونَ إِلى الدِّيْنِ، وَصَارَ كَثِيْرٌ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ يَدْخُلُونَ فِي دِيْنِ اللَّهِ أَفْرَاداً وَأَفْوَاجاً، وَانْتَشَرَتِ الْمَسَاجِدُ فِي أَرْجَاءِ الْمَعْمُورَةِ، وَبَدَأَتِ الحَيَاةُ الإِسْلامِيَّةُ تَعُودُ تَدْرِيْجِيّاً إِلى حَيَاةِ الْكَثِيْرِيْنَ .

وَتَرْتِيْبُ هَذِهِ الأَوْقَاتِ لِلْقِيَامِ بِهَذِهِ الْمُهِمَّةِ وَسِيْلَةٌ مَنْهَجِيَّةٌ لِلاِسْتِقَامَةِ عَلَى هَذَا الْجُهْدِ، كَمَا تُرَتِّبُ الجَامِعَاتُ الإِسْلامِيَّةُ – بَلْ تُحَدِّدُ – سِنِينَ لِلدِّرَاسَةِ الشَّرعِيَّةِ، وَكَمَا يُرَتِّبُ الْعُلَمَاءُ وَالوُعَّاظُ أَيَّاماً وَأَوْقَاتاً مُعَيَّنَةً لِدُرُوسِهِمْ، وَكَمَا يُرَتَّبُ لِلْمُرَابِطِينَ الأَوْقَاتُ لِلرِّبَاطِ عَلَى ثُغُورِ الْبِلادِ؛ وَأَفْضَلُ هَذِهِ الأَوْقَاتِ مَا كَانَ لَهُ اعْتِبَارٌ فِي الشَّرْعِ، كَمَا قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي حَقِّ قَاطِعِ الطَّرِيْقِ الَّذِيْ قَتَلَ وَسَرَقَ:" **إِنَّهُ يُقتَلُ ويُصلَبُ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ**." وَلا دَلِيْلَ عَلَى هَذِهِ الثَّلاثَةِ الأَيَّامِ، إِلاَّ أَنَّ أَصْحَابَهُ عَلَّلُوْا ذَلِكَ بِأَنَّ لَهَا اعْتِبَاراً فِي الشَّرْعِ [(١)] .

نَسْأَلُ اللَّهَ ﷻ بِأَسْمَاءِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَى أَنْ يُرِيَنَا الْحَقَّ حَقّاً وَيَرْزُقَنَا اتِّبَاعَهُ، ويُرِيَنَا الْبَاطِلَ بَاطِلاً وَيَرْزُقَنَا اجْتِنَابَهُ، وَلا يَجْعَلَهُ مُلْتَبِساً عَلَيْنَا فَنَضِلَّ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً .

---

(١) «مغني المحتاج» (٤/٢٣٨) وانظر «المجموع شرح المهذب» (٢٢/١٦٢) .


باب
فضل الأحوال التي
تصيب الخارجين في
في سبيل الله

الْحَدِيْثُ الْحَادِيْ وَالثَّلاثُونَ

عَنْ عَبَايَةَ بْنِ رِفَاعَةَ قَالَ: أَدْرَكَنِي أَبُو عَبْسٍ ﷺ وَأَنَا أَذْهَبُ إِلَى الْجُمُعَةِ فَقَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: "**مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ** "[(١)] .

قوله (**مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ**) أَيْ أَصَابَهَا الْغُبَارُ .

قوله (**فِي سَبِيلِ اللَّهِ**) أَيْ فِي طَرِيْقٍ يُطْلَبُ فِيهَا رِضَا اللَّهِ ﷻ، فَشَمِلَ الجِهَادَ وَغَيْرَهُ كَطَلَبِ الْعِلْمِ[(٢)] وَالْحَجِّ، وَأَعْظَمُ سُبُلِ اللَّهِ هُوَ الدَّعْوَةُ إِلى اللَّهِ ﷻ، وَالَّتِيْ هِيَ سَبِيْلُ الأَنْبِيَاءِ عليهم السلام، وَسَبِيْلُ سَيِّدِ الأَنْبِيَاءِ ﷺ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ **قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ** ﴾[يوسف: ١٠٨] .

قوله (**حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ**) أَيْ لا يَدْخُلُهَا .

مَعْنَى الْحَدِيْثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ

بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ عَظِيمَ قَدْرِ خُرُوجِ الْمُسْلِمِ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ امْتِثَالاً لأَمْرِ اللَّهِ ﷻ، وَإِعْلاءً لِكَلِمَتِهِ، حَيْثُ جَعَلَ أَدْنَى مَا يُصِيبُ الخَارِجَ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ مِنَ الأَحْوَالِ – وَهُوَ الْغُبَارُ – جَعَلَهُ سَبَباً لِتَحْرِيْمِ جَسَدِهِ عَلَى النَّارِ، فَهُوَ مِنْ مُوجِبَاتِ دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَكَيْفَ بِمَنْ سَعَى

---

(١) رواه البخاري في «كتاب الجمعة باب المشي إلى الجمعة» برقم (٩٠٧) ورواه في كتاب «الجهاد» برقم (٨١١) ورواه البيهقي في سننه برقم (٦٠٨٧) عن يزيد بن أبي مريم قال:" **بَيْنَمَا أَنَا رَائِحٌ إِلَى الْجُمُعَةِ إِذْ لَحِقَنِي عَبَايَةُ بْنُ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ، وهُوَ رَاكِبٌ وأَنَا مَاشٍ فَقَالَ: احْتَسِبْ خُطَاكَ هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** .." فذكره بنحو حديث البخاري. ورواه الترمذي برقم (١٦٣٢) وقال له يعني عباية:" **أَبْشِرْ فَإِنَّ خُطَاكَ هَذِهِ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ** .." فذكره بنحوه، وقال الترمذي: حديث حسن غريب صحيح، وأبو عيسى اسمه عبدالرحمن بن جبير. وفي الباب عن أبي بكر ورجل من أصحاب النبي ﷺ .

(٢) «التيسير بشرح الجامع الصغير» للمناوي (٢/٧٧٨) .

وَضَحَّى بِنَفْسِه وَمَالِهِ لإعْلاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ وَإِحْيَاءِ دِيْنِهِ، وَاسْتَنْفَدَ فِي ذَلِكَ جَمِيْعَ طَاقَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّنْبِيْهِ بالأَدْنَى عَلَى الأَعْلَى، أَيْ أَنَّ أَقَلَّ مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ هُوَ الْغُبَارُ، وَهَذَا فَضْلُهُ، فَكَيْفَ بِمَا فَوْقَهُ؛ وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **"مَا خَالَطَ قَلْبَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ رَهْجٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلاَّ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ"** [(١)] .

وَالرَّهْجُ هُوَ الْغُبَارُ، وَقِيْلَ: هُوَ مَا يُدَاخِلُ بَاطِنَ الإِنْسَانِ مِنَ الخَوفِ وَالجَزَعِ وَنَحْوِهِ [(٢)]، فَالْمَعْنَى الأَوَّلُ يُنَبِّهُ عَلَى الأَثَرِ الحِسِّيِّ وَهُوَ الْغُبَارُ، أَمَّا الْمَعْنَى الثَّانِيْ فَيُنَبِّهُ عَلَى الأَثَرِ الْمَعْنَوِيِّ، وَهُوَ أَشَدُّ عَلَى النَّفْسِ مِنَ الأَوَّلِ، لِذَلِكَ قَالَ سَلْمَانُ رضي الله عنه: **"إِذَا كَانَ الرَّجُلُ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ فَأُرْعِدَ قَلْبُهُ مِنَ الخَوفِ تَحَاتَّتْ خَطَايَاهُ كَمَا يَتَحَاتُّ عِذْقُ النَّخلَةِ "** [(٣)] .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **"لا يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِن خَشْيَةِ اللَّهِ حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ، وَلا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ نَارِ جَهَنَّمَ "** [(٤)] . وفي رِوَايَةٍ: **"لا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ فِي مَنْخِرَيْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ "** [(٥)] .

وَرَوَى حَدِيثَ الْبَابِ ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيْحِهِ مِنْ طَرِيْقِ أَبِيْ الْمُصْبِحِ الْمُقْرَائِيِّ عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه بِمِثْلِ حَدِيثِ الْبُخَارِيِّ، وَقَالَ فِي آخِرِهِ – يَعْنِيْ أَبَا الْمُصْبِحِ – :" **فَوَثَبَ النَّاسُ عَنْ دَوَابِّهِم، فَمَا رَأَينَا يَوماً أَكْثَرَ مَاشِياً مِنهُ "** [(٦)] .

---

(١) رواه أحمد في مسنده برقم (٢٤٥٩٢) والطبراني في الأوسط برقم (٩٤٢٣) وقال الهيثمي في المجمع: رجال أحمد ثقات .

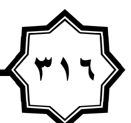
(٢) «الترغيب والترهيب» للمنذري (٢/١٧٧) برقم (٢٠٠٢) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه موقوفاً برقم (١٩٣١١) وهو مرفوعٌ حكماً .

(٤) رواه الترمذي برقم (١٦٣٣) وقال: حديث حسن صحيح .

(٥) رواه أحمد في مسنده برقم (٧٤٧٤) و(١٠٥٦٧) والحاكم في المستدرك برقم (٧٦٦٧) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي .

(٦) رواه أبو يعلى في مسنده (٩٤٤) وابن حبان في صحيحه (٤٦٠٤) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٢٣٨) وقال الهيثمي في المجمع: رجاله ثقات. وقال المنذري في الترغيب: بإسناد جيد .



فائـــــــدة

أَخْرَجَ مَالِكٌ فِي الْمُوَطَّإِ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيْدٍ الأَنْصَارِيِّ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ ﷺ لَمَّا بَعَثَ يَزِيدَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ إِلى الشَّامِ خَرَجَ يَمْشِي مَعَهُ، فَقَالَ لَهُ يَزِيدُ: إِمَّا أَنْ تَرْكَبَ، وَإِمَّا أَنْ أَنْزِلَ، فَقَالَ: **"مَا أَنَا بِرَاكِبٍ وَمَا أَنْتَ بِنَازِلٍ، إِنِّي أَحْتَسِبُ خُطَايَ هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ "** ثُمَّ أَوْصَاهُمْ بِوَصَايَا وَآدَابٍ فِي الْقِتَالِ [(١)] .

وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيْحِهِ فِي «كِتَابِ الجِهَادِ» فِي «بَابِ مَسْحِ الْغُبَارِ عَنِ الرَّأْسِ فِي سَبِيْلِ اللهِ » عَنْ أَبِي سَعِيْدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: كُنَّا نَنْقُلُ لَبِنَ الْمَسْجِدِ لَبِنَةً لَبِنَةً، وَكَانَ عَمَّارٌ يَنْقُلُ لَبِنَتَيْنِ لَبِنَتَيْنِ، فَمَرَّ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ وَمَسَحَ عَنْ رَأْسِهِ الْغُبَارَ، وَقَالَ: **"وَيْحَ عَمَّارٍ ! تَقْتُلُهُ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ، عَمَّارٌ يَدْعُوهُمْ إِلى اللهِ وَيَدْعُونَهُ إِلى النَّارِ"** [(٢)] .

قُلْتُ: اسْتِدْلالُ الإِمَامِ الْبُخَارِيِّ رَحِمَهُ اللهُ بِحَدِيثِ الْبَابِ حَدِيثِ عَبَايَةَ بْنِ رِفَاعَةَ عَلَى فَضْلِ الْمَشْيِ إِلى الْجُمُعَةِ وَأَنَّهُ فِي سَبِيْلِ اللهِ، ثُمَّ اسْتِدْلالُهُ بِهَذَا الحَدِيثِ عَلَى جَوَازِ مَسْحِ الْغُبَارِ عَنِ الرَّأْسِ فِي سَبِيْلِ اللهِ، وَإِنَّمَا كَانُوا يَبْنُونَ الْمَسْجِدَ، هَذَا يَدُلُّ عَلَى عُمُومِ لَفْظِ **"فِي سَبِيْلِ اللهِ "** عِنْدَ السَّلَفِ، كَمَا قَالَ ابْنُ عُمَرَ ﷺ :" **إِنَّ سَبِيلَ اللهِ كُلُّ عَمَلٍ صَالِحٍ.** " [(٣)]، وَقَالَ أَبُو أُمَامَةَ ﷺ:" **الْغُدُوُّ وَالرَّوَاحُ إِلى هَذِهِ الْمَسَاجِدِ مِنَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ.** " [(٤)]، وَسَئَلَ رَجُلٌ مُجَاهِداً عَنْ رَجُلٍ قَالَ: كُلُّ شَيْءٍ لِيْ فِي سَبِيْلِ اللهِ، فَقَالَ مُجَاهِدٌ:" **لَيْسَ سَبِيلُ اللهِ وَاحِداً، كُلُّ خَيرٍ عَمِلَهُ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ** " [(٥)] .

وَمِمَّا يدُلُّ عَلَى عُمُومِ لَفْظِ «**فِي سَبِيْلِ اللهِ**» مَا رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ ﷺ قَالَ: مَرَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ، فَرَأَى أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ جَلَدِهِ وَنَشَاطِهِ،

---

(١) رواه مالك في «الموطأ» (٩٦٥) والطبراني في الكبير (٦٠٧) وقال الهيثمي: إسناده منقطع ورجاله إلى يحيى ثقات .

(٢) رواه البخاري (٤٤٧) و(٢٨١٢) .

(٣) رواه البخاري في «الأدب المفرد» بسند حسن (٣٦٩) .

(٤) رواه أحمد في مسنده موقوفاً (٢٢٣٠٤) بسند حسن .

(٥) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٠٨٣٩) .

فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؟، فَقَالَ ﷺ:" **إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يُعِفُّهَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ رِيَاءً وَمُفَاخَرَةً فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ** " [(١)] .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا شَابٌّ مِنَ الثَّنِيَّةِ، فَلَمَّا رَأَيْنَاهُ بِأَبْصَارِنَا قُلْنَا: لَوْ أَنَّ هَذَا الشَّابَ جَعَلَ شَبَابَهُ وَنَشَاطَهُ وَقُوَّتَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَالَ: فَسَمِعَ مَقَالَتَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: "**وَمَا سَبِيلُ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ قُتِلَ ؟! مَنْ سَعَى عَلَى وَالِدَيْهِ فَفِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَنْ سَعَى عَلَى عِيَالِهِ فَفِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَنْ سَعَى عَلَى نَفْسِهِ لِيُعِفَّهَا فَفِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَنْ سَعَى عَلَى التَّكَاثُرِ فَهُوَ فِيْ سَبِيلِ الشَّيْطَانِ**" [(٢)] .
وَلا شَكَّ أَنَّ أَعْظَمَ سَبِيْلٍ مِنْ سُبُلِ اللَّهِ سبحانه وتعالى هُوَ سَبِيْلُ الدَّعْوَةِ إِلى اللَّهِ سبحانه وتعالى ، الَّتِيْ هِيَ سَبِيْلُ جَمِيْعِ الأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ .

فَإِذَا كَانَ مَنْ مَشَى إِلى الْجُمُعَةِ أَوْ إِلى الْجَمَاعَةِ أَوْ مَنْ بَنَى مَسْجِداً فِي سَبِيْلِ اللَّهِ، فَلا شَكَّ أَنَّ مَنْ قَامَ يَدْعُو النَّاسَ إِلى اللَّهِ سبحانه وتعالى وَإِلى شَعَائِرِهِ، كَانَ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ مِنْ بَابَ أَوْلَى.

نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيْمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يُحْيِيَنَا فِي سَبِيْلِهِ، وَأَنْ يَتَوَفَّانَا وَنَحْنُ خَارِجُونَ فِي سَبِيْلِهِ، لإِحْيَاءِ دِيْنِهِ وَإِعْلاءِ كَلِمَتِهِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيْبُ الدُّعَاءِ .

*****

(١) رواه الطبراني في الكبير واللفظ له (٢٨٢) وفي الأوسط (٦٨٣٥) وقال المنذري في الترغيب والهيثمي في المجمع: رجاله رجال الصحيح .

(٢) رواه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة (٤٢١٤) وفي الصغير (٩٤٠) والبيهقي في سننه (١٨٢٨٠) واللفظ له، وقال الهيثمي في المجمع: وفيه رياح بن عمرو، وثقه أبو حاتم وضعفه غيره، وبقية رجاله رجال الصحيح . وقال عنه أبو زرعة: صدوق، وذكره ابن حبان في الثقات .

الْحَدِيْثُ الثَّانِيْ وَالثَّلاثُونَ

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "**مَنْ رَاحَ رَوْحَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَانَ لَهُ بِمِثْلِ مَا أَصَابَهُ مِنَ الْغُبَارِ مِسْكاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ** "[1] .

قوله (**مَنْ رَاحَ رَوْحَةً**) الرَّوْحَةُ هِيَ الْمَرَّةُ مِنَ الرَّوَاحِ، وَهُوَ الْخُرُوجُ فِي أَيِّ وَقْتٍ كَانَ مِنْ زَوَالِ الشَّمْسِ إِلى غُرُوبِهَا، وَالْمُرَادُ هُنَا مُطْلَقُ الْخُرُوجِ .

قوله (**كَانَ لَهُ بِمِثْلِ مَا أَصَابَهُ مِنَ الْغُبَارِ مِسْكاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ**) أَيْ يَكُونُ مَا أَعَدَّ لَهُ يَومَ الْقِيَامَةِ مِنَ النَّعِيمِ بِقَدْرِ ذَلِكَ الْغُبَارِ الَّذِي أَصَابَهُ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ مِسْكاً .

مَعْنَى الْحَدِيْثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ

يُبَيِّنُ النَّبِيُّ ﷺ فَضْلَ الْخُرُوجِ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ وَمَا يُصِيْبُ الْخَارِجَ فِي هَذَا السَّبِيلِ مِنْ أُمُورٍ مَكْرُوهَةٍ، بِأَنَّ أَدْنَى مَا يُصِيْبُهُ – وَهُوَ الْغُبَارُ – يَكُونُ لَهُ مِثْلُهُ مِنَ الْمِسْكِ يَومَ الْقِيَامَةِ، وَذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ دُخُولَ الْجَنَّةِ وَالنَّجَاةَ مِنَ النَّارِ، وَجَاءَ بِهَذَا الْمَعْنَى أَحَادِيْثُ، مِنْهَا مَا رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ عَنِ الرَّبِيْعِ بْنِ زِيَادٍ قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسِيرُ إِذْ أَبْصَرَ شَابّاً مِنْ قُرَيْشٍ يَسِيرُ مُعْتَزِلاً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : "**أَلَيْسَ ذَاكَ فُلانٌ ؟**" قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: "**فَادْعُوهُ.**" فَجَاءَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: "**مَا لَكَ اعْتَزَلْتَ عَنِ الطَّرِيقِ ؟**" قَالَ: كَرِهْتُ الْغُبَارَ، قَالَ: "**فَلا تَعْتَزِلْهُ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ لَذَرِيْرَةُ[2] الْجَنَّةِ.**" [3] أَيْ طِيْبُهَا .

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه برقم (٢٧٧٥) وقال في الزوائد: هذا إسناد حسن مختلف في رجال إسناده. ورواه الطبراني في الأوسط (١٣٥٩) .

(٢) الذَّرِيْرَةُ: فُتَاتٌ مِنْ قَصَبِ الطِّيبِ الذي يُجَاءُ به من الهند . «تهذيب اللغة للأزهري» (٢٩١/١٤) .

(٣) رواه الطبراني في الكبير برقم (٤٦٠٨) قال الهيثمي في المجمع: رجاله ثقات .

وَرُوِيَ عَنْ أَبِيْ الدَّرْدَاءِ، ﷺ أَنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: "**لا تَلَثَّمُوا مِنَ الْغُبَارِ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَإِنَّ الْغُبَارَ فِي سَبِيلِ اللهِ كُثَبَانُ مِسْكِ الْجَنَّةِ** " (١) .

وَيُذْكَرُ أَنَّ السُّلْطَانَ صَلاحَ الدِّيْنِ أَبَا الْمُظَفَّرِ يُوْسُفَ بْنَ أَيُّوبَ رَحِمَهُ اللهُ كَانَ إِذَا عَادَ مِنَ الْغَزْوِ نَفَضَ ثِيَابَهُ مِنْ غُبَارِ الْغَزْوِ عَلَى نِطَعٍ، وَأَمَرَ مَنْ يَجْمَعُهُ، وَأَنَّ ذَلِكَ الْغُبَارَ عُجِنَ بِمَاءِ زَمْزَمَ، وَجُعِلَ لَبِنَةً لَطِيْفَةً، وَجُعِلَتْ تَحْتَ رَأْسِهِ فِي قَبْرِهِ (٢) .

فَائِـــــــدَة

جَاءَ الْقُرْآنُ الْكَرِيْمُ بِتَسْمِيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ شَاكِراً، حَيْثُ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ **[النساء: ١٤٧]**، كَمَا جَاءَتْ تَسْمِيَتُهُ أَيْضاً شَكُوْراً، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ **[التغابن: ١٧]** .

وَمِنْ مَظَاهِرِ شُكْرِ اللهِ تَعَالَى لِلعَبْدِ أَنَّهُ يُبَدِّلُ عَبْدَهُ الَّذِيْ تَغَبَّرَتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيْلِ مَرْضَاتِهِ وَدَعْوَةِ الخَلْقِ إِلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَصَابَهُ مِنَ الْغُبَارِ مِسْكاً فِي الْجَنَّةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ **[الإنسان: ٢٢]**، "فَجَمَعَ لَهُمْ تَعَالَى بَيْنَ الأَمْرَيْنِ: أَنْ شَكَرَ سَعْيَهُمْ وَأَثَابَهُمْ عَلَيهِ، وَاللهُ تَعَالَى يَشْكُرُ عَبْدَهُ إِذَا أَحْسَنَ طَاعَتَهُ، وَيَغْفِرُ لَهُ إِذَا تَابَ إِلَيهِ، فَيَجْمَعُ لِلْعَبْدِ بَيْنَ شُكْرِهِ لإِحْسَانِهِ وَمَغْفِرَتِهِ لإِسَاءَتِهِ، إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ؛ فَهُوَ الشَّكُورُ عَلَى الحَقِيْقَةِ، فَإِنَّهُ يُعْطِي الْعَبدَ وَيُوَفِّقُهُ لِمَا يَشْكُرُهُ عَلَيهِ، وَيَشْكُرُ الْقَلِيْلَ مِنَ الْعَمَلِ وَالطَّاعَةِ، فَلا يَسْتَقِلُّهُ أَنْ يَشْكُرَهُ، وَيَشْكُرُ الحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى أَضْعَافٍ مُضَاعَفَةٍ، وَيَشْكُرُ عَبْدَهُ بِقَوْلِهِ بِأَنْ يُثْنِيَ عَلَيْهِ بَيْنَ مَلائِكَتِهِ وَفِي مَلَئِهِ الأَعْلَى، وَيُلْقِي لَهُ الشُّكرَ بَينَ عِبَادِهِ وَيُشْكِرُ بِفِعْلِهِ، فَإِذَا تَرَكَ لَهُ شَيْئاً أَعْطَاهُ أَفْضَلَ مِنْهُ، وَإِذَا بَذَلَ لَهُ شَيْئاً رَدَّهُ عَلَيْهِ أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً، وَهُوَ الَّذِي وَفَّقَهُ لِلتَّرْكِ وَالْبَذْلِ، وَشَكَرَهُ عَلَى هَذَا وَهَذَا .

---

(١) «مسند الشاميين» للطبراني برقم (٩٦٨) .

(٢) «تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام» لابن الضياء (١/ ٦٨) .

وَلَمَّا عَقَرَ نَبِيُّهُ سُلَيْمَانُ الْخَيْلَ غَضَباً لَهُ إِذْ شَغَلَتْهُ عَنْ ذِكْرِهِ، فَأَرَادَ أَلاَّ تَشْغَلَهُ مَرَّةً أُخْرَى، أَعَاضَهُ عَنْهَا مَتْنَ الرِّيْحِ، وَلَمَّا تَرَكَ الصَّحَابَةُ دِيَارَهُمْ وَخَرَجُوا مِنْهَا فِي مَرْضَاتِهِ، أَعَاضَهُمْ مِنْهَا أَنْ أَمْلَكَهُمُ الدُّنْيَا وَفَتَحَهَا عَلَيْهِمْ . وَلَمَّا احْتَمَلَ يُوسُفُ الصِّدِّيقُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ضِيقَ السِّجْنِ لَهُ، شَكَرَ لَهُ ذَلِكَ بِأَنْ مَكَّنَهُ مِنَ الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ .

وَلَمَّا بَذَلَ الشُّهَدَاءُ أَبْدَانَهُم لَهُ حَتَّى مَزَّقَهَا أَعْدَاؤُهُ، شَكَرَ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنْ أَعَاضَهُمْ مِنْهَا طَيْراً خُضْراً أَقَرَّ أَرْوَاحَهُم فِيْهَا تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، وَتَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا إِلى يَومِ الْبَعْثِ، فَيَرُدُّهَا عَلَيهِمْ أَكْمَلَ مَا تَكُونُ وَأَجْمَلَهُ وَأَبْهَاهُ .

وَلَمَّا بَذَلَ رُسُلُهُ أَعْرَاضَهُمْ فِيهِ لأَعْدَائِهِم، فَنَالُوا مِنْهُم وَسَبُّوهُم، أَعَاضَهُم مِنَ ذَلِكَ أَنْ صَلَّى عَلَيْهِمْ هُوَ وَمَلائِكَتُهُ، وَجَعَلَ لَهُمْ أَطْيَبَ الثَّنَاءِ فِي سَمَاوَاتِهِ وَبَينَ خَلْقِهِ، فَأَخْلَصَهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ .

وَمِنْ شُكْرِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ لا يُضِيْعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً وَلَوْ أَنَّهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ .

وَمِنْ شُكْرِهِ أَنَّهُ يُجَازِيْ عَدُوَّهُ بِمَا يفْعَلُهُ مِنَ الْخَيْرِ وَالْمَعْرُوفِ فِي الدُّنْيَا، وَيُخَفِّفُ بِهِ عَنْهُ يَومَ الْقِيَامَةِ، فَلا يُضَيِّعُ عَلَيهِ مَا يَعْمَلُهُ مِنَ الإِحْسَانِ، وَهُوَ أَبْغَضُ خَلْقِهِ إِلَيْهِ [(١)] .

وَمِنْ شُكْرِهِ أَنَّهُ غَفَرَ لِلْمَرْأَةِ الْبَغِيِّ بِسَقْيِهَا كَلْباً كَانَ قَدْ جَهَدَهُ الْعَطَشُ حَتَّى أَكَلَ الثَّرَى[(٢)]. وَغَفَرَ لآخَرَ بِتَنْحِيَتِهِ غُصْنَ شَوْكٍ عَنْ طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ [(٣)] .

فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَشْكُرُ الْعَبْدَ عَلَى إِحْسَانِهِ إِلى نَفْسِهِ، وَالْمَخْلُوقُ إِنَّمَا يَشْكُرُ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ؛ وَأَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ هُوَ الَّذِيْ أَعْطَى الْعَبْدَ مَا يُحْسِنُ بِهِ إِلى نَفْسِهِ وَشَكَرَهُ عَلَيهِ، بَلْ شَكَرَهُ

---

(١) روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك (٢٨٠٨) قال: قال رسول الله ﷺ: " **إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً، يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُجْزَى بِهَا فِي الآخِرَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلى الآخِرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا** " .

(٢) رواه البخاري عن أبي هريرة برقم (٢٣٦٣) و(٢٤٦٦) و(٦٠٠٩) ومسلم (٥٩٩٦) .

(٣) رواه البخاري عن أبي هريرة (٦٥٢) و(٢٤٧٢) ومسلم (٥٠٤٩) و(٦٨٣٥) .

عَلَى قَلِيْلِهِ بالأَضْعَافِ الْمُضَاعَفَةِ الَّتِي لا نِسْبَةَ لإِحْسَانِ الْعَبْدِ إِلَيْهَا، فَهُوَ الْمُحْسِنُ بإِعْطَاءِ الإِحْسَانِ وَإِعْطَاءِ الشُّكْرِ، فَمَنْ أَحَقُّ باسْمِ الشَّكُور مِنْهُ ؟! وَتَأَمَّلْ قولَهُ ﷻ: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ **[النساء: ١٤٧]**، كَيْفَ تَجدُ في ضِمْنِ هَذَا الْخِطَاب أَنَّ شُكْرَهُ ﷻ يَأْبَى تَعْذِيْبَ عِبَادِهِ سُدَىً بغَيْرِ جُرْمٍ، كَمَا يَأْبَى إِضَاعَةَ سَعْيِهِمْ بَاطِلاً، فَشُكْرُهُ ﷻ اقْتَضَى أَنْ لا يُعَذِّبَ الْمُؤْمِنَ الشَّكُورَ وَلا يُضَيِّعَ عَمَلَهُ. وَمِنْ شُكْرِهِ ﷻ أَنَّهُ يُخرِجُ الْعَبْدَ مِنَ النَّارِ بِأَدْنَى مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، فَلا يُضَيِّعُ عَلَيْهِ هَذَا الْقَدْرَ (١) .

وَمِنْ شُكْرِهِ أَنَّ الْعَبْدَ مِنْ عِبَادِهِ يَقُومُ لَهُ مَقَاماً يُرْضِيهِ بَينَ النَّاسِ فَيَشْكُرُهُ لَهُ، وَيُنَوِّهُ بذِكْرِهِ، وَيُخْبِرُ بِهِ مَلائِكَتَهُ وَعِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ (٢)، كَمَا شَكَرَ لِمُؤْمِنِ آلِ فِرْعَونَ ذَلِكَ الْمَقَامَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَنَوَّهَ بِذِكْرِهِ بَينَ عِبَادِهِ، وَكَذَلِكَ شُكْرُهُ لِصَاحِبِ يس مَقَامَهُ ودَعوَتَهُ إِلَيْهِ، فَلا يَهْلِكُ عَلَيهِ بَينَ شُكْرِهِ وَمَغْفِرَتِهِ إلاَّ هَالِكٌ، فَإِنَّهُ ﷻ غَفُورٌ شَكُورٌ، يَغْفِرُ الْكَثِيرَ مِنَ الزَّلَلِ، ويَقبَلُ الْقَلِيلَ مِنَ الْعَمَلِ .

وَلَمَّا كَانَ اللَّهُ ﷻ هُوَ الشَّكُورَ عَلَى الحَقِيْقَةِ كَانَ أَحَبَّ خَلْقِهِ إِلَيْهِ مَن اتَّصَفَ بِصِفَةِ الشُّكْرِ، كَمَا أَنَّ أَبْغَضَ خَلْقِهِ إِلَيْهِ مَنِ اتَّصَفَ بضِدِّهَا، وَهَذَا شَأْنُ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى، أَحَبُّ خَلْقِهِ إِلَيْهِ مَنِ اتَّصَفَ بِمُوجَبِهَا، وَأَبْغَضُهُم إِلَيْهِ مَنِ اتَّصَفَ بِأَضْدَادِهَا، وَلِهَذَا يُبْغِضُ الْكَفُورَ وَالظَّالِمَ وَالجَاهِلَ وَالقَاسِيَ الْقَلْبِ وَالْبَخِيلَ وَالْجَبَانَ وَاللَّئِيْمَ .

وَهُوَ جَمِيْلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، عَلِيْمٌ يُحِبُّ الْعُلَمَاءَ، رَحِيْمٌ يُحِبُّ الرَّاحِمِينَ، مُحْسِنٌ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ، شَكُورٌ يُحِبُّ الشَّاكِرِينَ، صَبُورٌ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ، جَوَادٌ يُحِبُّ أَهْلَ الْجُودِ، سِتِّيرٌ يُحِبُّ أَهْلَ السِّتْرِ، قَادِرٌ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَالْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ

---

(١) رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري (٧٤٣٩) ومسلم (٤٧٢) ورواه البخاري عن أنس بن مالك (٧٥١٠) .

(٢) روى البخاري في صحيحه (٧٤٠٥) ومسلم (٦٩٨١) كلاهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: " **يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِيْ، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ** " .

الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، عَفُوٌّ يُحِبُّ الْعَفْوَ، وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ، وَكُلُّ مَا يُحِبُّهُ فَهُوَ مِنْ آثَارِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَمُوجَبِهَا، وَكُلُّ مَا يُبغِضُهُ فَهُوَ مِمَّا يُضَادُّهَا وَيُنَافِيهَا .

نَهَجَ لِلْعَبْدِ طَرِيقَ النَّجَاةِ، وَفَتَحَ لَهُ أَبْوَابَهَا، وَعَرَّفَهُ طُرُقَ تَحْصِيلِ السَّعَادَةِ، وَأَعْطَاهُ أَسْبَابَهَا، وَحَذَّرَهُ مِنْ وَبَالِ مَعْصِيَتِهِ، وَأَشْهَدَهُ فِي نَفْسِهِ وَفِي غَيْرِهِ شُؤْمَهَا وَعِقَابَهَا، وَقَالَ: "**إِنْ أَطَعْتَ فَبِفَضْلِي، وَأَنَا أَشْكُرُ، وَإِنْ عَصَيْتَ فَبِقَضَائِي، وَأَنَا أَغْفِرُ**،﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ **[فاطر: ٣٤]** .

أَعْطَاهُ مَا يَشْكُرُهُ عَلَيهِ، ثُمَّ شَكَرَهُ عَلَى إِحْسَانِهِ إِلى نَفْسِهِ، لا عَلَى إِحْسَانِهِ إِلَيْهِ، وَوَعَدَهُ عَلَى إِحْسَانِهِ لِنَفْسِهِ أَنْ يُحْسِنَ جَزَاءَهُ وَيُقَرِّبُهُ لَدَيهِ، وَأَنْ يَغْفِرَ لَهُ خَطَايَاهُ إِذَا تَابَ مِنْهَا، وَلا يَفْضَحَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ .

يَجُودُ عَلَى عَبِيْدِهِ بِالنَّوَالِ قَبْلَ السُّؤَالِ، وَيُعْطِي سَائِلَهُ وَمُؤَمِّلِيهِ فَوقَ مَا تَعَلَّقَتْ بِهِ مِنْهُمُ الآمَالُ، وَيَغْفِرُ لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَلَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُهُ عَدَدَ الأَمْوَاجِ وَالحَصَى وَالتُّرَابِ وَالرِّمَالِ، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ .

أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا، وَأَفْرَحُ بِتَوْبَةِ التَّائِبِ مِنَ الْفَاقِدِ لِرَاحِلَتِهِ الَّتِي عَلَيهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فِي الأَرْضِ الْمُهْلِكَةِ إِذَا وَجَدَهَا، وَأَشْكَرُ لِلْقَلِيلِ مِنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ، فَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْ خَيرٍ شَكَرَهَا ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ .

تَعَرَّفَ إِلى عِبَادِهِ بِأَوْصَافِهِ وَأَسْمَائِهِ، وَتَحَبَّبَ إِلَيْهِمْ بِحِلْمِهِ وَآلائِهِ، وَلَمْ تَمْنَعْهُ مَعَاصِيْهِم أَنْ جَادَ عَلَيْهِمْ بِآلائِهِ، وَوَعَدَ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَحْسَنَ طَاعَتَهُ بِمَغْفِرَةِ ذُنُوبِهِ يَومَ لِقَائِهِ، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ .

السَّعَادَةُ كُلُّهَا فِي طَاعَتِهِ، وَالأَرْبَاحُ كُلُّهَا فِي مُعَامَلَتِهِ، وَالْمِحَنُ وَالبَلايَا كُلُّهَا فِي مَعْصِيَتِهِ وَمُخَالَفَتِهِ، فَلَيْسَ لِلْعَبْدِ أَنْفَعُ مِنْ شُكْرِهِ وَتَوْبَتِهِ، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ .

أَفَاضَ عَلَى خَلْقِهِ النِّعْمَةَ، وَكَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، وَضَمَّنَ الْكِتَابَ الَّذِيْ كَتَبَهُ أَنَّ رَحْمَتَهُ تَغْلِبُ غَضَبَهُ، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ .

يُطَاعُ فَيَشْكُرُ، وَطَاعَتُهُ مِنْ تَوفِيقِهِ وَفَضْلِهِ، وَيُعْصَى فَيَحْلَمُ، وَمَعْصِيَةُ الْعَبدِ مِنْ ظُلْمِهِ وَجَهْلِهِ، وَيَتُوبُ إِلَيْهِ فَاعِلُ الْقَبِيْحِ فَيَغفِرُ لَهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَطُّ مِنْ أَهْلِهِ، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

بَابُهُ الْكَرِيْمُ مَنَاخُ الآمَالِ ومَحَطُّ الأَوْزَارِ، وَسَمَاءُ عَطَايَاهُ لا تُقلِعُ عَنِ الْغَيْثِ بَلْ هِيَ مِدْرَار، وَيَمِينُهُ مَلأَى لا تَغِيْضُهَا نَفقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَار ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

لا يُلَقَّى وَصَايَاه إلاَّ الصَّابِرُونَ، وَلا يَفُوزُ بِعَطَايَاهُ إلاَّ الشَّاكِرُونَ، وَلا يَهْلِكُ عَلَيهِ إلاَّ الْهَالِكُونَ، وَلا يَشْقَى بِعَذَابِهِ إلاَّ الْمُتَمَرِّدُونَ، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ .

وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ الرَّبَّ شَكُورٌ تَنَوَّعَ فِي مُعَامَلَتِهِ، وَمَنْ عَرَفَ أَنَّهُ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ تَعَلَّقَ بِأَذْيَالِ مَغْفِرَتِهِ، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ رَحْمَتَهُ سَبَقَتْ غَضَبَهُ لَمْ يَيْأَسْ مِنْ رَحْمَتِهِ، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ .

وَمَنْ تَعَلَّقَ بِصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ أَخَذَتْ بِيَدِهِ حَتَّى تُدْخِلَهُ عَلَيهِ، وَمَنْ سَارَ إِلَيْهِ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ وَصَلَ إِلَيْهِ، وَمَنْ أَحَبَّهُ أَحَبَّ أَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ، وَكَانَتْ آثَرَ شَيْءٍ لَدَيْهِ .

حَيَاةُ الْقُلُوبِ فِي مَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ، وَكَمَالُ الْجَوَارِحِ فِي التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ وَالْقِيَام بِخِدْمَتِهِ، وَإِطْلاقُ الأَلْسِنَةِ فِي ذِكْرِهِ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِأَوْصَافِ مِدْحَتِهِ، فَأَهْلُ شُكْرِهِ أَهْلُ زِيَادَتِهِ، وَأَهْلُ ذِكْرِهِ أَهْلُ مُجَالَسَتِهِ، وَأَهْلُ طَاعَتِهِ أَهْلُ كَرَامَتِهِ، وَأَهْلُ مَعْصِيَتِهِ لا يُقَنِّطُهُم مِنْ رَحْمَتِهِ، إِنْ تَابُوا فَهُوَ حَبِيْبُهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَتُوبُوا فَهُوَ طَبِيْبُهُمْ، يَبْتَلِيْهِمْ بِأَنوَاعِ الْمَصَائِبِ لِيُكَفِّرَ عَنْهُمُ الْخَطَايَا وَيُطَهِّرَهُمْ مِنَ الْمَعَايِبِ، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ **[فاطر: ٣٤]** [١] .

---

(١) «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» ص (٥٤٠-٥٤٨) باختصار يسير .

الْحَدِيْثُ الثَّالِثُ وَالثَّلاثُونَ

عَنْ أَبِيْ أُمَامَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "لَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلى اللَّهِ مِنْ قَطْرَتَيْنِ وَأَثَرَيْنِ: قَطْرَةُ دُمُوعٍ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَقَطْرَةُ دَمٍ تُهَرَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَمَّا الأَثَرَانِ: فَأَثَرٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَثَرٌ فِي فَرِيضَةٍ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ " (١) .

قوله (قَطْرَةُ دُمُوعٍ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) أَيْ قَطْرَةُ بُكَاءٍ حَاصِلَـــــةٌ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أَيْ خَوْفِهِ وَعَظَمَتِهِ الْمُورِثَةِ لِمَحَبَّتِهِ (٢) .

قوله (وَقَطْرَةُ دَمٍ تُهَرَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) هَذَا بِعُمُومِهِ يَشْمَلُ الجِهَادَ وَغَيْرَهُ مِنْ سُبُلِ الْخَيْرِ (٣) .

قوله (فَأَثَرٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) كَخُطْوَةٍ أَوْ غُبَارٍ أَوْ جِرَاحَةٍ فِي الجِهَادِ - أَوْ فِي طَرِيْقِ الدَّعْوَةِ - أَوْ سَوَادِ حِبْرٍ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ (٤) .

قوله (وَأَثَرٌ فِي فَرِيضَةٍ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ) كَانْشِقَاقِ الْيَدِ وَالرِّجْلِ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ فِي الْبَرْدِ، وَأَثَرِ السُّجُودِ عَلَى الْجَبْهَةِ، وَخُلُوفِ فَمِ الصَّائِمِ، وَخُطْوَةٍ أَوْ غُبَارٍ فِي أَدَاءِ الصَّلاةِ وَالْحَجِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

مَعْنَى الْحَدِيْثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ

يُبَيِّنُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ أَحَبَّ مَا يَتَعَبَّدُ الإِنْسَانُ بِهِ لِرَبِّهِ جَلَّ جَلَالُهُ هُوَ خَشْيَتُهُ وَتَعْظِيْمُهُ وَمَا يَنْشَأُ عَنْ هَذِهِ الْخَشْيَةِ مِنَ الْبُكَاءِ وَقَطَرَاتِ الدُّمُوعِ، وَأَنْ يَجْتَهِدَ الإِنْسَانُ بِمَالِهِ وَنَفْسِهِ فِي خِدْمَةِ

---

(١) رواه الترمذي برقم (١٦٦٩) وقال: حديث حسن غريب. ورواه الطبراني في الكبير (٧٩١٨) .

(٢) «مرقاة المفاتيح» (٣٦٧/٧) .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق .

دِيْنِ اللهِ وَدَعْوَةِ الْخَلْقِ إلى خَشْيَةِ اللهِ ﷻ، وَمَا يُصِيْبُهُ في هَذَا السَّبِيْلِ مِنَ الجِرَاحَاتِ وَمَا يَسِيْلُ مِنْهَا مِنْ قَطَرَاتِ الدَّمِ هِيَ أَحَبُّ الْقَطَرَاتِ إلى اللهِ ﷻ، وَأَحَبُّ الآثَارِ الَّتِيْ تُصِيْبُ الإنْسَانَ أَوْ يَتْرُكُهَا هِيَ أَثَرٌ تَرَكَهُ أَوْ أَصَابَهُ وَهُوَ يُؤَدِّي أَوْ يَسْعَى لأَدَاءِ فَرِيْضَةٍ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ ﷻ، وَأَثَرٌ يُصِيْبُ الإنْسَانَ أَوْ يَتْرُكُهُ وَهُوَ يَسْعَى في سَبِيْلِ اللهِ لِدَعْوَةِ الخَلْقِ إلى اللهِ ﷻ وامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ، وَالدِّفَاعِ عَنْ دِيْنِهِ .

فَالْعِبَادَةُ نَوْعَانِ :

عِبَادَةٌ لازِمَةُ النَّفْعِ: يَتَقَرَّبُ الإنْسَانُ بهَا إلى اللهِ ﷻ بنَفْسِهِ، وَهِيَ **عِبَادَةُ الْقَلْبِ**، كَالْخَشْيَةِ وَالإِنَابَةِ وَالتَّوْبَةِ وَالرَّجَاءِ وَالتَّوَكُّلِ وَالْيَقِيْنِ باللهِ وَالتَّوَجُّهِ إِلَيْهِ وَغَيْرِهَا، وَهِيَ أَسَاسُ الْعِبَادَةِ وَلُبُّهَا الْمَقْصُودُ مِنْهَا، **وَعِبَادَةُ الْجَوَارِحِ**، كَأَدَاءِ الْفَرَائِضِ وَالنَّوَافِلِ مِنْ صَلاةٍ وَصِيَامٍ وَصَدَقَةٍ وَحَجٍّ وَغَيْرِهَا مِنَ الْعِبَادَاتِ .

وَعِبَادَةٌ مُتَعَدِّيَةُ النَّفْعِ: يَتَقَرَّبُ الإنْسَانُ بهَا إلى اللهِ ﷻ مِنْ خِلالِ دَعْوَتِهِ الخَلْقَ إلى اللهِ ﷻ، وَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالنُّصْحِ لِعِبَادِ اللهِ وَالْمَوْعِظَةِ، وَالْجِهَادِ بِالْمَالِ وَالنَّفْسِ وَاللِّسَانِ لإِحْيَاءِ الدِّيْنِ وَإِقَامَةِ النَّاسِ عَلَيْهِ .

فَأَحَبُّ الْقَطَرَاتِ إلى اللهِ ﷻ هِيَ **قَطْرَةُ دُمُوعٍ** نَاشِئَةٌ عَنْ خَشْيَةِ اللهِ ﷻ، وَالَّتِيْ تُمَثِّلُ مَعَ الخَوْفِ وَالْمَحَبَّةِ الطَّائِرَ الَّذِيْ يَصِلُ الإنْسَانُ بِهِ إلى رَبِّهِ ﷻ وَقُرْبِهِ وَكَرَامَتِهِ، **وَقَطْرَةُ دَمٍ** تَخْرُجُ مِنَ الإنْسَانِ نَتِيْجَةَ قِيَامِهِ بدَعْوَةِ الخَلْقِ إلى اللهِ وَجِهَادِهِمْ في سَبِيْلِ ذَلِكَ.

وَأَحَبُّ الآثَارِ الَّتِيْ يَتْرُكُهَا الإنْسَانُ أَوْ تُصِيْبُهُ هُوَ أَثَرٌ يَتْرُكُهُ أَوْ يُصِيْبُهُ في أَدَائِهِ فَرِيْضَةً مِنْ فَرَائِضِ اللهِ ﷻ، لأَنَّ الْفَرَائِضَ هِيَ أَحَبُّ مَا يَتَقَرَّبُ الْعَبْدُ بِهِ إلى رَبِّهِ ﷻ، وَأَثَرٌ يُصِيْبُهُ وَهُوَ يَدْعُو النَّاسَ إلى اللهِ ﷻ وَإلى فَرَائِضِهِ وَمَحَابِّهِ، أَوْ يُصِيْبُهُ وَهُوَ يَدْفَعُ عَنْ دِيْنِ اللهِ ﷻ كَيْدَ الْكَائِدِيْنَ وَعِدَاءَ الْمُعْتَدِيْنَ .

وَعَلَى هَذَا، فَالْمُسْلِمُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَهُ جُهْدَانِ :

الأَوَّلُ: جُهْدٌ يَقُومُ بِهِ مَعَ رَبِّهِ عَجَلَ، وَهُوَ الَّذِيْ أُمِرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١-٢]، وَذَلِكَ كَيْ يَتَحَصَّلَ عَلَى الأَنْوَارِ الإِلَهِيَّةِ وَالنَّفَحَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِيْ تَعمُرُ قَلْبَهُ بِالإِيْمَانِ وَالاِطْمِئْنَانِ بِاللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَالثِّقَةِ بِهِ، وتَجْعَلُ فِي كَلامِهِ الأَثَرَ عَلَى الْقُلُوبِ، وتَبْعَثُ فِيهِ الصَّبْرَ وَالثَّبَاتَ عَلَى الْحَقِّ الَّذِيْ يَدْعُو إِلَيهِ .

وَالثَّانِيْ: جُهْدٌ يَقُومُ بِهِ فِي دَعوةِ الخَلْقِ إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَهُوَ الَّذِيْ أُمِرَ بِهِ ﷺ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: ١- ٣]، فَيَقُومُ فِي هَذَا الجُهْدِ بِنَشْرِ مَحْبُوبَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي خَلْقِهِ؛ وَبِهَذَيْنِ الْجُهْدَيْنِ يَصِلُ الإِنْسَانُ إِلى أَعْلَى مَقَامَاتِ الْعُبُودِيَّةِ عِنْدَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَيَصِيْرُ الإِنْسَانُ مُبَارَكاً أَيْنَمَا كَانَ، وَتُفْتَحُ الْبَرَكَاتُ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَتَنْزِلُ الْهِدَايَةُ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى الْمُجْتَهِدِ يَقِيْناً بِوَعْدِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حَيْثُ قَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. كَمَا تَنْزِلُ عَلَى غَيْرِهِ إِنْ شَاءَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَيَكُونُ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنِ اهْتَدَى بِدَعْوَتِهِ، كَمَا قَالَ ﷺ: **"مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ "** [(١)] .

قَالَ وُهَيبُ بْنُ الوَرِدِ رَحِمَهُ اللهُ:" **لَقِيَ عَالِمٌ عَالِماً هُوَ فَوْقَهُ فِي الْعِلْمِ، فَقَالَ: يَرْحَمُكَ اللهُ، مَا الَّذِيْ أُخْفِي مِنْ عَمَلِيْ ؟ قَالَ: مَا يُظَنُّ بِكَ أَنَّكَ لَمْ تَعمَلْ حَسَنَةً قَطُّ إلاَّ أَدَاءَ الْفَرَائِضِ** - أَيْ أَخْفِ جَمِيْعَ أَعْمَالِ الْبِرِّ الَّتِيْ تَقُومُ بِهَا حَتَّى يَظُنَّ النَّاسُ أَنَّكَ لَمْ تَعْمَلْ حَسَنَةً قَطُّ إِلاَّ أَدَاءَ الْفَرَائِضِ، فَلا مَجَالَ لإِخْفَائِهَا -. **قَالَ: يَرْحَمُكَ اللهُ، فَمَا الَّذِيْ أُعْلِنُ مِنْ عَمَلِيْ ؟ قَالَ: الأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَإِنَّهُ دِيْنُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الَّذِيْ بَعَثَ اللهُ بِهِ أَنْبِيَاءَهُ إِلَى عِبَادِهِ، وَقَدِ اجْتَمَعَ الْفُقَهَاءُ عَلَى قَوْلِ النَّبِيِّ** - أَيْ عِيْسَى عَلَيْهِ السَّلَام -

---

(١) رواه مسلم عن أبي مسعود الأنصاري برقم (١٨٩٣) .

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١]. مَا بَرَكَتُهُ تِلْكَ ؟ قَالَ: "الأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ أَيْنَمَا كَانَ " [(١)] .

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ :" إِنَّ بَرَكَةَ الرَّجُلِ تَعْلِيْمُهُ لِلْخَيْرِ حَيْثُ حَلَّ، وَنُصْحُهُ لِكُلِّ مَنِ اجْتَمَعَ بِهِ،.. وَمَنْ خَلا مِنْ هَذَا فَقَدْ خَلا مِنَ الْبَرَكَةِ، وَمُحِقَتْ بَرَكَةُ لِقَائِهِ وَالاِجْتِمَاعِ بِهِ، بَلْ تُمْحَقُ بَرَكَةُ مَنْ لَقِيَهُ وَاجْتَمَعَ بِهِ " [(٢)] .

فَائِـــــــدَة

ذَكَرَ الْفُقَهَاءُ أَنَّ عَلامَةَ ظُهُورِ الْحَيَاةِ فِي الْجَنِينِ أَحَدُ أَمْرَينِ :

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَسْتَهِلَّ بَاكِياً .

وَالثَّانِيْ: أَنْ يَتَحَرَّكَ؛ فَالْحَرَكَةُ وَالْبُكَاءُ هُمَا عَلامَتَا ظُهُورِ الْحَيَاةِ فِي الجَنِينِ، فَعِنْدَهَا يُحْكَمُ بِحَيَاتِهِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنْ أَحْكَامٍ، كَوُجُوبِ الصَّلاةِ عَلَيهِ، وَتَورِيْثِهِ، وَإِيْجَابِ دِيَةٍ كَامِلَةٍ فِي إِزْهَاقِ رُوحِهِ، وَغَيرِهَا مِنَ الأَحْكَامِ .

وَهَاتَانِ الْعَلامَتَانِ هُمَا عَلامَتَا ظُهُورِ الْحَيَاةِ فِي الأُمَّةِ، فَإِذَا كَانَتِ الأَمَّةُ مُتَحَرِّكَةً فِي النَّهَارِ لِدَعْوَةِ الخَلْقِ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَتوجِيهِهِمْ لِنَيْلِ رَحْمَتِهِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ثُمَّ تَقْضِي أَكْثَرَ لَيْلِهَا فِي التَّضَرُّعِ وَالْبُكَاءِ بَينَ يَدَي اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَيْ يَرْحَمَهُم وَيَرْحَمَ بِهِمْ، وَيَهْدِيَهُم وَيَهْدِيَ بِهِم وَيَجْعَلَهُم سَبَباً لِمَنِ اهْتَدَى، كَمَا وَصَفَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَذِهِ الأُمَّةَ بِقَولِهِ: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩]. وَقَالَ: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذريات: ١٧]. وَقَالَ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ

(١) «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» لابن أبي الدنيا برقم (١٣) .

(٢) «رسالة لابن القيم لأحد الإخوان» ص (٥) .

خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦] . وكَمَا وَصَفَهُم عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِب ﷺ بقولِهِ: "**وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ فَمَا أَرَى الْيَوْمَ شَيْئاً يُشْبِهُهُمْ، لَقَدْ كَانُوا يُصْبِحُونَ صُفْرًا شُعْثًا غُبْرًا، بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ كَأَمْثَالِ رُكَبِ الْمِعْزَى، قَدْ بَاتُوا لِلَّهِ سُجَّدًا وَقِيَامًا يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ ﷻ، وَيُرَاوِحُونَ بَيْنَ جِبَاهِهِمْ وَأَقْدَامِهِمْ** " (١) .

فَهَذِهِ عَلامَةُ حَيَاةِ الأُمَّةِ وَسَبَبُ مَحَبَّةِ اللهِ ﷻ لَهَا وَرِفْعَتِهَا وَنُصْرَتِهَا عَلَى أَعْدَائِهَا، كَمَا جَاءَ فِي وَصْفِهَا "**رُهْبَانٌ بِاللَّيلِ لُيُوثٌ بِالنَّهَارِ**"، وَإِذَا فَقَدَتِ الأُمَّةُ هَذِهِ الصِّفَاتِ صَارَتْ أُمَّةً مَيْتَةً لا هَيبَةَ لَهَا فِي صُدُورِ أَعْدَائِهَا، وَلا قِيمَةَ لَهَا عِنْدَ رَبِّهَا، بَلْ تَصِيرُ مَبْغُوضَةً عِنْدَ اللهِ ﷻ، كَمَا قَالَ ﷺ: "**إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ كُلَّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ، سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ جِيفَةٍ بِاللَّيْلِ حِمَارٍ بِالنَّهَارِ، عَالِمٍ بِالدُّنْيَا جَاهِلٍ بِالآخِرَةِ** " (٢) .

فَهَلاكُ هَذِهِ الأُمَّةِ بِتَرْكِهَا لِمَسْؤُولِيَّتِهَا فِي تَبْلِيغِ رِسَالاتِ اللهِ إِلَى خَلْقِهِ، وَإِخْلادِهَا إِلَى الأَرْضِ، وَرِضَاهَا بِالحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالاطْمِئْنَانِ بِهَا، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ فَقَدْ نَقَضُوا عَهْدَ اللهِ وَبَيْعَتَهُ الَّتِي أَخَذَهَا اللهُ ﷻ عَلَيهِم بِقَولِهِ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ [التوب: ١١١]. وَيَكُونُونَ قَدْ نَقَضُوا عَهْدَ رَسُولِهِ ﷺ بِنُصْرَةِ دَعْوَتِهِ وَالتَّبْلِيغِ عَنْهُ، حَيْثُ أَمَرَ ﷺ أُمَّتَهُ بِقَولِهِ: "**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً** " (٣)، وَبِقَولِهِ : "**فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ** " (٤) . وَبِمَا رُوِيَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "**إِنَّ اللهَ ﷻ بَعَثَنِي رَحْمَةً لِلنَّاسِ كَافَّةً، فَأَدُّوا عَنِّي يَرْحَمْكُمُ اللهُ** " (٥) .

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٧٦/١) والدينوري في «المجالسة» (١٤٦٦) وابن عساكر في «التاريخ» (٤٩٢/٤٢) .

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه بسند حسن عن أبي هريرة برقم (٧٢) ورواه البيهقي في السنن برقم (٢٠٥٩٣) .

(٣) تقدم تخريجه .

(٤) تقدم تخريجه .

(٥) رواه الطبراني في الكبير عن المسور بن مخرمة برقم (١٦٤٤) وذكره ابن هشام في سيرته عن ابن اسحاق .

وَقَدْ تَعَوَّذَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أَنْ تَنقُضَ هَذِهِ الأُمَّةُ عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ، فَعندها يُسَلِّطُ اللَّهُ عَجَلٌ عَلَيهِمْ عَدُوّاً مِنْ غَيْرِهِمْ يَأْخُذُ بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ (١)، وَعِنْدَهَا تَتَدَاعَى الأُمَمُ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ كَمَا تَتَدَاعَى الأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا، كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ ﷺ، حَيثُ قَالَ: **"يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا"**، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ: **"أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ، يَنْتَزِعُ الْمَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ "** قَالَ: قُلْنَا: وَمَا الْوَهْنُ ؟ قَالَ: **"حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ "** (٢) .

وَقَدْ بيَّن ﷺ أَنَّ الأُمَّةَ إِذَا تَرَكَتْ مَسْؤُولِيَّتَهَا فِي إِعْلاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ وَنَشْرِ دِينِهِ، وَاشْتَغَلَتْ فِي تَكْمِيلِ شَهَوَاتِهَا، فَمَصِيرُهُم إِلَى الذِّلَّةِ حَتَّى يَعُودُوا إِلَى الْقِيَامِ بِمَسْؤُولِيَّتِهِم، فَقَالَ ﷺ : **"إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلاًّ لا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ "** (٣) .

وَتَقَدَّمَ قَولُ أَبِيْ أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ ﷺ فِي تَفْسِيرِ التَّهْلُكَةِ، حَيْثُ قَالَ: **"فَكَانَتِ التَّهْلُكَةُ فِي الإِقَامَةِ الَّتِي أَرَدْنَا أَنْ نُقِيمَ فِي أَمْوَالِنَا نُصْلِحُهَا "** (٤) .

وَلِذَلِكِ لَمَّا فُتِحَتِ الْعِرَاقُ زَمَنَ عُمَرَ ﷺ وَقَفَهَا عُمَرُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ خَوفاً مِنِ اشْتِغَالِهِمْ بِعِمَارَةِ الأَرْضِ وَتَعَطُّلِ الجِهَادِ الَّذِيْ بِهِ يَحْيَا الدِّينُ فِي الأَرْضِ، وَالَّذِيْ بِهِ مَلَكُوا هَذِهِ الأَرْضَ، بِالإِضَافَةِ إِلَى أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَنْتَفِعَ بِهَا مَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٥) .

---

(١) رواه ابن ماجه عن ابن عمر برقم (٤٠١٩) ورواه الحاكم برقم (٨٦٢٣) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، وقال في الزوائد: هذا حديث صالح للعمل به .

(٢) رواه أحمد في مسنده عن ثوبان (٢٢٣٩٧) وأبو داوود في سننه (٤٢٩٩) وإسناده صحيح .

(٣) رواه أحمد عن ابن عمر برقم (٤٨٢٥) وأبو داوود برقم (٣٤٦٢) والبيهقي في سننه برقم (١٠٤٨٤) وقال ابن عبدالهادي الحنبلي في «المحرر»: رجال إسناده رجال الصحيح. وقال المناوي: إسناد أحمد حسن، وصححه ابن القطان في «بيان الوهم والإيهام» .

(٤) تقدم تخريجه .

(٥) «المجموع شرح المهذب» (٢٨٨/٢١) و«مغني المحتاج» (٣١٠/٤) .

وقَالَ رضي الله عنه: "إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَومٍ فَأَعَزَّنَا اللهُ بالإِسْلامِ، فَمَهْمَا نَطْلُبُ الْعِزَّ بِغَيرِ مَا أَعزَّنَا اللهُ بِهِ أَذَلَّنا اللهُ " (١) .

وَلَمَّا بَلَغَهُ أَنَّ عَبدَ اللهِ بْنَ الْحُرِّ الْعَنْسيَّ رضي الله عنه زَرَعَ أَرْضاً بِالشَّامِ قَالَ لَهُ: "انْطَلَقْتَ إلى ذُلٍّ وَصَغَارٍ فِي أَعْنَاقِ الْكُفَّارِ فَجَعَلْتَهُ فِيْ عُنُقِكَ " (٢) .

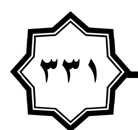
وَبِهَذَا الْمَعْنَى جَاءَ الأَثَرُ عَنْ رَسُول اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:"إِنَّ اللهَ جَعَلَ رِزْقَ هَذِهِ الأُمَّةِ فِي سَنَابِكِ خَيْلِهَا وَأَزِجَّةِ رِمَاحِهَا مَا لَمْ يَزْرَعُوا، فَإِذَا زَرَعُوا صَارُوا مِنَ النَّاسِ" (٣) .
أَيِ ارْتَفَعَتْ عَنْهُمْ نُصْرَةُ اللهِ وَتَأْيِيْدُهُ الْغَيْبِيُّ، وَوَكَلَهُمْ إِلى أَسْبَابِهِمْ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

*****

(١) رواه الحاكم في المستدرك عن طارق بن شهاب (٢٠٧) وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي .

(٢) أخرجه ابن عائذ في «المغازي»، من طريق ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب. كذا في «الإصابة» (٥/٨٤) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه عن مكحول مرسلاً برقم (١٩٤٨٧) وإسناده إلى مكحول صحيح، ويؤيده حديث "وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي " .



الْحَدِيْثُ الرَّابِعُ وَالثَّلاثُونَ

عَنْ عَبدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **"مَنْ صُدِعَ رَأْسُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاحْتَسَبَ، غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ مِنْ ذَنْبٍ "** [(١)] .

قوله (**مَنْ صُدِعَ رَأْسُهُ**) أَيْ حَصَلَ لَهُ وَجَعٌ فِي الرَّأْسِ، وَالصُّدَاعُ وَجَعٌ فِي الرَّأْسِ .

قوله (**فِي سَبِيلِ اللَّهِ**) أَيْ فِي الدَّعْوَةِ أَوِ الْقِتَالِ أَوْ طَلَبِ الْعِلْمِ أَوِ الْحَجِّ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ .

قوله (**فَاحْتَسَبَ**) أَيْ طَلَبَ بِذَلِكَ الثَّوَابَ مِنَ اللَّهِ سبحانه وتعالى .

قوله (**غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ مِنْ ذَنْبٍ**) وذَلِكَ مُكَافَأَةً لَهُ عَلَى مَا قَاسَاهُ مِنْ مَشَقَّةِ الْجُهْدِ لِإِحْيَاءِ الدِّيْنِ وَالدِّفَاعِ عَنْهُ وَمَشَقَّةِ الْوَجَعِ .

وَيُؤخَذُ مِنْهَ أَنَّهُ نَبَّهَ بِالصُّدَاعِ عَلَى غَيرِهِ مِنَ الأَمْرَاضِ، لاسِيَّمَا إِنْ كَانَ أَشَقَّ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ الصَّغَائِرُ [(٢)]، لأَنَّهُ لا بُدَّ فِي الْكَبَائِرِ مِنْ تَوبَةٍ، لِقَولِهِ ﷺ: **"الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ "** [(٣)] .

مَعْنَى الْحَدِيْثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ

بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ كُلَّ مَا يُصِيبُ الخَارِجَ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ مِنْ أَذىً أَوْ مَرَضٍ أَوْ نَحْوِهِ يُكَفِّرُ اللَّهُ سبحانه وتعالى بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ، وَيَكتُبُ لَهُ بِهِ عَمَلاً صَالِحاً، وَلَو كَانَ الْمَرَضُ يَسِيراً

(١) رواه الطبراني في الكبير كما في «مجمع الزوائد» (٣٨٠٠) والبزار في مسنده (٢٤٣٧) وقال المنذري في الترغيب والهيثمي في المجمع: إسناده حسن .

(٢) «فيض القدير» (٦/٢١٨) .

(٣) رواه مسلم عن أبي هريرة برقم (٥٧٤) .

كَالصُّدَاعِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "**لاَ تَزَالُ الْمَلِيلَةُ**[(١)] **وَالصُّدَاعُ بِالْعَبْدِ وَالأَمَةِ، وَإِنَّ عَلَيْهِمَا مِنَ الْخَطَايَا مِثْلَ أُحُدٍ، فَمَا يَدَعُهُمَا وَعَلَيْهِمَا مِثْقَالُ خَرْدَلَةٍ**" [(٢)]، وقَالَ ﷺ : "**صُدَاعُ الْمُؤمِنِ وشَوكَةٌ يُشَاكُهَا أَوْ شَيْءٌ يُؤْذِيهِ يَرفَعُهُ اللَّهُ بِهَا يَومَ القِيَامَةِ دَرَجَةً ويُكَفِّرُ عَنهُ بِهَا ذُنُوبَهُ** " [(٣)].

وَقَالَ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠]، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يَعْنِيْ وَلا مَجَاعَةً في إِقَامَةِ دِيْنِ اللَّهِ وَنُصْرَتِهِ، وَهَدْمِ مَنَارِ الْكُفْرِ " [(٤)] .

وَعَنْ أَبِيْ سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ هَذِهِ الأَمْرَاضَ الَّتِي تُصِيبُنَا، مَا لَنَا بِهَا ؟ قَالَ:"**كَفَّارَاتٌ**." فَقَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنْ قَلَّتْ؟ قَالَ: "**شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا**." قَالَ: فَدَعَا أُبَيٌّ عَلَى نَفْسِهِ، أَنْ لا يُفَارِقَهُ الْوَعَكُ حَتَّى يَمُوتَ فِي أَنْ لا يَشْغَلَهُ عَنْ حَجٍّ وَلا عُمْرَةٍ وَلا جِهَادٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلا صَلاةٍ مَكْتُوبَةٍ فِي جَمَاعَةٍ، قَالَ: فَمَا مَسَّ رَجُلٌ جِلْدَهُ بَعْدَهَا إِلاَّ وَجَدَ حَرَّهَا حَتَّى مَاتَ " [(٥)] .

وفي رِوَايَةٍ عَنْ أُبَيِّ بْن كَعْبٍ رضي الله عنه، أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا جَزَاءُ الْحُمَّى؟، قَالَ : "**تَجْرِي الْحَسَنَاتُ عَلَى صَاحِبِهَا مَا اخْتُلِجَ عَلَيْهِ قَدَمٌ أَوْ ضُرِبَ عَلَيْهِ عِرْقٌ** "، قَالَ أُبَيٌّ :

---

(١) الْمَلِيلَةُ: الْحُمَّى تَكُونُ فِي الْعَظْمِ .

(٢) رواه أبو يَعلى عن أبي هريرة برقم (٦١٥٠) وقال الهيثمي في المجمع و المنذري في الترغيب: رواته ثقات .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» عن أبي سعيد برقم (١٨٠) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٨٧٥) وقال المنذري في الترغيب: رواته ثقات .

(٤) «تفسير الطبري» (٨٤/٧) .

(٥) رواه أحمد في مسنده برقم (١١١٩٩) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٩٧١) والحاكم في المستدرك (٧٨٥٤) وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي .

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُمًّى لا تَمْنَعُنِي خُرُوجًا فِي سَبِيلِكَ، وَلا خُرُوجًا إِلى بَيْتِكَ، وَلا مَسْجِدِ نَبِيِّكَ، قَالَ: فَلَمْ يُمَسَّ أُبَيٌّ قَطُّ إِلاَّ وَبِهِ حُمًّى [(١)] .

وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ قَالَ: قُلْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً ؟ قَالَ: **"الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ "** [(٢)] .

وَعَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **"يَوَدُّ أَهْلُ الْعَافِيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُعْطَى أَهْلُ الْبَلاءِ الثَّوَابَ لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ قُرِضَتْ فِي الدُّنْيَا بِالْمَقَارِيضِ "** [(٣)] .

وَعَنْ أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **"إِنَّ الرَّجُلَ لَيَكُونُ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ الْمَنْزِلَةُ فَمَا يَبْلُغُهَا بِعَمَلِهِ، فَمَا يَزَالُ اللَّهُ يَبْتَلِيهِ بِمَا يَكْرَهُ حَتَّى يَبْلُغَهَا "** [(٤)] . وفي رِوَايَةٍ : **"يَكُونُ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ الْمَنْزِلَةُ الرَّفِيعَةُ "** .

قُلْتُ : وَمَعَ هَذِهِ الفَضَائِلِ وَغَيرِهَا، فَالأَفْضَلُ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ ﷻ الْعَافِيَةَ، كَمَا قَالَ ﷺ: **"سَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِنَّ النَّاسَ لَمْ يُعْطَوْا فِي الدُّنْيَا بَعْدَ الْيَقِينِ شَيْئًا أَفْضَلَ مِنَ الْمُعَافَاةِ** [(٥)] . وَقَالَ ﷺ: **"سَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ "** [(٦)] .

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٥٤٠) وفي الأوسط (٤٤٥) قال المنذري في الترغيب: وسنده لا بأس به .

(٢) رواه أحمد في مسنده (١٦٠٧) والترمذي (٢٣٩٨) وقال: حديث حسن صحيح، ورواه الحاكم في المستدرك (١٢٠) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين. ورواه ابن حبان في صحيحه بنحوه (٢٩٢٠) .

(٣) رواه الترمذي برقم (٢٤٠٢) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٧٩١) وصححه الضياء المقدسي فأخرجه في «المختارة» وجاء عن ابن مسعود موقوفاً، أخرجه الطبراني بسند جيد، ومثله له حكم الرفع. «تنْزيه الشريعة المرفوعة» للكناني (٢/٣٥٦) .

(٤) رواه ابن حبان في صحيحه برقم (٢٩٠٨) وأبو يعلى في مسنده (٦٠٩٥) وقال الهيثمي في المجمع: رجاله ثقات .

(٥) رواه أحمد في مسنده عن أبي بكر الصديق ﷺ برقم (٥) و(١٧) و(٣٤) وأبو يعلى في مسنده برقم (١٢١) بسند صحيح واللفظ له .

(٦) رواه الترمذي عن العباس بن عبد المطلب برقم (٣٥١٤) وقال: هذا حديث صحيح .

وَلَكِنْ إِذَا ابْتُلِيَ الإِنْسَانُ فَلْيَصْبِرْ، فَإِنَّ ذَلِكَ خَيرٌ لَهُ، كَمَا قَالَ ﷺ: "عَجَباً لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ " [(١)] .

فَائِـــــــــدَة

عَنْ أَبِيْ سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْراً وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ."[(٢)]، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّاب رضي الله عنه: "وَجَدْنَا خَيْرَ عَيْشِنَا بالصَّبْرِ."[(٣)]، وَقَالَ رضي الله عنه: "إِنَّ أَفْضَلَ عَيْشٍ أَدْرَكْنَاهُ بالصَّبْرِ، وَلَوْ أَنَّ الصَّبْرَ كَانَ مِنَ الرِّجَالِ كَانَ كَرِيْماً." [(٤)]، وَقَالَ رضي الله عنه:" لَوْ كَانَ الصَّبْرُ وَالشُّكْرُ بَعِيرَين لَمْ أُبَالِ أَيُّهُمَا رَكِبْتُ"[(٥)] . وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِيْ طَالِب رضي الله عنه:" أَلا إِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الإِيْمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ، فَإِذَا قُطِعَ الرَّأْسُ بَارَ الْجَسَدُ." ثُمَّ رَفَعَ صَوتَهُ فَقَالَ:" أَلا إِنَّهُ لا إِيْمَانَ لِمَن لا صَبرَ لَهُ"[(٦)]. وَقَالَ الحَسَنُ رحمه الله:" الصَّبْرُ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الخَيرِ، لا يُعْطِيهِ اللهُ إِلاَّ لِعَبْدٍ كَرِيمٍ عِنْدَهُ"[(٧)]. وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبدِ الْعَزِيزِ رحمه الله: "مَا أَنعَمَ اللهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً فَانْتَزَعَهَا مِنْهُ فَعَاضَهُ مَكَانَهَا الصَّبْرَ، إِلاَّ كَانَ مَا عَوَّضَهُ خَيراً مِمَّا انْتَزَعَهُ مِنْهُ."[(٨)]، وَقَالَ مَيْمُونُ بْنُ مَهْرَانَ رحمه الله: "مَا نَالَ أَحَدٌ شَيئاً مِنْ جَسِيمِ الْخَيْرِ نَبِيٌّ فَمَا دُونَهُ إِلاَّ بِالصَّبرِ " [(٩)] .

---

(١) رواه مسلم عن صهيب برقم (٢٩٩٩) .

(٢) رواه مسلم برقم (٢٤٧١) .

(٣) رواه أحمد في «الزهد» (٦١٢) وابن المبارك في «الزهد» (٦٣٠) وأبو نعيم في «الحلية» (١/٥٠) وابن أبي الدنيا في «الصبر» (٤٧) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصبر » برقم (٦) . ورواه أبو نعيم في «الحلية» مرفوعاً (٨/٢٩٠) ولا يصح رفعه .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في «الصبر» برقم (٧) .

(٦) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٠٤٣٩) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٠) وأبو نعيم في «الحلية» (١/٧٦) وابن أبي الدنيا في «الصبر» برقم (٨) .

(٧) رواه ابن أبي الدنيا في «الصبر» برقم (١٦) .

(٨) «الرسالة القشيرية» ص (٢٥٨) .

(٩) رواه ابن أبي الدنيا في «الصبر» برقم (٢٢) والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٠٣٨) .

وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ شُبْرُمَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ إِذَا نَزَلَ بِهِ بَلاءٌ قَالَ: "**سَحَابَةٌ ثُمَّ تَنْقَشِعُ**". [(١)]، وَقَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا** ﴾ **[السجدة: ٢٤]**: "**لَمَّا أَخَذُوا بِرَأْسِ الأَمْرِ جَعَلنَاهُم رُؤُوساً**" [(٢)]، وَقَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: "**ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى الصَّبْرَ فِي الْقُرْآنِ فِي تِسْعِيْنَ مَوْضِعاً**" [(٣)] .

وَالصَّبْرُ فِي الدَّعْوَةِ إِلى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَهَمِّ الْمُهِمَّاتِ وَأَعْظَمِ الْوَاجِبَاتِ عَلَى الدُّعَاةِ إِلى اللَّهِ تَعَالَى، وَالصَّبْرُ وَإِنْ كَانَ وَاجِباً بِأَنْوَاعِهِ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، فَإِنَّهُ عَلَى الدُّعَاةِ إِلى اللَّهِ مِنْ بَابِ أَوْلَى، وَلِهَذَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ إِمَامَ الدُّعَاةِ وَقُدْوَتَهُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: ﴿ **وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ** ﴾ **[النحل: ١٢٧]**، وَقَالَ: ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ** ﴾ **[الأحقاف: ٣٥]**، وَقَالَ: ﴿ **فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا** ﴾ **[المعارج: ٥]**. وَكَانَ ﷺ إِمَاماً لِلصَّابِرِينَ، وَقُدْوَةً فِي الثَّبَاتِ عَلَى الأَمْرِ وَالْعَزِيْمَةِ عَلَى الرُّشْدِ، فَلَمَّا جَاءَهُ قَوْمُهُ يَعْرِضُونَ عَلَيهِ الدُّنيا وَزِيْنَتَهَا مُقَابِلَ أَنْ يَتَخَلَّى عَنْ هَذِهِ الدَّعْوَةِ قَالَ ﷺ: "**وَاللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِيْنِي وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ مَا تَرَكْتُهُ.**"[(٤)]، وَلَمَّا آذَوْهُ وَوَجَّهُوا إِلَيهِ أَصْنَافاً مِنَ الإِيْذَاءِ وَالْهَجْرِ صَبَرَ عَلَى ذَلِكَ، بَلْ كَانَ ﷺ يَدْعُو لأَشَدِّ النَّاسِ عِدَاءً لَهُ بِأَنْ يُعِزَّ اللَّهُ بِهِ الإِسْلامَ .

وَسُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي عِبَادِهِ أَنْ يَبْتَلِيَهُم لِيُمَحِّصَهُم، وَيَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ، وَالصَّادِقَ مِنَ الْكَاذِبِ، وَالْمُؤْمِنَ مِنَ الْمُنَافِقِ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ نَصِيباً مِنْ هَذَا الْبَلاءِ هُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالدُّعَاةُ

(١) «الرسالة القشيرية» ص (٢٥٨) .

(٢) «الرسالة القشيرية» ص (٢٥٩) و«تفسير ابن كثير» (٣/٤٤٦) .

(٣) «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» ص (١٧٦) .

(٤) رواه ابن إسحاق في «سيرته» (٢/١٣٥) ومن طريقه أخرجه ابن جرير الطبري في «تاريخه» (١/٥٤٥) والبيهقي في «الدلائل» (٢/١٨٧) وإسناده منقطع، ولكن رواه البخاري في «التاريخ» عن عقيل بن أبي طالب (٧/٥٠) والطبراني في الكبير (٥١١) والحاكم في المستدرك (٦٤٦٧) وأبو يعلى في مسنده (٦٨٠٤) بإسناد حسن، ولفظه "**وَاللَّهِ مَا أَنَا بِأَقْدَرَ أَنْ أَدَعَ لَكُمْ ذَلِكَ عَلَى أَنْ تُشْعِلُوا لِيْ مِنْهَا شُعْلَةً**.- يَعْنِي الشَّمْسَ-" قال الهيثمي في المجمع: رجال أبي يعلى رجال الصحيح .

إلى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ١ – ٣] ، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴾ [محمد: ٣١]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وَتَبْرُزُ أَهَمِيَّةُ الصَّبرِ فِي الدَّعْوَةِ إلى اللَّهِ تَعَالَى فِي عَدَّةِ أُمُورٍ، مِنْهَا :

أَوَّلاً: أَنَّ الابْتِلاءَ لِلدُّعَاةِ إلى اللَّهِ تَعَالَى لا بُدَّ مِنْهُ، فَلَو سَلِمَ أَحَدٌ مِنَ الأَذَى لَسَلِمَ رُسُلُ اللَّهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وعَلَى رَأْسِهِم إمَامُهُم مُحَمَّدُ بْنُ عَبدِ اللَّهِ ﷺ، فَقَدْ أُوذُوا فَصَبَرُوا وَجَاهَدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ حَتَّى أَتَاهُم نَصْرُ اللَّهِ عَلَى أَعْدَاءِ دَعْوَةِ الْحَق، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٤] .

ثَانِياً: أَنَّ الدَّعْوَةَ إلى اللَّهِ سَبِيلُهَا طَوِيلٌ، تَحُفُّ بِهِ الْمَتَاعِبُ وَالْمَصَاعِبُ وَالْمُعَارَضَاتُ، لأَنَّ الدُّعَاةَ إلى اللَّهِ يَطْلُبُونَ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَتْرُكُوا أَهْوَائَهُم وَشَهَوَاتِهِمُ الَّتِي لا يَرْضَاهَا اللَّهُ تَعَالَى وَيَنْقَادُوا لأَوَامِرِ اللَّهِ، وَيَقِفُوا عِنْدَ حُدُودِهِ، وَيَعْمَلُوا بِشَرَائِعِهِ الَّتِي شَرَعَ، فَيَتَّخِذُ أَعْدَاءُ الدَّعْوَةِ مِنْ هَذِهِ الدَّعْوَةِ عَدُوّاً يُحَارِبُونَهُ بِكُلِّ سِلاحٍ، وَأَمَامَ هَذِهِ الْقُوَّةِ لا يَجِدُ الدُّعَاةُ مَفَرّاً مِنَ الاعْتِصَامِ بِالْيَقِينِ وَالصَّبْرِ، لأَنَّ الصَّبرَ سَيْفٌ لا يَنْبُو، وَمَطِيَّةٌ لا تَكْبُو، وَنُورٌ لا يَخْبُو(١) .

ثَالِثاً: أَنَّ الدَّاعِيَ إلى اللَّهِ تَعَالَى لا بُدَّ لَهُ أَنْ يَتَخَلَّقَ مَعَ النَّاسِ بِالأَخْلاقِ الْفَاضِلَةِ الْمُفْضِيَةِ إِلى هِدَايَةِ النَّاسِ، فَيُعْطِيَ مَنْ حَرَمَهُ، وَيَصِلَ مَنْ قَطَعَهُ، وَيَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَيُحْسِنَ إِلى مَنْ أَسَاءَ إِلَيهِ، وَيَدْعُوَ لَهُ بِالْهِدَايَةِ وَالْمَغْفِرَةِ، كَمَا كَانَ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: " كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَحْكِي نَبِيّاً مِنَ الأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَومُهُ فَأَدْمَوْهُ، وَهُوَ

(١) «أنواع الصبر ومجالاته» للقحطاني ص (٥) .

يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: **اللَّهُمَّ اغْفِرِ لِقَومِي فَإِنَّهُم لا يَعلَمُونَ.** "[١]، فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ الْعَفْوَ عَنْهُمْ، وَالدُّعَاءَ لَهُم، وَالاِعْتِذَارَ عَنْهُمْ، وَالاِسْتِعْطَافَ بِقَولِهِ "**لِقَومِي**"؛ وَلَمَّا ضَرَبَ أَهْلُ الطَّائِفِ النَّبِيَّ ﷺ حِينَمَا ذَهَبَ يَدْعُوهُم إلى اللهِ، وَجَاءَهُ جِبْرِيلُ وَمَعَهُ مَلَكُ الْجِبَالِ وَخَيَّرَهُ فِي أَنْ يُطْبِقَ عَلَيهِمُ الأَخْشَبَيْنِ، قَالَ ﷺ: " **بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلابِهِم مَن يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لا يُشرِكُ بِهِ شَيئاً** " [٢] .

وَالتَّخَلُّقُ بِهَذِهِ الأَخْلاقِ شَدِيدٌ عَلَى النَّفْسِ، يَحْتَاجُ لِدَرَجَةٍ عَالِيَةٍ مِنَ الصَّبرِ، فَلِذَلِكَ كَانَ أَثْقَلَ شَيْءٍ فِي الْمِيزَانِ حُسْنُ الْخُلُقِ، لأَنَّهُ شَدِيدٌ عَلَى النَّفْسِ، كَمَا قَالَ ﷺ: "**مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ يَومَ الْقِيَامَةِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ**". [٣] وَقَالَ ﷺ: "**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ**".[٤]، وَقَالَ ﷺ:" **مَا مِنْ جُرعَةٍ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ مِنْ جُرْعَةِ غَيظٍ كَظَمَهَا عَبْدٌ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ** ". [٥]، وَقَالَ ﷺ:" **مَنْ كَظَمَ غَيظاً وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ دَعَاهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى رُؤُوسِ الْخَلائِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ مَا شَاءَ** ".[٦]، وَقَالَ ﷺ :" **لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ** " [٧] .

---

(١) رواه البخاري (٣٤٧٧) ومسلم (٤٧٤٧) .

(٢) رواه البخاري عن عائشة (٣٢٣١) ومسلم (٤٧٥٤) .

(٣) رواه الترمذي عن أبي الدرداء (٢٠٠٣) والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٠) وأبو داوود (٤٨٠١) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح .

(٤) رواه أحمد في مسنده (٢٤٥٩٥) وأبو داوود (٤٨٠٠) والحاكم في المستدرك (١٩٩) وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي .

(٥) رواه أحمد في مسنده عن ابن عباس (٣٠١٥) وابن ماجه عن ابن عمر (٤١٨٩) وقال البوصيري في الزوائد: إسناده صحيح رجاله ثقات .

(٦) رواه أحمد في مسنده عن معاذ بن أنس (١٥٦٣٧) وأبو داوود (٤٧٧٩) وابن ماجة (٤١٨٦) والترمذي (٢٠١٢) وقال: حديث حسن .

(٧) رواه البخاري عن أبي هريرة (٦١١٤) ومسلم (٦٨٠٩) .

فَالصَّبْرُ يَشْتَمِلُ عَلَى أَكْثَرِ مَكَارِمِ الأَخْلاقِ، فَيَدْخُلُ فِيهِ الْحِلْمُ، فَإِنَّهُ صَبْرٌ عَنْ دَوَاعِي الإِنْتِقَامِ عِنْدَ الْغَضَبِ، وَالأَنَاةُ صَبْرٌ عَنْ إِجَابَةِ دَوَاعِي الْعَجَلَةِ، وَالْعَفْوُ وَالصَّفْحُ وَدَفْعُ السَّيِّئَةِ بِالْحَسَنَةِ صَبْرٌ عَنْ دَوَاعِي الإِنْتِقَامِ، وَالْجُودُ وَالْكَرَمُ صَبْرٌ عَنْ دَوَاعِي الإِمْسَاكِ، وَالْكَيْسُ صَبْرٌ عَنْ دَوَاعِي الْكَسَلِ وَالْخُمُولِ، وَالْعَدْلُ صَبْرٌ إِذَا تَعَلَّقَ بِالتَّسْوِيَةِ بَينَ الْمُتَمَاثِلَين، وَسَعَةُ الصَّدْرِ صَبْرٌ عَنِ الضَّجَرِ، وَالْكِتْمَانُ وَحِفظُ السِّرِّ صَبْرٌ عَنْ إِظْهَارِ مَا لا يَحْسُنُ إِظْهَارُهُ، وَالشَّجَاعَةُ صَبْرٌ عَنْ إِجَابَةِ دَوَاعِي الْفِرَارِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَهَمِّيَّةِ الصَّبرِ فِي الدَّعْوَةِ إِلى الله، وَأَنَّ الدَّاعِيَةَ لا يَسعُهُ أَنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْهُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ .

رَابعاً: الصَّبرُ فِي مَقَامِ الدَّعْوَةِ إِلى الله هُوَ وَصْفُ الأَنْبيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ عليهم السلام، وَعَلَيهِ مَدَارُ نَجَاحِ دَعْوَتِهِم إِلى الله تبارك وتعالى، فَالدَّاعِيَةُ إِذَا فَقَدَ الصَّبرَ كَانَ كَمَنْ يُرِيدُ السَّفَرَ بِبَحْرٍ لُجِّيٍّ بِغَيرِ مَرْكَبٍ، قَالَ تبارك وتعالى: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم: ٦٠]، لِذَلِكَ تَجِدُ آيَاتِ الدَّعْوَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ تَتْلُوهَا الْوَصِيَّةُ بِالصَّبرِ، كَمَا قَالَ تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣] ثُمَّ قَالَ بَعْدَهَا: ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٥]، وقَالَ تبارك وتعالى:﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[آل عمران: ١١٠] ثُمَّ قَالَ بَعدَهَا: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ﴾[آل عمران: ١١١]. وَقَالَ فِي آخِرِ السُّورَةِ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وَقَالَ تبارك وتعالى فِي وَصِيَّةِ لُقْمَانَ لابْنِهِ: ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ﴾ [لقمان: ١٧]، وَقَالَ سبحانه وتعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ – ٣]، فَهُوَ عِنْدَمَا أَمَرَهُ بِتَكْمِيلِ نَفْسِهِ بِطَاعَةِ الله، أَمَرَهُ أَنْ يُكَمِّلَ غَيرَهُ، وَأَنْ يَصبِرَ عَلَى مَا يَنْزِلُ بِهِ مِنَ الشَّدَائِدِ وَالابْتِلاءِ .

خَامِساً: الدَّاعِيَةُ إِلى الله سبحانه وتعالى لا يَكُونُ قُدْوَةً فِي الْخَيرِ مُطْلَقاً إِلاَّ بِالصَّبرِ وَالثَّبَاتِ

عَلَى دَعْوَتِهِ، كَمَا قَالَ ﷻ فِي صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ أَنَّهُم يَدْعُونَهُ بِقَولِهِم: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، وَهَذِهِ الإِمَامَةُ فِي الدِّينِ لا تَكُونُ إِلاَّ بِالصَّبر، فَقَدْ جَعَلَ اللهُ ﷻ الإِمَامَةَ فِي الدِّينِ مَوْرُوثَةً بِالصَّبرِ وَالْيَقِينِ . كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] [1] .

سَادِساً: رَتَّبَ اللهُ ﷻ خيرَاتِ الدُّنيَا وَالآخِرَةِ عَلَى الصَّبر، فَقَدْ جَاءَ فِي فَضَائِلِ الصَّبر مَا لَمْ يَأْتِ فِي غَيرِهِ مِنَ الْخِصَالِ، وَذَلِكَ مَا دَامَ قَلَمُ التَّكْلِيفِ جَارِياً عَلَى الْعَبدِ فَإِنَّهُ لا يَسْتَغْنِي عَنِ الصَّبرِ فِي حَالٍ مِنَ الأَحْوَالِ، فَإِنَّهُ بَينَ أَمْرٍ يَجبُ امْتِثَالُهُ وَتَنْفِيذُهُ، وَنَهْيٍ يَجبُ عَلَيهِ اجْتِنَابُهُ وَتَرْكُهُ، وَقَدَرٍ يَجبُ عَلَيهِ الصَّبرُ عَلَيهِ اتِّفَاقاً، وَنعْمَةٍ يَجبُ عَلَيهِ شُكْرُ الْمُنْعِمِ عَلَيهَا، وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الأَحْوَالُ لا تُفَارِقُهُ، فَالصَّبرُ لازِمٌ لَهُ إِلَى الْمَمَاتِ؛ **فَمِنْ فَضَائِلِ الصَّبرِ** :

أَوَّلاً: تَعْلِيقُ الْفَلاحِ بِهِ، كَقَولِهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، فَعَلَّقَ الْفَلاحَ بِمَجْمُوعِ هَذِهِ الأُمُورِ .

الثَّانِيْ: الإِخْبَارُ عَنْ مُضَاعَفَةِ أَجْرِ الصَّابِرِ عَلَى غَيرِهِ، كَقَولِهِ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٤]، وَقَولِهِ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. قَالَ سُلَيمَانُ بْنُ الْقَاسِمِ رَحِمَهُ اللهُ: "**كُلُّ عَمَلٍ يُعْرَفُ ثَوَابُهُ إِلاَّ الصَّبرَ**، قَالَ ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، قَالَ: **كَالْمَاءِ الْمُنْهَمِرِ** " [2] .

---

(١) «أنواع الصبر ومجالاته» للقحطاني ص (٨-٩) .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الصبر» رقم (٢٠) .

الثَّالِثُ: تَعْلِيقُ الإِمَامَةِ فِي الدِّينِ بِهِ وَبِالْيَقِينِ، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]. فَبِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ تُنَالُ الإِمَامَةُ فِي الدِّينِ .

الرَّابِعُ: ظَفَرُهُمْ بِمَعِيَّةِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ لَهُمْ، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦]، كَمَا قَالَ أَبُو عَلِيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ:" فَازَ الصَّابِرُونَ بِعِزِّ الدَّارَيْنِ، لأَنَّهُم نَالُوا مِنَ اللَّهِ الْمَعِيَّةَ " (١) .

الْخَامِسُ: أَنَّهُ جَمَعَ لِلصَّابِرِينَ ثَلاثَةَ أُمُورٍ لَمْ يَجْمَعْهَا لِغَيرِهِم، وَهِيَ الصَّلاةُ مِنْهُ عَلَيهِم، وَرَحْمَتُهُ لَهُمْ، وَهِدَايَتُهُ إِيَّاهُمْ: ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾[البقرة: ١٥٥-١٥٧]، وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ - وَقَدْ عُزِّيَ عَلَى مُصِيبَةٍ نَالَتْهُ - فَقَالَ:" مَا لِيْ لا أَصْبِرُ وَقَدْ وَعَدَنِيْ اللَّهُ عَلَى الصَّبْرِ ثَلاثَ خِصَالٍ، كُلُّ خَصْلَةٍ مِنْهَا خَيرٌ مِنَ الدُّنيَا وَمَا عَلَيهَا " (٢) .

السَّادِسُ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ الصَّبرَ عَوناً وَعُدَّةً، وَأَمَرَ بِالاِسْتِعَانَةِ بِهِ، فَقَالَ:﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ [البقرة: ٤٥]، فَمَنْ لا صَبْرَ لَهُ لا عَونَ لَهُ .

السَّابِعُ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَّقَ النَّصْرَ بِالصَّبْرِ وَالتَّقْوَى، فَقَالَ: ﴿ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٢٥]، وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: "وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ " (٣) .

---

(١) انظر قول الأستاذ أبي علي الدقاق في «الرسالة القشيرية» ص (٢٥٧) .

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» عن مطرق بن عبد الله بن الشخير (٢٤٤/٧) .

(٣) رواه أحمد في مسنده عن ابن عباس (٢٨٠٣) والحاكم في المستدرك (٦٣٠٣) وحسنه السخاوي في «المقاصد الحسنة» .

الثَّامِنُ: أَنَّهُ ﷻ جعَلَ الصَّبرَ وَالتَّقْوَى جُنَّةً - أَيْ وِقَايَةً عَظِيمَةً مِنْ كَيدِ الْعَدُوِّ وَمَكْرِهِ- فَمَا اسْتَجَنَّ الْعَبدُ مِنْ ذَلِكَ بِجُنَّةٍ أَعْظَمَ مِنهَا، فَقَالَ ﷻ: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠] .

التَّاسِعُ: أَنَّهُ ﷻ أَخْبَرَ أَنَّ مَلائِكَتَهُ تُسلِّمُ عَلَيهِمْ فِي الْجَنَّةِ بِصَبْرِهِمْ، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤] .

الْعَاشِرُ: أَنَّهُ ﷻ أَبَاحَ لَهُمْ أَنْ يُعَاقِبوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبُوا بِهِ، ثُمَّ أَقْسَمَ قَسَماً مُؤَكَّداً غَايَةَ التَّوكِيدِ أَنَّ صَبْرَهُم خَيْرٌ لَهُم، فَقَالَ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]. فَتَأَمَّلْ هَذَا التَّأْكِيدَ بِالْقَسَمِ الْمَدْلُولِ عَلَيهِ بِالْوَاوِ ثُمَّ بِاللاَّمِ بَعْدَهُ، ثُمَّ بِاللاَّمِ الَّتِي فِي الجَوَابِ .

الْحَادِيْ عَشَرَ: أَنَّهُ ﷻ رَتَّبَ الْمَغْفِرَةَ وَالأَجْرَ الْكَبِيرَ عَلَى الصَّبرِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَقَالَ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١١]. وَهَؤُلاءِ اسْتَثْنَاهُم مِنْ نَوعِ الإِنْسَانِ الْمَذْمُومِ الْمَوْصُوفِ بِالْيَأْسِ وَالْكُفْرِ عِنْدَ الْمَعْصِيَةِ، وَالْفَرَحِ وَالْفَخْرِ عِنْدَ النِّعْمَةِ، وَلا خَلاصَ مِنْ هَذَا الذَّمِّ إِلاَّ بِالصَّبرِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، كَمَا لا تُنَالُ الْمَغْفِرَةُ وَالأَجْرُ الْكَبِيرُ إِلاَّ بِهِمَا .

الثَّانِي عَشَرَ: أَنَّهُ ﷻ جعَلَ الصَّبرَ عَلَى الْمَصَائِبِ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ، أَيْ مِمَّا يُعْزَمُ عَلَيهِ مِنَ الأُمُورِ الَّتِي إِنَّمَا يُعْزَمُ عَلَى أَجَلِّهَا وَأَشْرَفِهَا، فَقَالَ: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]، وَقَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧] .

الثَّالِثُ عَشَرَ: أَنَّهُ ﷻ وَعَدَ الْمُؤْمِنِينَ بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ، وَهِيَ كَلِمَتُهُ الَّتِيْ سَبَقَتْ لَهُمْ، وَهِيَ الْكَلِمَةُ الْحُسْنَى، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ إِنَّمَا نَالَهُمْ بِالصَّبْرِ، فَقَالَ ﷻ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [الأعراف: ١٣٧] .

الرَّابعُ عَشَرَ: أَنَّهُ ﷻ عَلَّقَ مَحَبَّتَهُ بِالصَّبرِ، وَجعَلَها لأَهْلِهِ، فَقَالَ: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] .

الْخَامِسُ عَشَرَ: أَنَّهُ أَخْبَرَ عَنْ خِصَالِ الْخَيرِ أَنَّهُ لا يُلَقَّاهَا إلاَّ الصَّابِرُونَ في مَوضِعَين مِنْ كِتَابهِ، مِنْ «سُورَةِ الْقَصَص» في قِصَّةِ قَارُونَ، وَأَنَّ الَّذينَ أُوتُوا الْعِلْمَ قَالُوا لِلَّذِينَ تَمَنَّوْا مِثْلَ مَا أُوتِيَ: ﴿وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠]. وَفي «سُورَةِ فُصِّلَتْ» حَيْثُ أَمَرَ الْعَبْدَ أَنْ يَدْفَعَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ صَارَ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ حَبِيبٌ قَرِيبٌ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ [فصلت: ٣٥] .

السَّادِسُ عَشَرَ: أَنَّهُ ﷻ أَخبَرَ أَنَّهُ إِنَّمَا يَنْتَفِعُ بآيَاتِهِ وَيَتَّعِظُ بِهَا، الصَّبَّارُ الشَّكُورُ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾[إبراهيم: ٥] و[لقمان: ٣١] و[سبأ: ١٥] و[الشورى: ٣٣]، فَهَذِهِ أَرْبَعَةُ مَوَاضِعَ فِي الْقُرْآنِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ آيَاتِ الرَّبِّ إِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِهَا أَهْلُ الصَّبْرِ وَالشُّكْرِ .

السَّابِعُ عَشَرَ: أَنَّهُ حَكَمَ بِالْخُسْرَانِ حُكْماً عَامّاً عَلَى كُلِّ مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الحَقِّ وَالصَّبْرِ، – بِأَنْ يَعْمَلَ بِهِمَا، وَيُوصِيَ غَيْرَهُ بِهِمَا – وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لا رَابِحَ سِوَاهُم، فَقَال ﷻ: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ١–٣]. قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"لَوْ فَكَّرَ النَّاسُ كُلُّهُمْ فِي هَذِهِ الآيَةِ لَوَسِعَتْهُمْ "** .

الثَّامِنُ عَشَرَ: أَنَّهُ ﷻ خَصَّ أَصْحَابَ الْمَيْمَنَةِ بِأَنَّهُم أَهْلُ الصَّبْرِ وَالرَّحْمَةِ، الَّذِينَ قَامَتْ بِهِمْ هَاتَانِ الْخَصْلَتَانِ، وَوَصَّوْا بِهِمَا غَيْرَهُمْ، قَالَ ﷻ: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ١٧ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾[البلد: ١٧–١٨] .

التَّاسِعُ عَشَرَ: أَنَّهُ ﷻ قَرَنَ الصَّبْرَ بِأَرْكَانِ الإِسْلامِ وَمَقَامَاتِ الإِيْمَانِ كُلِّهَا، فَقَرَنَهُ بِالصَّلاةِ، كَقَولِهِ: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وَقَرَنَهُ بالأَعْمَالِ

الصَّالِحَةِ عُموماً، كقَولِه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ [هود: ١١]، وجعَلَه قرينَ التَّقْوى، كقَولِه ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾ [يوسف: ٩٠]، وجَعَلَه قَرينَ الشُّكْرِ، كقَولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ [إبراهيم: ٥]، وجَعَلَهُ قَرينَ الْحَقِّ، كقَولِه: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ٣]، وجَعَلَه قَرينَ الرَّحْمَةِ، كقَولِه: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧]، وجَعَلَه قَرينَ الْيَقِين، كقَولِه: ﴿لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، وجَعَلَهُ قَرينَ الصِّدْق، كقَولِه: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وجَعَلَهُ سَبَبَ مَحَبَّتِهِ ومَعِيَّتِهِ وعَونِه ونَصْرِه وحُسْنِ جزَاءِه، ويَكْفِيهِ بَعْضُ ذَلِكَ شَرَفاً وفَضْلاً [(١)] .

وَالصَّبْرُ ثَلاثَةُ أَقْسَامٍ :

الْقِسْمُ الأَوَّلُ: صَبرٌ عَلَى طَاعَةِ اللهِ ﷻ، وَيحْتَاجُ الْعَبْدُ هَا هُنَا إلى الصَّبْرِ في ثَلاثَةِ أَحْوَالٍ :

أَحَدُهَا: قَبْلَ الشُّرُوعِ فِيهَا، بِتَصْحِيحِ النِّيَّةِ وَالإِخْلاصِ وَتَجَنُّبِ دَوَاعِي الرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ، وَعَقْدِ الْعَزْمِ عَلَى تَوْفِيَةِ الْمَأْمُورِ بِهِ .

الْحَالَةُ الثَّانِيَةُ: الصَّبْرُ حَالَ الْعَمَلِ، فَيُلازِمُ الصَّبْرَ عَنْ دَوَاعِي التَّقْصِيرِ مِنْهُ وَالتَّفْرِيطِ، وَيُلازِمُ الصَّبْرَ عَلَى اسْتِصْحَابِ ذِكْرِ النِّيَّةِ، وَعَلَى حُضُورِ الْقَلْبِ بَيْنَ يَدَي الْمَعْبُودِ، وَأَنْ لا يَنْسَاهُ فِي أَمْرِهِ، فَلَيسَ الشَّأْنُ فِي فِعْلِ الْمَأْمُورِ، بَلِ الشَّأْنُ كُلُّ الشَّأْنِ أَنْ لا يَنْسَى الآمِرَ حَالَ الإِتْيَانِ بِأَمْرِهِ، بَلْ يَكُونُ مُسْتَصْحِباً لِذِكْرِهِ فِي أَمْرِهِ .

الْحَالَةُ الثَّالِثَةُ: الصَّبْرُ بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنَ الْعَمَلِ؛ وَذَلِكَ مِنْ وُجُوهٍ :

---

(١) «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» لابن القيم باختصار يسير (١/ ١٢٩ – ١٣٦) .

أَحَدُهَا: أَنْ يُصَبِّرَ نَفْسَهُ عَنِ الإِتْيَانِ بِمَا يُبْطِلُهُ، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، فَلَيْسَ الشَّأْنُ فِي الإِتْيَانِ بِالطَّاعَةِ، إِنَّمَا الشَّأْنُ فِي حِفْظِهَا عَمَّا يُبْطِلُهَا .

وَالثَّانِيْ: أَنْ يَصْبِرَ عَنْ رُؤْيَتِهَا وَالْعُجْبِ بِهَا وَالتَّكَبُّرِ وَالتَّعَاظُمِ بِهَا، فَإِنَّ هَذَا أَضَرُّ عَلَيهِ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْمَعَاصِي الظَّاهِرَةِ .

الثَّالِثُ: أَنْ يَصْبِرَ عَنْ نَقْلِهَا مِنْ دِيْوَانِ السِّرِّ إِلى دِيْوَانِ الْعَلانِيَةِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ سِرّاً بَيْنَهُ وَبَينَ اللهِ، فَيُكْتَبُ لَهُ فِي دِيْوَانِ السِّرِّ، فَإِذَا تَحَدَّثَ بِهِ نُقِلَ إِلى دِيوَانِ الْعَلانِيَةِ، فَلا يَظُنُّ أَنَّ بِسَاطَ الصَّبْرِ انْطَوَى بِالْفَرَاغِ مِنَ الْعَمَلِ .

وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِيْ: فَهُوَ الصَّبْرُ عَنِ الْمَعَاصِي، وَأَعْظَمُ مَا يُعِينُ عَلَيهِ قَطْعُ الْمَأْلُوفَاتِ، وَمُفَارَقَةُ الأَعْوَانِ عَلَيهَا فِي الْمُجَالَسَةِ وَالْمُحَادَثَةِ، وَقَطْعُ الْعَوَائِدِ .

وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّالِثُ: فَهُوَ الصَّبْرُ عَلَى الْمَصَائِبِ الَّتِي لا صُنْعَ لِلْعَبْدِ فِيهَا، **وَهَذَا نَوعَانِ**:

أَحَدُهُمَا: مَا لا صُنْعَ لآدَمِيٍّ فِيهِ، وَهُوَ أَرْبَعَةُ مَقَامَاتٍ :

أَحَدُهَا: مَقَامُ الْعَجْزِ وَالشَّكْوَى وَالتَّسَخُّطِ، وَهَذَا لا يَفْعَلُهُ إِلاَّ أَقَلُّ النَّاسِ عَقْلاً وَدِيناً وَمُرُوءَةً، وَهُوَ أَعْظَمُ الْمُصِيبَتَيْنِ .

الْمَقَامُ الثَّانِيْ: مَقَامُ الصَّبْرِ، إِمَّا للهِ، وَإِمَّا لِلْمُرُوءَةِ الإِنْسَانِيَّةِ .

الْمَقَامُ الثَّالِثُ: مَقَامُ الرِّضَى، وَهُوَ أَعْلَى مِنْ مَقَامِ الصَّبْرِ .

الْمَقَامُ الرَّابِعُ: مَقَامُ الشُّكْرِ، وَهُوَ أَعْلَى مِنْ مَقَامِ الرِّضَى، فَإِنَّهُ يَشْهَدُ الْبَلِيَّةَ نِعْمَةً، فَيَشْكُرُ الْمُبْتَلِيَ عَلَيهَا .

وَأَمَّا النَّوعُ الثَّانِيْ: وَهُوَ مَا أَصَابَهُ مِنْ قِبَلِ النَّاسِ، فَلَهُ فِيهِ هَذِهِ الْمَقَامَاتُ، وَتَنْضَافُ إِلَيْهَا أَرْبَعَةٌ أُخْرَى :

أَحَدُهَا: مَقَامُ الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ .

الْمَقَامُ الثَّانِيْ: مَقَامُ سَلامَةِ الْقَلْبِ مِنْ إِرَادَةِ التَّشَفِّي وَالانْتِقَامِ، وَفَرَاغِهِ مِنْ أَلَمِ مُطَالَعَةِ الْخِيَانَةِ كُلَّ وَقْتٍ وَضِيْقِهِ بِهَا .

الْمَقَامُ الثَّالِثُ: مَقَامُ شُهُودِ الْقَدَرِ، وَأَنَّهُ وَإِنْ كَانَ ظَالِماً بِإِيْصَالِ هَذَا الأَذَى إِلَيْكَ، فَالَّذِيْ قَدَّرَهُ عَلَيكَ وَأَجْرَاهُ عَلَى يَدِ هَذَا الظَّالِمِ لَيْسَ بظَالِمٍ، وَأَذَى النَّاسِ مِثْلُ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ لا حِيْلَةَ فِي دَفْعِهِ، فَالْمُتَسَخِّطُ مِنْ أَذَى الْحَرِّ وَالْبَردِ غَيرُ حَازِمٍ، وَالْكُلُّ جَارٍ بِالْقَدَرِ، وَإِنِ اخْتَلَفَتْ طُرُقُهُ وَأَسْبَابُهُ .

الْمَقَامُ الرَّابِعُ: مَقَامُ الإِحْسَانِ إِلى الْمُسِيْءِ، وَمُقَابَلَةِ إِسَاءَتِهِ بِإِحْسَانِكَ، وَفِي هَذَا الْمَقَامِ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْمَصَالِحِ مَا لا يَعْلَمُهُ إِلاَّ اللَّهُ [1]، وَهَذَا مَقَامُ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ وَأُولِيْ الْعَزْمِ مِنْهُم فِي صَبْرِهِم عَلَى دَعْوَتِهِم أَقْوَامَهُم إِلى اللَّهِ، وَعَلَى تَكْذِيْبِهِم وَصَدِّهِم وَمُعَارَضَتِهِم، وَقَدْ أُمِرَ ﷺ بِالاقْتِدَاءِ بِهِم فِي ذَلِكَ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥] .

وَإِلى هَذَا الْمَقَامِ وَجَّهَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ وَأُمَّتَهُ مِنْ بَعْدِهِ فِي التَّعَامُلِ مَعَ مَنْ يَدْعُونَهُم إِلى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَبَعْدَ أَنْ بَيَّنَ أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلى اللَّهِ هِيَ أَحْسَنُ الأَعْمَالِ وَأَحَبُّهَا إِلى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَقَالَ: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [فصلت:٣٣] بَعْدَ ذَلِكَ قَالَ: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ﴾ [فصلت: ٣٤]، فَكَأَنَّ سَائِلاً سَأَلَ، فَقَالَ: إِنَّ الدَّعْوَةَ إِلى اللَّهِ وَإِنْ كَانَتْ طَاعَةً عَظِيمَةً، إِلاَّ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى سَفَاهَةِ هَؤُلاءِ الْكُفَّارِ شَدِيدٌ لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، فَعِنْدَ هَذَا ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا يَصْلُحُ لأَنْ يَكُونَ دَافِعاً لِهَذَا الإِشْكَالِ، فَقَالَ: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ﴾، وَالْمُرَادُ بِالْحَسَنَةِ دَعْوَةُ الرَّسُولِ ﷺ إِلى دِيْنِ الْحَقِّ،

(١) «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» باختصار يسير (١/١١٨-١٢١) .

وَالصَّبْرُ عَلَى جَهَالَةِ الْكُفَّارِ، وَتَرْكُ الانْتِقَامِ، وَتَرْكُ الالْتِفَاتِ إِلَيْهِم، وَالْمُرَادُ بالسَّيِّئَةِ مَا أَظْهَرُوهُ مِنَ الْجَلافَةِ فِي قَولِهِم: ﴿ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ ﴾ [فصلت: ٥]، وَمَا ذَكَرُوهُ فِي قَولِهِم: ﴿ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ ﴾ [فصلت: ٢٦]، ثُمَّ قَالَ: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾، يَعْنِي ادْفَعْ سَفَاهَتَهُم وَجَهَالَتَهُم بالطَّرِيقِ الَّذِي هُوَ أَحْسَنُ الطُّرُقِ، فَإِنَّكَ إِذَا صَبَرْتَ عَلَى سُوءِ أَخْلاقِهِم مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، وَلَمْ تُقَابِلْ سَفَاهَتَهُم بِالْغَضَبِ، وَلا إِضْرَارَهُم بالإِيْذَاءِ وَالإِيْحَاشِ اسْتَحْيَوْا مِنْ تِلْكَ الأَخْلاقِ الْمَذْمُومَةِ، وَتَرَكُوا تِلْكَ الأَفْعَالَ الْقَبِيْحَةَ، ثُمَّ قَالَ: ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ يَعْنِيْ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ تَرَكُوا أَفْعَالَهُمُ الْقَبِيحَةَ، وَانْقَلَبُوا مِنَ الْعَدَاوَةِ إِلى الْمَحَبَّةِ، وَمِنَ الْبُغْضَةِ إِلى الْمَوَدَّةِ، وَلَمَّا أَرْشَدَ الله ﷻ إِلى هَذَا الطَّرِيقِ النَّافِعِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ عَظَّمَهُ فَقَالَ: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٥]. قَالَ الزَّجَّاجُ رَحِمَهُ اللهُ: "أَيْ وَمَا يُلَقَّى هَذِهِ الفِعْلَةَ إلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا عَلَى تَحَمُّلِ الْمَكَارِهِ وَتَجَرُّعِ الشَّدَائِدِ وَكَظْمِ الْغَيظِ وَتَرْكِ الانْتِقَامِ " [(١)] .

*****

(١) «التفسير الكبير» للرازي (١١٢/٢٧) .

الْحَدِيْثُ الْخَامِسُ وَالثَّلاثُونَ

عَنْ عَمْرِو بْنِ عَبْسَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "**مَنْ شَابَ شَيْبَةً فِي سَبِيْلِ اللهِ كَانَتْ نُوراً لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** " [(١)].

قوله (**مَنْ شَابَ شَيْبَةً فِي سَبِيلِ اللهِ**) أَيْ مَنِ ابْيَضَّ في لِحْيَتِهِ أَوْ بَدَنِهِ شَعْرَةٌ بَيْضَاءُ في الْغَزْوِ أَوِ الْحَجِّ أَوْ طَلَبِ الْعِلْمِ – أَوْ في طَرِيْقِهِ لِتَبْلِيْغِ الدِّينِ – أَوْ في الإِسْلامِ، كَمَا في رِوَايَةٍ، وَهُوَ أَعَمُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ في الجِهَادِ أَوْ غَيْرِهِ [(٢)].

وقوله (**كَانَتْ نُورًا لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**) أَيْ يَصِيْرُ الشَّيْبُ نَفْسُهُ نُوراً يَهْتَدِيْ بِهِ صَاحِبُهُ وَيَسْعَى بَيْنَ يَدَيْهِ في ظُلُمَاتِ الْحَشْرِ إلى أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ؛ وَالشَّيْبُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ كَسْبِ الْعَبْدِ، لَكِنَّهُ إِذَا كَانَ بِسَبَبٍ مِنْ نَحْوِ جِهَادٍ أَوْ خَوْفٍ مِنَ اللهِ سبحانه وتعالى يُنَزَّلُ مَنْزِلَةَ سَعْيِهِ، فَيُكْرَهُ نَتْفُ الشَّيْبِ، قَالَ النَّوَوِيُّ: وَلَوْ قِيلَ: يَحْرُمُ لَمْ يَبْعُدْ [(٣)]. وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "**لا تَنْتِفُوا الشَّيْبَ فَإِنَّهُ نُورٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ شَابَ شَيْبَةً فِي الإِسْلامِ كُتِبَ لَهُ بِهَا حَسَنَةٌ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ، وَرُفِعَ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ** " [(٤)].

مَعْنَى الْحَدِيْثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ

يُبَيِّنُ النَّبِيُّ ﷺ عَظِيمَ ثَوَابِ الْخَارِجِ في سَبِيْلِ اللهِ لإِعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ سبحانه وتعالى، وَأَنَّهُ يُثَابُ عَلَى كُلِّ مَا يُصِيبُهُ مِنْ حَالٍ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ كَسْبِ نَفْسِهِ، فَالشَّيْبُ لا كَسْبَ لِلإِنْسَانِ

---

(١) رواه النسائي في سننه (٣١٤٢) والترمذي (١٦٣٥) وقال: حديث حسن صحيح غريب، ورواه أحمد في مسنده عن فضالة بن عبيد (٢٣٩٥٢) .

(٢) «مرقاة المفاتيح» (٣٩٧/٧) .

(٣) «فيض القدير» (٢٠٨/٦) .

(٤) رواه أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو (٦٦٧٢) و(٦٩٦٢) وابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة (٢٩٨٥) بسند حسن واللفظ له .

وَلا اخْتِيَارَ لَهُ فِيهِ، ولَكِنَّهُ لَمَّا أَصابَهُ وَهُوَ في سَبِيلِ الله ﷻ لِيُنِيرَ لِلنَّاسِ طَرِيْقَهُمْ وَيُخْرِجَهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّور، جُوزِيَ بِنَفْسِ جِنْسِ إِرَادَتِهِ، فَكَانَ هَذَا الشَّيْبُ نُوراً يَهْتَدِيْ بِهِ صَاحِبُهُ يومَ الْقِيَامَةِ، وَيُضِيءُ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي ظُلُمَاتِ الْمَحْشَرِ وَالصِّرَاطِ حَتَّى يَكُونَ دَلِيْلَهُ إِلى الْجَنَّةِ .

فَائِـــــــدَة

الشَّعَرُ قَدْ يَتَغَيَّرُ مِنَ السَّوادِ إلى الْبَيَاضِ لِكِبَرِ سِنِّ الإنْسَانِ، وَقَدْ يَتَغَيَّرُ لِبَعْضِ الْحَوَادِثِ وَالْمُؤَثِّرَاتِ خوفاً وَخَشْيَةً مِنَ الله ﷻ ؛ فَعَن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه : يَا رَسُولَ الله قَدْ شِبْتَ، قَالَ: "**شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَالْوَاقِعَةُ وَالْمُرْسَلاتُ وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ** " [(١)]. وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ الله، شِبْتَ ؟ قَالَ: "**شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا** " [(٢)] .

فَإِذَا حَصَلَ الشَّيْبُ بِأَحَدِ هَذَيْنِ السَّبَبَيْنِ أَوْ بِكِلَيْهِمَا فِي الَّذِيْنَ قَضَوْا أَعمَارَهُمْ فِي سَبِيْلِ الله لإعْلاءِ كَلِمَةِ الله وَفي طَاعَتِهِ، كَانَ هَذَا الشَّيْبُ ضِيَاءً لَهُمْ يومَ الْقِيَامَةِ فِي الْمَوْقِفِ، وَعَلامَةً فَارِقَةً تُمَيِّزُهُمْ عَنْ غَيْرِهِمْ أَمَامَ الْمَلإِ مِنَ النَّاس، وَنُوراً يَهْتَدُونَ بِهِ فِي الظُّلُمَاتِ، وَكَرَامَةً يُغْبَطُونَ عَلَيْهَا، حَيْثُ لَزِمُوا حِيْنَ فَرَّطَ النَّاسُ، وَصَبَرُوا وَضَحَّوْا حِيْنَ تَمَتَّعَ النَّاسُ، وَأَيْقَنُوا حِيْنَ جَحَدَ النَّاسُ، فَيَأْتُونَ يومَ الْقِيَامَةِ وَنُورُهُم يَتَلأْلأُ مِنْ شُعُورِ أَجْسَامِهِمْ، يَغْبِطُهُم عَلَيْهِ النَّاسُ [(٣)] .

---

(١) رواه الترمذي (٣٢٩٧) وقال: حديث حسن غريب؛ ورواه الحاكم في المستدرك (٣٣١٤) وقال: صحيح على شرط البخاري، ووافقه الذهبي .

(٢) رواه الطبراني في الكبير برقم (٧٩٠) وقال الهيثمي في المجمع: رجاله رجال الصحيح .

(٣) «مجلة البحوث الإسلامية» (٤٣/٣٦٥) بتصرف يسير .

وَكَانَ مِنْ دُعَاءِ بَعْضِ الصَّالِحِينَ:" **اللَّهُمَّ إِنَّ الْمَخْلُوقِينَ إِذَا شَاخَ عَبْدٌ فِي خِدْمَتِهِم أَعْتَقُوهُ، وقَدْ شِخْنَا فِي خِدْمَتِكَ فَأَعْتِقْنَا مِنَ النَّارِ** " (١) .

ذِكْرُ بَعْضِ الأَقْوَالِ فِي الشَّيْبِ :

الشَّيْبُ وَقَارٌ: عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ:" **كَانَ إِبْرَاهِيمُ** عليه السلام **أَوَّلَ النَّاسِ رَأَى الشَّيْبَ، فَقَالَ: يَا رَبِّ! مَا هَذَا؟ قَالَ: وَقَارٌ يَا إِبْرَاهِيمُ. قَالَ: يَا رَبِّ زِدْنِي وَقَاراً** " (٢) .

وَقَالَ قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ: **الشَّيْبُ خِطَامُ الْمَنِيَّةِ – يَعْنِي زِمَامَهَا –** .

وَقَالَ آخَرُ: **الشَّيبُ بَرِيدُ الْحِمَامِ – يَعْنِي الْمَوْتَ –** .

وَقَالَ آخَرُ: **الشَّيبُ أَوَّلُ مَرَاحِلِ الْمَوتِ** .

وَقَالَ آخَرُ: **الشَّيبُ عِنْوَانُ الْكِبَرِ** (٣) .

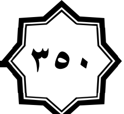
*****

---

(١) «حماسة الظرفاء» للعبدلكاني الزوزني (٦٢/١) .

(٢) «الموطأ» برواية يحيى بن يحيى (١٦٤٢) .

(٣) «عيون الأخبار» لابن قتيبة الدينوري (٢٥٧/١) .



الْحَدِيثُ السَّادِسُ وَالثَّلاثُونَ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "لاَ يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ - إِلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجُرْحُهُ يَثْعَبُ، اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ، وَالرِّيحُ رِيحُ مِسْكٍ " [(١)] .

قوله (لاَ يُكْلَمُ أَحَدٌ) أَيْ لا يُجْرَحُ، وَالْكَلْمُ هُوَ الْجُرْحُ .

قوله (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ) قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: هَذَا تَنْبِيهٌ عَلَى الإِخْلاصِ فِي الْغَزْوِ، وَأَنَّ الثَّوَابَ الْمَذْكُورَ فِيهِ إِنَّمَا هُوَ لِمَنْ أَخْلَصَ فِيهِ، وَقَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، قَالُوا - أَيِ الْعُلَمَاءُ -: وَهَذَا الْفَضْلُ وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُهُ أَنَّهُ فِي قِتَالِ الْكُفَّارِ، فَيَدْخُلُ فِيهِ مَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي قِتَالِ الْبُغَاةِ، وَقُطَّاعِ الطَّرِيقِ، وَفِي إِقَامَةِ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ [(٢)] .

وقوله (إِلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجُرْحُهُ يَثْعَبُ) أَيْ يَتَفَجَّرُ دَماً . قَالَ الْعُلَمَاءُ: الحِكْمَةُ فِي بَعْثِهِ كَذَلِكَ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ شَاهِدٌ بِفَضِيلَتِهِ بِبَذْلِهِ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى [(٣)] .

مَعْنَى الْحَدِيثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ

بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مَنْ أَصَابَتْهُ إِصَابَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَأَنْ جُرِحَ أَوْ شُجَّ أَوْ نُكِبَ وَخَرَجَ مِنْهُ الدَّمُ، فَإِنَّهُ يَأْتِي يَومَ الْقِيَامَةِ، وَجُرْحُهُ كَمَا هُوَ، يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الدَّمُ أَغْزَرَ مَا يَكُونُ، لَونُهُ لَونُ الدَّمِ، وَلَكِنَّ رِيحَهُ رِيحُ الْمِسْكِ، حَتَّى يُعْرَفَ أَنَّ هَذَا مِمَّنْ جُرِحَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَيَكُونُ هَذَا شَرَفاً لَهُ وَشَاهِداً عَلَى فَضِيلَتِهِ بِبَذْلِهِ أَغْلَى مَا يَمْلِكُ فِي سَبِيلِ إِعْلاءِ كَلِمَةِ

(١) رواه البخاري برقم (٢٨٠٣) ومسلم برقم (٤٩٧٠) .
(٢) «شرح مسلم للنووي» (٢٦/١٣) .
(٣) «فتح الباري» (٢٦/٦) .

الله سبحانه وتعالى، وَسوَاءٌ كَانَ هَذَا الْجُرْحُ قَدْ تَسَبَّبَ بِنَيْلِهِ الشَّهَادَةَ أَوْ أَنَّ هَذَا الْجُرْحَ قَدِ انْدَمَلَ وَالْتَئَمَ في الدُّنْيَا، وَالحَدِيثُ عَامٌّ يَشْمَلُ كُلَّ مَنْ جُرِحَ جُرْحاً وَهُوَ في طَرِيقِهِ لإِعْلاءِ كَلِمَةِ الله سبحانه وتعالى. والله أَعْلَمُ .

فَائِـــــــــدَة

عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: "**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِىءٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إلى الله ورَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إلى الله وَرَسُوْلِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيْبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إلى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ** " [١] .

وَالنِّيَّةُ في كَلامِ الْعُلَمَاءِ تَقَعُ بِمَعْنَيَيْنِ :

أَحَدُهُمَا: تَمْيِيزُ الْعِبَادَاتِ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ، كَتَمْيِيْزِ صَلاةِ الظُّهْرِ عَنْ صَلاةِ الْعَصْرِ مَثَلاً، وَتَمْيِيْزِ صِيَامِ رَمَضَانَ عَنْ صِيَامِ غَيْرِهِ، أَوْ **تَمْيِيزُ الْعِبَادَاتِ عَنِ الْعَادَاتِ**، كَتَمْيِيْزِ الْغُسْلِ مِنَ الْجَنَابَةِ عَنْ غُسْلِ التَّبَرُّدِ وَالتَّنْظِيفِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَهَذِهِ النِّيَّةُ هِيَ الَّتِي تُوجَدُ كَثِيراً في كَلامِ الْفُقَهَاءِ في كُتُبِهِم .

وَالْمَعْنَى الثَّانِيْ: تَمْيِيزُ الْمَقْصُودِ بِالْعَمَلِ، وَهَلْ هُوَ للهِ وَحْدَهُ لا شَرِيْكَ لَهُ، أَمْ للهِ وَغَيرِهِ ؟ وَهَذِهِ النِّيَّةُ هِيَ الَّتِي يَتَكَلَّمُ فِيهَا الْعَارِفُونَ في كُتُبِهِم في كَلامِهِم عَلَى الإِخْلاصِ وَتَوَابِعِهِ، وَهِيَ الَّتِي تُوجَدُ كَثِيراً في كَلامِ السَّلَفِ الْمُتَقَدِّمِينَ [٢]. وَيُعَبَّرُ عَنْهَا بِلَفْظِ الإِرَادَةِ في الْقُرْآنِ كَثِيراً كَمَا في قَولِهِ تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ

---

(١) رواه البخاري عن عمر بن الخطاب برقم (١) و(٥٤) و(٢٥٢٩) و(٥٠٧٠) و(٦٦٨٩) و(٦٦٨٩) ومسلم برقم (٥٠٣٦) .

(٢) «جامع العلوم والحكم» ص (١٧) .

ٱلْآخِرَةَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢]. وَعَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ:" تَعَلَّمُوا النِّيَّةَ فَإِنَّهَا أَبْلَغُ مِنَ الْعَمَلِ."[(١)]، وَعَنْ زَيدٍ الْيَامِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: "إِنِّي لأُحِبُّ أَنْ تَكُونَ لِي نِيَّةٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ."، وَعَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: "انْوِ فِي كُلِّ شَيْءٍ تُرِيدُهُ، حَتَّى خُرُوجكَ إِلَى الْكُنَاسَةِ."، وَعَنْ دَاوُدَ الطَّائِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: "رَأَيْتُ الْخيرَ كُلَّهُ يَجْمَعُهُ حُسْنُ النِّيَّةِ، وَكَفَاكَ بِهَا خيراً وإِنْ لَم تَنْصَبْ."، وَعَنْ سُفْيَانَ الثَّورِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: "مَا عَالَجْتُ شَيْئاً أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ نِيَّتِي، لأَنَّهَا تَتَقَلَّبُ عَلَيَّ."، وَعَنْ يُوسُفَ بْنِ أَسْبَاطٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: "تَخْلِيصُ النِّيَّةِ مِنْ فَسَادِهَا أَشَدُّ عَلَى الْعَامِلِينَ مِنْ طُولِ الاِجْتِهَادِ."، وَعَنْ مُطَرِّفِ ابْنِ عَبدِ اللَّهِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: "صَلاحُ الْقَلْبِ بِصَلاحِ الْعَمَلِ، وصَلاحُ العَمَلِ بِصَلاحِ النِّيَّةِ." وَعَنْ بَعْضِ السَّلَفِ قَالَ: "مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكْمُلَ لَهُ عَمَلُهُ فَلْيُحْسِنْ نِيَّتَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَأْجُرُ الْعَبْدَ إِذَا حَسُنَتْ نِيَّتُهُ حَتَّى بِاللُّقْمَةِ."، وَعَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ:" رُبَّ عَمَلٍ صَغِيرٍ تُعَظِّمُهُ النِّيَّةُ، وَرُبَّ عَمَلٍ كَبِيرٍ تُصَغِّرُهُ النِّيَّةُ." [(٢)]، وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: "الأَعْمَالُ لا تَتَفَاضَلُ بِصُوَرِهَا وَعَدَدِهَا، وَإِنَّمَا تَتَفَاضَلُ بِتَفَاضُلِ مَا فِي الْقُلُوبِ، فَتَكُونُ صُورَةُ الْعَمَلَيْنِ وَاحِدَةً، وَبَيْنَهُمَا مِنَ التَّفَاضُلِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَالرَّجُلانِ يَكُونُ مَقَامُهُمَا فِي الصَّفِّ وَاحِداً، وَبَينَ صَلاتِهِمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ." [(٣)]، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "إِنَّمَا يُعْطَى الرَّجُلُ عَلَى قَدْرِ نِيَّتِهِ."، وَقَالَ سَهْلٌ التَّسْتُرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "نَظَرَ الأَكْيَاسُ فِي تَفسِيرِ الإِخْلاصِ فَلَمْ يَجِدُوا غيرَ هَذَا، أَنْ تَكُونَ حَرَكَاتُهُ وَسُكُونُهُ فِي سِرِّهِ وعَلانِيَتِهِ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَحْدَهُ، لا يُمَازِجُهُ شَيْءٌ لا نَفْسٌ ولا هَوَىً ولا دُنْيَا."، وَقَالَ السَّرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "لا تَعْمَلْ لِلنَّاسِ شَيْئاً ولا تَتْرُكْ لَهُمْ شَيئاً، ولا تُعْطِ لَهُم شَيئاً، ولا تَكْشِفْ لَهُم شَيئاً." وَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ الْقُشَيرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي رِسَالَتِهِ: "الإِخْلاصُ إِفْرَادُ الْحَقِّ فِي الطَّاعَةِ بِالقَصْدِ، وَهُوَ أَنْ يُرِيدَ بِطَاعَتِهِ التَّقَرُّبَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دُونَ شَيْءٍ آخَرَ ، مِنْ تَصَنُّعٍ لِمَخْلُوقٍ ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص والنية» (٦١) وأبو نعيم في «الحلية» (٧٠/٣) .

(٢) أخرج هذه الآثار ابن أبي الدنيا في كتاب «الإخلاص والنية» (٦١إلى٧٠) وروى بعضها أبو نعيم في «الحلية»، وانظر «جامع العلوم والحكم» ص (١٩ – ٢٠) .

(٣) «مدارج السالكين» (٢٧١/١) .

أَو اكْتِسَاب مَحْمَدَةٍ عِنْدَ النَّاسِ، أَوْ مَحَبَّةِ مَدْحٍ مِنَ الخَلْقِ، أَو شَيْءٍ سِوَى التَّقَرُّب إلى الله تعالى."، وعَنِ الْفُضَيلِ بْنِ عِيَاضٍ رحمه الله قَالَ: "تَرْكُ الْعَمَلِ لأَجْلِ النَّاسِ رِيَاءٌ، وَالْعَمَلُ لأَجْلِ النَّاسِ شِرْكٌ، وَالإِخْلاصُ أَنْ يُعَافِيَكَ الله منهُمَا."[1]، وَمَا أَحْسَنَ قَولَ سَهْلِ بْنِ عَبدِ الله التَّسْتُرِيِّ رحمه الله: "لَيْس عَلَى النَّفْسِ شَيْءٌ أَشَقَّ مِنَ الإِخْلاصِ، لأَنَّهُ لَيْسَ لَهَا فِيْهِ نَصِيبٌ."، وَقَالَ يُوسُفُ بْنُ الْحُسَيْنِ الرَّازِيُّ رحمه الله :" أَعَزُّ شَيْءٍ فِي الدُّنيَا الإِخْلاصُ، وَكَمْ أَجْتَهِدُ فِي إِسْقَاطِ الرِّيَاءِ عَنْ قَلْبِي، وَكَأَنَّهُ يَنْبُتُ فِيْهِ لَوْنٌ آخَرُ " [2] .

فَلا بُدَّ مِنْ تَصْحِيحِ النِّيَّةِ قَبْلَ كُلِّ عَمَلٍ وَإِخْلاصِهَا لله تعالى، وَالإِخْلاصُ هُوَ تَجْرِيدُ القَصْدِ لله تعالى وَطَلَبُ مَرْضَاتِهِ دُونَ سِوَاهُ، وَهُوَ رُوحُ الأَعْمَالِ وَأَسَاسُ قَبُولِهَا عِنْدَ الله، قَالَ تعالى:﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف:١١٠]. وَلا يَتَحَقَّقُ الإِخْلاصُ فِي الدَّعوةِ إِلاَّ عِنْدَمَا يَتَأَكَّدُ الدَّاعِيَةُ أَنَّ قَصْدَهُ رِضَا الله تعالى، وَيَتَجَرَّدُ مِنَ الانْقِيَادِ وَرَاءَ حُظُوظِ النَّفْسِ وَنَوَازِعِ الهَوَى وَمَطَالِبِ الذَّاتِ، ويُحَرِّرُ نَفْسَهُ مِنْ قُيُودِ الرِّيَاءِ وطَلَبِ الشُّهْرَةِ أَو الْمَدْحِ أَوِ الظُّهُورِ أَو السُّمْعَةِ أو حُبِّ التَّصَدُّرِ وَالرِّئَاسَةِ وَالْجَاهِ، ويَتَخَلَّصُ مِنَ السَّعْيِ خَلْفَ شَهْوَةِ الْمَالِ والْجَاهِ وطَلَبِ الْمَنْزِلَةِ فِي قُلُوبِ النَّاسِ وَاسْتِقْطَابِهِمْ، أَوِ السَّعْيِ وَرَاءَ أَيِّ مَتَاعٍ مِنْ مُتَعِ الدُّنْيَا، وجَعْلِ الدَّعْوَةِ وَسِيلَةً لَهُ .

وَلَئِنْ كَانَ الإِخْلاصُ مُهِمّاً فِي جَمِيعِ أَعْمَالِ الْمُسْلِمِ وَشَرْطاً أَسَاسِيّاً مِنْ شُرُوطِ اسْتِقَامَتِهَا وقَبُولِهَا، فَإِنَّهُ بالنِّسْبَةِ لِلدَّعوةِ إلى الله تعالى أَهَمُّ وأَجْدَرُ بِمَنْ تَصَدَّى لِهَذَا الْعَمَلِ الشَّرِيفِ، وَذَلِكَ لِعِدَّةِ أَسْبَابٍ رَئِيسِيَّةٍ، مِنْ أَهَمِّهَا :

أَوَّلاً: أَنَّ طَرِيقَ الدَّعْوَةِ طَرِيقٌ شَاقٌّ مَلِيْءٌ بالأَشْوَاكِ والْمَصَاعِبِ، وَلَيس مَفْرُوشاً بالوُرُودِ وَالرَّيَاحِين، فَالدَّاعِيَةُ فِيهِ فِي أَمَسِّ الْحَاجَةِ إلى صَبْرٍ شَدِيدٍ يُعِينُهُ عَلَى تَحَمُّلِ هَذِهِ

---

(١) «مقدمة المجموع شرح المهذب» للإمام النووي (١/٤٨-٤٩) .

(٢) جامع العلوم والحكم ص (٢٧) .

الْمَشَاقِّ والْمَصَاعِبِ، كَجَفَاءِ النَّاسِ وغِلْظَةِ مُعَامَلَتِهِم وقِلَّةِ تَقَبُّلِهِم، وَهَذَا الصَّبْرُ لا يَتَأَتَّى إلاَّ بوُجُودِ قُوَّةٍ نَفْسِيَّةٍ كَبِيْرَةٍ يَسْتَمِدُّهَا الدَّاعِيةُ مِنَ الإخْلاصِ .

ثَانياً: تَحْتَاجُ الدَّعْوَةُ إلى اللَّهِ ﷻ إلى رَاحَةٍ نَفْسِيَّةٍ وَطُمَأْنِينَةِ بَالٍ وَصَفَاءِ فِكْرٍ، لأَنَّ الشَّخصَ الْمُضْطَرِبَ نَفْسِيّاً وَالْمَشَتَّتَ فِكْرِيّاً لَيسَ لَهُ إنْتَاجِيَّةٌ عَمَلِيَّةٌ في الْمُجْتَمَعِ، لاسْتِنْفَادِ طَاقَاتِهِ الفِكْرِيَّةِ؛ وَالإخلاصُ دائِماً أَسَاسُ الرَّاحَةِ النَّفْسِيَّةِ، فَمَنْ طَلَبَ الآخِرَةَ تَوَحَّدَتْ هِمَّتُهُ، وتَجَمَّعَتْ هُمُومُهُ في هَمٍّ وَاحِدٍ، بَينَمَا الطَّالِبُ لِلدُّنيَا وَرِضَا النَّفْسِ تَتَشَعَّبُ بِهِ أَوْدِيَتُهَا، وَيَهِيمُ في بِحَارِ مَقَاصِدِهَا الْمُخْتَلِفَةِ، ويَتَشَتَّتُ بَينَ مَطَالِبِهَا .

ثَالِثاً: أَغْلَبُ أَعْمَالِ الدَّعْوَةِ إلى اللَّهِ ﷻ تَكُونُ مَكْشُوفَةً ظَاهِرَةً لِلْعَيَانِ، وَتَكُونُ في أَوْسَاطِ النَّاسِ، فَهِيَ مُعَرَّضَةٌ لِلرِّيَاءِ والتَّصَنُّعِ والتَّكَلُّفِ أَكْثَرَ مِنْ غَيرِهَا .

رَابِعاً: الدُّعَاةُ مُسْتَهْدَفُونَ في كُلِّ زَمَانٍ ومَكَانٍ مِنْ جَمِيعِ أَعْدَاءِ الإسْلامِ وَدُعَاةِ الرَّذِيلَةِ والْفَسَادِ، فَأَعْدَاؤُهُم يُحِيطُونَ بِهِم مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، والْحِصْنُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ في الإخْلاصِ للهِ ﷻ وَالاعْتِصَامِ بِهِ .

خَامِساً: الدَّعْوَةُ إلى الْخَيْرِ مِنْ أَكْبَرِ مَا يَغِيظُ الشَّيْطَانَ ويُوْغِرُ صَدْرَهُ، فَهُوَ وَاقِفٌ بِالْمِرْصَادِ لِكُلِّ مَنْ سَلَكَ هَذَا السَّبِيلَ، وَذَلِكَ بالتَّلاعُبِ في نِيَّتِهِ، وتَثْبِيطِ عَزِيْمَتِهِ، وتَخْذِيلِ هِمَّتِهِ، ولا سَبِيلَ لِمُقَاوَمَةِ كَيْدِهِ إلاَّ بالإخْلاصِ للهِ ﷻ .

سَادِساً: الإخْلاصُ مَظِنَّةُ تَقَبُّلِ النَّاسِ لأَفْكَارِ الدَّاعِيَةِ وَاسْتِمَاعِهِمْ لِكَلامِهِ وَاقْتِنَاعِهِمْ بِمَا يَطْرَحُهُ عَلَيهِم مِنْ أَفْكَارٍ، فَالنَّاسُ دَائِماً يَنْفِرُونَ مِنْ صَاحِبِ الْمَصَالِحِ الشَّخْصِيَّةِ، وَيَجِدُونَ فَجْوَةً بَينَهُ وَبَينَهُمْ، فَيُصِمُّونَ آذَانَهُمْ عَنِ الإصْغَاءِ لِكَلامِهِ، ويُغْلِقُونَ عُقُولَهُمْ عَنْ تَقَبُّلِ أَفْكَارِهِ .

سَابِعاً: الدَّاعِيَةُ مُحْتَاجٌ دَائِماً لِتَأْيِيدِ اللَّهِ ﷻ وَنُصْرَتِهِ ومَعُونَتِهِ، ولا يَحْصُلُ عَلَى هَذَا التَّأْيِيْدِ وَهُوَ بَعِيدٌ كُلَّ الْبُعْدِ عَنهُ ﷻ بِالتَّعَرُّضِ لِمَرْضَاتِ غَيرِهِ وَالنُّزُوعِ لِشَهَوَاتِهِ .

وَمِمَّا يُعِيْنُ عَلَى الإِخْلاصِ فِي الدَّعْوَةِ أُمُورٌ، مِنْهَا :

أَوَّلاً: تَيَقُّنُ الدَّاعِيَةِ تَيَقُّناً كَامِلاً أَنَّ النَّاسَ لا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِم جَلْبَ نَفْعٍ ولا دَفْعَ ضُرٍّ، فهُمْ مِنْ بَابِ أَوْلَى لا يَمْلِكُونَ ذَلِكَ لِغَيْرِهِم، وَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ لَوْ سَجَدَ لَهُ النَّاسُ مِنْ يَومِ وِلادَتِهِ حَتَّى وَفَاتِهِ ثُمَّ صَارَ إلى النَّارِ لَمْ يُفِدْهُ ذَلِكَ شَيْئاً، وأَنَّ كُلَّ مَنْ يُرَائِيْهِمْ ويُجَامِلُهُم سَيَأْتُونَ يومَ الْقِيَامَةِ فِي أَمَسِّ الْحَاجَةِ إلى حَسَنَةٍ تَدْفَعُ عَنهُمْ عَذَابَ النَّارِ .

ثَانياً: الزُّهْدُ فِي الدُّنيَا وَمَعْرِفَةُ حَقِيقَتِهَا وَقِيمَةِ لَذَائِذِهَا وحُظُوظِهَا، فَإِنَّ الزُّهْدَ الحَقِيقِيَّ إِذَا تَمَرْكَزَ فِي نَفْسِ الدَّاعِيَةِ انْتَفَى طَلَبُ الْمَصَالِحِ الشَّخْصِيَّةِ وَالسَّعْيُ وَرَاءَ مُتَعِ الدُّنيَا، لِصِغَرِ قِيمَتِها فِي قَلْبِهِ .

ثَالِثاً: الْحِرْصُ عَلَى الأَعْمَالِ الْخَفِيَّةِ - خَاصَّةً فِي بِدَايَةِ الطَّرِيقِ -، حَتَّى تَتَعَوَّدَ النَّفْسُ عَلَى تَجْرِيدِ القَصْدِ للهِ، ثُمَّ يَبْدَأُ فِي الأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ ونَفْسُهُ قَدْ تَشَرَّبَتِ الإِخْلاصَ، وأَصْبَحَ طَابَعاً لَهَا، ثُمَّ يَتَدَرَّجُ فِي هَذَا السُّلَّمِ بَعدَ ذَلِكَ .

رَابِعاً: تَدَبُّرُ آيَاتِ النَّعِيمِ وَمَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لأَوْلِيَائِهِ، حَتَّى تَتَشَوَّقَ النَّفْسُ لِذَلِكَ، فَتَنْحَصِرَ الْهِمَّةُ فِي طَلَبِهِ .

خَامِساً: الاِطِّلاعُ عَلَى سِيرَةِ الْمُصْطَفَى ﷺ وَسِيَرِ السَّلَفِ الصَّالِحِ، لِيَأْخُذَ مِنْهُمُ الْحِرْصَ عَلَى الإِخْلاصِ ويَتَعَلَّمَ وَسَائِلَ تَنْمِيَتِهِ .

سَادِساً: اسْتِشْعَارُ رَقَابَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَاطِّلاعِهِ عَلَيهِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ، ومَعْرِفَتِهِ بِجَمِيعِ حَرَكَاتِهِ وسَكَنَاتِهِ وَجَمِيعِ مَا يَدُورُ فِي قَلْبِهِ وَمَا تَنْطَوِي عَلَيهِ نَفْسُهُ .

فَالإِخْلاصُ سَبَبٌ مُبَاشِرٌ وطَرِيقٌ مُوصِلٌ لنَجَاحِ دَعْوَةِ الدَّاعِيَةِ وإِتْيَانها الثِّمَارَ الْمَطْلُوبَةَ، لِمَا يُوْرِثُهُ الإِخْلاصُ مِنْ رَاحَةٍ نَفْسيَّةٍ وقُوَّةٍ قَلْبِيَّةٍ تُعِيْنُ صَاحِبَهَا عَلَى التَّخْطِيطِ السَّلِيمِ وَاجْتِيَازِ مَصَاعِبِ الدَّعْوَةِ وتَحَمُّلِ مَشَاقِّ التَّبْلِيغِ (١) .

وَلا بُدَّ في طَلَبِ الْعِلْمِ مِنْ تَصْحِيحِ النِّيَّةِ بِإِرَادَةِ الْعَمَلِ بهَذَا الْعِلْمِ وَتَعْلِيمِهِ وبَذْلِهِ لِلنَّاسِ وَإِخْلاصِ هَذِهِ النِّيَّةِ للهِ ﷻ، وإلاَّ فَإِنَّ عِلْمَ الإِنْسَانِ يَكُونُ وَبَالاً عَلَيهِ، وَسَبَباً في تَقْدِيْمِهِ عَلَى عُبَّادِ الأَوْثَانِ فِي دُخُولِ جَهَنَّمَ، كَمَا أَنَّهُ لا بُدَّ لِلْمُعَلِّمِ أَنْ يُرَاعِيَ نِيَّةَ الْمُتَعَلِّمِ ويَأْمُرَهُ بِتَصْحِيحِ نِيَّتِهِ فِي طَلَبِ العِلْمِ وَتَعَاهُدِهَا وَعَدَمِ الْغَفْلَةِ عَنهَا، لأَنَّ الشَّيْطَانَ حَرِيصٌ عَلَى تَغْيِيرِ نِيَّةِ الْعَبْدِ وَصَرْفِهَا لِغَيرِ اللهِ ﷻ، وَإِذَا رَأَى الْمُعَلِّمُ فَسَاداً فِي نِيَّةِ الْمُتَعَلِّمِ بِإِرَادَةِ الدُّنيَا مِنْ مَالٍ وَوَظِيفَةٍ وشُهْرَةٍ ونَحْوِ ذَلِكَ، فَلا يُعطِيهِ العِلْمَ حَتَّى يُصَحِّحَ نِيَّتَهُ، وإلاَّ فَإِنَّهُ يَضُرُّهُ ولا يَنْفَعُهُ، ويَزِيدُهُ بكُلِّ حَرْفٍ يُعَلِّمُهُ إِيَّاهُ بُعْداً عَنِ اللهِ ﷻ، كَمَا قَالَ ﷺ : **"مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ، لا يَتَعَلَّمُهُ إِلاَّ لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضاً مِنَ الدُّنيَا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجَنَّةِ يَومَ الْقِيَامَةِ."** (٢)، وقَالَ ﷺ: **"مَنْ طَلَبَ العِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ يُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ لِيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ، أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ."** (٣)، وَقَالَ ﷺ: **"بَشِّرْ هَذِهِ الأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ والرِّفْعَةِ فِي الدِّينِ وَالتَّمْكِينِ فِي الأَرْضِ، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُم عَمَلَ الآخِرَةِ لِلدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ"** (٤). وَثَبَتَ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ تُسَعَّرُ بِهِ النَّارُ يَومَ الْقِيَامَةِ الْمُقَاتِلُ والْعَالِمُ والْمُنْفِقُ الْمُرَاؤُونَ، لَمَّا لَمْ يُخْلِصُوا نِيَّاتِهِم للهِ ﷻ (٥) .

---

(١) «الإخلاص في الدعوة إلى الله » للمسقري .

(٢) رواه أحمد في مسنده عن أبي هريرة (٨٤٥٧) وأبو داوود في سننه (٣٦٦٦) وابن ماجه (٢٥٢) والحاكم في المستدرك (٢٨٨) وقال: حديث صحيح سنده ثقات على شرط الشيخين ووافقه الذهبي .

(٣) رواه الترمذي عن كعب بن مالك (٢٦٥٤) واللفظ له وابن ماجه عن ابن عمر (٢٥٣) وإسناده حسن .

(٤) رواه أحمد في مسنده عن أُبَيٍّ بن كعب (٢١٢٢٠) وابن حبان في صحيحه (٤٠٥) وقال الهيثمي: رواه أحمد وابنه من طرق ورجال أحمد رجال الصحيح .

(٥) رواه مسلم عن أبي هريرة (٥٠٣٢) .

وَكَانَ سُفْيَانُ الثَّورِيُّ رَحِمَهُ اللهُ إذَا لامُوهُ عَلَى عَدَمِ جُلُوسِهِ لِتَعلِيمِ النَّاسِ الْعِلْمَ يَقُولُ: "وَاللهِ لَو عَلِمْنَا مِنْهُم أَنَّهُم يَطْلُبُونَ بِالْعِلْمِ وَجْهَ اللهِ الْعَظِيمَ لأَتَينَاهُم في بُيُوتِهِم وعَلَّمْنَاهُم، وَلَكِنَّهُم يَطْلُبُونَ الْعِلْمَ لِيُجَادِلُوا بِهِ النَّاسَ، وَيَحْتَرِفُوا بِهِ أَمْرَ مَعَاشِهِم " .

وَكَانَ الْفُضَيلُ بْنُ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: "لَوْ صَحَّتِ النِّيَّةُ في العِلْمِ لَمْ يَكُنْ عَمَلٌ يُقَدَّمُ عَلَيْهِ إلاَّ العَمَلُ ومَا يُحْتَاجُ مِنْهُ، ولَكِنْ تَعَلَّمُوهُ لِغَيرِ الْعَمَلِ " .

وحُكِيَ أَنَّ سُفْيَانَ الثَّورِيَّ دَخَلَ عَلَى الْفُضَيلِ يوماً، فَقَالَ: يَا أَبَا عَلِيٍّ! عِظْنَا بِمَوْعِظَةٍ، فَقَالَ الْفُضَيْلُ: "ومَاذَا أَعِظُكُم ؟! كُنتُمْ مَعَاشِرَ الْعُلَمَاءِ سُرُجاً يُسْتَضَاءُ بِكُم في الْبِلادِ، فَصِرتُمْ ظُلْمَةً، وكُنْتُم نُجُوماً يُهْتَدَى بِكُمْ في ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ، فَصِرْتُمْ حَيْرَةً، يَأْتِي أَحَدُكُم إلى هَؤُلاءِ الأُمَرَاءِ، فَيَجْلِسُ عَلَى فِرَاشِهِم، يَأْكُلُ مِنْ طَعَامِهِم، ثُمَّ بَعدَ ذَلِكَ يَدْخُلُ الْمَسْجِدَ فَيَجْلِسُ يُدَرِّسُ العِلْمَ والْحَدِيثَ، ويَعِظُ النَّاسَ، ويَقُولُ حَدَّثَنِي فُلانٌ عَنْ فُلانٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَاللهِ مَا هَكَذَا كَانَ مَنْ يَحْمِلُ الْعِلْمَ." فَبَكَى سُفْيَانُ ثُمَّ انْصَرَفَ .

وَكَانَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: "مِنْ عَلامَةِ الرِّيَاءِ في طَلَبِ الْعِلْمِ أَنْ يَخْطُرَ في بَالِهِ أَنَّهُ خَيرٌ مِنَ الْعَوَامِّ لأَجْلِ الْعِلْمِ، ومَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مَاتَ قَلْبُهُ، فَإِنَّ العِلْمَ لا يُحْيِي قَلْبَ صَاحِبِهِ إلاَّ إذَا أَخْلَصَ فِيهِ، وذَلِكَ أَنَّهُ إذَا تَكَبَّرَ بِهِ صَارَ وَجْهُهُ لِلدُّنيَا وظَهْرُهُ لِحَضْرَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ."، وكَانَ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ أَيْضاً: "إِذَا رَأَيتُم طَالِبَ العِلْمِ كُلَّمَا ازْدَادَ عِلْماً ازْدَادَ جِدَالاً ورَغْبَةً في الدُّنيَا فَلا تُعَلِّمُوه " .

وَكَانَ كَعْبُ الأَحْبَارِ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ:" سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَتَعَلَّمُ جُهَّالُهُمُ الْعِلْمَ، ويَتَغَايَرُونَ بِهِ عَلَى الْقُرْبِ مِنَ الأُمَرَاءِ كَمَا يَتَغَايَرُونَ عَلَى النِّسَاءِ، أَوْ كَمَا يَتَغَايَرُ النِّسَاءُ عَلَى الرِّجَالِ، فَذَلِكَ حَظُّهُمْ مِنْ عِلْمِهِم " .

وَكَانَ صَالِحٌ الْمَرِّيُّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ:" احْذَرُوا عَالِمَ الدُّنْيَا أَنْ تُجَالِسُوهُ خَوْفاً أَنْ يَفْتِنَكُمْ بِزَخْرَفَةِ لِسَانِهِ ومَدْحِهِ لِلْعِلْمِ وَأَهْلِهِ مِنْ غَيرِ عَمَلٍ بِهِ."، وَكَانَ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ:

"رُبَّمَا كَانَ عِلْمُ العَالِمِ زَادَهُ إلى النَّارِ، فَلا يَنْبَغِي لأَحَدٍ أَنْ يَفْرَحَ بِعِلْمِهِ إلاَّ بَعْدَ مُجَاوَزَةِ الصِّرَاطِ، وهُنَاكَ يَعْلَمُ حَقِيْقَةَ عِلْمِهِ، هَلْ هُوَ حُجَّةٌ لَهُ أَوْ عَلَيْهِ " .

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: "يَهْتِفُ الْعِلْمُ بِالْعَمَلِ، فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلاَّ ارْتَحَلَ." وَكَانَ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: "اطْلُبُوا الْعِلْمَ لِلْعَمَلِ، فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ قَدْ غَلِطُوا فِي ذَلِكَ، وَصَارَ عِلْمُهُمْ كَالْجِبَالِ، وَعَمَلُهُمْ كَالْهَبَاءِ " .

وَكَانَ ذُو النُّونِ الْمَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: "أَدْرَكْنَا النَّاسَ وَأَحَدُهُم كُلَّمَا ازْدَادَ عِلْماً ازْدَادَ فِي الدُّنْيَا زُهْداً وتَقَلُّلاً مِنْ أَمْتِعَتِهَا، ونَرَاهُمُ الْيومَ كُلَّمَا ازْدَادَ أَحَدُهُم عِلْماً ازْدَادَ فِي الدُّنْيَا رَغْبَةً وتَكْثِيراً لأَمْتِعَتِهَا."، وَكَانَ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: "فَكَيْفَ طَالِبُ العِلْمِ عَامِلاً بِهِ وَهُوَ يَنَامُ وَقْتَ الْغَنَائِمِ ووَقْتَ الْخَزَائِنِ ووَقْتَ نَشْرِ الْعُلُومِ وَالْمَوَاهِبِ فِي الأَسْحَارِ، لا يَتَهَجَّدُ فِي اللَّيْلِ سَاعَةً " .

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبدِ الْعَزِيزِ رَحِمَهُ اللهُ: "كَيْفَ تُعَلِّمُونَ هَؤُلاءِ العِلْمَ، وَهُمْ يَأْكُلُونَ مِنَ الْحَرَامِ وَالشُّبُهَاتِ، وَاللهِ إِنَّهُم كَالأَمْوَاتِ الَّذِينَ يَرْتَعُونَ فِي النَّارِ، وَلَوْ أَنَّهُم كَانُوا أَحْيَاءً لَوَجَدُوا أَلَمَ النَّارِ فِي بُطُونِهِم مِنْ هَذِهِ الدَّارِ " .

وَقَالَ بِشْرُ بْنُ الْحَارِثِ رَحِمَهُ اللهُ:" أَوْحَى اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى دَاوُدَ: يَا دَاوُوْدُ، لا تَجْعَلْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَالِماً مَفْتُوناً فَيَصُدَّكَ بِسُكْرِهِ عَنْ طَرِيقِ مَحَبَّتِي، أُوْلَئِكَ قُطَّاعُ طَرِيقِ عِبَادِي" [(١)] .

وَقَالَ دَاوُدُ الطَّائِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:" طَالِبُ العِلْمِ كَالْمُحَارِبِ، فَإِذَا أَفْنَى عُمُرَهُ فِي تَعَلُّمِ كَيْفِيَّةِ الْقِتَالِ فَمَتَى يُقَاتِلُ ؟!" .

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في «الزهد» رقم (١٠) .

وَقَالَ الرَّبيعُ بْنُ خُثَيْمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:" كَيْفَ يُرَائِي الْعَالِمُ بِمَا يَعْلَمُ مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّ كُلَّ مَا لا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ يَضْمَحِلُّ."، وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:" مِنْ عَلامَةِ الْمُخْلِصِ فِي عِلْمِهِ أَنْ يَنْقَبِضَ فِي نَفْسِهِ إِذَا مَدَحَهُ الأَكَابِرُ، وَيَتَأَثَّرَ كَمَا يَتَأَثَّرُ مِمَّنِ اطَّلَعَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَزْنِي " .

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبِصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ :" يَقْبُحُ عَلَى طَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَشْبَعَ مِنَ الْحَلالِ فِي هَذَا الزَّمَانِ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَشْبَعُ مِنَ الْحَرَامِ."، وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: "وَرَعُ الْعُلَمَاءِ إِنَّمَا يَكُونُ فِي الشُّبُهَاتِ، وإِنَّمَا وَرَعُهُمُ الْيَومَ فِي الْمَعَاصِي الظَّاهِرَةِ."، وَكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ:" بَلَغَنَا أَنَّهُ يَأْتِي آخِرَ الزَّمَانِ رِجَالٌ يَتَعَلَّمُونَ الْعِلْمَ لِغَيْرِ اللَّهِ كَيْ لا يَضِيْعَ، ثُمَّ يَكُونُ عَلَيْهِمْ تَبِعَتُهُ يومَ الْقِيَامَةِ " .

وَقَالَ بَكْرُ بْنُ عَبدِ اللَّهِ الْمُزَنِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:" عَلامَةُ الْمُرَائِي بِعِلْمِهِ أَنْ يُرَغِّبَ النَّاسَ فِي العِلْمِ لِيَقْرَؤُوا عَلَيْهِ، ثُمَّ إِنَّهُ إِذَا شَاوَرَهُ أَحَدٌ فِي الْقِرَاءَةِ عَلَى غَيْرِهِ لا يُرَغِّبُهُ كُلَّ ذَلِكَ التَّرْغِيبِ " .

وَقَالَ عَبدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ اللَّهُ:" قَدْ غَلَبَ عَلَى الْقُرَّاءِ فِي هَذَا الزَّمَانِ أَكْلُ الْحَرَامِ وَالشُّبُهَاتِ، حَتَّى إِنَّهُم غَرِقُوا فِي شَهْوَةِ بُطُونِهِمْ وفُرُوجِهِم، وَاتَّخَذُوا عِلْمَهُم شَبَكَةً يَصْطَادُونَ بِهَا الدُّنْيَا، فَإِيَّاكُمْ وَمُجَالَسَتَهُم."، وَكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ:" لَوْلا نَقْصٌ دَخَلَ عَلَى أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ لَكَانُوا أَفْضَلَ النَّاسِ، وَلَكِنَّهُم صَارُوا يَحْتَرِفُون بِعِلْمِهِم وَيَصْطَادُونَ بِهِ الدُّنْيَا، فَهَانُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ."، وَكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: "مِنْ عَقْلِ الرَّجُلِ أَنْ لا يَطْلُبَ الزِّيَادَةَ فِي الْعِلْمِ إِلاَّ إِذَا عَمِلَ بِمَا عَلِمَ، فَيَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ كَيْ يَعْمَلَ بِهِ، إِذِ الْعِلْمُ إِنَّمَا يُطْلَبُ لِلْعَمَلِ."، وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:" مَنْ حَمَلَ الْقُرْآنَ ثُمَّ مَالَ بِقَلْبِهِ إِلى الدُّنْيَا، فَقَدِ اتَّخَذَ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَلَعِباً." وَكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ:" إِذَا عَصَى حَامِلُ الْقُرْآنِ رَبَّهُ، نَادَاهُ الْقُرْآنُ مِنْ جَوْفِهِ، وَاللَّهِ مَا لِهَذَا أُحْمَلُ، أَيْنَ مَوَاعِظِي وَزَوَاجِرِي، وكُلُّ حَرْفٍ مِنِّي يَقُولُ لَكَ: لا تَعْصِيَ رَبَّكَ " .

وَكَانَ الشَّعْبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ يَقولُ:" **اطْلُبُوا الْعِلْمَ وَأَنْتُم تَبْكُونَ، فإنَّ أَحَدَكُمْ إنَّمَا يُرِيدُ بِهِ زِيَادَةَ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَى نَفْسِهِ يومَ القِيَامَةِ** " .

وَقَالَ أَبُو عِصْمَةَ رَحِمَهُ اللهُ: بتُّ لَيْلَةً عِنْدَ الإمَامِ أَحْمَدَ أَطْلُبُ الْحَدِيث، فَوَضَعَ لِي إِنَاءً فِيهِ مَاءٌ لِلتَّهَجُّد، فَجَاءَ إلى صَلاةِ الْفَجْرِ، فَوَجَدَ الإِنَاءَ بحَالِهِ، فقال لي: لِمَاذَا جئتَ ؟ فَقُلتُ: جئتُ أَطْلُبُ الْحَدِيث، فَقَالَ:" **كَيفَ أُعَلِّمُكَ وَلَيْسَ لَكَ تَهَجُّدٌ فِي اللَّيْلِ ؟! اذْهَبْ لِحَالِ سَبِيلِكَ** " .

وقَالَ الإمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: "**عَلَيْكُمْ بالإِخْلاصِ فِي الْعِلْمِ لِيَنْفَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ الْعِبَادِ** ". وقَالَ رَحِمَهُ اللهُ:" **لَمْ يَبْلُغْنَا عَنْ أَحَدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ غَيْرِ الْعَامِلِينَ أَنَّهُ رُؤِيَ بَعْدَ مَوْتِهِ، فَقَالَ: غَفَرَ اللهُ لِي بعِلْمِيْ أَبَداً.**" وقَالَ رَحِمَهُ اللهُ: "**مِنَ الدَّلائِلِ الصَّرِيْحَةِ عَلَى رِيَاءِ الْعَالِمِ أَنْ يَتَأَذَّى مِمَّنْ يَقْرَأُ عَلَيْهِ إذَا قَرَأَ عَلَى غَيْرِهِ** " .

وَكَانَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: "**يَنْبَغِي لِلْعَالِمِ أَنْ يَكُونَ لَهُ خَبِيئَةٌ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ فِيْمَا بَيْنَهُ وبَيْنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، ولا يَعْتَمِدَ عَلَى الْعِلْمِ فَقَطْ، فَإِنَّهُ قَلِيلُ الْجَدْوَى فِي الآخِرَةِ** "[1] .

قُلْتُ: وَذَلِكَ لِمَا مَرَّ أَنَّ أَعَزَّ شَيْءٍ فِي الدُّنيَا هُوَ الإِخْلاصُ، وأَنَّهُ أَشَقُّ شَيْءٍ عَلَى النَّفْسِ لا أَنَّ الْعِلْمَ بِنَفْسِهِ قَلِيلُ الْجَدْوَى، فَإِنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الرِّفْعَةِ فِي الدَّرَجَاتِ عِنْدَ اللهِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾[المجادلة:١١].

وَقَالَ الإِمَامُ الشَّعْرَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:" وَاعْلَمْ أَنَّ جَمِيعَ مَا وَرَدَ فِي فَضْلِ الْعِلْمِ وتَعْلِيمِهِ إِنَّمَا هُوَ فِي حَقِّ الْمُخْلِصِينَ فِي ذَلِكَ، فَلا تُغَالِطْ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّ النَّاقِدَ بَصِيرٌ، وَقَدْ وَقَعَ لَنَا مَعَ الْمُجَادِلِينَ نِزَاعٌ كَثِيرٌ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّا نَرَاهُمْ مُتَكَالِبِينَ عَلَى الدُّنْيَا لَيلاً وَنَهَاراً مَعَ دَعْوَاهُمُ الْعِلْمَ، وتَعْظِيْمِهِمْ نُفُوسَهُمْ بِالْعِلْمِ والجِدَالِ مِنْ غَيرِ أَنْ يُعَرِّجُوا عَلَى الْعَمَلِ بِمَا عَلِمُوا؛ يَسْتَدِلُّ أَحَدُهُم بِمَا وَرَدَ فِي فَضْلِ الْعِلْمِ وَيَنْسَى الأَحَادِيثَ الَّتِي جَاءَتْ فِي ذَمِّ مَنْ لَمْ يَعْمَلْ

(١) ذكر هذه الآثار جميعها الإمام عبد الوهاب الشعراني في كتاب «العهود المحمدية» ص (٢٦٥–٢٦٦) .

بعِلْمِهِ جُمْلَةً وَاحِدَةً، وهَذَا كُلُّهُ غِشٌّ لِلنَّفْسِ، وَسَمِعْتُ سَيِّدِي عَلِيًّا الْخَوَّاصَ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ فِي مَعْنَى حَدِيثِ "**إنَّ اللهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بالرَّجُلِ الفَاجِرِ**" (١) : مَعْنَاهُ أَنَّ النَّاسَ يَنْتَفِعُونَ بِعِلْمِ الْفَاجِرِ وَتعْلِيمِهِ وَإِفْتَائِهِ وتَدْرِيسِهِ حَتَّى يَكُونَ فِي الصُّورَةِ كَالعُلَمَاءِ العَامِلِينَ، ثُمَّ يُدْخِلُهُ اللهُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي النَّارِ لِعَدَمِ إخْلاصِهِ " (٢) .

وقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ:" **عُلَمَاءُ السُّوءِ جَلَسُوا عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ يَدْعُونَ إِلَيْهَا النَّاسَ بِأَقْوَالِهِمْ، وَيَدْعُونَهُم إلى النَّارِ بِأَفْعَالِهِمْ، فَكُلَّما قَالَتْ أَقْوَالُهُم لِلنَّاسِ: هَلُمُّوا، قَالَتْ أَفْعَالُهُم: لا تَسْمَعُوا مِنْهُمْ، فَلَوْ كَانَ مَا دَعَوْا إِلَيْهِ حَقًّا كَانُوا أَوَّلَ الْمُسْتَجِيبِينَ لَهُ، فَهُمْ فِي الصُّوْرَةِ أَدِلاَّءُ، وَفِي الْحَقِيقَةِ قُطَّاع الطَّرِيقِ** " (٣) .

*****

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة (٣٠٦٢) و(٤٢٠٤) و(٦٦٠٦) ومسلم (٣١٩) .

(٢) «العهود المحمدية» ص (٧) .

(٣) «الفوائد» ص (٨٥) .

الْحَدِيثُ السَّابِعُ وَالثَّلاثُونَ

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُوَاقَ نَاقَةٍ فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ سَأَلَ اللَّهَ الْقَتْلَ مِنْ نَفْسِهِ صَادِقًا ثُمَّ مَاتَ أَوْ قُتِلَ فَإِنَّ لَهُ أَجْرَ شَهِيدٍ، وَمَنْ جُرِحَ جُرْحًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ نُكِبَ نَكْبَةً فَإِنَّهَا تَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَغْزَرِ مَا كَانَتْ، لَوْنُهَا لَوْنُ الزَّعْفَرَانِ، وَرِيحُهَا رِيحُ الْمِسْكِ، وَمَنْ خَرَجَ بِهِ خُرَاجٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّ عَلَيْهِ طَابَعَ الشُّهَدَاءِ " [(١)] .

قوله (فُوَاقَ نَاقَةٍ) هُوَ مَا بَينَ الْحَلْبَتَيْنِ، وَقِيلَ: هُوَ مَا بَينَ رَفْعِ يَدِكَ عَنِ الضَّرْعِ حَالَ الْحَلْبِ وَوَضْعِهَا، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ قَلِيلِ الجِهَادِ .

قوله (وَمَنْ جُرِحَ جُرْحًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) أَيْ أُصِيبَ بِجِرَاحَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِسِلاحِ الْعَدُوِّ .

قوله (أَوْ نُكِبَ نَكْبَةً) أَيْ تَعَرَّضَ لِحَادِثَةٍ جُرِحَ فِيهَا جِرَاحَةً مِنْ غَيرِ الْعَدُوِّ، كَأَنْ وَقَعَ عَنْ دَابَّتِهِ، أَوْ وَقَعَ سِلاحُهُ عَلَيْهِ [(٢)]، أَوْ أُصِيبَ عُضْوٌ مِنْ أَعْضَائِهِ بِشَيْءٍ فَأَدْمَاهُ، قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: " وَعُرِفَ بِهَذِهِ أَنَّ الصِّفَةَ الْمَذْكُورَةَ لا تَخْتَصُّ بِالشَّهِيدِ، بَلْ هِيَ حَاصِلَةٌ لِكُلِّ مَنْ جُرِحَ [(٣)] . - أَيْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ ﷺ كَانَ فِي غَارٍ فَنُكِبَتْ إِصْبَعُهُ، فَقَالَ: "هَلْ أَنْتِ إِلاَّ إِصْبَعٌ دَمِيتِ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتِ" [(٤)]. وَمَعْنَى نُكِبَتْ أَيْ نَالَتْهَا الحِجَارَةُ [(٥)] .

---

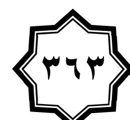
(١) رواه أحمد في مسنده برقم (٢٢٠١٤) وأبو داوود واللفظ له برقم (٢٥٤٣) والنسائي (٣١٤١) والترمذي برقم (١٦٥٧) وقال: هذا حديث صحيح .

(٢) «مرقاة المفاتيح» (٧/٣٥٦) .

(٣) «فتح الباري» (٦/٢٥-٢٦) .

(٤) رواه مسلم عن جندب بن سفيان برقم (١٧٩٦) .

(٥) «النهاية» لابن الأثير (٥/٢٣٥) .



قوله (**كَأَغْزَرِ مَا كَانَتْ**) أيْ أَنَّ الجِرَاحَةَ أَوِ النَّكْبَةَ تَكُونُ هَيْئَتُهَا يومَ الْقِيَامَةِ مِثْلَ أَكْثَرِ مَا وُجِدَ مِنهَا فِي الدُّنْيَا وَأَغْزَرِهِ .

قوله (**وَمَنْ خَرَجَ بِهِ خُرَاجٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**) أَيْ مَنْ ظَهَرَ بِهِ مَا يَخْرُجُ مِنَ الْبَدَنِ مِنَ الْقُرُوحِ والدَّمَامِيلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

قوله (**فَإِنَّ عَلَيْهِ طَابَعَ الشُّهَدَاءِ**) أيْ عَلَى نَفْسِ الْخُرَاجِ، أَوْ عَلَى صَاحِبِهِ عَلامَةُ الشُّهَدَاءِ وأَمَارَاتُهُم، لِيُعْلَمَ أَنَّهُ سَعَى فِي إِعْلاءِ الدِّينِ ويُجَازَى جَزَاءَ الْمُجَاهِدِينَ [(١)] .

مَعْنَى الْحَدِيثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ

يُبَيِّنُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ الْمَقْصُودَ الأَسْمَى وَالْمَطْلُوبَ الأَعْلَى الَّذِي يَعِيشُ الْمُسْلِمُ لأَجْلِهِ هُوَ أَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَمَنْ قَاتَلَ فِي هَذَا السَّبِيلِ مُدَّةً يَسِيرَةً وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَكَرَمِهِ، ومَنْ نَوَى بَذْلَ نَفْسِهِ ومَالِهِ فِي هَذَا السَّبِيلِ صَادِقاً مِنْ قَلْبِهِ أَعْطَاهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَجْرَ مَا نَوَى وَإِنْ لَمْ يُقَدَّرْ لَهُ ذَلِكَ، كَمَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **"مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ"** [(٢)]. وأَنَّ مَنْ أُصِيبَ فِي هَذَا السَّبِيلِ أَيَّ إِصَابَةٍ جَاءَتْ يومَ الْقِيَامَةِ شَاهِدَةً عَلَى شَرَفِ عَمَلِ صَاحِبِهَا ورِفْعَةِ قَصْدِهِ، وَذَلِكَ بِجُهْدِهِ لإعْلاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ وَإِحْيَاءِ دِينِهِ والذَّبِّ عَنهُ، فَيَجِيْءُ لَوْنُهَا لَوْنَ الدَّمِ، ورِيْحُهَا رِيحَ الْمِسْكِ، سَوَاءٌ كَانَتِ الإِصَابَةُ بِفِعْلِ عَدُوٍّ أَوْ بِغَيرِ ذَلِكَ، كَأَنْ يَسْقُطَ عَنْ دَابَّتِهِ أَوْ يُصِيبَ نَفْسَهُ أَوْ غَيرَ ذَلِكَ، وَإِنْ ظَهَرَ بِهِ شَيْءٌ مِنَ الدَّمَامِيلِ أَوِ الْقُرُوحِ، فَإِنَّ صَاحِبَهَا يَجِيْءُ يومَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيهِ عَلامَاتُ الشُّهَدَاءِ، حَتَّى يُعلَمَ أَنَّهُ اجْتَهَدَ وسَعَى لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، وَيُدْخَلَ مُدْخَلَ الشُّهَدَاءِ بِفَضْلِ اللَّهِ وَكَرَمِهِ؛ وَتَقَدَّمَ كَلامُ النَّوَوِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي أَنَّ هَذَا يَشْمَلُ بِعُمُومِهِ كُلَّ مَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لإعْلاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ وَإِحْيَاءِ

---

(١) «مرقاة المفاتيح» (٣٥٧/٧) .

(٢) رواه مسلم عن سهل بن حنيف برقم (١٩٠٩) .

الدِّينِ وَالدِّفَاعِ عَنْهُ، وَلا شَكَّ أَنَّهُ يَدْخُلُ فِي هَذَا الْمَعْنَى الْخُرُوجُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِدَعْوَةِ النَّاسِ إلى اللَّهِ وَأَمْرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيِهِم عَنِ الْمُنْكَرِ، لأَنَّ جَمِيعَ هَذِهِ السُّبُلِ يُرَادُ مِنْهَا أَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، وَأَنْ يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله .

فَائِـــــــــدَة

قَال اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١] .

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:" يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ عَاوَضَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ أُنْفُسِهِم وأَمْوَالِهِم إِذْ بَذَلُوهَا بِالْجَنَّةِ، وَهَذَا مِنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ وَإِحْسَانِهِ، فَإِنَّهُ قَبِلَ الْعِوَضَ عَمَّا يَمْلُكُهُ بِمَا تَفَضَّلَ بِهِ عَلَى عَبِيدِهِ الْمُطِيعِينَ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ الحَسَنُ الْبِصْرِيُّ وَقَتَادَةُ رَحِمَهُمَا اللَّهُ: "**بَايَعَهُمُ اللَّهُ فَأَغْلَى ثَمَنَهُمْ**."، وَقَالَ شَمَّرُ بْنُ عَطِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: "**مَا مِنْ مُسْلِمٍ إِلاَّ وَلِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ**."[(١)]، وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: "**اشْتَرَى مِنْهُمْ أَنْفُسَهُمْ أَنْ لا يُعْمِلُوهَا إِلاَّ فِي طَاعَتِهِ، وَأَمْوَالَهُمْ أَنْ لا يُنْفِقُوهَا إِلاَّ فِي سَبِيْلِهِ**." [(٢)]، وَكَانَ الْحَسَنُ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: "**اشْتَرَى أَنْفُساً هُوَ خَلَقَهَا، وَأَمْوَالاً هُوَ رَزَقَهَا**." [(٣)]، وَقَالَ الإِمَامُ جَعْفَرٌ الصَّادِقُ رَحِمَهُ اللَّهُ : "**لَيْسَ لأَبْدَانِكُمْ ثَمَنٌ إِلاَّ الْجَنَّةُ، فَلا تَبِيْعُوهَا إِلاَّ بِهَا**." [(٤)]، وَأَنْشَدَ الأَصْمَعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ لَهُ :

أُثَـــامِنُ بِالنَّفْـــسِ النَّفِيْسَـــةِ رَبَّـــهَا ... وَلَيْسَ لَهَا فِيْ الْخَلْقِ كُلِّـــهِم ثَمَـــنُ

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/٣٩٠) .

(٢) «تفسير البحر المحيط» لأبي حيان التوحيدي (٥/٨٤) .

(٣) «التفسير الكبير » للرازي (١٦/ ١٧٤) .

(٤) المصدر السابق .

بِهَا تُشْتَرَى الْجَنَّاتُ إِنْ أَنَا بِعْتُهَا بِشَيْءٍ سِوَاهَا إِنَّ ذَلِكُمْ غَبَنْ
لَئِنْ ذَهَبَتْ نَفْسِي بِدُنْيَا أُصِبْتُهَا لَقَدْ ذَهَبَتْ نَفْسِي وَذَهَبَ الثَّمَنْ [(١)] .

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ : "أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ ﴿اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ وَأَعَاضَهُم عَلَيهَا الْجَنَّةَ، وَأَنَّ هَذَا الْعَقْدَ والوَعْدَ قَدْ أَوْدَعَهُ أَفضَلَ كُتُبِهِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ، وهِيَ: التَّوْرَاةُ، وَالإِنْجِيلُ، وَالْقُرْآنُ، ثُمَّ أَكَّدَ ذَلِكَ بِإِعْلامِهِم أَنَّهُ لا أَحَدَ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْهُ تَبَارَكَ وَتَعَالى، ثُمَّ أَكَّدَ ذَلِكَ بِأَنْ أَمَرَهُم بِأَنْ يَسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِهِمُ الَّذِي عَاقَدُوهُ عَلَيهِ، ثُمَّ أَعْلَمَهُمْ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [(٢)]؛ وقَدْرُ السِّلْعَةِ يُعْرَفُ بِقَدْرِ مُشْتَرِيهَا وَالثَّمَنِ الْمَبْذُولِ فِيهَا وَالْمُنَادِي عَلَيهَا، فَإِذَا كَانَ الْمُشْتَرِي عَظِيماً، وَالثَّمنُ خَطِيراً، والْمُنَادِي جَلِيلاً، كَانَتِ السِّلْعَةُ نَفِيسَةً [(٣)] .

فَلْيَتَأَمَّلِ الْعَاقِدُ مَعَ رَبِّهِ هَذَا التَّبَايُعَ مَا أَعْظَمَ خَطَرَهُ وأَجَلَّهُ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الْمُشْتَرِي، وَالثَّمَنَ جَنَّاتُ النَّعِيمِ وَالْفوزُ بِرِضَاهُ والتَّمَتُّعُ بِرُؤْيَتِهِ هُنَاكَ، وَالَّذِي عَلَى يَدِهِ هَذَا الْعَقْدُ أَشْرَفُ رُسُلِهِ وأَكْرَمُهُم عَلَيهِ مِنَ الْمَلائِكَةِ وَالْبَشَرِ، وإِنَّ سِلْعَةً هَذَا شَأْنُهَا لَقَدْ هُيِّئَتْ لأَمْرٍ عَظِيمٍ وخَطْبٍ جَسِيمٍ :

قَدْ هَيَّؤُوكَ لأَمْرٍ لَوْ فَطِنْتَ لَهُ فَارْبَأْ بِنَفْسِكَ أَنْ تَرْعَى مَعَ الْهَمَلِ

مَهْرُ الْمَحَبَّةِ والْجَنَّةِ بَذْلُ النَّفْسِ والْمَالِ لِمَالِكِهَا الَّذِي اشْتَرَاهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، .. فَإِنَّ نُفُوسَ الْمُحِبِّينَ وأَمْوَالَهُم لَيْسَتْ لَهُم، فَسَلَّمُوا مَا وَقَعَ عَلَيهِ الْعَقْدُ، فَإِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُم وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ، وعَقْدُ التَّبَايُعِ يُوجِبُ التَّسْلِيمَ مِنَ الْجَانِبَينِ، فَلَمَّا رَأَى التُّجَّارُ عَظَمَةَ الْمُشْتَرِي، وقَدْرَ الثَّمَنِ وجَلالَةَ مَنْ جَرَى عَقْدُ التَّبَايُعِ عَلَى يَدَيْهِ، ومِقْدَارَ الْكِتَابِ الَّذِي أُثْبِتَ فِيهِ هَذَا الْعَقْدُ، عَرَفُوا أَنَّ لِلسِّلْعَةِ قَدْراً وشَأْناً لَيسَ لِغَيْرِهَا مِنَ السِّلَعِ، فَرَأَوْا مِنَ الْخُسْرَانِ الْبَيِّنِ والْغَبْنِ الْفَاحِشِ أَنْ يَبِيعُوهَا بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ

---

(١) «تفسير القرطبي» (٨/٢٣١) .

(٢) «زاد المعاد» (٣/٥٣ – ٥٥) .

(٣) «الفوائد» (١٠٧) .

مَعْدُودَةٍ، تَذهَبُ لَذَّتُهَا وشَهْوَتُهَا، وتَبْقَى تَبِعَتُهَا وحَسْرَتُهَا، فَإِنَّ فَاعِلَ ذَلِكَ مَعْدُودٌ فِي جُمْلَةِ السُّفَهَاءِ، فَعَقَدُوا مَعَ الْمُشْتَرِي بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ، رِضىً وَاخْتِيَاراً مِنْ غَيرِ ثُبُوتِ خِيَارٍ، وَقَالُوا: وَاللَّهِ لا نَقِيْلُكَ ولا نَسْتَقِيْلُكَ، فَلَمَّا تَمَّ الْعَقْدُ وسَلَّمُوا الْمَبِيعَ، قِيلَ لَهُم: قَدْ صَارَتْ أَنْفُسُكُم وأَمْوَالُكُم لَنَا، والآنَ فَقَدْ رَدَدْنَاهَا عَلَيكُم أَوْفَرَ مَا كَانَتْ وأَضْعَافَ أَمْوَالِكُمْ مَعَهَا، .. لَمْ نَبْتَعْ مِنْكُم نُفُوسَكُم وأَمْوَالَكُم طَلَباً لِلرِّبْحِ عَلَيكُم، بَل لِيَظْهَرَ أَثَرُ الْجُودِ والْكَرَمِ فِي قَبُولِ الْمَعِيبِ والإِعْطَاءِ عَلَيهِ أَجَلَّ الأَثْمَانِ، ثُمَّ جَمَعْنَا لَكُم بَيْنَ الثَّمَنِ والْمُثَمَّنِ، .. فَسُبْحَانَ مَنْ عَظُمَ جُودُهُ وكَرَمُهُ أَنْ يُحِيطَ بِهِ عِلْمُ الْخَلائِقِ، فَقَدْ أَعْطَى السِّلْعَةَ وأَعْطَى الثَّمَنَ، وَوَفَّقَ لِتَكْمِيلِ الْعَقْدِ، وقَبِلَ الْمَبِيْعَ عَلَى عَيْبِهِ، وأَعَاضَ عَلَيهِ أَجَلَّ الأَثْمَانِ، وَاشْتَرَى عَبْدَهُ مِنْ نَفْسِهِ بِمَالِهِ، وجَمَعَ لَهُ بَينَ الثَّمَنِ والْمُثَمَّنِ، وأَثْنَى عَلَيهِ ومَدَحَهُ بِهَذَا العَقْدِ، وهُوَ سُبْحَانَهُ الَّذِي وَفَّقَهُ لَهُ، وشَاءَهُ مِنْهُ "[(١)] .

وَقَالَ الإِمَامُ الرَّازِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : "وَاخْتَلَفُوا فِي أَنَّهُ هَلْ دَخَلَ تَحْتَ هَذِهِ الآيَةِ مُجَاهَدَةُ الأَعْدَاءِ بِالْحُجَّةِ والأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ أَمْ لا ؟ فَمِنْهُم مَنْ قَالَ: هُوَ مُخْتَصٌّ بالجِهَادِ بِالْمُقَاتَلَةِ، لأَنَّهُ فَسَّرَ تِلْكَ الْمُبَايَعَةَ بِالْمُقَاتَلَةِ بِقَولِهِ: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ﴾؛ وَمِنْهُم مَنْ قَالَ: كُلُّ أَنْوَاعِ الجِهَادِ دَاخِلٌ فِيهِ، بِدَلِيلِ الْخَبَرِ الَّذِي رَوَيْنَاهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ رضي الله عنه - وَهُوَ مَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ وَغَيرِهِ، قَالُوا: قَالَ عَبدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ رضي الله عنه لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: اشْتَرِطْ لِرَبِّكَ وَلِنَفْسِكَ مَا شِئْتَ !. قال: **"أَشْتَرِطُ لِرَبِّي أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وأَشْتَرِطُ لِنَفْسِي أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ"** قَالُوا: فَإِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ فَمَاذَا لَنَا ؟ قَالَ: **"الْجَنَّةُ "** قَالُوا: رَبِحَ الْبَيعُ، لا نَقِيلُ ولا نَسْتَقِيلُ! فَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ **[التوبة: ١١١]**[(٢)] . وَذَلِكَ فِي بَيْعَةِ الْعَقَبَةِ الْكُبْرَى - .

---

(١) «زاد المعاد» ص (٣/٥٣-٥٥) باختصار يسير .

(٢) تفسير الطبري (١٧٢٧٠) .

وَأَيْضاً فَالْجِهَادُ بِالْحُجَّةِ والدَّعْوَةِ إلى دَلائِلِ التَّوْحِيدْ أَكْمَلُ آثاراً مِنَ الْقِتَال، وَلِذَلِكَ قَالَ ﷺ لِعَلِيٍّ ﷺ: **"فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْس."** (١)، وَلأَنَّ الجِهَادَ بِالْمُقَاتَلةِ لا يَحْسُنُ أَثَرُهَا إلاَّ بَعْدَ تَقْدِيْمِ الجِهَادِ بالحُجَّةِ، وأَمَّا الجِهَادُ بِالْحُجَّةِ فَإِنَّهُ غَنيٌّ عَنِ الجِهَادِ بِالْمُقَاتَلَةِ .

وَالأَنْفُسُ جَوْهَرُهَا شَرِيفٌ، خَصَّهُ اللهُ ﷻ بمَزِيدِ الإِكْرَام في هَذَا الْعَالَم، ولا فَسَادَ في ذَاتِهِ، إِنَّمَا الْفَسَادُ في الصِّفَةِ الْقَائِمَةِ بِه، وهِيَ الْكُفْرُ والجَهْلُ، ومَتَى أَمْكَنَ إِزَالَةُ الصِّفَةِ الْفَاسِدَةِ مَعَ إِبْقَاءِ الذَّاتِ والجَوْهَرِ كَانَ أَوْلَى، أَلا تَرَى أَنَّ جِلْدَ الْمَيْتَةِ لَمَّا كَانَ مُنْتَفعاً بِهِ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ، لا جَرَمَ حَثَّ الشَّرْعُ عَلَى إِبْقَائِهِ، فَقَالَ:" **هَلاَّ أَخَذْتُمْ إهَابَهَا فَدَبَغْتُمُوهُ فَانْتَفَعْتُمْ بِهِ.**" (٢)؛ فَالجِهَادُ بِالْحُجَّةِ يَجْرِي مَجْرَى الدِّبَاغَةِ، وهُوَ إِبْقَاءُ الذَّاتِ مَعَ إِزَالَةِ الصِّفَةِ الفَاسِدَةِ، والجِهَادُ بِالْمُقَاتَلَةِ يَجْرِي مَجْرَى إِفْنَاءِ الذَّاتِ، فَكَانَ الْمَقَامُ الأَوَّلُ أَوْلَى وَأَفْضَلَ " (٣) .

وقَالَ الإِمَامُ الجَصَّاصُ رَحِمَهُ اللهُ: "يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ حُكْمُ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَنِ الْمُنْكَرِ أَنَّهُ مَتَى رَجَا نَفْعاً في الدِّينِ، فَبَذَلَ نَفْسَهُ فِيهِ حَتَّى قُتِلَ كَانَ في أَعْلَى دَرَجَاتِ الشُّهَدَاء؛ قَالَ ﷻ عَلَى لِسَانِ لُقْمَانَ: ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ **[لقمان: ١٧]**، وقَدْ رُوِيَ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنِ النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:" **"أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِالْمُطَّلِب، وَرَجُلٌ قَامَ إِلى سُلْطَانٍ جَائِرٍ، فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ** " (٤) .

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) رواه مسلم عن ابن عباس برقم (٣٦٣) .

(٣) «التفسير الكبير» للرازي (١٦/١٧٣) .

(٤) رواه الطبري في الأوسط عن ابن عباس برقم (٤٠٧٩) والحاكم في المستدرك عن جابر برقم (٤٨٨٤) وقال: صحيح الإسناد و لم يخرجاه .

وعَنْ أَبِيْ سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "**أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ** " [(١)][(٢)] .

وقَالَ الإِمَامُ ابْنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: "فَمَنْ كَانَ مُجَاهِداً في سَبِيلِ اللَّهِ باللِّسَانِ بالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وبَيَانِ الدِّينِ وتَبْلِيغِ مَا فِي الْكِتَاب وَالسُّنَّةِ مِنَ الأَمْرِ وَالنَّهْي والْخَبَر وبَيَانِ الأَقْوَالِ الْمُخَالِفَةِ لِذَلِكَ وَالرَّدِّ عَلَى مَنْ خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، أَوْ بالْيَدِ كَقِتَالِ الْكُفَّارِ، فَإِذَا أُوْذِيَ عَلَى جِهَادِهِ بِيَدِ غَيْرِهِ أَوْ لِسَانِهِ، فَأَجْرُهُ فِي ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ"[(٣)] .

*****

(١) رواه أبو داوود برقم (٤٣٤٤) والترمذي برقم (٢١٧٤) وقال: حديث حسن. ورواه النسائي برقم (٤٢٠٩) وقال: المنذري في الترغيب: بإسناد صحيح .

(٢) «أحكام القرآن» للجصاص (٣٢٨/١) .

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٠١/٨) .

الْحَدِيْثُ الثَّامِنُ وَالثَّلاثُون

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "**مَنْ صُرِعَ عَنْ دَابَّتِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمَاتَ فَهُوَ شَهِيدٌ** " (١) .

قوله (**مَنْ صُرِعَ عَنْ دَابَّتِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمَاتَ**) أَيْ مَنْ طُرِحَ عَنهَا وسَقَطَ فَمَاتَ وهُوَ فِي طَرِيقِ إِحْيَاءِ الدِّيْنِ وتَبْلِيغِ رِسَالاتِ اللَّهِ وَالذَّبِّ عَنِ الإِسْلامِ وَالْمُسْلِمِينَ .

قوله (**فَهُوَ شَهِيدٌ**) لأَنَّهُ خَرَجَ في سَبِيلِ اللَّهِ وَمَاتَ في سَبِيلِهِ، ومَنْ مَاتَ في سَبِيلِ اللَّهِ فهو شَهِيدٌ لأَجْلِ نِيَّتِهِ وإِخْلاصِهِ، كمَا قَالَ ﷺ: "**وَمَنْ مَاتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ** " (٢). وَالْمُرَادُ بِشَهَادَتِهِ أَنَّهُ يُعْطَى أَجْرَ شَهِيدٍ يومَ الْقِيَامَةِ، أَمَّا في الدُّنْيَا فَإِنَّهُ يُغَسَّلُ ويُصَلَّى عَلَيهِ .

مَعْنَى الْحَدِيْثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْه

يُبيِّن النَّبيُّ ﷺ أَنَّ الَّذِي يَخْرُجُ في سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ قَاصِداً إِعْلاءَ كَلِمَةِ اللَّهِ وَإِحْيَاءَ دِينِهِ، ثُمَّ يَمُوتُ في هَذَا السَّبِيلِ بِأَيِّ سَبَبٍ كَانَ، وَلَوْ أَنْ يَسْقُطَ عَنْ دَابَّتِهِ، فَإِنَّ لَهُ أَجْرَ شَهِيدٍ يومَ الْقِيَامَةِ، وبِهَذَا الْمَعْنَى رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَتِيكٍ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "**مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ** - ثُمَّ قَالَ بِأَصَابِعِهِ هَؤُلاءِ الثَّلاثِ الْوُسْطَى وَالسَّبَّابَةِ وَالإِبْهَامِ فَجَمَعَهُنَّ وَقَالَ: **وَأَيْنَ الْمُجَاهِدُونَ ؟** - **فَخَرَّ عَنْ دَابَّتِهِ فَمَاتَ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، أَوْ لَدَغَتْهُ دَابَّةٌ فَمَاتَ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ،**

---

(١) رواه الطبراني في الكبير برقم (٨٩٢) وأبو يعلى في مسنده برقم (١٧٥٢) واللفظ له، وحسنه الحافظ ابن حجر في الفتح، قال الهيثمي في المجمع: رجاله ثقات، وعلى ذلك ترجم البخاري في صحيحه فقال: "**باب فضل مَنْ صُرِعَ في سَبيلِ اللَّهِ فَمَاتَ فَهُوَ مِنْهُم**" .

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة برقم (١٩١٥) .

أَوْ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ مَاتَ قَعْصًا(١) فَقَدِ اسْتَوْجَبَ الْمَآبَ"(٢)، أَيْ حُسْنَ الْمَرْجِعِ بَعْدَ الْمَوتِ، وَهُوَ الجَنَّةُ .

وعَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **"مَنْ فَصَلَ** – أَيْ مَنْ خَرَجَ – **فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمَاتَ أَوْ قُتِلَ فَهُوَ شَهِيدٌ، أَوْ وَقَصَهُ فَرَسُهُ أَوْ بَعِيرُهُ أَوْ لَدَغَتْهُ هَامَّةٌ، أَوْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ، أَوْ بِأَيِّ حَتْفٍ شَاءَ اللَّهُ، فَإِنَّهُ شَهِيدٌ، وَإِنَّ لَهُ الْجَنَّةَ "** (٣) .

ومِمَّنْ أَكْرَمَهُ اللَّهُ ﷻ بالشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِهِ بِهَذِهِ الْكَيْفِيَّةِ الصَّحَابِيَّةُ الْجَلِيلَةُ أُمُّ حَرَامٍ بِنْتُ مِلْحَانَ ﵂ ، فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ عَنْ خَالَتِهِ أُمِّ حَرَامٍ بِنْتِ مِلْحَانَ ﵂ قَالَتْ: نَامَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا قَرِيبًا مِنِّي ثُمَّ اسْتَيْقَظَ يَتَبَسَّمُ، فَقُلْتُ: مَا أَضْحَكَكَ ؟ قَالَ: **"أُنَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ يَرْكَبُونَ هَذَا الْبَحْرَ الأَخْضَرَ، كَالْمُلُوكِ عَلَى الأَسِرَّةِ "**، قَالَتْ: فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَدَعَا لَهَا، ثُمَّ نَامَ الثَّانِيَةَ فَفَعَلَ مِثْلَهَا، فَقَالَتْ مِثْلَ قَوْلِهَا فَأَجَابَهَا مِثْلَهَا، فَقَالَتِ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: **"أَنْتِ مِنَ الأَوَّلِينَ "**، فَخَرَجَتْ مَعَ زَوْجِهَا عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ غَازِيًا أَوَّلَ مَا رَكِبَ الْمُسْلِمُونَ الْبَحْرَ مَعَ مُعَاوِيَةَ، فَلَمَّا انْصَرَفُوا مِنْ غَزْوِهِمْ قَافِلِينَ فَنَزَلُوا الشَّأْمَ، فَقُرِّبَتْ إِلَيْهَا دَابَّةٌ لِتَرْكَبَهَا، فَصَرَعَتْهَا، فَمَاتَتْ (٤) .

فَائِـــدَة

مَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ ثُمَّ جَاءَهُ الْمَوتُ، فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ يُجْرِي عَلَيهِ عَمَلَهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، ويَكْتُبُ لَهُ أَجْرَهُ إلى يَومِ الْقِيَامَةِ، سَوَاءٌ كَانَ خُرُوجُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لأَجْلِ إِقَامَةِ

---

(١) القَعْصُ: هو أن يُضْرَبَ الإنسانُ فيموتَ مَكَانَهُ، يقال: قَعَصَهُ وأَقْعَصْتُهُ إذا قتلته قتلاً سريعاً. «النهاية» (١٣٤/٤) .

(٢) رواه أحمد في مسنده واللفظ له (١٦٤٦١) والطبراني في الكبير (١٧٥٤) والحاكم في المستدرك (٢٤٤٥) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي .

(٣) رواه أبو داوود في سننه (٢٥٠١) والطبراني في الكبير (٣٤١٨) والحاكم في المستدرك (٢٤١٦) وقال: صحيح على شرط مسلم وضعفه الذهبي .

(٤) رواه البخاري (٢٧٩٩) (٢٨٠٠) ومسلم (٥٠٤٥) .

الدِّين ونَشْرِه، كَالْمُجَاهِدِ بالدَّعْوَةِ والْبَيَانِ والتَّبْلِيغ باللِّسَانِ، وَالْمُجَاهِدِ بالسَّيْفِ وَالسِّنَانِ، أَوْ كَانَ خُرُوجُهُ لِلذَّبِّ عَنْ حِمَى الإسْلامِ وَالْمُسْلِمِينَ، والْمُرَابَطَةِ عَلَى الثُّغُورِ مَعَ الكُفَّارِ، أَوْ كَانَ خُرُوجُهُ لأَجْلِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ في سَبِيلِ الله ﷻ، فَعَنْ أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **"مَنْ خَرَجَ حَاجًّا فَمَاتَ كُتِبَ لَهُ أَجْرُ الْحَاجِّ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ خَرَجَ مُعْتَمِرًا فَمَاتَ كُتِبَ لَهُ أَجْرُ الْمُعْتَمِرِ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ خَرَجَ غَازِيًا فَمَاتَ كُتِبَ لَهُ أَجْرُ الْغَازِي إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ "** [(١)] . وفي رِوَايَةٍ: **"مَنْ خَرَجَ مُجَاهِداً في سَبِيْلِ الله ثُمَّ مَاتَ كَتَبَ الله لَهُ أَجْرَ الْمُجَاهِدِ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ "** [(٢)]. وهَذَا بعُمُومِهِ يَدْخُلُ فيه مَنْ خَرَجَ مُجَاهِداً بالدَّعْوَةِ والتَّبْلِيغِ وإقَامَةِ الْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ، وهُوَ الَّذِي سَمَّاهُ الله ﷻ جهاداً كَبِيراً، حيث قَالَ: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ **[الفرقان: ٥٢]**، أَيْ بالْقَرْآنِ؛ وَقَالَ ﷺ: **"جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ"** [(٣)] . كَمَا يَدْخُلُ فِيهِ مَنْ خَرَجَ مُجَاهِداً بالسَّيْفِ وَالسِّنَانِ .

وعَنْ سَلْمَانَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: **"رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ وَأُجْرِىَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ وَأَمِنَ الْفَتَّانَ "** [(٤)]. وَكُلُّ مَنْ حَرَسَ الْمُسْلِمِينَ في مَوْضِعٍ يُخْشَى عَلَيهِمْ فِيهِ مِنْ عَدُوٍّ فَهُوَ مُرَابِطٌ؛ وهَذَا مِنْ عَظِيمِ كَرَمِ الله ﷻ وإحْسَانِه عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ الْمُخْلِصِينَ، حَيْثُ إِنَّهُ يُعْطِيهِم مِنَ الثَّوَابِ عَلَى حَسَبِ نِيَّاتِهِم وقَصْدِهِم كَمَا لَوْ أَنَّهُم بَاشَرُوا الْقِيَامَ بِهَذِهِ الأَعْمَالِ فِعْلاً، كَمَا قَالَ ﷺ : **"وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى "** [(٥)]، فإِذَا حَالَ قَدَرُ الله ﷻ بَيْنَهُم وَبَينَ قِيَامِهِم بالأَعْمَالِ، فَإِنَّ الله ﷻ يُعْطِيهِم مَا نَوَوْهُ وقَصَدُوهُ.

---

(١) رواه الطبراني في الكبير برقم (٨٠٥) وفي الأوسط برقم (٥٣٢١) وأبو يعلى في مسنده (٦٣٥٧) قال المنذري في الترغيب: رواه أبو يعلى من رواية محمد بن اسحاق، وبقية رواته ثقات .

(٢) رواه أبو نعيم في «أخبار أصبهان» عن أبي هريرة برقم (٤٠٠٨٦) وابن شاهين في «الثواب» برقم (٣٢٥) .

(٣) تقدم تخريجه .

(٤) رواه مسلم برقم (٥٠٤٧) .

(٥) تقدم تخريجه .

لِذَلِكَ كَانَ الصَّحَابَةُ ﭬ يُحِبُّونَ الْمَوتَ فِي سَبِيلِ اللهِ أَكْثَرَ مِمَّا يُحِبُّ غَيْرُهُمُ الْحَيَاةَ، لِمَا عَلِمُوا مِنْ عَظِيمِ فَضْلِ الْمَوتِ فِي سَبِيلِ اللهِ ﻷ، فَهَا هُوَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّاب ﭬ يَدْعُو اللهَ أَنْ يَرْزُقَهُ الشَّهَادَةَ فِي سَبِيلِهِ، حَيثُ قَالَ: "**اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي شَهَادَةً فِي سَبِيلِكَ، وَاجْعَلْ مَوْتِي فِي بَلَدِ رَسُولِكَ** ﷺ " (١).

وعَنْ سُلَيمَانَ بْنِ بلالٍ ﭬ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا خَرَجَ إِلَى بَدْرٍ أَرَادَ سَعْدُ بْنُ خَيْثَمَةَ وَأَبُوهُ جَمِيعاً الْخُرُوجَ مَعَهُ، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَأَمَرَ أَنْ يَخْرُجَ أَحَدُهُمَا، فَاسْتَهَمَا، فَقَالَ خَيْثَمَةُ بْنُ الْحَارِثِ لِابْنِهِ سَعْدٍ ﭭ: إِنَّهُ لا بُدَّ لأَحَدِنَا مِنْ أَنْ يُقِيمَ، فَأَقِمْ مَعَ نِسَاءِكَ. فَقَالَ سَعْدٌ: "**لَوْ كَانَ غَيْرَ الْجَنَّةِ لآثَرْتُكَ بِهِ، إِنِّي أَرْجُو الشَّهَادَةَ فِي وَجْهِي هَذَا.**" فَاسْتَهَمَا، فَخَرَجَ سَهْمُ سَعْدٍ، فَخَرَجَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى بَدْرٍ، فَقَتَلَهُ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وُدٍّ (٢).

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ ﭭ أَنَّ عُمَرَ ﭬ قَالَ يومَ أُحُدٍ لأَخِيهِ: خُذْ دِرْعِي يَا أَخِي، قَالَ: أُرِيْدُ مِنَ الشَّهَادَةِ مِثْلَ الَّذِي تُرِيدُ، فَتَرَكَاهَا جَمِيْعاً (٣).

وعَنْ أَنَسٍ ﭬ قَالَ: لَمَّا طُعِنَ حَرَامُ بْنُ مِلْحَانَ - وَكَانَ خَالَهُ - يَوْمَ بِئرِ مَعُونَةَ قَالَ بالدَّمِ هَكَذَا، فَنَضَحَهُ عَلَى وَجْهِهِ وَرَأْسِهِ، ثُمَّ قَالَ: "**فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ .**" (٤)، وكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ بَعَثَهُ فِي سَبْعِينَ رَاكِباً لِلتَّبْلِيْغِ عَنْهُ فَقَالَ ﭬ: "**أَتُؤَمِّنُونِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَسُولِ اللهِ** ﷺ ؟" فَجَعَلَ يُحَدِّثُهُم، فَجَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ خَلْفِهِ فَطَعَنَهُ " (٥).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه عن أسلم عن عمر ﭬ برقم (١٨٩٠) .

(٢) رواه الحاكم في المستدرك عن سليمان بن أبان (٤٨٦٦) وابن المبارك في «الجهاد» (٧٩) وسعيد بن منصور في سننه (٢٥٥٨) وذكره أبو نعيم في «المعرفة» (٣١٤٤) وابن سعد في «الطبقات» (٤٨٢/٣)، وقال الذهبي: مرسل ضعيف .

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٥٣٠٠) وأبو نعيم في «الحلية» (٣٦٧/١) وقال الهيثمي في المجمع: رجاله رجال الصحيح .

(٤) رواه البخاري (٤٠٩٢) .

(٥) رواه البخاري عن أنس (٤٠٩١) .

ووصف خالد بن الوليد رضي الله عنه من معه من الجنود بأنهم يحبون الموت في سبيل الله كما يحب أعداؤهم الحياة [(١)] .

وكانت لذة الصحابة رضي الله عنهم في إنفاق أموالهم في سبيل الله وفي معالجتهم الشدائد والمصاعب في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى وإقامة دينه في الأرض، كما قال خالد بن الوليد رضي الله عنه:" **ما ليلة تهدى إلى بيتي فيها عروس أنا لها محب أو أبشر فيها بغلام بأحب إلي من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين، أصبح بها العدو** " [(٢)] .

وقال عثمان بن مظعون رضي الله عنه حينما فقئت عينه بسبب تكذيبه لبيد بن ربيعة في قوله: "**وكل نعيم لا محالة زائل** "، فلامه الوليد بن المغيرة الذي كان قد أجاره، ثم رد عثمان جواره ورضي بجوار الله عز وجل، قال:" **إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى ما أصاب أختها في الله** " [(٣)] .

وقال ابن القيم رحمه الله: "وأما الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله والصبر على أعداء الله تعالى، فاللذة بذلك أمر آخر لا يناله الوصف، ولا يدركه من ليس له نصيب منه، وكل من كان به أقوم، كان نصيبه من الالتذاذ به أعظم، ومن غلظ فهمه، وكثف طبعه عن إدراك هذا فليتأمل إقدام القوم على قتل آبائهم وأبنائهم وأحبابهم ومفارقة أوطانهم، وبذل نحورهم لأعدائهم، ومحبتهم للقتل وإيثارهم له على البقاء، وإيثار لوم اللائمين وذم المخالفين على مدحهم وتعظيمهم؛ ووقوع هذا من البشر بدون أمر يذوقه من حلاوته ولذته وسروره ونعيمه ممتنع، والواقع شاهد بذلك، بل ما قام بقلوبهم من اللذة والسرور والنعيم أعظم مما يقوم بقلب العاشق الذي يتحمل ما يتحمله في موافقة رضى معشوقه، فهو يلتذ به ويتنعم به لما يعلم من سرور معشوقه به :

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تاريخه» عن المجالد عن الشعبي (٢/ ٣٠٨- ٣٠٩) ورواه الطبراني في الكبير بنحوه عن أبي وائل (٣٨٠٦) والحاكم في المستدرك (٥٣٠٠) قال الهيثمي: إسناده حسن أو صحيح .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) رواه الطبراني في الكبير عن عروة مرسلاً (٨٣١٦) وأبو نعيم في «الحلية» (١/١٠٣). وقال الهيثمي: فيه ابن لهيعة .

فَيَــا مُنْكِراً هَــذَا تَــأَخَّرْ فَــإِنَّهُ　　حَرَامٌ عَلَى الْخُفَّاشِ أَنْ يُبْصِرَ الشَّمْسَا

فَمَنْ كَانَ مُرَادَهُ وحِبَّهُ ﷻ، وحَيَاتُهُ في مَعْرِفَتِهِ، ومَحَبَّتُهُ في التَّوَجُّهِ إِلَيْهِ وذِكْرِهِ، وطُمَأْنِينَتُهُ بِهِ، وسُكُونُهُ إِلَيْهِ وَحْدَهُ عَرَفَ هَذَا وأَقَرَّ بِهِ " (١) .

*****

(١) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» ص (١/١٢٢-١٢٣) .



باب فضل الغربة والهجرة في سبيل اللّه

الْحَدِيْثُ التَّاسِعُ وَالثَّلاثُون

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: **مَاتَ رَجُلٌ بِالْمَدِينَةِ مِمَّنْ وُلِدَ بِهَا، فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ:" يَا لَيْتَهُ مَاتَ بِغَيْرِ مَوْلِدِهِ." قالوا: ولِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ: "إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا مَاتَ بِغَيْرِ مَوْلِدِهِ قِيسَ لَهُ مِنْ مَوْلِدِهِ إِلَى مُنْقَطَعِ أَثَرِهِ فِي الْجَنَّةِ "** [(١)] .

قوله (**إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا مَاتَ بِغَيْرِ مَوْلِدِهِ**) أَيْ بغَيرِ الْمَحَلِّ الَّذِي وُلِدَ فِيهِ، كَأَنْ مَاتَ غَرِيباً مُهَاجِراً فِي سَبِيلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، سَوَاءٌ كَانَ فِي سَفَرٍ أَوْ فِي إِقَامَةٍ بِغَيرِ وَطَنِهِ .

قوله (**قِيسَ لَهُ**) أَيْ أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْمَلائِكَةَ أَنْ تَقِيسَ لَهُ، أَيْ تَذْرَعَ لَهُ .

قوله (**مِنْ مَوْلِدِهِ إِلَى مُنْقَطَعِ أَثَرِهِ**) أَيْ إِلى مَوْضِعِ انْقِطَاعِ أَجَلِهِ؛ وأَصْلُ الأَثَرِ مِنْ أَثَرِ مَشْيَتِهِ، فَإِنَّ مَنْ مَاتَ لا يَبْقَى لَهُ أَثَرٌ، فَلا يُرَى لأَقْدَامِهِ أَثَرٌ [(٢)] .

قوله (**فِي الْجَنَّةِ**) قَالَ الطِّيبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: الْمُرَادُ أَنَّهُ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مِقْدَارَ مَا بَينَ قَبْرِهِ ومَوْلِدِهِ، ويُفْتَحَ لَهُ بَابٌ إلى الجَنَّةِ؛ وظَاهِرُ الْعِبَارَةِ أَنَّهُ يُعْطَى لَهُ فِي الْجَنَّةِ مَكَانُ هَذَا الْمِقْدَارِ [(٣)] .

مَعْنَى الْحَدِيْثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ

يُبَيِّنُ النَّبِيُّ ﷺ فَضِيلَةَ أَنْ يَمُوتَ الإِنْسَانُ مُهَاجِراً بَعِيْداً عَنْ وَطَنِهِ الَّذِي وُلِدَ فِيهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كُلَّمَا ازْدَادَ مَكَانُ مَوْتِهِ عَنْ مَولِدِهِ بُعْداً، ازْدَادَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيهِ، إِمَّا بِأَنْ يُفْسَحَ لَهُ فِي

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٦٦٥٦) والنسائي في سننه (١٨٣٢) واللفظ له، وابن ماجه (١٦١٤) وابن حبان في صحيحه (٢٩٣٤) وإسناده حسن .

(٢) «مرقاة المفاتيح» (٥٥/٤) .

(٣) «اللمعات» للدهلوي (١١٦/١) .

قَبرِهِ أَكْثَرَ، أَوْ أَنَّ مُلْكَهُ في الْجَنَّةِ يَزِيدُ بِهَذَا الْمِقْدَارِ، وَفِي هَذَا تَرغِيبٌ في الْهِجْرَةِ في سَبِيلِ اللهِ بِأَنْوَاعِهَا، فَإِنَّ الْمَوتَ في الْمَدِينَةِ لَهُ فَضْلٌ عَظِيمٌ، حَيثُ قَالَ ﷺ: **"وَلا يَثْبُتُ أَحَدٌ بِالْمَدِينَةِ، يَصْبِرُ عَلَى لأْوَائِهَا وجَهْدِهَا حَتَّى يَمُوتَ بِهَا إِلاَّ كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا أَوْ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ "** [(١)] . ومَعَ هَذَا تَمَنَّى النَّبِيُّ لِهَذَا الرَّجُلِ لَوْ أَنَّهُ مَاتَ بِغَيْرِهَا .

وأَوْلَى النَّاسِ بِهَذَا الْفَضْلِ مَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِ اللهِ مُهَاجِراً إلى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْفَظَ إِيْمَانَهُ، كَمَا فَعَلَ أَصْحَابُ الكَهْفِ حِينَمَا هَجَرُوا وَطَنَهُمْ فِرَاراً بِإِيْمَانِهِم خَشْيَةَ أَنْ يُفْتَنُوا فِي دِينِهِم، وَكَذَلِكَ مَنْ خَرَجَ لِيَتَعَلَّمَ مَا عِنْدَ غَيرِهِ مِنَ الإِيْمَانِ والْعِلْمِ، كَمَا خَرَجَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَبْحَثُ عَنِ الْخَضِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَيْ يَتَعَلَّمَ مِنْهُ مَا يَزِيدُهُ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قُرْباً ويَرفَعُهُ فِي دَرَجَاتِ الآخِرَةِ، وَكَذَلِكَ مَنْ خَرَجَ لِنَشْرِ الإِيْمَانِ فِي النَّاسِ، كَمَا فَعَلَ ذُو القَرْنَيْنِ حِينَمَا بَلَغَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا كَيْ يُبَلِّغَ النَّاسَ رِسَالَةَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويَدْعُوَهُم إِلى الإِيْمَانِ بِهِ وَحْدَهُ .

فَالْخُرُوجُ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجْمَعُ بَينَ هَذِهِ الْمَقَاصِدِ الثَّلاثَةِ الْعَظِيمَةِ، أَلا وَهِيَ حِفْظُ الإِيْمَانِ الْمَوْجُودِ، وتَعَلُّمُ الإِيْمَانِ الْمَطْلُوبِ وَالازْدِيَادُ مِنْهُ، ونَشْرُ هَذَا الإِيْمَانِ فِي النَّاسِ؛ فَالصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم حِينَمَا هَاجَرُوا مِنْ مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ إِلى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ حَفِظُوا إِيْمَانَهُم مِنَ الْفِتَنِ، وَازْدَادُوا إِيْمَاناً مَعَ إِيْمَانِهِم، وبَعْدَهَا نَشَرُوا هَذَا الإِيْمَانَ فِي مَشَارِقِ الأَرْضِ ومَغَارِبِهَا .

فَائِـــــــدَة

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِ قَولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ

(١) رواه مسلم عن عبد الله بن عمر (٣٤/١) و(٣٤١٢)، وأبو نعيم في «المستخرج على صحيح مسلم» (٣١٦٧) واللفظ له .

ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [الحج: ٥٨]. يُخبِرُ ٱللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّنْ خرَجَ مُهاجراً في سَبيلِ ٱللَّهِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ وطَلَباً لِمَا عِنْدَهُ، وتَرَكَ الأَوْطَانَ والأَهْلِينَ والخِلاَّنَ، وفارَقَ بلادَهُ في ٱللَّهِ ورَسُولِهِ، ونُصْرَةً لِدِينِ ٱللَّهِ، ثُمَّ قُتِلُوا أيْ في الجِهَادِ، أَوْ مَاتُوا أَيْ حَتْفَ أَنْفِهِم، أَيْ مِنْ غَيرِ قِتَالٍ عَلَى فُرُشِهِم، فَقَدْ حَصَلُوا عَلَى الأَجْرِ الْجَزِيلِ وَالثَّنَاءِ الجَمِيلِ .

قوله ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أَيْ لَيُجْرِيَنَّ عَلَيهِم مِنْ فَضْلِهِ ورِزْقِهِ في الْجَنَّة مَا تَقَرُّ بِهِ أَعْيُنُهُم، .. فَأَمَّا مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ مِنْ مُهَاجِرٍ أَوْ غَيرِ مُهَاجِرٍ فَقَدْ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الآيَةُ الْكَرِيْمَةُ مَعَ الأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ إجْرَاءَ الرِّزْق عَلَيْهِ، وعَظِيمَ إحْسَانِ ٱللَّهِ إِلَيْهِ، .. فَعَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ ٱللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **"مَنْ مَاتَ مُرَابِطاً أُجْرِيَ عَلَيْهِ مِثْلُ ذَلِكَ الأَجْرِ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ الرِّزْقُ، وَأَمِنَ مِنَ الْفَتَّانَيْنِ؛ وَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ... ثُمَّ تَلا الآيَةَ "** [(١)] .

وعَنْ عَبدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَحْدَمٍ الْخَوْلانِيِّ : أَنَّهُ حَضَرَ فَضَالَةَ بْنَ عُبَيْدٍ فِي الْبَحْرِ مَعَ جَنَازَتَيْنِ: أَحَدُهُمَا أُصِيبَ بِمِنْجَنِيق، والآخَرُ تُوُفِّيَ، فَجَلَسَ فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ عِنْدَ قَبْرِ الْمُتَوَفَّى، فَقِيلَ لَهُ: تَرَكْتَ الشَّهِيدَ فَلَمْ تَجْلِسْ عِنْدَهُ ؟ فَقَالَ :**" مَا أُبَالِي مِنْ أَيِّ حُفْرَتَيْهِمَا بُعِثْتُ، إنَّ ٱللَّهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ:﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فَمَا تَبْتَغِي أَيُّهَا الْعَبْدُ، إِذَا أُدْخِلْتَ مُدْخَلاً تَرْضَاهُ، وَرُزِقْتَ رِزْقاً حَسَناً، وَٱللَّهِ مَا أُبَالِي مِنْ أَيِّ حُفْرَتَيْهِمَا بُعِثْتُ "** [(٢)(٣)] .

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره واللفظ له (١٤٨٤٢)، ورواه أحمد في مسنده بمعناه عن أبي هريرة (٢٤٤)، وابن ماجه (٢٧٦٧)، ورواه ابن حبان في صحيحه عن سلمان (٤٦٢٦)، وقال البوصيري في الزوائد: هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات، ورواه الحاكم في المستدرك بنحوه (٢٤٢٢) وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي .

(٢) رواه ابن المبارك في «الجهاد» (٦٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره كما في «تفسير ابن كثير» (٣/٢٣٧) .

(٣) «تفسير ابن كثير» (٣/٢٣٦–٢٣٧) .

وعَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيدٍ ﷺ يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "**مَنْ مَاتَ عَلَى مَرْتَبَةٍ مِنْ هَذِهِ الْمَرَاتِبِ بُعِثَ عَلَيْهَا يَوْمَ القِيَامَةِ** ". قَالَ حَيْوَةُ – أَحَدُ الرُّوَاةِ – يَقُولُ: **رِبَاطٍ أَوْ حَجٍّ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ** (١) .

وقَالَ الله تعالى: ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء:١٠٠]، هَذَا فِي بَيَانِ الْحَثِّ عَلَى الْهِجْرَةِ وَالتَّرْغِيبِ، وبَيَانِ مَا فِيهَا مِنَ الْمَصَالِحِ، فَوَعَدَ الصَّادِقُ فِي وَعْدِهِ أَنَّ مَنْ هَاجَرَ فِي سَبِيلِهِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ، أَنَّهُ يَجِدُ مُرَاغَماً فِي الأَرْضِ وسَعَةً، فَالْمُرَاغَمُ مُشْتَمِلٌ عَلَى مَصَالِحِ الدِّيْنِ، وَالسَّعَةُ عَلَى مَصَالِحِ الدُّنْيَا؛ وذَلِكَ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَتَوَهَّمُ أَنَّ فِي الْهِجْرَةِ شَتَاتًا بَعْدَ الأُلْفَةِ، وفَقْرًا بَعْدَ الْغِنَى، وذُلاًّ بَعْدَ الْعِزِّ، وشِدَّةً بَعْدَ الرَّخَاءِ، والأَمْرُ لَيسَ كَذَلِكَ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ مَا دَامَ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ فَدِيْنُهُ فِي غَايَةِ النَّقْصِ، لا فِي الْعِبَادَاتِ الْقَاصِرَةِ عَلَيهِ كَالصَّلاةِ ونَحْوِهَا، ولا فِي الْعِبَادَاتِ الْمُتَعَدِّيَةِ كَالجِهَادِ بِالْقَولِ وَالْفِعْلِ وتَوَابِعِ ذَلِكَ، لِعَدَمِ تَمَكُّنِهِ مِنْ ذَلِكَ، وهُوَ بِصَدَدِ أَنْ يُفْتَنَ عَنْ دِيْنِهِ، خُصُوصاً إِنْ كَانَ مُسْتَضْعَفًا .

فَإِذَا هَاجَرَ فِي سَبِيلِ الله تَمَكَّنَ مِنْ إِقَامَةِ دِيْنِ الله وجِهَادِ أَعْدَاءِ الله ومُرَاغَمَتِهِم، فَإِنَّ الْمُرَاغَمَةَ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يَحْصُلُ بِهِ إِغَاظَةٌ لأَعْدَاءِ الله مِنْ قَولٍ وَفِعْلٍ، وكَذَلِكَ يَحْصُلُ لَهُ سَعَةٌ فِي رِزْقِهِ، وقَدْ وَقَعَ كَمَا أَخْبَرَ الله تعالى .

وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِالصَّحَابَةِ ﷺ، فَإِنَّهُمْ لَمَّا هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ الله وتَرَكُوا دِيَارَهُمْ وأَوْلادَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ لله، كَمُلَ بِذَلِكَ إِيْمَانُهُمْ، وحَصَلَ لَهُمْ مِنَ الإِيْمَانِ التَّامِّ وَالجِهَادِ الْعَظِيمِ وَالنَّصْرِ لِدِينِ الله مَا كَانُوا بِهِ أَئِمَّةً لِمَنْ بَعْدَهُمْ، وكَذَلِكَ حَصَلَ لَهُمْ مِمَّا يَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْفُتُوحَاتِ وَالْغَنَائِمِ مَا كَانُوا بِهِ أَغْنَى النَّاسِ، وهَكَذَا كُلُّ مَنْ فَعَلَ فِعْلَهُمْ

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢٣٩٤١) و(٢٣٩٤٥) و(٢٣٩٥٠) وابن المبارك في «الجهاد» (١٧٣) والطبراني في الكبير (٧٨٤٥) و(٧٨٥) والحاكم في المستدرك (٢٦٣٧) وقال: صحيح على شرط الشيخين، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات في أحد السندين .

حَصَلَ لَهُ مَا حَصَلَ لَهُمْ إِلَى يومِ الْقِيامَةِ؛ كَمَا قَالَ قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ في قَولِهِ: ﴿ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ ﴾ قَالَ: " أيْ مِنَ الضَّلالَةِ إِلَى الْهُدَى، ومِنَ الْقِلَّةِ إِلَى الْغِنَى " .

ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾، أَيْ: قَاصِداً رَبَّهُ ورِضَاهُ ومَحَبَّةً لِرَسُولِهِ ونَصْرًا لِدِينِ اللَّهِ، لا لِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ ﴿ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ ﴾ بِقَتْلٍ أَوْ غَيْرِهِ، ﴿ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ ﴾ ، أَيْ: فَقَدْ حَصَلَ لَهُ أَجْرُ الْمُهَاجِرِ الَّذِيْ أَدْرَكَ مَقْصُودَهُ بِضَمَانِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وذَلِكَ لأَنَّهُ نَوَى وجَزَمَ، وحَصَلَ مِنْهُ ابْتِداءٌ وشُرُوعٌ فِي الْعَمَلِ، فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِهِ وبِأَمْثَالِهِ أَنْ أَعْطَاهُمْ أَجْرَهُمْ كَامِلاً ولَوْ لَمْ يُكَمِّلُوا الْعَمَلَ، وغفَرَ لَهُمْ مَا حَصَلَ مِنْهُمْ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي الْهِجْرَةِ وغَيْرِهَا [(١)]؛ ومِنْهُ حَدِيثُ الرَّجُلِ الَّذِي قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ ثُمَّ سَأَلَ عَالِماً: هَلْ لَهُ مِنْ تَوبَةٍ ؟ فَأَرْشَدَهُ إِلَى أَنْ يَتَحَوَّلَ مِنْ بَلَدِهِ إِلَى بَلَدٍ آخرَ يَعْبُدُ اللَّهَ فِيهِ. فَلَمَّا ارْتَحَلَ مِنْ بَلَدِهِ مُهَاجِراً إِلَى الْبَلَدِ الآخَرِ أَدْرَكَهُ الْمَوتُ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ ومَلائِكَةُ الْعَذَابِ، .. فَوَجَدُوهُ أَقْرَبَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِيْ هَاجَرَ إِلَيْهَا بِشِبْرٍ، فَقَبَضَتْهُ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ [(٢)] .

وقَدْ ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ أَنَّ مَنْ سَارَ لأَمْرٍ فِيهِ مَنْفَعَةٌ كَطَلَبِ عِلْمٍ وحَجٍّ وكَسْبٍ حَلالٍ ومَاتَ قَبْلَ الْوُصُولِ إِلَى مَقْصَدِهِ فَلَهُ مِثْلُ هَذَا الْحُكْمِ [(٣)] .

وقَالَ أَبُو حَيَّانَ التَّوحِيدِيُّ وَالزَّمَخْشَرِيُّ رَحِمَهُمَا اللَّهُ حِكَايَةً عَنِ الْمُفَسِّرِينَ: "إِنَّ كُلَّ هِجْرَةٍ لِغَرَضٍ دِيْنِيٍّ، مِنْ طَلَبِ عِلْمٍ أَوْ حَجٍّ أَوْ جِهَادٍ أَوْ فِرَارٍ إِلى بَلَدٍ يَزْدَادُ فِيهِ طَاعَةً أَوْ قَنَاعَةً أَوْ زُهْداً فِي الدُّنْيَا وَابْتِغَاءَ رِزْقٍ طَيِّبٍ، فَهِيَ هِجْرَةٌ إِلَى اللَّهِ ورَسُولِهِ، وإِنْ أَدْرَكَهُ الْمَوتُ فِي طَرِيقِهِ فَأَجْرُهُ وَاقِعٌ عَلَى اللَّهِ " [(٤)] .

---

(١) تفسير السعدي ص (١٩٦) .

(٢) تفسير ابن كثير باختصار (٥٤٩/١)، وتقدم تخريج القصة .

(٣) تفسير القطان (٣٣١/١) .

(٤) «تفسير البحر المحيط» لأبي حيان التوحيدي (٢٧٤/٣) و«تفسير الكشاف» للزمخشري (٥٩٠/١) .

وعَنْ قَتَادَةَ رَحِمَهُ اللهُ في قَولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:١٢١] قَالَ: "مَا ازْدَادَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِيْهِمْ فِيْ سَبِيلِ اللهِ بُعْداً، إلاَّ ازْدَادُوْا مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قُرْباً." [(١)]، فَلَمَّا كَانَ الْخَارِجُ في سَبِيلِ اللهِ أَقْرَبَ النَّاسِ إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَلا جَرَمَ أَنَّ دُعَاءَهُ أَحْرَى الدُّعَاءِ أَنْ يُسْتَجَابَ، كَمَا قَالَ مَسْرُوقٌ رَحِمَهُ اللهُ: "مَا مِنْ حَالٍ أَحْرَى أَنْ يُسْتَجَابَ لِلْعَبْدِ فِيْهِ إلاَّ أَنْ يَكُونَ فِيْ سَبِيلِ اللهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ عَافِراً وَجْهَهُ سَاجِداً "[(٢)] .

فَأَحْرَى حَالٍ يُسْتَجَابُ فِيهِ الدُّعَاءُ هُوَ في الْخُرُوجِ في سَبِيلِ اللهِ، وأَفْضَلُ مَكَانٍ يَمُوتُ فِيهِ الْعَبْدُ هُوَ في سَبِيلِ اللهِ؛ لِذَلِكَ كَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ يَتَمَنَّوْنَ الْمَوتَ في سَبِيلِ اللهِ، كَمَا قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:" مَا جَاءَنِي أَجَلِيْ فَيْ مَكَانٍ مَا عَدَا فِيْ سَبِيْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَأْتِيَنِيْ وَأَنَا بَيْنَ شُعْبَتَيْ رَحْلِيْ أَطْلُبُ مِنْ فَضْلِ اللهِ، وتَلا الآيَةَ، ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ "[(٣)] . فَأَفْضَلُ مَكَانٍ يَمُوتُ فِيْهِ الْعَبْدُ هُوَ فِيْ سَبِيلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

نَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يُوَفِّقَنَا لِلْخُرُوجِ في سَبِيلِهِ، دُعَاةً إلى دِينِهِ في مَشَارِقِ الأَرْضِ ومَغَارِبِهَا، وأَنْ يَتَوَفَّانَا ونَحْنُ خَارِجُونَ في سَبِيلِهِ، إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ والْقَادِرُ عَلَيهِ .

*****

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٧٤٦٥) وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠٩٤٥) وانظر «تفسير ابن كثير» (٣/٣٩٨) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧٦٣٨) و(١٩٤٨٤) .

(٣) رواه عبدالرزاق في مصنفه (٢١٠١٨) والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٢٥٦) .

الحَدِيثُ الأَرْبَعُونَ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "بَدَأَ الإِسْلاَمُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ."[١]، وفي رِوَايَةٍ: قِيلَ: وَمَنِ الْغُرَبَاءُ ؟ قَالَ: "النُّزَّاعُ مِنَ الْقَبَائِلِ"[٢]، وفي رِوَايَةٍ: قِيلَ: يَا رَسُولَ الله وَمَنِ الْغُرَبَاءُ؟ قَالَ:" الَّذِينَ يَصْلُحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ "[٣]، وفي رِوَايَةٍ أُخْرَى: قِيلَ: مَنِ الْغُرَبَاءُ ؟ قَالَ:" الْفَرَّارُوْنَ بِدِيْنِهِمْ مِنَ الْفِتَنِ، يَبْعَثُهُمُ الله مَعَ عِيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ عليه السلام "[٤]، وفي رِوَايَةٍ أُخْرَى: "طُوْبَى لِلْغُرَبَاءِ ". قُلْنَا: وَمَنِ الْغُرَبَاءُ ؟ قَالَ:" قَوْمٌ صَالِحُونَ قَلِيْلٌ فِي نَاسِ سُوْءٍ كَثِيْرٍ، مَنْ يَعْصِيهِمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُطِيْعُهُمْ " [٥]، وفي رِوَايَةٍ: "فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِي مِنْ سُنَّتِي " [٦] .

قوله (بَدَأَ الإِسْلاَمُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا) أَيْ أَنَّ الإِسْلامَ بَدَأَ فِي آحَادٍ مِنَ النَّاسِ وقِلَّةٍ، ثُمَّ انْتَشَرَ وظَهَرَ، ثُمَّ سَيَلْحَقُهُ النَّقْصُ والإِخْلالُ حَتَّى لا يَبْقَى إلاَّ فِي آحَادٍ وقِلَّةٍ أَيْضاً كَمَا بَدَأَ [٧]؛ أَو تَكُونُ الْغُرْبَةُ بِقِلَّةِ مَنْ يَقُومُ بِهِ ويُعِينُ عَلَيه وإِنْ كَانَ أَهْلُهُ كَثِيراً [٨] .

قوله (فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ) طُوبَى عَلَى وَزْنِ فُعْلَى مِنَ الطِّيْبِ؛ قَالَهُ الْفَرَّاء، قَالَ: وَإِنَّمَا جَاءَتِ الْوَاوُ لِضَمَّةِ الطَّاءِ؛ قَالَ: وَفِيهَا لُغَتَانِ تَقُولُ الْعَرَب: «طُوبَاك» و«طُوبَى لَك» . وَأَمَّا مَعْنَى«طُوبَى» فَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ سبحانه وتعالى: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة برقم (٢٣٢) ورواه عن ابن عمر بمعناه برقم (٢٣٣) .

(٢) رواه أحمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود برقم (٣٧٨٤) وابن ماجه عنه برقم (٣٩٨٨) .

(٣) رواه أحمد في مسنده عن عبدالرحمن بن سنة برقم (١٦٧٣٦) والطبراني في الكبير (٥٧٣٤) وفي الصغير عن سهل بن سعد (٢٩٠) ورواه في الأوسط عن جابر برقم (٤٩١٥) .

(٤) رواه أبو نعيم في «الحلية» عن عبد الله بن عمرو (٢/٢٥)، ورواه البيهقي في الزهد الكبير (٢٠٤) .

(٥) رواه أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو برقم (٦٦٥٠) والطبراني في الكبير (١٤٥٧)، قال الهيثمي في المجمع: له في الكبير أسانيد، رجال أحدها رجال الصحيح .

(٦) رواه الترمذي عن كثير بن عبد الله بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده برقم (٢٦٣٠) وقال: حديث حسن صحيح. ورواه الطبراني في الكبير عنه بمثله (١٣٤٨٩) .

(٧) «شرح مسلم للنووي» (٢/٣٥٤) .

(٨) «حاشية أبي الحسن السندي على سنن ابن ماجه» (٤/٣٤٩) .

مَئَابٍ﴾، فَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ مَعْنَاهُ **فَرَحٌ وَقُرَّةُ عَيْنٍ**. وَقَالَ عِكْرِمَةُ : **نِعْمَ مَا لَهُمْ**. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: **غِبْطَةٌ لَهُمْ**. وَقَالَ قَتَادَةُ: **حُسْنَى لَهُمْ**. وَعَنْ قَتَادَةَ أَيْضاً مَعْنَاهُ **أَصَابُوا خَيْرًا**. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: **خَيْرٌ لَهُمْ وَكَرَامَةٌ**. وَقَالَ ابْنُ عَجْلان: **دَوَامُ الْخَيْرِ**. وَقِيلَ: **الْجَنَّةُ** . وَقِيلَ: **شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ**. وَكُلُّ هَذِهِ الأَقْوَال مُحْتَمَلَةٌ فِي الْحَدِيث، وَاللَّهُ أَعْلَمُ [(١)] .

وَالْغُرَبَاءُ: جَمْعُ «غَرِيْبٍ» وَهُوَ الْبَعِيدُ عَنِ الْوَطَنِ، وسُمِّيَ الإِسْلامُ أَوَّلَ الأَمْرِ غَرِيْباً لِبُعْدِهِ عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الشِّرْكِ وأَعْمَالِ الْجَاهِلِيَّةِ، ويَعُودُ غَرِيْباً لِفَسَادِ النَّاسِ آخِراً، وظُهُورِ الْفِتَنِ، وبُعْدِهِمْ عَنِ الْقِيَامِ بِوَاجِبِ الإِيْمَانِ [(٢)] .

قوله (**النُّزَّاعُ مِنَ الْقَبَائِلِ**) هُمُ الَّذِينَ نَزَعُوا عَنْ أَهْلِيهِم وعَشِيرَتِهِمْ وبَعُدُوا عَنْهُمْ لإِقَامَةِ سُنَنِ الإِسْلامِ، لأَنَّهُ لا يَسْلَمُ دِينُهُم في ذَلِكَ الزَّمَانِ إِلاَّ بذَلِكَ، كَمَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرفُوعاً، قَالَ:" **يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لا يَسْلَمُ لِذِيْ دِيْنٍ دِيْنُهُ إِلاَّ رَجُلٌ يَفِرُّ بدِيْنِهِ مِنْ قَرْيَةٍ إِلى قَرْيَةٍ، وَمِنْ شَاهِقٍ إِلى شَاهِقٍ، وَمِنْ جُحْرٍ إِلى جُحْرٍ**." [(٣)]، وَقَدْ جَاءَ في فَضْلِهِمْ أَيْضاً مَا رَوَاهُ أَبُو مَالِكٍ الأَشْعَرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُول اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:" **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اسْمَعُوا وَاعْقِلُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عِبَادًا لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ وَلا شُهَدَاءَ، يَغْبِطُهُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ عَلَى مَجَالِسِهِمْ وَقُرْبِهِمْ مِنَ اللَّهِ**، .." فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "**هُمْ نَاسٌ مِنْ أَفْنَاءِ**[(٤)] **النَّاسِ وَنَوَازِعِ الْقَبَائِلِ، لَمْ تَصِلْ بَيْنَهُمْ أَرْحَامٌ مُتَقَارِبَةٌ، تَحَابُّوا فِي اللَّهِ وَتَصَافَوْا، يَضَعُ اللَّهُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ فَيُجْلِسُهُمْ عَلَيْهَا، فَيَجْعَلُ وُجُوهَهُمْ نُورًا،**

---

(١) «شرح مسلم للنووي» (٢/٣٥٢) .

(٢) «حاشية السيوطي على سنن ابن ماجة» (١/٢٨٧) .

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» عن ابن مسعود (١/٢٥) و(٢/١١٨) ورواه البيهقي في «الزهد الكبير» عن أبي هريرة (٤٣٩) ؛ وقال بعده: "**فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ كَانَ هَلاكُ الرَّجُلِ عَلَى يَدَيْ زَوجَتِهِ وَوَلَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ ولا وَلَدٌ كَانَ هَلاكُهُ عَلَى يَدَيْ أَبَوَيْهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَبَوَانِ كَانَ هَلاكُهُ عَلَى يَدَيْ قَرَابَتِهِ أَوِ الْجِيْرَانِ**." قَالُوا: كَيفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ:" **يُعَيِّرُونَهُ بِضِيقِ الْمَعِيْشَةِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يُورِدُ نَفْسَهُ الْمَوَارِدَ الَّتِيْ يُهْلِكُ فِيهَا نَفْسَهُ**."، وقال ابن تيمية: هذا اللفظ ليس معروفاً عن النبي ﷺ .

(٤) يقال: فلانٌ من أَفنَاءِ الناس إذا لم تُعيَّن قَبيلَتُه. «فتح الباري» (٦/٣١٧) .

وَثِيَابَهُمْ نُورًا، يَفْزَعُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يَفْزَعُونَ، وَهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ " [١] .

قوله (الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِي مِنْ سُنَّتِي) أَيْ يَعْمَلُونَ بِهَا وَيُظْهِرُونَهَا عَلَى قَدْرِ طَاقَتِهِم، فَهَذَا الرَّجُلُ يُصْبِحُ فِي قَومِهِ مُعْتَزَلاً مَهْجُوراً كَالغَرِيب، لأَنَّهَا سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ فِي الرُّسُلِ وَالأَنْبِيَاء، ولَكِنَّ اللَّهَ يُعِينُهُم، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِين[٢]؛ وقَالَ حُذَيفَةُ ﵁: " يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لأَنْ يَكُونَ جِيْفَةُ حِمَارٍ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ مُؤْمِنٍ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ. " [٣]، وَفِيهِ تَنْبِيْهٌ عَلَى أَنَّ نُصْرَةَ الإِسْلامِ وَالْقِيَامَ بِأَمْرِهِ يَصِيرُ مُحْتَاجاً إِلى التَّغَرُّبِ عَنِ الأَوْطَانِ وَالصَّبرِ عَلَى مَشَاقِّ الْغُرْبَةِ، كَمَا كَانَ فِي أَوَّلِ الأَمْرِ [٤] .

مَعْنَى الْحَدِيْثِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ

بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا قَبْلَ مَبْعَثِهِ عَلَى ضَلالَةٍ عَامَّةٍ، كَمَا قَالَ ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلى أَهْلِ الأَرْضِ، فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلاَّ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ " [٥]. فَلَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ ودَعَا إِلى الإِسْلامِ، لَمْ يَسْتَجِبْ لَهُ فِي أَوَّلِ الأَمْرِ إِلاَّ الْوَاحِدُ بَعْدَ الْوَاحِدِ مِنْ كُلِّ قَبِيْلَةٍ، وَكَانَ الْمُسْتَجِيبُ لَهُ خَائِفاً مِنْ عَشِيرَتِهِ وَقَبِيْلَتِهِ، يُؤْذَى غَايَةَ الأَذَى، ويُنَالُ مِنْهُ وَهُوَ صَابِرٌ عَلَى ذَلِكَ فِي اللَّهِ ﷻ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ إِذْ ذَاكَ مُسْتَضْعَفِينَ يُشَرَّدُونَ كُلَّ مُشَرَّدٍ، وَيَهْرُبُونَ بِدِينِهِم إِلى الْبِلادِ النَّائِيَةِ كَمَا هَاجَرُوا إِلى الْحَبَشَةِ، وَكَانَ مِنْهُم مَنْ يُعذَّبُ فِي

(١) رواه أحمد في مسنده برقم (٢٢٩٥٧) وأبو يعلى في مسنده (٦١١٠) بإسناد حسن. ورواه الحاكم في المستدرك (٧٣١٨) وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي. وحسنه الحافظ المنذري في الترغيب .

(٢) «إنجاح الحاجة شرح سنن ابن ماجه» للعلامة عبدالغني المجددي الدهلوي (١ / ٢٨٧) .

(٣) «إحياء علوم الدين» (٢/٤٣٩) .

(٤) «حاشية أبي الحسن السندي على سنن ابن ماجه» (٤/٣٤٩) .

(٥) رواه مسلم عن عياض بن حمار المجاشعي (٧٣٨٦) .

اللَّهِ، وَمِنْهُم مَنْ يُقْتَلُ، فَكَانَ الدَّاخِلُونَ في الإسْلامِ حِينَئِذٍ غُرَبَاءَ في إيْمَانِهم باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَحْدَهُ ومُجَانَبَتِهِم طَرِيقَةَ أَهْلِ الشِّرْكِ، وفي دَعْوَتِهِم إلى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإلى الإسْلامِ، ثُمَّ ظَهَرَ الإسْلامُ بَعْدَ الْهِجْرَةِ إلى الْمَدِينَةِ، وعَزَّ وصَارَ أَهْلُهُ ظَاهِرِينَ كُلَّ الظُّهُورِ، ودَخَلَ النَّاسُ بَعْدَ ذَلِكَ في دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً، وأَكْمَلَ اللَّهُ لَهُمْ دِيْنَهُم، وأَتَمَّ عَلَيهِمُ النِّعْمَةَ ؛ وتُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ والأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ، وأَهْلُ الإسْلامِ عَلَى غَايَةٍ في الاسْتِقَامَةِ في دِينِهِم، وهُمْ مُتَعَاضِدُونَ مُتَنَاصِرُونَ – وقَائِمُونَ بِنُصْرَةِ دِيْنِهِم وتَبْلِيغِ رِسَالَةِ اللَّهِ إلى خَلْقِهِ، ومُضَحُّونَ في سَبِيلِ ذَلِكَ بِأَمْوَالِهِم وأَنْفُسِهِم – وكَانُوا عَلَى ذَلِكَ في زَمَنِ أَبِيْ بَكْرٍ وعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا .

ثُمَّ أَعْمَلَ الشَّيطانُ مَكَائِدَهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وأَلْقَى بَأْسَهُم بَينَهُم، وأَفْشَى بَينَهُمُ الشُّبُهَاتِ والشَّهَوَاتِ، ولَمْ تَزَلْ هَاتَانِ الفِتْنَتَانِ تَتَزَايَدَانِ شَيئاً فَشَيئاً حَتَّى اسْتَحْكَمَتْ مَكِيدَةُ الشَّيطَانِ، وأَطَاعَهُ أَكْثَرُ الْخَلْقِ، فَمِنهُم مَنْ دَخَلَ في طَاعَتِهِ في فِتْنَةِ الشُّبُهَاتِ، ومِنهُم مَنْ دَخَلَ في فِتْنَةِ الشَّهَوَاتِ، ومِنهُم مَنْ جَمَعَ بَينَهُمَا، وكُلُّ ذَلِكَ مِمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِوُقُوعِهِ .

فأَمَّا فتنةُ الشُّبُهَاتِ، فَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ غَيرِ وَجْهٍ أَنَّ أُمَتَهُ سَتَفْتَرِقُ عَلَى أَزْيَدَ مِنْ سَبْعِينَ فِرْقَةً عَلَى اخْتِلافِ الرِّوَايَاتِ في عَدَدِ الزِّيَادَاتِ عَلَى السَّبعِينَ، وأَنَّ جَمِيعَ تِلْكَ الْفِرَقِ في النَّارِ إلاَّ فِرْقَةً واحِدَةً، وهِيَ مَا كَانَتْ عَلَى مَا هُوَ عَلَيهِ وأَصْحَابُهُ [(١)] .

وأَمَّا فِتْنَةُ الشَّهَوَاتِ فَعَنْ عَبدِ اللَّهِ بْنِ عَمرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: **"كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا فُتِحَتْ عَلَيْكُمْ خَزَائِنُ فَارِسَ وَالرُّوْمِ، أَيُّ قَوْمٍ أَنْتُم ؟"** قَالَ عَبدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : نَقُولُ كَمَا أَمَرَنَا اللَّهُ، قَالَ: **"أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ ؟! تَتَنَافَسُونَ ثُمَّ تَتَحَاسَدُونَ ثُمَّ تَتَدَابَرُونَ "**[(٢)]. وعَنْ عَمْرِو بْنِ عَوفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: **"فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي**

---

(١) رواه أحمد في مسنده عن أنس بن مالك (١٢٤٧٩) و(١٦٩٣٧) وابن ماجه (٣٩٩٣) قال في الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات، ورواه الترمذي عن عبدالله بن عمرو (٢٦٤١) وقال: حديث حسن، وأبو داوود عن معاوية (٤٥٩٩) .

(٢) رواه مسلم برقم (٢٩٦٢) وزاد:" **ثُمَّ تَتَبَاغَضُونَ أَوْ نَحْوَ ذَلِك، ثُمَّ تَنْطَلِقُونَ فِيْ مَسَاكِيْنِ الْمُهَاجِرِينَ فَتَجْعَلُونَ بَعْضَهُم عَلَى رِقَابِ بَعْضٍ** " .

أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ." [(١)]، ولَمَّا فُتِحَتْ كُنُوزُ كِسْرَى عَلَى عُمَرَ بنِ الخَطَّاب رضي الله عنه بَكَى، وقَالَ:" **إِنَّ هَذَا لَمْ يُفْتَحْ عَلَى قَوْمٍ قَطُّ إلاَّ جَعَلَ الله بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ."** أَوْ كَمَا قَالَ [(٢)]. ولَمْ يَنْجُ مِنْ هَاتَينِ الفِتْنَتَيْنِ إلاَّ عِبَادُ الله الْمُخْلَصُونَ الَّذِينَ نَهَجُوا نَهْجَ السَّابِقِينَ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، وسَلَكُوا مَسْلَكَهُمْ في تَعَلُّمِ الدِّينِ والْعَمَلِ بِهِ وتَبْلِيغِهِ إلى النَّاسِ كَافَّةً، والتَّضْحِيَةِ بالْغَالِي وَالنَّفِيسِ لِتَبْلِيغِ رِسَالاتِ الله إلى خَلْقِهِ، فأُوْلَئِكَ كَانُوا غُرَبَاءَ حَيْثُ لَمْ يُقَدِّمُوا عَلَى مَحْبُوبَاتِ الله سبحانه وتعالى شَيْئاً مِنْ مَحْبُوبَاتِ أَنْفُسِهِم، بَلْ مَاتُوا وحَاجَاتُهُم في صُدُورِهِم كَيْ تَحْيَا أَوَامِرُ الله سبحانه وتعالى في خَلْقِهِ، كَمَا وَصَفَهُمُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بِقَولِهِ: **"سَيَأْتِي أُنَاسٌ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ نُورُهُمْ كَضَوْءِ الشَّمْسِ "**. قُلْنَا: مَنْ أُولَئِكَ يَا رَسُولَ الله؟ فَقَالَ:" **فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ تُتَّقَى بِهِمُ الْمَكَارِهُ، يَمُوتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَتُهُ فِي صَدْرِهِ، يُحْشَرُونَ مِنْ أَقْطَارِ الأَرْضِ"** [(٣)]. فَهَؤُلاءِ خَرَجُوا في أَرْجَاءِ الْمَعْمُورَةِ، مُضَحِّينَ بحَاجَاتِهِم وضَرُورَاتِهِم كَيْ تَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ الْعُلْيَا، ومَاتُوا في سَبِيلِ ذَلِكَ، حَتَّى يُحْشَرُوا يَومَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَقْطَارِ الأَرْضِ، فَمَنْ مَشَى عَلَى طَرِيقِهِم في زَمَانٍ تَتَزَيَّنُ فِيهِ الشَّهَوَاتُ وتَتَلوَّنُ فِيهِ الشُّبُهَاتُ كَانَ مِنَ الْغُرَبَاءِ، ونَالَ مَوْعُودَ الله ورَسُولِهِ عَلَى هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ، وهَؤُلاءِ هُمُ الَّذِينَ يَصْلُحُونَ حِينَ فَسَادِ النَّاسِ، ويَسْعَوْنَ لإِصْلاحِ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنَ السُّنَّة، وهُمْ قَلِيلٌ جداً بالنِّسْبَةِ لِغَيرِهِم، كَمَا كَانَ الحَسَنُ رحمه الله يَقُولُ لأَصْحَابِهِ:" **يَا أَهْلَ السُّنَّة تَرَفَّقُوْا – رَحِمَكُمُ الله – فَإِنَّكُمْ مِنْ أَقَلِّ النَّاسِ."**؛ وَالسُّنَّةُ هِيَ الطَّرِيقَةُ النَّبَوِيَّةُ الْكَامِلَةُ السَّالِمَةُ مِنَ الشَّهَوَاتِ وَالشُّبُهَاتِ، ولِهَذَا وُصِفَ أَهْلُهَا بالْغُرْبَةِ في آخِرِ الزَّمَانِ، لِقِلَّتِهِمْ وغُرْبَتِهِمْ فِيهِ، ولِهَذَا وَرَدَ في تَفْسِيرِ الْغُرَبَاءِ أَنَّهُم: **"قَوْمٌ صَالِحُونَ قَلِيْلٌ فِيْ نَاسِ سُوْءٍ كَثِيْرٍ، مَنْ يَعْصِيْهِمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُطِيْعُهُمْ ."** وفي هَذَا إِشَارَةٌ إلى قِلَّةِ عَدَدِهِم وقِلَّةِ

---

(١) رواه البخاري برقم (٢٩٨٨) و(٣٧٩١) و(٦٠٦١) ورواه مسلم برقم (٢٩٦١) .

(٢) «كشف الكربة في وصف أهل الغربة» لابن رجب الحنبلي بتصرف يسير. ص (٣– ٥) .

(٣) رواه أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو برقم (٦٦٥٠) والطبراني في الأوسط برقم (٨٩٨٥) قال المنذري في الترغيب: أحد إسنادي الطبراني رواته رواة الصحيح .

الْمُسْتَجِيبِينَ لَهُمْ والْقَابِلِينَ مِنهُم وكَثْرَةِ الْمُخَالِفِينَ والْعَاصِينَ لَهُم، ولِهَذَا جَاءَ فِي أَحَاديثَ مُتَعَدِّدَةٍ مَدْحُ الْمُتَمَسِّكِ بدِينِهِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، وأَنَّهُ كَالقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ، وأَنَّ لِلْعَامِلِ مِنْهُمْ أَجْرَ خَمْسِينَ مِمَّنْ قَبْلَهُمْ، لأَنَّهُمْ لا يَجِدُونَ عَلَى الْحَقِّ أَعْوَاناً .

وهَؤُلاءِ الْغُرَبَاءُ قِسْمَانِ :

أَحَدُهُمَا: مَنْ يُصْلِحُ نَفْسَهُ عِنْدَ فَسَادِ النَّاسِ .

وَالثَّانِيْ: مَنْ يُصْلِحُ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ، وهُوَ أَعْلَى الْقِسْمَيْنِ وأَفْضَلُهُمَا [(١)] .

فَالْمُؤْمِنُ فِي الدُّنْيَا كَالغَرِيبِ الْمُجْتَازِ بِبَلْدَةٍ غَيرِ مُستَوطِنٍ فِيهَا، فَهُوَ يَشْتَاقُ إِلى بَلَدِهِ، وهَمُّهُ الرُّجُوعُ إِلَيهِ، والتَّزَوُّدُ بمَا يُوصِلُهُ فِي طَرِيقِهِ إِلى وَطَنِهِ، ولا يُنَافِسُ أَهْلَ ذَلِكَ البَلَدِ الْمُسْتَوْطِنِينَ فِيهِ فِي عِزِّهِم، ولا يَجْزَعُ مِمَّا أَصَابَهُ عِندَهُم مِنَ الذُّلِّ . قَالَ الحَسَنُ رَحِمَهُ اللهُ : "**الْمُؤْمِنُ فِيْ الدُّنْيَا كَالْغَرِيبِ لا يَجْزَعُ مِنْ ذُلِّهَا، وَلا يُنَافِسُ فِيْ عِزِّهَا، لَهُ شَأْنٌ وَلِلنَّاسِ شَأْنٌ**" [(٢)]. فهَؤُلاءِ هُمُ الْغُرَبَاءُ الْمَمْدُوحُونَ الْمَغْبُوطُونَ، ولِقِلَّتِهِم فِي النَّاسِ جِدّاً سُمُّوا غُرَبَاءَ، فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ عَلَى غَيرِ هَذِهِ الصِّفَاتِ، فَأَهْلُ الإِسْلامِ فِي النَّاسِ غُرَبَاءُ، وَالْمُؤْمِنُونَ فِي أَهْلِ الإِسْلامِ غُرَبَاءُ، وأَهْلُ الْعِلْمِ فِي الْمُؤْمِنِينَ غُرَبَاءُ، وأَهْلُ السُّنَّةِ الَّذِينَ يُمَيِّزُونَهَا مِنَ الأَهْوَاءِ والْبِدَعِ فَهُم غُرَبَاءُ، وَالدَّاعُونَ إِلَيْهَا الصَّابِرُونَ عَلَى أَذَى الْمُخَالِفِينَ هُمْ أَشَدُّ هَؤُلاءِ غُرْبَةً، ولَكِنَّ هَؤُلاءِ هُمْ أَهْلُ اللهِ حَقّاً، فَلا غُرْبَةَ عَلَيهِم، وإِنَّمَا غُرْبَتُهُمْ بَيْنَ الأَكْثَرِينَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِم: ﴿ **وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ** ﴾ **[الأنعام: ١١٦]**. فَأُولَئِكَ هُمُ الْغُرَبَاءُ عَنِ اللهِ ورَسُولِهِ ودِيْنِهِ، وغُرْبَتُهُمْ هِيَ الْغُرْبَةُ الْمُوْحِشَةُ، وإِنْ كَانُوا هُمُ الْمَعْرُوفِينَ الْمُشَارَ إِلَيْهِمْ [(٣)] .

---

(١) «كشف الكربة في وصف أهل الغربة» ص (٨– ٩) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه برقم (٣٥٢١٠) .

(٣) «مدارج السالكين» (١٥٧/٣) .

فائـــــــدة

قَالَ الإِمَامُ الغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : "اعْلَمْ أَنَّ كُلَّ قَاعِدٍ فِيْ بَيْتِهِ – أَيْنَمَا كَانَ – فَلَيسَ خَالِياً في هَذَا الزَّمَانِ عَنْ مُنْكَرٍ، مِنْ حَيثُ التَّقَاعُدُ عَنْ إرْشَادِ النَّاسِ وتَعْلِيمِهِم وحَمْلِهِم عَلَى الْمَعْرُوفِ، فأَكْثَرُ النَّاسِ جَاهِلُونَ بالشَّرعِ فِي شُرُوطِ الصَّلاةِ وفِي الْبِلادِ، فكَيفَ فِي القُرَى والبَوَادِي ؟ وَمِنْهُمُ الأَعْرَابُ والأَكْرَادُ وَالتُّرْكُمَانِيَّةُ وسَائِرُ أَصْنَافِ الخَلْقِ .

ووَاجِبٌ أَنْ يَكُونَ فِي مَسْجِدٍ ومَحَلَّةٍ مِنَ الْبَلَدِ فَقِيهٌ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُم، وكَذَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ، ووَاجِبٌ عَلَى كُلِّ فَقِيهٍ فَرَغَ مِنْ فَرْضِ عَيْنِهِ وتَفَرَّغَ لِفَرْضِ كِفَايَتِهِ أَنْ يَخْرُجَ إلى مَنْ يُجَاوِرُ بَلَدَهُ مِنْ أَهْلِ السَّوَادِ، ومِنَ الْعَرَبِ والأَكْرَادِ وغَيرِهِم، ويُعَلِّمَهُمْ دِينَهُم وفَرَائِضَ شَرْعِهِم، ويَسْتَصْحِبَ مَعَ نَفْسِهِ زَاداً يَأْكُلُهُ، ولا يَأْكُلَ مِنْ أَطْعِمَتِهِم فَإِنَّ أَكْثَرَهَا مَغْصُوبٌ، فَإِنْ قَامَ بِهَذَا الأَمْرِ وَاحِدٌ سَقَطَ الْحَرَجُ عَنِ الآخَرِينَ، وإلاَّ عَمَّ الْحَرَجُ الْكَافَّةَ أَجْمَعِينَ، أَمَّا الْعَالِمُ فَلِتَقْصِيرِهِ فِي الْخُرُوجِ، وأَمَّا الجَاهِلُ فَلِتَقْصِيرِهِ فِي تَرْكِ التَّعَلُّمِ .

وكُلُّ عَامِّيٍّ عَرَفَ شُرُوطَ الصَّلاةِ فَعَلَيْهِ أَنْ يُعَرِّفَ غَيرَهُ، وإلاَّ فَهُوَ شَرِيكٌ فِي الإِثْمِ، ومَعْلُومٌ أَنَّ الإِنْسَانَ لا يُولَدُ عَالِماً بالشَّرْعِ ؛ وإِنَّمَا يَجِبُ التَّبْلِيْغُ عَلَى أَهْلِ العِلْمِ، فَكُلُّ مَنْ تَعَلَّمَ مَسْأَلَةً وَاحِدَةً فَهُوَ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ بِهَا، وَلَعَمْرِي الإِثْمُ عَلَى الْفُقَهَاءِ أَشَدُّ، لأَنَّ قُدْرَتَهُم فِيهِ أَظْهَرُ، وهُمْ بِصِنَاعَتِهِم أَلْيَقُ، لأَنَّ الْمُحْتَرِفِينَ لَوْ تَرَكُوا حِرْفَتَهُم لَبَطَلَتِ الْمَعَايِشُ، فَهُم قَدْ تَقَلَّدُوا أَمْراً لا بُدَّ مِنْهُ فِي إِصْلاحِ الْخَلْقِ، وشَأْنُ الْفَقِيهِ وحُرْفَتُهُ تَبْلِيغُ مَا بَلَغَهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ .

وَلِلإِنْسَانِ أَنْ يَقْعُدَ فِي بَيتِهِ ولا يَخْرُجَ إلى الْمَسْجِدِ لأَنَّهُ يَرَى النَّاسَ لا يُحْسِنُونَ الصَّلاةَ، بَلْ إِذَا عَلِمَ ذَلِكَ وَجَبَ عَلَيهِ الْخُرُوجُ لِلتَّعْلِيمِ والنَّهْيِ، وكَذَا كُلُّ مَنْ تَيَقَّنَ أَنَّ فِي السُّوقِ مُنْكَراً يَجْرِي عَلَى الدَّوَامِ أَوْ فِي وَقْتٍ بعَيْنِهِ وهُوَ قَادِرٌ عَلَى تَغْيِيرِهِ، فَلا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يُسْقِطَ ذَلِكَ عَنْ نَفْسِهِ بِالْقُعُودِ فِي الْبَيْتِ، بَلْ يَلْزَمُهُ الْخُرُوجُ، فَإِنْ كَانَ لا يَقْدِرُ عَلَى تَغْيِيرِ الْجَمِيعِ وهُوَ مُحْتَرِزٌ عَنْ مُشَاهَدَتِهِ ويَقْدِرُ عَلَى الْبَعْضِ لَزِمَهُ الْخُرُوجُ، لأَنَّ خُرُوجَهُ إِذَا كَانَ

لأَجْلِ تَغْيِيرِ مَا يَقْدِرُ عَلَيهِ فَلا يَضُرُّهُ مُشَاهَدَةُ مَا لا يَقْدِرُ عَلَيهِ، وإِنَّمَا يُمْنَعُ الْحُضُورُ لِمُشَاهَدَةِ الْمُنْكَرِ مِنْ غَيْرِ غَرَضٍ صَحِيْحٍ .

فَحَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَبْدَأَ بنَفْسِهِ فَيُصْلِحَهَا بالْمُوَاظَبَةِ عَلَى الْفَرَائِضِ وتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ، ثُمَّ يُعَلِّمَ ذَلِكَ أَهْلَ بَيْتِهِ، ثُمَّ يَتَعَدَّى بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنْهُم إلى جيرَانِهِ، ثُمَّ إلى أَهْلِ مَحَلَّتِهِ، ثُمَّ إلى أَهْلِ بَلَدِهِ، ثُمَّ إلى أَهْلِ السَّوَادِي الْمُكْتَنِفِ ببَلَدِهِ، ثُمَّ إلى أَهْلِ الْبَوَادِي مِنَ الأَكْرَادِ وَالْعَرَبِ وغَيرِهِم، وهَكَذَا إلى أَقْصَى الْعَالَمِ، فَإِنْ قَامَ بِهِ الأَدْنَى سَقَطَ عَنِ الأَبْعَدِ، وإلاَّ حُرِّجَ بِهِ عَلَى كُلِّ قَادِرٍ عَلَيهِ قَرِيْباً كَانَ أَوْ بَعِيْداً، ولا يَسْقُطُ الْحَرَجُ مَا دَامَ يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ جَاهِلٌ بفَرْضٍ مِنْ فُرُوضِ دِيْنِهِ، وهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَسْعَى إِلَيْهِ بنَفْسِهِ أَوْ بغَيْرِهِ فَيُعَلِّمَهُ فَرْضَهُ، وهَذَا شُغْلٌ شَاغِلٌ لِمَنْ يُهِمُّهُ أَمْرُ دِيْنِهِ، يَشْغَلُهُ عَنْ تَجْزِئَةِ الأَوْقَاتِ فِي التَّفْرِيْعَاتِ النَّادِرَةِ فِي دَقَائِقِ الْعُلُومِ الَّتِي هِيَ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَاتِ، ولا يَتَقَدَّمُ عَلَى هَذَا إلاَّ فَرْضُ عَيْنٍ أَوْ فَرْضُ كِفَايَةٍ هُوَ أَهَمُّ مِنْهُ " [١] .

*****

(١) «إحياء علوم الدين» (٢/٤٨١– ٤٨٢) .

خَاتِمَة

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، فَنَخْتِمُ بِهَذِهِ الآيَةِ، حَامِدِيْنَ لِلَّهِ، مُثْنِيْنَ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، وَبِمَا أَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ؛ وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِيْنَ حَمْداً طَيِّباً مُبَارَكاً فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَكَمَا يَنْبَغِيْ لِكَرَمِ وَجْهِهِ وَعِزِّ جَلالِهِ غَيْرَ مَكْفِيٍّ وَلا مَكْفُورٍ وَلا مُوَدَّعٍ وَلا مُسْتَغْنىً عَنْهُ رَبَّنَا .

وَنَسْأَلُهُ أَنْ يُوْزِعَنَا شُكْرَ نِعْمَتِهِ، وَأَنْ يُوَفِّقَنَا لأَدَاءِ حَقِّهِ، وَأَنْ يُعِيْنَنَا عَلَى ذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ وَإِلى دِيْنِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ، وَأَنْ يَجْعَلَ مَا قَصَدْنَا بِهِ فِيْ هَذَا الْكِتَابِ وَفِيْ غَيْرِهِ خَالِصاً لِوَجْهِهِ الْكَرِيْمِ وَنَصِيحَةً لِعِبَادِهِ .

فَيَا أَيُّهَا الْقَارِئُ لَهُ، لَكَ غُنْمُهُ وَعَلَى مُؤَلِّفِهِ غُرْمُهُ، لَكَ ثَمَرَتُهُ وَعَلَيْهِ تَبِعَتُهُ، فَمَا وَجَدْتَ فِيْهِ مِنْ صَوَابٍ وَحَقٍّ فَاقْبَلْهُ وَلا تَلْتَفِتْ إِلى قَائِلِهِ، بَلِ انْظُرْ إِلى مَا قَالَ لا إِلى مَنْ قَالَ، وَقَدْ ذَمَّ اللهُ ﷻ مَنْ يَرُدُّ الْحَقَّ إِذَا جَاءَ بِهِ مَنْ يُبْغِضُهُ، وَيَقْبَلُهُ إِذَا قَالَهُ مَنْ يُحِبُّهُ، فَهَذَا خُلُقُ الأُمَّةِ الْغَضَبِيَّةِ، قَالَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ: "**اقْبَلِ الْحَقَّ مِمَّنْ قَالَهُ وَإِنْ كَانَ بَغِيْضاً، وَرُدَّ الْبَاطِلَ عَلَى مَنْ قَالَهُ وَإِنْ كَانَ حَبِيْباً** " .

وَالصَّوَابُ مِنَ اللهِ ﷻ وَحْدَهُ، وَهُوَ الْمَانُّ بِهِ، وَمَا كَانَ فِيْهِ مِنْ خَطَإٍ فَمِنْ نَفْسِيْ وَالشَّيْطَانِ، وَاللهُ بَرِيْءٌ مِنْهُ وَرَسُولُهُ، وَلَمْ آلُ جُهْدَ الإِصَابَةِ، وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يَنْفَرِدَ بِالْكَمَالِ، كَمَا قِيْلَ :

وَالنَّقْصُ فِيْ أَصْلِ الطَّبِيْــعَةِ كَامِــنٌ فَبَنُو الطَّبِيْعَةِ نَقْصُهُــمْ لا يُجْحَــدُ

وَكَيْفَ يُعْصَمُ مِنَ الْخَطَإِ مَنْ خُلِقَ ظَلُوماً جَهُولاً ؟! وَلَكِنْ مَنْ عُدَّتْ غَلَطَاتُهُ أَقْرَبُ إِلى الصَّوَابِ مِمَّنْ عُدَّتْ إِصَابَاتُهُ (١) .



*****

(١) «مدارج السالكين» (٣/٤١٠) .

فهرس

باب فضل العبادات في الخروج في سبيل الله

باب فضل الغربة والهجرة في سبيل الله


إتحاف السادة المبلغين
شرح أربعين حديثا في فضائل
الخروج في سبيل الله
لإقامة الدين
جمع وتأليف
سليمان العايدي